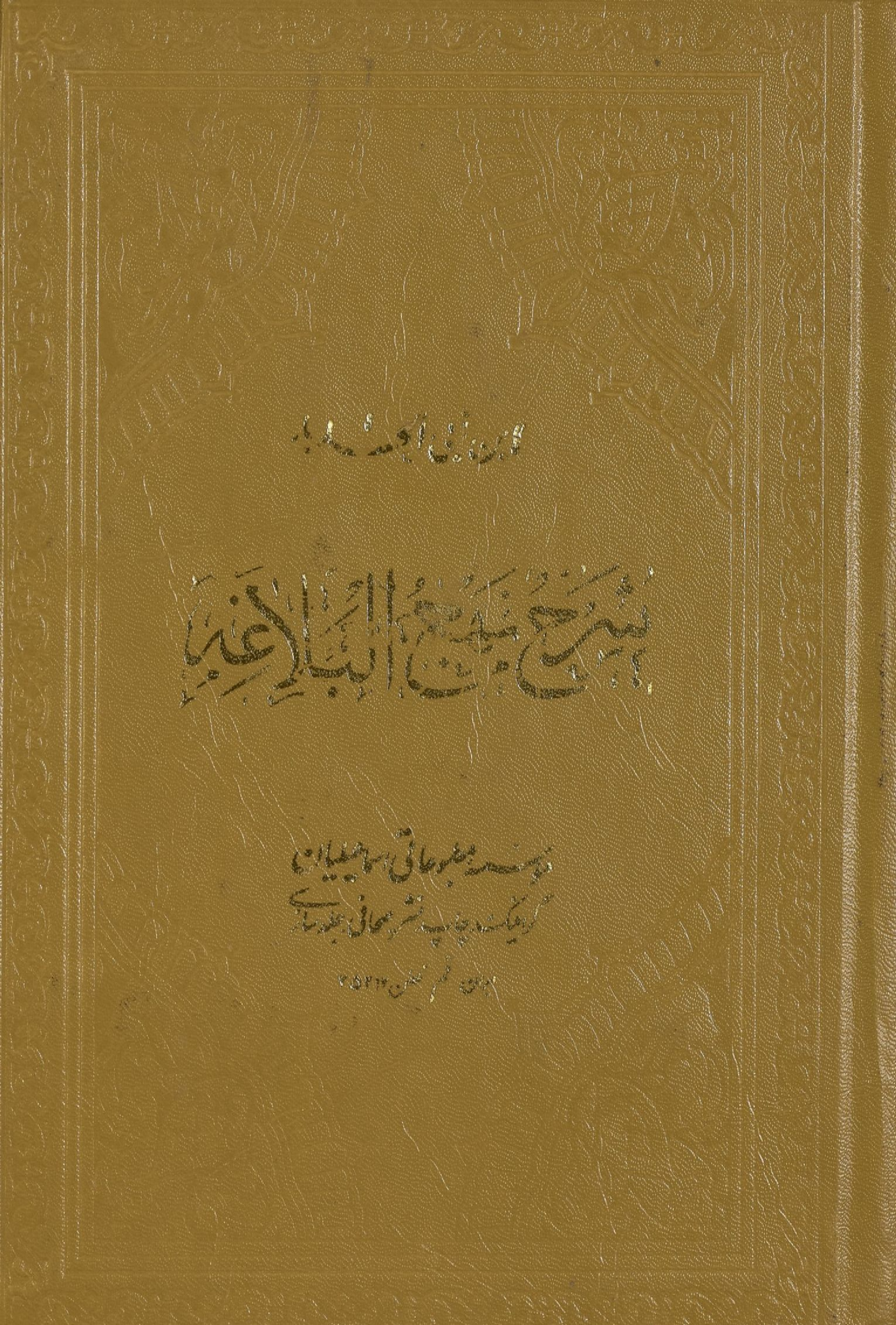

ابن ابی الحدید
شرح نهج البلاغه
موسسه مطبوعاتی اسماعیلیان

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الثالث

دار احياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه



بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

رجعت فى تحقيق هذا الجزء إلى النسخ التى سبق لى وصفها فى مقدمتى الجزء الأول والثانى ، وأثبت من فروقها مايعين على التحقيق ، ويوضح المبهم من المعانى ، والمشكل من النصوص ، كما أثبت من حواشيها ما رأيته مفيدا ونافعا .

وقد رسمت لنفسى منهجا : ألا أنقطع عن النظر فيما يتم طبعه من أجزاء هذا الكتاب ؛ كلما رأيت مجالا للتصحيح ، أو موضعا للتعليق ، أو سبيلا إلى الاستدراك والتعقيب ؛ مما يتهيأ لى من مراجعة مايجد من النسخ ؛ أو أحصل عليه من الأصول ، أو يتبين لى من توجيه الرأى عند معاودة النظر ؛ أو يظهر من أخطاء الطبع ؛ أو ينبهنى إليه إخوانى من العلماء والفضلاء الغُيُر على العربية وآدابها ؛ وأن أثبت كل هذا تباعا فى باب الاستدراك والتعقيب ؛ فى آخر كل جزء من أجزاء الكتاب .

وقد تفضل الأستاذ السيد مكى السيد جاسم ؛ أحد فضلاء العراق ؛ فنقد الجزء الأول نقداً دلّ على علمه وفضله وسعة اطلاعه ؛ وقد أفدت من هذا النقد فوائد قيمة ؛ أثبتّها فى آخر هذا الجزء فيما أثبته من ملاحظات .

وأرجو - مع فسحة الأجل - أن أظلّ على هذا المنهج ؛ قضاء لحق العلم ، وكفاء لهذا الكتاب العتيد .

والله الموفق للخير ؛ وهو الهادى إلى طريق الصواب .

١٠ المحرم سنة ١٣٧٩ هـ
١٦ يوليه سنة ١٩٥٩ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ — ٦٥٦)

الجزء الثالث

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الكريم .

واعلم أنّ الذى ذكره المرتضى رحمه الله تعالى ، وأورده على قاضى القضاة[1] جيّد ولازم ؛ متى ادّعى قاضى القضاة أنّ العدالة إذا ثبتتْ ظنّا أو قطعا لم يجز العدُول عنها والتبرى إلّا بما يُوجِب القطع ، ويُعْلَم به علما يقينيا زوالُها ؛ فأمّا إذا ادّعى أنّ المعلوم لا يزول إلا بما يُوجب العلم ، فلا يرِدُ عليه ما ذكره المرتضى رحمه الله تعالى .

وله أن يقول : قد ثبتتْ بالإجماع إمامةُ عثمان ، والإجماع دليل قطعىّ عند أصحابنا ، وكلّ مَنْ ثبتتْ إمامتُه ثبتتْ عدالتُه بالطريق الّتى بها ثبتتْ إمامته ، لأنه لا يجوز أن تكونَ إمامتُه معلومةً وشرائطها مظنونة ؛ لأنّ الموقوفَ على المظنون مظنون ، فتكون إمامتُه مظنونة ، وقد فرضناها معلومة ، وهذا خُلْف ومُحال . وإذا كانت عدالتُه معلومة لم يجُز القولُ بانتفائها وزوالها إلّا بأمر معلوم .

والأخبارُ التى رُوِيتْ فى أحداثه أخبارُ آحاد لا تفيد العلْم ، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بها ، فهذا الكلامُ إذا رُتّب هذا الترتيب اندفعَ به ما اعترض به المرتضَى رحمه الله تعالى .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٤ من الجزء الثانى ، وما بعدها .

[بقية رد المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبار من الدفاع عن عثمان] (*)

فأمّا كلامُ المرتضَى رحمه الله تعالى عَلَى الفصل الثانى من كلام قاضى القضاة ، وهو الفصلُ المحكىّ عن شيخنا أبى علىّ رحمه الله تعالى ، فنحن نورده . قال رحمه الله تعالى (1) :

أما قوله : لو كان ما ذُكِرَ من الأحداث قادِحاً لوجب من الوقت الذى ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلًا ينصِبونه فى الإمامة ، لأنّ ظهورَ الحدَث كموته ، فلمّا رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث . فليس بشىء معتمد ؛ لأنّ تلك الأحداثَ وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته ، وفاسخةً لها ، ومقتضية لأنْ يعقدوا لغيره الإمامة ، (2) إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نَصْب غيره، (2) مع تشبّثه بالأمر؛ خوفا من الفتنة والتنازع والتجاذب ، وأرادوا أن يخلعَ نفسَه ، حتى تزولَ الشبهة ، وينشَط مَنْ يصلُح للأمر لقبول العَقْد والتكفُّل بالأمر . وليس يجرِى ذلك مجرَى موته ، لأنّ موته يَحْسِم الطمع فى استمرار ولايته ، ولا تبقى شبهة فى خلوّ الزمان من إمام . وليس كذلك حَدَثه الذى يَسُوغ فيه التأويل عَلَى بُعْده ، وتبقى معه الشّبهة فى استمرار أمره .

وليس نقولُ إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسَه ، بل الوجه فى عدولهم ما ذكرناه من إرادتهم حَسْمَ (3) المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة .

(*) تابع لما ورد فى الجزء الثانى ص ٣٢٨ وما بعدها .

(1) الشافى ٢٦٦ وما بعدها ؛ وعبارته فى أول هذا الفصل : « فأما عدّ الأحداث التى نقمت عليه، فنحن نتكلم عليها وعلى ما أورده من المعاذير فيها بمشيئة الله تعالى عند ذكره لذلك ؛ فأما ما حكاه عن أبى على من قوله : لو كان ما ذكره من الأحداث قادحا . . . . » . وانظر ص ٣٦٢ من الجزء الثانى

(2-2) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « فإنهم لم يقدموا على نصب غيره .. »

(3) ا : « لحسم » .

قال : فأمّا قوله : إنه معلومٌ من حال هـذه الأحداث أنّهـا لم تحصل أجمع فى الأيام التى حُصِر فيها وقُتِل ؛ بل كانت تقعُ حالًا بعـد حال ، فلو كانت توجِبُ الخلْع والبراءة ، لما تأخر من المسلمين الإنـكارُ عليـه ، ولـكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البـلاد . فلا شكّ أنّ الأحداثَ لم تحصُل فى وقت واحـد ؛ إلّا أنه غيرُ منكَر أن يكونَ نـكيرُهم إنّما تأخّر لأنهم تأوّلوا ما ورد عليهم من أفعـاله على أجمـل الوجوه ؛ حتى زاد الأمرُ وتفاقم ، و بَعُدَ التأويل ، وتعذّر التخريج ، ولم يبق للظنّ الجميل طريق ؛ فحينئذ أنـكروا ، وهـذا مستمرّ عَلَى ما قدّمنا ذكره ؛ من أنّ العدالة والطريقة الجميلة يُتأوّل لها فى الفعل والأفعال القليلة ، بحسب ما تقدّم من حُسْن الظن به ، ثم ينتهى الأمر [بعد ذلك][1] إلى بُعْدِ التأويل ، والعمل على الظاهر القبيح .

قال : عَلَى أنّ الوجهَ الصحيح فى هذا الباب أنّ أهل الحقّ كانوا معتقدين بخلعه من أول حَدَث ، بل معتقدين أنّ إمامته لم تثبت وقتا من الأوقات ، وإنمـا منعهم من إظهار ما فى نفوسهم ما قدّمناه من أسباب الخوف والتقيَّة ؛ لأن الاعتذارَ بالوجَل[2] كان عاما ، فلما تبيّنَ أمرُه حالا بعد حال ، وأعرضت الوجوهُ عنه ، وقلّ العاذرُ له ، قويت الـكلمة فى خَلعه . وهذا إنما كان فى آخر الأمر دونَ أوّلهِ ، فليس يقتضى الإمساكُ عنه إلى الوقت الذى وقع الـكلام فيه نِسْبةُ الخطأ إلى الجميع ؛ على ما ظنه .

قال : فأما[3] دفعُهُ بأن تـكون الأمّة أجمعت على خلعه بخروجه[3] نفسه وخروج مَنْ كان فى حَيِّزه عن القوم ، فليس بشىء ، لأنّه إذا ثبتَ أنّ مَنْ عَداه وعَدَا عبيده والرُّهَيْط من فُجّار أهله وفُسّاقهم ، كمَرْوانَ ومَنْ جرى مجراه ، كانوا مجمعين على خلعه ، فلا شبهة

---

(١) من كتاب الشافى .

(٢) كذا فى ج ؛ وفى حاشيتها : « يعنى أكثر الناس يعتذرون بخوف » ، وفى ا ، ب : « لأن الإعذار بالرجل » ، وفى الشافى : « لأن الاغترار بالرجل » .

(٣) ب : « بإخراجه » .

فى أنّ الحقّ فى غير حَيّزه ، لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب ، وجميعُ الأمة مبطِل ؛ و إنّما يدّعى أنّه على الحق لمن ينازع فى إجماع مَنْ عداه ، فأمّا مع التسليم لذلك ، فليس يبقى شبهة ، وما نجد مخالفينا يعتبرون فى باب الإجماع بإجماع الشّذّاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع ؛ ألا ترى أنّهم لا يحفِلون[1] بخلاف سعدٍ[2] وأهله وولده فى بَيْعة أبى بكر لقلّتهم وكثرة مَنْ بإزائهم ؛ ولذلك لا يعتدون بخلاف مَن امتنع من بَيْعة أمير المؤمنين عليه السلام ، و يجعلُونَه شاذًّا : لا تأثير بخلافه[3] ، فكيف فارقوا هذه الطريقة فى خَلْع عثمان ! وهل هذا إلّا تقلّب وَتَلَوّن !

* * *

قلت : أما إذا احتجّ أصحابُنا على إمامة أبى بكر بالإجماع ،فاعتراض حُجّتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جيّد،وليس يقول أصحابنا فى جوابه : هؤلاء شذّاذ،فلا نحفِل بخلافهم ؛ و إنما المعتبر بالكَثْرة التى بإزائهم . وكيف يقولون هذا ، وحجّتهم الإجماع ، ولا إجماعَ ! ولكنّهم يُجيبون عن ذلك ، بأنّ سعدا مات فى خلافة عمر،فلم يبق مَنْ يخالف فى خلافة عمر ، فانعقد الإجماع عليها ، و بايع ولد سعد وأهله من قَبْل ؛ و إذا صَحّت خلافة عمر صَحّت خلافة أبى بكر ؛ لأنها فرع عليها ؛ ومحال أن يصحّ الفرع ، ويكون الأصلُ فاسدا ؛ فهكذا يجيب أصحابُنا عن الاعتراض بخلاف سعد ؛ إذا احتجّوا بالإجماع ؛ فأمّا إذا احتجُّوا بالاختيار فلا يتوجّه نحوهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده ؛ لأنّه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماعُ الأمة على الاختيار ؛ و إنما يكفى فيه بَيْعة خمسة من أهل الحلّ والعقد على الترتيب الذى يرتِّب أصحابُنا الدّلالة عليه ؛ وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامةُ علىّ عليه السلام ، ولم يحفَلْ بخلاف معاوية وأهل الشام فيها .

* * *

(١) يقال : لم يحفل بالأمر ؛ إذا لم يبال به .
(٢) هو سعد بن عبادة الأنصارى ، وانظر حديث السقيفة فى تاريخ الطبرى (حوادث السنة الحادية عشرة).
(٣) ا ، ج : « لا تأثير له » .

قال رحمه الله تعالى : فأمّا قوله : إنّ الصحابة كانت بَيْن فريقين : مَنْ نصره[1] كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلان ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ ولأنّه ما ضيّق عليهم الأمر فى الدفع عنه . فعجيب ؛ لأنّ الظاهر أنّ أنصاره هم الذين كانوا معه فى الدار ، يقاتلون عنه[2] ، ويدفعون الهاجمين عليه .

فأمّا مَنْ كان فى منزله ما أغنى عنه فتيلا ؛ فلا يعدّ ناصرا ، وكيف يجوز ممّن أراد نُصرَته ، وكان معتقِداً لصوابه ، وخطأ المطالبين له بالخلع ، أن يتوقّف عن النصرة طلبا لزوال العارض ؟ وهلْ تُرادُ النّصرة إلّا لدفع العارض ! وبَعْد زواله لا حاجة إليها . وليس يحتاج فى نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها ؛ بل مَنْ كان معتقدا لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها ، ولا يحفِل بنهيه عنها ؛ لأنّ المنكَر مما قد تقدّم، أمر الله تعالى بالنهى عنه ، فليس يحتاج فى إنكاره إلى أمر غيره .

قال : فأمّا زيد بن ثابت ، فقد رُوِى ميلُه إلى عثمان ، وما يغنى ذلك وبإزائه جميعُ المهاجرين والأنصار ! ولميله إليه سبب معروف ، فإن الواقدى روى فى "كتاب الدّار" أنّ مَرْوان بن الحكم لما حُصِرَ عثمان الحصْر الآخر ، أتى زيدَ بن ثابت فاستصحبَه إلى عائشة ليكلّمها فى هذا الأمر ، فمضيا إليها وهى عازمة على الحجّ ، فكلّماها فى أن تُقيمَ وَتَذُبّ عنه ، فأقبلتْ على زيد بن ثابت ، فقالت : وما منعك يابن ثابت ولك الأساويف قد اقتطعكها[3] عثمان ، ولك كذا وكذا ، وأعطاك عُثمان من بيت المال عشرة آلاف دبناراً ! قال زيد : فلم أرْجعْ عليها حرفا واحدا ، وأشارت إلى مروان بالقيام ، فقام مَرْوان وهو يقول :

---

(١) الشافى : « من ينصره » .
(٢) ب : « يقاتلون غيره » .
(٣) الشافى : « قد قطعها » .

حَرّق قَيْسٌ عَلَيّ البـــلا دَ حتى إذا اضطرمَتْ أجذَما[1]

فنادته عائشة ، وقد خرج من العتبـة : يابن الحـكم ، أعلىّ تمثل الأشعار ! قد والله سمعتُ ماقلت : أتراني في شكّ من صاحبك ! والذي نفسي بيده لوددت أنّه الآن في غِرارة من غرائري مخيط عليه ، فألقيه في البحر الأخضر ، قال زيد بن ثابت : فخرجنا من عندها[2]على اليأس منها[2] .

ورَوى الواقديّ أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عِصابة من الأنصار ، وهو يدعوهم إلى نُصْرة عثمان ، فوقف عليه جَبَلة بن عمرو بن حَبّة المازنيّ ، فقال له : وما يمنعُك يازيدُ أن تذُبّ عنه ! أعطاك عشْرةَ آلاف دينار وحدائق من نخل لم ترِثْ عن أبيك مثل حديقة منها .

فأمّا ابنُ عمر فإنّ الواقديّ روى أيضا عنه أنه قال : والله ما كانَ فينا إلا خاذلٌ أو قاتل . والأمر على هذا أوضحُ من أنْ يخفى .

فأما ما ذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسَن والحسين عليهما السلام ، فإنما أنفذهما ـ إنْ كان أنفذَهما ـ ليمنعا من انتهاك حريمه وتعمّد قتله ، ومنع حُرَمِه[3] ونسائه من الطعام والشراب، ولم يُنفذهما ليمنعا من مطالبته بالخلع، وكيف وهو عليه السلام مصرّح بأنّه يستحقّ بأحْدَاثه الخلْع ، والقوم الذين سعَوْا في ذلك ، إليه كانوا يغدُون و يروحون . ومعلوم منه ضرورةً أنه كان مساعِدا على خلْعه ونقض أمره ، لاسيما في المرة الأخيرة .

فأما ادعاؤه أنّه عليه السلام لَعَن قتلتَه ، فهو يعلم ما في هذا من الروايات المختلفة التي

---

(١) الإجذام : الإقلاع ؛ والبيت للربيع بن زياد ؛ من أبيات في الحماسة ٢ ـ ٤٨٤ ـ ٤٨٧ ـ بشرح المرزوقي . وفي الشطر الأول من البيت زحاف بالخرم ؛ وهو جائز في أول المتقارب والطويل ، ورواية اللسان : « وحرق » ؛ بلاخرم .وقيس هو ابن زياد العبسي .

(٢ـ٢) الشافي : « على الناس » .

(٣) ب : « حريمه » ، وما أثبته من ا ، وكتاب الشافي .

هى أظهر من هذه الرواية ، وإن صحّت فيجوز أن تكونَ محمولةً على لَعْن مَنْ قتله متعمِّدا قتله ، قاصدا إليه ، فإنّ ذلك لم يكن لهم .

فأما ادّعاؤه أنّ طلحةرجعَ لما ناشده عثمان يوم الدّار ، فظاهرُ البطلان ، وغير معروفٍ فى الرواية ؛ والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشدّ من طلحة ، ولا أغاظَ منه .

قال : ولو حكَيْنا من كلامه فيه ما قد رُوى لأفنينا قِطْعة كثيرة من هذا الكتاب ؛ وقد رُوِى أنّ عثمان كان يقول يوم الدار : اللهم اكفِنِى طلحة ؛ ويكرّر ذلك ، عِلْماً بأنه أشدُّ القوم عليه . ورُوِىَ أنّ طلحَة كانَ عليه يومَ الدار دِرْعٌ وهو يُرامى الناس ، ولم ينزِعْ عن القتال حتى قتل الرّجُل (١) .

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ستكون فتنة ، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ عل الهدى » ، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذّة لا تكون فى مقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خَلْعه وخَذْله ، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه ، وبإزاء هذه الرواية ما يملأ الطروس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وغيره ، مما يتضمّن ما تضمّنَتْه . ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمانُ أولى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار ، وقد احتجّ عليهم بكلّ غثّ وسمين ، وقبل ذلك لما خوصم وطولب بأنْ يخلع نفسه . ولا حتجّ بها عنه بعض أصحابه وأنصاره ؛ وفى علمنا بأنّ شيئا من ذلك لم يكُنْ ، دلالة على أنها مصنوعة موضوعة .

فأما مارواه عن عائشة من قولها: « قُتِل والله مظلوما » ،فأقوال عائشةفيه معروفةومعلومة، وإخراجُها قميصَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تقول : «هذا قميصه لم يَبْلَ ،وقد أبْلَى عثمانُ سنّتَه» ؛ إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة .

---

(١) ب : « الرجال » ، وما أثبته عن ا ، ج ، وكتاب الشافى.

فأما مدحُها له وثناؤُها عليه ؛ فإنّما كانا عَقِيب عِلْمِها بانتقال الأمر إلى مَن انتقل إليه ، والسببُ فيه معروف ، وقد وقفت عليه ، وقُوبل بين كلامها فيه متقدما ومتأخرا .

فأما قوله : لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد فى ذلك لأنّها فى مقابلة ما يدّعونه مما طريقه أيضاً الآحاد ؛ فواضح البطلان ؛ لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة ـ إلّا مَنْ كان فى الدار معه على خلافه ؛ فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز ، و بين متقاعد خاذل ـ معلومٌ ضرورة لكلِّ مَنْ سمع الأخبار . وكيف يدّعى أنّها من جهة الآحاد ، حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة ! وهل هذا إلّا مكابرة ظاهرة .

فأمّا قوله : إنا لانعدل عن ولايته بأمور محتَملة ؛ فقد مضى الكلام فى هذا المعنى ، وقلنا إن المحتمل هو مالاظاهر له ، و يتجاذبه أمور محتملة ؛ فأمّا ماله ظاهر فلا يسمّى محتملا ، و إن سماه بهذه التسمية ؛ فقد بينا أنّه مما يُعْدَل من أجله عن الولاية ، وفصّلنا ذلك تفصيلا بينا .

وأما قوله : إنّ للإمام أن يجتهد برأيه فى الأمور المنوطة به ، ويكون مصيبا و إن أفضت إلى عاقبة مذمومة ؛ فأوّل ما فيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد فى الأحكام ، ولا يجوز أن يعمل فيها إلّا على النصّ . ثم إذا سلّمنا الاجتهاد ، فلا شكّ أن هاهنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد ؛ حتى يكون مَنْ خبّر ناعنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب[1] ، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ما تعاطاه من الأعذار عن أحداثه[2] على جهة التفصيل.

* * *

قلت : الكلام فى هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون فى الكتب الكلامية المبسوطة فى مسألة الإمامة ؛ وليس هذا موضع ذاك ؛ ولكن يكفى قاضى القضاة أن يقول :

---

(١) كذا فى الأصول ، وفى كتاب الشافى : « غير مصدق »

(٢) الشافى : « فى أحداثه » .

قد ثبت بالإجماع صحة إمامة عثمان ؛ فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خَلْعه وإباحة قَتْله ، ولم يُجمع المسلمون على ذلك ، لأنّه قد كان بالمدينة مَنْ يُنكر ذلك وإنْ قلّوا ، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرُون ذلك ؛ كالشام والبَصْرة والحجاز واليمن ومكّة وخراسان ، وكثير من أهل الكوفة ، وهؤلاء مسلمون ، فيجب أن تعتبَر أقوالهم في الإجماع ، فإذا لم يدخلوا فيمن أجْلَب عليه ، لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه ، فوجب البقاء على ما اقتضاه الإجماع الأوّل .

[ذكر المطاعن التى طُعِن بها على عثمان والردّ عليها]

فأمّا الكلام فى المطاعن المفصّلة التى طُعِن بها فيه ، فنحن نذكرها ، ونحكى ماذكره قاضى القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى [١] .



الطعن الأوّل :

قال قاضى القضاة فى " المغنى " : فممّا طُعِن به عليه قولهم : إنّه ولَّى أمورَ المسلمين مَنْ لايصلحُ لذلك ولا يؤتمَن عليه ؛ ومَنْ ظهر منه الفسق والفساد ، ومَنْ لاعلمَ عنده ، مراعاةً منه لحرمة القرابة ، وعدولاً عن مراعاة حرمة الدّين والنظر للمسلمين ؛ حتى ظهر ذلك منه وتكرر ؛ وقد كان عمرُ حَذّره من ذلك ؛ حيث وصفه بأنّه كلِفٌ بأقاربه ، وقال له : إذا وَلِيت هذا الأمرَ فلا تسلّط بنى أبى مُعَيْطٍ على رقاب الناس . فوقع منه ماحذّره إياه ، وعُوتب فى ذلك فلم ينفع العتبُ ، وذلك نحو استعماله الوليد بن عُقْبة [٢] ، وتقليده إياه ،

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٦٦ وما بعدها.

(٢) هو الوليد بن عقبة بن أبى معيط أخو عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس . ولاه عثمان الكوفة بعد عزل سعد بن أبى وقاص ؛ ثم عزله عنها بعدأن ثبت عليه شرب الخمر ؛ فى خبر مشهور . الإصابة ٣ : ٦٠١

حتى ظهر منه شربُ الخمر ؛ واستعماله سعيد بن العاص [١] حتى ظهرتْ منـه الأمور التى عندها أخرجَه أهل الـكوفة ، وتوليتُه عبد الله بن أبى سَرْح [٢] ، وعبد الله بن عامر بن كُريز [٣] ؛ حتى رُوِى عنه فى أمر ابن أبى سَرْح أنه لمـا تظلّم منه أهلُ مصر وصرَفه عنهم بمحمد بن أبى بكر ، كاتَبه بأنْ يستمرّ على ولايته ، فأبطن خلافَ ماأظهر ، فِعْل من غرضه خلاف الدين . ويقال إنه كاتبَه بقتْل محمد بن أبى بكر وغيره ممّن يرد عليه ، وظفِر بذلك الـكتاب ، ولذلك عَظُم التظلّم من بعد ، وكَثُر الجمع ، وكان سبب الحِصار والقتل ؛ حتى كان من أمرِ مَرْوان وتسلّطه عليه وعلى أموره ما قتل بسببه ؛ وذلك ظاهر لايمـكن دَفْعُه .

قال رحمه الله تعالى : وجوابُنا عن ذلك أن نقول : أمّا ما ذُكِر من تَوْليته مَنْ لايجوز أن يُسْتعمل ، فقد علمنا أنّه لا يمكنُ أنْ يُدَّعى أنه حين استعملَهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح ؛ لأنّ الذى ثبتَ عنهم من الأمور القَبيحة حَدَثَ من بعد ، ولا يمتنع كونُهم فى الأوّل مستورين فى الحقيقة أو مستورين عنده ؛ وإنّما كان يجب تخطئته لو استعملهم ؛ وهم فى الحال لايصلحون لذلك .

فإنْ قيل : فلمّا علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم !

قيل : كذلك فَعَل ؛ لأنه إنما استعمل الوليد بن عُقْبة قبل ظهور شرب الخمر عنه

---

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى ولاه عثمان الـكوفة بعد الوليد ابن عقبة ؛ ثم شكاه أهل الـكوفة ؛ لتجبرو غلظة فيه ، وكتبوا إلى عثمان : لا حاجة لنا فى وليدك ولا سعيدك ؛ فعزله . الاستيعاب لابن عبد البر ٥٤٠ .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث بن حبيب القرشى العامرى ، أخو عثمان من الرضاعة ؛ كان على الصعيد فى زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ؛ وافتتح إفريقية ، الإصابة ٣ . ٣٠٩ .

(٣) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى القرشى العبشمى ، ابن خال عثمان بن عفان عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة وعثمان بن أبى العاص عن فارس ؛ وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر . الاستيعاب لابن عبد البر ٣٧٥ . .

فلما شُهِد عليه بذلك جَلَده الحدّ وصرَفه . وقد روى مثلُه عن عمر ، فإنّه ولّى قُدامة بن مَظْعون بعضَ أعماله ، فشهِدوا عليه بشرب الخمر ، أشخصه وجلَده الحدّ ؛ فإذا عُدّ ذلك فى فضائلِ عمر لم يجز أن يعدّ ماذكروه فى الوليدِ من معايب عثمان . ويقال : إنّه لما أشخصه أقام عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام .

وقد اعتذر من عَزْله سعد بن أبى وقّاص بالوليد ؛ بأنّ سعداً شكاه أهلُ الكوفة ، فأدّاه اجتهادُه إلى عزله بالوليد .

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولّى مكانه أبا موسى ، وكذلك عبد الله ابن أبى سَرْح عزله وولّى مكانه محمد بن أبى بكر ، ولم يظهر له فى باب مَرْوان ما يوجب أن يصرِفَه عمّا كان مستعملا فيه ، ولو كان ذلك طَعْناً لوجب مثلُه فى كلٍّ مَنْ ولّى ، وقد علمنا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ولّى الوليد بن عُقْبة ، فحدث منه ماحدث . وحَدَث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة ، كالقَعْقاع بن شور ، لأنه ولاه على مَيْسان [1] فأخذ مالها ولحق بمعاوية ، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذْرَبيجَان . وولّى أبا موسى الحكَم ، فكان منه ما كان ، ولا يجب أن يعاب أحد بفعل غيره ؛ و إذا لم يلحقه عيب فى ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيما بعده .

وقولهم : إنّه قَسَم أكثر الولايات فى أقار به ، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين ، وقد كان عمر حذّره من ذلك ، فليس بعيب ؛ لأنّ توليةَ الأقارب كتولية الأباعد ؛ فى أنّه يحسُن إذا كانوا على صفات مخصوصة . ولو قِيلَ إنّ تقديمهم أولى لم يمتنع ، إذا كان المولّى لهم أشدّ تمكنا من عزلهم ، والاستبدال بهم ، وقد ولّى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة ، وعُبيد الله بن العباس اليمن ، وقُثَم بن العباس مكّة ؛ حتى قال مالك الأشتر عند ذلك:

---

(١) ميسان : كورة بين البصرة وواسط ؛ فتحت فى أيام عمر بن الخطاب .

عَلَى ماذا قتلنا الشيخ أمس ! فيما يُرْوَى ؛ ولم يكن ذلك بعيب إذا أدّى ما وجب عليه في اجتهاده .

فأمّا قولهم : إنّه كتب إلى ابن أبى سَرْح حيث ولّى محمد بن أبى بكر بأنّه يقتلُه ويقتل أصحابه ، فقد أنكرَ ذلك أشدّ إنكار ، حتى حلف عليه ، و بيّن أن الكتاب الذى ظهر ليس كتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته . وكان فى جُمْلة مَنْ خاطبه فى ذلك أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فقبِل عذره . وذلك بيّن ؛ لأنّ قول كلّ أحد مقبول فى مثل ذلك ، وقد علم أنّ الكتاب يجوز فيه التزوير ، فهو بمنزله الخبَر الذى يجوز فيه الكذب .

فإن قيل : وقد علم أنّ مروان هو الذى زَوّر الكتاب ، لأنه هو الذى كان يكتب عنه ، فهلّا أقام فيه الحدّ !

قيل : ليس يجب بهذا القدر أن يُقْطَع على أنّ مروان هو الذى فعل ذلك ، لأنّه و إن غلب ذلك فى الظّنّ ، فلا يجوز أن يحكم به ، وقد كان القوم يسومونَه تسليمَ مروان إليهم ؛ وذلك ظلم ؛ لأنّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدَّ على مَنْ يستحقه أو التأديب ، ولا يحلّ له تسليمُه إلى غيره ؛ فقد كان الواجب أن يُثبِتُوا عنده مايوجب فى مروان الحدّ والتأديب ليفعَله به ؛ وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحقّ التعنيف . وقد ذكر الفقهاء فى كتبهم أن الأمر بالقتل لا يُوجب قَوَداً ولا دية ولا حدًّا ، فلوثبت فى مَرْوان ماذكروه لم يستحقّ القتل و إن استحق التعزير ، لكنّه عدل عن تعزيره ؛ لأنّه لم يثبت ؛ وقد يجوز أن يكونَ عثمانُ ظنّ أنّ هذا الفعْل فِعْل بعض من يعادى مَرْوان تقبيحا لأمره ؛ لأن ذلك يجوز ، كما يجوز أن يكون من فعله ؛ ولا يعلَم كيف كان اجتهاده وظنه ! و بعد فإنّ هذا الحدَث من أجل مانقَموا عليه؛ فإن كان شىء من ذلك يُوجب خَلْع عثمان وقتله ؛ فليس إلّا هذا ؛ وقد علمنا أنّ هذا الأمرَ لو ثبت ما كان يُوجب القتل ؛ لأنّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل ؛ سيما قَبْل وقوع القتل المأمور به ؛ فنقول[1] لهم : لو ثبت ذلك على عُثمان أكان يجبُ قتله ! فلا يمكنهم ادّعاء

(١) الشافى « فيقال لهم » .

ذلك ، لأنه بخلاف الدّين ؛ ولا بد أن يقولوا : إنّ قتلَه ظلم ، وكذلك حَبْسُه فى الدار، ومنعه من الماء، فقد كان يجب أن يدفع القومُ عن كل ذلك ، وأن يقال : إنّ من لم يدفعْهم و ينكر عليهم يكون مخطئا .

وفى القول بأنّ الصحابة اجتمعوا على ذلك كلِّهم ، تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وذلك غير جائز ، وقد عُلِم أيضا أنّ المستحقّ للقتل والخلْع لا يحلّ أن يمنَع الطعام والشراب ، وعُلِم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنعْ أهل الشام من الماء فى صِفِّين ؛ وقد تمكن من منعهم . وكلّ ذلك يدلُّ على كَوْن عثمان مظلوما ، وأنّ ذلك من صُنْع الجهال ، وأنّ أعيانَ الصحابة كانوا كارهين لذلك . وأيضا فإنّ قتلَه لو وجب ، لم يَجُزْ أن يتولّاه العوامُّ من الناس . ولا شبْهَة أنّ الذين أقدَموا على قتله كانوا بهذه الصّفة ؛ و إذا صَحّ أن قتله لم يكنْ لهم ، فمنْعُهم والنّكيرُ عليهم واجب .

وأيضا فقد عُلِم أنّه لم يكن من عثمان ما يستحقّ به القتل؛ من كُفْرٍ بعد إيمان ، أوزنًا بعد إحصان ، أو قتلِ نفسٍ بغير حقّ ؛ وأنه لو كان منه ما يوجِب القتلَ لكان الواجبُ أن أن يتولّاه الإمام ؛ فقتلُه على كلِّ حالٍ منكَر ، و إنكارُ المنكرِ واجب .

وليس لأحدٍ أن يقولَ: إنّه أباح قتلَ نفسه ، من حيث امتنع من دَفْع الظلم عنهم ، لأنّه لم يمتنع من ذلك ؛ بل أنصفهم ، ونظر فى حالهم. ولأنه لو لم يفعلْ ذلك لم يحلّ لهم قتلُه، لأنه إنّما يحلّ قتلُ الظالم إذا كان على وجه الدّفع . والمروِىّ أنهم أحرقوا بابه ، وهجموا عليه فى منزله ، و بعجُوه بالسيف والمشاقِص [1] ، وضربوا يَدَ زوجته لما وقعتْ عليه، وانتهبوا متاعَ داره ؛ ومِثْلُ هذه القِتْلة لا تحلّ فى الكافرِ والمرتَدِّ ، فكيفُ يظنّ أنّ الصحابة لم ينكرُوا ذلك ، ولم يعدّوه ظلما ؛ حتى يقال إنّه مستحقٌّ من حيث لم يَدْفع القوم عنه ! وقد تظاهَر الخبر بما جرَى من تجمّع القوم عليه ، وتوسّط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم ، وأنّه

(١) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل العريض .

بذل لهم ماأرادوه ، وأعتبهم [١] ، وأشهَد على نفسِه بذلك ؛ و إن الـكتاب الموجودَ بعـد ذلك المتضمّن لقتل القوم ، ووقف عليه ــ وممّن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام [٢] ــ حلفَ أنّه ما كتبه ، ولا أمرَ به ؛ فقال له : فمَنْ تتّهم ؟ قال : ما أتّهم أحدا ، و إنّ للناس لحِيَلاً .

والرواية ظاهرة أيضا بقوله : إن كنت أخطأتُ أو تعمّدت فإنى تائب ومستغفر ؛ فـكيف يجوز والحال هـذه أن تُهتَك فيه حرمةُ الإسلام وحرمةُ البلد الحرام ! ولا شبهةَ فى أنّ القتل على وجه الغِيلة لايحلّ فيمن يستحقّ القتل ؛ فـكيف فيمن لا يستحقّه ! ولولا أنّه كان يمنع من محاربة القوم ظنًّا منه أنّ ذلك يؤدِّى إلى القتل الذَّريع ، لـكَثُر أنصاره .

وقد جاء فى الرواية أنّ الأنصارَ بدأت معونته ونُصرته ، وأنّ أميرَ المؤمنين عليـه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السـلام ، فقال له : قل لأبيك فلْتأتنى ؛ فأراد أميرُ المؤمنين عليه السلام المصيرَ إليه ، فمنعَه من ذلك محمد ابنه ، واستعان بالنّساء عليه ، حتى جاء الصريخُ [٣] بقتل عثمان ، فمدّ يده إلى القبلة ، وقال : اللّهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

فإنْ قالوا : إنّهم اعتقدُوا أنّه من المفسدين فى الأرضِ ، وأنّه داخل تحت آية المحاربين .

قيل : فقد كان يجب أن يتولّى الإمام هـذا الفعل ، لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ . وكيف يُدّعى ذلك ، والمشهور عنه أنّه كان يمنع من مقاتلتهم ؛ حتى رُوِى أنّه قال لعبيده ومواليه ، وقد همّوا بالقتال : مَنْ أغمد سيفه فهو حُرّ ، ولقد كان مؤثراً لنـكير ذلك الأمر بما لا يؤدّى إلى إراقة الدماء والفتْنة ؛ ولذلك لم يستعِنْ بأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله و إن كان لما اشتدّ الأمر ، أعانَه مَنْ أعان ؛ لأنّ عنـد ذلك تجِب النُّصْرة والمعونة ؛ فحيث

---

(١) أعتبهم : أرضاهم .

(٢) عبارة الشافى : « وذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام واقفه على الـكتاب »

(٣) الصريخ : المغيث .

كانت الحال متماسكة ، وكان ينهى عن إنجاده و إعانته بالحرب امتنعوا وتوقّفوا ، وحيثُ اشتدّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه ، دون من لم يغلِب ذلك فى ظنه .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هـذا الـكلام ، فقال [١] : أما قوله : لم يكن عالما بحال الفَسَقة الذين ولّاهم قبل الولاية ؛ فلا تعويلَ عليـه ؛ لأنّه لم يولِّ هؤلاء النَّفَر إلّا وحالُهم مشهورة فى الخلاعة والمجانة والتجرّم والتهتك ؛ ولم يختلف اثنان فى أنّ الوليد بن عُقْبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدّين على استقبال ولايته للـكوفة ؛ بل هذه كانت سنّتهُ والعادة المعروفة منه ؛ وكيف يخفَى عَلَى عثمان ـ وهو قريبه ولصيقهُ وأخوه لأمّه ـ مِنْ حاله مالا يخفى عَلَى الأجانب الأباعد ! ولهذا قال له سعد بن أبى وقاص فى رواية الواقدىّ ، وقد دخل الـكوفة :يا أبا وهب [٢] ، أمير أم زائر ؟ قال : بل أمير ، فقال سعد : ما أدرى أحَمُقْتُ بعدك أم كِسْتَ [٣] بعدى ! قال: ماحَمُقْتَ بعدى ولا كِسْتُ بعدك، ولـكنّ القوم ولّوا منكرا فاستأثروا [٤] . فقال سعد : ما أَرَاكَ إلّا صادقا.

وفى رواية أبى مِخْنف لوط بن يحيى الأزدىّ أنّ الوليد لما دخل الـكوفة مرّ عَلَى مجلس عمرو بن زُرارة النَّخَعىّ ، فوقف فقال عمرو : يامعشرَ بنى أسد ، بئسما استقبلَنا به أخوكم ابنُ عَفّان ! أمِنْ عدله أن ينزِعَ عَنّا ابنَ أبى وقاص ، الهيّن اللّيّن السّهل القريب ، ويبعثَ بَدَله أخاه الوليد، الأحمق الماجن الفاجر قديما وحـديثا ! واستعظم الناسُ مقدَمه، وعَزْلَ سعد به ، وقالوا:أراد عثمان كرامةَ أخيه بهوان أمة محمد صلى الله عليه ! وهذا تحقيقُ ما ذكرناه من أنّ حاله كانتْ مشهورة قبل الولاية ،لا ريب فيها عنـد أحدٍ ، فـكيف

---

(١) الشافى ص ٢٦٩

(٢) أبو وهب كنية الوليد بن عقبة.

(٣) من الـكيس ، وهو خلاف الحمق .

(٤) الشافى : « ملـكوا فاستأثروا » .

يقال : إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر ! وفى الوليد نزل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [١] ، فالمؤمن هاهنا أمير المؤمنين عليه السلام ، والفاسق الوليد ؛ عَلَى ما ذكره أهل التأويل . وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [٢] ، والسبب فى ذلك أنه كذب عَلَى بنى المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، وادّعى أنّهم منعوه الصدقة . ولو قصصْنا مخازِيَه المتقدّمة ، ومساوِيَه لطال بها الشرح .

وأما شربهُ الخمر بالكوفة وسُكْره ، حتى دخل عليه [مَنْ دخل][٣] ، وأخذ خاتَمه من إصبعه ؛ وهو لا يعلم ؛ فظاهر ، وقد سارت به الرّكبان . وكذلك كلامه فى الصلاة ، والتفاته إلى مَنْ يَقْتدى به فيها وهو سكران ؛ وقوله لهم : أأزيدكم ؟ فقالوا : لا ، قد قَضَيْنا صلواتنا ، حتى قال الحطيئة فى ذلك :

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ	أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْغَدْرِ [٤]
نَادَى وَقَدْ نَفِدَتْ صَلَاتُهُمُ	أَأَزِيدُكُمْ ثَمِلاً وما يدرى [٥]
ليزيدهمُ خَيْراً وَلَوْ قَبِلُوا	منه لقادهم عَلَى عَشْرِ
فأبَوْا أبا وهب ولو فعلوا	لقرنتَ بين الشَّفْعِ والوَتْرِ [٦]

---

(١) سورة السجدة ١٨

(٢) سورة الحجرات ٦

(٣) تكملة من كتاب الشافى .

(٤) ديوانه ٨٥

(٥) الديوان : « تمت صلاتهم » .

(٦) فى الديوان موضع هذين البيتين بيت واحد ، وهو قوله :

ليزيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّفْعِ والوَتْرِ

حَبَسُوا عِنانك إذ جريت ولو خَلَّوْا عِنانك لم تَزَلْ تجرِى (١)

وقال فيه أيضا :

تَكَلَّمَ فى الصَّلاةِ وَزَادَ فِيها عَلانِيَةً وجاهَرَ بالنفاق (٢)

وَمَجَّ الخمرَ عن سُنَنِ المصلّى ونادَى والجميعُ إلى افتراقِ

أزيدكمُ عَلَى أن تحمَدُونى فمالكمُ ومالىَ مِنْ خَلاقِ

وأما قوله : إنه جلَده الحدّ وعزله ، فبعدَ أىّ شىء كان ذلك ! ولم يعزله إلّا بعد أن دافع ومانع ، واحتجّ عنه وناضل ، ولو لم يقهرْه أميرالمؤمنين عليه السلام على رأيه لما عَزَله ، ولا أمكن من جَلْده . وقد روى الواقدِىّ أنّ عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بشرْب الخمر أوعدَهم وتهدّدهم .

قال الواقدىّ : ويقال إنه ضربَ بعضَ الشهود أيضاً أسواطاً، فأتَوْا أميرَ المؤمنين عليه السلام ، فشكوْا إليه ، فأتى عثمان ، فقال : عطّلت الحدود ، وضربت قوما شهدوا على أخيك ، فقلَبت الحُكْم ، وقد قال لك عمر : لاتحملْ بنى أمية وآل أبى مُعَيط على رقاب الناس ! قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن تعزِله ولا تولّيه شيئا من أمور المسلمين ، وأن تسأل عن الشهود ؛ فإن لم يكونوا أهلَ ظِنّة ولا عداوة ، أقمت على صاحبك الحدّ . وتكلّم فى مثل ذلك طلحة والزُّبير وعائشة ، وقالوا أقوالا شديدة ، وأخذتْه الألسنُ من كلّ جانب ، فحينئذ عَزَله ، ومكّن من إقامة الحدّ عليه .

---

(١) رواية الديوان :

خَلَعُوا عِنَانَكَ إذْ جرَيْتَ وَلَوْ تركوا عِنانَكَ لم تزل تَجْرِى

وبعده :

ورأوْا شَمَائِلَ ماجدٍ أَنِفٍ يُعْطِى على المَيْسُورِ والعُسْرِ

فَنزعت مَكْذُوباً عَلَيْكَ وَلَمْ تُرْدَدْ إلى عَوَزٍ وَلَا فَقرِ

(٢) ديوانه ١١٩

وقد روى[1] الواقدىّ أنّ الشهود لما شَهدوا عليه فى وجهه، وأراد عثمان أن يحدّه ألبسه جُبّة خز ، وأدخله بيتا، فجعل إذا بعث إليه رجلا من قريش ليضربه ،قال له الوليد: أنشدُك الله أن تقطَع رحمى وتُغضب أمير المؤمنين ! فلما رأى علىّ عليه السلام ذلك ، أخذَ السوطَ ودخل عليه ، فجلده به . فأىّ عذر لعثمان فى عزله وجلْده بعد هذه الممانعة الطويلة ، والمدافعة الشديدة !

وقصّة الوليد ــ مع الساحر الذى كان يلعبُ بين يديه ، ويغرّ الناس بمكْرِه وخديعته ، وأن جندب بن عبد الله الأزدىّ امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله، وقال له : احىِ نفسك إن كنت صادقا ، وإن الوليد أراد أن يقتل جُندبا بالساحر ، حتى أنكر الأزد ذلك عليه ، فحبسه وطال حبسُه حتى هرب من السجن ــ معروفة مشهورة .

فإن قيل : فقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله الوليد بن عُقْبة هذا صَدَقة بنى المصطلق ، وولّاه عمر صدقةَ تَغْلِب ، فكيف تدّعون أنّ حاله فى إنّه لا يصلح للولاية ظاهرة !

قلنا : لاجَرَم، إنه غرّ رسول الله صلى الله عليه وآله،وكَذَب على القوم حتى نزلت فيه الآية التى قدمنا ذكْرها ، فعزله. وليس خَطْب ولاية الصدقة مثل خَطْب ولاية الكوفة ، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله :

إذا ماشددتِ الرأس منى بِمِشْوَذٍ فويلكِ منى تغلب ابنة وائل[2]

عزَله . وأما عَزْلُ أمير المؤمنين عليه السلام بعضَ أمرائه لَما ظهر من الحدَث كالقَعْقاع بن شُور وغيره ، وكذلك عَزْلُ عُمر قدامةَ بن مظعون لما شُهِد عليه بشرْب الخمر، وجَلْده له ؛ فإنه لايشبه ماتقدّم ؛ لأن كلّ واحد ممن ذكرناه لم يولِّ إلا مَنْ هو حَسَنُ الظاهر عنده وعند الناس ، غير معروف باللّعب ولا مشهور بالفساد . ثم لما ظهر منه ما ظهر

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والشافى : « وروى » .
(٢) اللسان ٥ : ٣١ ، والمشوذ : العمامة .

لم يحامِ عنه ولا كذّب الشهودَ عليه وكابَرهم ، بل عزله مختارا غير مضطر ، وكلّ هذا لم يجرِ في أمراء عثمان ، وقد بينا كيف كان عَزْل الوليد وإقامة الحدّ عليه .

فأمّا أبو موسى فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّه الحكَمْ مختاراً ، لكنه غُلِب على رأيه وقُهِر عَلَى أمره ، ولا رأىَ لمقهور .

فأمّا قوله : إن ولايةَ الأقارب كولاية الأباعد ؛ [١] بل الأقارب أوْلى [١] ؛ من حيث كان التمكّن من عزلهم أشدّ ، وذكْر توليةِ أمير المؤمنين عليه السلام [٢] أولادَ العباس رحمه الله تعالى وغيرَهم [٢] ؛ فليس بشىء ؛ لأنّ عثمان لم يُنْقَمْ عليه توليةُ الأقارب من حيث كانوا أقاربَ ، بل من حيث كانوا أهلَ بيت الظِّنة والتهمة ؛ ولهذا حذّره عمرُ وأشعرَ بأنه يحمِلُهم عَلَى رقاب الناس . وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم يولِّ مِنْ أقاربه متَّهما ولا ظَنِينا ؛ وحين أحسَّ من ابن العباس ببعضِ الرِّيبة لم يمهلْه ولا احتمله ، وكاتَبه بما هو شائع ظاهر ؛ ولو لم يَجِبْ على عثمان أن يعدِل عِن ولاية أقاربه إلا من حيثُ جعل عمر ذلك سببَ عدوله عن النصّ عليه ، وشرط يوم الشورى عليه ألّا يحمل أقاربَه عَلَى رقاب الناس ، ولا يؤثرَهم لمكان القرابة بما لا يؤثِرُ به غيرَهم ؛ لكان صارفاً قويا ، فضْلا عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خِصالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة .

فأما سعيد بن أبى العاص ؛ فإنّه قال فى الكوفة : إنما السوادُ بستانٌ لقريش ، تأخذ منه ما شاءت وتترك ، حتى قالوا له : أتجعلُ ما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك ! ونابذوه ، وأفضَى الأمر إلى تسييره مَنْ سَيّر عن الكوفة ؛ والقصة مشهورة ، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيدا من دخولها ، وتكلّموا فيه وفى عثمان كلاما ظاهرا ، حتى

(١ـ١) كذا فى الأصول وفى الشافى : « بل الأباعد أولى أن يقدم الأقارب عليهم » .
(٢ـ٢) الشافى : « عبد الله وعبيد الله وقثم بنى العباس وغيرهم » .

كادوا يخلعون عثمان ، فاضطر حينئذ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى ، فلم يصرف سعيداً مختاراً ، بل ما صرفه جُمْلة ؛ و إنما صرّفه أهلُ الكوفة عنهم[1] .

فأما قوله : إنه أنكر الكتاب المتضمّن لقتل محمد بن أبى بكر وأصحابه ، وحلَف على أنّ الكتاب ليس بكتابه ، ولا الغلام غلامه ، ولا الراحلة راحلته، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِل عذره ؛ فأوّل مافيه أنّه حكَى القصة بخلاف ماجرت عليه ؛ لأنّ جميعَ مَنْ يروِى هذه القصة ذكر أنّه اعترف بالخاتَم والغلام والراحلة ، وإنما أنكر أن يكون أمرَ بالكتابة ؛ لأنه روى أنّ القومَ لما ظَفِروا بالكتاب قَدِموا المدينة ، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وجماعة الأصحاب ، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم،وأخبروهم بقصة الغلام، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين ، فقال له : أهذا الغلامُ غلامك؟ قال : نعم ، قال : والبعيرُ بعيرك ؟ قال : نعم ، قال : أفأنت كتبتَ هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله أنّه ما كتب الكتاب ، ولا أمَر به . فقال له : فالخاتم خاتمك؟ قال : نعم ، قال : فكيف يخرجُ غلامُك على بعيرك بكتاب عليه خاتَمك ، ولا تعلم به !

وفي رواية أخرى أنّه لما وَاقَفه عليه ، قال عثمان : أما الخطّ فخط كاتبي ،وأما الخاتم فهو[2] خاتَمِي ، قال : فمن تتّهم ؟ قال : أتهمك وأتهم كاتِبِي ؛ فخرج أميرُ المؤمنين عليه السلام مغضَبا ، وهو يقول: بل بأمرك . ولزِم داره ، و بعُد عن توسّط أمره ، حتى جرى عليه ما جرى .

وأعجبُ الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام : « إنّي أتّهمك» وتظاهرُه بذلك وتلقّيه إياه في وجهه بهذا القول ؛ مع بعده من التهمة والظِّنة في كل شيء ، وفي أمره خاصة ؛ فإنّ القوم في الدّفعة الأولى أرادوا أن يعجّلوا له ما أخبروه ؛ حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسّطه وأصلحه ، وأشار عليه بأن يقاربَهم و يعينهم ؛ حتى انصرفوا عنه ، وهذا

(١) ساقطه من ا ، ج، وهى فى ب والشافى .
(٢) كذا فى ا والشافى ، وفى ب ، ج : « فعلى » .

فعل النَّصِيح المشفق الحدِب المتحنِّن ، ولو كان عليــه السلام ـ وحُوشِيَ من ذلك ـ متّهما عليه لمــا كان للتهمة عليه مجال فى أمر الـكتاب خاصة؛ لأنّ الـكِتاَب بخطّ عدوّه مرْوان ؛ وفى يد غلام عثمان ، ومحمول عَلَى بعـيرِه ، ومختوم بخاتَمه ، فأىّ ظن تعلّق بأمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المـكان ، لولا العداوةُ و قِلّة الشكرِ للنعمة !

ولقد قال له المصريون لما جَحَد أن يكون الـكتاب كتابَه شيئا لا زيادة عليه فى باب الحجّة ؛ لأنّهم قالوا له : إذا كنتَ ما كتبتَ ولا أمرتَ به ، فأنت ضعيف ؛ من حيثُ تَمّ عليك أنْ يَـكْتُبَ كاتبُك بمـا تختِمه بخاتَمك ، ويُنفذه بيد غلامِك وعلى بعيرك بغير أمرك ؛ ومَنْ تَمّ عليــه ذلك لا يصلُح أن يكون والياً على أمور المسلمين . فاختلِـعْ عن الخلافة على كل حال .

قال : ولقد كان يجب عَلَى صاحب " المغنى " أن يستحيِيَ من قوله : إنّ أمير المؤمنين عليــه السلام قَبِلَ عذرَه ؛ وكيف يقبل عذرَ مَنْ يتّهمه و يستغِشّه ؛ وهو له ناصِح ! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف .

وقوله : إنّ الـكتاب يجوز فيــه التزوير ، ليس بشىء ، لأنه لا يجوز التزويرُ فى الـكتاب والغلام والبعير ؛ وهذه الأمور إذا انضاف بعضُها إلى بعض ، بَعُدَ فيها التزويرُ ؛ وقد كان يجب عَلَى كل حالٍ أن يبحثَ عن القِصّة وعمّن زَوّر الـكِتاب ، وأنفذ الرسولَ ، ولا ينام عن ذلك ؛ حتى يَعرِف من أين دُهِى ؟ وكيف تمّت الحيلة عليــه ، فيحترِز من مثلها ، ولا يغضى عن ذلك إغضاء ساترٍ له ، خائف من بحثه وكشفه .

فأما قوله : إنه و إن غلبَ عَلَى الظّن أنّ مروان كتب الـكتاب ، فإنّ الحـكم بالظن لا يجوزُ ، وتسليمه إلى القوم على ما سألوه إياه ظلم ، لأنّ الحدّ والأدب إذا وجبَ عليــه ، فالإمام يُقيمه دونهم ؛ فتعلّلٌ بمـا لا يجدِى ، لأنّا لا نعمل إلا على قوله فى أنّه لم يعلم أنّ

مروان هو الذى كتب الكتاب ؛ وإنما غلب على ظنّه ! أما كان يستحقّ مروان بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتهديد ! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه ، وقوة الأمارات فى أنّه جالب الفتنة وسببُ الفرقة أن يبعده عنه ، ويطرُده مِن داره ، ويسلُبَه ما كان يخصّه به من إكرامه ! وما فى هذه الأمور أظهر من أن ينبّه له .

فأما قوله : إنّ الأمر بالقتل لا يوجب قَوَداً ولا دِيَةً ، سيّما قبل وقوع القتل المأمور به ؛ فهب أن ذلك على ما قال ، أمَا أوجب[1] الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طردا ولا إبعادا !

وقوله : لم يثبت ذلك، قد مضى ما فيه ؛ وبيّن أنه لم يستعمل فيه ما يجبُ استعماله من البحث والكشف ، وتهديدِ المتّهم وطرْده وإبعاده والتبرّى من التهمة بما يُتبرأ به من مثلها .

فأما قوله : إن قتله ظلم وكذلك حبسُه فى الدار ، ومنعه من الماء ، وأنه لو استحق القتل أو الخلع لا يحلّ أن يمنَع الطعام والشراب . وقوله : إن من لم يدفع عن ذلك من الصّحابة يجب أن يكون مخطئا . وقوله : إنّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولّاه العوام من الناس ، فباطل ، لأنّ الذين قتلوه غيرُ منكَرٍ أن يكونوا تعمّدُوا قتله ؛ وإنما طالبوه بأنْ يخلَع نفسه لما ظهرلهم من أحْداثه، ويعتزل عن[2] الأمر اعتزالا يتمكنون معه من إقامة غيره ، فلجّ وصمّم على الامتناع ، وأقام على أمر واحد ؛ فقصد القوم بحصْرِه أن يُلجِئوه إلى خلع نفسه ، فاعتصَم بداره ، واجتمع إليه نفر من أوْباش بنى أمية ، يدفعون عنه ، ويرمون مَنْ دنا إلى الدار ، فانتهى الأمرُ إلى القتال بتدريج ؛ ثم إلى القتل ، ولم يكن القتال ولا القتل مقصودَيْن فى الأصل ، وإنما أفضى الأمرُ إليهما على ترتيب ، وجرى ذلك مجرى

(١) الشافى : « يوجب »
(٢) ج : « يعتزل الأمر » .

ظالم غلب إنسانا على رَحْله أو متاعِه ، فالواجب على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلُص مالُه من يده ، ولا يقصدَ إلى إتلافه ولا قتله ، فإنْ أفضى الأمر إلى ذلك بلا قصد كان معذورا ، وإنما خاف القومُ — فى التأنى به ، والصبر عليه ، إلى أن يخلع نفسَه — من كُتُبِه التى طارت فى الآفاق ، يستنصر عليهم ويستقدِم الجيوش إليهم ، ولم يأمنوا أن يَرِدَ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّى ذلك إلى الفتنة الكبرى والبلية العظمى .

وأما منع الماء والطعام فما فُعِل ذلك إلا تضييقا عليه ، ليخرُج ويُحوَج إلى الخلع الواجب عليه . وقد يُستعمل فى الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرَم من ذوى الجنايات ، وتعذّر إقامة الحدّ عليه لمكانِ الحرَم . على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منعَ الماء والطعام ، وأنفذ مَنْ مكّن مَنْ حَمَل ذلك ، لأنّه قد كان فى الدار من الحُرَم والنسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منعهُ من الطعام والشراب . ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمّع عليه والتضافر فيه حكم منع الطعام والشراب فى القُبْحِ والمنكر ، لأنكره أميرُ المؤمنين عليه السلام ، ومَنَع منه كما منع من غيره ، فقد روى عنه عليه السلام أنّه لما بلَغه أنّ القوم قَدْ منعوا الدار من الماء ، قال : لا أرى ذلك ، إنّ فى الدار صبيانا وعِيالا ، لا أرى أن يُقتل هؤلاء عطشا بجُرْم عثمان . فصرّح بالمعنى الذى ذكرناه ، ومعلوم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلع ، بل كان مساعدا عَلَى ذلك ومشاوَرا فيه .

فأما قوله : إن قتل الظالم إنّما يحلّ على سبيل الدفع ؛ فقد بينا أنه لا ينكَر أن يكون قتله وقع على ذلك[1] الوجه ، لأنه فى تمسكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها ، فى حكم الظالم لهم ، فمدافعته واجبة .

---

(١) ا : « هـذا » .

وأما قصّة الـكتاب الموجود ؛ فلم يَحْـكِها على الوجه ؛ وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها .

وأما قوله : إنّه قال : إنْ كنتُ أخطأتُ أو تعمّدت ؛ فإنّى تائب مستغفر ؛ فقد أجابَهُ القوم عن هـذا ، وقالوا : هكذا قُلْتَ فى المرّة الأولى ؛ وخطبْتَ على المِنْبَر بالتوبة والاستغفار ؛ ثم وجدْنا كتابَك بما يقتضى الإصرار على أقبح ماعتبنا منه[1] ؛ فـكيفَ نثق بتوبتك واستغفارك !

فأما قوله : إنّ القتل على وجهِ الغِيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل ، فـكيف فيمن لا يستحقه ! فقد بينا أنّه لم يكن على سبيل الغِيلة ؛ وأنّه لا يمتنع أن يكونَ إنّما وقع على سبيل المدافعة .

فأمّا ادعاؤه أنّه مَنَع من نصرته ، وأقسم على عبيـده بترْك القتال ؛ فقد كان ذلك لَعَمْرِى فى ابتداء الأمر ظنًّا منه أنّ الأمر ينصلِح ؛ والقوم يرجعون عمّا همّوا به ؛ فلما اشتدّ الأمر ، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع ، لم يمنع أحداً من نُصْرَته والمحاربة عنه ، وكيف يمنع من ذلك ، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السـلام يستنصِرُه ويستصرخه !

والّذى يدلّ على أنّه لم يمنع فى الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذى ذكرناه دون غيره ، أنّه لاخلافَ بين أهلِ الرواية فى أنّ كتبه تفرّقت فى الآفاق يستنصِرُ ويستدعِى الجيوش؛ فـكيف يرغب عن نُصرة الحاضر مَنْ يستدعى نصرة الغائب !

فأما قوله : إنّ أميرَ المؤمنين عليـه السلام أراد أن يأتيَه ، حتى منعه ابنه محمد ، فقول بعيد مما جاءت به الرواية جدًّا ، لأنه لا إشكالَ فى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السّلام لما واجهه عثمان بأنّه يتّهِمه ويستغِشّه ، انصرف مغضَبا عامدا، على أنه لايأتيه أبدا، قائلا فيه مايستحقّه من الأقوال .

---

(١) ب « فيه » .

فأما قوله فى جواب سؤال مَنْ قال إنّهم اعتقدوا فيه أنّه من المفسدين فى الأرض ؛ وأنّ آية المحاربة تتناوله ، وأنّه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه ؛ لأنّ ذلك يجرى مجرى الحدّ ؛ فطريف ؛ لأنّ الإمام يتولّى مايجرى هذا المجرى ؛ إذا كان منصوبا ثابتا ، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولّى ما يجرِى مَجْرَى الحدود ؛ ومتَى لم يكُنْ إمام يقوم بالدّفع عن الدين والذّبّ عن الأمّة ؛ جاز أن تتولّى الأمّة ذلك بنفوسها .

قال : وما رأيتُ أعجبَ من ادّعاء مخالفينا أنّ أصحابَ الرّسول صلى الله عليه وآله كانُوا كارِهين لما جرى على عثمان ، وأنّهم كانوا يعتقدونه منكرا وظُلْما ، وهذا يجرى عند من تأمّله مجرَى دفع الضرورات قبل النظر فى الأخبار ، وسماع ماورد من شَرْح هذه القصّة ؛ لأنّه معلوم أنّ ما يكرهُه جميع الصحابة أو أكثرهم فى دار عِزّهم ، وبحيث ينفذُ أمرُهم ونهيهم لا يجوز أن يتم . ومعلوم أنّ نفرا من أهل مصر ؛ لا يجوز أن يقدموا المدينة فيغلبوا جميعَ المسلمين على آرائهم ، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم ومسمع ، وهذا ، معلومٌ بُطْلانه بالبداهة والضرورات ، قبل تصفح الأخبار وتأمّلها . وقد رَوَى الواقدِىّ عن ابن أبى الزِّناد ، عن أبى جعفر القارىّ مولى بنى مخزوم ، قال : كان المصريّون الذين حَصَروا عثمان ستمائة ، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، وكنانة بن بشر الكِنْدىّ ، وعمرو بن الحِمق الُخزاعىّ . والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين ، عليهم مالك الأشتر النَّخَعىّ . والذين قدِموا من البصرة مائة رجل ، رئيسهم حكيم بن جبلة العبدىّ ، وكان أصحابُ النبىّ صلى الله عليه وآله الذين خذلوه لا يرَوْن أنّ الأمر يبلغ به القتل ، ولعمرِى لو قام بعضُهم فحثا الترابَ فى وجوه أولئك لا نصرفوا ، وهذه الرواية تضمّنت من عدد القوم الوافدين فى هذا الباب أكثر مما تضمّنه غيرها .

وروى شُعْبة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قال: قلت له:

كيف لم يَمْنعْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عَنْ عثمان ؟ فقال : إنما قَتله أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله .

ورُوِىَ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، أنه سُئِل عن مقتل عثمان : هل شَهِده أحـد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال : نعم، شهده ثمانمائة .

وكيف يقـال : إن القوم كانوا كارهين ، وهؤلاء المصريون كانوا يَغْدُون إلى كل واحد منهم ، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه ! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقِدُ الأمرِ ،لعثمان وجالبه إليه، ومُصَيِّرُه فى يده ، يقول ـ على مارواه الواقدىّ ، وقد ذُكِر له عثمانُ فى مرضه الذى مات فيه : عاجلوه قبل أن يتمادَى فى مُلْـكه ، فبلغ ذلك عثمانَ فَبَعث إلى بئرٍ كان عبد الرحمن يَسْقى منها نَعَمه ، فمنع منها ، ووصّى عبدُ الرحمن ألّا يصلّىَ عليه عثمان ؛ فصلّى عليه الزبير ـ أو سعد بن أبى وقّاص ـ وقد كان حَلَف لما تتابعتْ أحداثُ عثمان ألّا يكلمه أبدا .

وروى الواقدىّ ، قال: لما تُوُفِّى أبو ذر بالرَّبَذة (١) تذاكر أميرُ المؤمنين عليه السلام وعبدُ الرحمن فعلَ عثمان ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له : هذا عملُك ! فقال عبدُ الرحمن : فإذا شئت فخذ سيفَك وآخذُ سيفى ، إنه خالَف ما أعطانى .

فأما محمد بن مسلمة ؛ فإنه أرسلَ إليـه عثمانُ يقول له عند قدوم المصريين فى الدَّفعة الثانية : ارْدُدْ عنّى ، فقال : لا والله لا أكذبُ اللهَ فى سنة مرتين ؛ وإنما عَنَى بذلك أنه كان أحدُ من كلّم المصريين فى الدفعة الأولى ، وضمن لهم عن عثمان الرضا .

وفى رواية الواقدىّ أنّ محمد بن مسلمة ،كان يموت وعثمان محصور ، فيقال له : عثمان مقتول ، فيقول: هو قَتَلَ نفسه.

---

(١) الربذة : من قرى المدينة على ثلاثة أميال ؛ قريبة من ذات عرق ؛ على طريق الحجاز ؛ بها قبر أبى ذر الغفارى ـ واسمه جندب بن جنادة ؛ وقد كان خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ . معجم البلدان ٤ : ٢٢٢ .

فأمّا كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام ، وطلحة والزُّبير وعائشة ، وجميع الصحابة واحدا واحـدا ؛ فلو تعاطيْنا ذكرَه لطال به الشَّرْح ؛ ومن أراد أن يقِف على أقوالهم مفصَّلة ، وما صرحوا به من خَلْعه والإجلاب عليه ؛ فعليْه بكتاب الواقدىّ [1] ، فقد ذكرَ هو وغيرُه من ذلك ما لا زيادة عليه .

⁂

الطعن الثانى :

كونه ردّ الحكَم بن أبى العاص [2] إلى المدينة ، وقد كان رسول الله صـلى الله عليه وآله طَرَده ، وامتنع أبو بكرٍ من ردّه ، فصار بذلك مخالفاً للسنّة ولسيرة مَنْ تقدّمه ، مدّعيا على رسول الله صلى الله عليه وآله ، عاملا بدعواه من غير بيّنة .

قال قاضى القضاة رحمه الله : وجوابُنا عن ذلك أنّ المروىّ فى الأخبار أنّه لما عُوتب فى ذلك ذكر أنّه استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وآله فيه ؛ وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد ؛ وكذلك روى عنهما ، فكأنهما جعلا ذلك بمنزلة الحُقوق التى تختصّ ، فلم يقبلا فيه خَبَر الواحد ، وأجرياه مَجْرى الشهادة ، فلما صار الأمر إليه حكَم بعلمه ؛ لأنّ للحاكِم أن يحكُم بعلمه فى هـذا الباب وفى غيره عند شيخينا ، ولا يفصلان بين حدّ وحق ، ولا بين أن يكونَ العلم قبل الولاية أو حال الولاية ؛ ويقولان : إنه أقوى من البيّنة والإقرار .

وقال شيخنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : إنّه لا وجهَ يقطع به على كذب روايته فى إذن

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى ؛ نقل ابن النديم أنه خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا ؛ كل قمطر منها حمل رجلين ؛ وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار ؛ وقبل ذلك بيع له كتب بألفى دينار. ثم أورد أسماء كتبه ؛ منها كتاب التاريخ الكبير . توفى سنة ٢٠٧ . الفهرست ٩٨ ، ٩٩

(٢) هو الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس الأموى ، عم عثمان بن عفان ؛ وانظر ترجمته وأخباره فى أسد الغابة ٣ : ٣٤

النبي صلى الله عليه وآله في ردّه ، ولا بدّ من تجويز كونه صادقا ؛ وفي تجويز ذلك كونه معذورا .

فإن قيل : الحاكم إنما يحكم بعلمه مع زوال التهمة ، وقد كانت التهمة في ردّ الحكم قوية لقرابته !

قيل : الواجب على غيره ألّا يتهمه ؛ إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه ؛ لأنه قد نصب منصبا يقتضي زوالَ التهمة عنه ، وحَمْل أفعاله على الصحّة ، ومتى طرقنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام . وقد قال الشيخ أبو الُحسين الخياط رحمه الله تعالى : إنه لو لم يكن في ردّه إذن من رسول الله صلى الله عليه وآله لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد ؛ لأن النفيَ إذا كان صلاحا في الحال ؛ فلا يمتنع أن يتغيّر حكمه ، باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفيّ ؛ وإذا كان لأبي بكر أن يستردّ عمرَ من جيش أسامة للحاجة إليه ــ وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بنفوذه ــ من حيث تغيرت الحال ، فغير ممتنع مثله في الحكم .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا ، فقال : أمّا دعواه أنّ عثمان ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أذن في رَدّ الحكَم ، فشيء لم يُسمع إلا من قاضي القضاة ، ولا يُدْرَى من أين نقله ، ولا في أيّ كتاب وجده ! والذي رواه الناس كلّهم خلاف ذلك ؛ روى الواقديّ من طرق مختلفة وغيره أنّ الحكَم بن أبي العاص لما قدِم المدينة بعد الفتح ، أخرجه النبي صلى الله عليه وآله إلى الطائف ، وقال : لا تساكنّي في بلد أبدا ، فجاءه عثمان فكلّمه فأبى ، ثم كان من أبي بكر مثل ذلك ، ثم كان من عمر مثل ذلك ، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه ، فمشى في ذلك عليّ والزبير وطلحة وسعد وعبدالرحمن بن عوف

وعمار بن ياسر؛ حتى دخلوا على عثمان فقالوا له : إنك قد أدخلتَ هؤلاء القوم ـ يعنون الحَكَم ومن معه ـ وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أخرجهم؛ و إنا نذكّرك الله والإسلام ومعادك ؛ فإن لك معاداً ومنقلَبا ، وقد أبت ذلك الولاةُ قبلك ، ولم يطمع أحد أن يكلّمها فيهم ؛ وهذا شيء نخاف الله فيه عليك . فقال عثمان : إنّ قرابتَهم منى ما تعلمون ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيثُ كلّمته أطمَعنى فى أن يأذن لهم ، و إنما أخرجهم لكلمةٍ بلغتْه عن الحَكَم ؛ ولم يضرّكم مكانهم شيئا وفى الناس مَنْ هو شرّ منهم . فقال علىّ عليه السلام: لاأجدُ شرًّا منه ؛ ولا منهم، ثم قال : هل تعلم عمر يقول : والله ليحملَنّ بنى أبى مُعيط على رقاب الناس ! والله إن فعل ليقتلُنّه ، فقال عثمان : ما كان منكم أحد ليكون بينه و بينه من القرابة ما بينى و بينه ، و ينال من المقدرة ما نلتُ إلا قد كان سيدخلُه، وفى الناس مَنْ هو شرّ منه . قال : فغضب علىّ عليه السلام ، وقال : والله لتأتينّا بشرّ مِن هذا إن سلِمت ، وسترى ياعثمان غبّ ماتفعل ! ثم خرجوا من عنده .

وهذا كما ترى خلاف ماادّعاه صاحب "المغنى" لأنّ الرجل لما احتفلَ ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه عليه وآله كان أطمَعه فى ردّه ، ثم صَرّح بأنّ رِعايته فيه القرابة هى الموجِبة لردّه ومخالفة الرسول عليه السلام . وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لمّا كلم أبا بكر وعمر فى ردّ الحَكَم أغلظا له وزبراه ، وقال له عمر : يخرجه رسول الله صلى الله عليه وآله وتأمرنى أن أدخله ! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل : غَيّر عهدَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والله لئن أشقّ باثنتين كما تشقّ الأبلُمة [1] أحبّ إلىّ من أن أخالِف لرسول الله أمرا ، وإياك يابن عفان أن تعاوِدَنى فيه بعد اليوم ، وما رأينا

---

(١) الأبلم : خوص المقل ؛ والمثل : « المال بينى وبينك شق الأبلمة » ؛ مثل يضرب فى المساواة والمشاركة فى الأمر .

عثمان قال فى جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبى بكر وعمر : إنّ عندى عهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، لاأستحقّ معه عتابا ولا تهجينا ، وكيف تطيب نفس مُسلم موقّر لرسول الله صلى الله عليه وآله معظّم له ، أنْ يأتىَ إلى عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، مصرِّح بعداوته والوقيعة فيه ؛ حتّى بلغ به الأمرُ إلى أنْ كان يحكى مِشْيَته ، طرده رسول الله ، وأبعده ولعنه ؛ حتى صار مشهورا بأنه طرِيدُ رسول الله صلى الله عليه وآله ـ فيكرِمه ويردّه إلى حيث أخرج منه ، ويصِلُه بالمال العظيم ؛ إما من مال المسلمين أو مِنْ ماله ! إنّ هـذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمّل والتعلّل بالتأويل الباطل !

فأمّا قولُ صاحب " المغنى " : إنّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهِد واحد ، وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التى تخصّ ، فأوّل مافيه أنّه لم يشهدْ عندها بشىء واحد فى باب الحـكم على مارواه جميع الناس ؛ ثم ليس هـذا من باب الذى يحتاج فيه إلى الشاهديْن ، بل هو بمنزلة كلّ مايقبَلُ فيه أخبارُ الآحاد . وكيف يجوز أن يجرِىَ أبو بكر وعمر مجْرَى الحقوق ما ليس منهـا . وقوله : لابدّ من تجويز كونه صادقا فى روايته ؛ لأنّ القطْعَ على كذب روايته لاسبيل إليه ليس بشىء ؛ لأنا قد بينّا أنّه لم يَرْوِ عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذنا ، إنمـا ادّعى أنه أطمَعه فى ذلك . وإذا جوّزنا كونَه صادقا فى هـذه الرواية ؛ بل قطعْنا على صدقه لم يكن معذورا .

فأما قوله : الواجبُ على غـيرِه ألّا يتهِمَه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه ؛ لانتصابه منصباً يُزِيل التهمة ؛ فأوّل مافيه أنّ الحاكِم لا يجوز أن يحكم بعلمه مع التّهمة ، والتّهمة قد تـكون لها أمارات وعلامات ؛ فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتّهم فى العادة ، كان مؤثِّرا ؛ ومالم يكنْ كذلك فلا تأثيرَ له ، والحـكَم هو عمّ عثمان ، وقريبه ونسيبه ، ومن

قد تكلّم فى ردّه مرة بعد أخرى ، ولوالٍ بعد والٍ ؛ وهذه كلها أسباب التّهمة ، فقد كان يجب أنْ يتجنّب الحكم بعلمه فى هذا الباب خاصّة ، لتطرّق التهمة إليه .

فأما ماحكاه عن أبى الحسين الخيّاط من أنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله لو لم يأذن فى رَدّه لجاز أن يَرُدّه إذا أدّاه اجتهادُه إلى ذلك ؛ لأنّ الأحوالَ قد تتغيّر ، فظاهر البُطْلان ؛ لأن الرسولَ عليه السلام إذا حَظر شيئا أو أباحه لم يكن لأحدٍ أنْ يجتهد فى إباحة المحظور أو حَظْر المباح ، ومَنْ يجوِّز الاجتهادَ فى الشريعة لا يُقْدِم على مثلِ هذا ؛ لأنّه إنما يجوز عندهم فيما لانصّ فيه . ولو سوّغنا الاجتهادَ فى مخالفة ماتناوله النصّ لم يؤمَن أن يؤدّىَ اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة ، بأن تتغير الحال ، وهذا هَدْمٌ للشريعة . فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام فى الأمريْن واحد .

❁

الطعن الثالث :

أنه كان يؤثر أهلَ بيتهِ بالأموال العظيمة التى هى عُدّة المسلمين ، نحو مارُوِى أنّه دفع إلى أربعة أنفس من قريش زوّجهم بناتِه أربعمائة ألف دينار ، وأعطى مَرْوان مائة ألف عند فتح إفريقيَة ، ويروى خُمْس إفريقيَة وغير ذلك ، وهذا بخلاف سيرة مَنْ تقدمه فى القِسْمة على النّاس بقدر الاستحقاق ، وإيثار الأباعد على الأقارب .

قال قاضى القضاة : وجوابُنا عن ذلك أنّ من الظاهر المشهور أنّ عثمانَ كان عظيمَ اليَسار ، كثيرَ المال ، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهلَ بيتهِ من مالِه ، وإذا احتمل ذلك وجب حملُه على الصحة .

وقد قال شيخُنا أبو علىّ رحمه الله تعالى : إنّ الذى رُوِى من دَفْعه إلى ثلاثة نفر من قريش زَوَّجهم بناتِه ؛ إلى كلّ واحد منهم مائة ألف دينار ، إنما هو من ماله ، ولا رواية

تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال ، ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكونَ أعطاهم من بيت المال ليردّ عِوَضه من ماله ، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك ، كما له أنْ يُقرض غيره .

وقال شيخُنا أبو عليّ أيضا : إن ماروِيَ من دفعه خُمس إفريقيَة لَمّا فُتِحت إلى مروان ؛ ليس بمحفوظ ولا منقول على وجهٍ يجب قبوله ؛ وإنما يرْويه مَنْ يقصد التشنيع . وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط : إن ابن أبى سَرْح لما غزا البحر ، ومعه مَرْوان فى الجيش ، ففتَح الله عليهم ، وغنموا غنيمةً عظيمة ، فاشترى مَرْوان من ابن أبى سَرْح الُخمس بمائة ألف ، وأعطاه أكثرها . ثم قَدِم على عثمان بشيراً بالفَتْح ، وقد كانتْ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش ؛ فرأى عثمان أن يَهَب له مابقِيَ عليه من المال ، وللإمام فِعْلُ مثل ذلك ، ترغيبا فى مثل هذه الأمور .

قال : وهذا الصُّنْع كان منه فى السّنَة الأولى من إمامته ، ولم يبرأ أحد منه فيها ، فلا وجهَ للتعلّق بذلك .

وذكر أبو الحسين الخياط أيضا فيما أعطاه أقاربه أنّه وصلهم لحاجتهم ، فلا يمتنع مثلُه فى الإمام إذا رآه صلاحا . وذكر فى إقطاعه القطائع لبنى أمية ، أنّ الأئمة قد تحصُل فى أيديهم الضّياع ، لامالكَ لها ، ويعلمون أنّها لابدّ فيها ممّن يقوم بإصلاحها وعمارتها ، ويؤدّى عنها مايجب من الحقّ ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به ، وله أيضا أن يَهَبَ بعضها على بعض بحسب مايعلم من الصلاح والتألف ، وطريقُ ذلك الاجتهاد .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما قوله : يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله ، فالرواية بخلاف ذلك ، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطِى من بيت المال

صلةً لرحمه ، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضَّرْب من العذر ، ولا قال : إنّ هذه العطايا من مالى ، فلا اعتراضَ لأحد فيها .

روَى الواقدىّ بإسناده عن المسوّر بن عُتْبة ، قال : سمعتُ عثمانَ يقول : إنّ أبا بكرٍ وعمر كانا يتأوّلان فى هـذا المـال طلاق أنفسهما وذَوِى أرحامهما ، و إنّى تأوّلتُ فيه صِلَةَ رحمى .

ورُوِى عنه أيضا أنه كان بحضرته زياد بن عبيد ، مولى الحارث بن كَلَدة الثقفىّ ، وقد بعث إليه أبو موسى بمـال عظيم من البَصْرة ، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصِّحاف ، فبكى زياد ، فقال : لاتبكِ ، فإنّ عمر كان يمنع أهلَه وذوى قرابته ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطى أهلى وولدى وقرابتى ابتغاَء وجه الله .

وقد رُوِىَ هذا المعنى عنه من عدة طرق بألفاظ مختلفة .

وروى الواقدىّ أيضا بإسناده ، قال : قدِمَتْ إبلٌ من إبلِ الصدقة على عثمان ، فوهَبَها للحارث بن الحـكَم بن أبى العاص .

وروى أيضا أنّه ولّى الحـكَم بن أبى العاص صدقاتِ قُضَاعة ، فبلغت ثلثمائة ألف ألف، فوَهَبها له حين أتاه بها .

ورى أبو مِخْنف والواقدىّ أنّ الناس أنـكروا على عثمان إعطاء سعيد بن العاص مائة ألف ، وكلّه علىّ والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن فى ذلك ، فقال : إن له قرابةً ورَحِما ، قالوا : فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذَوُو رحم ؛ فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يحتسِبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسِبُ فى إعطاء قرابتى ، قالوا : فَهدْيُهُما والله أحبُّ إلينامن هَدْيك .

وروى أبو مِخْنف أنّ عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العِيص بن أمية ، قدم على عثمان من مكة ، ومعه ناس، فأمر لعبد الله بثلثمائة ألف ، ولـكلّ واحد من القوم بمائة ألف

وصَكّ [1] بذلك على عبد الله بن الأرقم ـ وكان خازنَ بيت المال ـ فاستكثره وردّ الصكّ به . ويقال إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتابا ، فأبى وامتنع ابن الأرقَم أن يدفَع المال إلى القوم ، فقال له عثمان: إنّما أنت خازِن لنا ، فما حملك على مافعلت ؟ فقال ابن الأرقم : كنت أرانى خازنَ المسلمين ، وإنما خازنك غلامُك ، والله لا أَلِى لك بيتَ المال أبدا ، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المِنْبر ، ويقال: بل ألقاها إلى عثمان ، فرفعها إلى نائل مولاه .

وروى الواقدىّ أنّ عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمِل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم فى عقَيب هذا الفعل ثلثمائة ألف درهم ، فلما دخل بها عليه ، قال له : ياأبا محمد ، إن أميرَ المؤمنين أرسل إليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك ذُو رحم أهلُ حاجة ففرِّقْ هذا المال فيهم ، واستعنْ به على عيالك ، فقال عبدالله بن الأرقم :مالى إليه حاجة،مالى إليه حاجة ،وما عملت لأنْ يُثيبَنى عثمان ، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين مابلغ قَدْرُ عملى أنْ أُعطَى ثلثمائة ألف ، ولئن كان من مالِ عثمان ماأحبُّ أنْ أرزأه [2] من ماله شيئا . ومافى هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه وينبه عليه .

فأما قولُه : ولو صح أنّه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكونَ ذلك على طريق القَرْض ؛ فليس بشىء؛لأنّ الروايات أولا تخالف ماذكره ، وقدكان يجبُ لمّا نقم عليه وجوهُ الصحابة إعطاء أقاربه من بيت المال ، أنْ يقول لهم : هذا على سبيل القَرْض ، وأنا أردّ عِوَضه ، ولا يقول ماتقدم ذكره ، من أنّنى أصِلُ به رَحِمى ؛ على أنّه ليس للإمام أن يقترِض من بيت مال المسلمين إلا ماينْصَرف فى مصلحة لهم مهمّة ؛ يعودُ عليهم نفعها ، أو فى سَدّ خَلّة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها ؛ فأمّا أنْ يُقرِض المال ليتّسع به ،

---

(١) صك : كتب ، والصك : الكتاب .

(٢) ماأحب أن أرزأه ، أى ما أحب أن أصيب منه شيئاً .

ويُمرِّح فيه مترَفِي بنى أمية وفُسّاقهم فلا أحدَ يجيز ذلك .

فأما قوله حاكياً عن أبى علىّ ، أن دَفْعه خمس إفريقيَة إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول ؛ فباطل ، لأنّ العلم بذلك يجرى مجرى العلم بسائر ماتقدم ، ومَنْ قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شكّ ، كما يعلم نظائره .

روى الواقدىّ عن أسامة بن زيد ، عن نافع مولى الزبير ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقيَة ، فأصاب عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح غنائم جليلة ، فأعطى عثمانُ مَرْوان بن الحكم تلك الغنائم . وهذا كما ترى يتضمّن الزيادة على إعطاء الخمس ، ويتجاوزه إلى إعطاء الأصل .

وروى الواقدىّ ، عن عبد الله بن جعفر ، عن أم بكْر بنت المسوّر ، قالت : لما بنى مَرْوانُ داره بالمدينة ، دعا الناس إلى طعامه ، وكان المسوّر ممن دعاه ، فقال مروان وهو يحدّثهم : والله ماأنفقتُ فى دارى هذه من مال المسلمين دِرْهما فما فوقه ، فقال المسوّر : لو أكلت طعامك وسكتّ ، كان خيرا لك . لقد غزوْت معنا إفريقيَة ، وإنك لأقلّنا مالا ورقيقا وأعوانا ، وأخفنا ثقَلا ، فأعطاك ابنُ عمّكّ خُمْس إفريقيَة ، وعملت على الصدقات ، فأخذت أموال المسلمين .

وروى الكلبىّ عن أبيه ، عن أبى مخنف أنّ مروان ابتاعَ خمس إفريقيَة بمائتى ألف درهم ومائتى ألف دينار ، وكلّم عثمان ، فوهبها له ، فأنكر الناس ذلك على عثمان ، وهذا بعينه هو الذى اعترف به أبو الحسين الخياط واعتذر عنه بأنّ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش ، فرأى عثمان أن يهبَ لمروان ثُمْن ما ابتاعه من الُخمْس لما جاءه بشيرا بالفتح على سبيل الترغيب ، وهذا الاعتذار ليس بشىء ، لأنّ الذى رويناه من الأخبار فى هذا الباب خالٍ من البشارة ، وإنما يقتضى أنه سأله ترْكَ ذلك عليه ، فتركه وابتدأ هو بصلتِه ، ولو أتى بشيرا بالفتح كما ادَّعَوْا ، لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائد نفعُه على المسلمين ،

لأنّ تلك البشارة لا تبلغُ إلى أن يستحق البشير بها مائتى ألف درهم ، ولا اجتهادَ فى مثل هذا ، ولا فرق بين من جوّز أن يؤدىَ الاجتهاد إلى مثله، ومَنْ جوّز أن يؤدِّىَ الاجتهاد إلى دفع أهل الغنيمة إلى البشير بهـا ، ومن ارتـكب ذلك ألزم جواز أن يُؤدىَ الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميعَ أموال المسلمين فى الشرق والغرب .

فأمّا قوله : إنه وصلَ بنى عمِّه لحاجتهم،ورأى فى ذلك صلاحا ، فقد بيّنا أن صِلاته لهم كانت أكثرَ مما تقتضيه الخلّة والحاجة ، وأنّه كان يصلُ فيهم المياسيرَ ، ثم الصلاحُ الذى زعم أنه رآه ، لا يخلُو إمّا أن يكون عائداً على المسلمين ، أو على أقاربه . فإن كان على المسلمين فمعلومٌ ضرورةً أنّه لا صلاحَ لأحـد من المسلمين فى إعطاء مَرْوان مائتى ألف دينار ، والحـكَم بن أبى العاص ثلثمائة ألف درهم ، وابن أَسِيد ثلثمائة ألف درهم ؛إلى غير ما ذكرنا ، بل على المسلمين فى ذلك غاية الضرر . وإن أراد الصَّلَاح الراجع إلى الأقارب فليس له أن يُصلِح أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين ، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين .

وأما قوله : إنّ القطائعَ التى أقطعها بنى أمية ؛إنمـا أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين ؛ لأنّ تلك الضياع كانت خَرابا لا عامر لها ، فسلّمها إلى من يعمّرها ويؤدِّىَ الحقّ عنه ؛فأول مافيه أنّه لو كان الأمر على ما ذكره ، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصِّلة والمعونة لأقاربه لمـا خَفِىَ ذلك على الحاضرين ، ولـكانوا لا يعدّون ذلك من مثالبه ، ولا يواقفونه عليه فى جملة ما واقفوه عليه من أحداثه . ثم كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابُه بخلاف ما روى من جوابه ؛ لأنّه كان يجب أن يقول لهم : وأىّ منفعة فى هـذه القطائع عائدة على قَرابتى حتى تعدّوا ذلك من جملة صِلاتى لهم ؛ وإيصالى المنافع إليهم ! وإنما جعلتُهم فيها بمنزلة الأكَرة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم ، وما كان

يجب أن يقول ما تقدمت روايته ؛ من أنى محتسِب فى إعطاء قرابتى ، وإن ذلك على سبيل الصلة لرحمى ! إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذى ذكره .

*

الطعن الرابع :

أنه حَمَى الحِمَى عن المسلمين ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعلَهم سواء فى الماء والكلأ .

قال قاضى القضاة : وجوابُنا عن ذلك أنّه لم يحمِ الكلأ لنفسِه ، ولا استأثر به ، لكنّه حماه لإبل الصدقة التى منفعتُها تعود على المسلمين . وقد روى عنه هذا الكلام بعينه ، وأنه قال : إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وليس فى الاعتذار ما يزيد عن ذلك .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما أوّلًا فالمروىّ بخلاف ما ذكر ، لأنّ الواقدىّ روى بإسناده ، قال : كان عثمان يحمى الرَّبَذَة والشّرف(١) والبقيع ، فكان لا يدخل الحِمى بعيرٌ له ولا فرس ، ولا لبنى أُميّة حتى كان آخر الزمان ، فكان يحمى الشَّرف لإبله وكانت ألفَ بعير ، ولإبل الحكَم بن أبى العاص ، ويحمى الرَّبذة لإبل الصدقة ، ويحمى البَقِيع لخيل المسلمين وخيلِه وخَيْلِ بنى أُمية .

قال : على أنه لو كان إنّما حماه لإبل الصدقة لم يكنْ بذلك مصيبا ؛ لأنّ الله تعالى ورسولَه أباحَا الكلأ ، وجعلاه مشتركاً ، فليس لأحدٍ أن يغيِّر هذه الإباحة ، ولو كان

---

(١) فى معجم البلدان قال الأصمعى : « الشرف : كبد نجد ؛ وكانت من منازل بنى آكل المرار من كندة الملوك؛ وفيها اليوم حمى ضرية ، وفيه الربذة ؛ وهى الحمى الأيمن » .

فى هذا الفعل مُصيبا ، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أنْ يستغفر الله منه و يعتذر ، لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب .

⁂

الطعن الخامس :

أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها ، وذلك مما لا يحلّ فى الدين .

قال قاضى القضاة : وجوابنا عن ذلك أنّه إنمـا جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة ، واستغناء أهل الصدقة ، ففعل ذلك عَلَى سبيل الإقراض ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله مثلَه ، وللإمام فى مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرَى هذا المجرى ؛ لأنّ عند الحاجة ربّما يجوز له أن يقرض من الناس ، فأن يجوز له أن يتناولَ من مال فى يده ، ليردّ عوَضه من المال الآخر أولى .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الـكلام ، فقال : إنّ المال الذى جعل الله تعالى له جهة مخصوصة ، لا يجوز أن يعدَل به عن جهته بالاجتهاد ، ولو كانت المصلحة فى ذلك موقوفة عَلَى الحاجة لشرَطها الله تعالى فى هذا الُحـكم ، لأنه سبحانه أعلمُ بالمصالح واختلافها منّا ، ولـكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القِسْط مطلقا .

وأما قوله : إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم فَعَل مثله ، فهى دَعْوَى مجرّدة من برهان ، وقد كان يجب أن يروِىَ ما ذكر فى ذلك . وأما ما ذكره من الاقتراض ، فأين كان عثمان عن هذا العذر لما وُوقِف عليه !

الطعن السادس :

أنّه ضرب عبدَ الله بن مسعود حتى كَسرَ بعض أضلاعه .

قال قاضي القضاة : قال شيخُنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : لم يثبُتْ عند نا ولا صحّ عندنا ما يقال من طَعْنِ عبد الله عليه ، و إكفاره له ، والذى يصحّ من ذلك أنّ عبد الله كَرِه منه جمعَه الناسَ عَلَى قراءة زيد بن ثابت و إحراقَه المصاحف ، وثَقُل ذلك عليه كما يثقُل على الواحد مِنّا تقديمُ غيره عليه .

وقد قيل : إنّ بعضَ موالى عثمان ضربه لَمّا سمع منه الوقيعة فى عثمان ، ولو صحّ أنه أَمَرَ بضربه لم يكن بأنْ يكون طعناً فى عثمان ، بأوْلى من أن يكون طعنًا فى ابن مسعود ؛ لأنّ للإمام تأديبَ غيره ، وليس لغيره الوقيعة فيه إلا بعد البيان . وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخيّاط أنّ ابنَ مسعود إنّما عابه لعزْله إياه ؛ وقد رُوِيَ أنّ عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذرَه ، ولما أحضَر إليه عطاءه فى مرضه ، قال ابن مسعود : منعتنى إياه إذ كان ينفعُنى ، وجئتنى به عند الموت ، لا أقبله . وأنه وسّط أمّ حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وآله ليزيلَ ما فى نفسه فلم يجب . وهذا يوجب ذمّ ابن مسعود إذ لم يقبل الندم ، و يوجب براءة عثمان من هذا العيب ، لو صحّ ما رووه من ضربه .

⁂

اعترض المرتضَى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : المعلوم المرويّ خلاف ما ذكره أبو عليّ ، ولا يختلف أهلُ النقل فى طعن ابن مسعود على عثمان ، وقوله فيه أشدّ الأقوال وأعظمها ، والعلْم بذلك كالعلم بكل ما يدّعى فيه الضرورة ، وقد رَوَى كلّ مَنْ روى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طُرُقهم أنّ ابن مسعود كان يقول : ليتنى وعثمان برملِ عالِج [1] يحثُو عَلَيّ وأحثو عليه ، حتى يموتَ الأعجز منى ومنه !

ورووا أنه كان يطعن عليه ، فيقال له : ألا خرجْتَ عليه ، ليخرج معك ! فيقولُ : لأنْ أزاوِلَ جَبلا راسيا أحبُّ إلىّ من أن أزاول مُلْكا مؤجلا .

---

(١) عالج : رمل بين فيد والقريات ، ينزلها بعض طيء ، متصلة بالثعلبية . مراصد الاطلاع ٢ : ٩١١ .

وكان يقول كلَّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلنا : « إنّ أصدَق القول كتابُ الله ، وأحسنَ الهدى هدىُ محمد ، وشرّ الأمور محدَثاتها ، وكلّ محدَث بِدْعة ، وكل بِدْعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . وإنما كان يقول ذلك معرّضا بعثمان ، حتى غضِب الوليد ابن عُقْبة من استمرار تعريضه، ونهاه عن خطته هذه ، فأبَى أن ينتهىَ ، فكتب إلى عثمان فيه ، فكتب عثمان يستقدِمه عليه .

وروى أنّه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعَجا عن الكوفة ، خرج الناس معه يشيّعونه ، وقالوا له : يا أبا عبد الرحمن ، ارجع ، فوالله لا نوصله إليك أبدا ؛ فإنا لا نأمنه عليك ، فقال: أمر سيكون ، ولا أحبّ أن أكون أوّلَ مَنْ فتحه.

وقد روى عنه أيضا من طرق لا تحصى كثرةً أنه كان يقول : ما يزنُ عثمانُ عندَ الله جَناح ذباب . وتَعَاطِى ما رُوِىَ عنه فى هذا الباب يطول ، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه ، وإنه بلَغ من إصْرار عبد الله على مظاهرته بالعداوة أنْ قال لما حضره الموت : مَنْ يتقبَّلْ مِنِّى وصيةً أوصِيه بها عَلَى ما فيهـا ! فسكت القومُ ، وعرفوا الذى يريد ، فأعادها ، فقال عمار بن ياسر رحمه الله تعالى : أنا أقبلها ، فقال ابن مسعود : ألّا يصلِّىَ عَلَىّ عثمان ، قال : ذلك لك ، فيقال : إنّه لما دُفِن، جاء عثمان منكِرا لذلك ، فقال له قائل : إن عماراً ولِىَ الأمر ، فقال لعمار: ما حملك عَلَى أنْ لم تؤذِنِّى ؟ فقال : عهد إلىّ ألّا أوذِنك، فوقف على قبره وأثنى عليه ، ثم انصرف وهو يقول : رفعتم والله أيديَكم عن خَيْرِ مَنْ بَقِى ، فتمثل الزبير بقول الشاعر :

لَا ألفينَّكَ بعْدَ الموتِ تَندُبُنِى ... وفى حياتىَ ما زَوَّدْتَنِى زَادِى[1]

ولما مَرِض ابنُ مسعود مرضَه الذى مات فيه ، أتاه عثمان عائدا ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال: ذنوبى ، قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى ، قال : ألا أدعو لك طبيبا ! قال :

---

(١) . لعبيد بن الأبرص ، ديوانه ٤٨

الطبيبُ أمرضنى ، قال : أفلا آمر لك بعطائِك ؟ قال : منعتَنيه وأنا محتاج إليه ، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنـه ! قال : يكونُ لولدك ، قال : رزقُهم على الله تعالى ، قال : استغفِرْ لى يا أبا عبد الرحمن ، قال : أسألُ اللهَ أنْ يأخذَ لى منك حَقّى .

قال : وصاحبُ " المغنى " قد حكَى بعض هذا الخبر فى آخر الفصل الذى حكاه من كلامه ، وقال : هذا يوجب ذَمّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر . وهذا منه طَريف ؛ لأنّ مذهبَه لا يقتضى قبولَ كلّ عذر ظاهر ، وإنمـا يجب قبولُ العذر الصادق ، الذى يغلب فى الظّن أن الباطن فيـه كالظاهر ، فمن أينَ لصاحب " المغنى " أنّ اعتذار عثمانَ إلى ابن مسعود كان مستوفيا للشرائط التى يجب معها القبول ! وإذا جازَ ما ذكرناه لم يكن عَلَى ابن مسعود لوم فى الامتناع من قبول عُذْره .

فاما قوله: إن عثمان لم يضر به ، وإنما ضَرَبه بعضُ مواليه لما سمع وقيعتَه فيه، فالأمر بخلاف ذلك ، وكلّ مَنْ قرأ الاخبار عَلم أنّ عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنَفِ الوجوه ، وبأمْرِه جرى ما جرى عليه، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كَسْر ضلعه، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول : إنّى لم آمر بذلك ، ولا رضيته من فاعله ، وقد أنـكرت عليه فعله .

وفى علمنا بأنّ ذلك لم يكن . دليل على ما قلنا . وقد روى الواقدىّ بإسناده وغـيره أنّ ابن مسعود لما استقدم المدينة ، دخلها ليلة جمعة ، فلما علم عثمانُ بدخوله ، قال: أيها الناس، إنه قد طرقـكم الليلة ، دويبة مَنْ تمشِى على طعامه يقىء ويسلح. فقال ابن مسعود : لست كذلك، ولـكنّنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وصاحبُه يوم أُحُد وصاحبُه يوم بيعة الرضوان ، وصاحبُه يوم الخندق ، وصاحبُه يوم حُنين . قال: وصاحت عائشة: ياعثمان ! أتقول هذا لصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال عثمان : اسكتى ؛ ثم قال لعبد الله بن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن عبد العُزّى بن قصىّ : أخرِجْه إخراجا عنيفا ، فأخذه

ابنُ زمعة ، فاحتمله حتىّ جاء به باب المسجد ، فضرب به الأرض ، فكسر ضلعا من أضلاعه فقال ابن مسعود: قتلني ابنُ زمعة الكافر بأمر عثمان ! وفي رواية أخرى إنّ ابنَ زمعة الذي فعل به مافعل كان مولى لعثمان أسود مُسَدَّماً[1] طُوالا. وفي رواية أخرى: إن فاعل ذلك يَحْمُوم مولى عثمان. وفي رواية، إنه لمااحتمله ليخرجه من المسجد ناداه عبدالله: أنشدك الله، ألاّ تخرِجَني من مسجد خليلي صلى الله عليه وآله .

قال الراوي : فكأنى أنظر إلى حُمُوشة[2] ساقَيْ عبد الله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أخرج من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَساقا ابن أمّ عبد أثقلُ في الميزان يوم القيامة من جبل أحد» .

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القُرظيّ أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطا في دفنه أباذَرّ. وهذه قصة أخرى؛ وذلك أن أبا ذرّ رحمه الله تعالى لما حضرته الوفاة بالرَّبذة ، وليس معه إلا امرأته وغلامُه عَهِد إليهما أن غَسِّلاني ثم كفناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأوّل ركب يمرّون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه ، فأعينونا على دَفْنِه ، فلما مات فعلوا ذلك ، وأقبل ابنُ مسعود في ركب من العراق معتمرين ، فلم يرعْهمُ إلا الجنازة على قارعة الطريق ، قد كادت الإبل تطؤها ، فقام إليهم العبد ، فقال : هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعينونا على دفنه ، فانهلّ ابنُ مسعود باكياً ، وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه ، قال له : « تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبْعث وحدك » ، ثم نزل هو وأصحابه ، فواروْه .

قال : فأما قوله إن ذلك ليس بأنْ يكون طعناً في عثمان بأولى من أنْ يكون طعنا في ابن مسعود ، فواضح البطلان ، وإنما كان طعناً في عثمان دون ابن مسعود ؛ لأنه لاخلاف

---

(١) المسدم : الأهوج.

(٢) الحوشة : دقة الساقين .

بين الأمة فى طهارة ابن مسعود وفضله و إيمانه ، ومدح رسول الله صلى الله عليه وآله ، وثنـائه عليه ، وأنّه مات على الجملة المحمودة منه ، وفى جميع هـذا خلاف بين المسلمين فى عثمان .

فأما قوله : إن ابن مسعود كَرِه جَمْعَ عثمان النّاس على قراءة زيد ، و إحراقَه المصاحف؛ فلا شكّ أنّ عبد الله كره ذلك ، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتـكلّموا فيه ، وقد ذكر الرواة كلامَ كل واحد منهم فى ذلك مفصّلا ، وما كره عبد الله من ذلك إلا مكروهاً ، وهو الذى يقول رسول الله صلى الله عليه وآله فى حقه: «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد ». ورُوِىَ عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال : « قراءة ابن أم عبد هى القراءة الأخيرة » ؛ إن رسول الله صلى الله عليـه كان يُعرَض عليـه القرآن فى كلّ سنة من شهر رمضان ، فلما كان العام الذى تُوفِّى فيـه عُرِض عليه دفعتين ، فشهد عبد الله مانُسِـخ منـه ، وما صحّ فهى القراءة الأخيرة .

ورُوِىَ عن الأعمش ، قال : قال ابن مسعود : لقد أخذتُ القرآن مِنْ فِى رسول الله صلى الله عليه، سبعين سُورة ، و إن زيد بن ثابت لغُلام فى الـكتّاب ، له ذؤابة .

فأما حكايتُه عن أبى الحسين الخياط أنّ ابنَ مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه ، فعبدالله عِنْدَ كلِّ مَنْ عرفه بخلاف هذه الصورة ، وأنه لم يكن ممّنْ يخْرج على عثمان و يطعن فى إمامته بأمرٍ يعود إلى منفعة الدنيا ، و إن كان عزله بما لاشبهة فيه فى دين ولا أمانة عيبا لاشكّ فيه .

الطعن السابع :

أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة ، وأحرق المصاحف ، وأبطل مالاشكّ أنه نزل من القرآن ؛ وأنه مأخوذ عن الرسول صلى الله عليه ، ولو كان ذلك مما يسوغُ لسبق إليه رسول الله صلى الله عليه ، ولفعله أبو بكر وعمر .

قال قاضي القضاة : وجوابُنــا عن ذلك أنّ الوجهَ فى جمع القرآن على قراءة واحدة تحصينُ القرآن وضبطه ، وقطع المنازعة والاختلافِ فيه . وقولهم : لو كان ذلك واجبــاً لفعله الرسول صلى الله عليه وآله غير لازم ؛ لأنّ الإمام إذا فعله صار كأنّ الرسول صلى الله عليــه وآله فعله ، ولأنّ الأحوال فى ذلك تختلف ، وقد روى أنّ عمر كان عزم على ذلك فمات دونه. وليس لأحد أن يقول :إن إحراقه المصاحف استخفافٌ بالدين ، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول صل الله عليه وآله أن يخرب المسجد الذى بُنِي ضراراً وكفراً ، فغير ممتنع إحراق المصاحف .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الـكلام ، فقال : إن اختلاف الناس فى القَراءة ليس بموجب لما صنعه؛ لأنهم يروُون أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، كلّها شافٍ كافٍ » ، فهذا الاختلاف عندهم فى القرآن مباحٌ مسند عن الرسول صلى الله عليه وآله ، فـكيف يحظر عليهم عثمان من التوسّع فى الحروف ماهومباح ! فلو كان فى القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادّعى ؛لما أباح النبى صلى الله عليه وآله فى الأصل إلا القراءةالواحدة ، لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته ، من حيث كان مؤيَّدا بالوحى ، موفّقا فى كلٍّ ما يأتى ويَذَر . وليس له أن يقول : حَدَث من الاختلاف فى أيام عثمان مالم يكنْ فى أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، ولا ماأباحه ؛ وذلك لأنّ الأمر

لو كان على هذا لوجبَ أن ينهى عن القراءة الحادثة ، والأمر المبتدع ، ولا يحمله ماأحدث من القراءة على تحريم المتقدّم بلا شبهة .

وقوله : إن الإمام إذا فعل ذلك ؛ فـكأنّ الرسول صلى الله عليه وآله فَعَله تعلّل بالباطل ؛ وكيف يكون كما ادّعى ، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً فى أيام الرسول صلى الله عليه وآله ، فلو كان سبب الانتشار الزيادة فى القرآن ، وفى قطعه تحصين له ، لـكان عليه السلام بالنهى عن هذا الاختلاف أوْلى من غيره ؛ اللهم إلا أن يقال : حدث اختلافلم يكن ؛ فقد قُلْنا فيه ما كفى.

وأما قوله : إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه ؛ فما سمعناه إلا منه ؛ ولو فعل ذلك أىّ فاعل كان لـكان مُنْـكَراً .

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لايكون استخفافاً بالدين ، بحمله إياه على تخريب مسجد الضرار ، فبيْن الأمرين بَوْنٌ بعيد ؛ لأنّ البنيان إنما يكون مسجدا و بيتا لله تعالى بنية البانى وقصده ، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنيان بأن يكون مسجدا أوْلى من بعض ، ولـما كان قصد البانى لذلك الموضع غير القُرْبة والعبادة ، بل خلافُها وضدّها من الفساد والمـكيدة . لم يكن فى الحقيقة مسجدا ، وإن سمى بذلك مجازا على ظاهر الأمر، فهدْمُه لاحرجَ فيه ، وليس كذلك مابين الدَّفتين ؛ لأنه كلام الله تعالى الموقّر المعظّم ، الذى يجب صيانته عن البِذلة والاستخفاف ، فأىّ نسبة بين الأمرين !

☆☆☆

الطعن الثامن :

أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضّرب ، حتى حَدَث به فَتْق ، ولهذا صار أحد مَنْ ظاهر المتظلّمين من أهل الأمصار على قتله ، وكان يقول : قتلناه كافرا .

قال قاضي القضاة: وقد أجابنا شيخُنا أبو على رحمه الله تعالى عن ذلك ، فقال: إنّ ضرب عمار غير ثابت ، ولو ثبت أنّه ضرب به للقول العظيم الذى كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه ؛ لأنّ للإمام تأديبَ مَنْ يستحق التأديب . ومما يبعد صحة ذلك أنّ عمارا لا يجوز أن يكفِّره ، ولمّا يقعْ منه ما يستوجب به الكفر ! لأن الذى يكفَّر به الكافر معلوم ؛ ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيرُه من الصحابة أوْلى بذلك ، ولوجب أن يجتمعوا على خَلْعه، ولوجب ألّا يكون قتله مباحا لهم ، بل كان يجب أن يقيموا إماما ليقتله على ماقدمناه. وليس لأحدٍ أن يقول : إنما كَفّره عمار من حيث وَثَب على الخلافة ، ولم يكن لها أهلا ، لأنّا قد بينا القولَ فى ذلك ؛ ولأنه كان منصوبا لأبى بكر وعمر على ماتقدّم ، وقد بينا أنّ صحة إمامتهما تقتضى صحةَ إمامة عثمان .

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن على عليهما السلام فى أمر عثمان فقال عمار : قتِل عثمان كافرا ، وقال : الحسن عليه السلام: قتل مؤمنا ؛ وتعلّق بعضهما ببعض ، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال : ماذا تريد من ابن أخيك ؟ فقال : إنى قلتُ كذا ، وقال كذا ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أتكفُر بربّ كان يؤمن به عثمان ! فسكت عمّار ؛ وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نَقَم عليه ضربَه عمارا احتجّ لنفسه ، فقال : جاءنى سعد وعمّار ، فأرسلا إلىّ أن ائتنا ، فإنّا نريد أن نذاكرك أشياء فعلتَها ، فأرسلت إليهما : إنى مشغول ، فانصرِفا ، فموعدكما يوم كذا ، فانصرف سعد وأبَى عمار أنْ ينصرف ، فأعدت الرسولَ إليه فأبى أن ينصرف ، فتناوله بغير أمرى ؛ ووالله ماأمرتُ به ولا رضيت ؛ وهاأنا فليقتصّ منى .

قال : وهذا من أنصفِ قولٍ وأعدله .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال : أما الدفع لضرب عمار ، فهو

كالإنكار لطلوع الشمس ظهورا وانتشارا ، وكلٌّ من قرأ الأخبار ، وتصفّح السِيَر، يعلم من هذا الأمر مالاتثنيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعة؛ وهذا الفعل ـ أعنى ضربَ عمار ـ لم تختلف الرواة فيه ؛ وإنما اختلفوا فى سببه ، فروَى عباس بن هشام الكلبىّ عن أبى مِخْنف ، فى إسناده أنه كان فى بيت المال بالمدينة سَفَط [1] فيه حَلْى وجوهر ، فأخذ منه عثمان ماحَلّى به بعضَ أهله، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه فى ذلك ، وكلّموه فيه بكلٍّ كلام شديد ؛ حتى أغضبوه ، فخطب فقال : لنأخذَنّ حاجتنا من هذا الفىء ؛ وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام ! فقال له علىٌّ عليه السلام: إذَنْ تُمنعَ من ذلك ، ويحالَ بينك وبينه ! فقال عمار : أشهد الله أنّ أنفِى أوّلُ راغم من ذلك ؛ فقال عثمان أعلىّ يابن ياسر تجترىء ! خذوه ، فأُخِذ ، ودخل عثمان ، فدعا به فضرب به حتى غُشِى عليه ، ثم أخرج فحمل حتى أُتِىَ به منزلَ أم سلمة رضى الله تعالى عنها، فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توضّأ وصلّى ، وقال : الحمدُ لله، ليس هذا أول يوم أوذِينا فى اللهِ تعالى! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ ـ وكان عمار حليفا لبنى مخزوم : يا عثمان ، أمّا علىّ فاتقيتَه ، وأما نحن فاجترأت علينا ، وضربتَ أخانا حتى أشْفَيْتَ [2] به على التلف ؛ أما والله لئن مات لأقتلَنّ به رجلا من بنى أُميّة عظيم الشأن ! فقال عثمان : وإنك لهاهنا يابن القَسْرية ـ قال : فإنهما قَسْرِيتانِ ، وكانت أم هشام وجدّته قَسْرِيّتين من بَجِيلة ـ فشتَمه عثمان ، وأمرَ به فأخرج، فأتى به أمّ سلمة رضى الله تعالى عنها ، فإذا هى قد غَضِبت لعمار ، وبلغ عائشة رضى الله تعالى عنها ما صَنَع بعمار ، فغضبتْ أيضا، وأخرجت شَعْراً من شَعْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونعلا من نعاله ، وثوبا من ثيابه ، وقالت : ماأسرع ما تركتم سُنّة نبيكم، وهذا شعْره وثوبه ونعله لم يبْل بعد !

---

(١) السفط : وعاء كالجوالق .

(٢) أشفيت به ، أى جعلته مشرفا على الهلاك .

وروى آخرون أن السببَ فى ذلك أنّ عثمان مَرّ بقبر جـديد ، فسأل عنه ، فقيل : عبدالله بن مسعود ، فغضب عَلَى عمار لـكتمانه إياه موتَه ، إذ كان المتولّىَ للصلاة عليه ، والقيام بشأنه ، فعندها وطئ عثمان عمّاراً حتى أصابه الفَتْق .

وروى آخرون أنّ المقداد وعمارا وطلحة والزبير وعِدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كَتبُوا كتاباً عدّدوا فيه أحداث عثمان ، وخوّفوه به ، وأعلموه أنّهم مُواثبوه إن لم يُقْلِع ، فأخذ عمار الـكتاب ، فأتاه به ، فقرأ منه صَدْراً ، ثم قال له : أعلىّ تقدمُ من بينهم ! فقال : لأنّى أنصحُهم لك ، قال : كذبت يابن سُمَيّة ! فقال : أنا والله ابن سُمَيّة ، وابن ياسر ! فأمر عثمان غِلْمانا له ، فمدّوا بيديْه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه — وهى فى الخفَّين — على مذاكيره ، فأصابه الفتق ، وكان ضعيفا كَبيراً فغُشِى عليه .

قال : فضرْبُ عمار عَلَى ما ترى غير مختلف فيه بين الرواة ، وإنما اختلفوا فى سببه ، والخبرُ الذى رواه صاحب " المغنى " ؛ وحكاه عن أبى الحسين الخياط ما نعرفه ، وكتبُ السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره ، وقد كان يجب أن يُضِيفه إلى الموضع الذى أخذ منه ، فإنّ قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة . ولو كان صحيحا لـكان يجب أن يقول بدل قوله : « ها أنا فليقتصّ منى » إذا كان ما أمرَ بذلك ، ولا رضى عنه ، وإنما ضربه الغلام الجانى : «فليقتصّ منه » ، فإنّه أولى وأعدل .

وبعـد ؛ فلا تنافىَ بين الروايتين لو كان ما رواه معروفا ، لأنه يجوز أن يكونَ غلامه ضربه فى حال ، وضربه هو فى حال أخرى ، والروايات إذا لم تتعارضْ لم يجز إسقاط شىء منها .

فأما قوله : إن عمارا لا يجوز أن يكفره ، ولم يقع منه ما يوجب الـكفر ؛ فإنّ تـكفير عمار وغـير عمار له معروف ، وقد[1] جاءت به الروايات ، وقد رُوِى من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أنّ عمارا كان يقول : ثلاثة يشهدون عَلَى عثمان بالـكفر وأنا الرابع ، وأنا شرّ

(١) ا : « قد » .

الأربعة ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [1] ، وأنا أشهد أنه قد حَكَم بغير ما أنزل الله .

وروى عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له : بأىّ شىء كفّرتم [2] عثمان ؟ فقال : بثلاث : جَعَل المالَ دُولة بين الأغنياء ، وجَعَل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة مَنْ حارب الله ورسوله ، وعَمِل بغير كتاب الله .

ورُوِىَ عن حذيفة أنه كان يقول: ما فى عثمان بحمد الله أشُكّ ، لكنى أشُكّ فى قاتله، لا أدرى أ كافر قَتَل كافرا ، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قَتَله ؛ وهو أفضلُ المؤمنين إيمانا !

فأمّا ما رَواه من منازعة الحسن عليه السلام عمّاراً فى ذلك ، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فهو أولا غيرُ دافع لكون عمار مكفِّرا له ، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام . ثم إنْ كان الخبر صحيحا فالوجهُ فيه أنّ عمارا كان يعلم من لَحن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وعُدوله عن أن يقضِىَ بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقيّة ، فأمسك عمار متابعة [3] لغرضه .

فأما قوله : لا يجوز أن يكفِّره من حيث وثب على الخلافة، لأنّه كان مصوِّ با لأبى بكر وعمر لما تقدم من كلامه فى ذلك ؛ فإنا لا نسلم له أن عمّارا كان مصوّ با لهما ، وما تقدّم من كلامه قد تقدم كلامنا عليه .

فأما قوله عن أبى علىّ : إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذى كان يقوله فيه لم يكن طعناً ، لأنّ للإمام تأديبَ من يستحق ذلك ، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب " المغنى " ، أو من حكى كلامه من أبى علىّ وغيره ، من أن يعتذر ـ من ضرب عمار ووقْذِه حتى لحقه من الغَشْى ما تَرَك له الصلاة ، ووطئه بالأقدام امتهانا واستخفافا ـ بشىء من العذر ،

(١) سورة المائدة ٤٤ .
(٢) ا : « اكفرتم » .
(٣) الشافى : « لما علم غرضه » .

فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن رُوِى أن النبي صلى الله عليه وآله قال فيه : « عمار جِلْدة ما بين العين والأنف ومتى تُنْكأ الجلدة يدم الأنف ». وروى أنه قال عليه السلام : « ما لهم ولعمّار ! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » . وروى العوّام بن حَوْشب عن سلمة بن كُهَيل عن علقمة عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله » ؛ وأىّ كلام غليظٍ سمعه عثمان من عمّار يستحق به سيء المكروه العظيم الذى يجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى فى الحدود ! وإنما كان عمار وغيره أثبتوا عليه أحداثه ، ويعاتبه أحيانا على ما يظهر من سيء أفعاله . وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين : إما أن ينزع عمّا يوافق عليه من تلك الأفعال ، أو يبين مِنْ عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر ؛ فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجَره عن ذلك بوعْظٍ أو غيره ، ولا يُقدم على ما يفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحَكَم به .

⁂

الطعن التاسع :

إقدامه على أبى ذَرّ مع تقدّمه فى الإسلام ، حتى سيّره إلى الرَّبَذة ونفاه ، وقيل : إنه ضرَبه .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّ الناس اختلفوا فى أمر أبى ذَرّ رحمه الله تعالى . ورُوِىَ أنه قيل لأبى ذَرّ : عثمانُ أنزلك الرَّبَذة ؟ فقال : لا ؛ بل اخترتُ لنفسى ذلك .

وروِى أنّ معاوية كتب يشكوه وهو بالشام ، فكتب عثمان إليه أنْ صِرْ إلى المدينة ؛ فلما صار إليها قال : ما أخرجَك إلى الشام ؟ قال : لأنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه-

وآله يقول: «إذا بلغتْ عِمارةُ المدينة موضعَ كذا فاخرج عنها» ؛فلذلك خرجتُ ، فقال : فأىّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام ؟ قال : الرَّبَذة ، فقال : صِرْ إليها .

قال : وإذا تكافأتِ الأخبارُ لم يكن لهم فى ذلك حجّة ، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرِجه إلى الرَّبذة لصلاح يرجع إلى الدين،فلا يكون ظُلماً لأبى ذرّ ؛ بل يكون إشفاقا عليه، وخوفاً من أن يناله من بعضِ أهل المدينة مكروه ، فقد رُوِىَ أنه كان يُغلِظ فى القول و يخشن الكلام، فيقول:لم يبقَ أصحابُ محمد على ما عَهد ، ويُنَفّر[1] بهذا القول؛ فرأى إخراجَه أصلحَ لما يرجع إليه و إليهم و إلى الدين.وقد رُوِىَ أن عمر أخرَج عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خافَ ناحيته ، وقد ندَب اللهُ سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين ، و إلى القول اللّين للكافرين ، و بيّن للرسول صلى الله عليه وآله أنه لو استعمل الفظاظة لانفضُّوا من حوله،فلما رأى عثمانُ من خُشونة كلام أبى ذرّ ، وما كان يُورِده مما يخشَى منه التنفير فَعَل ما فَعَل .

قال : وقد رُوِىَ عن زيد بن وهب ، قال : قلتُ لأبى ذرّ رحمه الله تعالى ، وهو بالرَّبَذة : ما أنزلَك هذا المنزل ؟ قال : أخبِرُك ؛ إنى كنتُ بالشامِ فى أيام معاوية ، وقد ذكرت هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] ، فقال معاوية : هذه فى أهلِ الكتاب ، فقلت : هى فيهم وفينا .فكتب معاوية إلى عثمان فى ذلك ، فكتب إلىّ أن اقدم عَلَىَّ ، فقدمت عليه،فانثَال الناسُ إلىَّ كأنهم لم يعرفونى ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فخيّرنى وقال : انزِلْ حيث شئت ، فنزلت الرَّبَذَة .

---

(١) ينفربها : يصيح .
(٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدم،منْ أنّ إخراج أبى ذَرّ إلى الرَّبذة كان باختياره ، وروى فى ذلك خبرا ، قال : وأقلُّ ما فى ذلك أنْ تختلف الأخبار فتطرح، ويُرجع إلى الأمر الأوّل فى صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله .

***

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، فقال :

أمّا قول أبى علىّ إنّ الأخبار فى سبب خروج أبى ذَرّ إلى الرَّبَذَة متكافئة ، فمعاذ الله أن تتكافأ فى ذلك ! بل المعروفُ والظاهر أنّه نفاه أولا إلى الشام ، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية ، ثم نفاه مِنَ المدينة إلى الرَّبَذَة وقد رَوَى جميعُ أهلِ السِّيَر عَلَى اختلاف طُرقِهم وأسانيدهم أنّ عثمانَ لمـا أعطى مَرْوان بن الحكم ما أعطاه ، وأعطى الحارث ابن الحكَم بن أبى العاص ثلثمائة ألف درهم ، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم ، جعل أبو ذَرّ يقول : بشِّر الكانزين بعذاب أليم ، ويتلُو قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، فرَفع ذلك مروان إلى عثمان ، فأرسل إلى أبى ذَر نائلًا مولاه : أنِ انْتَهِ عمّا يبلغنى عنك ، فقال : أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله ، وعَيْب مَنْ ترك أمر الله ! فوالله لأن أُرْضِىَ الله بسخَط عثمان ، أحبّ إلى وخيرٌ لى من أن أُسْخِطَ الله برضاه ! فأغضب عثمانَ ذلك ، وأحفظه فتصابر .

وقال يوما : أيجوز للإمام أن يأخذَ من المال ، فإذا أيْسَر قضى ! فقال كعبُ الأحبار : لا بأس بذلك ، فقال له أبو ذَرّ: يابن اليهوديين ، أتعلّمنا ديننا ! فقال عثمان : قد كثر أذاكَ لِى وتولُّعك بأصحابى ، الحقْ بالشام . فأخرجَه إليها ، فكان أبو ذَرّ يُنكِر على معاوية أشياء يفعلها ، فبعث إليه معاوية ثلثمائة دينار ؛ فقال أبو ذَرّ : إنْ كانتْ هذه

من عطائى الذى حرمتمُونيه عامى هـذا قبلتها ، و إن كانتْ صلةً فلا حاجة لى فيها ، وردّها عليه .

و بنى معاوية الخضراء بدمشق ، فقال أبو ذَرّ : يا معاوية ، إن كانت هذه من مال الله فهى الخيانة ، و إن كانتْ من مالك فهو الإسراف .

وكان أبو ذَرّ رحمه الله تعالى يقول : والله لقدْ حدثَتْ أعمالٌ ماأعرِفها ، والله ماهى فى كتاب الله ولا سنة نبيه ، والله إنى لأرَى حقا يُطْفأ و باطلا يُحْيا ؛ وصادقا مكذّبا، وأثَرَة بغـير تُقَى ، وصالحا مستأثَراً عليه ؛ فقال حَبيب بن مسلمة الفِهْرىّ لمعاوية : إن أبا ذَرّ لَمُفْسِدٌ عليكم الشام ، فتداركْ أهلَه إن كانت لـكم حاجة فيه . فـكتب معاوية إلى عثمان فيه، فـكتب عثمان إلى معاوية : أما بعد؛ فاحمل جُنْدبا [1] إلىّ على أغلظِ مَرْكب وأوعرِه . فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار ؛ وحمله على شارف [2] ليس عليها إلا قَتَب [3] ،حتى قدِم به المدينة ، وقد سقط لحمُ فَخِذَيْه من الجهد ؛ فلما قدم أبو ذرّ المدينة ؛ بعث إليه عثمان أنِ الحقْ بأىّ أرضٍ شئت فقال : بمكة ؟ قال : لا ، قال : فبيت المقدس ؟ قال : لا،قال : فأحدُ المِصْريْن [4] ؟ قال : لا ؛ولـكنّى مسيِّرُك إلى الرَّبَذة ، فسيره إليها ، فلم يزلْ بها حتى مات .

وفى رواية الواقدىّ أنّ أبا ذَرّ لمـا دخل على عثمان ، قال له : لا أنعمَ الله بك عينا ياجُنَيْدِب ! فقـال أبو ذَرّ : أنا جُنَيْدِب ، وَسمّانى رسول الله صـلى الله عليـه عبـدَ الله ، فاخترتُ اسمَ رسول الله الذى سَمّانى به على اسمى ؛ فقال عثمان : أنت الذى تزعُم أنّا نقول إن يدَ الله مغلولة ؛ و إن الله فقير ونحن أغنياء ! فقال أبو ذَرّ : لو كنتم لا تزعمون ، لأنفقتم

---

(١) جندب اسم أبى ذر الغفارى .

(٢) الشارف : الناقة المسنة الهرمة .

(٣) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

(٤) المصران : هما الـكوفة والبصرة .

مالَ الله على عباده ؛ ولكنّى أشهدُ لسمِعت رسول الله صلى الله عليه : يقول : « إذا بلغ بَنُو أبى العاص ثلاثين رجلا جعلوا مالَ اللهُ دُولًا ، وعبادَ الله خَوَلًا ، ودينَ الله دَخَلا »، فقال عثمان لمَنْ حَضَره : أسمعتموها من نبيّ الله ؟ فقالوا : ماسمعناه ، فقال عثمان : ويلك ياأبا ذَرّ! أتكذِب على رسول الله ! فقال أبو ذَرّ لِمَنْ حَضَر : أما تظنّون أنّى صدقت ! قالوا : لا والله ما ندرِى ، فقال عثمان : ادعُوا لى عليًّا ، فدعِى ، فلما جاء قال عثمان لأبى ذَرّ : اقصُصْ عليه حديثك فى بنى أبى العاص ، فحدّثه ، فقال عثمان لعلىّ : هل سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه ؟ فقال علىّ عليه السلام : لا ، وقد صدق أبو ذَرّ ، قال عثمان: بِمَ[1] عرفتَ صِدْقه ؟ قال : لأنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يقول:« ماأظلّت الخضْراء ، ولا أقلّت الغبراء من ذى لَهْجةٍ أصدَق من أبى ذرّ » ، فقال جميعُ مَنْ حَضَر من أصحاب النبى صلى الله عليه: لقد صدق أبو ذَرّ،فقال أبو ذرّ : أحدِّثُكم أنّى سمعتُ هذا من رسول الله صلى الله عليه ثم تتّهمونَنِي ! ما كنت أظنّ أنى أعيشُ حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه !

وروى الواقدىّ فى خبر آخر بإسناده عن صَهْبان مولى الأسلميين ، قال : رأيتُ أبا ذرّ يوم دُخِلَ به على عثمان ، فقال له : أنتَ الذى فعلت وفعلت ! فقال له أبو ذَرّ : نصحتُكَ فاستغششْتَنِي ، ونصحتُ صاحبَك فاستغشّنى ؛ فقال عثمان : كذبت ؛ ولكنك تريد الفتنة وتحبّها ، قد أنغَلْتَ[2] الشامَ علينا ، فقال له أبو ذَرّ : اتبعْ سُنّة صاحِبَيْك ، لا يكن لأحدٍ عليك كلام ، قال عثمان : مالك وذلك لا أمّ لك ! قال أبو ذَرّ : والله ما وجدتُ لى عذرا إلا الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر ؛ فغضب عثمان وقال : أشيروا عَلَيّ فى هذا الشيخ الكذاب، إمّا أن أضربَه أو أحبِسه أو أقتله؛ فإنه قد فرّق جماعَة المسلمين، أو أنفيَه من أرض الإسلام ؛ فتكلّم علىّ عليه السلام ـ وكان حاضرا وقال : أشيرُ عليك

(١) الشاق : « كيف » .

(٢) أنغلت الشام ؛ أى أفسدت أهله ؛ وأصله فى الأديم ؛ يقال : أنغل الأديم ؛ إذا أفسده فى الدباغ . وفى الشاق : « قلبت » .

بما قاله مؤمنُ آل فرعون : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [١] ، قال : فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ ، لا أحبّ ذكره ، وأجابه عليه السلام بمثله ، قال : ثمّ إن عثمانَ حَظَرَ على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ ، أو يكلموه ؛ فمكثَ كذلك أياماً ، ثم أمرَ أن يؤتَى به ، فلما أُتِيَ به وقف بين يديه ، قال : ويحَك ياعثمان ! أما رأيتَ رسول الله صلى الله عليه ، ورأيتَ أبا بكر وعمر ! هل رأيتَ هـذا هديَهم ! إنك لتَبْطِشُ بى بَطْشَ جبار ؛ فقال : اخرُج عنّا من بلادنا ، فقال أبو ذرّ : ماأبغض إلىّ جوارك ! فإلى أين أخرج؟قال : حيث شئتَ ، قال : فأخرج إلى الشامِ أرض الجهاد ؟ قال : إنما جلبتُك من الشام لِما قد أفسدْتها أفأردّك إليها ! قال : أفأخرُج إلى العراق ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال:تقدُم على قومٍ أهل شُبَهٍ وطعن فى الأئمة ، قال : أفأخرج إلى مصر ؟ قال : لا ، قال : فإلى أين أخرج ؟ قال : حيث شئت ، قال أبو ذرّ:فهو إذن التعرّب [٢] بعد الهجرة ، أأخرُج إلى نجد ؟ فقال عثمان : الشرف الأبعدُ أقصَى فأقْصَى ، امض على وجهك هـذا ، ولا تعـدوَنّ الرّبذة . فخرج إليها .

وروى الواقدىّ عن مالك بن أبى الرجال، عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤلىّ ، قال : كنتُ أحبّ لقاء أبى ذرّ لأسأله عن سبب خُروجه ، فنزلت الرّبَذة ، فقلت له : ألا تخبرنى ! أخرجتَ من المدينة طائعا أم أخرجت مكرَها ؟ فقال : كنت فى ثَغْر من ثغور المسلمين ، أُغْنِى عنهم ، فأخرجت إلى مدينة الرسول عليه السلام ، فقلت : أصحابى ودارُ هجرتى ، فأخرِجت منها إلى ماترى ، ثم قال : بينا أنا ذاتَ ليلة نائم فى المسجد إذْ مرّ بى رسول الله صلى الله عليه ، فضربنى برجْله وقال: لاأراك نائماً فى المسجد ، فقلت : بأبى أنت

---

(١) سورة غافر ٢٨ .
(٢) التعرب : الإقامة بالبادية .

وأمى ! غلبتْنِي عينى ، فنمتُ فيه ، فقال: كيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ فقلت : إذن ألحق بالشام ، فإنها أرض مقدسة ، وأرض بقية الإسلام ، وأرض الجهاد ؛ فقال : فكيف تصنع إذا أخرجت منها ؟ فقلت : أرجع إلى المسجد ، قال : فكيف تصنع إذا أخرجوك منه ؟ قلت : آخذ سيفى فأضرب به ، فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلّك على خيرٍ من ذلك ، انسَقْ معهم حيث ساقوك ، وتسمعُ وتطيع » ، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع ؛ والله ليلقَيَنّ اللهَ عثمان وهو آثم فى جَنْبى .

وكان يقول بالرَّبذة : ماترك الحقّ لى صديقا. وكان يقول فيها : رَدَّنِي عثمانُ بعد الهجرة أعرابيا .

والأخبار فى هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها . وما يحمِلُ نفسَه على ادّعاء أنّ أبا ذرّ خرج مختارا إلى الرَّبَذة إلا مكابر . ولسنا ننكِر أن يكون ماأورده صاحب الكتاب '' المغنى '' من أنه خرج مختارا قد رُوِيَ ، إلا أنه من الشاذّ النادر . و بإزاء هذه الرواية الفَذّة كلّ الروايات التى تتضمّن خلافها ؛ ومن تصفّح الأخبار عَلِم أنّها غير متكافِئة على ماظنّ صاحب المغنِي ؛ وكيف يجوز خروجُه عن اختيار ؛ و إنما أشخِص من الشام على الوجه الذى أشخص عليه ؛ من خشونة المركب ، وقُبْح السَّيْر به للموجدة عليه. ثم لما قدِم مُنِع الناس من كلامه ، وأغلظ له فى القول؛ وكلّ هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الرَّبَذة باختياره ! وكيف يظنّ عاقل أنّ أبا ذرّ يختار الرَّبذة منزِلًا مع جَدْبها وقَحْطها و بُعْدها عن الخيرات ؛ ولم تكن بمنزِل مثله !

فأما قوله : إنه أشفَق عليه من أن يناله بعضُ أهلِ المدينة بمكروه من حيث كان يُغلِظ لهم القول ، فليس بشىء ؛ لأنه لم يكن فى أهل المدينة إلا من كان راضيا بقوله ، عاتبا بمثل عتْبه ؛ إلّا أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما فى نفسه ، ومخفٍ ماعنده ؛ ومافى أهلِ المدينة إلّا

من رَثَى لأبى ذرّ ممـا حدَث عليـه ، ومن استفظعه . ومَنْ رجع إلى كتب السيرة عرف ما ذكرناه .

فأما قوله : إن عمر أخرَج من المدينة نصر بن حجاج،فيابُعْدَ مابين الأمرين !وما كنا نظنّ أن أحـداً يسوِّى بين أبى ذَرّ وهو وَجْهُ الصحابة وعينُهم ، ومَنْ أجمع المسلمون على توقيره وتعظيمه ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مدَحه من صِدْق اللّهجَة بما لم يمدح به أحداً،و بين نصر بن الحجّاج الحَدَث الذى كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه؛ولا حَظّ له فى فَضْلٍ ولا دِين ! على أنّ عمر قد ذُمّ بإخراجه نَصْر بن الحجاج من غير ذنب كان منه ، فإذا كان مَنْ أخرج نصر بن حجاح مذموما ، فـكيف مَنْ أخرج أبا ذرّ !

فأما قوله : إنّ الله تعالى والرسول قد نَدَبا إلى خفض الجناح ، ولين القول للمؤمن والـكافر ، فهو كما قال ؛ إلا أنّ هـذا أدب كان ينبغى أن يتأدّب به عثمان فى أبى ذرّ ، ولا يقابله بالتّـكذيب ، وقد قطع رسول الله صـلى الله عليه وآله على صِدْقه ؛ ولا يسمِعُه مكروهَ الـكلام ؛ فإنّما نصح له ، وأهدى إليه عيوبَه، وعاتبه على ما لونزع عنه لكان خَيْراً له فى الدنيا والآخرة .

⁂

الطعن العاشر :

تعطيلُه الحدّ الواجب على عُبَيد الله بن عُمَرَ بن الخطاب ؛ فإنه قَتَل الهُرْمُزان [1] مُسْلِما فلم يَقُدْه به ؛ وقد كان أميرُ المؤمنين عليه السلام يطلُبه لذلك .

قال قاضى القضاة فى الجواب عن ذلك : إنّ شيخنا أبا علىّ رحمه الله تعالى قال : إنّه لم يكن للهُرْمزان ولِىّ يطلب بدمه ، والإمام ولِىّ مَنْ لاولِىّ له ، وللولىّ أن يعفوَ كما له أنْ يقتُل ؛ وقد رُوِىَ أنّه سأل المسلمين أن يعفُوا عنه ، فأجابوا عنه إلى ذلك .

---

(١) الهرمزان : هو الـكبير من ملوك العجم .

قال : وإنما أراد عثمانُ بالعفو عنه ما يعودُ إلى عزِّ الدين ، لأنّه خاف أن يبلغ العدوَّ قتلُه ؛ فيقال : قَتَلُوا إمامهم وقتلوا ولَدَه ، ولا يعرفون الحال فى ذلك فيكون فيه شماتة ؛ وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخيّاط : إن عامّة المهاجرين أجمعُوا على أنّه لا يُقاد بالهُرمزان، وقالوا لعثمان : هذا دم سُفِك فى غير ولايتك ، وليس له ولّى يطلب به ، وأمْرُهُ إلى الإمام ، فاقْبَل منه الدِّية ، فذلك صلاح للمسلمين .

قال . ولم يثبت أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يطلبُه ليقتلَه بالهُرْمزان ، لأنّه لا يجوز قتلُ مَنْ عفا عنه ولىّ المقتول ؛ وإنما كان يطلبه ليضعَ من قدره ، ويصغِّر من شأنه .

قال : ويجوز أن يكون مارُوِى عن علىّ عليه السلام من أنه قال : لو كنتُ بَدَل عثمان لقتلته ، يعنى أنه كان يرى ذلك أقوَى فى الاجتهاد ، وأقرب إلى التشدد فى دين الله سبحانه .

* * *

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام ، قال :

أما قوله: لم يكن للهُرْمزان ولىّ يطلب بدمه،فالإمام يكون وليّه،وله أن يعفوَ عنه، كماله أن يقتصّ ؛ فليس بمعتمَد ، لأنّ الهرمزان رجلٌ من أهل فارس ، ولم يكن له ولىّ حاضر يطالب بدمه ، وقد كان الواجب أن يبذُل الإنصاف لأوليائه ويؤمّنوا مَتَى حضروا ، حتى إنه لو كان له ولىّ يريد المطالبة حضر وطالب . ثم لو لم يكن له ولىّ لم يكنْ عثمان ولىّ دمه ، لأنه قُتِل فى أيام عمر ، فصار عمر ولىّ دمه ، وقد أوصى عمر على ماجاءت به الروايات الظاهرة بقتْل ابنه عبيد الله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهُرْمزان وجُفَينة،[1] أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة بقتله ، وكانت وصيتُه بذلك إلى أهل الشورى ، فقال: أيُّكم ولّى هذا الأمر فلْيفعل كذا وكذا مما ذكرناه ،فلما مات عُمر، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء

(٢) جفينة : كان نصرانيا من أهل الحيرة وكان ظئرا لسعد بن أبى وقاص ؛ أقدمه إلى المدينة للصلح الذى بينه وبينهم ؛ وليعلم بالمدينة الكتاب . تاريخ الطبرى ٥ : ٤٢ .

الوصيّة فى عبيدالله بن عمر فدافع عن ذلك وعَلّلهم ؛ ولو كان هو ولىّ الدم على ماذكروا لم يكن له أن يعفوَ وأن يُبطِل حدًّا من حدود الله تعالى ، وأىّ شماتة للعدوّ فى إقامة حدّ من حدود الله تعالى ! و إنّما الشماتةُ كلُّها من أعداءالإسلام فى تعطيل الحدود . وأىّ حَرَج فى الجمْع بين قَتْل الإمام وابنه ، حتّى يقال : كُرِه أن ينتشر الخبرُ بأنّ الإمام وابنَه قتلا ، و إنّما قُتِل أحدُهما ظلما ، والآخرعَدْلا ،أو أحدهما بغيرأمرِ الله،والآخر بأمره سبحانه!

وقد روى زياد بن عبد اللهالبَكائىّ عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أتى عثمان ؛ بعد مااستخلف، فكلّمه فى عُبيدالله ولم يكلّمْه أحدٌغيره ؛ فقال : اقتُلْ هذا الفاسقَ الخبيث الذى قتل أميرا مسلما ؛ فقال عثمان : قَتَلوا أباه بالأمس ، وأقتله اليوم ! و إنما هو رجلٌ من أهل الأرض ؛ فلما أبَى عليه مرّ عُبيدالله على علىّ عليه السلام ، فقال له : إيهٍ يافاسق ! أما والله لئن ظفرتُ بك يوماً من الدهر لأضرِبَنّ عنقَك ؛ فلذلك خرج مع معاوية عليه .

وروى القنّاد ، عن الحسن بن عيسى بن زيد ، عن أبيه ، أنّ المسلمين لما قال عثمان : إنّى قد عفوتُ عن عبيد الله بن عمر ، قالوا : ليس لك أنْ تُعفوَ عنه ، قال : بلى إنه ليس لُجفينة والهُرْمُزان قرابة من أهل الإسلام ؛ وأنا ولّى أمر المسلمين ، وأنا أولى بهما ، وقد عفوتُ .فقال علىّ عليهالسلام : إنه ليس كما تقول،إنما أنت فى أمرِهما بمنزلة أقصى المسلمين؛ إنه قَتَلهما فى إمارة غيرك ، وقد حكم الوالى الذى قُتِلا فى إمارته بقتله ؛ ولو كان قَتَلهما فى إمارتك لم يكن لك العفو عنه ، فاتق الله ؛ فإنّ الله سائلُك عن هذا ! فلما رأى عثمان أنّ المسلمين قد أبوْا إلا قتلَ عبيد الله ، أمره فارتحل إلى الكوفة ، وأقطعه بها دارا وأرضا ؛ وهى التى يقال لها : كُوَيْفَة [1] ابن عمر ، فعظُم ذلك عند المسلمين وأكبروه ؛ وكثر كلامهم فيه .

---

(١) الكويفة ، ذكرها ياقوت ، فقال : « كويفة ابن عمر منسوبة إلىعبيد الله بن عمر بنالخطاب ؛ نزلها حين قتل بنت أبى لؤلؤة والهرمزان وجفينة العبادى . معجم البلدان ٧ : ٣٠٤ .

ورويَ عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: ماأمسى عثمان يَوْمَ ولّى حتى نَقَموا عليه في أمر عبيد الله بن عمر؛ حيث لم يقتله بالهُرمزان.

فأما قوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتلَه؛ بل ليضَع من قَدْره؛ فهو بخلاف ماصرّح به عليه السلام من أنه إن تمكن ليضرِبنّ عنقه.

وبعد؛ فإن وليّ الدم إذا عَفَا عنه على ما ادَّعَوْا لم يكن لأحدٍ أن يستخفّ به، ولا يضعَ من قدر، كما ليس له أن يقتله.

وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوزُ أن يتوعّده مع عفو الإمام عنه؛ فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثرا؛ وقد بيّنا أنه غير مؤثر.

وأما قوله: يجوز أن يكون عليه السلام رأى أنّ قتله أقوى في الاجتهاد، وأقربُ إلى التشدد في دين الله؛ فلا شكّ أنه كذلك، وهذا بناءٌ منه على أنّ كلّ مجتهد مصيب؛ وقد بينا أنّ الأمر بخلاف ذلك؛ وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِي قتلَه، فهو الذي لايسوغُ خلافُه.

⁂

الطعن الحادي عشر:

وهو إجماليّ؛ قالوا: وجدنا أحوالَ الصحابة دالّةً على تصديقهم المطاعِنَ فيه، وبراءتهم منه؛ والدليل على ذلك أنّهم تركوه بعد قتلِه ثلاثة أيام لم يدفنوه ولا أنكروا على مَنْ أجلب عليه من أهل الأمصار؛ بل أسلموه ولم يدفعوا عنه؛ ولكنهم أعانوا عليه، ولم يمنعوا من حَصْره ولامن مَنْع الماء عنه؛ ولامن قَتْلِه، مع تمكّنهم من خلاف ذلك؛ وهذا من أقوى الدّلائل على ماقلْناه؛ ولو لم يدلّ على أمره عندهم إلا ماروى عن عليّ عليه السلام أنه قال: الله قتله وأنا معه؛ وأنّه كان في أصحابه عليه السلام مَنْ يصرّح بأنّه قتل

عثمان ؛ ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم ؛ وكان أهلُ الشام يصرِّحون بأنّ مع أمير المؤمنين قتلةَ عثمان ، و يجعلون ذلك مِنْ أوكد الشّبه ، ولا ينكَر ذلك عليهم ؛ مع أنّا نعلم أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضَد هو وأصحابُه على المنع عنه لما وقع فى حَقّه ماوقع ؛ فصار كَفّه وكفُّ غيره عن ذلك من أدلِّ الدلائل على أنّهم صدّقوا عليه مانسب إليه من الأحداث ؛ وأنهم لم يقبلوا منه ماجعله عذرا .

وأجاب قاضى القضاة عن هذا ، فقال :

أما تركُه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن فليس بثابت ، ولو صحّ لكان طعنا على مَنْ لَزمه القيامُ به ؛ وقد قال شيخنا أبو عَلِىّ رحمه الله تعالى : إنّه لا يمتنع أن يشتغِلوا بإبرام البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام خَوْفاً على الإسلام من الفتنة ، فيؤخروا دفنَه .

قال : و بعيدٌ مع حضورِ قريش وقبائل العرب وسائر بنى أمية ومواليهم أن يُترَكَ عثمان ولا يُدفَن هذه المدة ؛ و بعيدٌ أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدّم بدفنه ؛ ولو مات فى جواره يهودىّ أو نصرانىّ ولم يكن له مَنْ يواريه ماتركه أميرالمؤمنين ألّا يدفن؛ فكيف يجوز مثل ذلك فى عُثْمان ؛ وقد رُوِىَ أنه دفن فى تلك الليلة ؛ وهذا هو الأولى .

فأمّا التعلّق بأنّ الصحابة لم تنكر على القوم ، ولا دفعتْ عنه ، فقد سبق القول فى ذلك ؛ والصحيحُ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه تبرّأ من قَتْلِ عثمان ، ولَعَن قَتَلَته فى البرّ والبحر ، والسّهل والجبل ؛ و إنما كان يجرى من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز ؛ لأنّا نعلمُ أنّ جميعَ مَنْ كانَ يقول : نحن قتلناه لم يقتُلْه ؛ لأن فى الخبر أنّ العدد الكثير كانوا يصرِّحُون بذلك ؛ والذين دخلوا عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة ؛ و إنما كانوا يقصدون بهذا القول ؛ أى احسبوا أنّا قتلناه فما لكم ! وذلك أنّ الإمام هو الذى يقوم بأمر القَوَد ، وليس للخارج عليه أنْ يطالب بذلك ؛ ولم يكن لأمير المؤمنين عليه السلام أن يقتُلَ قَتَلَته لو عَرَفهم ببيّنة أو إقرار ، وميّزهم من غيرهم إلا عندَ مطالبة ولّى الدم ؛ والذين كانوا أولياء

الدَّمِ لم يكونوا يطالبونه ، ولا كانتْ صفتهم صفة مَنْ يطالب ؛ لأنهم كانوا كلّهم أو بعضهم يدّعون أنّ عليا عليه السلام ليس بإمام ، ولا يحلّ لولى الدم مع هـذا الاعتقاد أنْ يطالب بالقَوَد ؛ فلذلك لم يقتلهم عليه السـلام ؛ هـذا لو صَحّ أنه كان يميّزهم ؛ فـكيف وذلك غير صحيح .

فأما ما رُوِىَ عنهمن قولهعليهالسلام : « قتله الله وأنا معه » ! فإنْ صحّ فمعناه مستقيم؛ يريد أنّ الله أماته وسُيميتنى وسائر العباد .

ثم قال سائلا نفسه : كيف يقول ذلك وعثمان ماتَ مقتولا من جهة المكلّفين ! وأجاب بأنّه وإن قُتِل ، فالإماتة من قِبَل الله تعالى : ويجوز أنْ يكون مانالَه من الجراح لايوجِبُ انتفاء الحياة لامحالة ، فإذا مات صحّت الإماتة على طريق الحقيقة .

* * *

اعترض المرتضىْ رحمه الله تعالى هذا الـكلام فقال .

أما تضعيفُه أن يكونَ عثمانُ تُرِك بعد القَتْل ثلاثة أيام لم يُدْفن ؛ فليس بحجّة ؛ لأنّ ذلك قد رَواه جماعةُ الرواة : وليس يخالف فى مثله أحدٌ يعرَف بالرواية ؛ وقد ذكر ذلك الواقدىّ وغـيره ؛ وروى أنّ أهلَ المدينة مَنَعُوا الصلاة عليـه ؛ حتى حُمِل بين المغرب والعَتمة ، ولم يشهد جَنازته غير مَرْوان وثلاثة من مواليه؛ ولما أحسُّوا بذلك رَمَوْه بالحجارة وذكروه بأسوأ الذّكْر ؛ ولم يقع التمـكنُ من دَفْنه إلا بعـد أن أنـكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دَفْنه ، وأمر أهله بتولّى ذلك منه .

فأما قوله : إنّ ذلك إن صحّ كان طعناً على مَنْ لزمه القيامُ بأمره ؛ فليس الأمرُ على ماظنه ؛ بل يكون طعنا على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنع أهل المدينة ـ وفيها وجوهُ الصحابة ـ من دَفْنه والصلاة عليه إلا لاعتقادٍ قبيح ؛ أو لأنّ أكثرَهم وجُمهورهم يعتقد ذلك؛وهـذا طعن لا شُبْهَة فيه ؛واستبعاد صاحب "المغنى" لذلك ؛ مع ظهور الرواية به

لا يُلتفت إليه؛ فأما أميرُ المؤمنين عليه السلام واستبعاد صاحب "المغنى" منه ألَّا يتقدم بدفنه؛ فقد بيَّنا أنّه تقدم بذلك بعد مماكسة ومراوضة. وأعجب من كلِّ شيء قولُ صاحب "المغنى": إنهم أخَّرُوا دفنه تشاغلا بالبَيْعة لأمير المؤمنين عليه السلام. وأىّ شُغْل فى البيعة لأمير المؤمنين يمنع من دَفْنه، والدفن فرضٌ على الكفاية، لو قام به البعضُ وتشاغل الباقون بالبَيْعة لجاز! وليس الدّفنُ ولا البيعة أيضا مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها.

فأما قوله: إنّه قد رُوِىَ أنّ عثمان دُفِن تلك الليلة، فما نُعرَفُ هذه الرواية؛ وقد كان يجب أن يُسندها وَ يعزُوَها إلى راويها، أو الكتاب الذى أخذها منه؛ فالذى ظَهر فى الرواية هو ما ذكرناه.

فأمّا إحالته على ما تقدّم فى معنى الإنكارِ من الصّحابة على القَوم المجْلبِين على عثمانِ؛ فقد سبق القول فى ذلك.

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤَه من قتْل عثمان، ولعنَه قتلتَه فى البَرّ والبحر، والسهل والجبل؛ فلا شكّ فى أنّه عليه السلام كان بريئًا من قَتْله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ما قتلتُ عثمان، ولا مالأت فى قتله؛ والمالأة هى المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام فى أنّه ما قَتَل ولا وَازر على القتل.

فأما لعنُه قَتَلَته[1] فضعيف فى الرواية، وإن كان قد رُوِى؛ فأظهر منه ما رواه الواقدىّ، عن الحكَم بن الصَّلْت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيتُ عليًّا عليه السلام على مِنبر رسول الله صلى الله عليه وآله حينَ قُتِل عثمان، وهو يقول: ما أحببتُ قَتله ولا كرهتُه، ولا أمرت به، ولا نهيْت عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عَفّان بن جرير بن بشير، عن أبى جَلْدة، أنّه سمع عليًّا

(١) ا، ج: «قتله عثمان».

عليه السلام ، يقول وهو يخطب ، فذكر عثمان ، وقال : والله الذى لا إله إلا هو ؛ ما قتلتُه ولا مالأتُ على قتله ولا ساءنِي[1] .

وروى ابن بشير ، عن عُبيدة السلمانىّ ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام يقول : مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ؛ فإنّ الله قَتَله وأنا معه . وقد رُوِىَ هذا اللفظ من طرُق كثيرة .

وقد روى شعبة عن أبى حمزة الضّبعىّ ، قال : قلتُ لابن عباس : إنّ أبى أخبرنى أنّه سمع عليًّا ، يقول : ألَا مَنْ كان سائلى عن دم عثمان ، فإنّ الله قتله وأنا معه ـ فقال : صدق أبوك ؛ هل تَدرى ما معنى قوله ! إنما عَنَى: الله قتله وأنا مع الله .

قال : فإن قيل : كيف يصحّ الجمع بين معانى هذه الأخبار !

قلنا : لا تنافىَ بينها ، لأنه عليه السلام تبرّأ من مباشرة قتله والمؤازرة عليه ، ثم قال : ما أمرتُ بذلك ولا نهيتُ عنه ؛ يريد أنّ قاتِليه لم يرجِعُوا إلىّ ، ولم يكن منِّى قول فى ذلك بأمر ولا نهى .

فأما قوله : الله قتله وأنا معه ، فيجوز أن يكون المراد به : الله حَكَم بقتله وأوجبه وأنا كذلك ؛ لأنّ من المعلوم أنّ الله تعالى لم يقتله على الحقيقة، فإضافةُ القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الُحكم والرّضا ؛ وليس يمتنع أنْ يكونَ مِمّا حكم الله تعالى به ، ما لم يتولّه بنفسه ، ولا آزر عليه ، ولا شايع فيه .

فإن قال قائل : هذا ينافِى ما رُوِى عنه من قوله : « ما أحببت قتلَه ، ولا كرهتُه » ، وكيف يكون مِنْ حُكْم الله وحكمه أن يُقتل وهو لا يحبّ قَتْله !

قلنا : يجوز أن يريد بقوله : « ما أحببت قتله ولا كرهته » أنّ ذلك لم يكن منِّى على سبيل التفصيل ، ولا خطر لى ببال ؛ وإن كان على سبيل الُجملة يحبّ قتل مَنْ غلب المسلمين

(١) كذا فى ا ، ج ، والشافى ، وفى ب : « ولاسأل » .

على أمورهم ، وطالبوه بأن يعتزل ، لأنه [1] مستَوْلٍ عليهم بغير حق [1] فامتنع من ذلك ، ويكون فائدة هذا الكلام التبرؤ من مباشرة قتله ، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهى عنه . ويجوز أن يريد أننى ما أحببتُ قتله ؛ إن كانوا تعمّدوا القتل ؛ ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود . ويريد بقوله : « ما كرهتُه » أنى لم أكرهه على كل حال ، ومن كلّ وجه .

فأما لعنه قتلتَه فقد بيّنا أنّه ليس بظاهر ظهور ما ذكرناه ؛ وإن صَحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه المحظور من تعمّدٍ له ، وقصدٍ إليه وغير ذلك ؛ على أن المتولّىَ للقتل على ماصحّت به الرواية كنانة بن بَشير التُّجِيبىّ وسُودان بن حمران المرادىّ ؛ وما منهما مَنْ كان غرضُه صحيحا فى القتل ، ولا له أن يقدم عليه ، فهو ملعون به . فأما محمدُ بن أبى بكر ؛ فما تولى قَتْله ؛ وإنما رُوِى أنّه لما جثَا بين يديه قابضا على لحيته ، قال له : يابن أخى ؛ دَعْ لحيتى ؛ فإن أباك لو كان حيًّا لم يقعدُ منى هذا المقْعد ؛ فقال محمد : إن أبى لو كان حيا ثم يراك تفعل ماتفعل لأنكره عليك ، ثم وجأه [2] بجماعة قِدَاح كانت فى يده تخزَّت فى جِلْده ولم تَقْطَع ، وبادره مَنْ ذكرناه فى قتله بما كان فيه قتلُه .

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عليه السلام : « قتلَه الله وأنا معه »؛ على أنّ المراد به ؛ الله أماته وسَيُميتنى ؛ فبعيد من الصواب ؛ لأن لفظة « أنا » لاتكونُ كناية عن المفعول ؛ وإنما تكون كناية عن الفاعل ؛ ولو أراد ماذكره لكان يقول : « وإياى معه » ؛ وليس له أن يقول : إنّنا نجعل قوله : « وأنا معه » مبتدأ محذوف الخبر ، ويكون تقدير الكلام : « وأنا معه مقتول » ؛ وذلك لأنّ هذا ترك للظاهر وإحالة على ما ليس فيه ؛ والكلام إذا أمكن حملُه على معنى يستقلّ ظاهرُه به من غير تقدير وحذف ، كان أوْلَى مما يتعلّق بمحذوف ؛ على أنّهم إذا جَعَلوه مبتدأ وقدَّروا خَبراً لم يكونوا بأنْ يقدِّرُوا ما يوافق مذهبَهم بأوْلى من تقدير خلافه ، ويجعل بدلا من لفظة « المقتول » المحذوفة لفظة « معين » أو « ظهير » .

(١ – ١) ب : « لأنه مسئول عليه بحق » وما أثبته من ا ، ج وكتاب الشافى .

(٢) وجأه : ضربه .

وإذا تكافأ القولان فى التقدير وتعارضا سَقَطا ، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر ؛ على أنّ عثمان مضى مقتولا ، فكيف يقال : إنّ الله تعالى أماتَه ، والقتل كافٍ فى انتفاء الحياة ؛ وليس يحتاج معه إلى ناف للحياة يسمى موتا .

وقول صاحب " المغنى " يجوز أن يكون ماناله من الجراح لايوجب انتفاء الحياة؛ليس بشىء؛لأنّ المروىّ أنه ضُرِب على رأسه بعمود عظيم من حديد ، وأنّ أحدَ قتلته قال : جلست على صدره فوجأتْه تسع طعنات ، علمت أنه مات فى ثلاث ، ووجأته السّتّ الأُخَر لما كان فى نفسى عليه من الحَنَق .

وبعد : فإذا كان جائزا ، فمن أين عَلِمَه أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول : إن الله أماته ، وإنّ الحياة لم تَنْتَفِ بما فعله القاتلون[1] ، وإنما انتفت بشىء زاد على فعلهم من قِبَل الله تعالى مِمّا[2] لا يعلمه على سبيل التفصيل إلّا علامُ الغُيوب سبحانه .

* * *

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين ؛ إجمالًا وتفصيلا :

أما الوجهُ الإجمالىّ ، فهو أننا لا نُنكر أنّ عثمان أحدَث أحداثاً أنكرَها كثيرٌ من المسلمين ، ولكنّا ندّعى مع ذلك أنّها لم تبلغْ درجة الفِسْق ، ولا أحبَطَتْ ثوابَه ، وأنّها من الصغائر التى وقعت مكفَّرة[3] ؛وذلك لأنّا قد علمنا أنه مغفور له ، وأنه مِنْ أهل الجنة لثلاثة أوجه :

أحدُها : أنّه من أهل بَدْر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الله اطّلع على أهل بَدْر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . ولا يقال : إن عثمانَ لم يشهَدْ بدرا؛ لأنا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدْها ، ولكنه تخلّف على رُقَيّة ابنة رسول الله

(١) الشافى : « القتلة » ، وفى ب : « القاتلون » تحريف .
(٢) كذا فى ا ، ج والشافى ، وفى ب : « فيما » .
(٣) الصغائر المكفرة : التى يمحى إثمها .

صلى الله عليه وآله بالمدينة لمرضها ، وضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله بسَهْمِهِ وأجْره باتفاق سائر الناس .

وثانيها : أنه من أهل بَيْعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[1] . ولا يقال : إنه لم يشهد البَيْعة تحت الشجرة ، لأنّا نقول : صدقتم ، إنه لم يشهدها ، ولكنه كان رسول الله صلى الله عليه وآله أرسَله إلى أهل مكة ، ولأجله كانت بيعةُ الرضوان ، حيث أُرْجِفَ[2] بأن قريشا قتلتْ عثمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن كانوا قَتَلوه؛ لأضرِمَنّها عليهم نارا »؛ ثم جلس تحت الشجرة ، و بايع الناسَ على الموت ، ثم قال : « إن كان عثمان حيا فأنا أبايع عنه »، فصفح بشماله على يمينه ، وقال : « شمالي خير من يمين عثمان » . روى ذلك جميعُ أرباب أهل السيرة متفقا عليه .

وثالثها : أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم من أهل الجنّة .

و إذا كانت الوجوهُ الثلاثة دالةً على أنه مغفور له ، وأنّ الله تعالى قد رَضِيَ عنه ؛ وهو من أهل الجنّة ، بطل أن يكونَ فاسقا ؛ لأن الفاسق يخرُج عندنا من الإيمان ، و يُحْبَط[3] ثوابه ، و يُحْكم له بالنار ولا يغفر له ، ولا يُرضَى عنه ، ولا يرَى الجنة ولا يدخلها ، فاقتضت هذه الوجوه الصحيحة الثابتة أنْ يُحْكَم بأنّ كلّ ماوقع منه فهو من باب الصّغائر المكفَّرة ، توفيقاً بين هذه الوجوه ، و بين روايات الأحداث المذكورة .

وأما الوجه التفصيليّ فهو مذكور فى كتب أصحابنا المطوّلة فى الإمامة ؛ فليُطْلَبْ من مظانّه ، فإنهم قد استقصَوْا فى الجواب عن هذه المطاعن استقصاء لامزيد عليه .

---

(١) سورة الفتح ١٨

(٢) يقال: أرجف القوم ؛ إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن على أن يوقعوا الناس فى الاضطرب.

(٣) ب ، ج : « ينحبط » وما أثبته عن ا .

[بيعة جرير بن عبد الله البَجَلىّ لعلىّ]

فأما خبر جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وبعث أميرالمؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية ، فنحن نذكره نقلا من "كتاب صِفّين" لنصر بن مُزاحم بن بَشّار المِنْقرىّ ؛ونذكر حالَ أميرِ المؤمنين عليه السلام ، منذ قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل ، ومراسلته معاوية وغيره ، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك فى مبدأ حالتهما إلى أن سار على عليه السلام إلى صفين .

قال نصر : حدّثنى [١] محمد بن عُبيد الله عن الجرجانىّ ، قال : لما قَدِم علىّ عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمْرِ الجمل ، كاتَب العمّال ، فكتب إلى جرير بن عبدالله البَجلىّ مع زَحْر بن قيس الجُعْفىّ – وكان جرير عاملا لعثمان على ثغر هَمَدان[٢] :

أما بعد ، فـ ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ [٣]. وإنى أخبرك عن نبإِ [٤] مَنْ سرنا إليه من جُموع طلحة والزبير ، عند نَكْثهم بيعتى [٥] ، وما صنعوا بعاملى عثمان ابن حُنَيْف .وأنى نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار؛حتى إذا إذا كنت بالعُذَيْب[٦] ، بعثتُ إلى أهل الكوفة الحسنَ بن علىّ ، وعبدَ الله بن عباس ، وعَمّار بن ياسر ، وقيس ابن عبادة ، فاستنفرتُهم فأجابوا ، فسِرْت بهم حتى نزلت بظهر البصرة ، فأعذرت فى

---

(١) وقعة صفين للمنقرى ص ١٩ وما بعدها.
(٢) همدان أو همذان ؛ بالإعجام والإهمال . مدنية ببلاد الجبال من فارس .
(٣) سورة الرعد ١١
(٤) ب : « أنباء ».
(٥) كتاب صفين : « بيعتهم » .
(٦) العذيب : ماء عن يمين القادسية لبنى تميم ، بينه وبين القادسية أربعة أميال (مراصد الاطلاع) .

الدعاء ، وأَقَلْتُ العَثْرة ، وناشدتهم عَهْد بيعتهم ؛ فأبوْا إلا قتالى ، فاستعنتُ الله عليهم ، فقتل مَنْ قتل ، وولوا مدبرين إلى مصرهم ، وسألونى ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعتُ السيف ، واستعملت عليهم عبدَالله بن العباس ، وسرتُ إلى الكوفة ؛ وقد بعثت إليك زَحْر بن قيس ، فاسأله عمّا بدا لك . والسلام .

قال : فلما قرأ جريرٌ الكتاب ، قام فقال : أيها الناس ، هذا كتاب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو المأمون على الدّين والدنيا ، وقد كان من أمْرِه وأمر عدوّه ما نَحْمَدُ الله عليه ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولو جُعِل هذا الأمر شورى بين المسلمين، كان أحقّهم بها . ألَا وإنّ البقاء فى الجماعة ، والفَناء فى الفُرقة ، وإنّ عليًّا حاملُكم على الحق ما استقمتُم ؛ فإنْ ملتم أقام ميلَكم .

فقال الناس : سمعا وطاعة ، رضينا رضينا .

فكتب جرير إلى علىّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة .

* * *

قال نصر : وكان مع علىّ رجل من طيئ ، ابن أخت لجرير ، فحمّل زحْر بن قيس شعرا له إلى خاله جرير ؛ وهو :

جَريرَ بنَ عبدِالله لاتردُدِ الهدَى ... بايع عليًّا إننى لك ناصِحُ

فإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِئَ الحصَا ... سوى أحمدٍ ، والموت غادٍ ورائحُ

وَدَعْ عنك قولَ النّاكثين فإنّما ... أولاك أبا عَمْرٍو كلابٌ نوابحُ[1]

وبايعْ إذا بايعتَه بنصيحةٍ ... وَلَا يَكُ مِنْها فى ضَميرك قَادِحُ

فإنك إنْ تطلُبْ بها الدينَ تُعْطَه ... وإن تطلب الدنيا فإنك رَابحُ[2]

---

(١) أبو عمرو ، كنية جرير بن عبد الله البجلى .

(٢) وقعة صفين : « فيمك رابح » .

و إن قلتَ عثمان بن عفان حَقُّه … علىَّ عظيمٌ والشَّكُورُ مُناصِحُ
فحقّ علىٍّ إذ وَلِيكَ كَحقِّهِ … وشكرك ما أَوْلَيْتَ فى النَّاسِ صالِحُ
و إن قلت لا أرضى عليًّا إمامَنا … فدعْ عنك بحراً ضلَّ فيه السوابحُ
أبى الله إلا أنهُ خـــيرُ دَهْرِه … وأفضل مَنْ ضُمّتْ عَلَيْهِ الأباطحُ(١)

* * *

قال نصر : ثم إن جريراً أقام فى أهل هَمَدان خطيبا ، فقال : الحمد لله الذى اختار لنفسه الحمد ، وتولّاه دون خَلْقه ؛ لا شريكَ له فى الحمد ، ولا نظير له فى المجْد ، ولا إله إلا الله وَحْدَه ، الدائم القائم ، إله السماء والأرض ؛ وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالنور الواضح ، والحق الناطق ؛ داعياً إلى الخير ، وقائدا إلى الهُدَى ، ثم قال : أيّها الناس ؛ إنّ عليا قد كتبَ إليكم كتابا لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول ، ولكنْ لابدّ من ردّ الكلام . إن الناس بايعوا عليا بالمدينة عَنْ غيرِ محاباة له ببيْعتهم ، لعلمه بكتاب الله وسنن الحق ؛ و إنّ طلحة والزُّبيرَ نقضا بيعتَه على غير محاباة حدثت(٢) ، وألّبا عليه الناس ، ثم لم يرضَيا حتى نَصَبا له الحرب ، وأخرجا أمَّ المؤمنين ، فلقيَهما فأعذر فى الدعاء ، وأحسن فى البقيّة ، وحَمَل الناسَ على مايعرفون ، فهذا عِيان ماغاب عنكم ؛ و إن سألتم الزيادة زدناكم ، ولا قوة إلا بالله ، ثم قال :

أَتَانا كِتَابُ عَلِيٍّ فَلَمْ … نَرُدَّ الكتاب بِأَرْضِ الْعَجَمْ
وَلَمْ نَعْصِ مَا فِيهِ لما أَتَى … وَلَمَّا نُذَمَّ وَلَمَّا نُلَمْ
وَنَحْنُ ولاةٌ عَلَى ثَغْرِنَا … نَضِيمُ العزيزَ ونَحْمِي الذِّمَمْ
نُساقِيهمُ الموتَ عِنْد اللقاءِ … بكأْسِ المنايا ونَشْفِي القَرَمْ

---

(١) يريد بهم قريش البطاح ؛ وهم الذين ينزلون بين أخشبى مكة ؛ والأخشبان جبلان بها .
(٢) ب : « على غير حدث » .

فصلّى الإلهُ على أحمــدٍ رسول المليك تمام النِّعَمْ [1]
رسول المليك ومِنْ بعــده خليفتنا القائم المدَّعَمْ
عَليًّا عنيْتُ وصىَّ النبىِّ نجالدُ عنــه غُواةَ الأمَمْ
له الفضْلُ والسَبْقُ والمكرُماتُ وبيت النبوّة لا يُهتَضَمْ

قال نصر : فسرّ الناسُ بخطبة جرير وشعره .

وقال ابن الأزور القَسْرِىّ فى جرير يمدحه بذلك :

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباء تَنْمِى لَقَدْ جَلّى بخطبتِهِ جَرِيرُ
وَقَالَ مقالة جَدَعَتْ رِجَالًا من الحَيَّيْنِ خطبهمُ كَبِيرُ
بدا بك قبــل أمته علىٌّ وَمُخُّكَ إنْ رَدَدْتَ الحقّ رِيرُ [2]
أتاك بأمْرِه زَحْر بن قَيْس وزَحْرٌ بالتى حَدَثَتْ خَبِيرُ
فــكنتَ لمــا أتاك به سميعاً وكدت إليه من فَرَحٍ تطــيرُ
فأنت بمــا سعــدتَ به ولىّ وأنت لمــا تعدّ له نصِيرُ
وأحرزتَ الثّواب وربّ حادٍ حَدَا بالركب ليس له بعــيرُ [3]

[بيعة الأشعث لعلىّ]

قال نصر : [4] وكتَب علىّ عليه السلام إلى الأشعث ـ وكان عامل عثمان على أذرَبيجَان ـ

(١) لم يذكر هذا البيت فى كتاب صفين ، وذكر موضعه :

طَحَنّاهُمُ طَحْنَةً بالْقَنَا وَضَرْبِ سُيوفٍ تُطِيرُ اللِّمَمْ
مَضَيْنَا يقيناً على ديننا ودِينِ النبىِّ مُجَلِّى الظُّلَمْ
أمينِ الإلٰهِ وَبُرْهَانِه خليفتِنَا القائمِ المدَّعَمْ

(٢) يقال : مخ رير ؛ إذا كان فاسدا .

(٣) بعده فى كتاب صفين :

لِيَهْنِكَ مَا سَبَقْتَ بِهِ رِجالًا من العلياء والفضْلِ الكبيرِ

(٤) وقعة صفين ٢٤ .

يدعُوه إلى البَيْعة والطاعة ، وكتَب جرير بن عبد الله البجليّ إلى الأشعث ، يحضّه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ، وقبولِ كتابه : أما بَعْد ؛ فإنى أتَتْني بَيْعة علىّ ، فقبلتها ولم أجِدْ إلى دفعها سبيلا ؛ لأنى نظرتُ فيما غابَ عَنّى من أمرعثمان ، فلم أجدْه يلزمنى ، وقد شهِد المهاجرون والأنصار ؛ فكان أوفقُ أمرهم فيه الوقوف؛ فاقْبَلْ بيعَته ؛ فإنّك لاتنقلِب إلى خير منه ؛ واعلم أنّ بيعةَ علىّ خيرٌ من مَصَارع أهل البصرة . والسلام .

قال نصر : فقبل الأشعثُ البيعة ، وسمِع وأطاع،وأقبل جريرٌ سائرا من ثَغْر هَمَذَان ؛ حتىوَرَد علىعليهالسلام الكوفة فبايعه ، ودخلفيما دخل فيه الناسمن[1] طاعته ولزومأمره.

[دعوة علىّ معاويةَ إلى البيعة والطاعة وردّ معاوية عليه]

قال نصر : [2] فلما أرادَ علىّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولًا ، قال له جرير : ابعثنى ياأمير المؤمنين إليه ؛ فإنه لم يزَلْ لى مُسْتخِصًا [3] ووُدًّا [4] ، آتيه [5] فأدعوه ؛ على أنْ يسلّم لك هذا الأمر ، ويجامعك على الحق ، على أن يكون أميرا من أمرائك ، وعاملا من عُمّالك ، ما عمِل بطاعة الله ، واتبع مافى كتاب الله ، وأدعُو أهلَ الشام إلى طاعتك وولايتك ؛ فجلّهم ترمى وأهلُ بلادى ، وقد رجوت ألّا يعصونى .

فقال لهالأشتر : لاتبعثْه ولا تصدِّقه ؛ فوالله إنى لأظنّ هواهُ هواهم ، ونيّته نيتهم.

فقال له على عليه السلام : دعْه حتى ننظر مايرجع به إلينا. فبعثه على عليه السلام ، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه : إنّ حولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الرأى والدِّين مَنْ قد رأيت ، وقد اخترتُك عليهملقولِ رسولالله فيك :

---

(١) ب : « فى » .
(٢) وقعة صفين للمنقرى ٣٢ وما بعدها .
(٣) كذا فى الأصول، وفىصفين : « مستنصحاً » .
(٤) ودا ، بضم الواو ؛ أى ذا ود ؛ على حذف المضاف
(٥) كتاب صفين . « نأتيه »

« إنّك من خير ذى يَمَن »[1] ، ائت معاوية بكتابى ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبِذْ[2] إليه ، وأعلِمْه أنّى لا أرضى به أميرا ، وأنّ العامّة لاترضى به خليفة .

فانطلق جرير حتى أتى الشامَ ، ونزل بمعاوية ، فلما دخل عليه حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعد يامعاوية، فإنه قد اجتمع لابن عَمّك أهلُ الحرَمين ، وأهلُ المِصْرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مِصْر ، وأهل العَروض ، والعَروض ـ عُمَان ـ وأهلُ البحرين واليمامة ؛ فلم يبق إلا هـذه الحصون التى أنت فيها ، لوسال عليها سيل من أوديته غرّقها ، وقد أتيتُك أدعوك إلى ما يرشدُك ويهديك إلى مبايعة هـذا الرجل . ودفع إليه كتابَ على عليه السلام ، وفيه :

أما بعـدُ ؛ فإنّ بيعتى بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام ، لأنّه بايعنى القومُ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بُويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدّ؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا عَلَى رجل فسمّوْه[3] إماما ، كان ذلك لله رضا ؛ فإن خرج من أمرهم خارج بطعْنٍ أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منـه ، فإن أَبَى قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولّى ، ويُصلِيه جهنّم وساءت مصيرا . وإنّ طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيْعتى ، فـكان نقضُهما كرِدّتهما ، فجاهدتهما على ذلك ، حتى جاء الحقّ ، وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخُلْ فيما دخل فيـه المسلمون ، فإنّ أحبّ الأمور إلىّ فيك العافية ، إلا أن تتعرّض للبلاء ، فإن تعرّضت له قاتلتُك ، واستعنت بالله عليك .

وقد أكثرتَ فى قَتَلَةِ عثمان ، فادخُل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكِم القوم إلىّ أحملك

---

(١) أى من خير أهل اليمن .

(٢) فانبذ إليه ؛ فى اللسان : « المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعـد القتال ؛ ثم أرادا نقض ذلك العهد ، فينبذ كل فريق منهما إلى صاحبه العهد الذى تهادنا عليه ؛ ومنـه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .

(٣) ب : « وسموه » .

و إياهم على كتاب الله؛ فأمّا تلك التى تُريدها ُمخدْعة الصبىّ عن اللبن . ولَعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنّى أبرَأ قريش من دم عثمان . واعلم أنّك من الطُّلَقاء [1] الذين لا يحلّ لهم الخلافة ، ولا تعرَض فيهم الشورى. وقد أرسلتُ إليكَ [و إلى من قَبلك] [2] جرير بن عبد الله البَجَلىّ، وهو من أهل الإيمان والهِجْرة ، فبايع ولا قوة إلا بالله .

* * *

فلما قرأ الـكتاب، قام جرير فخطب، فقال :

الحمد لله المحمود بالعوائد ، المأمول منه الزوائد ، المرتجَى منه الثواب ، المستعان على النوائب ؛ أحمَده وأستعينهُ فى الأمور التى تحيّر دونها الألباب ،[وتضمحل عندها الأسباب] [2] ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلّ شىء هالك إلا وجهه ، له الُحكم و إليه ترْجعون . وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسلَه بعد فَتْرةٍ من الرّسل الماضية ، والقرون الخالية ،[والأبدان البالية ، والجبلّة الطاغية] [2] ، فبلّغ الرسالة ، ونصَح للأمة ، وأدّى الحقّ الذى استودعه الله، وأمره بأدائه إلى أمته.صلى الله عليه وآله ، من رسول ومبتَعث ومنتجب [3] وعلى آله .

أيها الناس ؛ إنّ أمرَ عثمان قد أعيا مَنْ شهده ، فكيف بمن غاب عنه ! و إنّ الناسَ بايعوا عليًّا غير واتر ولا موتور ؛ وكان طلحة والزبير ممّن بايعاه ثم نكثا بيعتَه على غير حَدَث ، ألا و إنّ هذا الدين لا يحتمل الفِتَن؛ [ألا و إن العرب لا تحتمل الفتن] [2] ، وقد كانتْ بالبصرة أمس روعة ملحمة أن يَشْفَعَ البلاء بمثلها ، فلا بقاء للناس .

---

(١) الطلقاء : جمع طليق ؛ وهم الأسارى الذين أطلقهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ولم يسترقهم .
(٢) تكملة من كتاب صفين .
(٣) المنتجب : المصطفى المختار .

وقد بايعت الأمة[1] عليًّا ، ولو ملّكنا والله الأمور[2] ، لم نختر لها غَيْره . فادخل يامعاوية فيما دخل فيه الناس .

فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزِلْنى ؛ فإنّ هذا قول لو جاز لم يقمْ لله دين ، وكان لكل امرئٍ مافى يديه ؛ ولكنّ الله جعل للآخر من الولاة حَقّ الأول ، وجعل الأمورَ موطأة ينسَخُ بعضُها بعضا .

ثم قعد .

* * *

قال نصر : فقال معاوية : أنظر وتنظر ؛ وأستطلع رأىَ أهل الشام .

فمضت أيام ، وأمرَ معاوية مناديا ينادى : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناسُ صَعِد المنبر ، ثم قال :

الحمد لله الذى جعل الدعائم للإسلام أركانًا ، والشرائع للإيمان برهانا ، يتوقّد قَبَسُه فى الأرض المقدّسة ؛ جعلها الله محلّ الأنبياء والصالحين من عباده ؛ فأحلّهم أرضَ الشام[3] ، ورضِيَهم لها ، ورضيها لهم ، لما سبق فى مكنون علمه مِنْ طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه ، والقوّام بأمره ، والذّابين عن دينه وحرُماته ، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاما ، وفى سبيل الخيرات أعلاما ؛ يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم أُلفة المؤمنين ، والله نستعين على ماتشعّب من أمرالمسلمين بعد الالتئام ، وتباعد بعد القرب . اللهم انصرْنا على أقوامٍ يوقظون نائمَنا ، ويُخيفون آمننا ، ويرُيدون إراقة[4] دمائنا ، وإخافة سُبُلنا . وقد علم الله أنّا لانريد لهم[5] عِقابا ، ولا نهتِك لهم حجابا ، ولا نوطئُهم زلَقا ؛ غير أنّ الله الحميد كسَانا

---

(١) صفين : « العامة » .
(٢) صفين : « أمورنا » .
(٣) صفين : « فأحلها أهل الشام » .
(٤) صفين : « هراقة دمائنا » ، وهما بمعنى .
(٥) صفين : « لم نرد بهم عقابا » .

من الكرامة ثَوْبا لن ننزعه طَوْعاً ؛ ماجاوَب الصَّدَى ، وسقَط الندى ، وعرف الهدَى؛ حملهم على ذلك البغىُ والحسد ؛ فنستعين الله عليهم . أيها الناس، قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم؛ وأنّى لم أقم رجلا منكم على خَزاية [١] قطّ ، وأنّى ولىُّ عثمان ؛ وقد قتل مظلوما ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾[٢] ، وأنا أحبّ أن تعلمونى ذاتَ أنفسكم فى قتل عثمان .

فقام أهل الشام بأجمعهم ، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذُلوا بين يديْه أموالهم وأنفسهم ؛ حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله .

قال نصر : فلما أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه ، وجَنّه الليل وعنده أهل بيته ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيْلِي واعْتَرَتْنِي وسَاوِسِي ... لِآتٍ أتى بالتُّرَّهَاتِ الْبَسَابِسِ [٣]

أتانى جريرٌ والحوادث جَمّةٌ ... بتلك التى فيها اجتداعُ المَعاطسِ

أكايدُه والسيفُ بينى وبينَه ... ولست لأثوابِ الدنىء بِلَابِسِ

إنِ الشّامُ أعطتْ طاعةً يمنيّةً ... تَوَاصَفَهَا أشْيَاخُها فى المَجَالِسِ

فإنْ يَفعلُوا أصْدِمْ عليا بجبْهَةٍ ... تفتُّ عليه كلّ رطب ويابس

وإنى لأرجو خير ما نال نائلٌ ... وما أنا مِنْ مُلْكِ العراق بآيس [٤]

قلت : الجبهة هاهنا : الخيل ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وآله: « ليس فى الجبهة صدَقة» ، أى زكاة .

* * *

(١) على الخزاية ؛ أى حملهم على أمر يستحيا منه .
(٢) سورة الإسراء ٣٣ .
(٣) البسابس : الأمور الباطلة . والأبيات والخبر فى الكامل: ١٨٤ (طبع أوربا) .
(٤) الكامل : « بيائس » .

قال نصر : فاستحثّه [1] جرير بالبَيْعة ، فقال : يا جرير ؛ إنها ليست بخَلْسة ، وإنه أمر له ما بعده ؛ فأبلِعْنى ريقى [حتى أنظر] [2] ، ودعا ثقاته [3] ؛ فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص ، وقال له : إنه مَنْ قد عرفتَ ، وقد اعتزل عثمانَ فى حياته ؛ وهو لأمرِك أشدّ اعتزالا إلا أن يثمّن له دينُه [3].

وقد ذكرنا فيما تقدّم خبر استدعائه عمراً ، وما شرَط له من ولاية مصر ، واستقدامِه شُرَحبيل بن السِّمط رئيس اليمنيّة وشيخها والمقدّم عليها ، وتدسيس الرجال إليه يُغرونه بعلىّ عليه السلام ، ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان ، حتى ملئوا صدرَه وقلبه حقْداً وتِرَة وإحْنة على علىّ عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته [4].

* * *

قال نصر : فحدّثنى محمد بن عُبيد الله عن الجرجانىّ ، قال :

[5] جاء شُرَحْبيل إلى حُصَين بن نُمير ، فقال : ابعث إلى جرير فليأتنا ، فبعث حُصين ابن نمير إلى جرير : أن زُرْنا فعندنا شُرحبيل ، فاجتمعا عند حصين ، فتكلّم شرحبيل ،

---

(١) وقعة صفين ٢٤٩

(٢) من كتاب وقعة صفين

(٣-٣) وقعة صفين : « فقال له عتبة بن أبى سفيان ــ وكان نظيره ــ : اجتمعنّ على هذا الأمر بعمرو ابن العاص ، وأثمن له بدينه ؛ فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل أمر عثمان فى حياته ؛ وهو لأمرك أشد اعتزالا إلا أن يرى فرصة » .

(٤) الجزء الثانى فى ص ٦١ وما بعدها .

(٥) صدر هذا الخبر كما ورد فى كتاب وقعة صفين ٥٢ : « لما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ، ودخل على معاوية ؛ فتكلم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ياشرحبيل ، إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلىّ خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان ، وقد حبست نفسى عليك ؛ وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا ، وأكره ما كرهوا ؛ فقال شرحبيل : أخرج فأنظر ؛ فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطئون له ؛ فكلهم يخبره بأن عليا قتل عثمان بن عفان . فخرج مغضبا إلى معاوية فقال : يامعاوية ؛ أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان ؛ ووالله لئن بايعت لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك . قال معاوية : ما كنت لأخالف عليكم؛ وما أنا إلا رجل أهل الشام . قال : فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذا . قال : فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته فى حرب أهل العراق ؛ وأن الشام كله مع شرحبيل ؛ فخرج شرحبيل فأتى حصين بن نمير ... » ؛ وقد نقله المؤلف مختصرا فيما سبق فى الجزء الثانى ص ٥٢-٥٣ .

فقال : ياجرير أتيتنا بأمر مُلَفَّف[1] لِتُلْقِيَنا فى لَهَوات الأسد ، وأردتَ أن تخلط الشام بالعراق، وأطْريت[2] عليا ، وهو قاتل عثمان ، والله سائِلك عمَّا قلت يوم القيامة.

فأقبل عليه جريرٌ وقال : يا شُرَحبيل ، أما قولك : إنِّى جئت بأمر مُلَفَّف ؛ فكيف يكون ملففًا وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، وقوتل على رَدِّه طلحة والزبير !

وأمّا قولك : إنّى أُلقِيك فى لهوات الأسْد ، ففى لَهَواتِها ألقيتَ نفسك .

وأما خلطُ أهلِ الشّام بأهلِ العِراق ، فخلطُهُما على حقّ ، خيرٌ مِنْ فُرقتهما على باطل .

وأما قولُك : إنَّ عليـا قَتَل عثمان ، فوالله ما فى يديك من ذلك إلا القذْف بالغَيْبِ مِنْ مكان بعيد ؛ ولـكنّكَ مِلْت إلى الدنيا ؛ وشىء كان فى نفسك على زمان سعد ابن أبى وقّاص !

فبلَغ ما قالاه إلى معاوية،فبعث إلى جرير فزجَره.قال نصر:وكُتِب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه[3].فيه :

شُرَحْبيل يابنَ السِّمْط لا تَتْبَع َهوَى	فمالَكَ فِى الدُّنْيا مِن الدِّين مِنْ بَدَلْ
وَلَا تَكُ كالمُجْرَى إلى شَرِّ غايَةٍ	فَقَدْ خُرِّقَ السِّرْبالُ واسْتَنْوَقَ الجَمَلْ
وَقُلْ لابن حَرْب ما لك اليومَ خَلَّةٌ	ترومُ بها ما رُمْتَ واقطَع لَهُ الأمل[4]
شُرَحْبيلُ إنّ الحقّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ	فَـكُنْ فيه مأمونَ الأديم من النَغَلْ
وَأَرْوِدْ ولا تُفْرِطْ بشىء تخافُهُ	عَلَيْكَ ، ولا تَعْجَلْ فلا خَيْرَ فِى العَجَلْ

---

(١) ملفف : غير محكم .

(٢) صفين : « أطرأت » ، وهما بمعنى : « مدحت » .

(٣) وقعة صفين : « وكتب جرير إلى شرحبيل » .

(٤) وقعة صفين : « مالك اليوم حرمة . . . واقطع » .

وقال ابنُ هندٍ فى علىّ عضيهــــةً ... وَلَلّهُ فِى صَدْرِ ابنِ أبى طالبٍ أجلّ (١)
وَمَا مِنْ علىّ فى ابن عفــــان سَقْطَةٌ ... بقولٍ ، ولا مالا عليه ولا قتلْ (٢)
وَمَا كَانَ إلّا لازماً قَعْرَ بَيْتِــــهِ ... إلى أن أتى عثمانَ فى داره الأجلْ
فَمَنْ قَالَ قَوْلاً غيرَ هـــذا فحسبُه ... من الزُّور والبهتان بعضُ الذى احْتَمَلْ
وصىّ رسول الله مِنْ دونِ أهلِه ... ومَنْ باسمِه فى فَضْلِه يُضْرَبُ المثلْ (٣)

***

قال نصر: فلما قرأ شُرَحْبيل الـكتاب ذُعِر وفـكَّر ، وقال : هذه نصيحةٌ لى فى دينى، ولا والله لا أعجّل فى هذا الأمر بشىء، [وفى نفسى منه حاجة] (٤)، وكاد (٥) يحولُ عن نصر معاوية ويتوقف (٥)، فلَفّق (٦) له معاوية الرجالَ يدخلُون إليه ويخرجون، ويعظّمون عنده قتلَ عثمان ، ويرمُون به عليًّا ، ويقيمون الشهادة الباطلة ، والـكتبَ المختلقة ؛ حتى أعادوا رأيَه ، وشَحَذوا عزمه (٧) .

***

(١) العضيهة : الإفك والبهتان .
(٢) مالا عليه ، أصله : « مالأ » بالهمز ؛ والمالأة : المعاونة . وفى صفين : « ولا جلب عليه » .
(٣) فى صفين :

* من الزّورِ وَالْبُهتَانِ قَوْلُ الّذى احْتَمَلْ *

(٤) من كتاب وقعة صفين .
(٥ـ٥) فى وقعة صفين : « واستتر له القوم » .
(٦) كذا فى ج ، وفى ا ، ب ، « فلقوله » تصحيف ، وفى صفين : « فلفف » .
(٧) بقية الخبر فيما نقل عن كتاب وقعة صفين: «وبلغ ذلك قومه ، فبعث ابن أخت له من بارق ـ وكان يرى رأى على بن أبى طالب ـ فبايعه بعد ، وكان ممن لحق من أهل الشام ، وكان ناسكا ، فقال :

لعمرُ أبى الأشقى ابنِ هندٍ لقد رَمَى ... شرَحْبيلَ بالسَّهْم الذى هو قاتِلُهْ
وَلَفّفَ قوماً يَسْحَبُونَ ذيولَهُمْ ... جميعاً وأوْلَى الناسِ بالذنبِ فاعِلُهْ
فَألْفَى يمـانيًّا ضعيفاً نخَاعُهُ ... إلى كلّ مايَهْوَوْنَ تُحْدَى رواحِلُهْ
فَطَاطا لهَا لمــا رَمَوْه بثِقْلِهَا ... ولا يرزقُ التقوى منَ الله خاذِلُهْ =

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد بإسناده قال : [1] بعث معاوية إلى شُرَحْبِيل ابن السِّمْط :

إنه قد كان من إجابتك إلى الحقّ ، وما وقع فيه أجرُك على الله ، وقَبِله عنكَ صُلَحاء الناس ماعلمت ؛ وإنّ هذا الأمر الذى نحن فيه لا يتمّ إلا برضا العامّة ، فسِرْ فى مدائن الشام ، ونادِ فيهم بأنّ عليا قَتَل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه .

فسار شُرَحبيل ، فبدأ بأهل حِمْص ، فقام فيهم خطيبا — وكان مأموناً فى أهل الشام ناسكا مُتألّها ، فقال :

أيها الناسُ ، إن عليا قتل عثمان ، فغضِب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ، فلقيَهم فهزم الجمع ، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض ، فلم يبق إلا الشام ؛ وهو واضع سيفه على عاتقه ، ثم خائض غمرات [2] الموت ، حتى يأتيَكم أو يحدث الله أمرا ، ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية ، فجدّوا وانهضوا .

فأجابه الناس كلّهم إلا نُسّاكا من أهل حِمْص ؛ فإنهم قالوا له : بيوتُنا قبورنا ومساجدنا ، وأنت أعلم بما ترى .

قال : وجعل شُرَحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها، لا يأتى على قوم إلا قَبِلوا

=ليأكل دنيـا لابن هندٍ بدينهِ ألا وابنُ هندٍ قبلَ ذلكَ آكلُهْ
وقالوا علىّ فى ابن عفان خدعةً ودَبتْ إليـه بالشنانِ غوائلُهْ
وَلَا والّذى أرسَى ثبيراً مكانَهُ لَقَدْ كُفّ عنـهُ كَفُّهُ ووسائلُهْ
وَمَا كانَ إلا من صحابِ محمّدٍ وَكُلّهُمُ تغلِى عَلَيْهِ مراجِلُهْ

فلما بلغ شرحبيل هذ القول قال : هذا بعيث الشيطان ؛ الآن امتحن الله قلبى ؛ والله لأسيرن صاحب هذا الشعر او ليفوتنى ؛ فهرب الفتى إلى الكوفة — وكان أصله منها — وكاد أهل الشام أن يرتابوا.

(١) فى صفين : « محمد بن عبيد الله وعمر بن سعد بإسناده ، قال » .

(٢) صفين : « غمار الموت » .

ماأتاهم به ، فبعث إليه النجاشيّ بن الحارث[1] ـ وكان له صديقا :

شُرَحْبِيلُ ماللدِّين فارقتَ ديننا[2] ولكنْ لبغض المالكىِّ جريرِ
وَشَحْنَاء دَبَّتْ بين سعدٍ وبَيْنَهُ فأصبحتَ كالحادِى بغيرٍ بَعيرِ
[ومَا أنت ، إذ كانت بجيلة عاتبتْ قريشاً فيالله بُعْدَ نصيرِ][3]
أتفصِل أمراً غِبْتَ عنه بشبهةٍ وقد حارَ فيه عقلُ كلِّ بَصيرِ
بِقَوْلِ رجالٍ لم يكونوا أئمةً ولا للتى لَقَّوْكَهَا بحضُورِ
[وما قولُ قَومٍ غائبين تقاذفوا من الغيب ما دَلَّاهُمُ بغرورِ][3]
وتترك أنّ الناسَ أعطَوْا عهودهَمُ عليًّا على أنسٍ به وسرورِ
إذا قيل هاتُوا واحـدا يقتدى به[4] نظيراً له لم يُفصِحُوا بنظيرِ
لعلك أن تشقى الغداة بحربه فليس الذى قد جئته بصغير

* * *

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن نُمَيْر بن وعلة، عن الشَّعبيّ، أن شُرَحبيل بن السِّمْط ابن الأسود بن جَبَلة [الـكندىّ][3] دخل على معاوية ، فقال له: أنت عاملُ أمير المؤمنين وابن عمّه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنتَ رجلا تُجاهِد عليا وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تذهب أرواحُنا استعملناك علينا ؛ وإلّا عزلْناك واستعملنا غيرَك ممن نريد ، ثم جاهَدْنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلِك .

فقال جرير بن عبد الله ـ وكان حاضرا : مهلًا ياشُرَحْبيل ؛ فإن الله قد حَقَن الدِّماء ، ولَمّ الشعث ، وجَمع أمر الأمة ، ودنَا من هذه الأمة سكون ؛ فإياك أنْ تُفْسِد بين الناس ،

(١) فى حواشى صفين : « والمعروف فى شعرائهم النجاشى الحارثى ؛ واسمه قيس بن عمرو بن مالك ؛ من بنى الحارث بن كعب ؛ وهو ممن حده أمير المؤمنين على بن أبى طالب لشربه الخمر » .
(٢) وقعة صفين : « أمرنا » .
(٣) من كتاب وقعة صفين .
(٤) وقعة صفين : « تقتدونه » .

وأمسِكْ عن هـذا القول قبل أن يشيعَ و يظهر عنك قولٌ لا تستطيع رَدّه ، فقال : لاوالله لا أسرّه أبدا . ثم قام فتكلّم به ، فقال النـاس : صدق صدق ! القولُ ماقال ، والرأى مارأى . فأيس جرير عند ذلك مِنْ معاوية ومن عوامّ أهل الشام .

* * *

قال نصر : [1] وحدثنى محمد بن عبيد الله ،عن الجرجانىّ، قال : كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك فى منزله ، فقال له:ياجرير؛إنى قد رأيت رأياً ، قال : هاته ، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية، فإذا حضرتْه الوفاة لم يجعلْ لأحد بعـده فى عنقى بيعة ، وأسلِّم له هذا الأمر ؛ وأكتب إليه بالخلافة . فقال جرير: اكتُب ماأردت أكتب معك [2] .

فـكتب معاوية بذلك إلى على ، فـكتب علىّ عليه السلام إلى جرير :

أما بعـد ، فإنما أراد معاوية ألّا يكون لى فى عنقه بَيْعة ، وأن يختار من أمره ماأحبّ ، وأراد أنْ يُرِيثَك ويُبْطئك ، حتى يذوقَ أهل الشام ؛ وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار علىّ أن أستعملَ معـاوية على الشام ، وأنا حينئذ بالمـدينة ، فأبيتُ ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلّين عَضُدا ، فإن بايَعك الرجل ؛ وإلا فأقبِل. والسلام .

* * *

قال نصر : وفشا كتابُ معاوية فى العرب ، فبعثَ إليه [3] الوليد بن عُقْبة :

معاوىَ إنّ الشامَ شامُك فاعتصِمْ   بشامِك لا تُدْخِلْ عليكَ الأفاعِيَا
وحامِ عليهـا بالصّوَارم والقَنَا   ولاتكُ موهونَ الذِّراعين وَانِيَا [4]
وإنّ عليا ناظرٌ ما تجيبُه   فَأهْدِ له حَرْباً تُشِيب النَّواصِيَا

---

(١) وقعة صفين ٥٨

(٢) صفين: «اكتب بما أردت وأكتب معك»

(٣) كلمة « إليه » ساقطة من ا .

(٤) صفين : « بالقنابل . . . محشوش الذراعين » .

وإلّا فسلمٌ إنّ فى السِّلم راحةً … لمن لا يريدُ الحربَ فاخترْ مُعاويا

وإنّ كتابا يابنَ حرب كتبتَه … على طمعٍ ، يُزْجى إليك الدواهيا

سألتَ عليًّا فيهِ مالَنْ تنالَه … ولَوْ نلتَه لم يبْقَ إلا لَياليا

وَسوْفَ ترَى منه التى ليس بعدها … بقاءٌ ، فلا تكثر عليك الأمانيَا

أمِثْلَ عَلِيٍّ تعتريه بخُدْعَةٍ … وقد كان ما جرَّبْتَ من قبل كافيا !

قال: وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضا يوقظه ويشير عليه بالحرب، وألّا يكتب جواب جرير :

معاوىَ إنّ المُلْك قد جُبَّ غاربُهْ … وأنت بما فى كفِّك اليومَ صاحِبُهْ

أتاكَ كتابٌ من عَلِيٍّ بخُطّةٍ … هى الفصْلُ فاخترْ سِلْمَه أو تُحَارِبُهْ

فلا ترجُ عند الواترينَ مَوَدَّةً … ولا تأمَن اليومَ الّذى أنتَ راهِبُهْ

وحاربْه إن حاربْتَ حرب ابنِ حُرَّةٍ … وإلّا فَسِلْمٌ لا تدبّ عقارِبُهْ(١)

فإنّ عليًّا غيرُ ساحب ذَيْلِهِ … عَلَى خُدعةٍ ما سوَّغَ الماءَ شَارِبُهْ

[وَلَا قابلٍ ما لا يريدُ وهذهِ … يقوم بها يوماً عليه نوادبه](٢)

فَلَا تَدَعَنَّ المُلكَ والأمرُ مُقبلٌ … وتطلبَ ما أعيت عليه مذاهبُهْ

فإنْ كنتَ تنوِى أنْ تُجيبَ كِتابَه … فقُبِّحَ مُمْليه وَقُبِّحَ كاتبُهْ

وإن كنتَ تَنْوى أنْ تردّ كِتَابهُ … وأنت بأمرٍ لا محالةَ رَاكِبُهْ

فألْقِ إلى الحىِّ اليمانينَ كِلْمَةً … تنالُ بها الأمرَ الّذى أنتَ طالبُهْ

تقول : أميرُ المؤمنين أصابَهُ … عدوٌّ وما لاهم عليه أقاربُهْ

أفانينُ مِنْهُمْ قائلٌ وَمُحَرِّضٌ … بلا ترَةٍ كانتْ ، وآخرُ سالبُهْ

---

(١) ب : « حرابن حرة » ، والصواب ما أثبته من ا ، ج وكتاب صفين .

(٢) من كتاب صفين .

وكنتُ أميراً قَبْلُ بالشامِ فيكُمُ ... فحسبي وإياكم من الحقّ واجبُهْ
فجيئوا ، ومَنْ أرسَى ثَبيراً مكانَه ... نُدافِع بحراً لا تُرَدّ غوارِبُهْ (١)
فأقلِلْ وأكثِرْ مالها اليوم صاحبٌ ... سواكَ فصرِّحْ لستُ مِمَّنْ تُوارِبُهْ

قال نصر : وخرج جرير يوما يتجسّس الأخبار ؛ فإذا هو بغلام يتغنّى على قَعود له ، وهو يقول :

حُكَيْمٌ وَعَمَّارُ الشَّجَا ومحمدٌ ... كذا الأشترُ المكْشُوحُ جَرُّوا الدَّواهِيَا (٢)
وَقَدْ كَانَ فيها للزُّبيرِ عَجَاجَةٌ ... وصاحبُه الأدنى أثاروا الدواهيا (٣)
فأما عليٌّ فاستجارَ ببيتِه ... فلا آمرٌ فيها ولم يَكُ ناهِيا
فَقُلْ فى جَمِيعِ النَّاسِ ما شِئْتَ بَعْدَهُ ... فلو قلتَ أخطا الناسُ لم تَكُ خاطِيَا
وإن قلتَ عَمَّ القومُ فيه بِفِتْنَةٍ ... فحسْبُكَ مِنْ ذاكَ الَّذِى كانَ كافيا
فقولا لأصحابِ النبيِّ محمدٍ ... وَخُصّا الرجالَ الأقرَبين الأدَانِيَا
أيُقْتَلُ عثمان بن عفّان بينَكُمْ ... عَلَى غَيْرِ شىء ليس إلّا تعاميا
فلا نومَ حتى نستبيحَ حَرِيمَكُمْ ... ونخضِبَ من أهلِ الشَّنَانِ الْعَوالِيَا

فقال جرير : يابن أخى ، مَنْ أنت ؟ فقال : غلام من قريش ، وأصلى من ثَقيف ، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق ، قُتِل أبى مع عثمان يوم الدّار . فعجب جريرٌ

(١) كذا فى ج ، وصفين ، وفى ا ، ب : « تجيئوا » . والغوارب : أعالى الموج .

(٢) حكيم بن جبلة بن حصن العبدى ، كان عثمان بعثه إلى السند ؛ ثم نزل البصرة ، وقتل بها يوم الجمل . وعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر الصديق ؛ والأشتر : مالك بن الحارث . والمكشوح المرادى ، واسمه هبيرة بن هلال ، ونسبه فى بجيلة .

(٣) صفين : « أشاب النواصيا » .

من شعره وقوله ، وكتب بذلك إلى علىّ عليه السلام ، فقال علىّ : والله ما أخطأ الغلام شيئا .

* * *

قال نصر : (١) وفى حديث صالح بن صَدقة ، قال : أبطأ جرير عند معاوية حتى اتّهمه الناس ، وقال علىّ عليه السلام : قد وقّتُّ لجرير وقتا لا يُقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا ، وأبطأ عَلَى علىّ حتى أيِس منه .

قال : وفى حديث محمد وصالح بن صدقة ، قالا : فكتب علىّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك :

إذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية عَلَى الفَصْل ؛ ثم خيّره وخذه بالجواب بين حرب مُخزية (٢) أو سلم مُحْظية ، فإن اختارَ الحرب فانبذ إليه ، وإن اختار السّلم فخذه ببيعته . والسلام .

قال : فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية ، فأقرأه الكتاب ، وقال له : يا معاوية ؛ إنه لا يطبع على قلب إلا بذنب ، ولا يُشرَح صَدْر إلا بتوبة ، ولا أظنّ قلبَك إلا مطبوعا عليه ، أُراك قد وقفت بين الحقّ والباطل ، كأنك تنتظر شيئا فى يد غيرك .

فقال معاوية : ألقاك بالفَصْل (٣) فى أوّل مجلس إن شاء الله .

فلما بايع معاوية أهلَ الشام بعد أن ذاقهم ، قال : يا جرير الحق بصاحبك ، وكتب إليه بالحرْب ، وكتب فى أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعَيل :

أرَى الشَّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ ... وَأهْلَ العِراق لهم كارهونا

---

(١) وقعة صفين ٦١

(٢) صفين : « مجلية » .

(٣) صفين : « بالفيصل »

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم .

***

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الـكامل "[١] : إن عليًا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية، قال : والله يا أميرَ المؤمنين ما أدّخِرُك من نُصْرتى شيئا ، وما أطمع لك فى معاوية . فقال علىّ عليه السلام : إنما قصدى حُجّة أقيمها [عليه].[٢] فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيْعة ، فقال له جرير : إنّ المنافقَ لا يصلّى حتى لا يجدَ مِنَ الصلاة بُدًّا . فقال معاوية : إنها ليست بخُدْعة الصبى عن اللّبن ، فأبلغنى ريقى[٣] ، إنه أمر له ما بعده .

قال : وكتب مع جرير إلى علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه إليه : من معاوية ابن صَخْر إلى علىّ بن أبى طالب ؛ أما بعد : فلعَمْرِى لو بايَعك القومُ الذين بايَعوك وأنت برىء من دم عثمان كنتَ كأبى بكر وعمر وعثمان ؛ ولـكنك أغريْت بعثمان المهاجرين ، وخذّلت عنه الأنصار ، فأطاعَك الجاهلُ ، وقَوِىَ بك الضعيف ، وقد أبى أهلُ الشام إلا قتالك ؛ حتى تدفَعَ إليهم قَتَلَة عثمان ، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين ، ولعمرِى [٤] ليس حُجَجُكَ علىّ كحججك على طلحة [٤] والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعْك ، وما حجتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة ، لأنّ أهلَ البصرة أطاعوك ولم يُطِعْك أهلُ الشام. فأمّا شرفُك فى الإسلام ، وقرابتُك من النبى صلى الله عليه وموضِعُك من قريش ، فلست أدفعُه .

---

(١) الـكامل ٣ : ٢٠٩ وما بعدها ـ بشرح المرصفى ؛ مع تصرف فى الخبر .

(٢) من كتاب الـكامل .

(٣) أى أنظرنى بمقدار ما أبلع ريقى

(٤ــ٤) الـكامل : « ما حجتك على كحجتك على طلحة . . . » .

ثم كتب فى آخر الكتاب شعرَ كعب بن جعيل الذى أوله :

أَرَى الشَّامَ تكرهُ أهلَ العراقِ وَأَهْلَ العراق لهمْ كارِهُونا

* * *

قال أبو العباس المبرّد[١] رحمه الله تعالى : [٢]فكتب إليه علىّ عليه السلام جوابا عن كتابه هذا :

من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب [٢] :

أما بعد ؛ فإنّه أتانى منك كتابُ امرئ ليس له بَصَرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ؛ وقاده الضلال فاتّبعه ، زعمتَ أنك إنما أفْسَد عليك بَيْعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعَمْرِى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ؛ وما كان الله لِيجمَعهم عَلَى الضلال ، ولا ليضربَهم بالعمَى . و بعد ، فما أنت وعثمان ! إنما أنتَ رجل من بنى أميّة ، و بنو عثمان أَوْلَى بمطالبةِ دَمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى عَلَى ذلك ، فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القومَ إلىّ . وأما تمييزُك بينكَ و بين طلحة والزبير ، و بين أهل الشام وأهل البَصْرة ، فلعمرِى ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء ؛ لأنها بيعة شاملة لا يستثنَى فيها الخيار ، ولا يستأنف فيها النَّظَر . وأمّا شرَفِى فى الإسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه ، وموضعى من قريش ، فَلعمرى لواستطعت دفعه لدفعته .

قال : ثم دعا النَّجاشىَّ أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنَّ ابنَ جُعَيل شاعرُ أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجِب الرجل . فقال : يا أمير المؤمنين ، أسمعنى قوله ، قال : إذن أسمعك شِعْر شاعر ، ثم أسمعه ، فقال النجاشىّ يجيبه :

---

(١) فى الكامل ٣ : ٢٢٤ — بشرح المرصفى ؛ وذكره المنقرى فى كتاب صفين ٦٤ — ٦٥

(٢ — ٢) فى الكامل : « فكتب إليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه جواب هذه الرسالة : بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر » .

دَعاً يا مُعاوِىَ ما لن يـكونَا ... فَقَدْ حَقَّق اللهُ ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهلِ العراقِ ... وأهلِ الحجاز فما تصنعونا (١)
عَلَى كل جَرْدَاء خَيْفَانَةٍ ... وَأَشْعَثَ نَهْدٍ يَسُرّ الْعُيُونا (٢)
عَلَيْهـــا فَوارِسُ مخشيّةٌ ... كأُسْد الْعَرِين حَمَيْنَ الْعَرِينا
يَرَوْنَ الطِّعَانَ خلالَ الْعَجَاجِ ... وَضَرْبَ الفوارسِ فى النَّقْعِ دِينا (٣)
هُمُ هزَمُوا الجمعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ ... وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّا كِثينَا
وآلوا يمينــاً عَلَى حَلْفَةٍ ... لنُهْدِى إلى الشّام حَرْباً زَبُونا (٤)
تُشيبُ النّواهِــدَ قَبْلَ المشيبِ ... وتُلْقِى الحواملُ مِنْهَا الجنينَا (٥)
فإن تكرهوا المُلْكَ مُلْكَ العِرَاقِ ... فَقَدْ رَضِىَ القَوْمُ ما تكرَهُونا
فقـــل للمضلّل مِنْ وَائِلٍ ... وَمَنْ جعَلَ الْغَثّ يوْماً سَمِينا
جَعَلْتُمْ عَلِيّا وَأَشْيَاعَـــهُ ... نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ أَمَا تَسْتَحُونا!
إلى أفضلِ النّاس بعـد الرسول ... وصِنْو الرسولِ مِنَ العالمينـا
وَصِهْرِ الرسول وَمَنْ مِثْـــلُه ... إذا كانَ يومٌ يُشِيب القُرُونا!

قلت: أبـيات كعب بن جُعيل؛ خيرٌ من هـذه الأبيات، وأخبث مقصدا وأدهى وأحسن.

وزاد نصر بن مزاحم فى هـذه الرسالة بعـد قوله: «ولا ليضربهم بالعصى»: «وما ألَبْت (٦) فتلزمنى خطيئة الآمر، ولا قتلت فيجب عَلَىَّ القصاص. وأما قولك إنّ

(١) لم يذكر المبرد فى الكامل سوى هذين البيتين، وقال: «وبعد هذا ما نمسك عنه».
(٢) الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. والخيفانة: الخفيفة الوثابة. والنهد من الخيل: الجسيم المشرف
(٣) النقع: التراب.
(٤) صفين: «وقالوا». والإيلاء: الحلف
(٥) صفين: «تشيب النواهد».
(٦) ما ألبت، أى ما حرضت. وفى صفين: «وما أمرت»

أهل الشام هم الحكام عَلَى أهلِ الحجاز ، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل فى الشورى ، أو تحلُّ له الخلافة ، فإنْ زعمتَ ذلك كَذّبَك المهاجرون والأنصار ؛ وإلا أتيتُك به من قريش الحجاز . وأما وَلُوعك بى فى أمر عثمان ، فما قلت ذلك عن حقّ العيان ، ولا يقين الُخبر (١) .

وهذه الزيادة التى ذكرها نصر بن مزاحم ، تقتضى أنه كان فى كتاب معاوية إليه عليه السلام أنّ أهل الشام همُ الحكام عَلَى أهل الحجاز ؛ وما وجدنا هذا الكلام فى كتابه .

[أَخبار متفرقة]

وروى نصر بن مزاحم ، قال : لما (٢) قُتِل عثمانُ ضَرَبت الرّكبان إلى الشام بقتله ، فبينا معاوية يوما إذا أقبل رجل متلفّف ، فكشف عن وجهه ، وقال لمعاوية : ياأميرَ المؤمنين، أتعرفنى ؟ قال : نعم؛ أنت الحجاج بن خزيمة بن الصِّمة ، فأين تريد ؟ قال : إليك القُربان، أنعَى ابن عفان ، ثم قال :

إن بنى عَمِّك عَبْد المطَّلِبْ — هُمْ قتلوا شيخكم غَيْر كَذِبْ
وأنت أولَى الناس بالوثْبِ فثِبْ — واغْضَبْ معاوى للإله واحْتَسِبْ
وَسِرْ بنا سَيْرَ الجرير المتلئبْ — وانْهَضْ بأهل الشام تَرْشُدْ وتُصِبْ
ثم اهْزُزِ الصَّعْدة للشأس الشَّغِبْ (٣)

قال : يعنى عليا عليه السلام .

قلت : المتلئبّ المستقيم المطّرد ، يقال : هذا قِيَاسٌ متلئبّ ، أى مستمرّ مطّرد .

---

(١) الخبر : العلم
(٢) وقعة صفين ٨٦ ، ٨٧
(٣) الصعدة ، بالفتح : القناة المستوية .

ويقال : مكان شَأْس ، أى غليظ صلب. والشَّغب: الهائج للشرّ ، ومن رواه: «للشاسى» بالياء فأصله « الشاصى » بالصاد ؛ وهو المرتفع ، يقال : شصا السحابُ إذا ارتفع ، فأبدل الصاد سينا ، ومراده هنا نسبة علىّ عليه السلام إلى التيه والترفّع عن الناس .

قال نصر : فقال له معاوية : أفيك مَهَزّ ، فقال : نعم ، فقال : أَخْبِر الناس ، فقال الحجاج : ياأميرَ المؤمنين ـ ولم يخاطَب معاوية بـ « أمير المؤمنين » قبلها ـ إنّى كنتُ فيمَنْ خرج مع يزيد بن أسدٍ القسْرِىّ ، مغيثا لعثمان ، فقدمْتُ أنا وزفر بن الحارث ، فلقِينا رجلا زعم أنه ممّن قتل عثمان ، فقتلْنــاه ؛ وإنى أخبرك ياأمير المؤمنين ، أنك لَتقوَى على علىّ بدون ما يقوَى به عليك؛ لأنّ معك قوما لايقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ وإن مع علىّ قوما يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ؛ فقليلٌ ممّن معك خيرٌ من كثير ممن معه . واعلمْ أنه لايرضى علىّ إلا بالرضا ، وأنّ رضاه سَخَطك ، ولستَ وعلىّ سواء ؛ علىّ لايرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق .

قال نصر : فضاق معاوية صدرا بما أتاه ، ونَدِم على خِذلان عثمان (١) وقال :

أتانِىَ أمرٌ فيـــه للنفس غمّةٌ	وَفيـــه بكاءٌ لِلْعُيُونِ طَوِيلُ
وفيـــهِ فناءٌ شاملٌ وخَزَايةٌ	وفيـه اجتداعٌ للأُنوف أصيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وهـــذهِ	تـكاد لها صمّ الجبـالِ تزُولُ
فللّهِ عَيْنـا مَنْ رَأى مِثْلَ هَالكٍ	أصيبَ بِلا ذَنْبٍ وَذَاكَ جَلِيلُ !
تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ	فَرِيقانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وخَذُولُ
دَعَاهُمْ فَصَمّوا عنه عِنْدَ دُعَائِهِ	وَذَاكَ عَلَى مافِى النُّفُوسِ دَلِيلُ
ندِمتُ على ما كان مِنْ تبعِى الْهوَى	وقَصْرِىَ فيه حَسْرَةٌ وعوِيلُ (٢)

(١) وقعة صفين : « وقال معاوية حين أتاه قتل عثمان » .

(٢) قصرى فيه ؛ أى حسبى .

سَأبغِى أبا عمرٍو بـكُلِّ مُثقَّفٍ ... وبيضٍ لهَا فى الدّارِعين صَليل[1]

تركْتُك للقومِ الذين همُ همُ ... شَجاكَ فماذا بعد ذاك أقول !

فلستُ مقيماً ماحييتُ ببـلدةٍ ... أجرّ بها ذَيْلِى وأنت قتيل

فلا نوم حتى تُشْجَرَ الخيلُ بالقنا ... وَيُشْفَى من القوم الغُواةِ غَليلُ[2]

وَنطْحَنَهُمْ طحنَ الرَّحَا بثِفالِها ... وذاكَ بما أسْدَوْا إليك قليل[3]

فأمّا الَّتِى فيها مودّةُ بيننا ... فليس إليه مَا حَيِيتُ سَبيلُ

سأُلقحُها حَرْباً عَوَاناً مُلحّةً ... وإنى بِهَا مِنْ عَامِنا لَكَفِيلُ

قال نصر : وافتخَر الحجّاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية بإمرة المؤمنين .

***

قال نصر : [4]وحدثنا صالح بن صدقة ، عن ابن إسحاق ، عن خالد الخُزاعىّ وغيره ممن لا يُتّهَم ، أن عثمان لما قُتِل وأُتِىَ معاوية بكتاب على عليه السلام بعزله عن الشام ، صعِد المنبر ونادى فى الناس أن يحضرُوا ، فحضروا ، فخطبَهم . فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : ياأهلَ الشام ، قد علمتم أنّى خليفةُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان ، وقد قتلَ وأنا ابن عمه ووليّه ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾[5] وأنا أحبّ أن تُعلِمُونى مافى نفوسكم من قَتْل خليفتكم .

---

(١) وقعة صفين : « سأنعى » ، وسأبغى ، أى سأطلب ثأره ؛ وأبو عمرو كنية عثمان .

(٢) تشجر الخيل : تطعن .

(٣) الثفال : جلد يبسط فيوضع فوقه الرحا ليسقط عليه الدقيق . وفى اللسان : « وفى حديث على : وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها ، هو من ذلك : والمعنى أنها تدقهم دق الرحا للحب ؛ إذا كانت مثفلة ، ولا تثفل إلا عند الطحن » .

(٤) وقعة صفين ٩١

(٥) سورة الإسراء ٣٣

فقام مُرّة بن كعب[1]؛ وفى المسجد يومئذ أربعمائة رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله أو نحوها، فقال: والله لقد قمتُ مقامى هذا، وإنّى لأعلمُ أنّ فيكم مَنْ هو أقدم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه مِنّى؛ ولكنّى شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله نصفَ النهار فى يوم شديد الحرّ، وهو يقول: «لَتَكُونَنّ فتنة حاضرة»، فمرّ رجل مُقَنّع، فقال رسول الله: وهذا [المقنع][2] يومئذٍ على الهُدَى، فقمت فأخذت بمنكبه، وحَسَرْتُ عن رأسه؛ فإذا عثمان، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه، وقلت: هذا يارسول الله فقال: نعم.

فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع فى الخلافة ثم الأمر شورى.

* * *

وروى إبراهيم بن الحسن بن دِيزيل فى ''كتاب صفين'' عن أبى بكر بن عبد الله الهذلىّ أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه فى الطلب بدم عثمان، ويحرّضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

ألا أبلغْ معاوية بن حَرْبٍ فإنّك مِنْ أخى ثِقَةٍ مُليمُ[3]

قطعتَ الدهر كالسَّدِمِ المعنَّى تُهدِّرُ فى دمشقَ ولا تَرِيمُ[4]

---

(١) وقعة صفين: «كعب بن مرة السلمى».

(٢) من صفين.

(٣) من أبيات، فى الطبرى ٥: ٢٣٦، واللسان ١٥: ٣٦، ٣٧. ومليم، من قولهم: ألام الرجل؛ إذا أتى ما يلام عليه.

(٤) السدم: الفحل غير الكريم يكره أهله أن يضرب فى إبلهم؛ فيقيد ولا يسرح فى الإبل رغبة عنه؛ فهو يصول ويهدر، أى يصيح. والمعنى، أصله: «المعنن» من العنة؛ فأبدلت إحدى النونين ياء؛ كما قالوا: تظنى، وأصله: «تظنن»، وفى المثل: «كالمهدر فى العنة». وانظر مجمع الأمثال للميدانى ٢: ١٤١، وجمهرة الأمثال للعسكرى ٢: ١٥٣

فإنك والـكتابُ إلى علىّ ... كدابغة وقد حَلِم الأديم[١]

لك الويلات أقحِمها عَليْهِم ... فخير الطالبِى التِّرةِ الغَشُومُ[٢]

قال : فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حَجر :

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمّا يرَى مِنْ أناتِنا ... وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ[٣]

***

وروى ابن ديزيل ، قال : لما عَزَم على عليه السلام على المسير إلى الشام ، دعا رجلا ، فأمره أن يتجهّز و يسير إلى دمشق ، فإذا دخلَ أناخَ راحلتَه بباب المسجد ، ولا يُلقِى من ثياب سفره شيئا ؛ فإن الناس إذا رأوْا عليه آثار الغُرْبة سألوه ، فليقل لهم : تركتُ عليا قد نَهَد[٤] إليكم بأهل العراق . فانظر ما يكون من أمرهم .

ففعل الرجل ذلك ، فاجتمع الناس وسألوه ، فقال لهم ، فكثروا عليه يسألونه فأرسل

---

(١) الحلم ، بالتحريك : أن يفسد الجلد فى العمل ويقع فيه دود فيتثقب ؛ تقول منه حلم ، بالكسر ، والحلمة : دودة تقع فى الجلد فتأكله ؛ فإذا دبغ وهى موضع الأكل ، فبقى رقيقا ؛ تقول منه : حلم الأديم؛ ومعنى البيت : أنت تسعى فى إصلاح أمر قد تم فساده كهذه المرأة التى تدبغ الأديم الحلم الذى وقعت فيه الحلمة فنقبته وأفسدته فلا ينتفع به . كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٢) فى اللسان بعد هذا البيت :

فقومُكَ بالمدينةِ قَدْ تردّوْا ... فهم صَرْعَى كأنهمُ الهشيمُ

فلوكنتَ المصابَ وكان حَيًّا ... تجرّدَ لا ألفّ ولا سَئومُ

يهنّيكَ الإمارةَ كلّ ركب ... من الآفاق سيرهمُ الرسيمُ

وزاد الطبرى بعد البيت الثانى من زيادات اللسان :

ولا نِـكلٌ عن الأوثارِ حَتّى ... يبىء بها ولا برمٌ جَثومُ

وذكر الضبى فى الفاخر ٣٠ بعض هذه الأبيات ونسبها إلى مروان بن الحكم

(٣) ديوانه ٢٧ ، ومقاييس اللغة ٢ : ٣٨٠ ، ٤ : ٢٤٤ ؛ ولم يترمرم ؛ أى ماحرك فاه بالكلام ؛ كذا فسره ابن فارس واستشهد بالبيت . وانظر اللسان ١٥ : ١٤٧ .

(٤) يقال : نهد لعدوه ؛ إذا أسرع لقتاله .

إليه معاوية بالأعور السّلمىّ يسأله ، فأتاه فسأله ، فقال له ، فأتى معاوية فأخبره ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، وقال لهم إنّ عليا قد نَهَد إليكم فى أهل العِراق ، فما ترون ؟ فضرَب الناس بأذقانهم على صدورهم ؛ لايتكلّمون ، فقام ذو الكَلاع الحِميرىّ ، فقال : عليك أمْ رأىُ ، وعلينا أم فعالُ ؛ وهى لغة حِمْير[1] .

فنزل ، ونادَى فى النّاس بالخروج إلى معسكرهم ، وعاد إلى على عليه السلام ، فأخبره فنادى : الصلاة جامعة ، ثم قام فخطب الناس ، فأخبرهم أنّه قَدِم عليه رسول كان بعثه إلى الشام ، وأخبره أنّ معاوية قد نَهَد إلى العراق فى أهل الشام ، فما الرأى ؟

قال : فاضطرب أهل المسجد ؛ هذا يقول : الرأى كذا ، وهذا يقول : الرأى كذا ، وكَثُر اللّغط واللّجَب ، فلم يفهمْ علىّ عليه السلام من كلامهم شيئا ، ولم يَدْرِ المصيبَ من المخطىء ، فنزل عن المِنبر ، وهو يقول : إنّا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب بها ابن آكِلة الأكباد[2] – يعنى معاوية .

* * *

وروى ابن ديزيل عن عُقْبة بن مكرّم ، عن يونس بن بكير ، عن الأعمش ، قال : كان أبو مرْيم صديقاً لعلى عليه السلام ، فسمع بما كان فيه علىّ عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه ، فجاءه فلم يَرُعْ عليا عليه السلام ؛ إلا وهو قائم على رأسه بالعِراق ، فقال له : أبامريم ، ماجاء بك نحوى ؟ قال : ماجاء بى غيرُك ؛ عهدِى بك لو ولِّيت أمرَ الأمة كفيتَهم ، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف ، فقال : يا أبا مريم ؛ إنى مُنِيتُ بشِرَار خَلْق الله ، أريدُهم على الأمر الذى هو الرأى ، فلا يتّبعونى .

* * *

(١) وهى لغة نقلت عن طيء أيضا ؛ وعليها ورد الحديث : « ليس من امبر امصيام فى امسفر » . مغنى اللبيب لابن هشام ١ : ٤٨

(٢) آكلة الأكباد ؛ هى هند بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبى سفيان وأم معاوية.

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر ، عن زيد بن الحباب ، عن علاء بن جرير العنبرى ، عن الحكم بن عمير الثمالى — وكانت أمه بنت أبى سفيان بن حرب — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ذات يوم : كيف بك ياأبا بكر إذا وليت ؟ قال : لا يكونُ ذلك أبدا ، قال : فكيف بك يا عُمَر إذا وليت ؟ (١فقال : آكل حَجَراً١) ، لقد لقيت إذَنْ شرا ، قال : فكيفَ بك ياعثمان إذا وُلّيت ؟ قال : آكلُ وأُطعِم وأقسِّم ولا أظلم ، قال : «فكيف بك ياعلىّ إذا وليت ؟ قال : آكل القوتَ وأحمى الجَمْرة ، وأقسِّم التمرة ، وأخفى الصور ، قال : أى العورة ، فقال صلى الله عليه وآله : «أما إنكم كلّكم سَيَلِي ، وسيرى الله أعمالكم » ، ثم قال : يامعاوية ، كيف بك إذا وليت ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : «أنت رأس الحطم ، ومفتاح الظلم ، حصبا وحقبا ، تتخذ الحسَن قبيحا ، والسيئة حسنة ، يربو فيها الصَّغير ، ويهرَم فيها الكبير ؛ أجلك يسير ، وظلمك عظيم » .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضا عن عمر بن عون ، عن هشيم ، عن أبى فلج ، عن عمرو بن ميمون ، قال : قال عبد الله بن مسعود : كيف أنتم إذا لَقِيتْكم فتنة يَهرَم فيها الكبير ، ويربُو فيها الصغير ، تجرى بين الناس ، ويتخذونها سُنّة ، فإذا غُيِّرتْ قيل : هذا مُنْكَر .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا الحسَن بن الرّبيع البجلىّ ، عن أبى إسحاق الفزارىّ عن حُمَيد الطويل ، عن أنس بن مالك ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرون ﴾ (٢) . قال : أكرَم الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يريَه فى أمته ما يكره رفعه إليه ، وبَقِيت النّقمة .

* * *

(١ــ١) فى ا ، ج : «فقال حجرا» ، وفى حاشية ج : « يحتمل أن يكون بسكون الجيم ، بمعنى المنع » .
(٢) سورة الزخرف ٤١ ، ٤٢

قال ابن ديزيل : وحدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو[1] بن محمد ، قال : أخبرنا أسباط ، عن السّدىّ ، عن أبى المنهال، عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله :« سألتُ ربّى لأمتى ثلاث خلال ، فأعطانى اثنتيْن ، ومنعنى واحدة ، سألته أن لاتكفُر أمتى صَفْقة واحدة فأعطانيها،وسألته ألّا يعذبهم بما عذّب به الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته ألّا يجعلَ بأسهم بينهم فمنعنيها » .

* * *

قال ابن ديزيل : وحدّثنا يحيى بن عبد الله الكرابيسى ، قال : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن عمار بن زُرَيق ،عن عمار الدُّهنىّ ، عن سالم بن أبى الجَعْد ، قال : جاء رجلٌ إلى عبد الله بن مسعود ، فقال : إنّ الله تعالى قد آمنَنَا أن يظلِمنا ، ولم يؤمنّا أن يَفْتِنَنَا ، أرأيت إذا أنزلت فتنة ، كيف أصنع ؟ فقال : عليك كتابَ الله تعالى ، قال : أفرأيت إن جاء قومٌ كلّهم يدعو إلى كتاب الله تعالى ! فقال ابنُ مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إذا اختلف النّاس كان ابن سُمَيّة مع الحقّ » ، يعنى عمارا .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : حدثنا يحيى بن زكريا[2] ، قال : حدّثنا علىّ بن القاسم ، عن سعيد بن طارق ، عن عثمان بن القاسم ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا أدلّكم على ما إن تَساءلتم عليه لم تَهْلِكوا ؟ إنّ وَلِيّكم الله ، وإن إمامَكم علىّ بن أبى طالب، فناصحوه وصدقوه ، فإنّ جبريل أخبرنى بذلك ».

فإن قلت : هذا نص صريح فى الإمامة ، فما الذى تصنع المعتزلة بذلك ؟

قلت : يجوز أن يُريدَ أنّه إمامهم فى الفتاوى والأحكام الشرعية ، لا فى الخلافة .

وأيضا فإنا قد شرحنا من قول شيوخِنا البغداديين ما محصله : أنّ الإمامة كانت لعلىّ

(١) ب : « عمر » .

(٢) ب : « زكريا بن يحيى » .

عليه السلام إن رغب فيها ونازع عليها ، وإن أقرّها فى غيره وسكتَ عنها تولّينا ذلك الغير ، وقلنا بصحة خلافته ،وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازِع الأئمة الثلاثة ، ولا جرّد السيف ، ولا استنجد بالناس عليهم ؛ فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه ؛ فلذلك تولّيناهم ، وقلنا فيهم بالطهارة والخيْر والصلاح ، ولو حارَبَهم وجَرّد السيف عليهم ، واستصرخ العرَب على حَرْبهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هـذه المعاملة ، من التفْسيق والتضليل .

* * *

قال ابن ديزيل : وحـدّثنا عمرو بن الربيع ، قال : حدثنا السرىّ بن شيبان ، عن عبد الـكريم، أنّ عمر بن الخطاب ، قال لما طُعِن : يا أصحاب محمد تناصحوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا غَلَبـكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان .

قلت : إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمُفيد أحد الإمامية،قال فى بعض كتبه : إنّما أراد عمر بهذا القول إغراء معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة ، وإطماعَهما فيهـا ، لأنّ معاوية كان عامله ، وأميره على الشام ، وعمرو بن العاص عامله وأميره عَلَى مصر ، وخاف أن يَضْعف عثمان عنها ، وأن تَصير إلى علىّ عليه السلام ، فألقَى هـذه الـكلمةَ إلى الناس لتنقل إليهما ـ وهما بمصر والشام ـ فيتغلبا عَلَى هَذَيْن الإقليمين ، إن أفضَتْ إلى علىّ عليه السلام .

وهذا عندى من باب الاستنباطات التى يُوجبها الشنآن والحَنَق ، وعمر كان أتْـقَى لله من أن يخطُر له هذا ، ولـكنه من فراسته الصادقة التى كان يعلم بهـا كثيرا من الأمور المستقبلة ؛ كما قال عبـد الله بن عباس فى وصفه : والله ما كان أوْس بن حَجَر عَنَى أحدا سواه بقوله :

الألمعىّ الّذِى يظنّ بكَ الظّـنّ كأنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا [1]

* * *

---

(١) ديوانه ١٣ .

وروى ابن دِيزيل ، عن عَفّان بن مسلم ، عن وهب بن خالد ، عن أيوب ، عن أبى قُلابة ، عن أبى الأشعث ، عن مُرة بن كعب ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فتنة فقرّبها ، فمرّ رجل قد تقنّع بثوبه ، فقال عليه السلام : « هذا وأصحابه يومئذ عَلَى الحقّ » ، فقمت إليه فأخذت بمنكبه ، فقلت : هو هذا ! فقال : نعم ، فإذا هو عثمان ابن عفان .

قلت : هذا الحديث قد رواه كثير من محقّقى أصحاب الحديث ، ورواه محمد بن إسماعيل البخارىّ فى " تاريخه الكبير " بعدة روايات . وليس لقائل أن يقول : فهذا الحديث إذا صححتموه كان حُجّة للسُّفيانية ؛ لأنا نقول : الخبرُ يتضمّن أن عثمانَ وأصحابه على الحقّ ، وهذا مذهبنا ، لأنا نذهب إلى أنّ عثمان قتل مظلوما ، وأنه وناصِريه يوم الدار عَلَى الحقّ ؛ وأنّ القوم الذين قَتلوه لم يكونوا عَلَى الحقّ ؛ فأما معاويةُ وأهل الشام الذين حاربوا عليًّا عليه السلام بِصِفّين فليسوا بداخلين فى الخبر ؛ ولا فى ألفاظ الخبَر لفظ عموم يتعلّق به ، ألا تَرى أنّه ليس فيه كلّ مَنْ أظهر الانتصار لعثمان فى حياته و بعد وفاته ؛ فهو عَلَى الحقّ ، وإنّما خلاصته أنه ستقوم فِتْنة ، يكون عثمان فيها وأصحابه عَلَى الحق ، ونحن لا نأبَى ذلك ، بل هو مذهبنا .

* * *

وروى نصر بن مزاحم فى كتاب " صفين " قال : (١) لما قَدِم عبيدُ الله بن عمر ابن الخطاب عَلَى معاوية بالشام ، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص : إنّ الله قد أحْيَا لك عمر بن الخطاب بالشّام بقدوم عبيدالله بن عمر ، وقد رأيتُ أن أقيمَه خطيبا يشهد عَلَى علىّ بقتل عثمان ، و ينالُ منه.

فقال : الرأىُ ما رأيتَ ، فبعث إليه ، فأتاه ، فقال له معاوية : يابن أخى ، إنّ لك

---

(١) وقعة صفين ٩٢ ــ ٩٤

اسمَ أبيك فانظر بملء عينيك ، وانطق بملء فيك ، فأنت المأمون المصدّق ، فاصعدِ المنبر واشتِم عليًّا ، واشهد عليه أنّه قتل عثمان .

فقال : أيها الأمير ، أما شتمهُ ؛ فإن أباه أبو طالب ، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه ! وأمّا بأسُه فهو الشجاع المطرِق ، وأما أيامُه فما قد عَرَفْت ؛ ولكني ملزِمُه دمَ عثمان . فقال عمرو بن العاص : قد وأبيك إذَنْ نكأْت القَرْحة .

فلما خرج عبيد الله بن عمر ، قال معاوية : أما والله لولا قتلُه الهُرْمزان ، ومخافَتُه عليًّا عَلَى نفسه ما أتانا أبدا . ألا ترى إلى تقريظه عليًّا ! فقال عمرو : يا معاوية ، إن لم تَغْلِب فاخْلُب ، قال : وخرج حديثهما إلى عبيد الله ، فلما قام خطيبا تكلّم بحاجته ، فلما انتهى إلى أمرِ علىّ أمسك ولم يقل شيئا ، فلما نزل بعث إليه معاوية : يابنَ أخى ؛ إنك بين عِىّ وخيانة ، فبعث إليه: إنى كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أنّ الناس محتملوها عنّى فتركتها .

قال : فهجَره معاوية واستخفّ به ، وفسّقه ، فقال عبيد الله :

مُعَاوِىَ لم أُحْرَضْ بخُطْبَةِ خاطبٍ ... ولم أكُ عَيًّا فى لُؤَىِّ بن غالِبِ (١)

ولكنّنِى زاولتُ نفسا أبيّةً ... على قَذْفِ شيخٍ بالعراقين غائب

وقذفى عليًّا بابنِ عفّانَ جَهْرَةً ... كِذاب ، وما طَبِّى سَجَايا المُكاذِب (٢)

ولكنه قد قرّب القوم جُهدَه ... ودبُّوا حواليْه دبيبَ العقاربِ

فمَا قَالَ أحْسَنْتمُ ولا قد أسأتمُ ... وَأَطْرَق إطراق الشُّجاع المواثب

---

(١) لم أحرض : لم أكل ولم أعى .

(٢) رواية كتاب صفين :

* يُجدّعُ بالشّحْنَا أنوفَ الأقاربِ *

فأمّا ابن عفانٍ فأشْهَدُ أنه أصيبَ بريئا لابساً ثوبَ تائبِ[1]
وَقَدْ كانَ فيها للزبير عَجاجَةٌ وطلحةُ فيها جاهدٌ غيرِ لاعبِ
وَقَدْ أظْهَرَا مِنْ بَعْدِ ذٰلك تَوْبَةً فياليت شِعْرِى ما هُما فى العواقب !

قال : فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه ، وقال : حسبي هذا منك .

***

وروى نصر ، عن عبيد الله بن موسى ، قال : سمعتُ سُفيان بن سعيد المعروف بسُفْيان الثورىّ ، يقول : ما أشكّ أنّ طلحة والزبير بايعا عليًّا ، وما نقَما عليه جَوْراً فى حُكم ولا استئثارا بفىء ؛ وما قاتل عليًّا أحدٌ إلا وعلىٌّ أولى بالحق منه .

وروى نصر بن مُزاحم أنّ عليا عليه السلام قدِم من البصرة فى غُرّة شهر رجب من سنة ست وثلاثين إلى الكوفة ، وأقامَ بها سبعة عشر شهرا ، تجرى الكتُب بينه و بين معاوية وعمرو بن العاص، حتى سار إلى الشام .

قال نصر :[2] وقد رُوِى من طريق أبى الكنود وغيرِه أنه قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل ؛ لاثنتى عشرة ليلة خلَتْ من شهر رجب سنة ست وثلاثين .

قال نصر : فدخل الكوفَة ومعه أشراف النّاس من أهل البصرة وغيرهم ، فاستقبله أهلُ الكوفة ، وفيهم قراؤهم وأشرافُهم ، فدعوْا له بالبَركة ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، أين تنزل ؟ أتنزل القصر ؟ قال : لا ، ولكنى أنزل الرّحبة ، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجدَ الأعظم ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم صعِد المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه وصلّى على رسوله ، ثم قال :

---

(١) بعده فى كتاب صفين :
حَرَامٌ عَلَى آهالِهِ نَتْفُ شَعْرِهِ فكيفَ وَقَدْ جَازوْهُ ضَرْبَةَ لازِبِ
(٢) وقعة صفين ٥ ــ ٨

أما بعد ، يا أهل الكوفة ؛ فإنّ لكم فى الإسلام فَضْلا مالم تبدّلوا وتغيّروا ، دعوتُكم إلى الحق فأجبتم ، و بدأتم بالمنكر فغيّرتم ، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم و بين الله ، فأمافى الأحكام والقَسْم ، فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم ، ودخل فيما دخلتم فيه . ألا إنّ أخوَفَ ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتّباعُ الهوَى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ألا إنّ الدنيا قد ترَحّلَتْ مدبرة، وإن الآخرة قد ترَحّلت مقبلة ؛ ولكلّ واحد منهما بنون ؛ فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ؛ الحمد للهِ الَّذِى نَصَر وليَّه ، وخَذَل عدوّه ، وأعزّ الصادق المحقّ ، وأذلّ الناكِث المبطل .

عليكم بتقوَى الله وطاعة مَنْ أطاع الله من أهل بيت نبيّكم ، الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلّين المدّعين القابلين إلينا ؛ يتفضلون بفضلنا ، و يجاحدوننا أمرَنا و ينازعوننا حقّنا ، و يُبَاعدوننا عنه ،فقد ذاقُوا وَبَال ما اجترحوا ،فسوف يلقوْن غَيّا ، ألا إنه قد قَعَدَ عن نُصْرَتى رجالٌ منكم ؛ وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ ؛ فاهجرُوهم وأسمعوهم ما يكرهون ، حتى يُعتِبُوا ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة .

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعىّ ـ وكان صاحبَ شُرطته ـ فقال : والله إنّى لأرى الهُجْر وسماع المكروه لهم قليلا ، والله لو أمرتنا لنقتلنّهم . فقال على عليه السلام : سبحان الله يامالِ ! جُزْت المَدَى ، وعَدَوْت الحدّ ، فأغرقت [١] فى النَّزْع . فقال : ياأميرَ المؤمنين ، لَبَعْض الغَشْم أبلغُ فى أمرٍ يَنُوبُك من مهادنة الأعادى ؛ فقال علىّ عليه السلام : ليس هكذا قضى الله ، يامالِ ، قال سبحانه : ﴿ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [٢] فما بالُ ذِكْرِ الغَشْم !

---

(١) ا، ج : « وأغرقت » .
(٢) سورة المائدة ٤٥

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ ﴾[1] ، والإسراف فى القتل أن تقتل غيرَ قاتلك ، فقد نهى الله عنه ، وذاك هو الغَشْم .

فقام إليه أبو بُرْدة بن عوفٍ الأزديّ ـ وكان ممّن تخلّف عنه ـ فقال: ياأميرَ المؤمنين، أرأيت القَتْلَى حول عائشةَ وطلحةَ والزبير ،علام قُتِلوا ـ أو قال : بم قتلوا ؟! فقال علىّ عليه السلام : قُتِلوا بما قَتَلُوا شِيعتى وعُمّالى ، وقتلوا أخا ربيعة العبدىّ رضى الله عنه فى عِصابةمن المسلمين،قالوا : إنّا لا نَنْكُث كما نكثتم ، ولا نَغْدِر كما غدرتم . فوثبوا عليهم ، فقتلوهم ، فسألتهم أنْ يدفعوا إلىّ قَتَلَة إخوانى أقتلُهم بهم ، ثم كتابُ الله حَكَمٌ بينى و بينهم ، فأبوْا علىّ ، وقاتلونى ـ وفى أعناقهم بَيْعتى ، ودماء قريب من ألف رجل مِنْ شيعتى ـ فقتلتُهم ، أفى شكّ أنتَ من ذلك ! فقال : قد كنت فى شَكّ ، فأمّا الآن فقد عرَفْتُ ، واستبان لى خطأ القوم ، و إنّك المهتدِى المصيب .

قال نصر : وكان أشياخ الحىّ يذكرون أنه كان عُثمانيا ، وقد شَهِد على ذلك صِفّين مع علىّ عليه السلام ، ولكِنّه بعد مارجع كان يكاتِبُ معاوية ، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعةً بالفلُّوجة[2] ، وكان عليه كريما .

قال : ثم إنّ عليا عليه السلام تهيّأ لينزل ، وقام رجالٌ ليتكلّمُوا ، فلما رأوْه نزَل، جلسوا وسكتوا .

قال : ونزل علىٌّ عليه السلام بالكوفة على جَعْدة بن هبيرة المخزومىّ .

قلت : جَعْدة ابن أخت أم هانئ بنت أبى طالب ، كانت تحت هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، فأولدها جعدة ، وكان شريفا .

* * *

---

(١) سورة الإسراء ٣٣

(٢) فى مراصد الاطلاع: الفلوجة الكبرى والفلوجة الصغرى: قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر. قلت : والمشهور هى هذه التى على شاطىء الفرات، عندها فم نهر الملك من الجانب الشرقى .

قال نصر : ولما [١] قدم علىٌّ عليه السلام إلى الكوفة نَزَل على باب المسجد ، فدخلَ فصلّى ، ثم تحوّل فجلس إليه الناس ، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة ، فقال قائل : استأثر الله به ، فقال علىّ عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خَلْقه ؛ إنما أراد الله جلّ ذكره بالموت إعزازَ نفسه ؛ وإذلالَ خَلْقه ، وقرأ : ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [٢] . قال نصر : فلما لحقه عليه السلام ثقَلُه ، قالوا : أَنَنْزِل القصر ؟ فقال : قصر الخبال ؟ لا تنزلوا فيه [٣] .

* * *

قال نصر : ودخل [٤] سليمان بن صُرد الخُزاعىّ على علىّ عليه السلام ؛ مرجِعَه [٥] من البَصْرة ، فعاتبه وعَذَله ، وقال له : ارتبْتَ وتربّصت وراوغت ؛ وقد كنتَ من أوثقِ الناس فى نفسى ، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نُصْرتى ؛ فما قَعَدَ بكَ عن أهل بيت نبيّك ؛ ومازهّدك فى نصرتهم !

فقال : ياأميرَ المؤمنين،لاتردّنّ الأمور على أعقابها ، ولاتؤنّبْنى بما مضى منها ، واستبْقِ مودّتى تخلصْ لك نصيحتى ؛ فقد بقيت أمورٌ تعرف فيها عدوَّك من وَلِيّك .

فسكتَ عنه ، وجلس سليمانُ قليلا ، ثم نهض ، فخرج إلى الحسن بن على عليه السلام ؛ وهو قاعد فى باب المسجد ، فقال : ألا أعجّبُك من أمير المؤمنين ، وما لقيتُ منه من التوبيخ والتبكيت ! فقال الحسن : إنما يعاتَبُ مَنْ تُرجَى مودّته ونصيحتُه ، فقال : لقد وَثَبَتْ أمور سَيُشْرَع فيها القَنا ، وتُنتضَى فيها السيوف ، ويُحتاج فيها إلى أشباهى ، فلا

---

(١) كتاب صفين ٨

(٢) سورة البقرة ٢٨

(٣) صفين : « لا تنزلونيه » .

(٤) وقعة صفين ٩

(٥) وقعة صفين : « بعد رجعته »

تستغِشُّوا عَتْبى [١] ، ولا تتّهموا نصحى .

فقال الحسن : رحمك الله ماأنتَ عندنا بِظَنين [٢] .

قال نصر : ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدِىّ ، فسلّم عليه ، فقال : وعليك السلام؛ وإن كنتَ من المتربّصين ! قال : حاش لله ياأمير المؤمنين ! فإنى لست من أولئك. فقال : لعلّ الله فعل ذلك .

* * *

قال نصر : وحدثنا [٣] عمر بن سعد ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن مِخْنف ، قال : دخلتُ مع أبى على علىّ عليه السلام ، مقدَمه [٤] من البصرة ، وهو عام بلغتُ الحُلُمَ ؛ فإذا بين يديه رِجال يؤنّبهم ، ويقول لهم : ماأبطأ بكم عنّى ، وأنتم أشرافُ قومكم ! والله إن كان من ضَعْف النية وتقصير البصيرة ؛ إنّكم لبُور [٥] ، وإن كان من شَكٍّ فى فضلى ومظاهرةٍ علىّ إنكم لعدوّ .

فقالوا : حاش لله ياأمير المؤمنين ! نحن سِلْمُك وحَرْب عدوك : ثم اعتذر القوم ؛ فمنهم من ذَكَر عذرا ، ومنهم من اعتلّ بمرض ؛ ومنهم من ذكر غيبة ؛ فنظرت إليهم فعرفتهم؛ فإذا عبد [٦] الله المعتّم العبسى ؛ وحنظلة بن الرّبيع التميمى ؛ وكلاهما كانت له صحبة ؛ وإذا أبو بُرْدة بن عوف الأزدىّ ؛ وإذا غريب بن شُرَحبيل الهَمْدانىّ .

قال : ونظر علىّ عليه السلام إلى أبى ، فقال : ولكن مِخْنف بن مسلم وقومه لم يتخلّفوا، ولم يكن مَثَلُهم كمَثَلِ القوم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ

(١) لاتستغشوا عتبى ؛ أى لاتظنو عتابى لكم غشا .

(٢) الظنين : المتهم ؛ وأصله : « مظنون »

(٣) وقعة صفين ١٠

(٤) وقعة صفين : « حين قدم »

(٥) لبور ؛ أى هالكون، جمع بلفظ المفرد .

(٦) فى الأصول : « عبيد الله » صوابه من صفين .

أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (١) .

قال نصر : ثم إن عليا عليه السلام مكث بالكوفة، فقال الشَّنِّى فى ذلك ، [شَنّ بن عبد القيس] (٢) :

قُلْ لِهَذا الإمامِ قَدْ خَبَتِ الحَرْ ... بُ وتَمَّتْ بذلِكَ النَّعْمَاء
وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَقَضَ العَهْـ ... ـدَ وبالشامِ حَيَّةٌ صَمَّاء
تَنْفُثُ السَّمَّ ما لِمَنْ نَهَشَتْه ... فارْمِها قبل أن تَعَضَّ شِفاء (٣)
إنه والذى يحجُّ له النّا ... سُ ومِنْ دُونِ بَيْتِهِ البَيْدَاء
لَضَعِيفُ النُّخَاعِ إنْ رُمِى اليو ... مَ بخيلٍ كأنها أَشْلَاء (٤)
تَتَبارَى بكلِّ أَصْيَدَ كالفحْـ ... ـلِ بكفيه صَعْدَةٌ سَمْرَاء (٥)
إنْ تَذَرْهُ فما معاويةُ الدَّهْـ ... ـرَ بمعطيكَ ما أراكَ تَشَاء
وَلَنَيْلُ السَّماء أقربُ مِنْ ذا ... كَ ونجمُ العَيُّوقِ والعَوَّاء (٦)
فَاعْدُ بالْحَدِّ والحديدِ إليهمْ ... ليسَ واللهِ غيرُ ذاك دَوَاء

---

(١) سورة النساء ٧٢ ، ٧٣

(٢) تكملة من كتاب وقعة صفين ؛ وهو الأعور الشنى، واسمه بشر بن منقذ ، أحد بنى شن بن أفصى ابن عبد القيس . المؤتلف والمختلف للآمدى ٣٨

(٣) فى اللسان : « قيل للحية التى لاتجيب الراقى صماء ؛ لأن الرقى لاتنفعها » .

(٤) بعده فى كتاب صفين :

جَانِحاتٍ تحتَ العجاجِ سِخَالًا ... مُجْهِضَاتٍ تخالُها الأَشْلَاء

(٥) الصعدة : القناة المستوية التى لاتحتاج إلى التثقيف .

(٦) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا لايتقدمها . والعواء : منزل للقمر

قال نصر : وأتمّ علىّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة ، فلما كانت الجمعة خطب الناس ، فقال :

الحمدُ لله الذى أحمَده [١] وأستعينه وأستهديه ، وأعوذ بالله من الضلالة ؛ مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِل فلا هادىَ له ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، انتجَبه لأمره ، واختصّه بنبوّته، أكرمُ خَلْقه عليه ، وأحبُّهم إليه ، فبلّغ رسالة ربّه ، ونصح لأمته ، وأدّى الذى عليه .

أوصِيكم بتقوى الله ، فإنّ تقوى الله خيرُ ما تَواصى به عبادُ الله ، وأقربُه إلى رضوان الله، وخيرُه فى عواقب الأمور عند الله ، وبتقوى الله أُمِرْتُم ، وللإحسان والطاعةِ خلقتم ؛ فاحذروا من الله ماحذّركم من نفسه، فإنه حذّر بأسا شديدا، واخشوا خشية ليست بتعذير [٢] واعملوا فى غير رياء ولا سُمْعة ؛ فإنّه من عمل لغير الله وَكَله الله إلى ما عمل له ، ومن عمل لله مخلصا تولّى الله أجرَه ؛ أشفقوا مَنْ عذاب الله ؛ فإنه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدًى ؛ قد سمّى آثاركم ، وعلِم أعمالكم ، وكتب آجالكم ؛ فلا تغترّوا بالدنيا ، فإنّها غرّارة لأهلها ، مغرور مَنْ اغترّ بها ، وإلى فنَاء ماهى ، وإن الآخرة هى دارُ الحيوان لو كانوا يعلمون .

أسأل الله منازلَ الشهداء ، ومرافقةَ الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله .

قال نصر : ثم [٣] استعمل على عليه السلام العمّال وفرّقهم فى البلاد ؛ وكتب إلى معاوية مع جَرير بن عبد الله البَجلىّ ماتقدم ذكره .

* * *

---

(١) صفين : « إن الحمد لله أحمده » .
(٢) التعذير هنا : الإهمال والتقصير .
(٣) كتاب صفين ١٤ ؛ وفيه : « ثم إن عليا أقام بالكوفة واستعمل العمال » .

قال نصر : (١) وقال معاوية لعمرو بن العاص ، أيام كان جريرٌ عنده ينتظر جوابَه : إنّى قد رأيتُ أن نُلقِيَ إلى أهل مكّة وأهلِ المدينة كتابا ، نذكر فيه أمْرَ عثمان ؛ فإمّا أن ندرِك به حاجَتنا ، أو نكفّ القوم عنا ، فقال له عمرو : إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : رجلٍ راضٍ بعلىّ فلا يزيده كتابُك إلا بصيرة فيه ، أو رجلٍ يهوَى عثمان ؛ فلن يزيدَه كتابُك على ما هو عليه ، أو رجلٍ معتزلٍ ، فلست فى نفسه بأوثقَ من علىّ .

قال : علىّ ذاك ، فكتبا :

أما بعد ؛ فإنه مهما غابَ عَنّا من الأمور فلم يغب عنّا أن عليا قتل عثمان ؛ والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه ؛ وإنّما نطلب قتلته ؛ حتى يُدفعوا إلينا ، فنقتُلَهم بكتاب الله عَزّ وجلّ ، فإن دفعهم علىّ إلينا كَفَفْنا عنه ؛ وجعلناها شورى بين المسلمين ، على ماجعلها عليه عمر بن الخطاب . فأمّا الخلافة فلسنا نطلُبها ، فأعينونا على أمرِنا هذا ، وانهضوا من ناحيتكم ؛ فإنّ أيديَنا وأيديَكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب علىّ ما هو فيه ، والسلام .

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعدُ ، فلعمرى لقد أخطأتُما موضع النُّصرة وتناولتُماها من مكان بعيد ؛ وما زاد الله من شكّ فى هذا الأمر بكتابكما إلا شكاً ، وما أنتما والمشورة ، وما أنتما والخلافة ! أمّا أنتَ يامعاوية فطَليق ، وأما أنت ياعمرو فظَنِين (٢) ، ألا فكفّا أنفسكما ، فليس لكم فينا ولىّ ولا نصير . والسلام .

قال نصر : وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر :

---

(١) كتاب صفين ٧٠ ، ٧١

(٢) كتاب صفين : « فظنون » ، والظنين والظنون بمعنى المتهم .

مُعَاوِىَ إنّ الحقّ أبلَجُ واضحٌ ... وليس بما رَبَّضْتَ أنتَ ولا عَمْرُو
نصبتَ ابن عفانٍ لنا اليوم خُدْعةً ... كما نُصِب الشيخان إذ قُضِىَ الأمر [(١)]

ـ يعنى طلحة والزبير رحمهما الله ـ

فَهذا كَهذَاكَ البلا حَذْوَ نَعْلِه ... سواءٌ كَرَقْرَاقٍ يُغَرُّ به السَّفْرُ [(٢)]
رَمَيْتُمْ عَلِيًّا بالّذى لَايَضِيرُهُ ... وإنْ عَظُمَتْ فيه المكيدةُ والمَكْرُ [(٣)]
وَمَا ذنبُه إن نالَ عثمانَ معشرٌ ... أتوه من الأحياء تجمعُهُمْ مِصْرُ
فثار إليه المسلمونَ ببيعةٍ ... علانيةً ما كان فيها لهم قسْرُ
وَبايعهُ الشَّيْخان ثم تحمّلاَ ... إلى العمْرَة العُظْمَى وبَاطنُها الغَدْرُ
فكانَ الّذِى قد كان مما اقتصاصُه ... يطولُ ؛ فيالله ماأحْدَثَ الدَّهْرُ ! [(٤)]
وَمَا أنتُما والنَّصرُ مِنّا وأنْتما ... بَعِيثَا حُرُوبٍ ما يبوخُ لها جَمْرُ [(٥)]
وما أنتما لله دَرُّ أبيكُمَا ... وَذِكْرُكما الشُّورَى وقدوَضَحَ الفَجْرُ [(٦)]

* * *

قال نصر [(٧)]: وقام عدىّ بن حاتم الطائىّ إلى على عليه السلام ، فقال: ياأميرَ المؤمنين، إن عندى رجلاً لايوازى [(٨)] به رجل ، وهو يريد أن يزورَ ابن عمّه حابس بن سعْد الطائىّ بالشام ، فلو أمرناه أن يلقى معاوية لعلّه أنْ يكسره ويكسر أهلَ الشام ، فقال على

---

(١) كتاب صفين : « إذ زخرف الأمر » .
(٢) الرقراق : مايتراءى للمسافر من رمال الصحراء كأنها الماء .
(٣) كتاب صفين : « لا يضره »
(٤) اقتصاصه : قصه وحكايته، وفى صفين : « رجيع فيا لله ما أحدث الدهر »
(٥) يبوخ الجمر : ينطفىء .
(٦) صفين : « وقد فلج الفجر » .
(٧) صفين ٧١ ــ ٧٤
(٨) صفين : « لايجارى به » .

عليـه السلام : نعم ،فأمَرَه عدىّ بذلك [1] ـ وكان اسمُ الرجل خُفافَ بن عبدالله .

فقدم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام، وحابس سيد طَيّئْ بها ،فحدث خُفاف حابسا أنّه شهِد عثمان بالمدينة ، وسار مع علىّ إلى الـكوفة ، وكان لخُفاف لسان وهيئة وشِعْر ، فغدا حابس بخُفاف إلى معاوية ، فقال : إنّ هذا ابنُ عمّ لى ، قدم الـكوفة مع علىّ ، وشهد عثمان بالمدينة،وهو ثقة . فقال له معاوية : هات ،حدّثنا عن عثمان ، فقال : نعم حصره المـكشُوح [وحُـكِّم فيه حُـكيم ، ووليه عمار ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر : عدى بن حاتم] [2] والأشتر النخعىّ ، وعمرو بن الحمـق ، وجدّ فى أمره رَجُلان وطلحة والزُّبير ، وأبرأ الناس منه علىّ.قال : ثم مَهْ ، قال : ثم تهافَتَ الناس على علىّ بالبيعة تهافُتَ الفَراش ، حتى ضاعت النعل [3] وسقط الرّداء ، ووُطِئَ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له ، ثم تهيّأ للمسير ، وخفّ معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد ابن مالك،وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستـكرِه أحداً ، واستغنى بمن خَفّ معه عمّن ثقُل . ثم سار حتى أتى جبل طيئ ، فأتته منّا جماعة كان ضار با بهم الناس ؛ حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرّح رجالا إلى الـكوفة يدعونهم ؛ فأجابوا دعوته ، فسار إلى البصرة ، فإذا هى فى كفّه ، ثم قدم الـكوفة فحمِل إليه الصبىّ ، ودبّت إليه العجوز ، وخرجت إليه العَرُوس فرحاً به وشوقاً إليـه ؛ وتركته وليس له همة إلا الشام .

فذُعِر معاوية من قوله ، وقال حابس : أيها الأمير ، لقد أسمعنى شعرا غيّر به حالى فى عثمان ، وعظّم به عليا عندى .

---

(١) صفين : « فمره بذلك » .
(٢) ما بين العلامتين تـكملة من كتاب صفين .
(٣) صفين : « حتى ضلت النعل » .

فقال معاوية : أسمعنيه ياخُفاف ، فانشده شعرا أوله :

قُلْتُ وَاللَّيلُ سَاقِطُ الأَكْنَافِ ... وَلِجَنْبِى عَنِ الْفِرَاشِ تَجَافِى

يذكر فيه حال عثمان وقتله ، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره[1] ، بحَسْبِها ، ومن جملته :

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرَّ به الدَّهْـــرُ كما مرّ ذاهبُ الأسْلَافِ[2]

إنّى والّذى يَحُجُّ لَهُ النّـــا ... سُ على لُحَّقِ البُطون عِجاف[3]

تَتَبارَى مثل القِسِىّ من النَّبْــــعِ بشُعْثٍ مثلِ السِّهام نِحافِ[4]

ارهَب اليَوم إن أتاكم علىٌّ ... صَيحةً مثل صَيْحَةِ الأحقافِ

إنّه الليث غادياً وشُجَــاعٌ ... مُطْرِقٌ نافث بسُمٍّ زُعاف[5]

واضعُ السيفِ فوق عاتقه الأيــــمَن يَفْرِى به شئون القِحاف[6]

سَوَّمَ الخيلَ ثم قال لقوم ... بايعوه إلى الطعان خِفاف[7]

استعدّوا لحربِ طاغيـة الشّا ... م فلبَّوْه كاليدَيْن اللطــافِ

ثم قالوا أنتَ الجنـاح لك الرِّيـــشُ القُدامى ونحن منه الخوافى[8]

فانظُر اليوم قبل بادرة القو ... م بسلمٍ تهمّ أم بخلاف[9]

قال: فانكسر معاوية ، وقال : يا حابس ، إنى لأظنّ هذا عَيْناً لعلىّ ، أخرجه عنك لئلا يُفسِد علينا أهل الشام .

---

(١) أى عن ذكر ما أورده .

(٢) القصيدة كاملة فى كتاب صفين ٧٣ ـ ٧٥.

(٣) اللحق : جمع لاحق ؛ واللاحق من الخيل الضامر

(٤) صفين : « مثل الرصاف » .

(٥) الشجاع هنا: الحية.

(٦) القحاف : عظام الجماجم . والشئون : مجتمع قبائل الرأس . وفى صفين : « يذرى » .

(٧) سوم الخيل : أعلمها بعلامة .

(٨) القدامى : الريشات التى تكون فى مقدمة الجناح ، الواحدة قادمة . والخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . وفى المثل : « ليس القوادم كالخوافى » .

(٩) صفين : « نادية القوم » .

قال نصر : وحدّثنا عطية بن غَنِىّ [١] ، عن زياد بن رستَم ، قال : [٢] كتبَ معاوية إلى عبد الله بن عمر خاصّة ، و إلى سعد بن أبى وقّاص ، و إلى محمد بن مسلمة ، دُونَ كتابِه إلى أهل المدينة ، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر :

أما بعد ، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إلىّ أن يجتمعَ عليه الناس [٣] بعد قتل عثمان منك ، ثم ذكرتُ خذْلك إياه ، وطعنَك على أنصاره ، فتغيّرتُ لك ؛ وقد هوّن ذلك علىّ خلافُك عَلَى علىّ ، ومحا عنك بعضَ ما كان منك ، فأعِنَّا ـ رحمك الله ـ عَلَى حقِّ هذا الخليفة المظلوم ؛ فإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدُها لك ؛ فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين [٤] .

فأجابه عبد الله بن عمر :

أمّا بعد ، فإنَّ الرأى الذى أطمعك فىّ ، هو الذى صيّرك إلى ما صيّرك إليه . أتركُ عليًا فى المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين ، وأتّبعك ! وأمّا زعمُك أنّى طعنتُ عَلَى علىّ ، فلعمرى ما أنا كعلىّ فى الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [ونكايته فى المشركين] [٥] ؛ ولكنّى عهد إلىّ فى هذا الأمر عهدٌ ، ففزِعت فيه إلى الوقوف وقلت : إن كان هذا هُدًى ففضلٌ تركتُه ، و إن كان ضلالًا فشرٌ نجوت منه ، فأغْنِ عنّا نفسَك ، والسلام [٦] .

---

(١) كذا فى ا ، وصفين ، وفى ب : « غناء » ، وفى ج : « مغى » .
(٢) كتاب صفين ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) صفين : « الأمة » .
(٤) فى كتاب صفين ذكر أبياتا مطلعها :

أَلَا قُلْ لعبدِ ٱللهِ وَٱخْصُصْ مُحَمَّدًا ۝ وَفَارِسَنَا ٱلْمَأْمُونَ سَعْدَ بْنَ مَالِكِ

(٥) تكملة من كتاب صفين .
(٦) فى كتاب صفين : « ثم قال لابن أبى غزية : أجب الرجل ـ وكان أبوه ناسكا ، وكان من أشعر قريش فقال » ... وذكر أبياتا مطلعها :

مُعَاوِىَ لَا تَرْجُو ٱلَّذِى لَسْتَ نَائِلًا ۝ وحاولْ نَصِيراً غير سعدِ بن مالكِ

قال : وكان كتاب معاوية إلى سعد :

أما بعدُ ؛ فإنّ أحقّ الناس بنصر عثمان أهلُ الشورى من قريش ؛ الذين أثبتُوا حقّه واختاروه على غيره ، وقد نَصَرَه طلحة والزبير ؛ وهما شريكان فى الأمر ونظيراك فى الإسلام ، وخَفَّت لذلك أمّ المؤمنين ، فلا تكرهَنّ ما رضُوا ، ولا تردنّ ما قبلوا ، فإنّا نردّها شورى بين المسلمين [١] .

وأجابه سعد :

أما بعدُ ؛ فإن عُمر لم يُدخل فى الشّورى إلّا مَنْ تحِلّ له الخلافةُ من قريش ؛ فلم يكن أحدٌ منّا أحقّ بها من صاحبه إلّا بإجماعنا [٢] عليه ؛ ألَا إن عليّا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ؛ وهذا أمر قد كرهتُ أوّلَه ، وكرهت آخرَه ؛ فأمّا طلحةُ والزبير فلو لزما بيوتَهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر لأمّ المؤمنين ما أتت ! والسلام [٣] .

قال : وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة :

أما بعدُ ، فإنّى لم أكتبْ إليك وأنا أرجو مبايعتَك [٤] ؛ ولكنى أردتُ أن أذكّرك النعمةَ التى خرجتَ منها ، والشكّ الذى صرت إليه ؛ إنك فارسُ الأنصار ، وعُدّة المهاجرين ؛ وقد ادعيت على رسول الله صلى الله عليه أمرا لم تستطع إلّا أن تمضىَ عليه ؛ وهو أنّه نهاك عن قتال أهل القِبْلة [٥] ، أفلا نهيت أهلَ القبلة [٥] عن قتال بعضهم بعضا !

---

(١) فى كتاب صفين : « وقال شعرا » ، وذكر أبياتا أولها :

أَلَا يَاسَعْدُ قَدْ أَظْهَرْتَ شَكًّا ... وَشَكُّ المرْءِ فِي ٱلْأَحْدَاثِ دَاءُ

(٢) كتاب صفين : « باجتماعنا » .

(٣) فى كتاب صفين : « ثم أجابه فى الشعر » ، وذكر أبياتا أولها :

معاوِىَ داؤكَ ٱلدّاءُ ٱلْعياءُ ... فليسَ لما تجىءُ بهِ دَوَاءُ

(٤) كتاب صفين : « متابعتك » .

(٥) كتاب صفين: « الصلاة » .

فقد كان عليك أن تـكرَه لهم ما كره رسول الله صلى الله عليه ، ألم تر عثمانَ وأهلَ الدار من أهل القبلة [١] !

فأما قومُك فقد عَصَوُا الله ، وخـذلُوا عثمان ، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة . والسلام.

قال : فـكتب إليه محمد بن مسلمة :

أما بعد ، فقد اعتزلَ هذا الأمر مَنْ ليس فى يده من رسول الله صلى الله عليـه مثل الذى فى يدى ؛ قد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه بالذى هو كائن قبل أن يكون، فلما كان كسرتُ سيفى ، وجلست فى بيتى ، واتهمت الرأى على الدين ؛ إذ لم يصحّ لى معروف آمر به،ولا منكَر أنهى عنه.وأما أنت فلعمرى ما طلبت إلّا الدنيا؛ ولا اتّبعت إلا الهوى ، و إن تنصر عثمان ميتا فقد خذلتَه حيا ، والسلام [٢] .

[مفارقة جرير بن عبد الله البجلى لعلىّ]

قد أتينا على ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليـه السلام ،مذ قدم من حرب البصرة إلى الـكوفة ، وما جرَى بينه و بين معاوية من المراسلات ، وما جرى بين معاوية و بين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ ؛ وما أجابوه به ؛ ونحن نذكر الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عَوْده إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بممالأة معاوية عليهم ، ومفارقته جنبةَ أمير المؤمنين .

قال نصر بن مزاحم : [٣] حدثنا صالح بن صدقة ، بإسناده ،قال : قال لما رجع جريرٌ

---

(١) كتاب صفين : « الصلاة » .
(٢) تتمة الرسالة كما فى كتاب صفين : « فما أخرجنى الله من نعمة ، ولا صيرنى إلى شك ؛ إن كنت أبصرت خلاف ماتحبنى به ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار ، فنحن أولى بالصواب منك » .
(٣) كتاب صفين ٦٦ ــ ٦٨

إلى علىّ عليه السلام ، كَثُر قول الناس فى التّهمة لجرير فى أمر معاوية ، فاجتمع جرير والأشتر عند علىّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أمَا والله يا أميرَ المؤمنين ، أن لو كنت أرسلتَنى إلى معاوية ، لـكنتُ خيراً لك من هذا الذى أرخَى خِناَقه، وأقام عنده؛ حتى لم يدع بابا يرجُو فتحه إلا فَتَحه ، ولا بابا يخاف أمرَه إلّا سدّه .

فقال جرير : لو كنتَ والله أتيتَهم لقتلوك ــ وخوّفه بعمرو، وذى الـكَلاع، وحَوْشب ــ وقال : إنهم يزعمون أنّك من قَتَلة عثمان .

فقال الأشتر : والله لو أتيتُهم يا جرير لم يُعيِنى جوابها ، ولم يثقل علىّ مَحْملُها ، ولحملت معاوية على خُطة أعجلُه فيها عن الفِـكْر .

قال : فائْـتِهِم إذن . قال : الآن وقد أفسدتَهم ووقَع بينهمُ الشر !

* * *

وروى نصر ، عن نُمير بن وعلة ، عن الشعبى قال: (١) اجتمع جرير والأشتر عنـد علىّ عليه السلام ، فقال الأشتر : أليس قد نهيتُك يا أميرَ المؤمنين أن تبعث جريرا ، وأخبرتُك بعداوته وغشّه ! وأقبل الأشتر يشتِمه ، ويقول : يا أخا بَجِيلة ، إنّ عثمان اشترى منك دينَك بهَمَذان ، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشى فوق الأرض ؛ إنمـا أتيتَهم لتتَّخِذَ عندهم يدا بمسيرِك إليهم ، ثم رجعتَ إلينا من عندهم ، تهدّدنا بهم ، وأنت والله منهم ، ولا أرى سعيَك إلا لهم ؛ لئن أطاعنى فيك أميرُ المؤمنين ليحبسنّك وأشباهك فى حبس لا تخرجون منه حتى تَستَتِمّ هذه الأمور ، ويُهلِكَ الله الظالمين .

قال جرير : وددت والله أن لَوْ كنتَ مكانى ، بُعِثْتَ إذن والله لم ترجع .

---

(١) كتاب صفين ٦٧ ، ٦٨

قال : فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله ، فارقَ عليًّا عليه السلام ، فلحِق بقَرْقِيسا[١] ولحق به ناس من قَسْر[٢] من قومه ، فلم يشهد صِفِّين من قَسْر غير تسعة عشر رجلا ؛ ولكن شهدها من أحمَس[٣] سبعمائة رجل .

قال نصر : وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحَوْشب [وذى الكلاع][٤] :

لعمرُك ياجريرُ لقول عَمْرو ... وصاحبه معاوىَ بالشآم
وذى كَلَعٍ وحَوْشبَ ذى ظُلَيْمٍ ... أخفُّ عَلَىَّ من رِيشِ النعام[٥]
إذَا اجتمعوا عَلَىَّ فخلِّ عنهم ... وعن بازٍ مخالبُه دوامى
وَلَسْتُ بخائفٍ ماخوَّفُونى ... وكيف أخاف أحلام النيامِ!
وَهَمُّهمُ الذى حامُوا عليهِ ... من الدّنيا، وهَمِّى من أمامى[٦]
فإنْ أسْلَمْ أعمّهُمُ بحرْبٍ ... يَشِيب لهولها رأسُ الغلامِ
وإنْ أهْلِك فقد قدّمْتُ أمراً ... أفوز بفَلْجِه يَوْمَ الخصامِ[٧]
وقد زادُوا علىّ وأوْعَدونى ... وَمَنْ ذا مات من خَوْفِ الكلام !

[نسب جرير وبعض أخباره]

وذكر ابن قتيبة فى "المعارف"[٨]، أنّ جريراً قدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) قرقيسياء : بلد بالخابور عند مصبه .
(٢) قسر : رهط جرير بن عبد الله البجلى
(٣) أحمس : بطن فى بجيلة .
(٤) من كتاب صفين .
(٥) صفين : « من زف النعام » . والزف : صغار ريش النعام .
(٦) صفين : « ما أمامى »
(٧) الفلج : الفوز والانتصار .
(٨) المعارف ١٢٧

سنة عشرٍ من الهجرة فى شهر رمضان ، فبايعه وأسلم ، وكان جرير صبيح الوجه جميلا ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كأنّ على وجهه مَسْحَةَ ملَك » ؛ وكان عمر يقول : جرير يوسف هذه الأمة وكان طُوالا يَتْفُلُ فى ذِرْوة البعير من طوله ، وكانت نعله ذراعا ، وكان يخضب لحيته بالزعفران من اللّيل ويغسِلُها إذا أصبح ؛ فتخرجُ مثلَ لون التّبْر. واعتزل عليًّا عليه السلام ومعاوية ، وأقام بالجزيرة ونواحِيها حتى توفى بالشّراة سنة أربعٍ وخمسين فى ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة [1] .

* * *

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبيّ فى ”جمهرة الأنساب“ ، فقال : هو جرير بن عبدالله، ابن جابر ، بن مالك ؛ بن نضر ، بن ثعلب . بن جُشَم ، بن عُوَيْف ، بن حرب ؛ بن علىّ ، ابن مالك ، بن سعد ، بن بدير ، بن قَسْر — واسمه ملك — عبقر ، بن أنمار ، بن أراش ، ابن عمرو ، بن الغوث ، بن نَبْت ؛ بن زيد ، بن كَهْلان.

ويذكر أهل السِّيَر أن عليًّا عليه السلام هدَم دار جرير ودور قوم ممّن خرج معه ، حيث فارق عليًّا عليه السلام ؛ منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القَسْرى ، كان خَتنه على ابنته وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبى أراكة قديما ، ولعله اليوم نُسِى ذلك الاسم .

(١) وانظر طبقات فقهاء اليمن للجعدى ٤٥ ، ٤٦

ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلى معاوية ، وكان قد ابتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه ، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام ، فقال :

الأصل :

قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَه .

الشرح :

خاس به يَخِيس ويخوس ؛ أي غَدَرَ به ، وخاسَ فلان بالعهد ؛ أي نكَث .

وقبّح الله فلانا ؛ أي نحاه عن الخير ، فهو مقبوح .

والتبكيت ، كالتقريع والتعنيف . والوُفور . مصدر وفر المال، أي تمّ ، ويجيء متعديا. ويروى : « موفوره » ، والموفور : التامّ ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

يامَنْ مَدَحْنَاهُ فأكْذَبنَا بفعاله وأثابنا خَجَلا
بُردا قَشِيبا من مدائحنا سُرْبلت فارْدُدْه لنا سَمَلا[1]
إنّ التجارِب تهتك المستور من أبنائها وتبهرجُ الرّجُلا

---

(١) السمل : الثوب البالي .

[نسب بنى ناجية]

فأمّا القول فى نَسَب بنى ناجية ؛ فإنّهم ينسبون أنفسَهم إلى سامة بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ ابن عدنان . وقريش تدفعُهم عن هذا النسب ، ويسمّونَهم بنى ناجية ــ وهى أمهم ــ وهى امرأة سامة بن لؤى بن غالب ، ويقولون : إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مُغاضِبا لأخيه كعب بن لؤىّ فى مُماظّة [1] كانت بينهما ، فطأطأت ناقتُه رأسَها لتأخذ العُشْب ، فعلِق بِمِشْفَرِها أفعى ، ثم عطفت على قَتَبها فحكّته به ، فدبّ الأفعى على القَتَب ؛ حتى نهش ساق سامة فقتله ، فقال أخوه كعب بن لؤى يرثيه [2] :

عينُ جُودى لسامةَ بن لُؤىٍّ ... عَلِقَتْ ساقَ سامةَ ٱلْعَلاقَهْ [3]

رُبَّ كأسٍ هَرَقْتَهـا ابن لُؤىٍّ ... حَذَرَ الموتِ لم تَكُنْ مُهراقَهْ

قالوا : وكانت معه امرأتُه ناجية ، فلما مات تزوّجَتْ رجلا فى البحرين ، فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير ، فلما ترعرع طمِعت أمه أنْ تُلْحِقه بقريش ، فأخبرتُه أنه ابنُ سامة بن لؤىّ بن غالب ، فرحَل من البحرين إلى مكة ومعه أمه ، فأخبر كعب ابن لؤى أنه ابن أخيه سامة ، فعرف كعبٌ أمّه ناجية ، فظنّ أنه صادق فى دعواه ، فقبِله ومكث عنده مدة ؛ حتى قَدِم مكة ركبٌ من البحرين ؛ فرأوا الحارث ، فسلّموا عليه ، وحادثوه ، فسألهم كعب بن لؤىّ : من أين يعرفونه ؟ فقالوا : هـذا ابنُ رجلٍ من بلدنا يُعْرَف بفلان ، وشرحوا له خبَره ، فنفاه كعب عن مكّة ونفى أمّه ، فرجعا إلى البحرين، فكانا هناك ، وتزوّج الحارث ، فأعقب هذا العَقِب .

---

(١) المماظة : المخاصمة والمنازعة .

(٢) ويروى أن قائلة هذا الشعر امرأة أزدية كان سامة نزل بزوجها ، فى خبر ذكره صاحب اللسان ١٢ : ١٩٥

(٣) العلاقة : المنية .

وقال هؤلاء: إنه رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «عَمّى سامة لم يُعقِب»[(١)].

وزعم ابنُ الكلبيّ أن سامةَ بن لؤىّ ولَدَ غالب بن سامة، والحارث بن سامة، ـ وأم غالب بن سامة ناجية ـ ثم هَلَكَ سامة، فخلف عليها ابنُه الحارث بن سامة، نكاحَ مَقْت[(٢)]، ثم هلك ابنا سامة ولم يُعْقِبا؛ وإنّ قوما من بنى ناجية بن جَرْم بن ربّان بن عِلَاف، ادّعوا أنهم بنو سامةَ بن لؤىّ، وأنّ أمهم ناجية هذه، ونسبوها هذا النسب، وانتموْا إلى الحارث بن سامة، وهم الذين باعهم علىّ عليه السلام على مَصْقَلة بن هُبيرة. وهذا هو قول الهيثم بن عدىّ. كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى "كتاب الأغانى الكبير"[(٣)].

ووجدت أنا فى "جمهرة النسب" لابن الكلبى كلاما قد صرّح فيه بأن سامة بن لؤىّ أعقَب، فقال: ولَدَ سامة بن لؤىّ الحارث، وأمه هند بنت تَيْم، وغالب بن سامة، وأمه ناجية بنت جَرْم بن زَبّان، من قُضاعة، فهلك غالب بعد أبيه؛ وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فولد الحارث بن سامة لؤيا وعبيدة وربيعة وسعدا، وأمهم سَلْمى بنت تَيْم بن شَيْبان ابن محارب بن فهر وعبد البيت، وأمه نَاجية بنت جَرْم، خَلَف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مَقْت، فهم الذين قتلهم علىّ عليه السلام.

قال أبو الفرج الأصفهانى: أما الزّبير بن بَكّار، فإنه أدخلهم فى قريش؛ وهم قريش العازبة، قال: وإنما سُمّوا العازبة؛ لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسِبوا إلى أمهم ناجية بنت جَرْم بن زَبّان بن عِلاف، وهو أول من اتخذ الرّحال العِلافيّة، فنسبت إليه،

---

(١) بقية الخبر كما فى الأغانى: «وكان بنو ناجية ارتدوا عن الإسلام، ولما ولى على بن أبى طالب رضى عنه الخلافة دعاهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم وأقام الباقون على الردة، فسباهم واسترقهم، فاشتراهم مصقلة ابن هبيرة منه، وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقى على نفسه، ثم أعتقهم وهرب من تحت ليله إلى معاوية، فصاروا أحراراً، ولزمه الثمن، فشعث على بن أبى طالب شيئا من داره، وقيل بل هدمها. فلم يدخل مصقلة الكوفة حتى قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه».

(٢) نكاح المقت: أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها؛ وكان يفعل فى الجاهلية وحرمه الإسلام.

(٣) الأغانى ١٠: ٢٠٥ ـ ٢٠٧ (طبعة الدار).

واسم ناجية ليلى ؛ وإنما سميت ناجية ، لأنها سارت مع سامة فى مفازة ، فعطِشت ، فاستسقته ، فقال لها : الماء بين يديك ، وهو يُريها السراب ؛ حتى أتت إلى الماء فشربت ، فسميت ناجية .

قال أبو الفرج: والزبير بن بكار فى إدخالهم فى قريش مذهب؛ وهو مخالفة أمير المؤمنين عليه السلام ، وميله إليهم، لإجماعهم على بُغْضه عليه السلام، حسب المشهور المأثور من مذهب الزُّبير فى ذلك .

***

[نسب علىّ بن الجهم وطائفة من أخباره وشعره]

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤى علىّ بن الجهم الشاعر ، وهو علىّ بن الجهم بن بدر ابن جَهْم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرّاز بن كعب بن جابر بن مالك ابن عُتْبة [١] بن الحارث بن عبد البيت بن سامة بن لؤى بن غالب .

هكذا ينسُب نفسَه ، وكان مبغِضاً لعلىّ عليه السلام ، ينحو نحو مروان بن أبى حفصة فى هجاء الطالبيين وذمّ الشيعة ، وهو القائل :

وَرَافِضَةٍ تقول بِشِعْبِ رَضْوَى ... إمام ، خابَ ذلك من إمام [٢] !
إمامٌ من له عشرون ألفاً ... من الأتراك مُشْرَعة السهام !

وقد هجاه أبو عبادة البحترىّ ، فقال فيه :

إذا مَا حُصِّلَتْ عُلْيَا قُرَيْشٍ ... فَلَا فِي العيرِ أَنْتَ وَلَا النَّفِيرِ [٣]
وَلَوْ أعطاك رَبّك ما تمنّى ... لزاد الخلقَ فى عِظَم الأُيُورِ

(١) فى الأغانى : « عينية »
(٢) الأغانى ١٠ : ٢٠٥
(٣) ديوانه ٢ : ٣٤ ، والأغانى ١٠ : ٢٠٦

وما الجَهْمُ بنُ بَدْرٍ حينَ يُعْزَى ... من الأقمار ثَمَّ ولا البُدُورِ (١)
عَلامَ هجوتَ مجتهداً عَلِيًّا ... بِما لَفَّقْتَ مِنْ كَذِبٍ وَزُورِ!
أمَالَكَ فِي اسْتِكَ الْوَجْعَاءِ شُغْلٌ ... يكفُّكَ عَنْ أذَى أهْلِ القبُورِ!

* * *

وسَمِع أبو العيناء عليّ بن الجهم يوما يطعُن على أمير المؤمنين ، فقال له : أنا أدرِى لِمَ تطعُن على أمير المؤمنين! فقال : أتعنى قِصّة بَيْعِه أهلى من مَصْلقة بن هُبيرة ؟ قال : لا،أنت أوْضَع من ذلك ؛ ولكنّه عليه السلام قَتَل الفاعل مِنْ قوم لوط ، والمفعول به ، وأنت أسفلهما .

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل (٢) :

ألَمْ ترَ مُظْهِرِينَ عَلَيَّ عَتْبًا (٣) ... وَهُمْ بالأمْسِ إخْوانُ الصَّفاءِ
فَلَمّا أنْ بُلِيتُ غَدَوْا وَراحُوا (٤) ... عَلَيَّ أشَدَّ أسْبابِ البَلاءِ
أبتْ أخطارُهم أنْ يَنْصُرونِي ... بمالٍ أو بجاهٍ أو ثَرَاءِ (٥)
وَخَافُوا أنْ يقال لهمْ خَذَلْتُمْ ... صَدِيقا فادَّعَوْا قِدَمَ الجفاءِ
تظافرتِ الروافضُ والنَّصارى ... وأهلُ الإعتزال عَلَى هجائى

(١) الديوان والأغانى : « وما رغثاؤك » وفى حواشى الأغانى : « الرغثاء ، أصلها عصب أو عرق فى الثدى يدر اللبن ؛ واستعملها البحترى هنا فى الأب » .

(٢) من قصيدة طويلة فى ديوانه ٨١ ـ ٨٥ ؛ وفى والأغانى ١٠ : ٢٠٦ ـ ٢٠٨ : « كان على بن الجهم قد هجا بختيشوع ، فسبه عند المتوكل ، فحبسه المتوكل ، فقال على بن الجهم فى حبسه عدة قصائد كتب بها إلى المتوكل ، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك إلى خراسان . فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها إلى أخيه ؛ أولها قوله :

توكَّلْنَا على رَبِّ السَّماءِ ... وَسَلَّمْنَا لأسبابِ القَضَاءِ

ثم أورد القصيدة .

(٣) الأغانى : عيبا » ، والديوان : « غشا » .

(٤) الديوان : « بليت بنكبة فغدوا وراحوا » .

(٥) الديوان : « براء » ، وقال فى شرحه : الراء : الرأى .

وَعَابُونِي وَمَا ذَنْبِي إِليهِمْ سِوَى عِلْمِي بِأَوْلَادِ الزِّنَاء

يعنى بالروافض نجاح بن مسلمة[١] ، والنصارى بَخْتِيشُوع[٢] ، وأهل الاعتزال على[٣] بن يحيى بن المنجِّم[٤] .

قال أبو الفَرَج :[٥] وكان علىُّ بنُ الجَهْم من الحَشَوِيّة[٦] ، شديدَ النَّصْب[٧] عدوًّا للتوحيد والعدْل ؛ فلما سَخِط المتوكّل على أحمد بن أبى دُؤاد ، وكفأه ، شَمِت به علىّ بن الجهم ، فهجاه ، وقال فيه[٨] :

يَاأَحْمَـــدُ بْنَ أبى دُؤادِ دعوة بَعَثَتْ عليكَ جَنَادِلًا وَحَدِيدَا[٩]

ماهـــذهِ البِدَعُ التى سميتَها ـ بالجهل منك ـ العدْلَ والتّوحيدا

أَفْسَدْتَ أَمْرَ الدّين حين وَلِيتَهُ وَرَمَيْتَه بأبى الوليد وليدَا

---

(١) نجاح بن مسلمة ؛ كان على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فى عهد المتوكل ؛ فكان جميع العمال يتقونه ؛ وكان المتوكل ربما نادمه ؛ وتوفى منكوباً سنة ٢٤٥ . تاريخ الطبرى ١١ : ٥٧

(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع الأكبر المتطبب

(٣) على بن يحيى بن أبى منصور المنجم ، نديم المتوكل وأحد خواصه المتقدمين عنده ؛ توفى سنة ٢٧٥ . ابن خلكان ١ : ٣٥٦ .

(٤) فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٢٠ : « وإنما عنى بالروافض الطاهريين ؛ و بأهل الاعتزال بنى دؤاد ، وبالنصارى بختيشوع بن جبريل ؛ فإنه كان يعاديه » .

(٥) الأغانى ١٠ : ٢١٧

(٦) الحشوية : فرقة من المرجئة يقولون : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ وعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض . تفسير القرطبى ٤ : ١٦٢

(٧) النواصب : قوم يتدينون ببغضة على .

(٨) ذكر صاحب الأغانى فى هذا الخبر أنه لما حبس على بن الجهم مدح أحمد بن أبى دؤاد عدة مدائح ، ويسأله أن يقوم بأمره ؛ منها قوله :

يا أحمدُ بنَ أبى دُؤادِ إنَّمَا تُدْعَى لِكلِّ عَظِيمَةٍ يا أحمدُ

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودُونَهُ خوضُ الرَّدَى ومخاوفٌ لا تنفدُ

أنتمْ بَنُو عمّ النبىِّ محمدٍ أَوْلَى بما شرعَ النبىُّ محمدُ

فلم يفعل وقعد عنه ؛ فلما نفى المتوكل أحمد بن أبى دؤاد شمت به على بن الجهم ، وهجاه بهذه الأبيات

(٩) ديوانه ١٢٥ ، ١٢٦

ـأبو الوليد بن أحمد بن أبى دؤاد ، وكان قد رتّبه قاضيا [١] ـ

لَا مُحْكَماً جَلْداً ولا مُسْتَطْرَفاً ... كَهْلاً وَلَا مُسْتَحْدَثاً مَحْمُودَا [٢]

شَرِهاً إذا ذُكِرَ المكارمُ والعُلَا ... ذَكَرَ القَلَايَا مُبْدِئا ومعيدا [٣]

وَيَوَدّ لو مُسِخَتْ ربيعةُ كُلُّهَا ... وَبنُو إيادٍ صَحْفَةً وَثَرِيدَا

وإذا تَرَبَّعَ فى المجالسِ خِلْتَهُ ... ضَبُعاً وَخِلْتَ بنى أبيه قُرُودَا

وإذا تبسَّمَ ضاحِكاً شَبَّهْتَهُ ... شَرِقاً تَعَجَّلَ شُرْبَهُ مَزْدُودا

لَا أَصْبَحَتْ بالخيرِ عَيْنٌ أَبْصَرَتْ ... تِلْكَ المَنَاخِرِ والثَّنايا السُّودَا

وقال يهجوه لما فُلِج [٤] :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خيالكَ لامعاً ... فَوْقَ الفِرَاشِ مُمَهَّداً بِوِسَادِ

فرحتْ بمصرَعِك البرِّيةُ كُلُّهَا ... مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِناً بمَعادِ

كَمْ مجلسٍ لله قَدْ عَطَّلتَهُ ... كى لا يحدّثَ فيه بالإسْنَادِ

وَلَكَمْ مصابيح لنا أطفأْتَها ... حَتّى تحيدَ عن الطريق الهادى [٥]

ولكم كريمةِ مَعْشَرٍ أرمَلْتها ... ومُحدِّثٍ أوثقْتَ فى الأقيادِ

إنّ الأسارى فى السُّجون تفرَّجُوا ... لما أتتكَ مَوَاكِبُ العُوّادِ

وَغَدَا لمصرعك الطبيبُ فلم يَجِدْ ... لدواءِ دائِكَ حِيلةَ المرتادِ

فذقِ الهوانَ معجّلاً ومؤجَّلَا ... والله ربُّ العَرْشِ بِالْمِرْصَادِ

لازال فَالِجُك الّذِى بك دائماً ... وفُجِعْتَ قبل الموت بالأوْلادِ

---

(١) وكان يتولى المظالم سرابسامراء ، وعزله المتوكل سنة ٢٣٧

(٢) الديوان والأغانى : « لا محكماً جزلا » ، والجزل هنا : الجيدالرأى.

(٣) القلايا : المقليات ؛ مفرده قلية .

(٤) ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩ ، والأغانى ١٠ : ٢٢٩

(٥) الأغانى : « حتى يزول عن الطريق الهادى » .

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب "الأغانى" فى ترجمة مروان بن أبى حفصة الأصغر أنّ علىّ بن الجهم خطب امرأة من قريش ، فلم يزوّجوه ، و بلغ المتوكلَ ذلك ، فسألَ عن السبب ، فحدِّث بقصة بنى سامة بن لؤىّ ، وأن أبا بكر وعمر لم يُدْخِلاهم فى قريش ، وأنّ عثمان أدخلهم فيها ، وأنّ عليًّا عليه السلام أخرجهم منها ، فارتدّوا ، وأنه قتَل من ارتدّ منهم ، وسَبَى بقيّتَهم ، فباعهم من مَصْقلة بن هُبيرة ، فضحك المتوكل ، و بعث إلى على بن الجهْم فأحضره ، وأخبره بما قال القوم ، وكان فيهم مَرْوان بن أبى حفصة المكنّى أبا السّمط وهو مَرْوان الأصغر ، وكان المتوكّل يغريه بعلىّ بن الجهم ، و يضعه على هجائه وثَلْبِه ، فيَضحَك منهما ، فقال مروان :

إنَّ جَهْماً حين تَنْسُبُه ... لَيْسَ مِنْ عُجْمٍ وَلَا عَرَبِ
لَجّ فى شَتْمِى بِلاَ سَبَبٍ ... سارِق للشِّعرِ والنَّسَبِ
مِنْ أناسٍ يدّعون أبا ... مَالَهُ فى النَّاس مِنْ عَقِبِ

فغضِب علىّ بن الجهم ، ولم يجبه ؛ لأنه كان يستحقره ، فأومأ إليه المتوكِّلُ أن يزيده ، فقال :

أأنتم يابْنَ جَهْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ ... وقد باعوكُمُ ممّن تُرِيدُ
أترجو أن تكَاثِرَنا جِهاراً ... بأصْلِكُمُ وقد بيع الجُدُودُ

فلم يجبه ابن الجهم ، فقال فيه أيضا :

علىّ تعَرّضْتَ لِى ضلّةً ... لجهلك بالشِّعرِ ياما ئِقُ
ترُومُ قُرَيْشاً وَأَنْسَابهَا ... وأَنْتَ لأَنْسَابِهَا سَارِقُ
فإنْ كان سامةُ جَدًّا لَكُمْ ... فأُمُّك مِنِّى إذاً طَالِقُ

[نسب مصقلة بن هبيرة]

فأمّا نَسَبُ مَصْقَلة بن هُبيرة ، فإنّ ابنَ الكلبي ، قد ذكره في " جمهرة النسب " فقال : هو مَصْقَلة بن هُبيرة بن شِبْل بن يَتِرِى بن امرئ القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شَيْبان بن ثعلبة بن عُكَابة بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفْصَى بن دُعْمِىّ ، بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان .

[خبر بنى ناجية مع علىّ]

وأما خبر بنى ناجية مع أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد ذكره إبراهيم بن هلال الثقفى في كتاب " الغارات " قال :

حدثنى محمد بن عبدالله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، قال : حدّثنى عمر بن سعد ، عمّن حدثه ممن أدرك أمْرَ بنى ناجية ، قال : لما بايع أهلُ البصرة عليًّا بعد الهزيمة ، دخلوا فى الطاعة غَيْرَ بنى نَاجية ، فإنهم عَسْكَرُوا ، فبعث إليهم علىّ عليه السلام رجلًا من أصحابه ، فى خيل ليقاتِلَهم ، فأتاهم ، فقال : مابالُكم عسكرتم ، وقد دخل الناس فى الطاعة غيركم ! فافترقوا ثلاث فرق : فرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا ، ودخلنا فيما دخل الناس فيه من الفِتْنة ، ونحن نبايع كما بايع الناس ؛ فأمرهم فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فلم نسلم ، وخرجنا مع القوم الذين كانوا خَرَجوا ، قهرونا فأخرجونا كُرْها ، فخرجنا معهم فهُزِموا ، فنحن ندخل فيما دخل الناس فيه ، ونعطيكم الجزية كما أعطيناهم ؛ فقال : اعتزلوا فاعتزلوا . وفرقة قالوا : كنّا نصارى فأسلمنا فلم يُعْجِبْنا الإسلام ، فرجَعْنا إلى النصرانية ، فنحن نعطيكم الجزية كما أعطاكم النصارى . فقال لهم : توبوا وارجِعوا إلى الإسلام ، فأبوْا ، فقتل مُقاتِلَتَهم وسَبَى ذراريّهم فقدم بهم على علىّ عليه السلام .

* * *

[قصة الخرّيت بن راشد الناجى وخروجه على علىّ]

قال ابن هلال الثقفىّ : وروى محمد بن عبدالله بن عثمان، عن أبى سيف ، عن الحارث بن كعب الأزدىّ ، عن عَمّه عبد الله بن قُعَين الأزدىّ،قال : كان[1] الخِرِّيت بن راشد النّاجِىّ ، أحد بنى ناجِيَة ، قد شهد مع على عليه السلام صِفّين ، فجاء إلى علىّ عليه السلام بعد انقضاء صِفّين ، و بعد تحكيم الحكَمين فى ثلاثين من أصحابه ، يمشى بينهم حتى قام بين يديه ، فقال : لا والله لا أطِيعُ أمرَك ، ولا أصلّى خَلْفَك ، و إنى غدا لمفارق لك ؛ فقال له : ثَكِلَتْك أمّك! إذاً تنقض عهدَك ،و تَعْصِى ربّك ، ولا تضرّ إلا نفسَك، أخبرْنِى لم تفعلُ ذلك ؟ قال ؛ لأنك حكّمت فى الكتاب ، وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجدّ ،وركنت إلى القوم الّذين ظلموا أنفسَهم ، فأنا عليك رادّ ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .

فقال له علىّ عليه السلام : وَيْحَك ! هلمّ إلىّ أدارِسْك وأناظِرْك فى السُّنن ، وأفاتحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك ؛ فلعلك تعرف ماأنت الآن له منكر ، وتُبْصر ماأنت الآن عنه عَمٍ و به جاهل ! فقال الخِرّيت : فإنى غادٍ عليك غدا . فقال علىّ عليه السلام : اغْدُ ولا يستهوينّك الشيطان ، ولا يتقحَّمَنَّ بك رأىُ السوء ، ولا يستخفَّنّك الجهلاء الذين لايعلمون ؛ فوالله إن استرشدتنى واستنصحتنى وقبلت مِنّى لأهدينّك سبيل الرشاد .

فخرج الخرِّيت من عنده مُنْصرفا إلى أهله .

قال عبد الله بن قُعَين : فعجلت فى أثره مُسْرِعا ، وكان لى من بنى عَمّه صديق ، فأردت أن ألْقَى ابنَ عمه فى ذلك ، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين ، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه ، وأنْ يأمرَه بطاعة أمير المؤمنين ومُناصحته ، و يخبره أنّ ذلك خير له فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة .

قال : فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله ـ وقد سبقنى ـ فقمت عند باب دار فيها رجال من أصحابه ، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام ، فوالله مارَجَع

(١) وانظر الخبر أيضاً فى تاريخ الطبرى ٦ : ٦٥ وما بعدها .

لا نادم على ماقال لأمير المؤمنين وما رَدّ عليه ، ولـكنه قال لهم : ياهؤلاء ، إنّى قد رأيت أنْ أفارِق هذا الرجل ، وقد فارقته على أن أرجع إليه من غد ، ولا أرى إلا المفارقة؛ فقـال له أكثرُ أصحابه : لاتفعلْ حتى تأتيَه ، فإن أتاك بأمرٍ تعرفه قبلت منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه ، قال لهم : نِعْمَ ما رأيتم . قال : فاستأذنت عليهم فأذنوا لِي ، فأقبلت على ابن عَمّه ـ وهو مدرك بن الريان النّاجى ، وكان من كُبراء العرب ـ فقلت له: إن لك علىّ حقا لإحسانك ووُدّك،وحقُّ المسلم على المسلم[1]،إنّ ابن عمك كان منه ماقد ذُكِر لك ، فاخلُ به فاردد عليـه رأيَه وعظِّم عليـه ما أتى ؛ واعلم أنّى خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته . فقال : جزاك الله خيرا من أخٍ ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليـه السلام ففى ذلك هلاكه ، وإن اختار مُناصحته والإقامة معه ففى ذلك حظه ورُشْده .

قال : فأردت الرجوعَ إلى علىّ عليـه السلام ، لأعلِمه الذى كان ؛ ثم اطمأننت إلى قول صاحبي ، فرجعت إلى منزلى ، فبتّ ثم أصبحت ، فلماارتفعَ النهارُ أتيتُ أمير المؤمنين عليه السلام ، فجلست عنده ساعة ، وأنا أريدُ أنْ أحدِّثه بالذى كان على خَلْوة ، فأطلتُ الجلوسَ ، ولا يزدادُ الناس إلّا كثرة ، فدنَوْت منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إلىّ برأسه، فأخبرتُه بما سمعته من الخرِّيت ، وما قلتُ لابن عمه وما ردّ علىّ . فقال عليه السلام : دَعْه ؛ فإن قَبِل الحقّ ورجع عرفنـا له ذلك وقبلناه منه ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ، فلم لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟ فقال : إنّا لو فعلنا هذا بكلّ مَنْ يُتّهم من الناس ملأْنا السجون منهم ، ولا أرانى يسعُنى الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهِروا لى الخلاف .

قال : فسكتُّ عنـه وتنحّيت ، فجلستُ مع أصحابى هنيهة ، فقال لى عليه السلام:

---

(١) فى الطبرى : « بعد حق المسلم على المسلم » .

ادْنُ مِنّى ، فدنوت ، فقال لى مُسِرًّا : اذهب إلى منزل الرجل فاعلَمْ مافعل ؛ فإنه قلّ يومٌ لم يكن يأتينى فيه قبل هذه الساعة ، فأتيتُ إلى منزله ، فإذا ليس فى منزله منهم دَيّار ، فدُرْتُ على أبواب دور أخرى ، كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داعٍ ولا مجيب . فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال لى حين رآنى : أفطِنوا فأقاموا أم جَبُنوا فظعنوا ؟ قلت : لابل ظَعَنوا ، فقال : أبعدَهم الله كما بَعِدت ثمود ! أما والله لو قد أُشْرِعَتْ لهم الأسِنّة، وصُبّت على هامهم السيوف ، لقد نَدِموا ، إن الشيطان قد استهواهم وأضلّهم ، وهو غدا متبرئٌ منهم ، ومُخلٍّ عنهم . فقام إليه زياد بن خَصفة ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنه لو لم يكن من مَضَرّة هؤلاء إلا فراقُهم إيانا لم يعظم فقدُهم علينا ، فإنّهم قَلّما يزيدون فى عددنا لو أقاموا معنا ، وقَلّما ينقصون من عددنا بخروجهم منّا ، ولكنا نخاف أن يُفسِدوا علينا جماعة كثيرة ممّن يقدَمون عليهم من أهل طاعتك ؛ فائذَنْ لى فى اتّباعهم حتى أردّهم عليك إن شاء الله .

فقال له عليه السلام : فاخرُج فى آثارهم راشداً . فلما ذهب ليخرج قال له : وهل تدرى أين توجّه القوم ! قال : لاوالله ؛ ولكنّى أخرج فأسأل وأتبَعُ الأثر ، فقال : اخرج رحمك الله حتى تنزل دير أبى موسى ثم لاتبرحه ؛ حتى يأتيَك أمرى ؛ فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس فى جماعة ؛ فإنّ عمالى ستكتب إلىّ بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفِين ؛ فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إلى من حَوْلى من عُمّالى فيهم . فكتب نسخةً واحدة وأخرجها إلى العمال :

من عبدِ الله على أمير المؤمنين إلى من قُرِئَ عليه كتابى هذا من العمال ، أمّا بعد ، فإن رجالًا لنا عندهم تبعة ، خرجوا هُرّابا نظنّهم خرجوا نحو بلادِ البصرة، فاسأل عنهم أهلَ بلادك ، واجْعَل عليهم العيون فى كلّ ناحية من أرْضك ، ثم اكتب إلىّ بما ينتهى إليك عنهم . والسلام .

فخرج زياد بن خَصَفة حتّى أتى داره ، وجمع أصحابه فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : يامعشرَ بكْر بن وائل؛إن أميرَ المؤمنين نَدَبنى لأمرٍ من أموره مُهِمّ له ، وأمرَنى بالانكماش فيه بالعشيرة ؛ حتى آتىَ أمره ؛ وأنتم شيعتُه وأنصاره ، وأوثق حَىّ من أحيــاء العرب فى نفسِه ، فانتدِبوا معى الساعة ، وعَجّلوا ، فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلا ، فقــال : اكتفينــا لا نريد أكثر من هؤلاء ؛ فخرج حتى قطع الجِسْر ، ثم أتى دير أبى موسى فنزله ، فأقام به بقيــة يومه ذلك، ينتظر أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام .

قال إبراهيم بن هلال : فحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن ابن أبى سيف ، عن أبى الصّلت التيمىّ ، عن أبى سعيد ، عن أبى عبد الله بن وال التّيْمىّ ، قال : إنّى لعند أمير المؤمنين؛إذا فيج[1] قد جاءه يسعَى بكتاب مِنْ قرظة بن كعب بن عمرو الأنصارىّ ،وكان أحدَ عماله ، فيه :

لعبــد الله على أمير المؤمنين من قَرظة بن كعب ، ســلام عليك ؛ فإنّى أحْمَد إليــك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد :

فإنّى أخبرُ أميرَ المؤمنين،أنّ خيلامَرّتْ من قِبَل الـكوفةمتوجّهة[نحو نفَّر][2] وأنّ رجلا من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلّى، يقال له : زاذانُ فروخ ؛ أقبل من عند أخوال له، فلقُوه ، فقالوا له : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال: بل مسلم ، قالوا : فما تقول فى علىّ؟ قال: أقول فيه خيرا ؛ أقول : إنه أمير المؤمنين عليــه السلام وسيّد البشر ووصىّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: كفرت ياعدو الله ! ثم حملتْ عليــه عصابة منهم ، فقطّعوه بأسيافهم ، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهوديا ، فقالوا له : مادينك ؟ قال : يهودىّ ، فقالوا:

(١) الفيج : رسول السلطان على رجله ؛ فارسى معرب « پيك » . تاج العروس ٢ : ٨٩ .
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى . ونفر : بلدة على نهر النرس

خَلُّوا سبيلَ هـذا ، لا سبيلَ لـكم عليه ، فأقبل إلينا ذلك الذمّى ، فأخبرنا الخبر ، وقد سألت عنهم ، فلم يخبرنى أحد عنهم بشىء ، فليـكتبْ إلىّ أمير المؤمنين فيهم برأيٍ أنتهِ إليه ، إن شاء الله .

فـكتب إليه أميرُ المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر العصابة التى مرّت بعملك ، فقتلَتِ البَرّ المسلم ، وأمن عندهم المخالف المشرك ؛ و إن أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلُّوا ، كالذين حسبوا ألّا تـكون فتنة فعمُوا وصمُّوا ، فأسمع بهم وأبْصِر يوم تحشر أعمالهم ، فالزم عَمَلَك ، وأقبِلْ عَلَى خراجك ؛ فإنّك كما ذكرت فى طاعتك ونصيحتك ، والسلام .

قال : فـكتب علىّ عليـه السلام إلى زياد بن خَصفة ، مع عبد الله بن وال التيمىّ ، كتابا نسخته :

أما بعد ، فقد كنتُ أمرتك أن تنزل دَيْر أبى موسى حتى يأتيَك أمرى ؛ وذلك أنّى لم أكن علمت أين توجه القوم ، وقد بلغنى أنّهم أخذوا نحو قرية من قُرى السواد ، فاتّبع آثارهم وسلْ عنهم ؛ فإنّهم قد قتلوا رجلا من أهل السّواد مسلما مُصَلّيا ، فإذا أنتَ لحقت بهم فارددهم إلىّ ، فإنْ أبَوْا فناجِزْهم ، واستعِنْ بالله عليهم ؛ فإنّهم قد فارقوا الحقّ ، وسفـكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيل ، والسلام .

* * *

قالَ عبد الله بن وال : فأخذتُ الـكِتاب منه عليه السلام وأنا يومئذ شاب، فمضيت به غيرَ بعيد ، ثم رجعت إليه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا أمضى مع زياد بن خَصَفة إلى عدوّك ، إذا دفعتُ إليه كتابك ! فقال : يابن أخى افعل، فوالله إنّى لأرجو أن تـكونَ من أعوانى على الحقّ وأنصارى على القوم الظالمين . قال : فوالله ما أحبّ أنّ لى بمقالتِه

تلك حُمْرَ النَّعم ، فقلت له : يا أميرَ المؤمنين ، أنا والله كذلك مِن أولئك ؛ أنا والله حيث تحبّ .

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب ، وأنا على فَرس رائع كريم ، وعلىّ السلاح ، فقال لى زياد : يابن أخى ، والله ما لى عنك من غنًى ، وإنى أحبّ أن تكونَ معى فى وجهى هذا ، فقلت : إنّى قد استأذَنْتُ أمير المؤمنين فى ذلك فأذِن لى ، فَسُرَّ بذلك ، ثم خرجنا حتّى أتينا الموضعَ الذى كانوا فيه ، فسألنا عنهم ، فقيل : أخذوا نحو المدائن فلحقْناهم ؛ وهم نزول بالمدائن ، وقد أقاموا بها يوما وليلة ، وقد استراحوا وعَلَفوا خيولهم ، فهم جامّون مريحون ، وأتيناهم وقد تقطّعنا ولغِبنا ونصِبنا ؛ فلما رأوْنا وثبوا على خيولهم ، فاستووا عليها ، فجئنا حتى انتهينا إليهم . فنادى الخرّيت بن راشد : يا عميان القلوب والأبصار ، أمع الله وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين ! فقال له زياد بن خصفة: بل مع الله وكتابه وسُنّة رسوله ، ومع مَنِ الله ورسوله وكتابه آثر عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنّها منذ يوم خلقت إلى يوم تَفْنى لآثَرَ الله عليها ، أيّها العُمْى الأبصار ، الصمّ الأسماع !

فقال الخِرّيت : فأخبرونا ما تريدون ؟ فقال له زياد ـ وكان مجرّبا رَفيقا : قد ترى ما بِنَا من النَّصَب واللّغوب ، والذى جئنا له لا يصلح فيه الكلام عَلَانية على رءوس أصحابك ؛ ولكن تنزلون وننزل ، ثم نخلُوا جميعا ، فنذاكر أمرَنا وننظر فيه ؛ فإن رأيتَ فيما جئنا له حظا لنفسك قبلتَه ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنَا ولك ، لم أردّه عليك .

فقال الخرِّيت: انزل ، فنزل، فأقبل إلينا زياد ، فقال : انزلوا عَلَى هذا الماء ، فأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ، فنزلنا به، فما هو إلّا أنْ نزلنا فتفرقنا ، فتحلّقنَا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة، تضع كلُّ حلْقة طعامها بين أيديها ، لتأ كل ثم تقوم إلى الماء فتشرب .

وقال لنا زياد : علّقوا على خيولكم ، فعلّقنا عليها مخاليَها ، ووقف زيادٌ فى خمسة فوارس ؛ أحدُهم عبد الله بن والٍ بيننا و بين القوم ، وانطلق القوم فتنحَّوْا ، فنزلوا وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرُّقنا وتحلّقنا ، قال : سبحان الله أنتم أصحاب حرب ! والله لو أنّ هؤلاء جاءوكم الساعة على هذه الحالة ما أرادوا من غِرّتكم أفضلَ من أعمالكم التى أنتم عليها ؛ عجِّلوا ، قوموا إلى خيولكم . فأسرعنا فمنّا من يتوضأ ، ومنا مَنْ يشرب ، ومنّا مَنْ يسقى فرسَه ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك أتينا زيادا ، و إن فى يده لعَرْقًا[1] ينهسُه فنهس منه نهستين أو ثلاثة ، ثم أتى بإداوة فيها ماء ، فشرب ثم ألقى الْعَرْق من يده ، وقال : يا هؤلاء ؛ إنا قد لَقِينا العدوّ ، و إنّ القوم لفى عُدّتكم ، ولقد حَزَرتهم ، فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر ؛ فإنى أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال ؛ فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجز الفريقين .

ثم قال : ليأخذْ كلُّ رجل منكم بعِنان فرسه ، فإذا دنوتُ منهم وكلّمت صاحبَهم ، فإن تابعَنى على ما أريد ؛ و إلّا فإذا دعوتُكم فاستوُوا على مُتُون خيلكم ، ثم أقبلوا معاً غيرَ متفرّقين . ثم استقدَم أمامنا وأنا معه ، فسمعتُ رجلًا من القوم يقول : جاءكم القومُ ، وهم كالُّون مُعْيُون ، وأنتم جامُّون[2] مُرِيحون[3] ؛ فتركتُموهم حتى نَزَلُوا فأكلوا وشربوا ، وأراحوا دوابَّهم ! هذا والله سوء الرأى !

قال : ودعا زيادٌ صاحبَهم الخِرّيت ، فقال له : اعتزِل ننظر فى أمرنا ، فأقبل إليه فى خمسة نفر ؛ فقلتُ لزياد : أدعو لك ثلاثةَ نفَرٍ من أصحابنا ؛ حتى نلْقاهم فى عَدَدهم ؟ فقال : ادع مَنْ أحببت ، فدعوت له ثلاثة فكنا خمسة وهم خمسة .

فقال له زياد : ما الذى نقَمت على أمير المؤمنين وعلينا ، حتى فارقتنا ! فقال : لم أرضَ

---

(١) العرق : العظم بلحمه ، ويقال . نهش اللحم ، أى أخذه بمقدم أسنانه .

(٢) جم ، من الجمام وهو الراحة .

(٣) مريحين ؛ من قولهم : أراح فلان : إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء .

صاحبَكم إماما ، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة ، فرأيتُ أنْ اعتزِل ، وأكونَ مع مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس ؛ فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضاً ، كنت مع الناس .

فقال زياد : ويحك ! وهل يجتمع الناس على رجل يُدانى عليًّا عالماً بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابتِه وسابقتِه فى الإسلام ! فقال الخِرّيت : هو ماأقول لك ، فقال : ففيم قتلتم الرجل المسلم ؟ فقال الخِرّيت : ماأنا قتلتهُ ، قتلتْه طائفة من أصحابى ، قال : فادفعهم إلينا ، قال : ماإلى ذلك من سبيل ، قال : أو هكذا أنت فاعل ! قال : هو مانسمع .

قال : فدعوْنا أصحابنا ، ودعا الخِرّيت أصحابَه ، ثم اقتتلنا ؛ فوالله مارأيت قِتالا مثله منذ خلقنى الله ، لقد تطاعَنّا بالرماح حتى لم يبقَ فى أيدينا رُمْح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنت ، وعُقِرت [١] عامّة خيلِنا وخَيْلِهم ، وكَثُرت الجِراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتِل مِنّا رجلان : مولًى لزياد كانت معه رايتُه ، يدعى سويدا ، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكر ، وصُرِع منهم خمسة نفر ، وحالَ الليلُ بيننا وبينهم ؛ وقد والله كرِهُونا وكرهناهم ، وهرُّونا وهرَرْناهم [٢] ، وقد جرح زياد وجُرِحْت ؛ ثم أنّا بتْنا فى جانب وتنحَّوْا ، فمكثُوا ساعة من الليل ثم مضوْا ، فذهبوا وأصبحْنا ، فوجدناهم قد ذهبوا ؛ فوالله ما كرهنا ذلك ؛ فمضينا حتى أتينا البَصْرة ، وبلغنا أنّهم أتوا الأهواز [٣] ، فنزلوا فى جانب منها ، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة ، لم يكن لهمْ من القوّة ما ينهضُون معهم حين نَهَضوا ؛ فاتبعوهم من بَعْد لحوقهم بالأهواز ، فأقاموا معهم .

* * *

قال : وكتَب زياد بن خَصَفة إلى علىّ عليه السلام :

أما بعد فإنا لقينا عدوّ الله النّاجى وأصحابه بالمدائن ؛ فدعوناهم إلى الهُدَى والحقّ وكلمة

---

(١) عقرت الدابة ؛ إذا قطعت قوائمها بالسيف .
(٢) هرونا وهررناهم ؛ أى أى كرهونا وكرهناهم .
(٣) الأهواز : سبع كور بين البصرة وفارس .

السواء ؛ فتولّوا عن الحقّ وأخذتهم العزة بالأثم ، وزَيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ؛ فقصَدُونا وصَمَدْنا صَمْدَهم ، فاقتتلنا قتالا شديدا مابين قائم الظهر إلى أن دَلَكت [١] الشمس ، واستشهد منّا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر ، وخلّوا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح ـ ثم إنّ القوم لمّا أدركوا الليل خَرَجوا من تحته متنكّرين إلى أرض الأهواز ؛ وقد بلغنى أنّهم نزلوا من الأهواز جانبا ، ونحن بالبصرة نداوِى جِراحنا ، وننتظر أمرَك رحمك الله ؛ والسلام .

فلما أتاه الكتاب ، قرأه على الناس ، فقام إليه معقِل بن قَيْس الرِّياحىّ ، فقال : أصلحك الله ياأمير المؤمنين ! إنّما كان ينبغى أن يكون مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتَهم فى طلبهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحِقُوهم استأصلوا شأفتَهم [٢] ، وقطعوا دابِرهم ؛ فأمّا أن تلقاهم بأعدادهم ؛ فلعمرى ليصبرنّ لهم فإنّهم قوم عرَب ، والعُدة تصبر للعدّة ، فيقاتلون كلّ القتال .

قال : فقال عليه السلام له : تجهَّزْ يامعقِل إليهم ، ونَدَب معه ألفين من أهل الكوفة ، فيهم يزيد بن معقِل ، وكتب إلى عبد الله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى :

أمّا بعد ، فابعثْ رجلا من قِبَلك صَلِيباً شجاعا ، معروفاً بالصلاح فى ألفَىْ رجل من أهل البَصْرة ، فليتبَع معقل بن قيس ؛ فإذا خرج من أرض البَصْرة ، فهو أميرُ أصحابه حتى يَلْقى معقِلا ؛ فإذا لَقِيَه فمعقل أميرُ الفريقين ، فليسمعْ منه ولْيُطِعْه ولا يخالفه ؛ ومُرْ زياد بن خَصَفة ، فليُقْبِلْ إلينا ، فنعم المرء زياد ، ونعم القَبِيلُ قبيله ! والسلام .

* * *

---

(١) دلكت الشمس : اصفرت وجنحت للمغيب .

(٢) الشأفة فى الأصل : قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ؛ وإذا قطعت مات صاحبها ؛ وقولهم استأصل الله شأفته ؛ أى أذهبه كما تذهب القرحة ، ومعناه أزاله من أصله .

قال : وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفة :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وفهمت ماذكرت به الناجِىَ وأصحابه ، الذين طَبَعَ الله على قلوبهم ، وزَيّن لهم الشيطانُ أعمالهم ؛ فهم حَيَارى عَمُون ، يَحْسَبُون أنّهم يُحْسِنون صُنْعا ؛ ووصفْتَ مابلغ بك وبهم الأمر ؛ فأما أنت وأصحابك فلله سعيُكم وعليه جزاؤكم . وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خَيرٌ له من الدنيا التى يُقبل الجاهلون بأنفسهم عليها ، فـ ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وأما عدوّكم الذين لقِيتم فحسبُهم خروجهم من الهُدَى ، وارتكاسُهم فى الضلالة ، وردُّهم الحقّ ، وجِماحُهم فى التِّيه ، فذرْهم وما يفترون ، ودَعْهم فى طُغيانهم يعمهون ، فأسْمِع بهم وأبصر ؛ فكأنّك بهم عن قليل ، بين أسير وقَتِيل ! فَأقْبِل إلينا أنت وأصحابُك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتم ، وأحسنتم البلاء ، والسلام .

قال : ونزل النّاجِى جانبا من الأهواز ، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها ؛ مِمّن أراد كَسْر الخراج ، ومن اللصوص ، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثنى ابن أبى سيف ، عن الحارث بن كَعْب ، عن عبد الله بن قُعَين ، قال : كنت أنا وأخى كَعْب بن قُعَين فى ذلك الجيش ، مع مَعْقل بن قيس ، فلما أراد الخروج ، أتى أميرَ المؤمنين عليه السلام يودّعه ، فقال : يامعقِل بن قيس ؛ اتّقِ الله مااستطعت ؛ فإنّه وصية الله للمؤمنين ؛ لَا تَبْغِ على أهل القِبْلة ، ولا تَظْلِمْ أهلَ الذِّمّة ولا تتكبّر ؛ فإنّ الله لا يحبُّ المتكبرين . فقال معقل : الله المستعان ، فقال : خيرُ مستعان .

---

(١) سورة النحل ٩٦ .

ثم قام فخرَج ، وخرجْنا معه ؛ حتى نَزَل الأهواز ، فأقمنا ننتظر بَعْثَ البصرة ، فأبطأ علينا ، فقام مَعْقِل ، فقال : أيُّها الناس ؛ إنّا قد انتظرنا أهلَ البَصْرة ، وقد أبطئوا علينا ، وليس بنا بحمد الله قِلّة ولا وَحْشة إلى الناس ، فسيروا بنا إلى هـذا العدوّ القليل الذّليل ؛ فإنى أرجو أن ينصرَكم الله ويُهلكهم . فقام إليه أخى كعب بن قُعَين فقال : أصبتَ إن شاء الله رأينا رأيك ، و إنى لأرجُو أن ينصرنا الله عليهم ؛ و إن كانت الأخرى ؛ فإنّ فى الموت على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا . فقال : سيروا على بركة الله، فسِرْنا ، فوالله مازال معقل ابن قيس لى ولأخى مُكرِماً موادًّا ، ما يعدِلُ بنا أحداً من الجند ، ولا يزال يقول لأخى : كيف قلت : إن فى الموتِ على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا ! صدقت والله وأحسنت ، ووفقت وفّقك الله ! قال : فوالله ماسِرْنا يوما ؛ و إذا بفَيْج[1] يشتدّ بصحيفة فى يده .

من عبد الله ابن عباس إلى مَعْقل بن قيس ، أما بعد ؛ فإنْ أدركَك رسولى بالمكان الذى كنتَ مقيما به ، أو أدركك وقد شَخَصْت منه ؛ فلا تبرحَنّ من المكان الذى ينتهِى إليك رسولى وأنت فيه ؛ حتى يقدَم عليك بعثُنا الذى وجّهناه إليك ؛ فقد وجّهْت إليك خالدَ بن معدان الطائِىّ ؛ وهو من أهل الدّين والصلاح والنجدة ، فاسمع منه واعرِف ذلك له إن شاء الله . والسلام .

قال : فقرأه معقِل ابن قيس على أصحابه ، فسرُّوا به ، وحَمِدوا الله ، وقد كان ذلك الوجه هالَهم ، وأقمنا حتى قَدِم علينا خالد بن معدان الطائىّ ، وجاءنا حتى دخَلَ على صاحبنا ، فسلّم عليه بالإمْرة ، واجتمعنا جميعا فى عسكر واحد ، ثم خرجنا إلى الناجى وأصحابه ؛ فأخذوا يرتفعون نحو جِبال رَامَهُرْمُز ، يريدون قلعة حصينة ، وجاءنا أهلُ البلد ، فأخبرونا بذلك ، فخرجنا فى آثارهم فلحقناهم ، وقد دنَوْا من الجبل ، فصففنا لهم ، ثم أقبلنا نحوهم ، فجعل مَعْقِل على ميمنته يزيد بن المعقل الأزدىّ ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبىّ ، ووقف

(١) انظر الحاشية ١ ص ١٣١ من هذا الجزء .

الخِرّيت بن راشد الناجى بمن معه من العَرب ، فكانوا ميمنة ، وجعل أهلَ البلد والعلُوجَ (١) ومَنْ أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة .

قال : وسار فينا مَعْقِل يحرّضنا ، ويقول: ياعباد الله ، لاتبدءوا القوم،وغُضُّوا الأبصار ، وأقلّوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضَّرْب ، وأبشروا فى قتالهم بالأجر العظيم ؛ إنما تقاتلون مارقةً مَرَقَتْ ، وعَلُوجا (١) منعوا الخراج ، ولصوصا وأكراداً ، فما تنتظرون ! فإذا حملتُ فشدّوا شِدّة رجل واحد .

قال : فمرّ فى الصفّ يكلّمهم ، يقول هذه المقالة ؛ حتى إذا مَرّ بالناس كلِّهم أقبل فوقف وسط الصفّ فى القَلْب ، ونظرنا إليه مايصنع ، فحرّك رأسه تحريكتين ، ثم حَمَل فى الثالثة ، وحَمَلْنا معه جميعا ؛ فوالله ماصَبَرُوا لنا ساعة حتى ولّوا وانهزموا ، وقتلنا سبعين عَرَبيًّا من بنى ناجية ، ومن بعضِ من اتّبعه من العرب ، ونحو ثلثمائة من العلُوج والأكراد .

قال كعب : ونظرتُ ؛ فإذا صديقى مدرك بن الرّيان قتيلا ، وخرج الخِرّيت منهزما ، حتى لحق بِسِيف (٢) من أسْياف البحر ، وبها جماعةٌ من قومه كثير ، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف علىّ عليه السلام ، ويزّين لهم فِراقه ، ويخبرهم أن الهُدَى فى حربه ومخالفته ؛ حتى اتّبعه منهم ناس كثير .

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفَتْح ، وكنتُ أنا الذى قَدِم بالكتاب عليه ، وكان فى الكتاب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ، من مَعْقل بن قيس . سلام عليك ؛ فإنّى أَحْمَد إليك الله الذى لا إله إلّا هو . أما بعدُ ؛ فإنّا لقِينا المارقين ، وقد استظهروا علينا بالمشركين ،

---

(١) العلوج : كفار العجم ؛ واحده علج .
(٢) السيف ، بالكسر : ساحل البحر .

فقتلنا منهم ناساً كثيرا ، ولم نَعْدُ فيهم سيرتك ، فلم نقتلْ منهم مُدْبِرا ولا أسيرا ؛ ولم نُذَفِّفْ (١) منهم على جريح ، وقد نصرك الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فلما قدمتُ بالكتاب على عَلِىّ عليه السلام ، قرأه على أصحابه ، واستشارهم فى الرأى ، فاجتمع رأىُ عامتهم على قول واحد . قالوا : نرى أنْ تكتُبَ إلى معقل بن قيس ؛ يَتْبع آثارهم ، ولا يزال فى طلبهم حتى يقتلَهم أو ينفيَهم من أرض الإسلام ؛ فإنا لا نأمن أن يُفْسِدوا عليك الناس .

قال : فردّنى إليه ، وكتب معى :

أما بعد ؛ فالحمدُ لله على تأييده أولياءه ، وخَذْله أعداءه ، جزاكَ الله والمسلمين خيرا ؛ فقد أحسنتم البلاء ، وقضيْتم ما عليكم ،فاسأل عن أخى بنى ناجية ، فإنْ بَلَغَك أنه استقر فى بلد من البلدان ، فسِرْ إليه حتى تقتله ، أو تنفيَه ، فإنه لم يزل للمسلمين عدوا ، وللفاسقين وليا ، والسلام .

قال : فسأل مَعْقل عن مسيره والمكان الذى انتهى إليه ، فنُبِّئ بمكانه بسِيف البحر بفارس ، وأنّه قد ردّ قومه عن طاعة علىّ عليه السلام ، وأفسد مَنْ قِبَله من عبد القيس ، ومَنْ والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صِفّين ، ومنعوها فى ذلك العام أيضا ، فسار إليهم معقِل بن قيس فى ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة ، فأخذوا على أرض فارس ، حتى انتهوْا إلى أسياف البحر ؛ فلما سمع الخِرّيتُ بن راشد بمسيره ، أقبل عَلَى من كان معه من أصحابه ، مِمّن يرى رأىَ الخوارج ، فأسَرّ إليهم : أنّى أرى رأيَكم ، وأنّ عليّا ما كان ينبغى له أن يُحَكِّم الرجال فى دين الله ، وقال لمن يرى رأىَ عثمان وأصحابه : إنّا على رأيكم ، وإنّ عثمان قُتِل مظلوما معقولا ؛ وقال لمن منع الصَّدَقة :

---

(١) ذفف على الجريح : أجهز عليه .

شُدّوا أيديَكم على صدقاتكم ، ثم صِلُوا بها أرحامكم ، وعودوا إن شئتم عَلَى فقرائكم ؛ فأرضى كلَّ طائفة بضرب من القول ؛ وكان فيهم نصارى كثير ، وقد كانوا أسلموا ؛ فلما رأوْا ذلك الاختلاف ، قالوا : والله لَدِيننا الذى خرجنا منه خيرٌ وأهْدَى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينُهم عن سفك الدماء ، و إخافة السُّبل ، فرجعوا إلى دينهم .

فلقى الخرِّيت أولئك ، فقال: وَيْحكم! إنّه لا يُنْجِيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ، ولقتالهم ، أتدرون ما حُكْم علىّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ! لا والله لا يسمعُ له قولا ، ولا يرَى له عذرا ، ولا يَقبل منه توبة ، ولا يدعوه إليها ؛ و إنّ حكمه فيه أن يُضْرَب عنقه ساعة يَسْتمْكِن منه ؛ فما زال حتى خَدَعهم ، وجاءهم مَنْ كان من بنى ناجية فى تلك الناحية ومن غيرهم ؛ فاجتمع إليه ناس كثير وكان مُنْكَرا داهياً .

قال : فلما رجع مَعْقِل ، قرأ عَلَى أصحابه كتابا من علىّ عليه السلام فيه :

مِن عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى مَن قُرِئَ عليه كتابى هذا ؛ مِنَ المسلمين والمؤمنين ، والمارقين والنصارى والمرتدين . سلامٌ عَلَى من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه ، والبعث بعد الموت وافيا بعهد الله ؛ ولم يكن مِن الخائنين ؛ أما بعدُ فإنّى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ؛ وأنْ أعملَ فيكم بالحقّ وبما أمر الله تعالى فى كتابه ، فَمَنْ رجع منكم إلى رَحْله ، وكفّ يده ، واعتزل هذا المارق[1] الهالك المحارب ؛ الذى حاربَ اللهَ ورسولَه والمسلمين ، وسعى فى الأرض فسادا ، فله الأمان عَلَى ماله ودمِه . وَمَن تابعه عَلَى حربنا ، والخروج مِن طاعتِنا ، استعنّا بالله عليه ، وجعلناه بيننا و بينه ، وكفى بالله وليا ، والسلام .

* * *

قال : فأخرج معقل رايةَ أمانٍ فنصبها ، وقال : مَنْ أتاها مِنَ الناس فهو آمن إلا الخِرِّيت وأصحابُه الذين نابذوا أوّل مرة ، فتفرق عن الخِرِّيت كلُّ من كان معه مِن غير قومه ، وعَبّأ معقل بن قيس أصحابه ، ثم زحَف بهم نحوه ، وقد حضَر مع الخِرّيت جميع

(١) ا : « الفاسق » .

قومه ! مسلمهم ونَصرانيّهم ؛ ومانعى الصدقة منهم ، فجعل مسلميهم يَمْنة ،والنصارى ومانعى الصدقة يَسْرة ، وجعل يقول لقومه : امنعُوا اليوم حريمَكم ، وقاتلوا عن نسائكم وأولادِكم، والله لئن ظهروا عليكم ليقتلنّكم ولَيَسْلُبنّكم .

فقال له رجل من قومه : هذا والله ما جرّتْهُ علينا يدُك ولسانُك ، فقال لهم : قاتلوا ، فقد سبقَ السيفُ العذَل .

قال : وسار معقِل بن قيس يحرّض أصحابَه فيما بين الميمنة والميسرة ، ويقول : أيّها الناس ، ما تدرون ما سِيق إليكم فى هـذا الموقف من الأجر العظيم ! إنّ الله ساقكم إلى قوم مَنَعُوا الصدقة ، وارتدّوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا ، إنّى شهيد لمن قُتِل منكم بالجنة ، ومن عاش بإن الله يقِرّ عينه بالفتح والغنيمة ؛ ففعل ذلك حتى مرّ بالناس أجمعين ، ثم وقف فى القَلْب برايته ، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزدىّ ، وهو فى الميمنة ؛ أن أَحمِلْ عليهم ، فحمل ، فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفَه الذى كان فيه من الميمنة ، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبىّ ، وهو فى الميسرة : أن احمِل عليهم ؛ فحمل فثبتوا له ، فقاتل طويلا وقاتلوه ، ثم رجع حتى وقف موقفه الذى كان فى الميسرة ، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته : إذا حملتُ فاحملوا جميعا ؛ ثم أجرى فرسَه وضربها ، وحمل أصحابه ، فصبروا لهم ساعة .

ثم إنّ النعمان بن صهبان الراسبىّ بَصُر بالخِرّيت ، فحمل عليه ، فصرَعه عن فرسه ، ثم نزل إليه وقد جرَحه ، فاختلفا بينهما ضربتين ، فقتله النعمان وقُتِل معه فى المعركة سبعون ومائة ، وذهب الباقون فى الأرض يمينا وشمالا ، وبعث معقِل الخيل إلى رحالهم ، فسبَى[1] من أدرك فيها رجالا ونساء وصبيانا ، ثم نظر فيهم ، فَمَنْ كان مسلما خلّاه وأخذ

---

(١) السبى : الأسر .

بيعتَه ، وخلَّى سبيل عيالِه ، ومَنْ كان ارتدّ عن الإسلام عَرَض عليه الرجوعَ إلى الإسلام وإلاّ القتل ؛ فأسلموا ، فخلّى سبيلَهم ، وسبيلَ عيالاتهم ؛ إلا شيخا منهم نصرانيا يقال له : الرملخس بن منصور ؛ فإنه قال : والله ما ظللتُ مصيبا مذ عَقلْت ؛ إلا فى خروجى من دينى ؛ دين الصدق ، إلى دينكم دين السوء ؛ لا والله لا أدع دينى ولا أقرَبُ دينكم ما حييت .

فقدّمه معقِل فضرب عنقه ، وجمع الناس : فقال : أدّوا ما عليكم فى هذه السنين من الصَّدَقة ، فأخذ من المسلمين عِقَالين ، وعَمَد إلى النصارى وعِيالاتهم فاحتملهم معه ، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم ؛ يشيّعونهم ، فأمر معقل بردّهم ؛ فلما ذهبوا لينصرفوا ، تصايَحُوا ودعا الرجال والنساء بعضَهم إلى بعض .

قال : فلقد رحمتُهم رحمة مارحمتُها أحداً قبْلهم ولا بعدهم ، وكتب معقل إلى على عليه السلام :

أما بعد ؛ فإنّى أخبر أميرَ المؤمنين عن جُنْده وعن عدوه ؛ إنّا دفعنا إلى عدونا بأسْياف البحر ، فوجدْنا بها قبائل ذات حَدّ وعدد ؛ وقد جمعوا لنا ، فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة ، وإلى حُكم الكتاب والسنة ؛ وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام ، ورفعنا لهم راية أمان ؛ فمالت إلينا طائفة منهم ، وثبتت طائفة أخرى ، فقبِلْنا أمر التى أقبلت ، وصَمَدْنا إلى التى أدبرتْ ، فضرب الله وجوههم ، ونَصَرَنا عليهم ؛ فأما مَنْ كان مسلما ؛ فإنّا مننا عليه ، وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين ، وأخذنا منهم الصدقة التى كانت عليهم ؛ وأمّا مَنْ ارتدّ فعرَضْنا عليهم الرجوع إلى الإسلام ؛ وإلا قتلناهم ؛ فرجعوا إلى الإسلام ؛ غيرَ رجل واحد فقتلناه ؛ وأمّا النصارى ؛ فإنّا سبيْناهم وأقبلنا بهم ؛ ليكونوا نَكالا لمن بعدهم من أهل الذِّمة ، كى لا يمنعوا الجزية ، ولا يجترئوا على قتال أهل القِبْلة ؛ وهم للصَّغار والذِّلة

أهلٌ. رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وعليك الصلاة والسلام ، وأوجب لك جنات النعيم ،والسلام :

* * *

قال : ثم أقبل بالأسارى حتى مرّ على مَصْقلة بن هُبيرة الشيبانىّ ، وهو عامل لعلى عليه السلام على أردَشير خُرّة [1] وهم خمسمائة إنسان ، فبكى إليــه النساء والصبيان ، وتصايح الرجال : يا أبا الفضل ، ياحامل الثَّقَل [2] ، يامأوَى الضعيف ، وفَـكاك العصاة ، امنن علينا فاشترِنا وأعتقْنا ؛ فقال مصقلة : أقْسِم بالله لأتصدقَنّ عليهم ؛ إن الله يجزى المتصدّقين . فبلغ قولُه معقلَ بن قيس ، فقال : والله لو أعلمه قالها توجُّعا لهم ، و إزراء علىّ لضربتُ عنقه ؛ و إن كان فى ذلك فَناء بنى تميم و بكر بن وائل .

ثم إن مصقلة بعث ذُهْل بن الحارث الذهلىّ إلى معقِل ، فقال : بِعْنى نصارى ناجية ، فقــال : أبيعكهم بألف ألف درهم ؛ فأبى عليه ، فلم يزلْ يُراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم ، ودفعَهم إليه ، وقال: عجِّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال مصقلة :أنا باعث الآن بصَدْر منه ، ثم أتبعك بصَدْرٍ آخر ، ثم كذلك حتى لا يَبْقى منه شىء . وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، فأخبره بما كان من الأمر ، فقال له : أَحسنْت وأصبت وَوُفِّقت . وانتظر علىّ عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال ، فأبطأ به ، و بلغ عليا عليه السلام أنّ مصقلة خلَّى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه فى فَـكاك أنفسهم بشىء ، فقــال : ماأرى مصقلة إلا قد حمل حمــالة ، ولا أراكم إلا سترونْه عَنْ قريب مُبَـلْدَحاً [3] ، ثم كتب إليه :

---

(١) أردشير خرة ، بالفتح ثم السكون وفتح الدال المهملة وكسر الشين المعجمة وياء ساكنة وراء ، وخاء معجمة مضمومة ، وراء مفتوحة مشددة وهاء: من كور فارس (مراصد الأطلاع).

(٢) الثقل . متاع الإنسان وحشمه .

(٣) المبلدح : الملقى على الأرض من الضرب .

أما بعد ؛ فإنّ من أعظم الخيانة خيانة [(١)] الأمة ، وأعظم الغِشّ على أهل المِصْر غِشّ الإمام ، وعندك من حَقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها إلىّ حين يأتيك رسولى ؛ و إلا فأقبلْ إلىّ حين تنظر فى كتابى ؛ فإنى قد تقدّمت إلى رسولى ألّا يدعَك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك ؛ إلا أن تبعث بالمال ، والسلام .

وكان الرسول أبو حُرّة الحنفىّ ، فقال له أبو حُرّة : إن تبعث بهذا المال و إلا فاشخَصْ معى إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البَصرة ، وكان العمال يحمِلون المال من كُور البصرة إلى ابن عباس؛ فيكونُ ابن عباس هو الذى يبعثُ به إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ثم أقبل من البَصْرة حتى أتى عليا عليه السلام بالكوفة ، فأقرّه أياما لم يذكر له شيئاً ، ثم سأله المال ، فأدّى إليه مائتى ألف درهم ، وعَجَز عن الباقى .

قال : فروى ابن أبى سيف ، عن أبى الصَّلت ، عن ذُهل بن الحارث ، قال : دعانى مَصْقَلة إلى رَحْله ، فقدَّم عشاء فطعمنا منه ، ثم قال : والله إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يسألُنى هذا المال ، ووالله ما أقدر عليه ، فقلت له : لو شئت لم يمضِ عليك جُمعة حتى تجمعَ هذا المال ، فقال : ما كنت لأحمّلها قومى ، ولا أطلب فيها إلى أحد .

ثم قال : والله لو أنّ ابن هند مُطالِبى بها ، أو ابن عفّان ،لتركها لى ؛ ألم تر إلى عثمان كيف أعطَى الأشعثَ مائة ألف درهم من خراج أذْرَبيجان فى كل سنة ! فقلت : إنّ هذا لا يَرى ذلك الرأى ، وما هو بتاركٍ لك شيئا . فسكتُّ ساعة ، وسكت عنه ؛ فما مكث ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية .

فبلغ ذلك عليا عليه السلام فقال : ماله ترحَهُ الله ! فعل فِعْل السَّيّد وفرّ فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ؛ أما إنه لو أقام فعجز مازدنا على حَبْسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه ،

(١) كلمة « خيانة » ساقطة من ا ، ب ؛ ثابتة فى ج والطبرى .

و إن لم نجد له مالًا تركناه . ثم سار علىٌّ عليه السلام إلى داره فهدمها .

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيبانىّ شيعةً لعلى عليه السلام ، مناصحاً، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تَغْلِب ، يقال له حُلْوان .

أما بعدُ ؛ فإنى كلمتُ معاوية فيكِ ، فوعدَكَ الكرامة ، ومَنّاكَ الإمارة ، فأقبِل ساعة تلقى رسولى ، والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبىّ فسرح به إلى على عليه السلام ، فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده ، فمات وكتب نعيم إلى مصقلة شعرا لم يرده عليه [١] .

لاترمينّ هَـداكَ الله معترِضا ... بالظنّ منك فما بالى وحُلْوانا

ذاكَ الحريصُ على مانالَ من طَمَعٍ ... وَهْوَ البعيدُ فَلاَ يُورِثْك أحزانا [٢]

مَاذَا أرَدْتَ إلى إرسالِهِ سَفَهـاً ... تَرْجُو سِقَاط امرئٍ لم يُلْفَ وَسْنَانَا

عَرَّضْتَه لِعَلِيّ إنه أسَدٌ ... يَمْشِى الْعِرَضْنَةَ مِنْ آسادِ خَفَّانا [٣]

قَدْ كُنتَ فى خَيْرِ مُصطافٍ وَمُرْتبَعٍ ... تَحْمِى العِرَاقَ وَتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانا [٤]

حَتَّى تَقَحَّمْتَ أمراً كُنْتَ تكرهُهُ ... لِلرَّاكِبِينَ لَهُ سِرًّا وَإِعْلاَنَا

لَوْ كُنْت أدّيْتَ مال الله مصطبِرا ... للحقّ زَكَّيت أحيـانا ومَوْتانا [٥]

لَـكِنْ لحِقْتَ بأهْلِ الشّـام ملتَمِساً ... فَضْلَ ابن هندٍ فَذَاكَ الرأىُ أشْجَانَا

فَاليَوْمَ تقرَعُ سِنّ العَجْزِ من ندمٍ [٦] ... مَاذَا تقولُ وقَدْ كَانَ الذى كانا !

أصْبَحْتَ تُبْغِضُكَ الأحياء قاطبـةً ... لم يَرْفَعِ اللهُ بالعِصْيان إنسانا [٧]

---

(١) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٦ : ٧٦ .

(٢) الطبرى : « فلا يحزنك إذ خانا » .

(٣) العرضنة : البغى فى المشى من النشاط . وخفان : مأسدة قرب الكوفة .

(٤) الطبرى : « قد كنت فى منظر عن ذا ومستمع » .

(٥) رواية الطبرى :

لَوْ كُنْتَ أدّيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُصْطَبِراً ... لِلْحَقِّ أحْيَيْتَ أحْيَانَا وَمَوْتَانَا

(٦) الطبرى : « سن الغرم » .

(٧) الطبرى : « بالبغضاء إنسانا » .

فلما بلغ الكتاب إليه علم أنّ النصرانىّ قد هلك ، ولم يلبَث التغلِبيّون إلا قليلا حتى بلَغهم هلاكُ صاحبهم ، فأتوا مَصقَلة ، فقالوا : أنت أهلكت صاحبنا ؛ فإمّا أن تجيئنا به ، وإما أن تَدِيَهُ ، فقال : أمّا أنْ أجِيء به ، فلست أستطيع ذلك ؛ وأمّا أنْ أدِيَه فنعم ، فوَداه .

* * *

قال إبراهيم : وحدثنى بن أبى سيف ، عن عبد الرحمن بن جندَب ، عن أبيه ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام حين هرب مَصْقَلة : اردد الذين سُبُوا ولم تستوف أثمانَهم فى الرّقّ ، فقال : ليس ذلك فى القضاء بحق ؛ قد عَتَقوا إذ أعتقهم الذى اشتراهم ، وصار مالى دينا على الذى اشتراهم .

* * *

وروى إبراهيم أيضا ، عن إبراهيم بن ميمون ، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التّمار ، عن عمار الدُّهنى ، قال : لما هرب مصقلة قال أصحابُ على عليه السلام له : ياأميرَ المؤمنين فَيئنَا ! قال : إنه قد صار على غَرِيم من الغرماء ، فاطلبوه .

وقال ظبيان بن عُمارة ، أحد بنى سعد بن زيد مناة فى بنى ناجية شعرا :

هَلّا صَبَرْتَ للقِرَاعِ ناجياَ ... والمرْهَفَاتِ تَختَلِى الهَوادِيا [1]

والطَّعْنُ فى نُحورِكم تَوَاليا ... وصائباتُ الأسهم القواضيا

وقال ظبيان أيضا :

ألا فاصبرُوا للطعن والضَّرْب ناجيا ... وللمرهفات يختلين الهواديا

فَقَدْ صَبّ ربُّ الناس خِزْياً عَلَيْكُمُ ... وَصَيَّرَكُمْ مِنْ بَعْدِ عِزٍّ مَوالِيا

---

(١) تختلى : تجز ، والهوادى هنا : الأعناق .

سَمَالَكُمُ بالخَيْلِ جُرْداً عَوالِياً ... أخو ثقـة لا يبرح الدهـرَ غازيا
فصبّحكمْ فى رَحْلِكم وخُيولكم ... بِضَرْبٍ يُرى منه المدَّجَّجُ هاويا
فَأَصْبَحتمُ من بعـد عِزٍّ وكثرةٍ ... عبيدَ العصا لا تمنعون الذَّراريا

* * *

قال إبراهيم بن هلال : وروى عبد الرحمن بن حبيب ، عن أبيه، أنه لمّا بلغ عليا عليه السلام مصابُ بنى ناجية ، وقتلُ صاحبهم ، قال : هوتْ أمه ! ما كان أنقصَ عقله واجرأه ! إنه جاءنى مرة فقال : إنّ فى أصحابك رجالًا قد خشيت أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت إنى لا آخذُ على التّهمة ، ولا أعاقِب على الظّن ، ولا أقاتل إلّا مَنْ خالفنى وناصَبَنى، وأظهر العداوة لى : ثم لست مقاتلَه حتى أدعوه ، وأعذر إليه ؛ فإن تاب ورجع قبِلنا منه ، وإن أبى إلا الاعتزامَ على حربنا استعنّا بالله عليه ، وناجزناه . فكفّ عنى ماشاء الله ، ثم جاءنى مرة أخرى ، فقال لى : إنّى قد خَشِيتُ أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائىّ ، إنى سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلَهما أو توثِقهما ، فلا يزالان بمحبسك أبدا . فقلت له : إنّى مستشيرُك فيهما ، فماذا تأمرنى به ؟ قال : إنى آمرك أن تدعوَ بهما فتضرب رقابَهما ، فعلمت أنّه لاورعَ له ولا عقل . فقلت له : والله ماأظنّ لك ورعا ولا عقلا ، لقد كان ينبغى لك أنْ تعلم أنى لاأقتل مَنْ لم يقاتلنى ، ولم يظهر لى عداوته للذى كنت أعلمتُكَه من رأيى ، حيث جئتنى فى المرة الأولى ؛ ولقد كان ينبغى لك — لو أردتُ قتلهم — أن تقول لى : اتق الله ! بم تستحلّ قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينابذوك ولم يخرجوا من طاعتك !

* * *

فأمّا مايقوله الفقهاء فى مثل هذا السَّبْى ، فقبْل أن نذكر ذلك نقول : إنّ الروايةَ قد

اختلفت فى المرتدّين من بنى ناجية ، فالرواية الأولى التى رواها محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن نصر بن مزاحم ، تتضمّن أنّ الأمير الذى من قِبَل على عليه السلام قتل مقاتلة المرتدين منهم بعد امتناعهم من العوْد إلى الإسلام ، وسَبَى ذراريّهم ، فقدم بها على على عليه السلام ؛ فعلى هذه الرواية يكون الذين اشتراهم مَصْقَلة ذراريّ أهل الرِّدّة .

والرواية الثانية التى رواها محمد بن عبد الله ، عن ابن أبى سيف ، تتضمّن أن معقل بن قيس ، الأمير من قِبَل على عليه السلام لم يقتل من المرتدين من بنى ناجية إلا رجلا واحدا ، وأمّا الباقون فرجعوا إلى الإسلام ، والاسترقاقُ إنما كان للنصارى الذين ساعدوا فى الحرب وَشَهروا السيف على جيش الإمام ؛ وليسوا مرتدين ؛ بل نصارى فى الأصل ، وهم الذين اشتراهم مَصْقلة .

فإن كانت الرواية الأولى هى الصحيحة ففيها إشكال ؛ لأنّ المرتدين لا يجوز عند الفقهاء استرقاقُهم ، ولا أعرف خلافا فى هذه المسألة ، ولا أظنّ الامامية أيضا تخالف فيها ؛ وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أنّ المرأة المرتدّة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقُها وسائر الفقهاء على خلافه ؛ ولم يختلفوا فى أنّ الذكور البالغين من المرتدّين لا يجوز استرقاقُهم ، فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدّين من بنى ناجية على هذه الرواية ؛ على أنى أرى أنّ الرواية المذكورة لم يصرّح فيها باسترقاقهم ، ولا بأنهم بيعوا على مَصْقلة ، لأن لفظ الراوى : « فأبوا ، فقتَل مقاتلتهم وسبى ذراريّهم فقدم بهم على على عليه السلام »؛ وليس فى الرواية ذكر استرقاقهم ولا بَيْعهم على مصقلة ؛ بل فيها ماينافى بَيْعهم على مصقلة ، وهو قوله « فقدم بهم على على عليه السلام » فإنّ مصقلة ابتاعَ السَّبْى من الطريق فى أَرْدَشِير خُرّه قبل قُدومه على علىّ عليه السلام ؛ ولفظ الخبر : « فقدِم بهم على علىّ عليه السلام » .

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال : إذ كان قد قدم بهم على على عليه

السلام ، فمصقلة من اشترى ، ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوما فى الجملة ، فإن الخبر بذلك مشهور جدا يكاد يكون متواترا .

فإن قيل : فما قولكم فيما إذا ارتدّ البالغون من الرجال والنساء ، ثم أولدوا ذرّية صغارا بعد الردة ؛ هل يجوز استرقاق الأولاد ؟ فإن كان يجوز ، فهلّا حملتم الخبر عليه !

قيل : إذا ارتدّ الزوجان فحملتْ منه فى حال الردّة وأتت بولد كان محكوماً بكفره ؛ لأنه ولد بين كافرين .

وهل يجوز استرقاقه ؟ فيه للشافعى قولان ؛ وأما أبو حنيفة فقال : إنْ ولد فى دار الإسلام لم يجز استرقاقه ، وإن وُلِد فى دار الحرب جاز استرقاقُه فإن كان استرقاقُ هؤلاء الذرية موافقا لأحد قولِي الشافعى ، فلعلّه ذاك .

وأما الرواية الثانية ، فإن كانت هى الصحيحة ؛ وهو الأوْلى فالفقه فى المسألة أن الذمّى إذا حارب المسلمين ، فقد نقضَ عهده ، فصار كالمشركين الذين فى دار الحرب ، فإذا ظَفِر به الإمام جازَا استرقاقُه وبيعُه ؛ وكذلك إذا امتنع من أداء الجِزْية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام .

واختلف الفقهاء فى أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم ، ويجوز استرقاقهم أم لا ؛ وهى أن يزنىَ الذمّى بمسلمة ، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه ، أو يقطع الطريق على المسلمين ، أو يؤدى للكفار عينا ، أو يدلّ على عورات المسلمين ، أو يقتل مسلما .

فأصحاب الشافعىّ يقولون : إن شرط عليهم فى عَقْد الذِّمة الكفَّ عن ذلك ، فهل ينقض عهدهم بفعله ؟ فيه وجهان . وإن لم يشترط ذلك فى عقد الذمّة ، لم ينتقض عهدهم بذلك .

وقال الطحاوى من أصحاب أبى حنيفة : ينتقض عهدهم بذلك ، سواء شورطوا عن

السكفَّ عنه فى عقد الذِّمة ، أو لم يشارطوا عليه .

فنصارى بنى ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدُهم بحرب المسلمين ، فأبيحت دماؤهم ، وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين فى دار الحرب ؛ وأما استرقاق أبى بكر بن أبى قُحافة لأهل الرِّدة وسَبْيُه ذراريّهم ؛ فإن صح كان مخالفا لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدين ، إلا أن يقولوا إنه لم يَسْبِ المرتدين ، وإنما سَبَى مَنْ ساعدهم وأعانهم فى الحرب من المشركين الأصليين .

وفى هذا الموضع نظر .

(٤٥)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْـلُ :

اَلْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ ، وَلَا مُسْتَنْـكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ . الذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ .

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا اَلْفَنَاءُ ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا اَلْجَلَاءُ ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ ، وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ اَلنَّاظِرِ ؛ فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِـكُمْ مِنَ اَلزَّادِ ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ اَلْـكَفَافِ ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ اَلْبَلَاغِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

مُنِيَ لها الفناء ، أى قُدِّر . والجلاء ، بفتح الجيم : الخروج عن الوطن ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴾[1] .

وحلوة خضرة : مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليـه وآله : « إنّ الدنيا حُلْوة خضرة ، وإنّ الله مستخلِفُـكم فيها فناظر كيف تعملون » .

والـكفاف من الرزق : قَدْر القُوت ؛ وهو ما كَفّ عن الناس ؛ أى أغنى .

والبلاغ والبُلْغة من العيش : ما يُتَبَلَّغُ به .

* * *

(١) سورة الحشر ٣ .

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمِلُ على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أحدُهما حَمْد الله والثناء عليه إلى قوله : « ولا تُفْقَدُ له نِعْمة » ،والفصل الثانى ذكر الدنيا إلى آخر الكلام . وأحدُهما غيرُ مختلط بالآخر ولا مَنْسُوقٍ عليه ؛ ولكنّ الرضىّ رحمه الله تعالى يلتقط كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام التقاطا ، ولا يقفُ مع الكلام المتوالى ؛ لأنّ غرضَه ذكرُ فصاحتِه عليه السلام لا غير ، ولو أتى بخُطَبِه كلِّها على وجهها لكانت أضعافَ كتابه الذى جَمَعه .

[فصل بلاغىّ فى الموازنة والسجع]

فأما الفصل الأول ، فمشتمل من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة ، وذلك «غير مقنوط » فإنه وازنه فى الفقرة الثانية بقوله: « ولا مخلوّ » .ألا ترى أنّ كلّ واحدة منهما على وزن « مفعول » ، ثم قال فى الفقرة الثالثة : « ولا مأيُوس » ، فجاء بها على وزن « مفعول » أيضا ؛ولم يمكنْه فى الفقرة الرابعة ما أمكنه فى الأولى ، فقال : «ولا مستنكَف» فجاء به على وزن « مستفعل » ؛ وهو وإن كان خارجاً عن الوزن ؛ فإنه غيرُ خارج عن المفعولية ؛ لأن « مستفعل » « مفعول » فى الحقيقة ، كقولك : زيد مستحسَن ؛ ألا ترى أنّ « مستحسنا » من استحسنه ، فهو أيضا غير خارج عن المفعولية .

ثم وازن عليه السلام بين قوله : « لا تبرح » وقوله : « لا تفقد » ، و بين « رحمة » و « نعمة » ؛ فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطّلاوة والصنعة ما لا تجدُه عليه لو قال : « الحمد لله غير مخلوّ من نعمته ، ولا مبعَد من رحمته » لأنّ « مبعد » بوزن « مفعل » ، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول ، بل هو بناء آخر .

وكذلك لو قال : « لا تزول منه رحمة » ؛ فإنّ « تزول » ليست فى المماثلة والموازنة

لـ « تفقد » كـ « تبرح » ألا ترى أنها معتلة ؛ وتلك صحيحة ! وكذلك لو قال : « لا تبرح منه رحمة ولا يفقد له إنعام » فإن « إنعاما » ليس فى وزن « رحمة » ، والموازنة مطلوبة فى الـكلام الذى يقصد فيه الفصاحة ، لأجل الاعتدال الذى هو مطلوب الطبع فى جميع الأشياء . والموازنة أعمّ من السّجع ، لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردها على حرف واحد ؛ نحو القريب ، والغريب ، والنسيب ؛ وما أشبه ذلك . وأما الموازنة فنحو القريب ، والشديد ، والجليل ؛ وما كان هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحـدا ، وكلّ سجع موازنة ، وليس كل موازنة سجعا ؛ ومثال الموازنة فى الـكتاب العزيز : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْـكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [1] ؛ وقوله تعالى : ﴿ لِيَـكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَيَـكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ ، ثم قال : ﴿ نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [2] فهذه الموازنة .

ومما جاء من المثال فى الشعر قوله :

بأشدّهم بَأْساً عَلَى أعْـــدَائِهِمْ   وَأَعَزِّهِم فَقْداً عَلَى الْأَصْحَابِ

فقوله : « وأعزهم » بإزاء « أشدهم » ، وقوله : « فقدا » بإزاء « بأسا » .

والموازنة كثيرة فى الـكلام وهى فى كتاب الله تعالى أكثر .

[نبذ من كلام الحـكماء فى مدح القناعة وذم الطمع]

فأما الفصلُ الثانى فيشتمل على التحذير من الدنيا ، وعلى الأمر بالقناعة ، والرضا بالـكفاف ؛ فأما التحذيرُ من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا ؛ وأما القناعة فقد وَرَد فيها شىء كثير .

---

(١) سورة الصافات ١١٧ ، ١١٨.

(٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأخوين من الأنصار: « لا تَيْأسا من رَوْح الله ما تَهَزْهَزَتْ رُءوسكما ، فإنّ أحدكم يولد لا قِشْر عليه ، ثم يكسوه الله و يرزقه » .

وعنه صلى الله عليه وسلم - ويُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لا ينفَد » .

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم « كفى بالقناعةِ عزّا ؛ و بطيب النفس نعيما » .

ومن كلام عيسى عليه السلام : اتخِذُوا البيوت منازلَ ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بَقْل البرية ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام . لعمرى انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم ، أفتخافون الضَّيْعة إذا انقطعتم إليه !

وفى بعض الكتب الإلٰهية القديمة : يقول الله تعالى : يابنَ آدم ، أتخاف أن أقتلك بطاعتى هَزْلا ، وأنت تتفتق بمعصيتى سِمَناً !

قال أبو وائل : ذهبتُ أنا وصاحب لى إلى سَلمان الفارسى ، فجلسنا عنده ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز ومِلْح ساذج لا أبزار عليه ، فقال صاحبي: لو كان لنا فى مِلْحنا هذا سَعْتر[1] ! فبعث سلمان بمِطْهَرته، فرهنها على سعتر ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذى قنّعنا بما رزقَنا ، فقال سلمان : لو قنعْتَ بما رزقك لم تكن مِطْهرتى مرهونة .

عباد بن منصور ، لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفقهُ من عَمْرو بن عُبَيد وأفصح ؛ ولكنه كان أصبرَهم عن الدينار والدرهم ، فسادَ أهلَ البَصْرة .

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد: لم لا تأخذ مِنّى ؟ فقال : لا يأخذُ أحدٌ من أحدٍ إلّا ذلّ له ؛ وأنا أكره أن أذِلّ لغير الله .

---

(١) السعتر : نبات طيب الرائحة حريف زهره ابيض إلى الغبرة .

كان معاشُ عمرو بن عُبَيد من دار وَرِثَها ؛ كان يأخـذ أجرتَها فى كلّ شهر دينارا واحدا فيتبلَّغ به .

الخليل بن أحمد ، كان الناس يكتسبُون الرّغائب بعلْمِه ، وهو بين أخصاص البَصْرة ، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلُبها .

وهب بنُ منبّه : أرْمَلْتُ مرّة حتى كدت أقنَط ؛ فأتانى آتٍ فى المنام ومعه شبه لوزة، فقال : افضُضْ ، ففضضتُها ؛ فإذا حر يرة فيها ثلاثة أسطر : لا ينبغى لمن عَقَل عن الله أمرهِ ، وعرف لله عدله ، أن يستبطئْ الله فى رزقه ؛ فقنعت وصَبَرت ، ثم أعطانى الله فأ كثر .

قيل للحسن عليه السلام : إنّ أبا ذرّ كان يقول : الفقرُ أحبّ إلىّ من الغنى ، والسَّقَم أحبّ إلىّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذرّ ، أما أنا فأقول : من اتَّـكل إلى حُسْنِ الاختيار من الله لم يتمنّ أنه فى غـير الحال التى اختارها الله له ؛ لعمرى يابنَ آدم ، الطير لا تأ كل رَغَداً ، ولا تخبأ لغد ؛ وأنت تأ كل رغدا ، وتخبأ لغدٍ ؛ فالطيرُ أحسنُ ظنا منك بالله عزّ وجلّ .

حَبَس عمر بن عبد العزيز الغَدَاء عن مَسْلَمة ، حتى برّح به الُجوع ، ثم دعا بسَوِيق فسقاه ، فلما فَرَغ منه لم يقدِرْ على الأ كل ، فقال : يا مسلَمة ، إذا كفاك من الدّنيا ما رأيت ، فعلامَ التهافت فى النار !

عبد الواحد بن زيد : ما أحسِب شيئا من الأعمال يتقدَّم الصبر إلا الرضا والقناعة ، ولا أعلم درجةً أرفع من الرضا ؛ وهو رأس المحبة .

قال ابن شُبْرُمة فى محمد بن واسع : لو أنّ إنساناً اكتفى بالتراب لا كتفى به .

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل لعبادِى المتسخِّطين لرزقى، إياكم أنْ أغْضَب فأبْسُط عليكم الدنيا .

كان لبعض الملوك نديم ، فَسَكِر ، ففاتَتْه الصلاة ، فجاءت جارية له بجَمْرة نار ، فوضعتْها على رجله ، فانتبه مذعورا ، فقالت : إنك لم تصبر على نَار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة ، وقعد يبيع البقل ، فدخل عليه الفُضَيل وابن عُيَيْنَة ؛ فإذا تحت رأسه لبِنة ، وليس تحت جَنْبِه حصير ، فقالا له : إنا رَوَيْنَا أنّه لم يَدَعْ أحدٌ شيئا لله إلا عَوّضه خيرا منه ، فما عوّضك ؟ قال : القناعة والرضا بما أنا فيه .

أصابت داود الطائىّ ضائقة شديدة ، فجاء حماد بن أبى حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، فقال داود: هى لعَمْرِى من مال رجل ما أقدِّم عليه أحداً فى زهده وورعه وطيب كسبه ، ولو كنتُ قابلا من أحدٍ شيئا لقبلتها إعظاما للميت ، وإيجاباً للحىّ ، ولكنى أحبُّ أن أعيشَ فى عِزّ القناعة .

سفيان الثورى : ما أكلتُ طعام أحدٍ قَطّ إلا هُنْت عليه .

مِسْعر بن كِدَام : مَنْ صَبَر على الخلّ والبَقْل لم يُسْتَعْبَدْ .

فُضَيل : أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله ، ألا تراه كيف يصنع بعَبْدِه ، ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها تطعِمه مرّة خبيصا [١] ومرة صَبِراً ، تريد بذلك ماهو أصلح له .

المسيح عليه السلام : أنا الذى كببت الدنيا عَلَى وَجْهها ، وقدرتها بقدرها ، ليس لى ولد يموت ، ولا بيت يَخْرَب ، وِسادى الحجر ، وفراشى المَدَر ، وسراجى القَمَر .

أمير المؤمنين عليه السلام أكل تَمْرَ دَقَل [٢] ، ثم شرب عليه ماء ، ومسح بطنه ، وقال: من أدخلته بطنُه النار ، فأبعده الله ، ثم أنشد :

فإنّك إنْ أعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ وَفَرْجَكَ نَالا مُنْتَهَى الذَّمّ أجْمَعَا [٣]

---

(١) الخبيص : التمر المعمول من السمن والعسل .

(٢) الدقل : أردأ التمر

(٣) البيت لحاتم الطائى ، ديوانه ١٧ (طبع بيروت) .

فى الحديث الصحيح المرفوع : « إن رُوح القُدُس نَفَثَ فى رُوعى أنّه لن تموتَ نفس حتى تستكمل رزقَها ، فأجملوا فى الطَّلَب » .

من كلام الحكماء ، من ظفر بالقناعة فقد ظَفِر بالكيمياء الأعظم .

الحسن : الحريص الراغب ، والقانع الزاهد كلاهما مستوفٍ أجلَه ، مستكملٌ أكلَه ؛ غير مُزداد ولا منتقَصٍ مِمّا قُدِّر له ، فعلام التقحّم فى النار !

ابن مسعود ، رفعه: « إنّه ليس أحد بأكْيَس من أحد ؛ قد كُتِب النصيب والأجل ، وقُسِمَتْ المعيشة والعمل ؛ والناس يجرُون منهما إلى منتهى معلوم » .

المسيح عليه السلام : انظروا إلى طير السماء تغدُو وتروح ، ليس معها شىء من أرزاقها ، لا تحرُث ولا تحصُد ؛ والله يرزقها ، فإن زعمتم أنكم أوسعُ بطونا من الطير ؛ فهذه الوحوش من البقر والحُمُر ، لا تحرث ولا تحصد ؛ والله يرزقها .

سويد بن غفلة : كان إذا قيل له : قد وَلِى فلان ، يقول : حسبى كِسْرتى ومِلْحى .

وفد عروة [(١)] بن أذينة على هِشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلّته ، فقال له : ألست القائل :

لَقَدْ عَلِمْتُ وما الإسراف من خُلُقِى   أنّ الّذى هُوَ رِزْقِى سَوْفَ يأتِينى
أسعَى له فيعنّينى تَطَلُّبُه   ولو قَعَدتُ أتانى لا يُعنّينى

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق ! ثم اشتغل عنه ، فخرج وقعد على ناقته ونَصّها راجعا إلى الحجاز ، فذكره هشام فى الليل ، فسأل عنه فقيل : إنه رَجَع إلى الحجاز ، فتذمّر ونَدِم ، وقال : رجل قال حِكْمة ، ووفد علَىّ مستجديا ، فجبهته ،

---

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٥٦

وردَدتُه ! ثم وجّه إليه بألفى درهم ، فجاء الرسول وهو بالمدينة ، فدفَعها إليه ، فقال له : قل لأمير المؤمنين ، كيف رأيت ! سعيت فأ كْدَيْت ، وقعدت فى منزلى فأتانى رزقى .

عمر بن الخطـاب : تعلّم أنّ الطمع فَقر ؛ وأن اليـأس غِنى ، ومن ييْئس من شىء استغنى عنه .

أهدِى لرسول الله صلى الله عليه وآله طائران ، فأ كل أحدهما عشية ، فلما أصبح طلب غداء ، فأتته بعضُ أزواجه بالطائر الآخر ، فقال : «ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغدٍ ، فإنّ مَنْ خَلَق الغَدَ خلق رزقه» .

وفى الحديث المرفوع : «قد أفلَح مَنْ رُزِق كفافا وقنعه الله بما آتاه» .

من حكمة سليمان عليـه السلام : قد جَرّبنـا لِين العَيْش وشِدّته ، فوجدنا أهنأه أدناه .

وهب ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [1] قال : القناعة .

بعض حكماء الشعراء :

فَلاَ تَجْزَعْ إذَا أعْسَرْتَ يَوْماً فَقَدْ أيْسَرْتَ فى الدَّهْرِ الطَّوِيلِ

وَلَا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْء فإنّ الله أولى بالجميلِ

وإنَّ العُسْر يَتبَعُه يَسَارٌ وقِيلُ الله أصْدَقُ كلِّ قِيلِ

وَلَوْ أنَّ العقول تَجُرُّ رِزْقاً لَكَانَ المَالُ عِنْدَ ذَوِى العُقُولِ

عائشة ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنْ أردْتِ اللّحُوق بى فيكفيك من الدنيا زادُ الراكب ، ولا تُخْلِقى ثوبا حتى ترْقَعية ؛ وإياك ومجالسة الأغنياء» .

---

(١) سورة النحل ٩٧.

يقال : إنّ جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمفاتيح خَزائن الدنيا ، فقال : « لاحاجة لى فيها ، بل جَوْعتان وشَبْعة » .

وُجِد مكتوبا على صخرة عادِيّة [١] : يابنَ آدم ، لست ببالغ أَمَلَك ، ولا سابِقٍ أجلَك ، ولا مغلوبٍ على رزقك ، ولا مرزوقٍ ماليس لك ، فعلامَ تقتل نفسك !

الحسين بن الضحاك :

يَارَوْحُ مَنْ عَظُمَتْ قنَاعَتُه حَسَمَ المطامعَ مِنْ غَدٍ وَغَدِ
مَنْ لم يَكُنْ لِلّهِ مُتَّهِماً لَمْ يُمْسِ مُحْتاجاً إلى أَحَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : أتدرِى لم رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا ، قال : ليعلم العاقلُ أنّ طلبَ الرزق ليس بالاحتيال .

قَنَط [٢] يوسف بن يعقوب عليه السلام فى الجبّ لجوعٍ اعتراه ، فأوحى إليه : انظر إلى حائط البئر ، فنَظَر فانفرج الحائط عن ذَرّةٍ على صخرة ، معها طعامها ، فقيل له : أترانى لا أغْفُلُ عن هذه الذّرّة ، وأغفلُ عنك ، وأنت نبيّ ابن نبيّ !

دخل علىّ عليه السلام المسجِد ، وقال لرجل : أَمْسِكْ علىّ بغلتى ، فخلع لجامها ، وذهب به ، فخرج علىّ عليه السلام بعد ما قَضَى صلاتَه ، و بيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له ، فوجد البغلة عُطْلا ، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمَيْن ؛ ليشترىَ بهما لجاما ، فصادف الغلام اللجام المسروق فى السوق ؛ قد باعه الرجل بدرهمين ؛ فأخذه بالدّرهمين وعاد إلى مولاه ؛ فقال علىّ عليه السلام : « إنّ العبدَ ليحرِمُ نفسَه الرزق الحلال بترك الصبر ؛ ولا يزداد على ما قُدّرله » .

---

(١) عادية ، أى قديمة ؛ نسبة إلى قبيلة عاد البائدة .
(٢) قنط قنوطا ؛ أى يئس .

سليمان بن المهاجر البَجَلِيّ .

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجْهِي فَصَانَهُ ... بِهِ اللهُ عَنْ غِشْيَانِ كُلِّ بَخِيلِ

فَلَمْ يَتبذّلني البخيلُ ولم أقُمْ ... عَلَى بابِهِ يَوْماً مقام ذَلِيلِ

وإنّ قليلا يَستُر الوجهَ أن يُرَى ... إلى النّاس مبذولاً لغيرُ قليل

وقف بعض الملوك على سُقراط وهو فى المَشْرَفة ، فقال له : سَلْ حاجتَك ، قال : حاجتى أنْ تُزيل عَنِّى ظلَّك ، فقد منعتَنى الرِّفْق بالشمس ؛ فأحضرَ له ذهبا وكُسوة دِيباج ، فقال : إنّه لاحاجةَ لسقراط إلى حجارة الأرض ولُعاب الدود ؛ إنما حاجتُه إلى أمر يصحَبُه حيثما توجَّه .

صلّى معروف الكرخيّ خَلْف إمام ؛ فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً : من أين تأكل ؟ قال : اصْبِر علىّ حَتّى أعيدَ ماصليتُه خَلْفك ؛ قال : لأنّ مَنْ شَكّ فى الرزق شكّ فى الرازق ، قال الشاعر :

وَلَا تُهْلِكَنَّ النَّفْسَ وَجْداً وَحَسْرَةً ... عَلَى الشىء أَسْدَاهُ لغيرِك قادِرُهْ[1]

وَلَا تَيْأَسنْ من صالحٍ أن تَنَالَهُ ... وإنْ كانَ نَصًّا بَيْنَ أيدٍ تُبَادِرُهْ

فإنّك لا تُعطِى امرأً حَظَّ نَفْسِهِ ... ولا تمنع الشّقّ الذى الغيثُ ناصِرُه

قال عمر بن الخطاب لعلى بن أبى طالب عليه السلام : قد مللتُ الناسَ ، وأحببتُ أن ألحقَ بصاحبىّ ، فقال : إن سَرّكَ اللّحوق بهما فقَصِّر أملَك ، وكُلْ دون الشِّبَع ، واخصِف النّعْل[2] وكن كَمِيش[3] الإزار ، مرقوعَ القميص ، تلحق بهما .

---

(١) ا : « سداه لغيرك » ؛ أى أعطاه .

(٢) خصف النعل : خرزها بالمخصف .

(٣) يقال : كمش إزاره ؛ إذ قصره وشمره .

وقال بعض شعراء العجم :

غَلاَ السِّعْرُ فى بغدادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ وإنِّى فى الحالَيْن باللهِ واثِقُ

فلَسْتُ أخافُ الضِّيقَ واللهُ واسِعٌ غِنَـاهُ ، ولا الحِرْمانَ واللهُ رَازِقُ

قيل لعلى عليه السلام : لو سُدّ على رَجُلٍ باب بيت وتُرِكَ فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟ قال : مِنْ حيث كان يأتيه أجلُه .

قال بعض الشعراء :

صَبَرْتُ النفسَ لا أجْزَ ع من حادثةِ الدهر

رأيتُ الرّزق لا يُكْسَـ ـبُ بالعُرْفِ ولا النُّكْرِ

ولا بالسّلفِ الأمْثَـ ـلِ أهل الفَضْل والذِّكْرِ

وَلَا بالسُّمْرِ اللُّـ ـدْنِ ولا بالُخذَمِ البُـتْرِ [(١)]

وَلَا بِالْعَقْلِ والدِّينِ وَلَا الْجاهِ وَلَا الْقدْرِ

وَلَا يُدْرَكُ بالطَّيْشِ وَلَا الجَهْلِ وَلَا الهَذْرِ

وَلَـكِنْ قِسَمٌ تَجْرِى بِمَا نَدْرِى وَلَا نَدْرِى

جاء فتح بن شَخْرف إلى منزله بعد العِشاء ، فلم يجدْ عندهم ما يتعشّى به ، ولا وَجَدَ دُهْناً للسراج وهم فى الظلمة ، فجلس ليلهُ يبكى من الفرح ، ويقول : بأىّ يد قد كانت منّى ، بأىّ طاعةٍ تنعم علىّ بأن أترَكَ على مثل هذه الحال !

لقى هَرِم بن حَيّان أويسا القَرَنِىّ ، فقال : السلام عليك ياأويسَ بن عامر ! فقال : وعليك السّلام ياهَرِم بن حيان ، فقال هَرِم : أما إنّى عَرَفْتُك بالصِّفة ، فكيف عرفتَنى ؟ قال : إنّ أرواح المؤمنين لَتُشام كما تشام الخيل ، فيعرِف بعضُها بعضـا . قال : أوصِنى ،

(١) السمر : جمع أسمر ؛ وهو الرمح اللدن اللين . والخذم : جمع الخاذم ؛ أى القاطع .

قال : عليك بسِيف البحر ، قال : فمن أين المعاش ؟ قال : أفٍّ لك ! خالطت الشك الموعظة ، أتفر إلى الله بدينك وتتهمه فى رزقك !

منصور الفقيه :

المَوْتُ أسْهَلُ عِنْدِى بين القَنَا وَالْاسِنَهْ
والخيلُ تجرِى سِراعًا مقطَّعاتِ الأعنَّهْ
مِنْ أنْ يكون لِنَذْلٍ عَلَىَّ فَضْلٌ وَمِنَّهْ

أعرابى :

أتيأسُ أنْ يقارِنَكَ النَّجاحُ فأين اللهُ والْقَدَرُ المُتاحُ[1]

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصنى ، قال : « إيّاك والطمع ؛ فإنّه فقر حاضر ، وعليك باليأس ممّا فى أيدِ الناس » .

حكيم : أحسنُ الأحوال حال يَغبِطُكَ بهامَنْ دونك ، ولا يحقِرُك لها مَن فوقك .

أبو العلاء المعرىّ :

فإن كُنْتَ تَهْوَى العيش فابغِ توَسُّطًا فعندَ التناهى يَقصُر المتطاولُ
توقَّى البدورُ النَّقْصَ وَهْىَ أهلّةٌ ويُدْرِكها النُّقْصان ، وهْىَ كَوامِلُ

خالد بن صفوان : كن أحسنَ ما تكون فى الظاهر حالًا ، أقلّ ما تكون فى الباطن مآلا ؛ فإنّ الكريمَ مَنْ كَرُمت عند الحاجة خَلّته[2] ، واللئيم من لؤمت عند الفاقة طعمته .

---

(١) المتاح : المهيأ .
(٢) الخلة : الحاجة .

شعر :

وَكَمْ مَلِكٍ جانبتهُ مِنْ كَرَاهَةٍ   لإغلاقِ باب أو لِتَشْدِيد حاجِبِ
ولى فى غنَى نفسِى مَرَادٌ ومَذْهَبٌ   إذا أُبْهِمَتْ دُونى وُجُوهُ المذاهب (١)

بعض الحكماء : ينبغى للعاقل أن يكون فى دنياه كالمدعوّ إلى الوليمة، إن أتته صحفة تناولها، و إن جازته لم يرصدها ولم يطلبها .

(١) أبهم الأمر ؛ إذا اشتبه .

(٤٦)

ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام :

الأصل :

اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَر ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِى الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ . اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فى السَّفَر ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِى الْأَهْلِ ، وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً ، وَالْمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

وابتداء هذا الكلام مروىٌّ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله ، وقد قفَّاه أميرُ المؤمنينَ عليه السَّلامُ بأبلَغ كلامٍ ، وتمَّمَهُ بأحسن تمام ، من قوله : «ولا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ » ، إلى آخرِ الفصل .

* * *

الشرح :

وَعْثَاء السفَر : مشقّته ، وأصل الوَعْث المكان السّهْل الكثير الدّهس ، تغيبُ فيه الأقدام ، ويشقّ على مَنْ يمشى فيه . أوْعَثَ القوم ، أىْ وقعوا فى الوعْثْ . والكآبة : الحزن . والمنقلب ، مصدر ، من انقلب منقلَبا ، أى رَجَع ، وسوء المنظر قُبح المرأَى .

وصدر الكلام مروىّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى المسانيد الصحيحة ، وخَتَمه أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وتمّمه بقوله : « ولا يجمعهما غَيْرُكَ » ؛ وهو الصحيح ؛ لأنّ مَنْ يُسْتَصْحَبُ لا يكون مستخلَفًا ؛ فإنّه مستحيل أنْ يكونَ الشىء الواحد فى المكانين مقيما وسائرا ؛ وإنما تصِحّ هذه القضية فى الأجسام ؛ لأنّ الجسم الواحد لا يكون فى جهتين فى وقت واحد ؛ فأمّا ماليس بجسم وهوالبارئ سبحانه ؛ فإنّه فى كلّ مكان ؛ لا عَلَى معنى أنّ ذاتَه ليست مكانيّة ؛ وإنما المراد علمه وإحاطتُه ونفوذ حكمه وقضائه وقدره ؛ فقد صدق عليه السلام أنّه المستخلَف وأنه المستصحب ؛ وأنّ الأمرَيْن مجتمعان له جلّ اسمه .

وهذا الدعاء دَعَا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضْعِ رجله فى الركاب ، من منزله بالكوفة متوجّها إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه ؛ ذكره نَصْر بن مزاحم فى كتاب " صفين [١] " وذكره غيره أيضا من رواة السيرة .

[أدعية علىّ عند خروجه من الكوفة لحرب معاوية]

قال نصر : لما وَضَع علىّ عليه السلام رِجْله فى رِكاب دابّته يوم خرج من الكوفة إلى صِفّين ، قال : بسم الله ؛ فلمّا جلس على ظهرها ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ، [٢] اللّهم إنّى أعوذ بك من وَعْثاء السفر... إلى آخر الفصل . وزاد فيه نصر : « ومِنَ الْحَيْرَةِ بعد اليقين » . قال : ثم خرج أمامه الحرّ ابن سهم بن طَرِيف ، وهو يرتجز ويقول :

يافَرَسِى سِيرِى وَأُمِّى الشَّامَا ... وَقَطِّعى الْحُزُونَ والأَعْلَامَا [٣]

وَنَابِذِى مَنْ خَالَفَ الإمَامَا ... إنى لأرْجُو إنْ لَقِينَا الْعَامَا

(١) كتاب صفين ١٤٩ .

(٢) سورة الزخرف ١٣ ، ١٤ .

(٣) صفين : « وأقطعى » ، والحزون : جمع حزن ، وهو ضد السهل من الأرض .

جَمْعَ بنِي أميةَ الطَّغَامَا[1] أن نقتل العاصِيَ والهُمَاما

* وَأنْ نُزِيلَ مِنْ رِجَالٍ هَامَا *

قال : وقال حبيبُ بن مالك ، وهو على شُرْطَة علىّ عليه السلام ، وهو آخذٌ بعِنَان دابّته : ياأمير المؤمنين ، أتخرجُ بالمسلِمِينَ فيُصيبوا أجْرَ الجهاد بالقتال ، وتخلِّفنى بالكوفة لِحَشْرِ الرجال ! فقال عليه السلام : إنّهم لَنْ يُصيبوا من الأجر شيئا إلا كنتَ شريكَهم فيه ؛ وأنت هَاهُنا أعظم غَناء عنهم منك لو كُنْتَ معهم . فخرج علىّ عليه السلام ، حتى إذا حَاذَى الكوفة صلّى ركعتين[2] .

قال : وحدّثنا عمرو بن خالد ، عن أبى الُحسين زيد بن علىّ عليه السلام ، عن آبائه : أنّ[3] عليا عليه السلام خرج وهو يريد صِفّين ؛ حتى إذا قطع النَّهْر ، أمر مناديَه ، فنادى بالصلاة ؛ فتقدّم فصلّى ركعتين ؛ حتى إذا قضى الصلاة ، أقبلَ على الناس بوجهه ، فقال : أيّها الناس ؛ ألا مَنْ كان مُشَيِّعا أو مقيما فليتمّ الصلاة ؛ فإنا قوم سَفْر . ألا ومَنْ صَحِبَنا فلا يصومَنّ المفروض ، والصلاة المفروضة ركعتان .

قال نصر : ثم[3] خرج حتى نزل دير أبى موسى ، وهو من الكوفة على فرسخين ، فصلّى به العصر ، فلما انصرف من الصلاة ، قال : سبحان الله ذى الطَّوْل والنعم ! سبحان الله ذى القُدْرة والإفضال ، أسأل الله الرِّضا بقضائه ، والعملَ بطاعته ، والإنابة إلى أمره ؛ إنه سميع الدعاء .

قال نصر : ثم[4] خَرَج عليه السلام حتى نزل على شاطىء نَرْس[5] بين موضع حَمّام أبى بُرْدة وحَمّام عمر ، فصلّى بالناس المَغْرب ، فلما انصرف ، قال : الحمدُ لله الذى يُولِج

---

(١) الطغام : أوغاد الناس .

(٢) كتاب صفين : « حتى إذا جاز حد الكوفة » .

(٣) كتاب صفين ١٥٠

(٤) كتاب صفين ١٥١ .

(٥) نرس ، بالفتح ثم السكون وآخره سين مهملة : نهر حفره نرسى بن بهرام بنواحى الكوفة ؛ مأخذه من الفرات ، وعليه عدة قرى . (مراصد الاطلاع) .

اللّيل فى النهار ، ويولج النّهار فى الليل ؛ والحمد لله كلما وَقَبَ ليل وغَسَق ؛ والحمدُ لله كُلّما لاح نجم وخَفَق .

ثم أقام حتى صلى الغداة ، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبّين[(١)] ، وفيها نخل طُوال إلى جانب البَيْعة من وراء النهر ؛ فلما رآها ، قال : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾. ثم أقحم دابته النهر ، فعبرَ إلى تلك البيعة فنزلها ،ومكث قَدْر الغداء .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن مِخْنَف بن سليم قال : إنّى[(٢)] لأنظر إلى أبى وهو يساير عليا عليه السلام ، وعلىّ يقول له : إنّ بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها ، فحرّكْ دابّتك لعلّنا نصلّى العصر خارجا منها . فحرّكَ دابّته ، وحَرّكَ الناس دوابهم فى إثْره ؛ فلما جاز جِسْر الفرات[(٣)] ، نزلَ فصلّى بالناس العَصْر .

قال : حدثنى عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرة الثقفى ، عن أبيه، عن عبد خَيْر ، قال : كنت مع علىّ أسير فى أرض بابل ، قال وحضرتِ الصلاة صلاة العصر ، قال : فجعلنا لانأتى مكانا إلا رأيناه أفْيَحَ من الآخر ؛ قال : حتى أتيْنا على مكانٍ أحسن مارأينا ؛ وقد كادت الشمسُ أن تغيب . قال : فنزل علىٌّ عليه السلام ، فنزلت معه . قال : فدعا الله ، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر ، قال : فصليت العصر ، ثم غابت الشمس ، ثم خرج حتى أتى دير كعب ، ثم خرج منه فبات بساباط ، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النُّزُل[(٤)] والطعام ، فقال : لا ، ليس ذلك لنا عليكم ، فلما أصبح وهو بمُظْلِم ساباط[(٥)] ،

---

(١) قبين ، بالضم ثم الكسر والتشديد ؛ قال صاحب مراصد الاطلاع : « ولاية بالعراق » .
(٢) صفين ١٥١ ، والسند هناك : نصر : عمر ، عن رجل ـ يعنى أبامخنف ، عن عمه ابن مخنف » .
(٣) صفين : «جسر الصراة» ؛ والصراة من أنهار الفرات .
(٤) النزل : طعام الضيف .
(٥) مظلم ساباط ؛ موضع مضاف إلى ساباط التى بقرب المدائن؛ قليل الضوء : مراصد الاطلاع ١٢٨٦

قرأ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ .[١]

قال نصر و بلغ عمرو بن العاص مسيرُه فقال :

لَا تَحْسَبَنِّي يَا عَلِيّ غَافِلَا لأُورِدَنَّ الكُوفَةَ القَنَابِلَا[٢]

* بِجَمْعِيَ العامَ وَجَمْعِي قَابِلَا *

قال : فبلغ ذلك عليّا عليه السلام ، فقال :

لَأُورِدَنَّ العاصيَ بنَ العَاصِي سَبْعِين ألفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي

مُسْتَحْقِبِينَ حَلَقَ الدِّلَاصِ[٣] قَدْ جَنَبُوا الخَيْل معَ القِلَاصِ[٤]

* أُسُودَ غِيلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ *

[كلام عليّ حين نزل بكربلاء]

قال نصر : وحدّثنا منصور بن سلام التميميّ ، قال : حدّثنا حيان التَّيْميّ ، عن أبى عبيدة ، عن هرثمة بن سليم ، قال[٥] : غزوْنا مع عَلِيّ عليه السلام صِفّين ، فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا ، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها ، ثم قال : واها لك ياتُرْبة[٦] ! ليُحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب .

قال : فلما رجع هَرْثمة من غزاته[٧] إلى امرأته جَرْداء بنت سمير — وكانتْ من شيعة على عليه السلام — حدّثها هرثمة فيما حدّث ، فقال لها : ألا أعجِّبُك من صديقك أبى حسن !

---

(١) سورة الشعراء ١٢٨

(٢) القنابل : جماعات الخيل والناس .

(٣) مستحقبين : حاملين ، والدلاص : الدروع اللينة .

(٤) يقال : جنب الرجل الفرس إذا قاده إلى جنبه . والقلاص : جمع قلوص ؛ وهى الشابة من الإبل ؛ بمنزلة الجارية من النساء .

(٥) كتاب صفين ١٥٧

(٦) صفين : « واهالك أيتها التربة » .

(٧) صفين : « من غزوته » .

قال : لما نزلنا كَرَبلاء ، وقد أخذ حَفْنَة مِنْ تربتها فشمّها ، وقال : « واهالك أيّتها التُّربة ! ليُحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب» ، وما عِلْمه بالغيب ؟ فقالت المرأة له : دَعْنا منك أيها الرجل ؛ فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَقُلْ إلا حقًّا .

قال : فلما بَعَث عُبيد الله بن زياد البَعْث الذى بَعَثه إلى الحسين عليه السلام ، كنتُ فى الخيل التى بَعَثَ إليهم ؛ فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه ، عَرَفْتُ المنزل الذى نَزَلْنا فيه مع عَلَيّ عليه السلام ، والبُقْعة التى رفع إليه من تُرْبتها والقول الذى قاله ، فكرِهْتُ مسيرى ، فأقبلت على فَرَسِي حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلّمت عليه ، وحدّثته بالذى سمعت من أبيه فى هذا المنزل ؛ فقال الحسين : أمعنا أم علينا ؟ فقلت : يابنَ رسول الله، لا معك ولا عليك ؛ تركتُ ولدى وعِيالى[1] أخاف عليهم من ابن زياد ، فقال الحسين عليه السلام : فولِّ هرباً حتى لا ترى مقتلنا[2] ؛ فوالّذى نفس حسين[3] بيده لا يرى اليوم مقتلنا أحدٌ ثم لا يعيننا إلا دخل النار .

قال : فأقبلتُ فى الأرض أشتدّ هرباً ، حتى خَفِيَ علىّ مقتلهم .

* * *

قال نصر : وحدثنا مُصعب ، قال : حدثنا الأجلح بن عبد الله الكِندىّ عن أبى جُحيفة ، قال : جاء[4] عُروة البارقيّ إلى سعد بن وهب ، فسأله فقال : حديث حَدّثتناه[5] عن على بن أبى طالب ، قال : نعم بعثنى مِخنف بن سليم إلى علىّ ، عند توجّهه إلى صِفّين ، فأتيته بكَرْبلاء ، فوجدته يُشير بيده ، و يقول : هاهنا، هاهنا ! فقال له

---

(١) صفين : « تركت أهلى وولدى » .
(٢) صفين : « حتى لاترى لنا مقتلا » .
(٣) : « فو الذى نفس محمد » .
(٤) صفين ١٥٨
(٥) صفين : « حدثتنيه »

رجل : وما ذاك يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : ثَقَل لآل محمد ينزل هاهنا فويل لهم منكم ! وويل لـكم منهم ! فقال له الرجل : ما معنى هذا الـكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويل لهم منكم تقْتلونهم ، وويلٌ لـكم منهم يدخلـكم الله بقتلهم النار .

قال نصر : وقد روى هذا الـكلام على وجه آخر ، أنه عليه السلام قال : «فويلٌ لـكم منهم ، وويل لـكم عليهم » ؛ فقال الرجل : أمّا « ويل لنا منهم » ، فقد عرفناه ؛ فويل لنا عليهم ، ما معناه ؟ فقال : تَرَوْنَهم يُقتلون لا تستطيعون نُصْرتهم .

* * *

قال نصر : وحدثنا سعيد بن حكيم العبسيّ ، عن الحسن بن كثير ، عن أبيه ، أنّ[١] عليا عليه السلام أتى كَرْبَلاء ، فوقف بها ، فقيل له : يا أميرَ المؤمنين ، هـذه كَرْبلاء ، فقال : « ذات كَرْب و بلاء » ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان ، فقال : هاهنا موضع رِحالهم ، ومُناخ ركابهم ؛ ثم أومأ بيده إلى مكان آخر ، فقال : هاهنا مَرَاقُ دمائهم ، ثم مضى إلى ساباط .

[كلامه لأصحابه وكتبه إلى عماله]

وينبغي أن نذكر هاهنا ابتداء عزمه عَلَى مفارقة الـكُوفة،والمسير إلى الشام وما خاطب به أصحابه ، وما خاطبوه به ، وما كاتب به العمال وكاتبوه جوابا عن كتبه ؛ وجميع ذلك منقول من كتاب نَصْر بن مزاحم .

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الـكنود ، قال : [٢]لما أراد عليّ عليه السلام المسيرَ إلى الشام ، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ؛ ثم حَمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بَعْد ؛ فإنّـكم ميامين

---

(١) صفين ١٥٨
(٢) صفين ١٠٣

الرأى ، مَرَاجيح الحِلْم ، مباركو الأمر، ومقاويل بالحقّ ؛ وقد عزَمْنا على المسير إلى عَدُوّنا وعدوكم ؛ فأشيروا علينا برأيكم .

فقام هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : أما بعدُ يا أمير المؤمنين ؛ فأنا بالقوم جِدّ خَبِير ؛ هم لك ولأشياعك أعداء ؛ وهم لمن يَطْلب حَرْثَ الدنيا أولياء ؛ وهم مقاتلوك ومجادلوك [١] لا يُبقون جَهْدا ، مشاحّة على الدنيا ، وَضَنًّا بما فى أيديهم منها ؛ ليس لهم إرْبة غيرها ؛ إلّا ما يخدعون به الجُهال من طلب دم ابن عفان ؛ كذبوا ليس لدمه ينفِرون ، ولكنّ الدنيا يطلبون ؛ انهض بنا إليهم ؛ فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال ؛ وإن أبَوْا إلا الشقاق ؛ فذاك ظنى بهم [٢] ؛ والله ما أراهم يُبايعون ، وقد بَقِىَ فيهم أحد ممّن يطاع إذا نَهى ؛ ويسمع إذا أمَر .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود أنّ [٣] عمار بن ياسر قام فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن استطعت ألّا تُقيم يوما واحدا فافعل ، اشخص بنا قبل استعارِ نار الفَجَرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادْعُهم إلى حَظِّهم ورشدهم ؛ فإن قَبِلُوا سَعِدُوا ؛ وإنْ أبَوْا إلّا حربنا ، فوالله إنّ سَفْكَ دمائهم ، والجِدّ فى جهادهم ، لَقُربة عند الله وكرامةٌ منه .

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أميرَ المؤمنين، انكَمِش [٤] بنا إلى عدونا ولا تعرّج [٥] ؛ فوالله لجهادهم أحبُّ إلىّ من جهاد الترك

(١) صفين : « يجاهدوك » .
(٢) صفين : « فذلك الظن بهم » .
(٣) كتاب صفين ١٠٤
(٤) الانكماش : الجد فى السير .
(٥) صفين : « لاتعرد »

والروم ؛ لإدهانهم[1] فى دين الله ،واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليهوآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسوه وضربوه وحرموه وسيّروه ، وفيئنا لهم فى أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين ـ قال : يعنى رقيق .

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خُزيمة بن ثابت ، وأبو أيوب ؛ وغيرهما : لم تقدَّمْتَ أشياخَ قومك وبدأتَهم بالكلام يا قيس ! فقال : أما إنّى عارف بفضلكم ، معظِّمٌ لشأنكم ؛ ولكنّى وجدتُ فى نفسى الضِّغْن الذى فى صدوركم جاش حين ذكرتِ الأحزاب .

فقال بعضهم لبعض : ليقمْ رجلٌ منكم فليُجبْ أميرَ المؤمنين عن جماعتكم ، فقام سهل بن حُنَيف ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن سَلْمٌ لمن سالَمْتَ ، وحَرْب لمن حاربت،ورأينا رأيُك ، ونحن[2] يمينُك ، وقد رأينا أن تقوم [بهذا الأمر][3] فى أهل الكوفة فتأمرَهم بالشُّخوص ، وتخبرهم بما صنع لهم فى ذلك من الفضل ، فإنهم أهلُ البلد ، وهم الناس ؛ فإن استقاموا لك استقام لك الذى تُريد وتطلب ؛ فأما نحن فليس عليك خلاف مِنّا ، متى دعوتَنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك .

* * *

قال نصر : فحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى مِخْنف ، عن زكريا بن الحارث ، عن أبى خُشيش ، عن مَعبد ، قال : قام[4] على عليه السلام خطيبا عَلَى مِنْبره ، فكنتُ تحت المنبر ، أسمع تحريضه الناس ، وأمرَه لهم بالمسير إلى صِفّين لقتال أهل الشام ، فسمعتهُ يقول :

---

(١) الإدهان الغش والخديعة .
(٢) صفين : « ونحن كف يمينك » .
(٣) من صفين
(٤) صفين ١٠٥

سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء القرآن والسُّنَن ، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتَلة المهاجرين والأنصار . فقام رجل من بنى فَزارة ، فقال له : أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلَهم لك ، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة ، فقتلتهم ! كلاّ ، ها اللهِ إذاً لانفعل ذلك .

فقام الأشتر ، فقال : مَنْ هذا المارق ! [١]

فهرب الفزاريّ ، واشتدّ الناس عَلَى إثره ، فلحِق فى مكانٍ من السوق تُباع فيه البراذين ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتِل ؛ فأتى علىّ عليه السلام ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، قُتِل الرجل،قال : ومَنْ قَتَله ؟ قالوا : قتلتْه هَمْدان ومعهم شَوْب من الناس،فقال : قتيل عِمِّيَّة ، لا يُدْرَى مَنْ قتله ، ديته من بيت مال المسلمين؛ فقال بعض بنى تيم اللات بن ثعلبة [٢] :

أعوذُ بربِّى أنْ تـكونَ مَنِيَّتى ... كما مَاتَ فى سُوقِ البَرَاذِينِ أرْبَدُ
تَعَاوَرَه هَمْـدانُ خَفْقَ نعالَهُمْ ... إذا رُفِعَتْ عنه يدٌ وُضِعَتْ يَدُ

فقام الأشتر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يهدّنك ما رأيت ، ولا يُؤْيسَنّكَ مِنْ نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقىّ الخائن ؛ إنّ جميعَ مَنْ ترى من الناس شيعتُك ، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ، ولا يحبّون البقاء بعـدك ، فإنْ شئت فسِرْ بنا إلى عدوّك ، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطَى البقاء مَنْ أحبّه ، وإنا لَعَلَى بَيّنة من رَبِّنا ؛ وإنّ أنفسَنا لن تمُوت حتى يأتىَ أجلُها ، وكيف لا نقاتلُ قوماً ، هم كما وصف أمير المؤمنين ، وقد وثبتْ عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس ، وباعوا خَلاقهم بَعَرضٍ من الدنيا يسير !

---

(١) صفين : « من لهذا أيها الناس » .
(٢) صفين : « فقال : علاقة التيمى »

فقال على عليه السلام : الطريق مُشْتَرَك ، والناس فى الحقّ سواء ، ومَنِ اجتهد رأيه فى نصيحة العامة ، فقد قضى ما عليه . ثم نزل فدخل منزله .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدثنى أبو زهير العبسى ، عن النضر بن صالح أن عبد الله بن المعتمّ العبسىّ ، وحنظلة بن الربيع التميمىّ ؛ لما أمر [١] على عليه السلام بالمسير إلى الشام دَخَلا عليه فى رجال كثير من غَطَفان وبنى تميم ، فقال له حنظلة : يا أميرالمؤمنين ؛ إنا قَدْ مشينا إليك فى نَصِيحة فاقبلها ، ورأينَا لك رأيا فلا تردّنه علينا ، فإنّا نظرنا لك ولمن معك ؛ أقِمْ وكاتِبْ هـذا الرجل ، ولا تعجَلْ إلى قتال أهل الشام ؛ فإنا والله ما نَدْرِى ولا تدرى لِمَنْ تـكون الغَلَبة إذا التقيتم ؛ ولا على مَنْ تـكونُ الدَّبْرة !

وقال ابن المعتمّ مثل [٢] قوله ، وتـكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامِهما ، فحمِد على عليه السلام اللهَ وأثنى ، ثم قال :

أما بعدُ فإن الله وارثُ العباد والبلاد ، وربّ السموات السبع ، والأرضين السبع ، وإليه ترجعون ، يؤتِى المُلْك مَنْ يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعِزّ مَنْ يشاء ، ويذِلّ من يشاء . أما الدَّبْرَة ، فإنّها على الضالّين العاصين ، ظفِروا أو ظُفِر بهم ؛ وايمُ الله إنى لأسمع كلام قوم ماأراهم يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكَراً .

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحى ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّ هؤلاء والله ما آثروك بنُصْح ، ولا دخلوا عليك إلا بغِشّ ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدوّ .

وقال له مالك بن حبيب : إنه بلغنى ياأميرَ المؤمنين أنّ حنظلة هـذا يكاتِبُ معاوية ، فادْفَعْه إلينا نحبِسْه حتى تنقضِىَ غَزاتك ، وتنصرف .

---

(١) صفين ١٠٧

(٢) صفين : « وقام المعتم فتكلم »

وقام من بنى عبس قائد بن بكير وعياش بن رَبيعة العبْسيان ، فقالا : ياأميرَ المؤمنين : إنّ صاحبَنا عبد الله بن المعتّم قد بلغنا أنّه يكاتب معاوية ، فاحبِسْه أو مَكِّنّا من حَبْسه ؛ حتى تنقضِىَ غزاتك ثم تنصرف .

فقالا : هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم و بين عَدُوّكم .

فقال لهما علىّ عليه السلام : الله بينى و بينكم ، و إليه أَكِلُكم ، و بهأستظهرُ عليكم، اذهبوا حيث شئتم .

قال نصر : و بعث على عليه السلام إلى حَنْظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب ، ــ وهو من الصحابة ــ فقال له : ياحنظلة ، أنت عَلَىّ أم لى ؟ فقال : لا لك ولا عليك ؛ قال : فما تريد ؛ قال اشخص إلى الرّها [1] ، فإنه فَرْج من الفروج ، اصمِد له حتى ينقضىَ هذا الأمر .

فغضب من قوله خيار بنى عمرو بن تميم وهم رهطه ؛ فقال : إنّكم والله لا تغرونى من دينى ، دعونى فأنا أعلم منكم . فقالوا : والله إنْ لم تخرج مع هذا الرجل لاندعُ فُلانة تخرج معك ــ لأم ولده ــ ولا وَلَدَها ، ولئن أردت ذلك لنقتلنّك .

فأعانه ناس من قومه واخترطوا سيوفهم . فقال : أجِّلونى حتى أنظر ، ودخل منزله وأغلق بابه؛ حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية ، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير، وهرب ابن المعتّم أيضا ، حتى أتى معاوية فىأحد عشر رجلا من قومه .

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية فى ثلاثة وعشرين رجلا من قومه ؛ لكنّهما لم يقاتلا مع معاوية ، واعتزلا الفريقين جميعا .

---

(١) الرها : مدنية بالجزيرة بين الموصل والشام .

وقال : وأمر على عليه السلام بهدْم دار حنظلة ، فهدمت ، هَدَمها عريفُهم شبَث بن رِبْعِىّ و بكر بن تميم ؛ فقال حنظلة يهجوهما :

أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلغَنْ ... مُغَلْغَلَةً عَنِّى سَرَاةَ بنى عَمْرو

أوصيكمُ بالله والبرِّ والتقى ... ولا تنظروا فى النّائبات إلى بكْرِ

ولا شَبَثٍ ذى المَنْخَرَيْن كأنه ... أزبّ جِمال قد رغا ليلة النَّفْر (١)

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبى سفيان :

أبلغْ معاوية بن حَرْب خُطَّةً ... ولكل سائلةٍ تَسِيلُ قرارُ

لَا تَقْبَلَنّ دَنِيّةً تَرْضَوْنَها (٢) ... فى الأمر حتّى تُقتلَ الأنصارُ

وَكَمَا تبوء دماؤُهم بدمائِكُمْ ... وَكَما تُهَدَّمُ بالدِّيار ديار

وتُرى نساؤُهُمْ يَجُلْنَ حَواسِراً ... ولهنّ من ثكل الرجال جُؤَار (٣)

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن سعد بن طريف ، عن أبى المجاهد ، عن المحلّ بن خليفة، قال : قام عدىّ بن حاتم الطائىّ بين يدى على عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : (٤) ياأمير المؤمنين ، ماقلتَ إلا بعلم ، ولا دعوتَ إلا إلى حقّ ، ولا أمرتَ إلا برُشْد ؛ ولكنْ إذا رأيت أن تستأنىَ هؤلاء القوم وتستديمَهم حتى تأتيَهم كتبُك ، و يَقْدَم عليهم رُسُلك ، فعلت . فإن يقبلوا يُصيبوا رُشْدَهم (٥)، والعافية أوسعُ لنا ولهم ؛ و إن يتمادَوْا فى

---

(١) الأزب : الكثير شعر الوجه والعثنون ، وفى صفين :

* أزَبُّ جمالٍ فى مُلَاحِيّةٍ صُفْرِ *

(٢) صفين : « تعطونها »

(٣) صفين : « ولهن من ثكل الرجال خوار » .

(٤) صفين ١١٠

(٥) صفين : « فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا »

الشُّقاق ، ولا ينزِعوا عن الغيّ فسرْ إليهم . وقد قدّمنا إليهم بالعذر [١] ، ودَعَوْناهم إلى مافى أيدينا من الحق ؛ فوالله لهم من الحقّ أبعد ، وعلى الله أهون ؛ من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لمّا دعوناهم إلى الحق فتركوه ، ناوجْناهم بُرَاكاء القتالِ [٢] ؛ حتى بلغنا منهم مانحب ، و بلَغ الله منهم رضاه .

فقام زيد بن حُصين الطائى وكان من أصحاب البرانس [٣] المجتهدين ، فقال : الحمدُ لله حتى يرضى ، ولا إله إلا الله ربنا ، أما بعد : فوالله إنْ كنّا فى شك من قتال مَنْ خالفنا ، ولا تصلح لنا النّية فى قتالهم حتى نستديمَهم ونستأنيَهم . ما الأعمال إلا فى تبَاب ، ولا السعى إلا فى ضلال ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [٤] ؛ إننا والله ما ارتبنا طَرْفة عين فيمن يتبعونه [٥] ، فكيف بأتباعِه القاسية قلوبهم ، القليلِ من الإسلام حظهم ، أعوانِ الظلمة وأصحاب الجوْر والعدوان ؛ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان .

فقام رجل من طيّ فقال : يازيد بن حصين ، أكلام سيدنا عدى بن حاتم تُهَجِّن [٦] ! فقال : زيد ما أنتم بأعْرَف بحقّ عدى منّى ، ولكنى لا أدَعُ القول بالحقّ و إن سَخِط الناس .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن الحارث بن حصين [٧] قال : دخل أبو زينب

---

(١) صفين : « العذر » .

(٢) البراكاء : الابتراك فى الحرب ؛ وهو أن يجثو القوم على ركبهم . ، ويقال وجن به ، أى ضرب به الأرض ، وفى صفين : « ناوخناهم » .

(٣) جمع برنس ؛ وهو قلنسوة طويلة كانت يلبسها فى صدر الإسلام النساك والزهاد .

(٤) سورة الضحى . . .

(٥) صفين : « يبتغون دمه » .

(٦) فى صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فقال عدى بن حاتم : الطريق مشترك ، والناس فى الحق سواء ؛ فمن اجتهد رأيه فى نصيحة العامة فقد قضى الذى عليه » .

(٧) صفين ١١٢ : « الحارث بن حصيرة »

ابن عوف ، عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لئن كنّا على الحق ، لأنت أهدانا سبيلا ، وأعظمُنا فى الخير نصيبا ؛ ولئن كنا على ضلال ، إنّك لأثقلُنا ظهراً وأعظمنا وِزْراً ؛ قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدوّ ، وقد قطعْنا مابيننا و بينهم من الولاية ، وأظهرْنا لهم العداوة ؛ نريد بذلك مايعلمه الله تعالى من طاعتك ؛ أليس الذى نحن عليه هو الحقّ المبين ، والذى عليه عَدُوُّنا هو الحوْب الكبير !

فقال عليه السلام : بَلَى شهدت أنّك إنْ مضيت معنا ناصراً لدعوتنا ، صحيح النية فى نصرنا ، قد قطعتَ منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت؛فإنك ولىّ الله ، تَسْبَح[1] فى رضوانه ، وتركُض فى طاعته ، فابشر أبا زينب .

وقال له عمار بن ياسر : اثبُتْ أبا زينبٍ ، ولا تشكّ فى الأحزاب ، أعداء[2] الله ورسوله .

فقال أبو زينب : ما أحبّ أنّ لى شاهديْن مِن هذه الأمة شهدا لى عما سألت من هذا الأمر الذى أهمّنى ، مكانكما .

قال وخرج عمار بن ياسر ، وهو يقول :

سِيرُوا إلى الأحْزَابِ أعداءِ النبىّْ ... سِيرُوا فخــيرُ النَّاس أتباعُ علىّْ

هذا أوانُ طابَ سَلّ المشرَفىّْ ... وقودُنا الخيلُ وَهَزُّ السَّمْهَرِىّْ

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن أبى رَوْق ، قال : [3]دخل يزيد بن قَيْس الأرحَبىّ عَلَى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ نحن أولو جِهَازٍ وعدّة وأكثر

---

(١) صفين : « تسبيح »

(٢) صفين : « عدو الله ورسوله » .

(٣) صفين ١١٣

الناس أهلَ قوّة ، ومَنْ ليس به ضَعْف (١) ولا عِلّة ، فمرْ مناديَك ؛ فلينادِ الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنُّخَيْلة ؛ فإنّ أخا الحرب ليس بالسئوم ولا النئوم ، ولا مَنْ إذا أمكنته الفرص أجّلها ، واستشار فيها ؛ ولا مَنْ يؤخِّر عمل الحرب فى اليوم لغَدٍ و بعد غدٍ .

فقال زياد بن النضر : لقد نصحَ لك يزيدُ بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال ما يعرف ، فتوكّل على الله ، وثقْ به ، واشخَصْ بنا إلى هذا العدوّ راشداً معاناً ؛ فإن يُرِد اللهُ بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك (٢) إلى مَنْ ليس له مِثْلُ سابقتِك وقدَمِك (٢) ؛ و إلا يُنِيبوا ويقبَلوا وأبوْا إلا حر بنا نجد حر بهم علينا هَيّنا ؛ ونرجو أن يصرعهم الله مصارعَ إخوانهم ثَمّ بالأمس .

ثم قام عبدُ الله بن بُدَيلٍ بن وَرْقاء الُخزاعىّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ القوم لو كانوا الله يريدون ، ولله يعملون ، ما خالفونا ؛ ولـكنّ القوم إنمـا يقاتلوننا فِراراً من الأسْوة وحبًّا للأثَرَة ، وضَنًّا بسلطـانهم ، وكُرها لفراق دنيـاهم التى فى أيديهم ، وعلى إحَن فى نفوسهم ، وعداوة يجدُونها فى صدورهم ، لوقائع أوقعتهَا يا أمير المؤمنين بهم قَديمة ، قتلتَ فيها آباءهم وأعوانهم (٣) .

ثم التفت إلى الناس ، فقال : كيف يُبَايع معاوية عليا ، وقد قَتَل أخاه حنظَلة ، وخالَه الوليد ، وجدّه عُتْبة فى موقفٍ واحد ؛ والله ما أظنّهم يفعلون ، ولن يستقيموا لـكم دون أن تُقصَفَ فيهم قَنَا المُرّان (٤) ، وتقطع على هامهم السُّيوف ، وتنثَر حواجبهم بعَمَد الحديد ، وتـكون أمورٌ جمّة بين الفريقين .

* * *

(١) صفين : « ومن ليس بمضعف » .
(٢—٢) صفين : « إلى من ليس مثلك فى السابقة مع النبى صلى الله عليه وآله والقدم فى الإسلام »
(٣) صفين : « وإخوانهم » .
(٤) صفين : « تقصد » ، وهى بمعنى « تقصف » والمران : الرماح الصلبة اللدنة .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين[١] عن عبد الله بن شَرِيك ، قال : خرج حُجْر بن عدىّ وعَمْرو بن الحَمِق ، يُظهِران البراءة من أهل الشام ؛ فأرسل علىّ عليه السلام إليهما أنْ كُفّا عمّا يبلُغنى عنكما ، فأتياه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقّين ! قال : بلى ؛ قالا : أوليسُوا مُبطلِين ؟ قال : بلى ؛ قالا : فلم منعتَنا مِنْ شتمِهم ؟ قال : كرهتُ لكم أن تكونوا لَعّانِين شَتّامين تشتِمون وتتبرّأون ؛ ولكن لو وصفتم مساوِىَ أعمالهم فقلتم : مِنْ سيرتِهم كذا وكذا ، ومِنْ أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوبَ فى القول ، وأبلغَ فى العُذْر ؛ وقلتم مكان لعنِكم إياهم ، وبراءتِكم منهم : اللهمّ احقِنْ دماءهم ودماءنا ، وأصلِحْ ذات بينهم وبيننا ، واهْدِهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقّ منهم مَنْ جَهِله ، ويرعوِى عن الغىّ والعُدْوان مِنْهم من لَهِج به — لكانَ أحبَّ إلىّ وخيراً لكم .

فقالا : يا أميرَ المؤمنين ، نقبَلُ عِظَتك ، ونتأدَّب بأدبك .

قال نصر : وقال له عمرو بن الحَمِق يومئذ : والله يا أميرَ المؤمنين إنّى ما أحببتُك ولا بايعتُك عَلَى قَرابةٍ بينى و بينك ، ولا إرادة مالٍ تُؤْتينيه ، ولا التماسِ سلطان ترفع ذِكرى به ؛ ولكنّنى أحببتك بخصال خمس : إنك ابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ووصيُّه ، وأبو الذرّية التى بقيَتْ فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأسبقُ الناس إلى الإسلام ، وأعظمُ المهاجرين سَهْما فى الجهاد ؛ فلو أنّى كُلِّفْتُ نقلَ الجبالِ الرّواسى ، ونزحَ البحور الطوامى ؛ حتى يأتِىَ علىّ يومى فى أمرٍ أقوِّى به وليّك ، وأهينُ عدوّك ؛ ما رأيت أنّى قد أدّيت فيه كلّ الذى يحقّ علىّ من حقك .

فقال علىّ عليه السلام : اللهم نوِّرْ قلبه بالتقى ، واهدِه إلى صراطك المستقيم[٢] ،

---

(١) صفين ٥ : ١٠٥ : « حصيرة » .

(٢) صفين : « إلى صراط مستقيم » .

ليتَ أنّ فى جُنْدِى مائة مثلك . فقال حُجْر : إذاً والله يا أميرَ المؤمنين ، صَحّ جندُك ، وقلّ فيهم مَنْ يغشّك .

قال نصر : وقام حُجْر بن عدىّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، نحن بنو الحرْب وأهلُها الذين نُلْقِحها ونَنْتِجُها ، قد ضارستْنا وضارسناها ؛ ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذات عدد ورأى مجرّب ، و بأس محمود ، وأزمّتُنا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرّقت شرّقنا ، و إنْ غرّبت غرّبنا ، وما أمرتَنا به من أمرٍ فعلنا . فقال علىّ عليـه السلام : أ كلّ قومِك يرى مثلَ رأيك ، قال : ما رأيتُ منهم إلا حُسْنا ، وهـذه يدى عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة . فقال له على عليه السلام خيرا .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، قال : [1] كتب على عليـه السلام إلى عماله حينئذ يستفزهم ، فـكتب إلى مخنف بن سليم :

سلامٌ عليك ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد ، فإنّ جهاد مَنْ صَدَف عن الحقّ رغبة عنـه ، وهبّ فى نُعاس العَمى والضلال ؛ اختياراً له فريضة على العارفين ؛ إنّ الله يرْضَى عمّن أرضاه ، و يسخَط عَلَى من عصاه ؛ و إنا قد هممنا بالسّير إلى هؤلاء القوم الذين عَمِلوا فى عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفىء ، وعطّلوا الحدود ، وأماتوا الحقّ ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين وليجَةً من دون المؤمنين ؛ فإذا ولىٌّ لله أعظَمَ أحداثَهم أبغضوه وأقصَوْه وحَرَموه ، و إذا ظالم ساعدَهم عَلَى ظُلْمهم أحبوه ، وأدنَوْه و برّوه ؛ فقـد أصروا على الظُّلم ، وأجمعوا عَلَى الخلاف : وقديماً ما صدُّوا عن الحقّ ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين . فإذا أُتيتَ بكتابى هـذا ، فاستخلِفْ على عَمَلِك أوثقَ أصحابك فى نفسك ، وأقبِلْ إلينا ، لعلك تَلْقى معنا هذا العدو

(١) كتاب صفين ١١٧

المحلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتجامع المحقّ ، وتباين المبطل ؛ فإنه لا غَنَاء بنا ولا بك عن أجر الجهاد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتبه عبيد الله بن أبى رافع فى سنة سبع وثلاثين .

قال : فاستعمل مِخْنف على أصبهان الحارث بن أبى الحارث بن الربيع ، واستعمل عَلَى هَمَذان سعيد بن وهب ، وكلاهما من قومه ، وأقبل حتى شهد مع علىّ عليه السلام صفين .

قال نصر : وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى على عليه السلام يذكُر له اختلافَ أهل البصرة ، فكتب إليه علىّ عليه السلام : [من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن عباس][1] :

أما بعدُ ؛ فقد قَدِم علىّ رسولُك ، وقرأتُ كتابَك ، تذكُرُ فيه حالَ أهل البصرة واختلافَهم بعد انصرافى عنهم ، وسأخبرك عن القوم ؛ وهم بين مقيمٍ لرغبة يرجوها ، أو خائف مِنْ عُقوبة يخشاها ، فأرْغِب راغبَهم بالعدل عليه ، والإنصاف له والإحسان إليه؛ واحلُلْ عُقْدة الخوف عن قلوبهم ، وانتهِ إلى أمرى ولا تعدُه ، وأحسِنْ إلى هذا الحىّ من ربيعة وكلّ مَنْ قَبلك فأحسن إليه ما استطعت إن شاء الله .

قال نصر : وكتب إلى أمراء أعْمَاله كلّهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم ، وأقام ينتظرهم .

* * *

قال : فحدثنا عمر بن سعد ، عن أبى رَوْق ، قال[2] : قال زياد بن النضر الحارِثىّ لعبدالله ابن بُديل : إن يومَنا اليوم عَصَبْصَب[3] مايصبر عليه إلا كل مشيّع[4] القلب ، الصادق

---

(١) من صفين

(٢) صفين ١٢٤

(٣) العصبصب : الشديد ، وفى صفين : « عصيب »

(٤) المشيع القلب : القوى الجاد الشجاع

النّية ، رابط الجأش [١] ؛ وايم الله ماأظنّ ذلك اليوم يبقى منهم ؛ ولا منا إلا الرُّذَال [٢] .

فقال عبد الله بن بُديل : أنَا والله أظنّ ذلك . فبلغ كلامُهما عليًّا عليه السلام ، فقال لهما : ليكُنْ هذا الكلام مخزونا فى صُدُوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع ؛ إن الله كتبَ القتْل على قومٍ ، والموتَ على آخرين ، وكلٌّ آتيه منيتهُ كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين فى سبيله ، والمقتولين فى طاعته !

قال نصر : فلما سمع هاشم بن عُتْبة ماقالاه ، أتى عليا عليه السلام ، فقال : سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم ، القاسيةِ قلوبهم ، الذين نَبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ، وعَمِلوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلُّوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستهوى بهم [٣] الشيطان ، ووعدَهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانىّ ؛ حتى أزاغهم ، عن الهدى ، وقَصَد بهم قَصْد الرّدَى ، وحبّب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ؛ كرغبتنا فى الآخرة وانتجاز مَوْعد ربنا ؛ وأنت ياأمير المؤمنين أقربُ الناس مِنْ رسول الله صلى الله عليه رحما ، وأفضلُ الناس سابقة وقَدَماً ؛ وهمْ ياأميرَ المؤمنين يعلمون منكَ مثل الذى نعلم ؛ ولكنْ كُتِب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرِحةٌ لك ببذْل النصيحة ، وأنفسُنا تنصُرك عَلَى مَنْ خالفك ، وتولى الأمر دونك جَذِلةً ، والله ما أحبّ أنّ لى ماعلى الأرض مما أقلّت ، ولا ماتحت السماء مما أظلّت ؛ وأنى واليتُ عدوا لك ؛ وعاديتُ وليا لك !

فقال عليه السلام : اللهم ارزقه الشهادة فى سبيلك ، والموافقة لنبيك .

قال نصر : ثم إن عليا عليه السلام صَعِد المنبر فخطب الناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، فبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

---

(١) الجأش : القلب ؛ وفلان رابط الجأش ؛ أى شجاع لا يضطرب قلبه خوفاً .
(٢) الرذال ، والرذيل : ما انتقى جيده وبقى أخسه وأدونه .
(٣) صفين : « واستولاهم »

إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فأنصبوا أنفسكم فى أداء حَقّه، وتنجَّزُوا موعوده ، واعلموا أنّ الله يعلم أمْرَاس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ؛ ثم جعل الطاعة حظَّ الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة (١) ، وقد حُمِّلت أمر أسودِها وأحمرِها ، ولا قوة إلا بالله ! ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سَفِهَ نفسه ، وتناول ماليس له وما لا يدركه معاوية وجنده ، الفئةِ الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويُبرق لهم ببارق تسويفه ، ويدلِّيهم بغروره ؛ وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام ؛ فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ماحذّركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ؛ واعلموا أنّ المسلوب مَنْ سُلِب دينَه وأمانَتَه ، والمغرور مَنْ آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفَنّ أحداً منكم تقاعَس عَنِّى ، وقال : فى غيرى كفاية ؛ فإن الذَّوْد إلى الذود إبل ، ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه يتهدم ! ثم إنى آمركم بالشدة فى الأمر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأن لاتغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله .

قال نصر : ثم قام ابنهُ الحسن بن على عليهما السلام ، فقال :

الحمدُ لله لا إله غيرُه ولا شريك له ·

ثم قال : إنّ مما عَظّم الله عليكم من حَقِّه ، وأسبَغ عليكم من نِعمه مالا يحصى ذكره ؛ ولا يؤدّى شكره ، ولا يبلغُه قولٌ ولا صفة ؛ ونحن إنما غضِبنا لله ولكم ؛ إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلا اشتدّ أمرُهم ، واستحكمت عُقْدتهم. فاحتشِدوا فى قتل عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تخاذلوا ، فإنّ الخذلان يقطعُ نياط القلوب ؛ وإن الإقدام على الأسِنّة نخوة وعِصْمة ؛ لم يتمنع (٢) قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العِلّة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

---

(١) صفين : « الفجرة » ؟

(٢) صفين : « لم يمتنع » ، والتمنع والامتناع : العز والقوة .

والصُّلْحُ تأخُذُ منه ما رضيتَ به والحربُ يكفيكَ من أنفاسها جُرَعُ[١]

ثم قام الحسينُ بن عليّ عليه السلام ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال : ياأهلَ الكوفة ، أنتم الأحِبّة الكُرَماء ، والشِّعار دون الدِّثار ، جِدُّوا فى إطفاء مادَثَر بينكم ، وتسهيل[٢] ماتوعّر عليكم ، ألا إنّ الحربَ شرُّها ذَرِيع وطعمها فظيع ؛ فمن أخذها أهْبَتها ، واستعدّ لها عدّتها ، ولم يألمْ كلُومَها قبل حلولها ، فذاك صاحبُها ، ومَنْ عاجلها قبل أوانِ فُرْصَتِها ، واستبصار سعيه فيها ، فذاك قَمِنٌ ألّا ينفع قومَه ، وأن يُهلِك نفسَه ، نسأل الله بقوته أن يَدْعمكم بالفيئة[٣] ثم نزل .

قال نصر : فأجاب عليًا عليه السلام إلى السير جُلُّ الناس ؛ إلا أنّ أصحابَ عبد الله بن مسعود أتوْه ، فيهم عُبيدة السَّلْمانىّ وأصحابه ، فقالوا : له إنا نخرج معكم ، ولا نترك عسكرَكم ونعسكر على حِدَة ، حتى ننظر فى أمركم وأمر أهلِ الشام ؛ فمن رأيناه أراد مالا يحلّ له أو بَدَا لنَامنه بَغْىٌ كُنَّا عليه . فقال لهم على عليه السلام : مَرْحَبًا وأهلا ؛ هذا هو الفقهُ فى الدين ، والعلْم بالسنّة ، مَنْ لم يرضَ بهذا فهو خائن جبار[٤] .

وأتاه آخرُون من أصحاب عبد الله بن مسعود ؛ منهم الربيع بن خُثَيْم ؛ وهم يومئذ أربعمائة رجل ، فقالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا قد شككنا فى هذا القتال ؛ على معرفتنا بفضلك ، ولا غَنَاء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عَمّن يقاتِلُ العدوّ ؛ فولِّنَا بعض هذه الثغور نكمُن[٥] ثم نقاتل عن أهله ؛ فوجَّه علىّ عليه السلام بالربيع بن خُثَيم على ثغر الرّىّ ، فكان أولُ لواء عَقَده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خُثَيْم .

* * *

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمى ، الخزانة : ٢ : ٨٢

(٢) صفين : « إسهال »

(٣) صفين : بألفته »

(٤) صفين : الجهاد

(٤) صفين : « جائر »

(٥) صفين : « تكون به »

قال نصر : وحدّثنى عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عَوْف بن الأحمر ؛ أن [١] عليا عليه السلام لم يبرح النُّخَيْلة ، حتى قَدِم عليه ابنُ عباس بأهل البصرة . قال : وكان كتاب على عليه السلام إلى ابن عباس :

أما بعدُ ، فاشخَصْ إلىّ بمَنْ قِبَلَك من المسلمين والمؤمنين ، وذكِّرهم بلائى عندهم ، وعَفْوِى عنهم فى الحرب ، وأعلِمْهم الذى لهم فى ذلك من الفَضْل ، والسلام .

قال : فلما وصلَ كتابُه إلى ابن عباس بالبصرة ، قام فى الناس ، فقرأ عليهم الكتاب ، وحَمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أيها الناس ، استعدُّوا للشُّخُوص إلى إمامكم ، وانفِروا خِفَافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ؛ فإنكم تقاتلون المحلِّين القاسطين ؛ الذين لا يقرءون القرآن ، ولا يعرفون حكم الكتاب ، ولا يَدِينون دينَ الحق ؛ مع أميرِ المؤمنين ، وابن عمّ رسول الله ، الآمرِ بالمعروف ، والناهى عن المنكَرْ ، والصادع بالحقّ ، والقيِّم بالهدى ، والحاكِم بحكم الكتاب الذى لا يرتشِى فى الحُكم ، ولا يُداهِن الفُجّار ، ولا تأخذُه فى الله لومةُ لائم .

فقام إليه الأحنفُ بن قيس ، فقال : نعم والله لنجيبَنّك ، ولنخرجَنّ معك على العُسْر واليسر ، والرضا والكُرْه ، نحتسب فى ذلك الأجْر ، ونأملُ به من الله العظيم حسنَ الثواب .

وقام خالد المعمر السَّدُوسِىّ ، فقال : سمِعْنا وأطعنا ؛ فمتى استَنْفرْتَنَا نفَرْنا ، ومتى دعوتَنا أجبنا .

وقام عمرو بن مرحوم العبدىُّ ، فقال : وفّقَ الله أميرَ المؤمنين ، وجمع له أمرَ المسلمين ،

---

(١) كتاب صفين ١٣٠

ولعن المحلّين القاسطين ، لايقرءون القرآن ؛ نحن والله عليهم حَنقون ، ولهم فى الله مفارقون؛ فمتَى أردتَنا صحبكِ خيلُنا (١) ورجالُنا إن شاء الله .

قال : وأجابَ الناسُ إلى المسير ، ونَشطوا وخَفّوا ؛ فاستعمل ابنُ عباس على البَصْرة أبا الأسود الدُّؤَلىّ ، وخرج حتى قدم على علىّ عليه السلام بالنُّخَيْلة ،

* * *

[كتاب محمد بن أبى بكر إلى معاوية وجوابه عليه]

قال نصر : وكتب محمد بن أبى بكر إلى معاوية :

من محمد (٢) بن أبى بكر إلى الغاوى معاوية بن صخر ، سلامٌ على أهل طاعة الله ممّن هو سِلْمٌ (٣) لأهل ولاية الله . أما بعد ؛ فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته ، خَلَق خَلْقا بلا عَبَث ولا ضعف فى قوته ؛ لاحاجة به إلى خَلْقهم ، ولكنه خَلَقَهم عبيدا ، وجعل منهم شقيا وسعيدا ، وغويًّا ورشيدا ، ثم اختارهم على عِلْمه ، فاصطفى وانتخب منهم محمدا صلى الله عليه وآله ، فاختصّه برسالته ، واختاره لوحيه ، وائتمنه على أمره ، وبعثه رسولا مصدِّقا لما بين يديه من الكتب ، ودليلًا على الشرائع ؛ فدعا إلى سبيل أمره بالحِكْمة والموعظة الحسنة ؛ فكان أوّلَ مَنْ أجاب وأناب ، وصدّق [ووافق] (٤) فأسلم وسلّم ، أخوه وابنُ عمّه على بن أبى طالب عليه السلام ، فصدّقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كلّ حميم ، ووقاه كلّ هَوْل ، وواساه بنفسه فى كلّ خوف ؛ فحارب حَرْبه ، وسالم سِلْمه ؛ فلم يبرَحْ مبتذِلًا لنفسه فى ساعات الأزْل (٥) ، ومقامات الرَّوْع ؛ حتى برّز سابقا

(١) صفين : « ورجلنا »
(٢) فى صفين : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن أبى بكر .
(٣) صفين : « مسلم »
(٤) من صفين
(٥) الأزل : الشدة والضيق .

لا نظير له فى جهاده ، ولا مقاربَ له فى فعله ؛ وقد رأيتُك تساميه وأنت أنت ؛ وهو هو السابق المبرّز فى كلّ خير ؛ أوّلُ النَّاس إسلاما ، وأصدق الناس نِيّة ، وأطيَبُ الناس ذُرِّية ، وأفضلُ الناس زَوْجَة ، وخير الناس ابنَ عَمّ . وأنت اللعينُ ابن اللعينُ ، لم تزَلْ أنت وأبوك تبْغِيان لدين الله الغوائل ، وتجتهدان على إطفاء نور الله ؛ وتجمعان على ذلك الجموع ، وتَبْذُلان فيه المال ، وتحالفان فى ذلك القبائل ؛ عَلَى هـذا مات أبوك ، وعلى ذلك خَلَفْتَه ، والشاهد عليك بذلك مَنْ يأوى ويلجأ إليك ؛ من بقيّة الأحزاب ورءوس النفاق والشقاق لرسول الله صـلى الله عليه وآله ؛ والشاهد لعلىّ مع فضله وسابقته القديمة أنصارُه الذين ذكرهم الله تعـالى فى القرآن ، ففضّلهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار ؛ فهم معه كتائبُ وعصائب ؛ يجالدون حولَه بأسيافهم ، ويُهَرِيقون دماءهم دونه ؛ يرون الفضل فى اتّباعه ، والشِّقَاق والعصيان فى خلافه ؛ فـكيف يالك الويل ! تعدِلُ نفسك بعلىّ ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وأبو ولده ، وأوّلُ النَّاسِ له اتباعا ،وآخرهم به عهدا ، يخبرُه بسرِّه ، ويُشْرِكه فى أمره ؛ وأنت عدوّه ؛ وابن عدوّه، مااستطعتَ بباطِلك وليمددك ابن العاص فى غَوايتك ؛ فـكأن أجلَك قد انقضى ، وكيدك قد وَهَى ، وسوف تستبين لمن تـكون العاقبة العليا . واعلم أنّك إنما تـكايد رَبَّك الذى قد أمِنْتَ كيده ، وأيسْتَ من روحه ، وهُوَ لَكَ بالمِرْصاد ؛ وأنت منه فى غرور بالله ، وبأهل بيت رسوله عنك الغَناء! والسلام على من اتبع الهدى .

* * *

فـكتب إليه مُعاوية :

من معاوية بن أبى سفيان، إلى الزّارى على أبيه محمد بن أبى بكر ، سلام على أهل طاعة الله ، أما بعد ؛ فقد أتانِى كتابُك تذكر فيه ما الله أهلُه فى قدرته وسلطانه ، وما أصفَى به نَبيّه ، مع كلام ألّفته ووضعته ؛ لرأيك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف ؛ ذكرتَ حقّ

ابن أبى طالب وقديمَ سابقته ، وقرابتَه من نبى الله ونصرتَه له ، ومواساته إياه ؛ فى كلِّ خوف وهَوْل ؛ واحتجاجَك علىَّ ، وفخرك بفضل غيرك ؛ لا بفضلك . فاحمد إلهاً صرف ذاك الفضل عنك ، وجعله لغيرك ؛ فقد كُنّا وأبوك معنا فى حياة نبينا ؛ نرى حقَّ ابن أبى طالب لازِما لنا ، وفضله مبرزاً علينا ؛ فلما اختار الله لنبيه ما عنده ، وأتمَّ له ما وَعَده ، وأظهر دعوتَه ، وأفلج حُجّتَه ، قبضه الله إليه، فكان أبوك وفاروقُه ، أوّل من ابتزّه وخالفه ؛ على ذلك اتّفقا واتسقا[1] ؛ ثم دعَوَاه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهمّا به الهموم؛ وأرادا به العظيم ؛ فبايعهما وسلّم لهما، لا يشركانه فى أمرها ، ولا يطلعانه على سرّهما ؛حتى قبضا وانقضى أمرها . ثم أقاما بعدها ثالثهما عثمان بن عفان، يهتدى بهديهما ، و يسير بسيرتهما ، فعبتَه أنت وصاحبُك ، حتى طمع فيه الأقاصى من أهل المعاصى ، و بطنتُما له وظهرتما[2] ، وكشفتما له عداوتَكما وغِلّكما ، حتى بلغتما منه مناكما ؛ فخذ حذرَك يا ابن أبى بكر ، فسترى و بالَ أمرك ، وقِسْ شبرَك بفترك ،تقصُرْ عن أن تساوىَ أو توازىَ مَنْ يَزِنُ الجبال حلمه ، ولا تَلِينُ على قَسْرٍ قَنَاتُه ، ولا يُدرِك ذو مَدًى أناتَه ، أبوك مَهّد له مِهَاده ، و بنَى مُلْكه وشاده ؛ فإن يكنْ ما نحن فيه صوابا فأبوك أوله ، و إن يكن جَوْراً فأبوك أسّه[3] ونحن شركاؤه ، فبهَدْيِه أخذنا ، و بفعله اقتدينا ؛ رأينا أباك فعلَ ما فعل ، فاحتذَيْنا مثاله ، واقتدينا بفعالِه ، فعِبْ أباك بما بدالك ، أودع ، والسلام على من أنابَ ورجع من غوايته وناب .

* * *

قال: وأمر على عليه السلام الحارث الأعور أن ينادِىَ فى الناس : اخرُجوا إلى معسكركم

---

(١) صفين : « وانشقا »
(٢) صفين : « أظهرتما »
(٣) صفين : « أسسه » .

بالنُّخَيلة ، فنادى الحارث فى الناس بذلك ، و بعث إلى مالك بن حبيب اليربوعىّ صاحب شرطته ، يأمره أن يحشُر الناس إلى المعسكر ، ودعا عُقْبة بن عمرو الأنصارىّ ، فاستخلفه على الكوفة ــ وكان أصغر أصحاب العَقَبة السبعين ، ثم خرج عليه السلام ، وخرج الناس معه .

قال نصر : ودعا على عليه السلام زياد بن النَّضْر ، وشريح بن هانئ ــ وكانا على مَذْحِج والأشعريين ــ فقال : يا زياد ، اتَّقِ الله فى كل مُمْسًى ومُصْبَح ، وخَفْ على نفسك الدنيا الغرور ؛ ولا تأمنها على حال ، واعلم أنك إن لم تزَعْها عن كثير مما تحبّ مخافة مكروهه ، سَمَتْ بك الأهواء إلى كثير من الضّرر ، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغى والظلم والعدوان ؛ فإنى قد وليتك هذا الجُنْد ، فلا تستطيلنّ عليهم ؛ إنّ خيرَكم عند الله أتقاكم ؛ تعلّم من عالمهم ؛ وعَلّم جاهلهم ، واحلم عن سَفِيههم ؛ فإنك إنما تدرك الخير بالحلْم وكفّ الأذى والجهل [١] .

فقال زياد : أوْصَيْتَ يا أمير المؤمنين حافظا لوصيّتك مؤديا لأرَبك ، يرَى الرُّشْد فى نفاذِ أمرك ، والغَىّ فى تضييع عهدك .

فأمرهما أن يأخذا فى طريق واحد ولا يختلفا ، وبعثهما فى اثنى عشر ألفا على مقدّمته ، وكلٌّ واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش ؛ فأخذ شريح يعتزلُ بمن معه من أصحابه على حدَة ، ولا يقرب زيادا ، فكتب زياد إلى على عليه السلام مع مَوْلًى له يقال له شوذب :

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين ؛ من زياد بن النَّضْر .

سلام عليك ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنك ولَّيْتنى أمرَ

---

(١) الجهل هنا : السفاهة والغضب .

الناس ؛ وإن شُرَيحاً لا يرىٰ بى عليه طاعة ولا حقا ؛ وذلك من فِعْله بى استخفاف بأمرك ، وتركٌ لعهدك ، والسلام .

وكتب شريح بن هانئ إلى على عليه السلام :

لعبد الله على أمير المؤمنين من شُرَيح بن هانىء ، سلام عليك ؛ فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ ؛ فإنّ زياد بن النضر حين أشركتَه فى أمرك ، وولّيته جنداً من جنودك ، طَغى واستكبر ، ومال به العُجْب والُخيَلاء والزَّهْو إلى ما لا يَرْضَى الله تعالى به من القَوْل والفعل ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين عليه السلام أن يعزِلَه عنّا ويبعث مكانه مَنْ يحبّ فليفعل ؛ فإنا له كارهون ، والسلام .

فكتب على عليه السلام إليهما :

من عبد الله على[1] أمير المؤمنين إلى زياد بن النَّضْر وشُرَيح بن هانئ سلامٌ عليكما ، فإنّى أحمَد إليكما الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنى قد وَلَّيتُ مقدّمتى زيادَ ابن النضر ، وأمّرتُه عليها ، وشُرَيح بن هانئ عَلَى طائفة منها أمير ؛ فإن انتهى جمعكما إلى بأس فزياد بن النَّضْر عَلَى الناس كلِّهم ؛ وإن افترقتما ، فكلٌّ واحدٍ منكما أميرُ الطائفة التى وليّناه أمرَها ؛ واعلما أنّ مقدّمة القوم عُيونُهم ، وعيونُ المقدّمة طلائعهم ؛ فإذا أنتما خرَجْتما من بلادكما فلا تسأما من توْجِيه الطّلائع ؛ ومن نَقْضِ الشِّعاب[2] والشّجر والَخمر[3] فى كلِّ جانب ؛ كى لا يغترّكما عدوّ ، أو يكون لهم كمِين ، ولا تسيّرنَّ الكتائبَ والقبائل من لَدُنْ الصَّباح إلى المساء إلا على تعبئة ، فإنْ دهمَكم عدوّ أو غشيَكم مكروه ، كنتم قد تقدمتم فى التعبئة ، فإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم ، فليكنْ معسكرُكم فى قُبُل الأشراف أو سِفاح[4]

(١) صفين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . . » .

(٢) يقال : نفض المكان ينفضه ؛ إذا نظر جميع ما فيه حتى يعلم منه ؛ ومنه قول زهير :

وتنفض عَنْهَا غيْبَ كلِّ خَميلةٍ ... وَتخْشَى رماةَ الغوْث من كلِّ مَرْصَدِ

والشعاب : جمع شعبة ؛ وهى ما انشعب وتفرع من الوادى .

(٣) الخمر : ما وارى الإنسان من شجر ونحوه .

(٤) الأشراف : جمع شرف ؛ وهى الأماكن العالية . وسفاح الجبال أسافلها .

الجبال وأثناء الأنهار ؛ كيما يكون ذلك لكم رِدْءًا وتكون مقاتلتكم من وَجْهٍ واحد أو اثنين ؛ واجعلوا رقباء كم[١] فى صياصى الجبال ، و بأعالى الأشراف ، ومناكب الأنهار يرون لكم، كى لا[٢] يأتيكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن. و إيّاكم والتفرّق؛ فإذا نزلتم فانزلوا جميعا ، و إذا رحلتم فارحلوا جميعا ؛ فإذا غشيَكم الليل فنزلتم فحُفّوا عسكرَكم بالرماح والتِّرَسة ، ولتكنْ رماتكم من وراء تِرَاسِكم ورماحكم يَلُونهم . وما أقمتُم فكذلك فافعلوا كى لا تصابَ لكم غَفْلة ، ولا تُلْفَى لكم غِرّة ، فما قوم يحُفُّون عسكرَهم برماحهم وتِرَستهم[٣] من ليل أو نهار إلا كانوا كأنّهم فى حصون . واحرُسا عسكركما بأنفسكما ، و إيا كما أن تذوقا نَوْماً حتى تُصْبِحا إلا غِرَارا أو مَضْمضة[٤] . ثم ليكن ذلك شأنَكما ودأبَكما حتى تنتهيا إلى عدوّكما ؛ وليكن كلَّ يوم عندى خبرُكما ورسولٌ مِنْ قِبَلِكما. فإنى ــ ولا شىء إلا ما شاء الله ــ حثيثُ السَّيْر فى أَثَرِكما ، عليكما فى جَرْيكما[٥] بالتُّؤَدة ، و إيا كما والعَجَلة؛ إلّا أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة ؛ و إيا كما أن تقاتلا حتى أقدم عَلَيْكُما؛ إلا أن تُبدآ ، أو يأتيَكما أمرى، إن شاء الله.

قال نصر :[٦] وكتبَ علىّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد ــ وكان قد قسَّم عسكرَه أسْبَاعاً ، فجعل عَلَى كل سُبْعٍ أميرا ، فجعل سعد بن مسعود الثقفىّ على قَيْس وعبد القيس ، ومعقِل بن قيس اليربوعىّ على تَميم وضَبّة والرِّباب وقريش

---

(١) صفين : رقباءكم.
(٢) كذا فى ا ، وفى ب ، ج بحذف « كى ».
(٣) الترسة : جمع ترس ؛ وهو صفحة من الفولاذ مستديرة، ويجمع على تراس أيضا.
(٤) الغرار : القليل من النوم . وقوله : « مضمضة » ؛ لما جعل للنوم ذوقا أمرهم ألاينالوا منه إلا بألسنتهم ولا يسيغوه ؛ فشبهه بالمضمضة بالماء وإلقائه من الفم من غير ابتلاع ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٩ . ١٠) ؛ وأورد كلام الإمام.
(٥) صفين : « حربكما »
(٦) صفين ١٣٢ ، ١٤٠ ــ ١٤١

وكنانة وأسد ، ومِخْنف بن سلَيم عَلَى الأزْد وبَجيلة وخَثْعم والأنصار وخُزاعة ، وحُجْر ابن عدىّ الكندىّ على كِنْدة وحَضْرموت وقُضاعة ، وزياد بن النَّضْر على مَذْحِج والأشعريين ، وسعيدَ بن مُرّة الهمْدانىّ على هَمْدان ومَنْ معهم من حِمْيَر ، وعدىّ بن حاتم الطائىّ على طَيِّء ؛ تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج ، وتختلف الرايتان : راية مذحِج مع زياد بن النضر ، وراية طيِّءٍ مع عدىّ بن حاتم ؛ هذه عساكر الكوفة .

وأما عساكر البَصْرة فخالد بن معمر السّدوسىّ على بكر بن وائل ، وعمرو بن مرجوم العبدىّ على عَبْد القيس ، وابن شَيمان الأزدىّ [1] على الأزد ، والأحنف على تَميم وضبّة والرِّباب ، وشريك بن الأعور الحارثىّ على أهل العالية .

أما بعد ، فإنى أبرَأ إليكم من مَعرّة الجنود [2] [إلّا من جوعة إلى شبعة ، ومن فقر إلى غنًى ، أو عمى إلى هدى ؛ فإن ذلك عليهم] [3] . فأَغْرِبوا [4] الناس عن الظلم والعُدْوان ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، واحترِسوا أن تعملوا أعمالًا لا يرضى الله بها عنّا فيردّ بها علينا وعليكم دعاءنا ؛ فإنه تعالى يقول : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [5] .

وإن الله إذا مَقَت قوما من السماء هلكوا فى الأرض ، فلا تألُوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونةً ولا دين الله قوة ؛ وابلُوا فى سبيله ما استوجب عليكم ؛ فإنّ الله قد اصطَنَع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا ، وأن ننصُرَه ما بلغت قوتنا ؛ ولا قوة إلا بالله .

---

(١) فى صفين : صبرة بن شيمان .

(٢) نسب صاحب اللسان هذا القول إلى عمر بن الخطاب ، وقال : « وأما معرة الجيش التى تبرأ منها عمر رضى الله عنه ؛ فهى وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم فى حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه » ؛ وفى صفين : « معرة الجيش » .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤) أغربوا الناس ، أى نحوهم ، وفى صفين « فاعزلوا الناس » .

(٥) سورة الفرقان ٧٧

قال : وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالّذى لهم وعليهم :

أما بعد ؛ فإنّ الله جعلكم فى الحقّ جميعا سواء ؛ أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى ، وجعل الوالى منكم ، بمنزلة الولد من الوالد ، و [بمنزلة] (١) الوالد من الولد ، [الذى لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به ، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم] (١) . فحقّكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم ، والكفّ عن فيئكم ؛ فإذا فعل معكم ذلك ، وجبَتْ عليكم طاعته فيما وافق الحقّ ، ونصرته والدفع عن سلطان الله ، فإنّكم وَزَعة الله فى الأرض ، فكونوا له أعوانا ، ولدينه أنصارا ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، إن الله لا يحب المفسدين .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، قال : حدّثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ ابن نُباتة ، قال : قال علىّ عليه السلام : ما يقول الناس فى هذه القبر ؟ ـ بالنُّخَيلة ، و بالنُّخَيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله ـ فقال الحسن بن على عليهما السلام : يقولون هذا قبر هود لما عصاه قومه ،جاء فمات هاهنا ، فقال : كذبوا؛ لأنا أعلم به منهم ! هذا قبر يهودَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، بِكْر يعقوب ؛ثم قال :أهاهنا أحد من مَهَرة (٢)؟ فأُتِىَ بشيخ [كبير] (١)، فقال : أين منزلُك ؟ قال : على شاطئ البحر ، قال : أين أنت من الجبل ؟ قال : أنا قريب منه ، قال : فما يقول قومك فيه ؟ قال : يقولون : إن فيه قبر ساحر ، قال : كذبوا ، ذاك قبر هود النبىّ عليه السلام وهذا قبر يهودا بن يعقوب . ثم قال

---

(١) تكملة من كتاب صفين

(٢) مهرة : حى من اليمن

عليـه السلام : يُحشَر من ظهر الـكوفة سبعون ألفا على غُرّة الشمس ، يدخلون الجنة بغير حساب .

قال نصر : فلما نزَل على عليه السلام النُّخَيْلة متوجّها إلى الشام، و بلغ معاوية خبرُه ، وهو يومئذ بدمشق ، قد ألبَس منبر دمشق قميص عثمان مختضباً بالدم ، وحول المِنبر سبعون ألف شيخ ، يبكون حوله لا تجفّ دموعهم عَلَى عثمان ، خطبهم ، وقال :

يا أهل الشام ، قد كنتم تـكذّبوننى فى علىّ ، وقد استبان لـكم أمرُه ؛ والله ما قتَل خليفتَـكم غيرُه ، وهو أمرَ بقتله ، وألّب الناس عليه ، وآوى قَتَلَتَهُ ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتـكم . يا أهل الشام ، اللهَ اللهَ فى دم عثمان ! فأنا وليُّه وأحقّ مَنْ طلب بدمه ؛ وقد جعل الله لولىّ المقتول ظلما سلطانا ، فانصروا خليفتَـكم المظلوم ، فقد صنع القوم به ما تعلمون ، قتلوه ظُلْماً و بغيا ؛ وقد أمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .

ثم نزل .

قال نصر : فأعطوْه الطاعة وانقادوا له ، وجمع إليه أطرافه ، واستعدّ للقاء علىّ عليه السلام .

(٤٧)

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر الكوفة :

الأصلُ :

كَأَنِّى بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ ٱلْأَدِيمِ ٱلْعُكَاظِيِّ ، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ، وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ ، وَإِنِّى لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءًا إِلَّا ٱبْتَلَاهُ ٱللهُ بِشَاغِلٍ، أَوْ رَمَاهُ[1] بِقَاتِلٍ .

* * *

الشَّرحُ :

عكاظ : اسم سُوق للعرب بناحية مكة ، كانوا يجتمعون بهـا فى كلّ سنة ، يقيمون شهرا ويتبايعون ويتناشدون شعرا ويتفاخرون ، قال أبو ذُؤَيب:

إذا بُنِي القِبَـــابُ عَلَى عُـكَاظٍ وَقَامَ ٱلْبَيْعُ وَٱجْتَمَعَ الأُلُوفُ[2]

فلما جاء الإسلام هدم ذلك ؛ وأكثر ما كان يُباع الأديم بها ، فنسب إليها . والأديم واحد والجمع أدُم ، كما قالوا : أفيق للجلد الذى لم تتمّ دباغته ، وجمعه أُفُق . وقد يجمع أدِيم على آدِمة ، كما قالوا : رغيف وأرغفة .

والزلازل هاهنا : الأمور المزعجة ، والخطوب المحرّكة .

---

(١) مخطوطة النهج : « ورماه » .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ ؛ وفى شرحه : « على عكاظ ، يريد بعكاظ ، ويقال : فلان نازل على فلان ، وعلى ضريبة ، أى بها ، قام البيع ، يريد قامت السوق » .

وقوله عليه السلام : « تُمَدِّين مَدَّ الأديم » ، استعارة لما ينالها من العَسْف والخبط .

وقوله : « تُعْرَكِين » ؛ من عَرَكَتِ القومَ الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم .

[فصل فى ذكر فضل الكوفة]

وقد جاء فى فضل الكوفة عن أهْل البيت عليهم السلام شىء كثير ، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام : نعمت المَدَرة .

وقوله عليه السلام : إنه يُحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفا ، وجوهُهم عَلَى صُورة القمر .

وقوله عليه السلام : هذه مدينَتُنا ومحَلّتنا ، ومقرّ شيعتنا .

وقول جعفر بن محمد عليه السلام : اللهم ارْمِ من رَماها ، وعادِ مَنْ عاداها .

وقوله عليه السلام : تربَةٌ تحبّنا ونُحبُّها .

* * *

فأمّا ما همّ به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء ، ودفاع الله تعالى عنها ؛ فكثير .

قال المنصور لجعفر بن محمد عليهما السلام : إنى قد هممتُ أن أبعثَ إلى الكوفة مَنْ ينقضُ منازِلَها ، ويُجَمِّر [1] نخلَها ، ويستصفى أموالها ، ويقتل أهل الريبة منها ، فأشِرْ علىّ . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن المرء ليقتدِى بسلفه ، ولك أسلاف ثلاثة : سليمان أُعطِىَ فشكر ، وأيوب ابتلِىَ فصبر ، ويوسف قَدَر فغفر ؛ فاقتد بأيّهم شئت . فصمت قليلا ، ثم قال : قد غفرت .

---

(١) جمر النخلة ؛ أى قطع جمارها .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ فى كتاب " المنتظم " أن زياداً لما حَصَبَهُ أهلُ الكوفة ، وهو يخطب على المِنبَر، قطع أيدى ثمانين منهم ، وهمّ أن يخرّب دورَهم ، ويُجَمِّرَ نخلَهم ، فجَمَعهم حتى ملأ بهم المسجد والرَّحَبة ، يعرضهم على البراءة من علىّ عليه السلام ؛ وعلم أنّهم سيمتنعون ، فيحتجّ بذلك على استئصالهم ، وإخراب بلدهم .

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصارىّ : فإنى لَمَعَ نفرٍ من قومى ، والناس يومئذ فى أمر عظيم ؛ إذْ هَوّمت تهويمةً [1] ، فرأيت شيئا أقبل ، طويل العنق ، مثل عُنُق البعير أهدر أهدل [2] ، فقلت : ماأنت ؟ فقال : أنا النَّقّاد ذو الرقبة ، بُعِثت إلى صاحب هذا القصر ، فاستيقظت فزعا ، فقلت لأصحابى : هل رأيتم مارأيت ؟ قالوا : لا ؛ فأخبرتُهم ، وخرج علينا خارج من القصر ، فقال : انصرفوا ، فإن الأمير يقول لكم : إنى عنكم اليوم مشغول ؛ وإذا بالطاعون قد ضربه ، فكان يقول : إنّى لأجِد فى النِّصْف من جسدى حر النار حتى مات ، فقال عبد الرحمن بن السائب :

مَا كَانَ مُنْتَهِياً عَمّا أرادَ بِنَا حَتَى تَنَاوَلَهُ النَّقَّادُ ذُو الرَّقَبَهْ

فأثبَتَ الشِّقَّ منهُ ضربةٌ عَظُمَتْ كما تناول ظُلْماً صاحبُ الرَّحَبَهْ [2]

قلت : قد يظن ظان أن قوله : « صاحب الرحبة » يمكن أن يحتجّ به من قال : إنّ قبر أمير المؤمنين عليه السلام فى رَحَبة المسجد بالكوفة ؛ ولا حجة فى ذلك ، لأنّ أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه فى رَحَبة المسجد ، يحكم بين الناس . فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار .

---

(١) التهويم : هز الرأس من النعاس .

(٢) يقال : هدر البعير ؛ صوت فى غير شقشقة ؛ والجمل الأهدل : المسترخى المشفر .

(٤٨)

ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام :

الأصل :

الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ ، وَلَا مُكَافَإِ الإِفْضَالِ . أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي ، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ ؛ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ ، مُوَطِّنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

يعني عليه السلام بِالْمِلْطاط هاهنا السَّمْتَ الذِى أمرَهم بلزومه ؛ وهو شاطئ الفُرات ، ويقال ذَلِكَ أيْضاً لِشَاطِئ البحر ، وأصْله ما استَوَى مِنَ الأَرْض . ويعني بالنُّطْفَةِ ماء الفُرات ، وهو من غريب العِبارات وعجيبها .

* * *

الشَّرْحُ :

وقب الليل ؛ أى دخل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [1] .

وغسق ، أى أظلم . وخفق النجم ، أى غاب .

---

(١) سورة الفلق ٣

ومقدِّمة الجيش ، بكسر الدال : أوله ؛ وما يتقدّم منه على جمهور العسكر ؛ ومقدَّمة الإنسان ، بفتح الدال : صدره .

والمِلْطَاط : حافّة الوادى وشَفِيرُه وساحل البحر ، قال رؤبة :

* نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالْمِلْطَاطِ *

قال الأصمعىّ : يعنى به ساحلَ البحر ، وقول ابن مسعود : هـذا المِلطاط طريق بقيّة المؤمنين ، هُرّابا من الدّجّال ـ يعنى به شاطىء الفرات .

فأما قول الرضى رحمه الله تعالى : «الملطاط : السّمْت الذى أمرهم بلزومه وهو شاطىء الفرات ، ويقال ذلك لشاطىء البحر »، فلا معنى له ؛ لأنه لافرق بين شاطئ الفرات وشاطئ البحر ، وكلاهما أمر واحد ، وكان الواجب أن يقول : المِلْطاط : السمت فى الأرض ، ويقال أيضاً لشاطىء البحر .

والشُرْذمة : نفر قليلون .

وموطّنين أكناف دجلة ، أى قد جعلوا أكنافها وَطَناً ، أوطنت البُقعة .

والأكناف : الجوانب ، واحدها كَنَف . والأمداد : جمع مَدَد ، وهو ما يُمَدّ به الجيش تقوية له .

وهذه الخطبة خطب بها أميرُ المؤمنين عليه السلام وهو بالنُّخَيلة خارجا من الكوفة ومتوجِّهـا إلى صِفّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين ؛ ذكرها جماعة من أصحاب السير، وزادوا فيها : « وقد أمّرْت على المِصْر عُقْبة بن عمرو ، ولم آلكم ولا نفسى ؛ فإيّاكم والتخلّف والتربّص ؛ فإنى قد خَلّفت مالك بن حبيب اليربوعىّ ، وأمرْتُه ألّا يترك متخلّفا الا ألحقه بكم عاجلا، إن شاء الله » (١)

---

(١) صفين ١٤٨

وروى نصر بن مزاحم عوض قوله : « فانهضهم معكم إلى عَدُوّكم » فأنهِضْهُم معكم إلى عدو الله ».

قال نصر : فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحيّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ والله ما يتخلّف عنك إلّا الظَّنين ، ولا يتربَّصُ بك إلا منافق ، فَمُرْ مالكَ بن حبيب فليضرِبْ أعناقَ المتخلّفين . فقال : قد أمَرْتُه بأمرى ، وليس بمقصِّر إن شاء الله .

[أخبار عليّ في جيشه وهو في طريقه إلى صفين]

قال نصر بن مزاحم : ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بَهُرَسِير [1] ؛ وإذا رجل من أصحابه يقال له حُرّ بن سهم بن طَريف ، من بنى رَبِيعة بن مالك ، ينظر إلى آثار كسرى ؛ ويتمثل بقول الأسود بن يَعْفُر :

جَرَتِ الرِّياحُ على محلّ ديارِهمْ فكأنما كانوا على ميعادِ [2]

فقال له عليه السلام : ألا قلت : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ [3] ﴾ ؛ إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا مورَثين ، ولم يشكروا النّعمة ، فسلِبُوا دنياهم بالمعصية . إياكم وكُفْرَ النِّعم ، لا تحلّ بكم النِّقم ، انزلوا بهذه الفَجْوة [4] .

* * *

(١) بهرسير : بلد قرب المدائن .
(٢) من قصيدة له فى المفضليات ٢١٦ ـ ٢٢٠
(٣) سورة الدخان ٢٥ ـ ٢٩
(٤) الفجوة : المكان المتسع فى الأرض ؛ وفى صفين « النجوة » ؛ وهو المكان المرتفع .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور عن حَبّة العرنىّ ، قال : أمر على عليه السلام الحارث الأعور ؛ فصاح فى أهل المدائن : مَنْ كان من المقاتلة فليوافِ أميرَ المؤمنين عليه السلام صلاةَ العصر . فوافوْه فى تلك الساعة ، فحمِد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ؛ فإنى قد تعجَّبْت مِنْ تخلفكم عن دَعْوتكم ، وانقطاعكم عن أهل مِصْركم فى هذه المساكن ؛ الظالم أهلها ، الهالك أكثر ساكنيها ، لا معروف يأمرون به ، ولا منكَر ينهوْن عنه .

قالوا : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّا كنا ننتظِر أمرَك ، مُرْنا بما أحببت ؛ فسارَ وخلّف عليهم عدىّ بن حاتم ، فأقام عليهم ثلاثا ثمّ خرج فى ثمانمائة رجل منهم ، وخلّف ابنه زيدا بعده ، فلَحِقه فى أربعمائة رجل منهم .

وجاء علىّ عليه السلام حتى مَرّ بالأنبار ، فاستقبله بنو خشْنُوشَكْ[1] ؛ دهاقينها .

ـ قال نصر : الكلمة[2] فارسية ، أصلها « خُشْ » أى الطيب ـ .

قال : فلما استقبلوه ، نزلوا عن خيولهم ، ثم جاءوا يشتدون معه ، و بين يديه ومعهم براذِين ، قد أوقفوها فى طريقه ، فقال : ماهذه الدّوابّ التى معكم ؟ وما أردتُم بهذا الذى صنعتم ؟ قالوا : أمّا هذا الذى صنعنا ، فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء ؛ وأمّا هذه البراذين فهدّية لك ، وقد صنعنا للمسلمين طعاما ، وهيأنا لدوابّكم عَلفا كثيراً .

فقال عليه السلام : أما هذا الذى زعمتم أنه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء ؛ وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا

---

(١) فى الأصول « خشوش » ، وما أثبته من كتاب صفين .

(٢) العبارة كما فى كتاب صفين : « قال سليمان : خش : طيب . نوشك : راض ، يعنى بنى الطيب الراضى بالفارسية » .

له . وأمّا داوبتكم هذه ؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم ، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا ؛ فإنّا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلا بثمن . قالوا : ياأمير المؤمنين ، نحن نقوّمه ثم نقبل ثمنه ، قال : إذاً لاتقوِّمونه قيمته ، نحن نكتفى بما هو دونه . قالوا : ياأمير المؤمنين ؛ فإنّ لنا من العرب موالِيَ ومعارف ؛ أتمنعنا أن نُهْدِيَ لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا ؟ فقال : كلُّ العرب لكمُ موالٍ ، وليس ينبغى لأحد من المسلمين أن يقبل هديتَكم ، وإن غَصَبكم أحد فأعلمونا . قالوا : ياأمير المؤمنين ؛ إنّا نحب أن تُقْبَل هديتُنا وكرامتنا . قال . وَيْحكم! فنحن أغْنى منكم. وتركهم وسار .

* * *

قال نصر : وحدثنا عبد العزيز بن سياه ، قال : حدّثنا حبيب بن أبى ثابت ، قال : حدثنا [أبو] (1) سعيد التيمىّ المعروف بعَقِيصَى، قال : كُنّا مع علىّ عليه السلام فى مسيره إلى الشام ؛ حتى إذا كُنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد ، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء ، فانطلق بنا علىّ عليه السلام حتى أتى [بنا] (1) إلى صخرة ضِرْس (2) فى الأرض ؛ كأنّها رُبْضَةُ عنز (3) ؛ فأمرنا فاقتلعناها ، فخرج لنا من تحتها ماء ، فشرب الناس منه ، وارتوَوْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضى قليلا ، قال عليه السلام : أمِنكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فانطلِقوا إليه ، فانطلق مِنّا رجالٌ ركبانا ومشاة ، فاقتصصنا الطريق إليه ؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنه فيه ، فطلبناه ، فلم نقدر على شىء ، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى دَيْرٍ قريب

(1) من صفين والقاموس .

(2) الضرس : الأكمة الخشنة .

(3) الربضة ، بضم الراء ويقال بكسرها ؛ مقدار جثة العنز إذا ربضت ؛ وفى الأثر : « جاء بثريد كأنه ربضة أرنب » ؛ أى جثتها . راجع اللسان.

مِنّا ، فسألناهم : أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا : ليس قُرْبَنا ماء ، فقلنا : بلى إنّا شربنا منه ، قالوا : أنتم شَرِبْتم منه ! قلنا : نعم ، فقال صاحب الدَّيْر : والله ما بُنِي هذا الدير إلا بذلك الماء ، وما استخرجه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ .

قال نصر : ثم مضى عليه السلام ؛ حتى نزل بأرضِ الجزيرة ، فاستقبله بنو تَغْلِب والنَّمِر بن قاسط بجَزُور [١] ، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبي: يا يزيد ، قال : لَبَّيك ياأمير المؤمنين ! قال : هؤلاء قومُك ؛ من طعامهم فاطْعَم ، ومن شرابهم فاشرب .

قال : ثم سار حتى أتى الرَّقّة ــ وجلّ أهلها عثمانية ، فرّوا من الكوفة إلى معاوية ــ فأغلقوا أبوابَها دونه ، وتحصّنوا ، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسديّ فى طاعة معاوية ، وقد كان فارق عليا عليه السلام فى نحو من مائة رجل من بنى أسد ، ثم كاتب معاوية ، وأقام بالرّقّة حتى لِحَق به منهم سبعمائة رجل .

قال نصر : فروى حَبّة أن عليا عليه السلام لما نزل على الرّقة ،نَزَل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات ، فنزل راهب هناك من صَوْمعته ، فقال لعليّ عليه السلام : إنّ عندنا كِتابا توارثناه عن آبائنا ، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم ، أعرِضه عليك ؟ قال : نعم ، فقرأ الراهب الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . الذى قضى فيما قضى ، وسَطّر فيما كتب [٢] : أنه باعثٌ فى الأميين رسولا منهم ؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمة ، ويدلّهم على سبيل الله ، لا فظٌّ ولا غليظ ؛ ولا صَخّابٌ فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفُو ويصفح ، أمّته الحمادون الذين يحمَدون الله على كل نَشْز [٣] ، وفى كلّ صَعود وهَبوط ، تذِلّ ألسنتهم

(١) الجزور : الناقة التى تنحر ؛ وفى صفين : « بالجزيرة » .
(٢) صفين : « فيما سطر » .
(٣) النشز : المكان المرتفع ، كالنشاز .

بالتكبير والتهليل ، والتسبيح ؛ وينصرُه الله على من ناوأه ؛ فإذا توفّاه الله ، اختلفت أمتهُ من بعده ؛ ثم اجتمعت ، فلبثت ما شاء الله ، ثم اختلفت ، فيمرّ رجل من أمته بشاطئ هذا الفُرات ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقضى بالحقّ ولا يركُس [1] الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرّماد فى يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الظمآن [2] ، يخاف الله فى السرّ ، وينصح له فى العلانية ، لا يخاف فى الله لومةَ لائم ؛ فمن أدرك ذلك النبيّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضوانى والجنة ، ومَنْ أدرك ذلك العبدَ الصالح فلينصرْه ؛ فإنّ القتل معه شهادة .

ثم قال له : أنا مصاحبُك ، فلا أفارقُك حتى يصيبَنى ما أصابك . فبكى عليه السلام ، ثم قال : الحمد لله الذى لم أكنْ عنده منسيا ، الحمد لله الذى ذكرنى عنده فى كُتُب الأبرار .

فمضى الراهب معه ، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أمير المؤمنين ويتعشّى ، حتى أصيب يوم صفين ؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم ، قال عليه السلام : اطلبوه ، فلما وجدوه صلّى عليه ودفنه . وقال : هذا مِنّا أهلَ البيت ، واستغفر له مرارا .

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم فى كتاب " صفين " [3] عن عمر بن سعد ، عن مسلم الأعور ، عن حبة العرنىّ . ورواه أيضا إبراهيم بن ديزيل الهمدانىّ ، بهذا الإسناد عن حبّة أيضا فى كتاب صفين .

* * *

وروى ابن ديزيل فى هذا الكتاب ، قال : حدّثنى يحيى بن سليمان ، قال : حدّثنى يحيى بن عبد الملك بن حُميد بن عتيبة ؛ عن أبيه ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبيه ومحمد

---

(٢) الركس : رد الشىء مقلوبا ، وفى صفين : « ولا يرتشى فى الحكم » .
(٣) صفين : « الظماء »
(٤) كتاب صفين لنصر ١٦٤ — ١٦٥

ابن فُضَيل ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رَجاء ، عن أبى سَعِيد الُخدْرِىّ ، رحمه الله قال : كنـا مع رسول الله صـلى الله عليـه وآله ، فانقطع شِسْعُ[١] نعلِه ، فألقـاها إلى على عليه السلام يُصلحها ، ثم قال : « إنّ منكم مَنْ يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلتُ على تنزيله » ، فقال أبو بكر الصديق : أنا هو يا رسول ! فقال : لا ، فقال عمر بن الخطاب : أنا هو يا رسول الله ! قال : « لا ، ولـكنه ذَاكُم خَاصفُ النعل » ـ ويَدُ علىّ عليه السلام على نَعْل النبى صلى الله عليه وآله يصلحها .

قال أبو سعيد : فأتيتُ عليا عليه السلام فبشّرته بذلك فلم يحفِل به ، كأنه شىء قد كان علمه من قبل .

* * *

وروى ابن ديزيل فى هذا الـكتاب أيضاً ، عن يحيى بن سليمان ، عن ابن فُضَيل ، عن إبراهيم الهَجَرىّ ، عن أبى صادق ، قال : قَدِم علينا أبو أيوب الأنصارىّ العِراق ، فأهْدَت له الأزد جُزرا[٢] ، فبعثوها معى ، فدخلت إليه فسلّمت عليه ، وقلت له : ياأبا أيوب ، قد كرّمك الله عزّ وجلّ بصحبة نبيه صـلى الله عليه وآله ، ونزوله عليك ، فمالى أراك تستقبل الناس بسيفك ، تقاتلهم هؤلاء مرة ، وهؤلاء مرة ! قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله عَهِد إلينا أن نقاتل مع علىّ الناكثين ، فقد قاتلناهم ، وعهد إلينا أن نقاتلَ معه القاسطين ؛ فهذا وَجْهُنا إليهم ـ يعنى معاوية وأصحابه ـ وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين ، ولم أرهم بعد .

وروى ابن ديزيل أيضا فى هذا الـكتاب ، عن يحيى ، عن يَعْلى بن عُبيد الحنفىّ ، عن إسمعيل السّدىّ ، عن زيد بن أرقم ، قال : كنـا مع رسول الله صـلى الله عليـه وهو

---

(١) الشسع : قبال النعل ؛ وهو زمام بين الإصبع الوسطى والتى تليها
(٢) الجزر : جمع الجزور ؛ وهو مايذبح من الإبل

فى الحُجْرة يُوحَى إليه ، ونحن ننتظره حتى اشتدّ الحرّ ، فجاء على بن أبى طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السـلام ؛ فقعدوا فى ظل حائط ينتظرونه ، فلما خرج رسول الله صـلى الله عليه وآله ، رآهم فأتاهم وَوَقَفْنا نحن مكاننا ، ثم جاء إلينا وهو يظلهم بثوبه ، ممسكا بطَرَف الثوب ، وعلىّ ممسِكٌ بطَرَفِه الآخر ؛ وهو يقول : « اللهم إنى أحبّهم ، فأحبّهم ؛ اللهم إنى سِلْم لمن سالَمَهم ، وحرب لمن حاربهم » . قال : فقال ذلك ثلاث مرات .

قال إبراهيم فى الـكتاب المذكور : وحدثنا يحيى بن سليمان ، قال :حدثنا ابن فضيل، قال : حدثنا الحسن بن الحـكَم النَّخَعىّ ، عن رباح بن الحارث النخعىّ ، قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ قَدِم عليه قوم متلثِّمُون ، فقالوا : السلام عليكَ يامولانا ، فقال لهم : أوَلَسْتُم قوماً عَرَبا ! قالوا : بلى ، ولـكنّا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غَدِير خُمّ : « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، قال : فلقد رأيتُ عليا عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذُه ، ثم قال : اشهدوا .

ثم إنّ القومَ مضوْا إلى رحالهم فتبعتُهم ، فقلت لرجل منهم : مَنِ القوم ؟ قالوا : نحنُ رَهْطٌ من الأنصار ، وذاكَ ـ يعنون رجلا منهم ـ أبو أيوب ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فأتيته فصافحتُه .

* * *

قال نصر : وحدثنى عمر بن سعد ، عن نمير بن وعلة ،عن أبى الوَدّاك ، أنّ [1] عليا عليه السـلام بعث مِنَ المدائن مَعْقل بن قيس الرياحى ، فى ثلاثة آلاف ، وقال له: خُذْ عَلَى

(١) كتاب صفين ١٦٥ ـ ١٦٦

الموصل ، ثم نَصِيبين ، ثم القَنى بالرَّقة ، فإنى موافيها . وسكِّن الناس وأَمِّنْهم ، ولا تقاتل إلا مَنْ قاتلك ، وسِرْ البَرْدَيْن [١] ، وغَوِّرْ بالناس [٢] . أقم الليل ، ورفِّه فى السير ، ولا تَسِرْ أوّلَ الليل؛ فإن الله جعله سكنا ، أرحْ فيه بدنَك وجندَك وظهرك ، فإذا كان السَّحَر أو حين يتبلج [٣] الفجر ، فسر .

فسار حتى أتى الحديثة ـ وهى إذ ذاك منزل الناس ـ وإنما بَنَى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان ـ فإذا بكبْشين ينتطحان ، ومع معقل بن قيس رجل من خَثْعم يقال له شداد بن أبى ربيعة [٤] ـ قتل بعد ذلك مع الحَرُورية ـ فأخذ يقول : إيه ، إيهِ ! فقال معقل : ما تقول ؟ فجاء رجلان نحو الكبشين ، فأخذ كلُّ واحد منهما كبشا وانصرفا ، فقال الخثعمىّ لمعقل : لا تَغْلِبون ولا تُغْلَبون ، فقال معقِل : من أين علمت ؟ قال : أما أبصرت الكبْشين ، أحدهما مشرّق والآخر مغرّب ، التقيا فاقتتلا وانتطحا ، فلم يزل كلّ واحد من مصاحبه منتصفا ، حتى أتى كلّ واحد منهما صاحبُه فانطلق به ! فقال معقِل : أو يكون خيرا مما تقول يا أخا خثعم ! ثم مضى حتى وافى عليًّا عليه السلام بالرّقة .

قال نصر : وقالت طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام له : يا أمير المؤمنين ، اكتب إلى معاوية ومَنْ قِبَله من قومك ؛ فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عِظَما ، فكتب إليهم عليه السلام : [بسم الله الرحمن الرحيم] [٥] ، من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قِبَله من قريش :

---

(١) البردان : الغداة والعشى
(٢) غور بالناس ، أى انزل بهم فى الغائرة ؛ وهى القائلة ؛ أو نصف النهار .
(٣) صفين : « ينبطح » ، وفى ب : « ينبلج » .
(٤) كذا فى صفين ، ا ، ج ، وفى ب : «شرار بن شداد بن أبى ربيعة » .
(٥) من صفين .

سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنّ لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرَفوا التأويل ، وفقُهوا فى الدين ، و بيّن الله فضلَهم فى القرآن الحكيم ، وأنتم فى ذلك الزمان أعداء للرسول ، تكذِّبون[1] بالكتاب ، مجمعون على حرب المسلمين ، من ثَقِفتُم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه ؛ حتى أراد الله تعالى إعزازَ دينه ، و إظهارَ أمره ، فدخلت العرب فى الدِّين أفواجا ، وأسلمت له هذه الأمة طوعا و كرها ، فكنتم فيمن دخل فى هذا الدين ؛ إمّا رغبة و إما رهبة ؛ على حين فاز أهل السَّبْق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضْلِهم . ولا ينبغى لِمن ليستْ له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ؛ أن ينازعهم الأمرَ الذى هم أهلُه وأوْلَى به ، فيجور[2] و يظلم ، ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدرَه ، و يعدو طورَه ، و يُشْقِى نفسه بالتماس ما ليس بأهله ؛ فإنّ أولى الناس بأمر هذه الأمة قديما وحديثا ، أقربُها من الرسول ، وأعلمُها بالكتاب ، وأفقهُها فى الدين ، أوّلها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعا ؛ فاتقوا الله الذى إليه ترجعون ، ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

واعلموا أنّ خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون ، وأنّ شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهلَ العلم ؛ فإنّ للعالم بعلمه فضلا ، و إن الجاهلَ لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلا ؛ ألا و إنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وحَقْن دماء هذه الأمة ؛ فإن قبلتم أصبتمُ رُشْدكم ، واهتديتم لحظّكم ، و إن أبيتم إلا الفرقة وشَقّ عصا هذه الأمة ؛ لم تزدادوا من الله إلا بعدا ، ولا يزداد الربّ عليكم إلا سخطا . والسلام .

فكتب إليه معاوية جوابَ هذا الكتاب ، سطرا واحدا ؛ وهو : أما بعد ؛ فإنه :

---

(١) ا : « مكذبون »

(٢) ب وصفين : « يحوب » .

لَيْسَ بينِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَـابٌ   غَيْرُ طَعْنِ الـكُلَى وضَرْبُ الرِّقابِ

فقال على عليه السلام لما أتاه، هذا الجواب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١).

* * *

قال نصر: وقال علىّ عليه السلام لأهل الرَّقة: جَسِّروا لى جسرا أعبُرُ عليه من هذا المـكان إلى الشام؛ فأبَوْا، وقد كانوا ضَمُّوا السفن إليهم؛ فنهض من عنـدهم ليعبرَ على جِسْر مَنْبِـج، وخلّف عليهم الأشتر، فقال: يا أهلَ هـذا الحصن؛ إنى أقسم بالله إن مَضَى أمير المؤمنين عليه السلام ولم تجسِّروا له عند مدينتكم حتى يَعْبُرَ منها؛ لأجَرِّدَنّ فيكم السيف، فلأقتلنَّ مقاتِلَـكم، ولأخرِبَنّ أرضكم، ولآخذنّ أموالـكم.

فلقىَ بعضهم بعضا، فقالوا: إنّ الأشتر يَفِى بما حلَف عليه؛ وإنمـا خلّفه علىّ عندنا ليأتينَا بشرّ، فبعثوا إليه: إنّا ناصبون لـكم جسرا، فأقبلوا. فأرسل الأشتر إلى علىّ عليه السلام، فجاء، ونصبوا له الجسر، فعبر الأثقالُ والرجال، وأمر الأشتر فوقف فى ثلاثة آلاف فارس؛ حتى لم يبق من الناس أحد إلا عَبر، ثم عبر آخر الناس رجلا.

قال نصر: وازدحمت الخيلُ حين عَبرَت، فسقطت قَلَنْسُوة عبد الله بن أبى الحصين، فنزل فأخذها، وركب، ثم سقطتْ قلنسوة عبد الله بن الحجاج، فنزل فأخذها، ثم ركب فقال لصاحبه:

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزّاجرى الطيرَ صادقًا   كما زعموا، أُقْتَلْ وشيكا وتُقْتَل

فقال عبد الله بن أبى الُحصين: ما شىء أحبّ إلىّ ممـا ذكرت، فقتلا معا يوم صفين (٢).

---

(١) سورة القصص ٥٦.

(٢) والخبر أيضا فى تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧

قال نصر : فلما قطع علىّ عليه السلام الفُرات، دعا زياد بن النضر وشُرَيح بن هانئ فسرّحهما أمامه نحو معاوية ، على حالهما الذى كانا عليه حين خرجا من الكوفة ، فى اثنى عشر ألفا ، وقد كانا حيث سرّحهما من الكوفة مقدّمة له أخذا على شاطئ الفرات من قِبَل البرّ ، مما يلى الكوفة حتى بلغا عانات [1] ، فبلغهما أخذُ علىّ عليه السلام طريقَ الجزيرة ، وعلما أنّ معاوية قد أقبل فى جنود الشام من دمشق لاستقباله ، فقالا : والله ماهذا برأى ، أن نسير و بيننا و بين أمير المؤمنين هذا البحر ، ومالنا خيرٌ فى أنْ نلقى جموعَ الشام فى قلّة من العدد ، منقطعين عن المدد . فذَهبوا ليعبرُوا من عانات ، فمنعهم أهلُها ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عَبَرُوا من هِيت ، ولَحِقُوا عليا عليه السلام بقرية دون قِرْقِيسيا ، فلما لحقوا عليا عليه السلام عَجِب ، وقال : مقدّمتى تأتى من ورائى ! فقام له زياد وشُريح ، وأخبراه بالرأى الذى رأيا . فقال : قد أصبتُما رُشْدكما ، فلما عَبَرُوا الفرات ، قدّمهما أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى معاوية ، لقيَهما أبو الأعور السُّلَمِىّ فى جنود من أهل الشام ، وهو على مقدّمة معاوية ، فدعواه إلى الدُّخول فى طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى ، فبعثوا إلى على عليه السلام : إنّا قد لقينا أبا الأعور السلمىّ بسور الروم فى جند من أهل الشام ، فدعوْناه وأصحابه إلى الدخول فى طاعتك ، فأبى علينا ، فمرنا بأمرك .

فأرسل على عليه السلام إلى الأشتر ، فقال : يامال ، إن زيادا وشُريحا أرسلا إلى يعلمانِنى؛ أنهما لقيا أبا الأعور السلمىّ فى جند من أهل الشام بسور الروم ، ونَبّأنى الرسول أنه تركهم متواقفين ؛ فالنَّجَاءَ النجاء إلى أصحابك ؛ فإذا أتيتهم ، فأنت عليهم ؛ و إياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدءوك ، والقهم واسمع منهم ، ولا يجرمَنَّكَ شنآنُهم على قتالهم قَبْل

---

(١) عانات : من قرى الفرات.

دعائهم ؛ والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعلْ على ميمنتك زيادا ، وعلى ميسرتِكَ شُرَيحا ،وقِفْ من أصحابك وسَطاً ، ولا تدنُ منهم دنوَّ مَنْ يريد أن يُنشِب الحرب ، ولا تتباعدْ عنهم تباعدَ مَنْ يهاب الناس ؛ حتى أقدم عليك ؛ فإنى حثيث السير إليك إن شاء الله .

قال : وكتب على عليه السلام إليهما ـ وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفىّ ـ :

أما بعد ؛ فإنى قد أمّرْت عليكما مالكاً ، فاسمعا له وأطيعا أمره ؛ وهو ممن لا يُخاف رهَقُه ولا سِقاطه[1]، ولا بُطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم ،ولا إسراعُه إلى ماالبطء عنه أمثل ؛ وقد أمرتُه بمثل الذى أمرتكما ، ألّا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهمُ ويدعوهم ، ويُعذِر إليهم إن شاء الله .

قال: فخرج الأشتر حتى قدِم على القوم ،فاتّبع ماأمره به علىّ عليه السلام ، وكفّ عن القتال ، فلم يزالوا متواقفين ؛ حتى إذا كان عند المساء ، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له ، واضطربوا ساعة . ثم إن أهلَ الشام انصرفوا ، ثم خرج هاشم بن عُتْبة فى خيل ورجالٍ حَسَنٍ عُدّتها وعددها ، فخرج إليهم أبو الأعور السلمىّ ، فاقتتلوا يومَهم ذلك ، تحمل الخيلُ على الخيل ، والرجالُ على الرجال ، وصبرَ بعضُهم لبعض ؛ ثم انصرفوا . وبكّر عليهم الأشتر،فقتِل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التَّنُوخى،قتله ظَبْيان بن عُمارة التميمىّ ، وماهو يومئذ إلا فتى حديث السن . وإن كان الشامىّ لفارس أهلِ الشام ، وأخذ الأشتر يقول: ويْحَكم أرونى أبا الأعور !

ثم إن أبا الأعور دعا الناس ، فرجعوا نحوه ، فوقف على تلّ من وراء المكان الذى كان فيه أوّلَ مرة ، وجاء الأشتر حتى صَفّ أصحابه فى المكان الذى كان فيه أبو الأعور أوّلَ مرة، فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعىّ .انطلق إلى أبى الأعور ، فادعُه إلى المبارزة ،

(١) الرهق: الطيش والنزق . والسقاط: الخطأ.

فقال : إلى مبارزتى أم إلى مبارزتك ؟ فقال : أَوَلَوْ أمرتُك بمبارزته فعلت ؟ قال : نعم ؛ والذى لا إله إلا هو ؛ لو أمرتنى أن أعترِض صفَّهم بسيفى لفعلتُ حتى أضرِبَه بالسيف . فقال : يابن أخى ، أطال الله بقاءك ! قد والله ازددتُ فيك رغبة ، لا ، ماأمرتُك بمبارزته، إنما أمرتُك أنْ تدعوَه لمبارزتى ؛ فإنه لا يبارز ـ إن كان ذلك من شأنه ـ إلا ذوِى الأسنان والكفاءة والشرف ، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف ؛ ولكنك حديثُ السنّ ، وليس يبارز الأحداث ؛ فاذهب فادعه إلى مبارزتى .

فأتاهم فقال : أنا رسول فأمنّونى ، فجاء حتى انتهى إلى أبى الأعور (١) .

***

قال نصر : فحدثنى عمر بن سعد ، عن أبى زهير العبسىّ ، عن صالح بن سنان ، عن أبيه ، قال : فقلت له : إن الأشتر يدعوك إلى المبارزة ، قال : فسكت عنى طويلا ، ثم قال: إنّ خفة الأشتر وسوء رأيه وهوانَه ؛ دعاه إلى إجلاء عمال عثمان ، وافترائه عليه ، يقبِّح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته . ومن خفة الأشتر وسوء رأيه أنّه سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتَلَه فيمن قتله ، وأصبح متَّبَعا بدمه ، لاحاجة لى فى مبارزته .

فقلت : إنك قد تكلّمت فاسمع حتى أجيبَك ، فقال : لا حاجةَ لى فى جوابك ولا الاستماع منك ، اذهب عَنّى ؛ وصاح بى أصحابه فانصرفت عنه ، ولو سمع لأسمعتُه عذرَ صاحبى وحجته .

فرجعت إلى الأشتر ، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة ، فقال : لنفسه نظر .

قال : فتواقفنا ، فإذا هم قد انصرفوا . قال : وصبحنا علىّ عليه السلام غُدْوةً سائرا نحو معاوية ، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وَسعَة المنزل ، وشريعة الماء مكانا

---

(١) الرهق : الجهل ، والسقاط : الخطأ .

(٢) والخبر أيضا فى الطبرى ٥ : ٢٣٩

أفيح ؛ وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية ، واسمه سفيان بن عمرو ، وقد جعل على ساقته بُسْر بن أرطاة العامرىّ ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهرىّ ، وعلى رجالته من الميمنة يزيد بن زحر الضبىّ ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلى الرّجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائى ، وعلى خيل دمشق الضّحاك بن قيس الفهرىّ ؛ وعلى رَجّالة أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرْز البجلىّ ، وعلى أهل حِمْص ذا الكَلاع ، وعلى أهل فلسطين مَسلمة بن مخلد ، وكان وصول على عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين .

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْـلُ :

اُلْحَمْدُ للهِ الَّذِى بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُور ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُور ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ البَصِيرِ ؛ فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْـكِرُه ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُه .

سَبَقَ فِى العُلُوِّ فَلاَ شَىْءَ أَعْلَى مِنْهُ ، وَقَرُبَ فِى الدُّنُوِّ فَلاَ شَىْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ ، فَلاَ اُسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَىْءٍ مِنْ خَلْقِه ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِى اُلْمَكَانِ بِهِ .

لَمْ يُطْلِعِ العُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِه ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِى تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الوُجُود ، عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِى اُلْجُحُود ، تَعَالَى اُللهُ عَمَّا يَقُولُهُ المُشَبِّهُونَ بِهِ وَالجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيراً !

* * *

الشَّـرْحُ :

بطنتُ سِرّ فلان ، أى أخفيتُه .

والأعلام : جمع علم ، وهو المنارُ يهتدى به ؛ ثم جعل لـكلّ مادل على شىء ؛ فقيل لمعجزات الأنبياء أعلام ، لدلالتها على نبوتهم . وقوله عليه السلام « أعلام الظهور » ، أى الأدلة الظاهرة الواضحة .

وقوله فيما بعـد : « أعلام الوجود » أى الأدلة الموجودة ، والدلالة هى الوجود نفسه، وسيأتى شرح ذلك .

وقوله : « وامتنع على عين البصير » ، يقول : إنه سبحانه ليس بمرئىّ بالعين ؛ ومع

ذلِك فلا يمكِنُ مَنْ لم يرَهُ بعينه أن ينكره ؛ لدلالة كلّ شىء عليه ، بل لدلالته سبحانه على نفسه .

ثم قال : « ولا قلب من أثبته يبصره » ، أى لا سبيل لمن أثبت وجودَه أن يحيطَ علما بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته ؛ أو أراد أنه لا تُعلم حقيقة ذاته؛ كما قاله قوم من المحققين .

وقد رُوِىَ هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا فى الخطبة : « فلا قلبُ مَنْ لم يرَهُ ينكِره ، ولا عينُ مَنْ أثبته تبصره » ، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه .

وقوله عليه السلام: « فلا استعلاؤه باعده »، أى ليس علوه ولا قربه كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيّين، بل هو علو وقرب خارج من ذلك، فليس علوّه يقتضى بعدَه بالمكان عن الأجسام ، ولا قربُه يقتضى مساواته إياها فى الحاجة إلى المكان والجهة .

والباء فى « به » متعلقة بـ « ساواهم » ، معناه : ولا قربُه ساواهم به فى الحاجة إلى المكان؛ أى لم يقتض قربه مماثلته ومساواته إياهم فى ذلك .

* * *

[فصول فى العلم الإلهى]

وهذا الفصل يشتمل على عدّة مباحث من العلم الإلهى :

أولها : كونه تعالى عالما بالأمور الخفيّة .

والثانى : كونه تعالى مدلولا عليه بالأمور الظاهرة ؛ يعنى أفعاله .

والثالث : أن هويّته تعالى غير معلومة للبشر .

والرابع : نفى تشبيهه بشىء من مخلوقاته .

والخامس : بيان أنّ الجاحد لإثباته مكابر بلسانه ، وعارف به بقلبه .

ونحن نذكر القول فى جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال ، ونحيل فى البرهان على الحقّ من ذلك وبطلان شبَه المخالفين فيه ، على ما هو مذكور فى كتبنا الكلامية ، إذ ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك ، وإنْ كنّا قد لا نخلى بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجزة ، وتلويح إلى الشبهة لطيف ؛ فنقول أمّا :

* * *

الفصل الأول

وهو الكلام فى كونه تعالى عالما بالأمور الخفية

فاعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال : « بَطَن خفِيّات الأمور » وهذا القدر من الكلام يقتضى كونه تعالى عالما ، يعلَم الأمورَ الخفيّة الباطنة ؛ وهذا منقسم قسمين :

أحدها : أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة .

والثانى : أن يعلم الأمور الخفية المستقبلة .

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين ، فنحمله عليهما معاً. فقد خالف فى كلّ واحدة من المسألتين قوم ؛ فِمنَ الناس مَنْ نفَى كونه عالما بالمستقبَلات ، ومِنَ الناس مَنْ نفى كونَه عالما بالأمورالحاضرة ؛ سواء كانت خفيّة أو ظاهرة ؛ وهذا يقتضينا[1] أن نشرحَ أقوال العقلاء فى هذه المسائل ، فنقول : إنّ الناس فيها عَلَى أقوال :

القول الأول : قولُ جمهور المتكلّمين ، وهو أنّ البارئ سبحانه يعلم كلّ معلوم : الماضى والحاضر والمستقبل ؛ ظاهرها وباطنها ، ومحسوسها وغير محسوسها ؛ فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر ، وما سيكون وما لم يكنْ ، إن لو كان كيف كان يكون ، كقوله

(١) ب : « يقتضى » .

تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [١]، فهذا علم بأمرٍ مقدّر على تقدير وقوع أصله الذي قد علم أنه لا يكون .

القول الثانى : قولُ مَن زعم أنّه تعالى لا يعلم الأمور المستقبَلة ، وشبَّهوه بكونه مدركا ، قالوا : كما أنّه لايدرك المستقبلات ، فكذلك لا يعلم المستقبَلات . وهو قول هِشام ابن الحكم [٢] .

القول الثالث : قولُ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة ؛ وهذا القول نقيض القول الثانى ؛ وشبهوه بكونه قادرا ، قالوا : كما أنه لايقدِر على الموجود ، فكذلك لا يعلم الموجود ؛ ونسب ابن الراوندىّ هذا القول إلى معمر بن عباد [٣] ، أحد شيوخنا ، وأصحابنا يكذبونه فى ذلك ، ويدفعون الحكاية عنه .

القول الرابع : قول مَنْ زعم أنّه تعالى لايعلم نفسَه خاصّة ، ويعلم كل ماعدا ذاتِه ، ونسب ابنُ الراوندى هذه المقالةَ إلى مَعْمَر أيضا ، وقال : إنه يقول : إن العالم غير المعلوم ، والشىء لا يكون غير نفسه ؛ وأصحابنا يكذّبون ابن الراوندىّ فى هذه الحكاية ، وينزّهون معمراً عنها .

القول الخامس : قول مَنْ قال إنه تعالى لم يكن فيما لم يزَلْ عالما بشىء أصلا ؛ وإنما أحدث لنفسه علما ، علِم به الأشياء ، وهو قول جهم بن صفوان [٤] .

القول السادس : قول مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كلّ المعلومات على تفاصيلها ؛ وإنما يعلم ذلك إجمالا وهؤلاء يسمون المسترسِليّة ؛ لأنهم يقولون : يسترسِل علمه على المعلومات

---

(١) سورة الأنعام ٢٨

(٢) هو هشام بن الحكم ؛ من متكلمى الشيعة ، وصاحب المقالة فى التشبيه ؛ وإليه تنسب الهشامية ؛ إحدى الفرق الغالية ؛ ذكره الشهرستانى وبسط آراءه فى الملل والنحل ١ : ١٦٤ — ١٦٦

(٣) معمر بن عباد السلمى القدرى ؛ وانظر آراءه فى الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٦٥ — ٦٧

(٤) جهم بن صفوان ؛ وإليه تنسب الفرقة الجهمية ؛ من الجبرية ؛ ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو ؛ فى آخر ملك بنى أمية الشهرستانى ١ : ٧٩ — ٨١ .

إجمالا لا تفصيلا ؛ وهو مذهب الجُوَينِيّ [١] من متكلّمى الأشعريّة .

القول السابع : قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة مالم يفضِ القولُ به إلى محال ؛ وزعموا أنّ القول بأنّه يعلَم كلّ شىء يفضى إلى محال ؛ وهو أنْ يعلم ويعلم أنه يعلم، وهلمّ جرا إلى مالا نهاية له ؛ وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع ، وفروع الفروع ولوازمها ، ولوازم لوازمها إلى مالا نهاية له . قالوا : ومحال اجتماع كلّ هذه العلوم غير المتناهية فى الوجود ، وهذا مذهب أبى البركات البغدادىّ صاحب المعتبر [٢] .

القول الثامن : قولُ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيّات الجزئيـة : وإنما يعلم الكلّيات التى لا يجوز عليها التغيير ؛ كالعلم بأنّ كل إنسان حيوان ؛ ويعلم نفسه أيضاً ؛ وهذا مذهب أرسطو وناصرى قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره .

القول التاسع : قول مَنْ زعم أنّه تعالى لا يعلم شيئا أصلا ؛ لا كليا ولا جزئيا ؛ وإنما وجد العالم عنه لخصوصيّة ذاته فقطْ من غير أن يعلمه؛ كما أنّ المغناطيس يجذِب الحديد لقوّة فيه من غير أن يعلم بالجذب ؛ وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة .

فهذا تفصيل المذاهب فى هذه المسألة .

واعلم أن حجة المتكلمين على كونه عالما بكل شىء ؛ إنما تتّضح بعد إثبات حدوث العالم ، وأنه فعله بالاختيار ؛ فحينئذ لابدّ من كونه عالما ؛ لأنه لو لم يكن عالما بشىء أصلا لما صحّ أن يحدث العالم على طريق الاختيار ؛ لأنّ الإحداث على طريق الاختيار ؛ إنما يكون بالغرض والداعى ، وذلك يقتضى كونه عالما ، فإذا ثبت أنّه عالم بشىء أفسدوا حينئذ أن يكون عالما بمعنى اقتضى له العالمية ، أو بأمر خارج عن ذاته ؛ مختارا كان أو غير مختار ؛

---

(١) هو الإمام أبو المعالى عبد الملك بن يوسف الجوينى ، إمام الحرمين ، المتوفى سنة ٤٧٨ . (ابن خلكان) .

(٢) كتاب المعتبر فى الحكمة، طبع فى حيدر آباد؛ لأبى البركات على بن ملكا البغدادى، توفى سنة ٥٦٠ . أخبار العلماء للقفطى ٣٤٣ .

فحينئذ ثبت[1] لهم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لالشىء أزيد منها ؛ فإذا كان لهم ذلك وَجَب أن يـكون عالما بكل معلوم ؛ لأنّ الأمر الذى أوجب كونَه عالما بأمر ما ؛ هو ذاته يوجب كونه عالما بغيره من الأمور ؛ لأنّ نسبة ذاته إلى الـكلّ نسبة واحدة .

فأمّا الجواب عن شُبه المخـالفين فمذكور فى المواضع المختصّة بذلك ، فليطلب من كتبنا الـكلامية .

* * *

الفصل الثانى

فى تفسير قوله عليه السلام : « ودلّت عليه أعلام الظهور »

فنقول : إنّ الذى يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين ؛ وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور : أحدهما الوجود والثانى الموجود .

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهى طريقة المدقّقين من الفلاسفة ، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك ، وأنه زائد على ماهيّات الممـكنات ، وأنّ وجودَ البارى لايصحّ أن يـكون زائدا على ماهيّته ، فتـكون ماهيّته وجودا ؛ ولا يجوز أن تـكون ماهيته عارية عن الوجود ؛ فلم يبقَ إلّا أن تـكون ماهيتـه هى الوجود نفسه ، وأثبتوا وجوبَ ذلك الوجود ، واستحالةَ تطرّق العدم إليه بوجه مّا ، فلم يفتقروا فى إثبات البارى إلى تأمّل أمرٍ غير نفس الوجود .

وأمّا الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه ؛ فهو الاستدلال عليه بأفعاله ، وهى طريقة المتـكلمين . قالوا : كلّ مالم يُعْلَم بالبديهة ولا بالحسّ ؛ فإنما يُعلم بآثاره الصادرة عنه ؛ والبارى تعالى كذلك ؛ فالطريق إليه ليس إلا أفعالُه ، فاستدلّوا عليه بالعالَم ، وقالوا تارة : العالم محدَث وكلّ محدَث له محدِث . وقالوا تارة أخرى : العالَم ممكِن ، فله مؤثّر .

---

(١) ج : « يثبت ».

وقال : ابن سينا : إنّ الطريقة الأولى وهى الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعْلَى وأشرف ، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته ، واستنبط آيةً من الكتاب العزيز فى هذا المعنى ؛ وهى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

قال ابن سينا : أقول : إنّ هذا حُكْم لقوم ـ يعنى المتكلمين وغيرهم ؛ ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله ؛ وتمام الآية : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

قال : هذا حكمُ الصِّدِّيقين الذين يستشهدون به لا عليه ؛ يعنى الذين استدلوا عليه بنفس الوجود ، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله فى إثباتِ ربوبيته .

* * *

الفصل الثالث

فى أن هويّته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام : « وامتنعَ عَلَى عَيْن البصير » ، وقوله : « ولا قلْب من أثبته يبصره » ، وقوله : « ولم يُطْلع العقولَ على تحديد صفته » ؛ فنقول : إنّ جمهورَ المتكلمين زعموا أنا نعرف حقيقة ذات الإله ، ولم يتحاشوا من القول بأنّه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلمه نحن منها .

وذهب ضِرار (٢) بن عمرو : أنّ الله تعالى ماهيةً لا يعلمها إلا هو ؛ وهذا هو مذهب

---

(١) سورة فصلت ٥٣

(٢) هو ضرار ابن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ؛ كان فى بدء أمره تلميذا لواصل ابن عطاء المعتزلى ؛ ثم خالفه فى خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١

الفلاسفة . وقد حُكِىَ عن أبى حنيفة وأصحابه أيضا ؛ وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل .

* * *

الفصل الرابع

فى نفى التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام : « بعد وقرب » ، أى فى حال واحدة ، وذلك يقتضى نفىَ كونه تعالى جسما ؟ وكذلك قوله عليه السلام : « فلا استعلاؤه باعدَه ، ولا قربُه ساواهم فى المكان به » ، فنقول : إنّ مذهبَ جُمهور المتكلمين نفىُ التشبيه ، وهذا القول يتنوّع أنواعا :

النوع الأول : نفى كونه تعالى جسما مركبا ، أو جوهرا فردا غير مركب ، والمراد بالجوهر هاهنا الجرْم والحجم . وهو قول المعتزلة وأكثر محقِّقى المتكلّمين من سائر الفرق، وإليه ذهبت الفلاسفة أيضاً .

وقال قوم من مستضعفى المتكلّمين خلافَ ذلك ، فذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام ، واختلفت الحكاية عنه ، فروى عنه أنه قال : إنه يشبُر نفسَه سبعة أشبار ، وروى عنه أنه قال : إنه على هيئة السّبيكة . وروى عنه أنه قال : إنّه على هيئة البِلّورة الصافية المستوِية الاستدارة من حيث أتيتَها رأيتَها على هيئة واحدة ، وروى عنه أيضاً قال : إنه ذو صورة . وأصحابُه من الشيعة يدفعون اليومَ هذه الحكايات عنه ، ويزعمون أنه لم يزِدْ على قوله : إنه جسم لا كالأجسام ، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته .

وصدّقوا عنه أنه كان يطلِق عليه كونَه نورا ، لقول الله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾[1] .

وحكىَ عن محمد بن النعمان الأحول ، المعروف بشيطان الطاق ، وهشام بن سالم المعروف بالجواليقىّ ، وأبى مالك بن الحضرمىّ ، أنه نورٌ على صورة الإنسان ؛ وأنكروا مع ذلك أنْ يكون جسماً ؛ وهذه مناقضة ظاهرة .

وحُكِىَ عن على بن ميثم مثله . وقد حكى عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم .

وحكى عن مقاتل بن سليمان ، وداود الجواربى ، ونعيم بن حمّاد المصرى ، أنه فى صورة الإنسان ، وأنه لحم ودم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين ؛ وهو مع ذلك لا يشبه غيره ، ولا يشبهه غيره ، وافقهم على ذلك جماعة من العامّة ومَنْ لا نظر له .

وحُكِىَ عن داود الجواربىّ أنه قال : أعفونى من الفرْج واللّحية وسلُونى عمّا وراء ذلك . وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من فيه إلى صدره ، وما سوى ذلك مُصْمَتٌ .

وحكى أبو عيسى الوراق أنّ هشام بن سالم الجواليقىّ كان يقول : إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلْوة والمجالسة والمحادثة.

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[2] ، فقال : يُقْعَد معه عَلَى سريره و يغلفه بيده .

وقال بعضهم : سألت مُعاذاً العنبرىّ ، فقلت : أله وجه ؟ فقال : نعم ؛ حتى عددت

---

(١) سورة النور ٣٥

(٢) سورة القمر ٥٥

جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر و بطن ؛ واستحييت أن أذكر الفرْج ؛ فأومأت بيدى إلى فرْجى ، فقال : نعم ، فقلت : أذكر أم أنثى ؟ فقال : ذكر .

ويقال : إنّ ابنَ خزيمة أشكل عليه القولُ فى أنه : أذكر أم أنثى ، فقال له بعض أصحابه : إنّ هذا مذكورٌ فى القرآن ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[1] ، فقال : أفدتَ وأجدت ؛ وأودعه كتابه .

ودخل إنسان على معاذ بن معاذ يوم عيد ، و بين يديه لحم فى طَبيخ سِكْباج ، فسأله عن البارى تعالى فى جملة ما سأله ، فقال : هو والله مثلُ هذا الذى بين يدىّ ، لحم ودم .

وشهد بعضُ المعتزلة عند معاذ بن معاذ ، فقال له : لقد هممتُ أنْ أسقِطك ؛ لولا أنى سمعتُك تلعن حمّاد بن سلمة ، فقال : أما حماد فلم ألعنه،ولـكنى ألعن من يقول : إنه سبحانه ينزِل ليلةَ عرَفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر فى هَوْدج من ذهب ؛ فإن كان حمّاد يروى هذا أو يقُوله ، فعليه لعنة الله . فقال : أخرجوه فأخرِج .

وقال بعضهم : خرجْنا يوم عيد إلى المصلّى ، فإذا جماعة بين يدى أمير[2] ، والطبول تضرب والأعلام تخفِق.فقال واحد مِنْ خلفنا : اللهم لا طَبْلَ إلا طبلُك ! فقيل له: لا تقل هكذا ، فليس لله تعالى طبل ، فبكى ، وقال : أرأيتم هو يجىء وحده ولا يضرب بين يديه طَبْل ، ولا ينصَب على رأسه عَلَم ، فإذَنْ هو دون الأمير !

وروى بعضهم أنّه تعالى أجْرَى خيلا ، فخلق نفسه من مثلها .

وروى قوم منهم أنه نظر فى المرآة فرأى صورةَ نفسه ، فخلق آدم عليها .

ورووا أنه يضحك حتى تبدو نواجذُه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٦

(٢) ب « أمير المؤمنين » ، والأجود ما أثبته عن ا ، ج .

ورووا أنّه أمرد جَعْد قَطَط [١] ، فى رجليه نعلان من ذهب ، وأنّه فى روضة خضراء عَلَى كرسىّ تحمله الملائـكة .

ورووا أنه يضع رجلاً على رِجْل ، ويستلقى فإنّهـا جِلسة الربّ .

ورووْا أنه خَلَق الملائـكة مِنْ زَغَبِ ذراعيـه ، وأنه اشتكى عينَه فعـادتْه الملائـكة ، وأنه يتصوّر بصورة آدم ، ويحاسِب الناس فى القيامة ؛ وله حُجّاب من الملائـكة يحجُبونه .

ورووا عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « رأيت ربّى فى أحسنِ صورة ، فسألته عمّا يختلف فيـه الملأ الأعلى ، فوضع يدَه بين كتِفىّ ، فوجـدت بَرْدَها ، فعلمت ما اختلفوا فيه » .

ورووا أنّه ينزل إلى السماء الدنيا فى نصف شعبان . وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب . وأنه يأتى الناسَ يوم القيامة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ؛ فيقول لهم : أفتعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون : بيننا وبينه علامة فيـكشف لهم عن ساقه ، وقد تحوّل فى الصورة التى يعرفونها ، فيخرّون له سجدا .

ورووا أنّه يأتى فى غَمام ، فوقه هواء ، وتحته هواء .

وكان بِطَبَرِسْتَان قاصّ من المشبّهة ، يقصّ على الناس ، فقال يوما فى قَصَصه : إنّ يوم القيامة تجىء فاطمة بنت محمد ، معها قميص الحسين ابنها تلتمس القِصاص من يزيدَ ابن معاوية ، فإذا رآها الله تعالى مِنْ بعيد ، دعا يزيد وهو بين يديه ، فقال له : ادخل تحت قوائم العرش ؛ لا تظفرْ بك فاطمة ، فيدخل [٢] ويختبىء ، وتحضر فاطمة ، فتتظلّم وتبكى ، فيقول سبحانه : انظرى يا فاطمة إلى قدمى ، ويخرجه إليها ، وبه جُرْح من سهم نمرود ،

(١) قطط : قصير .

(٢) ب : « فيدخل يزيد » ، وماأثبته عن ا ، ج

فيقول : هذا جرح نمرود فى قدمى ؛ وقد عفوت عنه ، أفلا تعفين أنت عن يزيد ! فتقول : هى : اشهد يارب أنى قد عفوت عنه .

وذهب بعضُ متكلِّمى المجسّمة إلى أنّ البارئ تعالى مركَّب من أعضاء على حروف المعجم .

وقال بعضهم : إنه ينزل على حمار فى صورة غلام أمرد ، فى رجليه نعلان من ذهب ، وعَلَى وجهه فراش من ذهب يتطاير .

وقال بعضهم : إنه فى صورة غلام أمْرَد صبيح الوجه ،عليه كساء أسود ، ملتحِف به .

وسمعت أنا فى عصرى هذا مَنْ قال فى قوله تعالى : ﴿ وتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ [1] : إنّهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم ، فقال له آخر على سبيل التهكّم به : يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به ! فغضب وقال : هذا إلحاد .

ورووا أنّ النار تزفِر وتتغيّظ تغيظا شديدا ، فلا تسكُن حتى يضع قدمَه فيها ، فتقول : قَطْ قَطْ ، أى حسبى حسبى . ويرفعون هذا الخبر مسندا . وقد ذكر شبيه به فى الصِّحاح .

وروى فى الكتب الصِّحاح أيضا : « أنّ الله خَلَق آدم على صورته » . وقيل : إن فى التوراة نحو ذلك فى السِّفْر الأول .

واعلم أنّ أهل التوحيد يتأولون ما يحتمِل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير مستبعَدة ، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعُون ببطلانه ؛ وبأنه موضوع ؛ وللاستقصاء فى هذا المعنى موضعٌ غير هذا الموضع .

وحكى أبو إسحاق النظّام ومحمد بن عيسى برغوث أنّ قوماً قالوا : إنّه تعالى الفضاء نفسُه ، وليس بجسم ؛ لأنّ الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء .

---

(١) سورة الزمر ٧٥

وقال بُرْغوث : وطائفة منهم يقولون : هو الفضاء نفسُه ، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه ؛ وليس بذى غاية ولا نهـاية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١).

فأما مَنْ قال : إنّه جسم لا كالأجسام ؛ على معنى أنّه بخلاف العرَض الذى يستحيل أن يُتوهّم منه فعل ، ونفوْا عنه معنى الجِسْمِيّة ، و إنما أطلقوا هـذه اللفظة لمعنى أنّه شىء لا كالأشياء ، وذات لا كالذوات ؛ فأمْرُهم سهل ؛ لأنّ خلافهم فى العبارة ، وهم : علىّ ابن منصور،والسكاك ، و يونس بن عبد الرحمن،والفضل بن شاذان ، وكلّ هؤلاء من قُدَماء رجال الشيعة . وقد قال بهذا القول ابنُ كرّام وأصحابه ؛ قالوا : معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم ،أنّه قائم بذاته لا بغيره.

والمتعصبون لهشام بن الحكم من الشّيعة فى وقتنا هـذا يزعمون أنه لم يقل بالتّجسيم المعنوىّ ؛ و إنما قال : إنه جسم لا كالأجسام ، بالمعنى الذى ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما ، و إن كان الحسن بن موسى النُّوبَخْتِىّ ـ هو من فضلاء الشيعة ـ وقد رُوى عنه التجسيم المَحْض فى كتاب " الآراء والديانات ".

* * *

النوع الثانى : نفىُ الأعضاء والجوارح عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وسائر المحققين من المتكلّمين نفىُ ذلك عنـه ، وقد تأولوا ما ورد فى القرآن العزيز من ذلك ، من نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللَّهِ ﴾ (٣) وغير ذلك ، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة فى اللغة العربية .

وأطلقت الكرّامية عليه سبحانه لفظ اليدين والوجه ، وقالوا : لا نتجاوز الإطلاق ،

---

(١) سورة الحج ٧٨

(٢) سورة ص ٧٥ .

(٣) سورة الزمر ٤٦

ولا نفسر ذلك ولا نتأوله ؛ وإنما نقتصر على إطلاق ما ورد به النصّ .

وأثبت الأشعرىّ اليدين صفة قائمة بالبارى سبحانه ؛ وكذلك الوجه من غير تجسيم .

وقالت المجسّمة : إنّ لله تعالى يديْن ؛ هما عضوان له ، وكذلك الوجه والعين ، وأثبتوا له رِجْلين قد فَضَلتا عن عرشه ، وساقَيْن يكشف عنهما يوم القيامة ، وقَدَماً يضعُها فى جهنم فتمتلئ ؛ وأثبتوا له ذلك معنى لا لفظا ، وحقيقة لا مجازا .

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً ، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط ، ويطلِق ما أطلقه الكتاب والسنّة ، ولا يخوض فى تأويله ؛ ويقف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [1] ، وأكثر المحصّلين من أصحابه على هذا القول .

* * *

النوع الثالث : نفى الجهة عنه سبحانه ؛ فالذى يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحقّقين من المتكلّمين أنه سبحانه ليس فى جهةٍ ولا مكان ؛ وأنّ ذلك من توابع الجِسْمية أو العرضية اللّاحقة بالجسمية ، فإذا انتفى عنه كونُه جسما وكونه عَرَضا لم يكن فى جهة أصلا ؛ وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة .

وذهبت الكرّامية والحَشَوِيّة [2] إلى أنّ الله تعالى فى جهة فَوْق ، وإليه ذهب هشام ابن الحكم ، وعلىّ بن منصور ، ويونس بن عبد الرحمن ، وهشام بن سالم الجواليقىّ ، وكثير من أهل الحديث .

وذهب محمد بن الهيصَم ، متكلّم الكرّامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات ، لا تحلّ شيئا حلول الأعراض ، ولا تمازج شيئا ممازجة الأجسام

---

(١) سورة آل عمران ٧

(٢) الكرامية : أصحاب محمد بن كرام ؛ والحشوية طائفة من المشبهة ؛ سموا بذلك لأنهم لا يتحاشون من إظهار الحشو . راجع شفاء العليل ١٠٥

بل هو مباينٌ للمخلوقين ؛ إلا أنّه فى جهة فوْق ، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهَى .

هكذا يحكى المتكلمون عنه ، ولم أره فى شىء من تصانيفه . وأحالوا ذلك ؛ لأنّ مالا يتناهَى لا يكون محصورا بين حاصرين ؛ وأنا أستبعِد عنه هذه الحكاية ؛ لأنه كان أذْكى مِنْ أن يذهبَ عليه فساد هذا القول . وحقيقةُ مذهب مثبِتى المكان أنّه سبحانه متمكّن على العرش ، كما يتمكن الملك على سريره ، فقيل لبعض هؤلاء : أهو أكبرُ من العرش ، أم أصغر ، أم مساوٍ له ؟ فقال : بل أكبر من العرش ، فقيل له : فكيف يحمله ؟ فقال : كما تحمِلُ رجلا الكركىّ جسمَ الكركىّ وجسمه أكبر من رجليه . ومنهم مَنْ يجعلُه مساوياً للعرش فى المقدار ، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضُلُ عن العرش ؛ وقد سمعت أنا مَنْ قال منهم : إنه مستوٍ على عرشه ، كما أنا مستوٍ على هذه الدّكة [1] ورجلاه على الكرسىّ الذى وسع السموٰات والأرض ، والكرسىّ تحت العرش ، كما يجعل اليوم الناس تحت أسرتهم كراسىّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها .

وقال هؤلاء كلُّهم : إنه تعالى ينزل ويصعَد حقيقة لامجازا ، وإنه يتحرّك وينزل ؛ فمن ذلك نزولُه إلى السماء الدنيا . كما ورد فى الخبر ؛ ومن ذلك إتيانُه ومجيئه ، كما نطَق به الكتاب العزيز فى قوله سبحانه : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [2]، وقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [3] .

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعا لما ورد فى الكتاب والسنة ، وقال : لاأقول بمعانيها ، ولا أعتقد حركته الحقيقية ؛ وإنما أرسلها إرسالا كما وردت . وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة .

وقال ابن الهيصم فى كتاب "المقالات" : إن أكثر الحشوِيّة يجيز عليه تعالى العدْوَ والهرولة .

---

(١) الدكة « بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه »
(١) سورة البقرة ٢١٠
(٢) سورة الفجر ٢٢

وقال قوم منهم : إنّه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان ، ويدور فى السِّكَك .

وقال بعض الأشعريين : إنّ سائلاً سأل السّكّاكَ فقال : إذا أجزتَ عليه الحركة ، فهلا أجزتَ عليه أن يطفِر ! فقال لايجوز عليه الطَّفْر ، لأن الطَّفْر إنما يكون فِرارا من ضدّ ، أو اتصالا بشكل . فقال له : فالحركة أيضاً كذلك ! فلم يأت بفرق .

فأما القول بأنّه تعالى فى كلّ مكان ؛ فإنّ المعتزلةَ يقولون ذلك ، وتريد[1] به أنّه وإن لم يكن فى مكان أصلاً ، فإنه عالم بما فى كلّ مكان ، ومدبّر لما فى كلّ مكان ، وكأنه موجود فى جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع .

وقال قوم من قدماء الفلاسفة : إنّ البارى تعالى روح شديد فى غاية اللطافة ، وفى غاية القوة ، ينفذُ فى كلّ العالم . وهؤلاء يطلقون عليه أنّه فى كل مكانٍ حقيقة لا تأويلا ؛ ومِن هؤلاء من أوضحَ هذا القول ؛ وقال : إنه تعالى سارٍ فى هذا العالم سرَيَان نفس الواحد مِنّا فى بدنه ، فكما أنّ كلّ بدن منا له نفس سارية فيه تدبره ، كذلك البارى سبحانه هو نفسَ العالم ، وسارٍ فى كل جزء من العالم ؛ فهو إذاً فى كلّ مكان بهذا الاعتبار ، لأنّ النفس فى كلّ جزء من البدن .

وحكى الحسن بن موسى النوبختىّ عن أهلِ الرِّواق من الفلاسفة ؛ أنّ الجوهرَ الإلهىّ سبحانَه رُوح نارىّ عقلىّ ؛ ليس له صورة ، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأىّ صورة شاء ، ويتشبّه بالكلّ ، وينفذ فى الكلّ بذاته وقوته ؛ لا بعلمه وتدبيره .

* * *

النوع الرابع : نفى كونه عَرَضاً حالًا فى المحلّ ؛ فالذى تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفيُ ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده ، وكونِ كلّ حالّ فى الأجسام ممكنا بل حادثا .

---

(١) ب : « فإن المعتزلة يقولون ذلك ويريدون .. » .

وذهبت الحلُولية من أهل الملّة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ فى بعض الأجسام دون بعض؛ كما يشاء سبحانه ، و إلى هـذا القول ذهب أكثر الغُلاة فى أمير المؤمنين . ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده ، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه ؛ واتبعهم على هـذه المقـالة قومٌ من المتصوّفة كالحلاّجِيـة والبِسْطامية وغيرهم .

وذهبت النّسْطُورية [1] من النّصارى إلى حلول الـكَلِمة فى بدن عيسى عليه السلام ؛ كحلول السّواد فى الجِسْم .

فأما اليَعقوبية [2] من النّصارى ، فلا تثبِت الحلول ؛ و إنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهىّ والجوهر الجسمانى ؛ وهو أشدُّ بُعْداً من الحُلول .

* * *

النوع الخامس : فى نفى كونه تعـالى محلاً لشىء ؛ ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملّة والفلاسفة إلى نفى ذلك ؛ والقول باستحالته على ذاته سبحانه .

وذهبت الـكرّامية إلى أنّ الحوادث تحِلّ فى ذاته ، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالًّا فى ذاته ؛ وهو الإحداث ، فحدثَ ذلك الجسم مقارنا لذلك المعنى أو عَقِيبه ، قالوا : وذلك المعنى هو قول « كن » وهو المسمى خَلْقا ، والخلق غير المخلوق ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [3]، قالوا: لـكنّه قد أشهدَنا ذواتها ، فدلّ على أنّ خلقها غيرها .

---

(١) النسطورية : أصحاب نسطور الحـكيم ؛ ظهر فى زمن المأمون ، وتصرف فى الأناجيل برأيه . وانظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ٢٠٥ ــ ٢٠٦

(٢) اليعقوبية أصحاب يعقوب ؛ قالوا بالأقانيم الثلاثة ، إلا أنهم قالوا : انقلبت الـكلمة لحما ودماً ؛ فصار الإله هو المسيح . . . . الشهرستانى ١ : ٢٠٦ ــ ٢٠٨

(٣) سورة الـكهف ٥١

وصرح ابن الهيصم فى كتاب " المقالات " بقيام الحوادث بذات البارى فقال : إنه تعالى إذا أمرَ أو نهى ، أو أراد شيئا كان أمرُه ونهيه و إراداته كائنة بعد أنْ لم تكن ؛ وهى قائمة به ، لأنّ قوله منه يسمع ، وكذلك إرادته منه توجد .

قال : وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلا على حدوثه ، و إنما يدلّ على الحدوث تعاقبُ الأضداد التى لا يصحّ أن يتعطّل منها ، والبارى تعالى لا تتعاقب عليه الأضداد .

وذهب أبو البركات البغدادىّ صاحب " المعتبر " إلى أن الحوادث تقوم بذات البارى سبحانه ؛ وأنه لايصحّ إثبات الإلٰهية إلا بذلك . وقال : إنّ المتكلّمين ينزهونه عن ذلك ، والتنزيه عن هذا التنزيه ، هو الواجب .

وذهب أصحابُنا وأكثر المتكلّمين إلىْ أنّ ذلك لا يصحّ فى حق واجب الوجود ، وأنّه دليل على إمكان ذاته ؛ بل على حدوثها . وأجازوا مع ذلك عليه أن يتجدّد له صفات ـ يعنون الأحوال لاالمعانى ـ ؛ نحو كونه مدركا بعد أنْ لم يكن . وكقول أبى الحسين : إنه يتجدّد له عالمية بما وجد ؛ وكان من قبل عالما بأنه سيوجد ؛ و إحدَى هاتين الصفتين غير الأخرى .

وقالوا : إن الصفاتِ والأحوال قيلٌ[1] مفرد عن المعانى ، والمحالُ إنما هو حلول المعانى فى ذاته لا تجدّد الصفات لذاته ؛ وللكلام فى هذا الباب موضع هو أليَق به .

* * *

النوع السادس : فى نفى اتحاده تعالى بغيره ؛ ذهب أكثرُ العقلاء إلى استحالة ذلك ؛ وذهبت اليعقوبيةُ من النصارى إل أنّ الكلمة اتّحدت بعيسى ، فصارتْ جوهراً من جوهرينْ : أحدهما إلهىّ ، والآخر جسمانىّ . وقد أجاز الاتحاد فى نفس الأمر لافى ذات

---

(١) قيل ، أى قول .

البارى قومٌ من قدماء الفلاسفة ، منهم فرفريوس . وأجازه أيضاً منهم من ذهب إلى أنّ النفس إنما تعقل المعقولات ؛ لاتحادها بالجوْهر المفـارق المفِيض للنفوس على الأبدان ؛ وهو المسمى بالعقل الفعّال .

***

النوع السابع : فى نفىِ الأعراض الجسمانيّة عنه من التّعب والاستراحة ، والألم واللّذة، والغمّ والسرور ؛ ونحو ذلك .

وذهبت المعتزلةُ وأكثر العُقلاء من أهلِ الملّة وغيرهم إلى نفىِ ذلك ؛ والقول باستحالته عليه سبحانه .

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللّذة عليـه ؛ وقالوا : إنّه يلتذ بإدراك ذاته وكماله ؛ لأنّ إدراك الـكمال هو اللّذة أو سبب اللذة ؛ وهو تعالى أكمل الموجودات ، وإدراكه أكمل الإدراكات ؛ وإلى هذا القول ذهب محمد الغزالىّ[1] من الأشعرية .

وحكى ابن الراوندىّ عن الجاحظ أنّ أحدَ قدماء المعتزلة ـ ويعرف بأبى شعيب ـ كان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ ، والْغَيْرة والأسف ؛ ويذكر فى ذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « لاأحد أغيرُ من الله ، وأنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها » . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا أنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [2] ، وقال مقال المتحسّر [3] على الشىء ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ [4] ، وحُـكِى عنـه أيضا أنه يجَوِّز عليـه أن يتعب ويستريح ؛ ويحتجّ بقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [5] .

---

(١) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالى صاحب الإحيـاء .

(٢) سورة الزخرف ٥٥

(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب ا « حكاية عن التحسر » .

(٤) سورة يس ٣٠

(٥) سورة ق ٣٨

وهـذه الألفاظ كلّها عند أصحابنا متأوّلة محمولة على محامل صحيحة ؛ تشتمل على شرحها الـكتب المبسوطة .

* * *

النوع الثامن : فى أنّه تعالى ليس بمتلوّن . لم يصرح أحدٌ من العقلاء قاطبة بأن الله تعالى متلوّن ؛ و إنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتّجسيم إلى أنّه نور ؛ فإذا أبصرته العيون ، وأدركته أبصرت شخصا نُورانيا مضيئا ؛ لم يزيدوا على ذلك ، ولم يصرحوا بإثبات اللون بهذه العبارة ؛ و إن كان كلّ مضىء ملوّنا .

* * *

النوع التاسع : فى أنه تعالى لايشتهِى ولا ينفِر . ذهب شيوخنا المتكلّمون إلى أنهسبحانه لا يصحّ عليــه الشهوة والنُّفرة ؛ لأنهما إنما يصحّان على مايقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء والنموّ ، والبارى سبحانه وتعالى يتعالَى عن ذلك ؛ وما عرفتُ لأحدٍ من الناس خلافا فى ذلك ؛ اللهم إلا أنْ يطلق هاتان اللفظتان على مسمىّ الإرادة والـكراهية ؛ على سبيل المجاز .

* * *

النوع العاشر : فى أنّ البارى تعالى غــير متناهى الذات . قالت المعتزلة : لما كان البارى تعالى ليس بجسم ولا جسمانىّ ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادِير ؛ يقال : هذا الجسم متناهٍ ، أى ذو طَرَفٍ .

قلنا : إن ذاتَ البارى تعالى غيرُ متناهية ؛ لاعلى معنى أنّ امتداد ذاته غير متناهٍ ؛ فإنه سبحانه ليس بذى امتدادٍ ، بل بمعنى أن الموضوع الذى يصدُق عليه النهاية ليس بمتحقّق فى حقه سبحانه ؛ فقلنا: إن ذاتَه غير متناهية ؛ كما يقول المهندس : إنّ النقطة غــير متناهية ؛ لاعلى معنى أنّ لها امتدادا غــير متناهٍ ، فإنها ليست بممتدّة أصلا ؛ بل على معنى أنّ الأمر

الذي تصدُق عليه النهاية ــ وهو الامتداد ــ لايصدق عليها ؛ فإذن صدق عليها أنّها غيرُ متناهيةٍ . وهذا قولُ الفلاسفة وأكثر المحققين .

وقالت الـكرّامية : البارى تعالى ذاتٌ واحدة منفردة عن العالَم قائمة بنفسها ، مباينة للموجودات ، متناهية فى ذاتها ؛ و إن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجودها ، وتصرّم بقائها .

وأطلق هِشام بن الحـكم وأصحابُه عليـه تعالى القولَ بأنّه متناهى الذات ؛ غـير متناهى القدرة .

وقال الجاحظ : إن قوماً زعموا أنه تعالى ذاهبٌ فى الجهات الستّ ، التى لانهايةَ لها .

* * *

النوع الحادىعشر : فى أنه تعالى لا تصحّ رؤيته . قالت المعتزلة: رؤية البارى تعالى مستحيلة فى الدنيا والآخرة ؛ و إنما يصحّ أن يُرَى المقابل ذو الجهة .

وقالت الـكرّامية والحنابلة والأشعرّية : تصح رؤيتُه ويُرى فى الآخرة ؛ يراه المؤمنون ؛ ثم اختلفوا ، فقالت الـكرّامية والحنابلة : يُرى فى جهة فوق ، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبىّ [١] أنهم أجازوا رؤيتَه فى الدّنيـا ، وملامسته ومصافحتـه ؛ وزعموا أنّ المخلصين يعانقونه متى شاءوا ، ويسمّون الحبّية .

وحكى شيخنا أبو الحسين فى " التصفّح " عن أيوب السجستانىّ من المرجئة، أن البارى تعالى تصحّ رؤيته ولمسه .

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يرون الله تعالى ، وأن الناس كلّهم كافرهم ومؤمنهم يرونه ؛ ولـكن لايعرفونه .

---

(١) كذا فى ا ، وفى الحاشية نقلا عن القاموس : أحمد بن عبد الله الجبىّ ، ويقال : الجبابىّ، لبيعه الجباب ، محدث ، وفى ب : « انجمىّ » .

وقال مَنْ ترفّع عن هذه الطبقة منهم : لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء ؛ وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء .

وقال كثير من هؤلاء : إن محمدا صلى الله عليه وآله رأى ربّه بعينيْ رأسِه ليلة المعراج .

ورووْا عن كعب الأحبار أنّ الله تعالى قسّم كلامه ورؤيتَه بين موسى ومحمد عليه السلام .

ورووْا عن المبارك بن فضالة أنّ الحسن كان يحلِف بالله : قد رأى محمدٌ ربه .

وتعلق كثير منهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رآه نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ (١) ، وقالوا : كلّمه موسى عليه السلام مرتين ، ورآه محمد صلى الله عليه وآله مرتين .

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوالَ الكرّامية ذلك ، وقال : إنّ محمدا صلى الله عليه وآله لم يَرَهُ ، ولكنه سوف يراه في الآخرة .

قال: وإلى هذا القول ذهبتْ عائشة وأبو ذرّ وقتادة ؛ وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود .

واختلف من قال : إنه يُرى في الآخرة ؛ هل يجوز أن يراه الكافر ؟ فقال أكثرهم : إنّ الكفارَ لا يروْنه ؛ لأنّ رؤيته كرامة ، والكافر لا كرامةَ له . وقالت السالمية وبعض الحشَوّية : إنّ الكفار يروْنه يوم القيامة ؛ وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة ؛ ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم .

فأما الأشعرِىّ وأصحابه ؛ فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه يُرى كما يُرى الواحد مِنّا ، بل قالوا : يُرى ؛ وليس فوقًا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا ولا أماما ولا وراء ؛ ولا يرى كلُّه ولا بعضه ؛ ولا هو في مقابلة الرائِى ، ولا منحرِفًا عنه ؛ ولا تصحّ الإشارة إليه إذا رُئِىَ،

---

(١) سورة النجم ١٣

وهو[1] مع ذلك يرى و يبصر . وأجازوا أيضا عليه أن تُسمع ذاته ، و أن تشمّ وتذاق وتحسّ، لاعلى طريق الاتصال ، بل تتعلق هذه الإدراكات كلّها بذاته تعلّقا عاريًا عن الاتصال .

وأنكرت الكرّامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحدَه ، وناقضهم شيخنا أبو الحسين فى "التصفّح" وألزمهم أحد أمرين ؛ إما نفى الجميع أو إثبات إدراكه من جميع الجهات ، كما يقوله الأشعرية .

وذهب ضرار بن عمرو ، إلى أنّ الله تعالى يُرى يوم القيامة بحاسّة سادسة لا بهذا البصر . وقيل ذلك عن جماعة غيره .

وقال قوم : يجوز أن يحوّل اللهُ تعالى قُوّة القلب إلى العين ، فيُعلم الله تعالى بها ، فيكون ذلك الإدراك علما باعتبار أنه بقوّة القلب ، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ فى العيْن .

فهذه الأنواع الأحد عشر هى الأقوال والمذاهب التى يشتمل قوله عليه السلام بنفى التشبيه عليها ؛ وسيأتى من كلامه عليه السلام فى نفى التشبيه ماهو أشدّ تصريحًا من الألفاظ التى نحن فى شرحها .

الفصل الخامس

فى بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام : « فهو الذى تَشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذى الجحود » .

لاشبهة فى أنّ العلم بافتقار المتغيّر إلى المغيّر ضرورىّ ؛ والعلم بأنّ المتغير ليس هو المغيّر

---

(١) ب : « ومع ذلك » .

إما أن يكون ضروريا أو قريبا من الضرورىّ ، فإذًا قد شهدت أعلام الوجود على أنّ الجاحد لإثبات الصانع ؛ إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه ؛ لأنّ العقلاء لا يجحدون الأوليات بقلوبهم ، وإن كابروا بألسنتهم ؛ ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفى الصانع سبحانه .

وأمّا القائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة ، وأنّ الطبيعة هى المدبرّة له، والقائلون بتصادم الأجزاء فى الخلاء الذى لانهاية له ؛ حتى حَصَل منها هـذا العالم . والقائلون بإنّ أصل العالم وأساس بنيته هو النّور والظلمة ، والقائلون بأنّ مبادئ العالم هى الأعداد المجرّدة ، والقائلون بالهَيُولَى القديمة ؛ التى منها حَدَث العالم ، والقائلون بِعِشْق النفس للهَيُولى ؛ حتى تـكونت منها هذه الأجسام ؛ فـكلّ هؤلاء أثبتوا الصانع ، و إنما اختلفوا فى ماهيته وكيفية فعله .

وقال قاضى القضاة : إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفى الصانع للعالم بالـكلّيّة ؛ ولكن قوما من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة ؛ لم يذهب أحد إليها ؛ وهى أنّ العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ؛ و إنما هو هكذا مازال ، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر .

قال : وأخذ ابن الراوندىّ هذه المقالة فنصرَها فى كتابه المعروف بكتاب" التاج " قال : فأما الفلاسفة القدماء والمتأخّرون، فلم ينفوا الصانع؛ و إنما نفوْا كونَه فاعلا بالاختيار ؛ وتلك مسألة أخرى . قال : والقول بنفِي الصانع قريب من القول بالسَّفْسطة ؛ بل هوهو بعينه؛ لأنّ من شَكّ فى المحسوس أعذر ممّن قال: إن المتحركات تتحرك من غيرمحرك حرّكها.

وقول قاضى القضاة هذا ، هو محضُ كلام أمير المؤمنين عليه السـلام وعينُه ؛ وليس قول الجاحظ هو هذا ؛ لأنّ الجاحظ يذهب إلى أنّ جميع المعارف والعلوم الإلٰهية ضرورية ؛ ونحن ماادّعينا فى هـذا المقام إلا أنّ العلم بإثبات الصانع فقطْ هو الضرورىّ ؛ فأين أحدُ القولين من الآخر !

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

إنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ وَيَتَوَلَّى عليهاَ رِجَالٌ رِجَالًا ؛ عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ، فَلَوْ أَنَّ البَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنَ لَبْسِ البَاطِلِ ؛ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ؛ وَلَـكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ ، فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى .

الشَّرْحُ :

المرتاد : الطالب . والضِّغْث من الحشيش : القبضة منه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ [1] .

يقول عليه السلام : إنّ المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التى يفتتن الناس بها ، أصلها اتباع الأهواء ، وابتداع [2] الأحكام التى لم تعرف يخالف فيها الـكتاب، وتحمل العصبية والهوى على تولّى أقوام قالوا بها ، على غير وثيقة من الدّين . ومستندُ وقوع هـذه الشبهات امتزاجُ الحقّ بالباطل فى النّظر الذى هو الطريق إلى استعلام المجهولات ؛ فلو أنّ النظر تخلّص مقدّماته وترتيبُ قضاياه من قضايا باطلة ، لـكان الواقع عنه هو العلم المحض ، وانقطع عنه ألسن المخالفين ؛ وكذلك لو كان النظرُ تخلص مقدّماته من قضايا صحيحة ، بل كان كله مبنيا

---

(٢) سورة ص ٤٤

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « اتباع » .

على الفساد ، لظهر فســادُه لطلبة الحقّ ؛ وإنمـا يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الــكاذبة .

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ البارى تعالى ذاتٌ موجودة ، وكلّ موجود يصحّ أن يُرَى ؛ فإحدى المقدمتين حقّ ، والأخرى باطل ، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس .

ومثال ما يكون المقدّمتان جميعا باطلتين ، قول قوم من الباطنية : البارى لا موجود ولا معدوم ؛ وكلّ ما لا يكون موجودا ولا معدوما يصحّ أن يــكون حيا قادرا ، فالبارىْ تعالى يصحّ أن يكون حيا قادرا ؛ فهاتان المقدمتان جميعا باطلتان . لا جَرَم أنّ هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء !

ومثال ما تــكون مقدّماته حقا كلّها : العالم متغيّر ، وكلّ متغير ممكن ؛ فالعالم ممكن ؛ فهذا مما لا خلافَ فيه بين العقلاء .

فإن قيل : فما معنى قوله عليه السلام : « فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجُو الّذين سبقتْ لهم من الله الحسنى » ، أليسَ هذا إشعاراً بقول المجبِرة وتلويحا به !

قيل : لا إشعار فى ذلك بالجبْر ، ومراده عليــه السلام أنه إذا امتزج فى النظر الحقّ بالباطل ، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة ، تمــكّن الشيطان من الإضلال والإغواء ، ووسوس إلى المــكلّف ، وخيّل له النتيجة الباطلة ، وأماله إليها ، وزينها عنده ؛ بخلاف ما إذا كانت المقدّمات حقا كلّها ؛ فإنه لا يقدِر الشيطانُ على أن يخيّل له ما يخالف العقل الصّريح ولا يكون له مجال فى تزيين الباطلِ عنده ؛ ألا تَرَى أنّ الأوّليات لا سبيل للإنسان إلى جَحْدها وإنكارها ، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك !

ومعنى قوله : « على أوليائه » ، أى إلى مَنْ عنده استعداد للجهل ، وتمرّن على اتباع الهوى ، وزهد فى تحقيق الأمور العقلية على وجهها ، تقليداً للأسلاف ، ومحبةً لاتباع المذهب المألوف ؛ فذاك هو الذى يستولى عليه الشيطان ويضلّه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؛ وهم الذين يتّبعون محض العقل ، ولا يركنون إلى التقليد ، ويسلُكون مسلك التحقيق ، وينظرون النظر الدقيق[1] ؛ يجتهدون فى البحث عن مقدّمات أنظارهم ؛ وليس فى هذا الكلام تصريح بالجَبْر ؛ ولا إشعار به على وجه من الوجوه ؛ وهذا واضح .

وحَمَل الراوندىّ قوله عليه السلام : « فلو أنّ الباطل خَلَص ... » إلى آخره ، على أنّ المراد به نفى القياس فى الشرع ، قال : لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق ، فيمتزج المجهول بالمعلوم ، فيلتبس ويظنّ لامتزاج بعضِه ببعض حَقًّا ، وهذا غير مستقيم ؛ لأن لفظ الخطبة أنّ الحق يمتزِج بالباطل ، وأصحاب القياس لا يسلمون أنّ استخراج العلّة من الحكم المعلوم باطل ؛ بل يقولون إنه حقّ ؛ وإن الدليلَ الدالّ على ورود العبارة بالقياس ، قد أمّنهم من كونه باطلا .

* * *

واعلم أنّ هذا الكلامَ الذى قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته ، وإن لم تفسره على ما قدمناه من التفسير ؛ فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة ، من أهل الملّة الإسلامية وغيرها ؛ إنما ضلّ أكثرهم بتقليد الأسلاف ؛ ومَن يحسنُ الظن فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب ؛ وإنما قلّدهم الأتباع ؛ لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم ، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها ، وإقبالهم على العبادة ، وتمسكهم بالدِّين ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وشدّتهم فى ذات الله ، وجهادهم فى سبيله ، وقوّتهم فى

(١) ا ، ج : « النظر التام » .

مذاهبهم، وصلابتهم فى عقائدهم ؛ فاعتقد الأتباع والخلَف والقرون التى جاءت بعدهم أنّ هؤلاء يجب اتّباعهم ، وتحرُم مخالفتهم ، وأنّ الحق معهم ، وأنّ مخالِفهم مبتدع ضالّ ، فقلدوهم فى جميع ما نقل إليهم عنهم ،ووقع الضلال والغلط بذلك ؛ لأنّ الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحقّ الغالب الظاهر المشاهد عِيانا ، أو الحكم الظاهر : ولولاه لما تروّج الباطل ، ولا كان له قبول أصلا .

(٥١)

ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم من الماء :

الأصْـلُ :

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ ، أَوْ رَوُّوا ٱلسُّيُوفَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ ٱلْمَاءِ ؛ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَٱلْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ .

أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ ٱلْغُوَاةِ ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَرَ ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

استطعموكم القِتال ، كلمة مجازية ، ومعناها طلبوا القتال منكم ؛ كأنه جعل القتال شيئا يُستطعم ، أى يُطلب أكله ، وفى الحديث : « إذا استطعمكم الإمام فأطعموه » ، يعنى إمام الصلاة ، أى إذا أُرْتِجَ فاستفتحكم ، فافتحوا عليه .

وتقول : فلان يستطعمنى الحديث؛ أى يستدعيه مِنّى ويطلبه .

واللمَة، بالتخفيف: جماعة قليلة .

وعَمّس عليهم الخبر ؛ يجوز بالتشديد ، ويجوز بالتخفيف ، والتشديد يعطى الكثرة ويفيدها؛ ومعناه: أبهم عليهم الخبر، وجعله مظلما . ليلٌ عماس، أى مظلم، وقد عمِس الليل نفسه

بالكسر ؛ إذا أظلم وعمّسه غيره ، وعمّست عليه عمسا ، إذا أريته أنّك لا تعرف الأمر وأنت به عارف .

والأغراض : جمع غَرَض وهو الهدف .

وقوله : « فأقروا على مذلّة وتأخير مَحَلّة » ، أى اثبتوا على الذلّ وتأخر المرتبة والمنزلة ، أو فاصلوا كذا وكذا .

ونحو قوله عليه السلام : « فالموت فى حياتكم مقهورين » قول أبى نصر بن نُباتة :

والحسينُ الذى رأى الموت فى العِزِّ حياة والعيشَ فى الذُّلِّ قتْلا

وقال التهامىّ :

وَمَنْ فَاتَه نَيلُ العُلَا بِعُلُومِه وَأَقْلَامِه فَلْيَبْغِهـا بِحُسَامِهِ [1]
فموتُ الفتى فى العزّ مثلُ حياتِهِ وعِيشتُهُ فى الذّلّ مثلُ حِمامِه

[الأشعار الواردة فى الإباء والأنَف من احتمال الضيم]

والأشعار فى الإباء والأنَف من احتمال الضَّيْم والذلّ والتّحريض على الحرْب كثيرة ؛ ونحن نذكر منها هاهنا طَرَفًا ؛ فمن ذلك قول عمرو بن بَرّاقة الهَمْدانىّ :

وَكَيْفَ ينامُ اللَّيلَ مَنْ جُلُّ مالِهِ حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ [2]
كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ لا تأخذُونَها مراغَمَةً مادامَ للسَّيْفِ قائمُ
وَمَنْ يَطْلُبِ المالَ المُمنَّع بالقَنـا يَعِشْ ماجداً أو تخترِمْه الخوارم [3]

---

(١) ديوانه ٣٣
(٢) من أبيات له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ـ ١١٤
(٣) الأغانى : « المخارم » .

ومثله :

ومن يطلبِ المال الممنَّعَ بالقَنَا ... يَعِشْ مَاجِداً أو يُؤْذَ فيما يُمَارِسُ

وقال حرب بن مِسْعر :

عَطَفْتُ عَلَيْهِ المهْرَ عطفَةَ بَاسِلٍ ... كَمِيٍّ ومَنْ لَا يَظْلِمِ النَّاس يُظْلَمِ

فَأوجَرْتُهُ لَدْنَ الكُعُوبِ مُثَقَّفاً ... فخرَّ صرِيعاً لليَدَيْنِ ولِلفَمِ

وقال الحارث بن الأرقم :

وَمَاضَاقَ صَدْرِي يَاسُلَيْمَى بِسُخْطِكُمْ ... وَلَكِنَّنِي فِي الْحَادِثَاتِ صَلِيبُ

تَرُوكٌ لدارِ الخسْفِ والضَّيْمِ مُنْكِرٌ ... بَصِيرٌ بفعل المكرُمات أريبُ

إِذَا سَامَنِي السُّلْطَانُ ذُلًّا أبيتُهُ ... ولم أعطِ خسْفاً ما أقامَ عَسِيبُ

وقال العباس بن مِرْداس السُّلمِيّ :

يَأْبَى فَوارسُ لَايَعْرَى صَوَاهِلُها ... أَنْ يَقْبَلُوا الخسْفَ مِنْ مَلْكٍ و إنْ عَظُمَا

لَا والسيوفُ بأَيْدِينا مُجَرَّدَةً ... لَا كانَ مِنَّا غَداةَ الرَّوْعِ مُنْهَزِما

وقال وهب بن الحارث :

لَاتَحْبِسَنِّي كَأَقْوامٍ عَبِثْتَ بِهِمْ ... لن يأنفوا الذُّلَّ حتى تَأْنَفَ الْحُمُرُ

لا تُعلِقَنِّي قذاةً لستُ فاعلَهَا ... واحذر شَبَاتِي فقدْماً يَنْفَع الحذَرُ

فقدْ عَلِمْتَ بأنِّي غيْرُ مُهتَضَمٍ ... حتَّى يلوحَ ببطنِ الرَّاحَةِ الشَّعَرُ

وقال المسيَّب بن عَلَس :

أَبلِغْ ضُبَيعةَ أنَّ البِلا ... دَ فيها لذى قُوَّةٍ مُغْضَبُ (١)

---

(١) ديوان الأعشين ٣٤٩ ، مع اختلاف في الرواية .

وقدْ يقعـــدُ القومُ فى دراهمْ إذا لم يُضَامُوا وإنْ أجْدَبُوا
وَيَرْتَحِلُ القومُ عِنْـدَ الهوَا نِ عَنْ دارِهِمْ بَعْدَما أخصَبُوا
وَقَدْ كَانَ سَامَةُ فى قَوْمِهِ لَهُ مَطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسَامُوهُ خَسْفاً فَلَمْ يَرْضَهُ وَفِى الأَرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وقال آخر :

إنّ الهوانَ حِمَــارُ القوم يعْرِفُه والحرُّ ينكِرهُ والرَّسْلَةُ الأُجُدُ (١)
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ إلّا الأذَلّان عَيْرُ الحىِّ وَالْوَتِدُ (٢)
هَذَا عَلَى الخسْف مَشْدُودٌ بِرُمَّتِه وَذَا يُشَجُّ فَلَا يأوِى له أحَدُ (٣)
فإنْ أقمتُمْ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِكم فإنّ رَحْلِى لَهُ والٍ وَمُعْتَمَدُ
وفى البــلاد إذا ماخفتُ بادرَةً مكروهةً عن ولاةِ السَّوْءِ مُفْتَقَدُ

وقال بعض بنى أسد :

إنّى امرؤٌ من بنى خُزَيمة لا أطعمُ خسفاً لناعِب نَعَبــا
لستُ بمعطٍ ظُلامةً أبدا عُجْماً ولا أتقِى بها عَرَبَا

دخل مويلك السَّدوسىّ إلى البصرة يتبع إبلا ، فأخذ عامل الصدقة بعضها ، فخرج إلى البادية ، وقال :

ناقُ إنّى أرَى المُقَامَ على الضَّيْــ ـمِ عَظِيماً فى قُبّةِ الإسْلَامِ
قَدْأرانِى وَلِى مِنَ العَامِلِ النَّصْـ ـفُ بحدّ السِّنَان أوْ بالحُسَامِ

---

(١) للمتلمس ، معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . الرسلة : الناقة السهلة السير . والأجد : الموثقة الخلق

(٢) العير ، بفتح العين : الحمار ، وغلب على الوحشى ؛ والمراد به هنا الأهلى .

(٣) الرمة : القطعة من الحبل ، وأوى له ، أى رق.

وقال يزيد بن المفرّغ الحميرى :

لاذعرتُ السَّوامَ فى فَلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ مُغيراً وَلَا دُعِيتُ يَزِيدَا [١]

يَوْمَ أُعْطِى مِنَ الْمَخَافَةِ ضَيْماً ... والمنايا يَرْصُدْنَنِي أَنْ أحِيدَا [٢]

وقال آخر :

لا تحسبِينى يا أما ... مة عاجزاً دَنِساً ثِيَابُهْ

إنى إذا خفتُ الهوا ... نَ مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكَابُهْ [٣]

مثله قول عنترة :

ذُلُلٌ رِكَابِي حَيْثُ شئتُ مُشايعى ... لُبِّي وأحْفِزُهُ برأىٍ مُبْرَمِ [٤]

وقال آخر :

أخَشْيَةَ الموتِ دَرَّ دَرُّكُمُ ... أعطيتُمُ القوم فوقَ ماسألوا !

إنّا لَعَمْرُ الإله نَأْبَى الذى ... قَالُوا وَلَمَّا تُقَصَّفِ الأسلُ

نَقْبَلُ ضَيْماً وَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ... مادام مِنَّا بِظَهْرِها رَجُلُ

وقال آخر :

وَرُبَّ يَوْمٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ مُكْرَهَةً ... فيه لأكْبِتَ أعداءً أُحَاشِيهَا

آبى وآنفُ من أشياء آخُذُها ... رَثَّ القُوى ، وضعيفُ القومِ يُعْطِيها

مثله للشدّاخ :

أبَيْنَا فلا نُعْطِى مليكاً ظُلامَةً ... ولا سُوقة إلا الوَشِيجَ المقوّما [٥]

---

(١) السوام : الإبل الراعية .

(٢) يرصدننى ، يراقبننى .

(٣) المشيع : الشجاع .

(٤) من المعلقة ٥ ٢٠ — بشرح التبريزى . ذلل : جمع ذلول ؛ وهو من الإبل وغيرها ضد الصعب ؛ والمشايع الشجاع ؛ مثل المشيع ؛ كأن قلبه لا يخذله فهو يشيعه . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم .

(٥) يعنى بالوشيج الرمح .

وإلا حُساماً يَبهَرُ العَيْنَ لَمْحُـهُ   كصاعقةٍ فى عارِضٍ قد تَبَسَّماَ

[أُباة الضيم وأخبارهم]

سيّد أهل الإباء ، الذى علّم الناس الحميّة والموت تحت ظلال السيوف ، اختياراً له على الدنيّة ، أبو عبد الله الحسينُ بن علىّ بن أبى طالب عليهما السلام ؛ عُرِض عليه الأمان وأصحابُه ، فأنِفَ من الذلّ ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوعٍ من الهوان ؛ إن لم يقتُله[1] ، فاختار الموت على ذلك .

وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلوىّ البصرىّ ، يقول : كأنّ أبيات أبى تمام فى محمد بن حُميد الطائىّ ما قيلت إلا فى الحسين عليه السلام :

وَقَدْ كانَ فَوْتُ الموتِ سَهلاً فَرَدَّهُ   إليـه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف الضَّيْمَ حتّى كأنّه   هو الـكفرُ يومَ الرَّوْعِ أو دُونَه الـكُفْرُ
فأثبتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ   وقال لها : من تحت أخمَصك الحَشْرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما أتَى   لَهَا الليْل إلا وَهْىَ مِنْ سُنْدِسٍ خُضْرُ

لما فرّ أصحابُ مصعب عنـه ، وتخلّف فى نفر يسير من أصحـابه ، كسر جَفْنَ سيفِه ، وأنشد :

فإنّ الأولَى بالطَّفِّ مِنْ آل هاشمٍ   تَأَسَّوْا فَسَنُّوا لِلْكِرامِ التَّأَسِّيَا[2]

فعلم أصحابُه أنّه قد استقتل .

ومن كلام الحسين عليه السلام يوم الطفّ المنقول عنه ، نقله عنه زينُ العابدين علىّ ابنُه عليـه السلام : « ألا وإنّ الدعىّ ابن الدعىّ ، قد خيّرنا بين اثنتين : السِّلة[3]

---

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « مع أنه لم يقتله » .
(٢) لسليمان بن قتة . اللسان ٨ : ٣٧ ؛ والطف : من ضاحية الـكوفة ؛ كان فيها مقتل الحسين عليه السلام .
(٣) السل : انتزاعك الشىء وإخراجك إياه فى رفق ؛ وعند السلة ؛ أى عند استلال السيوف .

أو الذِّلّة ، وهيهات مِنّا الذلة ! يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون ، وحجُور طابتْ ، وحُجُزٌ طَهُرت [١] ، وأنوفٌ حَمِيّة ، ونفوس أبية » .

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم : « إنّ امرأً أمكن عدوًّا من نفسه ، يعرُق لحمه ، ويفرِي جِلْده ، ويهشِم عظمه ، لعظيم عجزُه ، ضعيف ماضُمّت عليه جوانح صدره . فكن أنت ذاك إن شئت ؛ فأما أنا فدون أن أعطِيَ ذلك ضربٌ بالمشرِفيّة تطير منه فَراش الهام ، وتطيح السواعد والأقدام » .

* * *

وقال العباس بن مرداس السلميّ :

مقال امرئٍ يُهدى إليك نَصِيحَــةً ... إذا معشرٌ جادوا بعرضِك فابخَلِ [٢]

وإن بَوّءوكَ منزلا غــير طائلٍ [٣] ... غليظــاً فلا تنزِل به وتحوّلِ

ولا تَطْعَمَنْ ما يعلِفونَك إنّهُمْ ... أتوْكَ على قُرْباهُمُ بالمُثَمَّلِ [٤]

أراكَ إذاً قد صرتَ للقوم ناضحاً ... يقــال له بالغَرْب أدْبِرْ وأقبِلِ [٥]

فخُذْها فليستْ للعزيز بخُطّةٍ ... وَفِيهَا مقامٌ لامرِئٍ مُتَذَلِّلِ

---

(١) الحجز : جمع حجزة ، حيث يثنى طرف الإزار ، كناية عن العفة

(٢) من أبيات فى الحماسة ٢ : ١١ ــ بشرح التبريزى ، مطلعها :

أَلَا ابْلِغْ أبا سَلْمَى رَسُولًا يَرُوعُهُ ... وَلَوْ حَلّ ذَا سِدْرٍ وأَهْلِي بِعَسْجَلِ

(٣) الحماسة : « مبركا غير طائل » .

(٤) قال التبريزى : المثمل : هو السم الذى قد خلط به ما يقويه ويهيجه ليكون أنفذ . . . أى سقوك السم وإن كانوا أقرباءك فلا تغتر بهم وكن ذا أنفة » . وبعده فى رواية التبريزى :

أبعد الإزارِ مُجَسَّدًا لَكَ شاهِدًا ... أتيتَ به فى الدار لم يتزيل

(٥) الناضح : البعير الذى يستقى عليه الماء ، قال التبريزى : « يقول : أبعد الإزار مخضوبا بالدم أتيت به فى الدار شاهدا تصالحهم ! فإن فعلت ذلك صرت كالناضح للقوم انقيادا لهم » .

وله أيضا :

لحاربْ فإنْ مولاكَ حَارد نَصْرُهُ ... فَفِي السَّيْفِ مولى نصرُه لايحارِدُ[١]

وقال مالك بن حَرِيم الهَمْدانيّ :

وَكُنْتُ إذا قومٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهمْ ... فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ![٢]

مَتَى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيّ وَصارِماً ... وَأَنفاً حَمِيًّا تَجتنبك المظالمُ

وقال رُشَيْد بن رُمَيْض العنزىّ :[٣]

باتوا نِياما وابنُ هند لم يَنَمْ ... بَاتَ يُقاسِيها غُلَامٌ كالزَّلَمْ[٤]

خَدَلَّجُ السَّاقَيْن خَفَّاق القَدَمْ[٥] ... قد لَفَّها اللَّيلُ بِسَوّاقٍ حُطَمْ[٦]

ليسَ براعِي إبلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بجزّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ[٧]

* مَنْ يَلْقَنِي يُودِ كَمَا أُودَتْ إرَمْ *

وقال آخر :

وَلَسْتُ بِمبتَاعِ الْحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[٨]

وَلَمَّا رأيتُ الودَّ ليسَ بنافِعِى ... عَمَدْتُ إلى الأمرِ الّذِى كانَ أَحْزَمَا

* * *

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ١٥ — بشرح التبريزى : وحارد نصره ؛ أى امتنع ؛ والمحاردة فى الأصل قلة اللبن ، واستعير هنا

(٢) من قصيدة له فى الأغانى ٢١ : ١١٣ ، ١١٤ وحريم ، ضبطه البكرى فى اللآلى ٧٤٨ « بالحاء والراء المهملتين ، الحاء مفتوحة ، والراء مكسورة » ، وقال : « ومن روى حزيم ، بالزاى فقد صحف » .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٣٣٣ — بشرح التبريزى ؛ من وصف غارة .

(٤) الزلم : القدح ؛ يقاسيها ، أى يعانى الغارة كيف يوقعها ويدبرها .

(٥) خدلج الساقين : ممتلئهما . خفاق القدم : سريع الخطو ؛ ضراب بها للأرض .

(٦) قد لفها ، أى الإبل ؛ وجعل الفعل لليل على المجاز . والحطم : الذى لا يبقى من السير شيئا ؛ والمعنى أنه جمعها برجل متناهى القوة ، عنيف السوق .

(٧) الوضم : كل ما قطع عليه اللحم .

(٨) للحصين بن حمام المرى ، المفضليات ٦٥ مع اختلاف فى الرواية .

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب ؛ كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته ؛ لأسباب ليس هـذا موضع ذكرها ، فلما أفضَتْ إليه الخلافة ، وخلعه يزيد بن المهلّب ، ونزع يده من طاعته ، وعلم أنّه إنْ ظَفِر به قتـله وناله من الهوان ماالقتل دونه ، فدخل البصرة ومَلَـكَها عَنوةً ، وحبس عدىّ بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها ، فسرّح إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا ، يشتمِل على ثمانين ألفا من أهل الشام والجزيرة ، وبعث مع الجيش أخاه مَسْلمة بن عبد الملك ، وكان أعرَف الناس بقيادة الجيوش وتدبيرها ، وأيمنَ الناس نَقِيبةً فى الحرب ، وضمّ إليه ابنَ أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، فسار يزيد بن المهلّب من البصرة ، فقدِم واسطَ ، فأقام بها أياما ، ثم سار عنها فنزل العَقْر (١) ، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفا ، وقدِمَ مسلمة بجيوش الشام ، فلما تراءى العسكران ، وشبّت الحربُ ، أمرَ مسلمة قائدا من قُوّاده أن يحرِق الجسور التى كان عَقَدها يزيد بن المهلّب فأحرقها ، فلما رأى أهلُ العِراق الدخان قد علا انهزموا ، فقيـل ليزيد ابن المهلّب : قد انهزم الناس ، قال : ومِمّ انهزموا ؟ هل كان قتال ينهزم الناس مِنْ مثله ؟ فقيل له : إنّ مسلمة أحْرَق الجسور فلم يثبتوا ، فقال : قبحهم الله ! بقٌّ دُخّن عليه فطار ! ثم وقف ومعه أصحابه ، فقال : اضربوا وجوهَ المنهزمين ، ففعلوا ذلك حتى كَثُروا عليـه ، واستقبله منهم أمثال الجبال ، فقال : دعوهم قبّحهم الله ! غنمٌ عَدَا فى نواحيها الذئب . وكان يزيد تحدّثُه نفسه بالفرار ، وقد كان أتاه يزيد بن الحـكم بن أبى العاص الثقفىّ بواسط ، فقال له :

فعِشْ مَلِـكاً أو مُتْ كريما فإن تَمُتْ ... وسيفك مشهور بكفّك تُعْذَرِ

فقال : ماشعرت ، فقال :

---

(١) قال ابن خلـكان : هى عقر بابل ؛ وهى عند الـكوفة بالقرب من كربلاء ؛ الموضع الذى قتل فيه الحسين رضى الله عنه » .

إن بنى مروان قد بادَ ملكُهُمْ فإن كنت لم تشعر بذلك فاشْعُرِ

فقال : أما هذا فعسى . فلما رأى يزيد انهزامَ أصحابه ، نزل عن فرسه ، وكسر جَفْن سيفه واستقتَل ، فأتاه آت فقال : إن أخاك حبيباً قد قُتِل ، فزاده ذلك بصيرة فى توطينه نفسه على القتل ؛ وقال : لاخير فى العَيْش بعد حبيب ! والله لقد كنت أبغَضُ الحياةَ بعد الهزيمة ؛ وقد ازددتُ لها بغضا ؛ امضوا قُدُماً . فعلم أصحابه أنّه مستميت ، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال ، وبَقِىَ معه جماعة خشية ، فهو يتقدم كلما مرّ بخيل كَشَفها ، وهو يقصد مسلمة ابن عبد الملك لايريد غيره ، فلما دنا منه ، أدنَى مسلمةُ فرسَه ليركبَ ،وحالت خيولُ أهل الشام بينهما ، وعطفت على يزيد بن المهلب ؛ فجالدهم بالسيف مصلَتا(١) ؛ حتى قتل وحُمِل رأسُه إلى مسلمة، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب ؛ وكان أخوهما المفضّل بن المهلب ؛ يقاتل أهل الشام فى جهة أخرى ، ولا يعلَمُ بقتْل أخويه يزيد ومحمد ؛ فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلب ، وقال له : ماتصنع وقد قتل يزيد ومحمد ، وقبلهما قتل حبيب ، وقد انهزم الناس !

وقد روى أنّه لم يأته بالخبَرِ على وجهه ، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل ، فقال له : إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط ، فاقتصّ أثره ، فانحدر المفضّل حينئذ ، فلما علم بقتل إخوته ، حَلَف ألّا يكلم أخاه عبد الملك أبدا ، وكانت عين المفضل قد أصيبت من قبل فى حرب الخوارج ، فقال : فضحنى عبد الملك فضحه الله ! ماعذرى إذا رآنى الناس فقالوا : شيخ أعور مهزوم، ألا صدقنى فقتلت ! ثم قال :

وَلَا خَيْرَ فِى طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَا وَلَا فِى لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدِ

فلما اجتمع مَنْ بقى من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة ، أخرجوا عدىّ بن أرطاة أمير البصرة من الحبْس ، فقتلوه وحملوا عيالهم فى السفن البحرّية ، ولَجوا فى البحر ؛ فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثا عليه قائد من قواده ، فأدركهم فى قَنْدَابيل(٢) ، فحاربهم

(١) مصلتا ، أى مجردا من غمده .
(٢) قندابيل : مدينة بالسند .

وحاربوه ، وتقدّم بنو المهلب بأسيافهم ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وهم : المفضّل بن المهلّب ، وزياد بن المهلب ، ومروان بن المهلب ، وعبد الملك بن المهلب ، ومعاوية بن يزيد ابن المهلّب ، والمنهال بن أبى عُيينة بن المهلب ، وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب ؛ وحملت رءوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك ؛ وفى أذن كلّ واحد منهم رقعة فيها اسمه ، واستؤسر الباقون فى الوقعة ، فحملوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام ؛ وهم أحدَ عشر رجلا ، فلما دخلوا عليه قام كُثَيِّر بن أبى جمعة ، فأنشد :

حَلِيمٌ إذا ما نَالَ عَاقَبَ مُجْمِلًا أشدَّ العقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ
فعفواً أميرَ المؤمنين وحِسْبَةً فمَا تَأْتِهِ مِنْ صَالِحٍ لك يكتبِ
أساءوا فإن تصفحْ فإنك قادرٌ وأفضل حلم حسبةً حلم مغضَبِ

فقال يزيد : أطّت [1] بك الرحم يا أبا صخر ! لولا أنهم قَدَحوا فى الملك لعفوت عنهم ؛ ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، وبقِىَ منهم صبى صغير ، فقال : اقتلونى فلست بصغير ، فقال يزيد بن عبد الملك : انظروا هل أنبت ! فقال : أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمتُ ووطئت النساء فاقتلونى ؛ فلا خيرَ فى العيش بعد أهلى ! فأمر به فقتل .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى : وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبرا ـ وهم أحد عشر مُهَلّبيًّا : المعارك وعبد الله والمغيرة والمفضّل والمنجاب ؛ بنو يزيد بن المهلب ، ودُرَيد والحجاج وغسان وشبيب والفضل ؛ بنو المفضل بن المهلب لصلبه ، والفضل بن قبيصة بن المهلب . قال : ولم يبق بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلّب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب . وعمر بن يزيد بن المهلب ، وعثمان بن المفضل بن المهلب ، فإنهم لحقوا برِتْبيل [2] ، ثم أومِنُوا بعد ذلك .

* * *

(١) أطت بك الرحم : رقت وحنت.
(٢) رتبيل : من ملوك الترك .

وقال الرضى الموسوى رحمه الله تعالى :

أَلا لِلّهِ بادِرَةُ الطِّلَابِ ... وَعَزْمٌ لَا يُرَوَّعُ بالْعِتَابِ (١)

وكلّ مشمّر البُرْدَيْنِ يهوِى ... هُوِىّ المصلَتَاتِ إلى الرقابِ

أُعَاتبهُ عَلَى بُعْدِ التنائى ... فيعذِلُنِى عَلَى قُرْبِ الإيَابِ

رأيتُ العَجْزَ يخضعُ لِلّيالِى ... ويرضَى عن نوائبها الغِضَابِ

وآمل أنْ تطاوِعَنِى اللّيالِى ... وينشب فى المُنَى ظفرى ونابى

ولولا صولة الأقْدَارِ دُونِى ... هَجَمْتُ عَلَى العُلَا مِنْ كُلّ بَابِ

وقال أيضا :

لا يُبِذّ الهمومَ إلا غـــلامٌ ... يرْكَبُ الهوْلَ والحسَامُ رَدِيفُ (٢)

ما يُذِلّ الزّمَانُ بالفقْرِ حرًّا ... كيفما كان فالشرِيفُ شَرِيفُ

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

وَلَسْتُ أَضِلُّ فى طُرُقِ الْمَعَالى ... وَنَارُ العِزِّ عَالِيَةُ الشُّعَاعِ (٣)

وَدُونَ الْمَجْدِ رَأْىٌ مُسْتَطِيلٌ ... وَبَاعٌ غَـيْرُ مَجْبُوبِ الذِّرَاعِ

وَيُعْجِبُنِى البِعادُ كأنّ قَلْبِى ... يحدّث عن عــدىّ بن الرِّقاعِ

فَرِدْ نَهْىَ العـــلاء بلا رقيبٍ ... وشمّـــر فى الأُمورِ بِلاَ نِزَاعِ

وَلَا تَغرُرْكَ قَعْقَعَةُ الأعادى ... فذاك الصَّخر خَرٌّ من اليَفَاعِ

وَنَحْنُ أحقُّ بالدُّنيَا وَلَـكِنْ ... تَخَيّرَتِ القَطوفَ عَلَى الوَسَاعِ (٤)

* * *

(١) ديوانه لوحة ٧٧ ، من قصيدة يفتخر ويمدح آل البيت ويذكر قبورهم ويتشوقها .

(٢) ديوانه، لوحة ١٨٩

(٣) ديوانه ، لوحة ٣٦ من قصيدة يمدح فيها أباه ويهنئه .

(٤) القطوف : الدابة البطيئة السير : والفرس الوساع : الجواد ذو السعة فى خطوه .

وقال حارثة بن بدر الغدانىّ :

أهانُ وأقصَى ثم ينتصحُونَنى ... وَمَنْ ذَا الَّذِى يُعطِى نصيحتَه قَسْرَا !
رأيت أكفَّ المصلتين عليكمُ ... مِلاءً وكفّى من عطائكمُ صِفْرَا
متَى تسألونى ما عَلَىَّ وتَمْنعُوا الَّذِى لى ، لا أسطيعُ فى ذلكمُ صَبْرَا

وقال بعض الخوارج :

تُعَيِّرُنى بالحربِ عِرْسى وَمَا دَرَتْ ... بأنّىَ لها فى كل ما أَمَرَتْ ضِدّ
لَحَا اللهُ قوماً يَقْعُدونَ وَعنْدَهُمْ ... سُيُوفٌ ولم يعصب بأيديهمُ قِدّ

وقال الأعشى :

أبالموت خَشَّتْنِى عِبادٌ وإنّما ... رأيتُ منايا القومِ يَسْعَى ذليلها[1]
وما موتة إنْ مِتّها غير عاجزٍ ... بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها

وقال آخر :

فلا أسمعنْ فيكم بأمر مَضيمةٍ ... وضيمٍ ولا تسمع به هامتى بَعْدِى
فإنّ السنانَ يَرْكب المرءُ حَدَّه ... من الضَّيْم ، أو يعدُو على الأسَدِ الوَرْدِ

ومثله :

إذا أنت لم تُنْصِفْ أخاك وَجَدْتَهُ ... على طرف الهِجْرانِ إن كَانَ يَعْقِلُ[2]
وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تُضِيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

---

(١) ديوانه ١٢٥

(٢) لمعن بن أوس ، ديوانه ٥٩

وقال آخر :

كَرِهُوا الموتَ فاسْتُبِيح حِمَاهُمْ ... وأقامُوا فعل اللئيم الذَّليـــلِ

أمن الموت تهربون فإنَّ الموتَ موتَ الذَّليل غـــير جميلِ

وقال بشامة بن الغدير :

وإنّ الّتى سامَـكُم قومُـكُمْ ... هُمُ جعلوها عليكم عُدُولا [١]

أخِزْىُ الحيـــاةِ وكُرْه الممات ... فـكلاً أراهُ طَعَاما وَبيـــلاَ !

فإن لم يكن غـــيرُ إحداهما ... فسيرُوا إلى الموت سَيْراً جميلا

وَلَا تَقْعُـــدُوا وَبِكُمْ مِنةٌ ... كَفَى بالحوادث للمـــرءِ غُولا

☆☆☆

قال يزيد بن المهلّب فى حرب جُرجان لأخيه أبى عيينة : ما أحسنُ منظرٍ رأيت فى هـذه الحرب ؟ قال : سيف بن أبى سَبْرة و بيضته ــ وكان عبدُ الله بن أبى سَبْرة حَمل على غلام تركىّ قد أفرج الناس له ، وصدوا عنـه لبأسه وشجاعته ، فتضار با ضَرْبَتَيْن ، فقتله ابن أبى سبرة بعـد أن ضربه التركىّ فى رأسه ، فنشب سيفُه فى بيضة ابن أبى سَبْرة ، فعاد إلى الصفّ وسيفه مصبوغ بدم التركىّ وسيفالتركى ناشب فى بيضته كجزء منها يَلْمَع ــ فقال الناس:هذا كوكب الذنب ، وعجبوا من منظره .

وقال هُدْبة بن خَشْرم :

وإنى إذا ما الموتُ لم يكُ دُونَهُ ... قِدَى الشبرأحمى الأنفأن أتأخّرَا [٢]

ولـكنّنِى أُعطِى الحفيظَةَ حَقَّهَا ... فأعرِفُ معروفاً وأنـكر منـكرا

وقال آخر :

إنى أنا المرء لا يُغضى عَلَى تِرَةٍ ... ولا يقرّ على ضَيْم إذا غُشِما

(١) مختارات ابن الشجرى ١٦ ، المفضليات ٥٩

(١) قدى الشبر : قدره ، والبيت فى اللسان (٢٠ : ٣٢) .

أَلقى المنيةَ خَوْفاً أن يقال فتى ... أمسى ـ وقد ثبت الصَّفان ـ منهزما

وقال آخر :

قَوِّضْ خيامَكَ والتمسْ بَلَداً ... تنأى عن الغاشيكَ بالظُّلْمِ

أو شِدَّ شــدة بَيْهَسٍ فعسَى ... أن يتقُوكَ بصفحة السِّلْمِ (١)

استنصر سبيع بن الحطيم التيميّ من بنى تيم اللات بن ثعلبة زيد الفوارس الضبيّ فنصره ، فقال :

نَبهتُ زيداً فلم أفْزَعْ إلى وَكِلٍ ... رثِّ السلاح ولا فى الحىّ مغمورِ

سَالَتْ عليهِ شعابُ الحَىّ حين دَعَا ... أنصارَه بوجوهٍ كالدّنانيرِ

وقال أبو طالب بن عبد المطلب :

كذبتم وبيت الله نُخْلِي مُحَمَّداً ... ولما نطاعِنْ دونه ونُنَاضلِ (٢)

وَنَنْصُره حتى نُصَرَّعَ حوله ... ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ

* * *

لما برز علىّ وحمزةُ وعبيدة عليهم السلام يوم بَدْر إلى عُتْبة وشيبة والوليد ، قَتل علىّ عليه السلام الوليدَ ، وقتل حمزةُ شيبة، على اختلاف فى رواية ذلك : هل كان شيبة قِرنَهُ أم عتبة ؟ وتجالَد عُبيدة وعُتْبة بسيفهما ، فجرحَ عُبيدة عُتْبة فى رأسه ، وقطع عُتبة ساق عُبَيدة ، فكرّ علىّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما ، فاستنقذاه من عُتْبة،وخبطاه بسيفهما حتى قتلاه واحتملا صاحبَهما ، فوضعاه بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وآله فى العَرِيش ، وهو يجود بنفسه ، وإنّ مُخّ ساقِهِ لَيَسِيلُ ، فقال : يارسول الله ، لو كان أبو طالب حيا لعلم أنى أولى منه بقوله :

---

(١) البيهس : الشجاع .

(٢) ديوانه ٥ (طبعة النجف) .

كَذَبْتُم و بيتِ الله نُخْلِي مُحَمّداً وَلَمّا نطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ

ونتصره حتى نصرَّعَ حولَه ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « اللهم أنجِزْ لى ماوعدتَنى ! اللهم إن تهلِكْ هذه العصابة لاتعبد فى الأرض » .

***

لمـا قدم جيش الحرّة إلى المدينة ، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المرىّ ، أباح المدينة ثلاثا ، واستعرض أهلَها بالسيف جزْراً ، كما يَجْزُرُ القصّاب الغنم ؛ حتى ساخت الأقدام فى الدّم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين ؛ على أنّه عبدقِنّ لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية؛هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحرّة ، إلا علىّ بن الحسين بن علىّ عليهم السلام، فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره ، وأخذ بيعته على أنّه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمه ، دفعا له عمّا بايع عليه غيره ، وكان ذلك بوصاةٍ من يزيد بن معاوية له ، فهرب علىّ بن عبدالله بن العباس رحمه الله تعالى إلى أخواله من كِنْدة ، فحَمَوْه من مُسلم بن عقبة ، وقالوا : لايبايع ابنُ أختنا إلا على مابايع عليـه ابنُ عمه على بن الحسين ، فأبى مسلم ابن عقبة ذلك ، وقال : إنى لاأفعل مافعلت إلا بوصاةِ أمير المؤمنين ، ولولا ذلك لقتلتُه ، فإن أهل هذا البيت أجْدَرُ بالقتل ، أو لأخذت بيعتَه على ماأخذتُ عليه بيعة غيره . وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يبايعَ ويقول : أنا أبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، وألتزم طاعته ، ولا يقول غير ذلك ؛ فقال على بن عبد الله بن العباس :

أبِى العباسُ رأسُ بنى قصىٍّ وأخوالِى المُلُوكُ بَنُو وَلِيعَهْ

هُمُ منعوا ذِمارِى يوم جاءت كتائبُ مُسْرفٍ وبَنُو اللَّكِيعَهْ

أراد بىَ التى لاعزّ فيهـــا فحالت دونه أيدٍ مَنِيعــهْ

مسرف كناية عن مُسلم ، وأم علىّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرّح بن معدى كرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن كندة .

قال الحصين بن الحمام :

وَلَسْتُ بمبتاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[1]

تَأَخَّرْتُ أستبقى الحياة فلم أجِدْ لنفسِى حياةً مثلَ أن أتقدّما

فلسنَا على الأعقاب تدمَى كلومُنا ولـكن على أقدامِنا تَقْطُر الدِّمَا

نفلِّق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ علينا ، وهمْ كانُوا أعقّ وأظْلَمَا

أَبَى لابن سلمى أنّه غــيرُ خالد مُلاقِى المنايا أىَّ ضَرْبٍ تيَمَّمَا

ابن سلمى يعنى نفسه ، وسلمى أمه .

وقال الطرمّاح بن حكيم :

وَمَا مُنِعَتْ دارٌ ولا عَزَّ أهلُها مِنَ النَّاسِ إلّا بالْقَنَا والقَنَابِل[2]

وقال آخر :

وإن التى حدثتها فى أنوفِنَا وأعناقنا من الإباء كَمَاهِيَا

وقال آخر :

فإنْ تَــكُنِ الأيّام فينَا تبَدَّلَتْ ببؤسَى ونُعْمى والحوادِثُ تَفْعَلُ[3]

فَمَا لَيَّنَتْ مِنَّا قَنَاةً صَلِيبَةً وَلَا ذَلَّلَتْنا للتى ليس تجملُ

وَلَـكِنْ رَحَلْنَاها نفُوسا كريمةً تحمّل مالا يستطاع فتحمِلُ

---

(١) المفضليات ٦٩

(٢) ديوانه ١٥٩

(٣) لإبراهيم بن كنيف النبهانى ، ديوان الحماسة ١ — ٣٥١ — بشرح التبريزى .

وقال آخر :

إذا جانبٌ أعياك فاعمِد لجانبٍ   فإنك لاقٍ فى البلاد معوَّلا [١]

وقال أبو النشناش :

إذا المرء لم يَسْرَحْ سواماولم يُرِحْ   سَوَاماً ولم تَعْطِفْ عَلَيْهِ أقارِبُهْ [٢]

فَلَلْمَوْتُ خـيرٌ للفتى من قعودِهِ   عديماً ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ

ولم أرَ مثل الهمّ ضاجعه الفتى   ولا كَسَوادِ الليل أخْفَقَ طالبُهْ

فعِشْ معدِماً أومُتْ كريماً فإنّنى   أرى الموت لا ينجُو من الموتِ هَارِبُهْ

***

وفد يحيي بن عُرْوة بن الزُّبير عَلَى عبـد الملك ، فجلس يوما على بابه ينتظر إذنَه ، فجرى ذكرُ عبد الله بن الزُّبير ، فنال منه حاجب عبد الملك ، فلطَم يحيي وجهَه حتى أدْمَى أنفه ، فدخل على عبد الملك ودمه يجرى من أنفه ، فقال : مَنْ ضربك ؟ قال : يحيي ابن عُرْوة ، قال : أدخله — وكان عبد الملك متكئا فجلس — فلمـا دخل قال : ما حملَك على ما صنعت بحاجبي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن عمّي عبد الله كان أحسنَ جواراً لعمتك منك لنا ، والله إن كان لَيُوصِى أهلَ ناحيته ألّا يُسْمِعوها قَذَعاً [٣] ، ولا يذكروكم عندها إلا بخير ؛ وإن كان لَيقولُ لها : مَنْ سبّ أهلك فقد سبّ أهله ، فأنا والله المعمّ المُخْوِل ، تفرّقت العرب بين عمّى وخالى ، فـكنت كما قال الأول :

يَدَاهُ أصابَتْ هذهِ حَتْفَ هذهِ   فلم تجد الأخرى عليهـــا مُقدّما

فرجع عبد الملك إلى متّـكئه ، ولم يزل يُعرَف منه الزيادة فى إكرام يحيي بعدها .

---

(١) لجابر بن ثعلب الطائى ، ديوان الحماسة ١ : ٢٩٣ — بشرح التبريزى .

(٢) ديوان الحماسة ١ : ٣٠٢ — بشرح التبريزى

(٣) القذع : الفحش .

وأم يحيى هذه هي ابنة الحكم بن أبي العاص عمّة عبد الملك بن مروان .

وقال سعيد بن عمر الحرشيّ أمير خراسان :

فلستُ لعامرٍ إنْ لمْ تروْني ... أمامَ الخيْلِ أطعَنُ بالعوالى [1]
وأضربُ هامةَ الجبّار منهُمْ ... بماضِى الغرْب حُودِثَ بالصقالِ [2]
فما أنا فى الحروب بمستكينٍ ... ولا أخشى مصاولةَ الرجالِ
أبَى لى وَالدى من كلّ ذم ... وخالِي حين يُذكَرُ خيرُ خالِ

***

قال عبد الله بن الزبير لما خطب حين أتاه نعى مُصْعَب : أما بعد ؛ فإنه أتانا من العراق خبَرٌ أفرحنا وأحزننا ، أتانا خبرُ قتل المصعَب ؛ فأمّا الذى أحزَننَا فلوعةٌ يجِدُها الحميم عند فراق حميمه ؛ ثم يرعوى بعدها ذو اللُّب إلى حسن الصبر وكرم العزاء .

وأمّا الذى أفرَحنا ، فإنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا وله خِيرة ؛ إنا والله ما نموت حبجاً [3] كما يموت آل أبى العاص ؛ ما نموت إلا قتلاً ؛ قَعْصاً [4] بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف ؛ فإنْ يهلك المصعب ؛ فإن فى آل الزبير خَلَفاً .

وخطب مرة أخرى فذكره فقال : لودِدْت والله أنّ الأرض قاءتْنِى عنده حين لفظ غُصَّتَه وقضى نَحْبَه .

شعر :

خُذِيه فَجُرِّيه ضُبَاع وأبْشِرِى ... بلحم امرئٍ لم يشهَد اليوم ناصرُهْ

(١) العوالى : جمع عالية ؛ وهى أعلى القناة .

(٢) غرب السيف : حده : ويقال : حادث السيف ؛ إذا جلاه ؛ وصقال السيف : جلاؤه .

(٣) الحبج : أن يأكل البعير لحاء العرفج فيرم بطنه سمنا وربما قتله ذلك ؛ وفى اللسان (٣ : ٤٨). بعد أن ذكر كلام ابن الزبير : « يعرض ببنى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالتخمة » . وفى ج : « جنجا ».

(٤) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أى أصابته ضربة أورمية فمات مكانه .

وقال الشدّاخ بن يعمُر الكِنانيّ :

قاتِلُوا القومَ يا خُزَاعُ ولا يَدْخُلْكُمْ مِنْ قِتَالِمْ فَشَلُ [(١)]
القومُ أمثالُكم لَهُمْ شَعَرٌ فى الرأسِ لا يُنشرونِ إنْ قُتلوا

وقال يحيى بن منصور الحنفى :

ولما نأتْ عنّا العشيرةُ كلُّها أَنخْنا فحالَفْنَا السيوفَ على الدَّهْرِ [(٢)]
فما أسلمتْنا عند يوم كريهةٍ ولا نحن أغضينا الجُفُونَ على وِتْرِ

* * *

قيل لرجل شهد يوم الطّفّ مع عمر بن سعد : ويحك ! أقتلتُمْ ذريّةَ رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال : عَضَضْتَ بالجَنْدَل ؛ إنك لو شهِدت ما شَهِدْنا لفعلت ما فعلنا ، ثارت علينا عِصابة أيديها فى مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطِمُ الفرسان يمينا وشمالا ، وتُلْقِى أنفسها على الموت ؛ لا تقبل الأمان ، ولا ترغب فى المال ، ولا يحول حائل بينها وبين الوُرُود على حياض المنية ، أو الاستيلاء على الملك ؛ فلو كففْنَا عنها رويدا لأتتْ على نفوس العسكر بحذافيرها ؛ فما كنا فاعلين لا أمّ لك !

السخاء من باب الشجاعة ، والشجاعة من باب السخاء ؛ لأنّ الشجاعة إنفاق العمر وبذلُه فكانت سخاء ، والسخاء إقدام على إتلاف ما هو عَدِيل المهجة ؛ فكان شجاعة .

أبو تمام فى تفضيل الشجاعة على السخاء :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إنما نفقاتُهُمْ مالٌ وقومٍ يُنْفِقُون نُفُوسا [(٣)]

* * *

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ١ : ١٨٩ ــ بشرح التبريزى والفشل : الجبن والضعف .
(٢) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٣١٠
(٣) ديوانه ٢ : ٢٦٧

قيل لشيخنا أبى عبد الله البصرىّ رحمه الله تعالى : أتجد فى النُّصوص ما يدلّ على تفضيل علىّ عليه السلام ؛ بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه ؛ فإنّ ذاك أمرٌ مفروغ منه ؟ فذكر حديثَ الطائر المشوىّ [1] ؛ وأنّ المحبّة من الله تعالى إرادة الثواب، فقيل له : قد سَبقك الشيخُ أبو علىّ رحمه الله تعالى إلى هذا ؛ فهل تجدُ غير ذلك ؟ قال : نعم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص ، فكل مَنْ زاد ثباته ؛ زادت المحبة له ؛ ومعلوم أن عليًّا عليه السلام ما فرّ فى زَحْفٍ قطّ ، وفر غيرُه فى غير موطن .

***

وقال أبو تمام :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أنباءً من الكتُبِ ... فى حَدّه الحدّ بَيْنَ الجِدِّ واللّعِبِ [2]

بيضُ الصفَائحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فى ... مُتونِهِنّ جِلَاء الشَّكّ والرِّيَبِ [3]

وَالْعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لامعةً ... بين الخميسَيْنِ لا فى السَّبْعةِ الشُّهُبِ [4]

وقال أبو الطيب المتنبى :

حَتّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامى قَوَائِلُ لى ... المجدُ للسَّيْفِ لَيْسَ المجدُ لِلْقَلَمِ [5]

---

(١) يشير إلى ماروواه الترمذى فى باب المناقب (١٣ : ١٧٠) ، بسنده عن أنس بن مالك ، ولفظه : « كان عند النبى صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك ؛ يأكل معى هذا الطير . فجاء على فأكل معه . وانظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٧

(٢) ديوانه ١ : ٤٥ ؛ من قصيدة يمدح بها المعتصم بالله ؛ ويذكر فتح عمورية ، وكان المنجمون قد حكموا أن للمعتصم لايفتح عمورية ؛ وراسلته الروم بأنا نجد فى كتبنا أنه لاتفتح مدينتنا إلا وقت إدراك التين والعنب ؛ وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك من المقام فيها الثلج والبرد ، فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها ، فأبطل ما قالوا .

(٣) الصفائح : جمع صفيحة ؛ وهى الحديدة العريضة ؛ ويقال للسيف العريض كذلك .

(٤) يرد على المنجمين ماحكموا به ؛ لأن الظفر كان قبل حكمهم . ويعنى بشهب الأرماح أسنتها ، ويعنى بالسبعة الشهب الطوالع التى أرفعها زحل وأدناها القمر .

(٥) ديوانه ٣ : ٥٩ ؛

أكْتُبْ بِنَا أَبداً بعد الكِتاب بهِ   فإنما نحن للأسْيَاف كالخدَمِ
أسْمَعْتنى وَدَوائى ما أشَرْتُ بهِ   فإنْ غفَلْتُ فدائى قِلّةُ الفَهمِ
مَنِ اقْتَضَى بسوى الهندىّ حاجَتَهُ   أجاب كلّ سؤالٍ عن «هَلٍ» بِلَمِ

* * *

قال عطاف بن محمد الألوسىّ :

أمكابدَ الزَّفَرَات مؤصَدة   تلتذ خوف القطع بالشَّللِ
صَرّفْ هُمومَكَ تَنتَدِبْ هِمَماً   فالسُّكْرُ يُعقِبُ نشوَةَ الثّملِ
ولِلَيْلةِ الميلادِ مَفْرَحَةٌ   تنسى الحواملَ أشهر الحَبَلِ
سِرْ فى البِلاد تخوضها لُجُجاً   فالدُّرّ ليس يُصابُ فى الوَشَلِ (١)
واجْعَل لصبْوَتِك الظُّبَا سَكَناً   والدّور أكواراً على الإبلِ
والعيشُ والوطن المهد فى   غَرْبِ الحُسَام وغَارِب الجملِ
واشْدُدْ عَلَيْكَ وَخُذْ إليك وَدَعْ   ضَعَة الخُمول وَفَتْرَةَ الكَسَلِ
وَارْم العُدَاةَ بِكُلِّ صَائِبَةٍ   مَا الرَّمْىُ مَوْقُوفاً عَلَى ثُعَلِ (٢)
لَا تَحْسَبِ النَّكَبَاتِ مَنقصةً   قَدْ يُستجاد السَّيفُ بالفَلَلِ

* * *

وقال عروة بن الورد :

لَحَا اللهُ صُعلوكاً إذا جَنّ لَيلُهُ   مُصَافى المُشَاشِ آلفاً كلّ مَجْزَرِ (٣)

---

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) ثعل : أبو حى من طيء ؛ اشتهروا بالرمى .

(٣) ديوانه ٥٣ (ضمن دواوين الشعراء الخمسة) . الصعلوك : الفقير ، والمصافى : من المصافاة ؛ وهى الاختيار والملازمة ، والمشاش : العظم الممكن مضغه، والمجزر : موضع نحر الإبل .

يَعُدّ الغِنى مِنْ نَفْسه كلَّ ليــلةٍ … أصابَ قِراها مِنْ صَديق ميسَّرِ [١]

يَنامُ عِشاءً ثمّ يُصْبِحُ ناعِساً … يحُتّ الحصاَ مِنْ جَنْبِه المتقعِّرِ [٢]

يُعيــنُ نِساءَ الحيّ ما يستعِنَّهُ … وَيُمْسِي طَلِيحاً كالبعيرِ المحسَّرِ [٣]

ولــكنّ صُعْلوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ … كَضَوْءِ شِهاب القابِسِ المُتنوِّرِ

مُطلًّا عَلَى أعْــدائِهِ يَزْجُرُونَه … بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنيحِ المشهَّرِ [٤]

وإن قَعــدُوا لا يأمنون اقترابَه … تَشَوُّفَ أهل الغائب المتنظِّرِ [٥]

فذلك إن يَلْقَ المنِيّــةَ يَلْقَهَا … حَمِيداً وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأجْــدِرِ

* * *

وقال آخر :

ولستُ بمولى سَوْءةٍ أدَّعَى لها … فإنّ لسوآتِ الأمور مَواليا [٦]

وسيانِ عِنْدِي أنْ أموتَ وأنْ أُرَى … كَبَعْضِ رجالٍ يُوطِنُونَ المخازيَا

ولن يجدَ النّاسُ الصديقُ ولا العِدَى … أديمى إذا عَدّوا أديمىَ واهِيا

وإنّ نِجارِى يابن غَنْمٍ مُخالِفٌ … نجارَ لئامٍ فابغِني مِن وَرائِيا [٧]

وَلَسْتُ بِهَيّابٍ لِمَنْ لَا يَهابُنى … وَلَسْتُ أرَى للمرءِ مالا يرَى ليَا

إذا المرءُ لم يُحْبِبْكَ إلا تكرُّهاً … عِراضَ العَلُوقِ لم يكُنْ ذاكَ باقِيا [٨]

* * *

---

(١) الميسر : الذى قد نتج إبله فكثر خيره ؛ يقول : من صفات ذلك الصعلوك أنه إذا أصاب القرى فى كل ليلة من صديق غنى ؛ عد ذلك لنفسه غنى وخيرا .

(٢) يحت الحصا : يفركه ؛ والناعس : الذى يأتى عليه الصباح وهو ناعس لخموله وانحطاط همته .

(٣) البعير الطليح : المعيي ؛ وكذلك المحسر

(٤) أطل على أعدائه : أوفى عليهم . والمنيح والسفيح والرغد : قداح لا أنصباء لها ، وإنما يكثر بها القداح فهى تجال أبدا ، وتزجر حالا بعد حال ؛ فشبه الصعلوك به (من شرح التبريزى)

(٥) الديوان : « فإن بعدوا يأمنون اقترابه » .

(٦) لطرفة الجذيمى ، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٣٨٩ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

(٧) النجار : الأصل .

(٨) العلوق : الناقة التى ترأم ولدها وتلحسه حتى يأنس بها ؛ فإذا أراد ارتضاع اللبن منها ضربته وطردته.

نَهار بن توْسعة فى يزيد بن المهلّب :

وَمَا كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ أميرٍ ... كما كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ يزيدِ

فأخطأ ظَنُّنَا فيــه وَقِدْماً ... زَهِدْنا فى معاشرة الزَّهيدِ

إذا لم يعطِنا نصَفاً أميرٌ ... مشينا نحوه مَشْىَ الأسْودِ

***

كان هُدْبة اليشكرىّ ـ وهو ابن عمّ شوذب الخارجى اليشكُرىّ ـ شجاعا مقداما ، وكان ابنُ عمه بِسْطام الملقب شوْذباً الخارج فى خلافة عمر بن عبـد العزيز و يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفا فحاربه ، فانـكشفت الخوارج ، وثبتَ هُدْبة وأبى الفرار ، فقاتل حتى قُتل ، فقال أيوب بن خوْلة يرثيه :

فَيَا هُدْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُدْبَ لِلنَّدى ... وَيَا هُدْبَ لِلْخَصْمِ الألَدِّ يُحَارِبُهْ (١)

وَيَا هُدْبَ كَمْ مِنْ مُلْحَمٍ قَدْ أجَبْتَهُ ... وَقَدْ أسْلَمَتْه لِلرِّمَاحِ كَتَائِبُهْ (٢)

تزَوَّدْتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفَراً ... وَعَضْباً حُساماً لم تخنْك مَضَارِبُهْ (٣)

وَأَجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّرَاةِ كَأَنَّه ... إذا انقضّ وافى الرِّيش حُجْن مَخَالِبُهْ (٤)

***

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تَرِدُ إلى أبى مسلم بخراسان : إن استطعت ألّا تَدَع بخُرسان أحداً يتكلّم بالعربية إلا وقتلته فافعل ، وأيّما غلام بلغَ خمسة أشبـار تتّهمه

---

(١) الأبيات مع ذكر الخبر مفصلا فى تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٣

(٢) الملحم : الذى أسر وظفر به أعداؤه ؛ وفى ج : « ملجم » تصحيف .

(٣) الطبرى : « تزود . . . لم تخنه » .

(٤) أجرد ؛ من وصف الفرس ، والجرد قصر شعر الجلد فيه ، وهو من الأوصاف المحمودة . السراة : الظهر ، ومحبوك السراة ، أى شديد الخلق. حجن مخالبه ، يريد صقرا ، والحجن : الاعوجاج.

فاقتله ؛ وعليك بمُضَر ؛ فإنهم العدُوّ القريب الدار ، فأبِدْ خَضْرَاءهم [1] ولا تدع على الأرض منهم ديارا .

* * *

قال المتنبي :

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى ... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانِبِهِ الدَّمُ [2]

وله :

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا ... وَبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ [3]

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ ... وَلَا فِي الرَّدَى الجارى عَلَيْهِمْ بِآثِمِ

وقال المتنبي أيضا :

رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى يَانَفْسُ وَاطَّرِحِي ... حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ والنَّعَمِ [4]

إِنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سائِلَةً ... فَلَا دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجْدِ والكَرَمِ

* * *

ومن أباة الضيم قُتيبة بن مسلم الباهلىّ أمير خراسان وما وراء النهر ؛ لم يصنعْ أحدٌ صنيعه فى فتح بلاد الترك ، وكان [5] الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العهْد بعده ، ويجعلَه فى ابنه عبد العزيز بن الوليد ، فأجابه إلى ذلك قُتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء ، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك ، وقام سليمان بالأمر بعده ـ وكان

---

(١) فى الأساس : أباد الله خضراءهم ؛ أى شجرتهم التى تفرعوا منها .

(٢) ديوانه ٤ : ١٢٥

(٣) ديوانه ٤ : ١١٢

(٤) ديوانه ٤ : ٤٣

(٥) انظر تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٣ وما بعدها .

قتيبةُ أشدَّ الناس فى أمرِ سليمان وخلعِه عن العهد ـ علم أنه سيعزِله عن خراسانَ ويولّيها يزيدَ بن المهلبِ ، لودٍّ كان بينه وبين سليمان ، فكتب قتيبة إليه كتابا يهنئه بالخلافة ، ويذكُر بلاءه وطاعتَــه لعبد الملك وللوليد بعده ، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزْله عن خُراسان ، وكتب إليه كتابا آخر يذكّره فيه بفتوحه وآثاره ، ونكايتِه فى الترك ، وعِظَم قدره عند ملوكهم ، وهيبة العجم والعرَب له وعِظَم صيته فيهم ، ويذمّ آل المهلب ، ويحلف له بالله : لئن استعملَ يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنّه ، وليملأنّها عليه خيلا ورَجِلا ، وكتب كتابا ثالثا فيه خَلع سليمان ، وبعث بالكُتُب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به ، وقال له : ادْفَعْ الكتاب الأول إليه ، فإن كان يزيدُ بن المهلب حاضراً عنده ، فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادْفع إليه هذا الثانى ، فإن قَرَأه وألقاه إليه أيضا فادفع إليــه الثالثَ ؛ وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد ؛فاحتبس الكتابين الآخرينْ معك .

فقدِم الرسولُ على سليمان ، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلّب ، فدفع إليه الكتاب الأول ، فقرأه وألقــاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتابَ الثانى ، فقرأه وألقاه إلى يزيد أيضا ، فدفع إليه الكتاب الثالث ، فقرأه وتغيّر لونه وطواه ، وأمسكه بيده ، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه ، ثم أحضره ليلا ، ودفع إليه جائزته ، وأعطاه عَهْد قتيبة على خُراسان ، وكان ذلك مكيدةً من سليمان يسكنه لِيَطمئنَّ ثم يعزله ، وبعث مع رسوله رسولا ، فلما كان بحُلْوان بلغه خَلْعُ قتيبة سليمان بن عبد الملك ، فرجع رسول سليمان إليه ، فلما اختلفتِ العربُ على قتيبة حينَ أبدَى صفحته لسليمان ، وخلع رِبْقَة الطــاعة ، بايعوا وكيعَ بن أبى سود التميمىّ على إمارة خراسان ، وكانت أمراء القبائل قد تنكّرتْ لقتيبــة لإذلاله إياهم ، واستهانته بهم واستطــالته عليهم ، وكرهوا إمارته ، فكانت بيعة وكيع فى أوّل الأمر

سرًّا ، ثم ظهر لقتيبة أمرُه ، فأرسل إليه يدعوه ، فوجده قد طلاَ رِجْلَه بمَغْرة [١] وعلّق في عنقه خَرَزاً ، وعنده رجلان يَرْقيَان رجلَه ، فقال للرسول : قد ترى ما برجلي ! فرجع وأخبر قتيبة ، فأعاده إليه ، فقال : قل له ليأتينّي محمولا ، قال : لاأستطيع . فقال قتيبة لصاحب شرطته : انطلق إلى وكيع فأتني به ؛ فإن أبى فاضرِبْ عنقَه ، وأْتِني برأسه ، ووجّه معه خيلا ، فقال وكيع لصاحب الشرطة : البَثْ قليلا تلحق الكتائب ، وقام فلبس سلاحه ، ونادى في الناس فأتوْه، فخرَج فتلقاه رجل ، فقال : ممن أنت ؟ فقال : من بني أسد ، فقال : ما اسمُك ؟ فقال ضِرْغام ، فقال : لِابن مَنْ ؟ قال : ابن لَيْث ، فتيمّن به وأعطاه رايته ، وأتاه الناس أرسالا من كلّ وجه ، فتقدّم بهم ، وهو يقول :

قَرْمٌ إذا حُمِّلَ مَكْرُوهَةً شَدَّ الشَّرَاسِيفَ لَهَا والحَزِيمْ [٢]

واجتمع إلى قتيبة أهلُه وثقاته ، وأكثرُ العرب ألسنتُهم له وقلوبهم عليه ، فأمر قتيبة رجلا فنادى : أين بنو عامر ؟ وقد كان قتيبة جَفَاهم في أيام سُلطانه — فقال له مَجْفر [٣] ابن جزء الكلابيّ : نادِهم حيثُ وضعتَهم ، فقال قتيبة : أنشُدُكم الله والرَّحِم — وذاك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان — فقال مجفر : أنت قطعتَها ، قال : فلكم العُتْبى ، فقال مجفر : لاأقالنا الله إذا ! فقال قتيبة :

يَانفسُ صَبْراً عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَلَمٍ إِذْ لم أجِدْ لِفُضُول العيش أقْرَانَا

ثم دعا [٤] ببرذون له مُدَرّب [٥] ليركَبه ، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا . فلما رأى ذلك

---

(١) المغرة : طين أحمر.

(٢) البيت في اللسان ١٥ : ٢١ ، من غير نسبة . القرم : السيد . والشراسيف : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن . والحزيم : موضع الحزام من الصدر والظهر كله .

(٣) في الطبري : « محصن » .

(٤) في الطبري : « ودعا بعمامة ، وكانت أمه بعثت بها إليه ، فاعتم بها ، كان يعتم بها في الشدائد ، ودعا ببرذون . . . » .

(٥) المدرب : المؤدب الذي ألف الركوب وعود المشي .

عاد إلى سريره فجلس ، وقال : دعوه ؛ فإنّ هذا أمرٌ يُراد . وجاء حيان النَّبَطِيّ — وهو يومئذ أمير الموالى ، وعدتهم سبعة آلاف ، وكان واجدا على قُتيبة — فقال له عبد الله بن مسلم أخو قتيبة : احمل ياحيان ، فقال : لم يأنِ بعد ، فقال له : ناولْنِي قوسَك ، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس . ثم قال حيان لابنه : إذا رأيتَنى قد حوّلت قلنسوتى ، ومضيتُ نحو عسكر وكيع فمِلْ بمن معك من العجم إلىّ ، فلما حَوّل حيان قلنسُوتَه ومضى نحو عسكر وكيع ، مالت الموالى معه بأسْرها ، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس ، فرماه رجلٌ من بنى ضَبّة فأصاب رأسه ، فحُمل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فوضَعه على مصلّاه ، وجلس عند رأسه ساعة ، وتهايج الناسُ ، وأقبل عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة نحوهم ، فرماه الغوغاء وأهلُ السوق فقتلوه ، وأشِير على قتيبة بالانصراف ، فقال : الموتُ أهونُ من الفرار ، وأحرق وكيع موضعا كانت فيه إبل قُتيبة ودوابّه ، وزحَفَ بمن معه حتى دنا منه ، فقاتل دونه رجل من أهله قتالا شديدا ، فقال له قتيبة : انجُ بنفسِك ، فإنّ مثلك يُضَنّ به عن القتل ، قال : بئسما جَزَيْتُك به أيها الأمير إذاً ، وقد أطعمتَنِي الجَرْدَق ، وألبستنى النُّمرق [١] .وتقدّم الناس حتى بلغوا فُسطاط قتيبة ، فأشار عليه نُصحاؤه بالهرَب ، فقال : إذاً لست ، لمسلم بن عمرو ! ثم خرَج إليهم بسيفِه يجالدهم ، فجُرح جراحات كثيرة ، حتى ارتُثّ [٢] وسقط ، فأكبّوا عليه ، فاحتزُّوا رأسه ، وقُتِل معه من أخوته عبدُ الرحمن ، وعبد الله وصالح ، والحصين ، وعبد الكريم ، ومسلم ؛ وقُتِل معه جماعة من أهلِه وعدّة مَنْ قتل معه من أهلِه و إخوته أحد عشر رجلا .

وصعد وكيع بن أبى سود المنبر وأنشد : « مَنْ يَنِكِ الْعَيْرَ يَنِكْ نَيّاكا » [٣]

---

(١) الجردق : الرغيف ، معرب فارسيته : « كرده » . الجواليقى والنمرق : الميثرة .
(٢) ارتث ، بالبناء للمجهول : حمل من المعركة جريحا وبه رمق .
(٣) مثل ، قاله خضر بن شبل الخثعمى ، فى خبر ذكره صاحب مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٥

إنّ قتيبة أراد قتلِي ، وأنا قتّال الأقران ، ثم أنشد :

قَدْ جرّبُونِى ثُمَّ جرّبُونِى مِنْ غَلْوَتَيْن وَمِنَ الْمِئِين
حَتَّى إذا شبْتُ وَشَيَّبُونِى خَلوا عِنانى ثم سَيَّبُونِى [١]
حَذَراً منى وتنكّبُونِى فإنّنى رامٍ لِمَنْ يرْمِينى

ثم قال : أنا أبو مطرف ، يكررها مرارا ، ثم قال :

أنا ابنُ خنْدِف تنْمِينِى قبائلُها للصّالِحَات وَعَمِّى قَيْسُ عَيْلاَنا

ثم أخذ بلحيته ،وقال: إنّى لأقتلنّ ثم لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ ؛ إن مَرْزُبَانَكُم [٢] هذاابن الزانية ، قد أغلَى أسعاركم ؛ والله لَئنْ لم يَصِرْ القفيز [٣] بأربعة دراهم لأصلبنّه ، صلّوا على نبيكم .

ثم نزل وطلبَ رأس قتيبة وخاتَمه ، فقيل له : إنّ الأزد أخذتْه ؛ فخرج مُشْهِراً [٤] ، وقال : والله الذى لا إله إلّا هوَ لا أبرحُ حتى أوتى بالرأس ، أو يذهب رأسى معه ، فقال له الحُصَين بن المنذر : ياأبا مطرف فإنك تؤتَى به . ثم ذهب إلى الأزْد ، فأخذ الرأس وأتاه به ، فسيَّره إلى سُليمان بن عبد الملك ، فأدخِل عليه ومعه رءوس إخوته وأهله ، وعنده الهُذَيل ابن زُفَر بن الحارث الكلابىّ ، فقال: أساءك هذا ياهذيل ؟ قال : لو ساءنى لساء ناسا كثيرا . فقال سليمان : ماأردت هذا كلَّه ، وإنما قال سليمان ذلك للهُذيل ، لأنّ قيس عَيلان تجمع كِلاَباً وباهلة ، قالوا : ماوَلِىَ خُراسان أحدٌ كقُتيبة بن مسلم ؛ ولو كانت باهلة فى الدناءة والضَّعة واللؤم إلى أقصى غاية ، لكان لها بقتيبة الفَخْر على قبائل العرب .

---

(١) أصله فى الدابة ؛ يقال : سيب الدابة ؛ إذا تركها تذهب حيث شاءت ، وفى تاريخ الطبرى :

حتّى إذا شبت وشَيَّبُونى خَلُّوا عِنانى وَتَنكّبُونى

وانظر أمالى القالى ١ : ٢٨٦

(٢) المرزبة : رياسة الفرس ، وهو مرزبانهم .

(٣) الطبرى : « والله ليصيرن القفيز فى السوق غدا بأربعة » .

(٤) أى سيفه .

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتل قتيبة : يامعشرَ العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان مِنّا ثم مات لجعلناه فى تابوت ، فكنّا نستفتح به إذا غَزَوْنا .

وقال الأصبهبذ [١] : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ويزيد بن المهلّب ، لقد جئتم شيئا إدًّا ! فقيل له : أيهما كان أعظمَ عندكم وأهيبَ ، قال : لو كان قُتيبة بأقصى حُجْرةٍ [٢] فى المغرب ، مكبّلا بالحديد والقيود ، ويزيد معنا فى بلدنا والٍ علينا ، لكان قتيبة أهيبَ فى صدورنا وأعظم .

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلىّ يرثى قتيبة :

كأنّ أبا حفص قُتيبة لم يَسرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولَمْ يَعْلُ مِنْبرا
ولم تخفِقِ الرّاياتُ والجيشُ حَوْلهُ ... صُفوفا ولم يشهد له الناسُ عَسْكرا
دَعَتْهُ المنــــاياَ فاستجابَ لربّه ... ورَاحَ إلى الجنّات عفًّا مُطَهَّرَا
فمَا رُزِئَ الإسلامُ بَعْدَ محمــدٍ ... بمثلِ أبى حَفْصٍ ، فَبَكِّيهِ عَبْهَرَا

عَبْهر أمّ ولد له .

* * *

وفى الحديث الصحيح : « إنّ من خَيْرِ النّاسِ رَجُلًا ممسكا بعِنان فرسه فى سبيل الله ، كلّما سمع هَيْعَةً [٣] طار إليها » .

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : واعلم أنّ عليك عُيوناً من الله تَرْعاك وتَراك ، فإذا لقيت العدوّ ، فاحرِص على الموت تُوهَبْ لك الحياة ، ولا تغسّل الشهداء من دمائهم ؛ فإنّ دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

---

(١) الأصبهبذ فى الديلم كالأمير فى العرب .
(٢) الحجرة : الناحية .
(٣) الهيعة : الصوت أو الصياح .

عمر : لا تزالون أصحّاء ما نزعتم ونزوتم ؛ يريد : ما نزعتمُ القَوْس ونزوتم على الخيل .

بعض الخوارج :

وَمَنْ يَخْشَ أظفارَ المنَايا فإننــا ... لَبِسْنا لهنّ السابغاتِ مِنَ الصَّبْرِ

وإنّ كريهَ الموتَ عذبٌ مذاقهُ ... إذا ما مزجناه بطيبٍ مِنَ الذّكْرِ

حضّ منصور بن عَمّار فى قصصه على الغَزْو والجهاد ، فطرِحَتْ فى المجلس صُرّة فيها شىء ، ففُتِحَتْ فإذا فيها ضفيرتا امرأة ، وقد كتبت : رأيتُك يا بن عَمّار تحضّ على الجهاد ، ووالله إنى لا أملِكُ لنفسى مالا ، ولا أملك سوى ضفيرتىّ هاتين ، وقد ألقيتُهما إليك ، فتالله إلا جعلتَهما قَيْد فرسٍ غازٍ فى سبيل الله ، فلعل الله أنْ يرحمنى بذلك .

فارتجّ المجلس بالبكاء والضجيج .

* * *

لبعض شعراء العجم :

وَاسَوءَتَا لامرِئٍ شَبيبَتُهُ ... فى عُنفُوانٍ وَمَاؤُهُ خَضِلُ !

رَاضٍ بِنَزْرِ المعاشِ مُضْطَهَدٌ ... عَلَى تراثِ الآباءِ يتّكلُ

لَا حَفظَ اللهُ ذَاكَ مِنْ رَجُلٍ ... وَلَا رَعاهُ مَا أطّتِ الإبلُ

كلاّ وَرَبِّى حَتّى تكونَ فتًى ... قد نهكتْهُ الأسفارُ والرّحلُ

مُشَمِّراً يطلبُ الرِّياسة أوْ ... يُضرَبُ يَوْماً بِهُلْكهِ المثَلُ

حَتى مَتى تتبعُ الرِّجالَ وَلَا ... تُتْبَعُ يوماً ، لأمّكَ الْهَبَلُ !

* * *

عبد الله بن ثعلبة الأزدىّ :

فَلئِنْ عَمَرْتُ لأشفيِنّ النفس من تلك المساعى
ولأعْلِمَنَّ البَطْنَ أنّ الزّادَ ليسَ بِمُسْتَطاعِ
أمّا النهـــارُ فَقَدْ أرَى قومى بمرقَبَةٍ يَفاَعِ [1]
فى قَرّة هَلَكٍ وَشَوْ كٍ مثل أنيابِ الأفاعى [2]
تَرِدُ السِّباعُ مَعِى فتحـــسُبُنى السِّباعُ من السِّباعِ

* * *

مجير الجراد أبو حَنْبل حارثة بن مرّ الطائىّ ، أجارَ جراداً نزل به ومنعَ مِنْ صيده ، حتى طار من أرضه ؛ فسمِّىَ مجيرَ الجرادِ .

وقال هلال بن معاوية الطائىّ :

وبالجبلين لنا مَعْقِـــلٌ صَعَدْنا إلَيْهِ بِصُمِّ الصِّعَادِ
مَلَكْناهُ فى أُولَيَاتِ الزَّمَا نِ مِنْ قَبْلِ نُوحٍ ومِنْ قبلِ عَادِ
وَمِنّا ابنُ مُرٍّ أبو حَنْبَـــلٍ أجارَ من الناس رَجْلَ الجرَادِ
وَزَيْدٌ لَنَـــا ولنا حاتمٌ غياث الورى فى السِّنين الشداد

* * *

وقال يحيى بن منصور الحنفىّ :

وَلَمَّا نَأَتْ عَنّا الْعَشيرَةُ كُلُّهَا أَنَخْنَا فَحالفْنَا السُّيوفَ عَلَى الدَّهْرِ [3]
فَــا أسلمَتْنَا عِنْدَ يومٍ كريهةٍ وَلَا نحْنُ أغْضَيْنَا الجُفُونَ عَلَى وترِ

---

(١) اليفاع : التل .
(٢) ما يصيب الإنسان من البرد .
(٣) ديوان الحماسة ٣٢٦ ـ بشرح المرزوقى .

وقال آخر :

أرِقّ لأرْحَامٍ أرَاها قَرِيبَـةً   لحارِ بن كعب لا لجَرْمٍ وَرَاسِبِ [1]

وإنا نَرَى أقدامَنَا فى نعـالهمْ   وآنفَنا بين اللِّحَى والحواجبِ

وإقدامنـا يَوْمَ الوَغَى وإباءنا   إذا ما أبَيْنـا لا نُدِرّ لعَاصِبِ

* * *

حاصرت التّرك مدينة بَرْذَعة من أعمال أذْرَبيجان فى أيام هشام بن عبد الملك حصارا شديدا ، واستضعفتها وكادت تملكها ، وتوجّه إليها لمعاونتها سعيد الحرشىّ ، من قِبَل هشام بن عبد الملك فى جُيوش كثيفة ، وعلم الترك بقر به منهم فخافوا ، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بَرْذعة سِرًّا يعرّفهم وصوله ، ويأمرهم بالصبر خوفا ألّا يدركهم ، فسار الرجلُ ولقيَه قومٌ من الترك ، فأخذُوه وسألوه عن حاله ، فكتَمهم فعذّبوه ، فأخبرهم وصدقهم . فقالوا : إن فعَلْتَ ما نأمُرك به أطلقناك ، وإلا قتلناك ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : أنت عارف بأصحابك ببرذَعة وهم يعرفونك ، فإذا وصلتَ تحت السُّور فنادِهم إنه ليس خَلْفِى مَدَد ، ولا من يكشف ما بِكُم ، وإنما بُعثت جاسوسا . فأجابهم إلى ذلك ، فلما صار تحت سورها ، وقف حيث يسمع أهلُها كلامه ، وقال لهم : أتعرفونَنى ؟ قالوا : نعم ، أنت فلان ابن فلان ، قال : فإنّ سعيداً الحرشى قد وصل إلى مكان كذا فى مائة ألف سيف ؛ وهو يأمرُكم بالصبر وحفظ البلد ، وهو مصبحكم أو ممسّيكم ، فرفع أهل برذعة أصواتَهم بالتكبير ، وقتلت الترك ذلك الرجل ، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين .

وقال الراجز :

مَنْ كان ينوِى أهلَه فلا رَجَعْ   فَرّ من الموت وفى الموتِ وَقَعْ

(١) ديوان الحماسة ١ : ٣٢٨ بشرح المرزوقى ، ونسبها إلى بعض بنى عبس .

أشرف معاوية يوما فرأى عسكر علىّ عليه السلام بِصفّين فهاله ، فقال : مَنْ طلب عظيما خاطر بعظيمته .

وقال الـكلحبة :

إذَا المرْء لم يَغْش المـكاره أوشكت   حِبالُ الهوينَى بالفتى أنْ تَقَطَّعَا(1)

***

ومن شعر الحماسة :

أقُولُ لهـــا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً   مِنَ الأبْطالِ وَيْحَكِ لا تُرَاعِى(2)

فإنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقَـــاءَ يَوْمٍ   عَلَى الأجلِ الّذى لكِ لم تُطَاعِى

فصبراً فى مجالِ الْموتِ صَبْراً   فَمَا نَيْلُ الخـــلودِ بِمُسْتَطاعِ

وَلَا ثَوْبُ البقـــاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ   فيطوَى عَنْ أخى الخنَع اليراع(3)

سَبيلُ الموتِ غَايَةُ كلِّ حَىٍّ   فداعيـــهِ لأهْلِ الأرض دَاعِى

وَمَنْ لا يُعْتَبَطْ يَسْأمْ وَيَهْرَمْ   وَتُسْلِمُهُ المنونُ إلى انقطـاعِ

وما للمرءِ خَـــيْرٌ فى حياةٍ   إذا مَا عُدَّ مِنْ سَـــقَطِ المتَاعِ

ومنه أيضا :

وفى الشرِّ نجـاةٌ حين لَا يُنْجِيك إحْسَانُ(4)

ومنه أيضا :

وَلَم نَدْرِ إنْ جِضْنا عَنِ الموت جَيْضةً   كَمِ العمرُ باقٍ والمدَى مُتطاوِلُ(5)

---

(1) المفضليات ٣٢

(2) لقطرى بن الفجاءة . ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٩٦

(3) أخو الخنع : الذليل . واليراع : الرجل الجبان ؛ كأنه لاقلب له ؛ تشبيها له بالقصبة الجوفاء .

(4) للفند الزمانى ، ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٢٦

(5) لجعفر بن علبة الحارثى ، ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٤٨ . جضنا : عدلنا وانحرفنا.

ومنه أيضا :

وَلَا يَكْشِفُ الغَمّاء إلا ابنُ حُرَّةٍ ... يرَى غَمَراتِ الموتِ ثُمّ يَزُورُها[1]

ومنه أيضا :

فَلَا تحسَبِي أنّى تَخَشّعتُ بَعْدَكُمْ ... لِشيءٍ وَلَا أنّى مِنَ المَوْتِ أفْرَقُ[2]

وَلَا أنّ نَفسى يَزْدَهِيها وَعِيدُكُمْ ... وَلَا أنّنى بالمشى فى القَيْدِ أخْرَقُ

ومنه أيضا :

سَأغْسِلُ عَنّى العارَ بالسَّيْفِ جَالِبًا ... عَلَىّ قضاءَ اللهِ مَا كَانَ جالبا[3]

وأذْهَلُ عن دارِي وأجْعَلُ هَدْمَها ... لِعِرْضِيَ مِنْ باقى المذَمَّةِ حَاجِبَا

وَيَصْغُرُ فى عينى تلادِي إذا انْثَنَتْ ... يمينى بإدراكِ الّذى كنتُ طالبا

فإنْ تَهْدِمُوا بالغدرِ دارى فإنّها ... تراثُ كريمٍ لَا يُبالى العواقِبَا

أخِى عَزَماتٍ لا يُطيع على الّذى ... يَهُمُّ به مِنْ مُفْظِعِ الأمر عاتِبا

إذا هَمّ ألقَى بين عينيْهِ عزْمَهُ ... ونَكّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانِبا

فَيَا لَرِزَامٍ رَشّحُوا بِي مُقَدّمًا ... إلى الموت خواضا إليه السّباسِبَا

إذا همّ لم تُرْدَعْ عَزِيمةُ هَمِّهِ ... ولم يأتِ ما يأتِى مِنَ الأمْرِ هَائِبَا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فى أمره غَيْرَ نفسِه ... وَلَمْ يرضَ إلا قائم السيفِ صَاحِبا

ومنه أيضاً :

هُمَا خُطّتَا إمّا إسارٌ وَمِنّةٌ ... وإما دمٌ ، والقتلُ بالحرّ أجدرُ[4]

---

(١) لجعفر بن علبة أيضا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٥٠

(٢) له أيضا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٥٤

(٣) لسعد بن ناشب ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٧٠

(٤) لتأبط شرا ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٧٨

ومنه أيضا :

وإنّا لقَوْمٌ لا نرَى القتل سُبّةً ... إذا مارَأَتْهُ عامِرٌ وسَلُولُ [1]

يقصِّر حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

وَمَا مات مِنّا سيدٌ حَتْفَ أنفِه ... وَلَا طُلَّ مِنّا حيثُ كان قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلَى حدِّ الظُّباةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ السُّيوفِ تَسِيلُ

ومنه أيضا :

لَا يَرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحْجَامِ ... يَوْمَ الوَغى مُتَخَوِّفًا لِحِمَام [2]

فَلَقَدْ أُرَانِي للرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يمِينِي تارَةً وأمَامِي

حَتَّى خَضَبْتُ بما تحدَّر مِنْ دَمِي ... أكنافَ سَرْجِي أو عِنانَ لجامِي

ثم انصرفتُ وَقَدْ أصبتُ ولم أُصَبْ ... جَذَعَ البصيرَة قارِح الإقدام

ومنه أيضاً :

وإنِّى لدَى الحربِ الضَّروس موكَّلٌ ... بإقدامِ نَفْسٍ لا أريدُ بقاءَها [3]

متى يأتِ هذا الموت لا تُلْفَ حَاجَةٌ ... لنفسِيَ إلا قد قَضَيْتُ قَضَاءَها

* * *

كتب عبدُ الحميد بن يحيي عن مرْوان بن الحكم إلى أبى مسلم كتاباً ، حُمِل على جَمَلٍ لعِظَمه وكثرته . وقيل : إنّه لم يكن فى الطول إلى هذه الغاية ، وقد حُمِل على جمل تعظيما لأمره ، وقال لمروان بن الحكم : إنْ قرأه خاليا نَخِبَ [4] قلبه ، وإن قرأه فى ملإٍ من

---

(١) للسموءل ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١١١

(٢) لقطرى بن الفجاءة ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٣٠

(٣) لقيس بن الخطيم ، ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ١٨١

(٤) نخب : جبن

أصحابه ثبّطهم وخذلهم ، فلما وصل إلى أبى مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه ، و كتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان :

مَحَا السّيفُ أسطارَ البلاغة وانتحتْ إليك ليوثُ الغابِ من كلِّ جانب [١]

فإن تقدموا نعمَل سيوفاً شحيـذةً يهون عليها العَتْبُ من كلّ عاتب [٢]

و يقال : إنّ أول الـكتاب كان : لو أراد الله بالنّملة صلاحا ،لما أنبتَ لها جناحا.

وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيّار ،وهو أول كتاب صدَر عن أبى مُسلم إلى نَصْر ، وذلك حين لبس السواد ، وأعلن بالدّعوة فى شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة : أما بعد فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواماً فقال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَـكُونُنَّ أَهْدَى من إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَازَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً اُسْتِـكْبَاراً فِى الْأَرْضِ وَمَـكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَـكْرُ السَّيِّءِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾.[٣]

فلما ورد الـكتابُ إلى نصر تعاظَمه أمرُه ، وكَسَر له إحدَى عينيه ، وقال : إنّ لهذا الـكتاب لأخوات ، وكتب إلى مَرْوان يستصرِخه ، و إلى يزيد بن هبيرة يستنجِده فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بنى عبدشمس .

* * *

الرضىّ الموسوىّ رحمه الله تعالى:

سَأَمْضِى لِلَّتِى لاعيْبَ فِيهـــا وإنْ لم أستفِـدْ إلا عنـاء [٤]

---

(١) انتحت : قصدت .

(٢) شحيذة : مسنونة .

(٣) سورة فاطر ٤٢ ، ٤٣

(٤) ديوانه لوحه ٧٥ـ٧٦

وأطْلُبُ غايةً إنْ طوّحَتْ بِى ... أصابَتْ بِى الحِمامَ أو العَلاءَ

نَمَا بِى مِنْ أباةِ الضيمِ آبٍ (١) ... أفاضَ علىّ تلك الكِبْرياءَ

وَمِنَّا كُلّ أغْلبَ مُستميتٍ ... إذا أنْتَ لَدَدْتَه بالذلِّ قاءَ (٢)

إذَا ماضِيمَ نَمّرَ صَفْحَتَيْـه ... وَقَامَ عَلَى بَرَائِنِهِ إباءَ (٣)

ونأبى أنْ يُنَال النّصْفُ مِنّا ... وأنْ نُعطى مقارِعَنَا السّواء

ولَوْ كان العِداء يسوغُ فينا ... لَمَا سُمْنا الورى إلا العَداء

وله :

سَيُقطِعُكَ المهنّد ماتمنّى ... و يُعطيك المثقفُ ماتشاء (٤)

وما ينجى من الغَمَرات إلا ... طِعانٌ أو ضِرابٌ أو رِماء

* * *

ومن أهلِ الإباء الذين كرهوا الدنيّة واختاروا عليها المنيّة ، عبدُ الله بن الزبير ، تَفرّق عنه ـ لما خار به الحجّاج بمكة ، وحصرَه فى الحرم ـ عامّة أصحابه ، وخرج كثير منهم إلى الحجّاج فى الأمان ؛ حتى حَمْزَة وخُبَيْبٌ ابناه ، فدخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وكانت قد كُفّ بصرُها ، وهى عجوز كبيرة ، فقال لها : خَذَلنى النّاس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلّا من ليس عنده من الدّفْع أكثرُ من ساعة ، والقوم يُعطوننى من الدّنيا ماسألتُ ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت يابنىّ أعلمُ بنفسك ، إنْ كنت تعلم أنك على حقّ و إليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتِل أكثرُ أصحابك فلا تمكّن من رَقَبَتِك يتلاعب بها غِلمانُ بنى أميّة ، و إن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكتَ

---

(١) الديوان : « تام » .

(٢) الأغلب : الشجاع ، وأصله فى الأسد .

(٣) الصفحتان : جانبا العنق ، ونمرهما : جعلهما يشبهان صفحة النمر

(٤) ديوانه لوحة ١٧٦

نفسك ، وأهلكت مَنْ قتِل معك ، وإن كنت قاتلتَ على الحقّ ، فما وهن َ أصحابُك إلا ضعفت ، فليس هذا فعلَ الأحرار ، ولا أهلِ الدين . وكم خلودك فى الدّنيا ! القتلُ أحسن .

فدنا عبد الله منها فقبَّل رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والله ماركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضبُ لله تعالى عزّ وجلّ أنْ تُستَحلّ محارمُه ، ولكننى أحببتُ أن أعلم رأيك ، فقد زِدْتِنى بصيرة ، فانظرى يا أماه ، إنى مقتول يومى هذا ، فلا يشتدّ جزَعُك ، وسلِّمى لأمرِ الله ، فإنّ ابنَك لم يتعمّدْ إتيان منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حكم الله ، ولم يظلِمْ مسلماً ولا معاهِدا ، ولا بلغنى ظلمٌ عن عامل من عُمّالى فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شىء عندى آثرَ من رضا الله ، اللهمّ إنى لا أقول هذا تزكيةً لنفسى ، أنتَ أعلم بى ؛ ولكنّى أقولُه تعزيةً لأمى لتسلوَ عَنّى. فقالت : إنّى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حَسَناً إن تقدمتنى ؛ فاخرج لأنظُرَ إلى ماذا يصير أمرك ؟ فقال : جزَاكِ الله خيرا يا أمى ، فلا تَدَعى الدّعاء لى حيًّا وميتا . قالت : لا أدَعُه أبدا ، فمن قُتِل على باطلٍ فقد قتلت على حق ، ثم قالت : اللهم ارحمْ طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيبَ فى الظلماء ، وذلك الصوم فى هواجِرِ مكةَ والمدينة ، و برّه بأبيه و بى ؛ اللهم إنى قد أسلمتُ لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت فيه ، فأثِبْنى عليه ثوابَ الصابرين .

وقد رُوِىَ فى قصّة عبد الله مع أمّه أسماء رواية أخرى ، أنه لما دخل عليها وعليه الدِّرْع والمِغفر — وهى عمياء لا تبصر — وقف فسلّم ، ثم دنا فتناول يدَها فقبّلها ، قالت : هذا ودَاع فلا تَبْعُد ، فقال : نعم ، إنما جئتُ مودِّعا ، إنّى لأرى هذا اليوم آخرَ أيامى من الدنيا ، واعلمى يا أمّى أنى إذا قتلتُ فإنما أنا لحم لا يضرُّنى ماصنع بى ، فقالت : صدقت يا بنىّ ! أتِمّ على بصيرتك ، ولا تمكِّن ابن أبى عقيل مِنك ، ادنُ منى لأودّعك ، فدنا منها فقبّلته

وعانقته ، فوجدت مسّ الدِّرْع ، فقالت : ماهذا صنعمن يريد ما تريد ؟ فقال : إنما لبسته لأشدّ منك ، قالت : إنه لا يشدُّ منى ، ثم انصرف عنها ، وهو يقول :

إنى إذا أعرفُ يَوْمِى أصـبرُ إذْ بعضهم يعرف ثم ينـكِرُ

وأقام أهلُ الشام على كل باب من أبواب مكة رجالا وقائدا ، فـكان لأهل حِمْص الباب الذى يواجه باب الـكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بنى شَيْبة ، ولأهل الأردنّ باب الصّفا ، ولأهل فلسطين باب جُمَح ، ولأهل قِنِّسْرِين باب بنى سَهْم . وخرج ابنُ الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحمل هاهنا ، وكأنه أسد لا يُقدم عليه الرجال ، وأرسلتْ إليه زوجته: أأخرج فأُقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

كُتِبَ الْقَتْل والقِتالُ عَلَيْنا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيولِ

فلما كان الليل ، قام يصلّى إلى قريب السَّحَر ثم أغفى محتبيا بحمائل سيفه ، ثم قام فتوضأ وصلّى ، وقرأ ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾، ثم قال بعد انقضاء صلاتِه: مَنْ كان عَنّى سائلا فإنى فى الرَّعِيل الأول ، ثم أنشد :

وَلَسْتُ بمبتاع الحياة بِسُبَّةٍ ولامرتقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[1]

ثم حَمَل حتى بلغ الحجون ، فرُمِىَ بآجرّة ، فأصابت وجهه فَدَمِى ، فلما وجد سخونة الدمِ يسيلِ على وجهه ، أنشد :

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا وَلَـكِنْ عَلَى أقْدَامِنا تَقْطُر الدِّمَا[1]

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم ، واعتوروه بأسيافهم حتى سقط : وجاء الحجاج

(١) للحصين بن الحمام المرى ، من مفضليته ٦٤ ــ ٦٩

فوقف عليه وهو ميت ، ومعه طارق بن عمرو ، فقال : ماولدت النساء أذْكَرَ من هذا !
و بعث برأسه إلى المدينة ، فنُصب بها ثم حمل إلى عبد الملك .

* * *

أبو الطيب المتنبي :

أُطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وحيداً وماقولِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ! (١)
وأشجعُ مِنِّي كلَّ يوم سَلَامَتِي ... وَمَا ثَبَتَتْ إلا وفى نفسهَا أمْرُ
تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ حَتَّى تركتُها ... تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ
وَأَقْدَمْتُ إقْدَام الأبىّ كأنَّ لِي ... سِوَى مُهْجَتِي أوكان لِي عِنْدَهَا وِتْرُ (٢)
ذَر النَّفْسَ تأخذْ حَظَّها قَبْلَ بَينها ... فمفترقٌ جاران دارُهُمَا عُمْرُ
ولا تَحسبنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَينَةً ... فماالمجدُإلاالسَّيْفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ (٣)
وَتَضْرِيبُ هَامَاتِ الملوك وأنْ تُرَى ... لَكَ الهَبواتُ السُّودُ والعسكرُ المَجْرُ (٤)
وتَرْكُكَ فى الدُّنيا دَوِيًّا كأنما ... تداوَلَ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

* * *

وقال ابن حيوس :

ولستُ كَمَن أخْنَى عَلَيْه زمانه ... فظلَّ عَلَى أحْداثِهِ يتعتَّبُ (٥)
تَلَذُّ لهُ الشكْوى وإن لم يُفِدْ بِهَا ... صَلاحاً كما يلتذّ بِالحَكِّ أجْرَبُ
ولكنني أحمِي ذِمارِي بعزمةٍ ... تنوبُ منابَ السَّيْفِ والسَّيْفُ مقضَبُ (٦)

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٨
(٢) فى الديوان : « إقدام الأتى » ، والأتى : السيل الذى لايرده شىء .
(٣) القينة : المغنية . والزق : ظرف الخمر . والفتكة البكر : التى لم يسبق إلى مثلها .
(٤) الهبوات : جمع هبوة ؛ وهى الغبرة العظيمة . والمجر : الجيش العظيم .
(٥) ديوانه ١ : ٣٥ .
(٦) المقضب : السيف القطاع .

وليس الفتى مَنْ لم تسم جسمَه الظُّبا ... ويُحْطَمُ فيه مِنْ قَنا الخطِّ أكْعُبُ[1]

وله أيضا :

أخفَق المترَف الجنوحُ إلى الخفـــضِ وفاز المخاطرُ المِقْدامُ[2]

وإذا ما السُّيوف لم تشهد الحر ... بَ فسيّانِ صارمٌ وكَهَامُ

***

ومن تَقيَّل مذاهبَ الأسلاف فى إباء الضيم وكراهية الذلّ ، واختار القتلَ على ذلك وأن يموتَ كريما ؛ أبو الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام، أمّه أم ولد ، وكان السببُ فى خروجه وخلعه طاعةَ بنى مروان ، أنّه كان يخاصِم عبدَ الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب عليه السلام فى صدقاتِ علىّ عليه السلام ، وهـذا يخاصِم عن بنى حسين ، وهـذا عن بنى حسن ؛ فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحـكم أمير المدينة ، فأغلظ كلٌّ واحد منهما لصاحبِه ، فسُرَّ خالد بن عبدالملك بذلك ، وأعجبه سِبابهما ، وقال لهما حين سكتا : أغدُوَا علىّ ، فلستُ بابن عبد الملك إنْ لم أفصِلْ بينكما غدا ، فباتت المدينة تَغْلِي كالمِرْجل ، فمن قائل يقول : قال زيد كذا ، وقائل يقول قال عبد الله كذا ، فلما كان الغد جلس خالد فى المسجد ، وجَمَع الناس ؛ فمن بين شامتٍ ومغموم ، ودعا بهما وهو يحبّ أن يتشاتما ، فذهب عبدُ الله يتكلّم ، فقال زيد: لا تعجل ياأبا محمد ، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدا ، ثم أقبل على خالد ، فقال له : أجَمعْتَ ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر ، فقال خالد : أما لهذا السفيه أحدٌ يكلّمه !

فتكلّم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم ، فقال: يابن أبى تراب ، ويابن

---

(١) الديوان : « تسم جسمه » .

(٢) ديوانه ٢ : ٥٦٦ .

حسين السفيه ! أما ترَى عليك لوالٍ حقا ولا طاعة ! فقال زيد : اسكت أيها القحطانىّ ، فإنا لانجيب مثلَك ، فقال الأنصارىّ : ولِمَ ترغبُ عنى ! فوالله إنى لخيرٌ منك ، وأبى خير من أبيك ، وأمّى خير من أمك ! فتضاحك زيد ، وقال : يامعشر قريش ؛ هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ! فتكلّم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : كذبت أيها القحطانىّ ، والله لَهُوَ خيرٌ منك نفسا وأبا وأما ومَحْتِداً ، وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفًّا من الحصا ، فضرب به الأرض ، وقال : إنه والله مالَنَا على هـذا من صبر ، وقام .

فقام زيد أيضا ، وشخص من فوره إلى هشام ابن عبد الملك ، فجعل هِشامٌ لا يأذن له وزيد يرفع إليه القِصص، وكلّما رفع إليه قصة كتب هشام فى أسفلِها : ارجِـعْ إلى أرضِك، فيقول زيد : والله لا أرجع إلى ابن الحارث أبدا ، ثم أذن له بعـد حَبْسٍ طويل وهشام فى عِلِّية له ، فرقىَ زيد إليها ، وقد أمر هشام خادما له أن يتبعه حيث لايراه زيد ، ويسمع ما يقول . فصعد زيد ــ وكان بادنا ــ فوقف فى بعضِ الدرجة ، فسمِعَه الخادم ، وهو يقول : ماأحبّ الحياة إلا مَن ذلّ ! فأخبر الخادم هشاما بذلك ، فلمـا قعد زيد بين يدى هشام وحدّثه حلَف له على شىء ، فقال هشام : لاأصدّقك ، فقال زيد : إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله ، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه . قال له هشام : إنّه بلغنى أنّك تذكر الخلافة وتتمنّاها ، ولستَ هناكَ ! لأنّك ابنُ أمة ، فقال زيد : إنّ لك جوابا ، قال : تـكلّم ، قال : إنه ليس أحد أوْلَى بالله ، ولا أرفعَ درجة عنده من نبىّ ابتعثه ؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم ، وهو ابن أَمَة ، قد اختاره الله لنبوّته ، وأخرج منه خير البَشَرِ ، فقال هشام : فما يصنعُ أخوك البقرة ! فغضِب زيد ، حتّى كاد يخرج من إهابِه ، ثم قال : سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر ، وتسميه أنت البقرة ! لشدّ ما اختلفتما ! لتخالفنّه فى الآخرة ، كما خالفته فى الدنيا ، فيرد الجنة ، وترد النار .

فقال هشام : خُذُوا بيد هذا الأحمق المائق ، فأخرجوه ، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه ، فقال هشام : احمِلوا هـذا الخائن الأهوج إلى عامله ، فقال زيد : والله لئن حملتَنى إليه لا أجتمع أنا وأنت حَيَّيْن ، وليموتَنّ الأعجل مِنّا . فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة ، ومعه نفر يسيّرونه حتى طردُوه عن حدود الشام ، فلما فارقوه عَدَل إلى العراق ، ودخل الكوفة ، وبايعَ لنفسه ، فأعطاه البيعة أكثر أهلها ، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفىّ ، فكان بينهما من الحرب ماهو مذكور فى كتب التواريخ . وخذل أهلُ الكوفة زيدا ، وتخلّف معه ممّن تابعه نفر يسير ، وأبلى بنفسه بلاء حسناً وجهادا عظيما ، حتى أتاه سَهْم غربٍ [١] ، فأصاب جانب جَبْهَتِه اليُسرى ، فثبت فى دماغه فحين نزع منه مات عليه السلام .

***

عنّف محمد بن عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام زيداً لما خرج ، وحذّره القتل ، وقال له : إنّ أهل العراق خَذَلوا أباك عليًّا وحسنا وحسينا عليهم السلام ؛ وإنك مقتول ، وإنهم خاذلوك ، فلم يُثْنِ ذلك عَزْمه وتمثل :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الحُتُوف كأنّني ... أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوف بمعزِلِ [٢]

فَأَجبتُها إنّ المنيَّة مَنْهَلٌ ... لابُدَّ أَنْ أُسْقَى بِذَاكَ المَنْهَلِ

إن المنيّـــة لو تمثّل مُثِّلَتْ ... مِثْلِي ، إذا نزلوا بضَيِّقِ المنزِلِ [٣]

فاقْنَىْ حَيَـــاءَكِ لاأبالك واعلمى ... أنى امرؤ سأموت إن لم أقتلِ [٤]

***

(١) سهم غرب ، على الإضافة : لايدرى راميه
(٢) لعنترة ، ديوانه ٤٢ ، (من مجموعة العقد الثمين) .
(٣) فى الديوان : « ضنك المنزل »
(٤) اقنى حياءك : الزميه

العلوى البصرى صاحب الزّنج يقول :

وإذا تُنَازِعُنِي أقولُ لهـا قَرِى ... مَوْتُ الملوكِ عَلَى صُعُود المنْبَرِ
مَاقَدْ قَضَى سَيَكُونُ فاصطبِرِى له ... ولكِ الأمان مِنَ الّذِى لَمْ يُقْدَر

وقال أيضاً :

إنى وقومى فى أنسَابِ قَوْمِهِمُ ... كمسجدِ الخَيْف فى بُحْبُوحة الخيْفِ
ماعُلّق السيفُ مِنّــا بابن عاشرةٍ ... إلا وعزمتُه أمضَى من السَّيْفِ

بعض الطالبيين :

وإنّا لتُصْبِحُ أسيــافُنا ... إذا ما انْتُضِين لِيَوْمٍ سَفُوكِ
مَنَابِرُهُنّ بطونُ الأكُفّ ... وأغمــادُهُن رءوس الملوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه :

وَهُم الأسودُ لدَى العَرِين بَسالَةً ... وَمِنَ الخُشُوعِ كأَنّهُمْ أَحْبَارُ
يَمْضُون قد كَسَرُوا الجُفُونَ إلى الدعا ... مُتَبَسِّمِينَ وفيهمُ اسْتِبْشَارُ
فكأنما أعداؤهُمْ أحبــابُهُمْ ... فَرَحاً إذا خطَرَ القَنَـا الخطَّارُ
يَرِدُون حَوْمَاتِ الحِمامِ وإنّهـا ... تَالله عِنْـدَ نُفُوسِهِمْ لصِغَـارُ
وَلَقَدْ مَضَوْا وَأنا الحبيبُ إليهم ... وهُمُ لدىّ أحبّــةٌ أبْرَارُ
قَدَرٌ يُخلفُنِي ويُمْضِيهمْ به ... يالهفَ كيف يفوتنى المقدار!

وفى الحديث المرفوع « خُلُقان يحبّهما الله : الشجاعة والسخاء » .

* * *

كان بِشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفضيل علىّ عليه السلام

ويقول : كان أشجَعهم وأسخاهم ، ومنه بَسَرى القولُ بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة ، وفى كثير من البصريين .

دخل النّضر بن راشد العبدىّ على امرأته فى حَرْب الترك بخُراسان فى ولاية الجنيد ابن عبد الرحمن المرىّ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف تكونين إذا أُتيتِ بى فى لِبْدٍ قتيلا مُضَرّجا بالدماء ؟ فشقّت جيبَها ، ودعتْ بالويل ، فقال : حسبك ! لو أعولَتْ عَلَىّ كلّ أنثى لعصيتُها شوقا إلى الجنة . ثم خرج فقاتل حتى قُتل وحمل إلى امرأته فى لِبْد ودمه يقطر من خلاله .

* * *

قال أبو الطيب المتنبىّ :

إذَا غَامَرْتَ فى شَرَفٍ مَرُومٍ ... فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ [1]
فطعمُ الموتِ فى أمرٍ حقيرٍ ... كَطَعْمِ الموتِ فى أمْرٍ عَظيمِ
يَرَى الْجُبَنَاءُ أنّ الْجُبْنَ حَزْمٌ ... وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئيمِ
وكلّ شجاعةٍ فى المرءِ تُغْنِى ... ولا مثلَ الشَّجَاعةِ فى الحكيمِ

وقال :

إذا لم تجِدْ ما يَبْترُ العُمْرَ قاعداً ... فقمْ واطلبِ الشىءَ الذى يَبْتُرُ العُمْرَا [2]

وقال :

أهُمّ بشىءٍ واللّيالى كأنّها ... تُطَارِدُنى عن كَوْنه وَأُطارِدُ [3]
وَحِيداً من الخلاّن فى كلّ بَلْدَةٍ ... إذَا عَظُم المطلوبُ قَلّ المساعِدُ

* * *

(١) ديوانه ٤ : ١١٩
(٢) ديوانه ٢ : ١١٤
(٣) ديوانه ١ : ٢٧٠

قيل لأبى مسلم فى أيام صباه : نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنك تسترق السمع ، أو تنتظر نزولَ الوحى ! قال : لا ، ولكن لى همة عالية ، ونفس تتطلع إلى معالى الأمور ، مع عيش كعيش الهمَج والرِّعاع ، وحال متناهية فى الاتضاع. قيل : فما الذى يَشفِى علتَك ، ويُرْوِى غُلتك ؟ قال : المُلك ، قيل : فاطلب الملك ، قال : إن المُلكَ لا يطلب هكذا . قيل : فما تصنع وأنت تذوب حسَراً ، وتموت كمدا ؟ قال : سأجعل بعض عقلى جَهْلًا ، وأطلب به ما لا يطلب إلا بالجهل ، وأحرس بالباقى ما لا يحرس إلا بالعقل ، فأعيش بين تدبيرِ ضِدَّيْن ، فإن الخمول أخو العُدْمِ ، والشهرة أخت الكون .

***

قال ابن حيوس :

أَمْواتُهُمْ بالذِّكْرِ كالأَحياء ... ولحيِّهمْ فَضْلٌ عَلَى الأَحْيَاءِ (١)

نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ المروءةِ وامتطَوْا ... بالبأسِ ظَهْرَ العِزَّةِ القَعْسَاءِ

والعزّ لا يَبْقَى لغيرِ معوّدٍ ... أن يكشف الغمّاء بالغمّاءِ

لَا تحْسَبِ الضَّراء ضَرّاء إذا ... أفْضَتْ بصاحِبِها إلى السَّرّاءِ

وقال :

وهى الرياسةُ لا تبوحُ بسرِّها ... إلا لأَرْوَعَ لا يُباح ذِمارُهُ (٢)

يَحْمى حِمَاهُ قَلْبُهُ ولسانُهُ ... وتذودُ عنه يمينُهُ ويسارُهُ

لا العذل ناهِيه، ولا الحِرْصُ الذِى ... أَمَر النُّفُوس بِشُحِّها أَمّارُهُ

فليعلم الساعى ليبلغ ذَا المدى ... إنّ الطريق كثيرةٌ أخطارُه

***

(١) ديوانه ١ : ١٢ — ١٩

(٢) ديوانه ١ : ٢٩٨ — ٢٩٩

كان ثابت بن قُطْنة فى خيل عبد الله بن بِسْطام فى فتح شكند من بلاد الترك فى أيام هشام بن عبد الملك ، فاشتدّت شوْكةُ الترك ، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خَلق ، فقال ثابت : والله لا ينظرُ إلىّ بنو أميّة غداً مشدوداً فى الحديد ، أطلُب الفداء ؛ اللهم إنْ كنتُ ضيف ابن بِسْطام البارحة ، فاجعلنى ضيفَك الليلة ، ثم حمل وحمل معه جماعة ، فكسرتْهم الترك ، فرجع أصحابُه وثبت هو ، فَرُمِىَ بِرْذَوْنُه فشبّ ، وضرب به فأقدم ، فصرِع ثابت وارْتُثّ ، فقال : اللهم إنّك استجبْتَ دعوتى ، وأنا الآن ضيفك ، فاجْعَلْ قِرَاى الجنة . فنزل تركىّ فأجهز عليه .

* * *

قال يزيد بن المهلّب لابنه خالد ، وقد أمّره على جيش فى حَرْب جرجان : يا بنىّ ، إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغلَبَنّ على الموت ، وإياك أنْ أراك غداً عندى مهزوما !

عن النبى صلى الله عليه وآله : « الخيرُ فى السَّيْف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف » ، كما يقال : المنيّة ولا الدنية ، والنار ولا العار ، والسيف ولا الحيْف .

قال سيفُ بن ذى يَزَن لأنوشِرْوان حين أعانه بوَهْرز الديلمىّ ومن معه : أيها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفا ؟ فقال : يا أعرابىّ ، كثيرُ الحطَب يكفيه قليل النار .

* * *

لما حبَس مَرْوان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السَّفاح ، وأخوه أبو جعفر ، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام ، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد أبناء علىّ بن عبد الله بن العباس ، وعيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، من الحُمَيْمة من أرض الشّراة ، يطلبون الكوفة ، وقد كان داود بن علىّ بن عبد الله بن العباس وابنهُ موسى بن داود بالعراق ، فخرجا يطلبان الشام ، فتلقّاهما أبو العباس وأهلُ بيته بدُومة الجندَل ، فسألهم داودُ عن

خروجهم ، فأخبروه أنهم يريدون الكوفة ليَظهرُوا بها ، ويَدْعُوا إلى البيعة لأبي العباس ، فقال : يا أبا العباس ، يظهر أمرك الآن بالكوفة ، ومَرْوان بن محمد شيخ بني أمية بحرّان مُطِلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة ، ويزيد بن عمر ابن هبيرة شيخ العرب بالعِراق في فُرْسان العرب ، فقال : يا عمّ مَنْ أحبّ الحياة ذلّ ، ثم تمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن مِتُّها غَـيْرُ عاجزٍ ... بعارٍ إذا ماغالَتِ النَّفْسَ غُولُها(١)

فقال داود لابنه موسى : صدقَ ابن عمك ، ارجع بنا معه ، فإمّا أن نهلِك أو نموت كراما .

وكان عيسى بن موسى يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الُحمَيْمَة يريدون الكوفة : إن ثلاثة عشر رجلا خرجوا من ديارهم وأهلِيهم يطلبون ما طلبْنا ، لعظيمةٌ همَمُهم ، كبيرة نفوسهم ، شَديدة قلوبهم .

***

أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً ... تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ(٢)

وله :

إلى أيّ حـينٍ أنت في زِيّ مُحْرِمٍ ... وَحَتّى مَتَى في شِقْوَةٍ وإلَى كَمِ !(٣)

وإلّا تَمُتْ تحتَ السُّيُوفِ مكرّماً ... تَمُتْ وتقاسى الذُّلّ غـير مُـكرَّمِ

فثِبْ واثقا بالله وَثْبَةَ ماجِـدٍ ... يرَى الموْتَ في الهيجا جَنَى النّحْلِ في الفَمِ

(١) ديوانه ١٢٥
(٢) ديوانه ٣ : ٣٤٥
(٣) ديوانه ٤ : ٣٣

وقال آخر :

إنْ تَقْتُلُونى فآجالُ الرِّجالِ كَمَا حُدِّثْتُ قَتلٌ وما بالقَتْلِ مِنْ عَارِ
و إن سلِمْتُ لوقت بعــــده فعسَى وكلّ شىء إلى حَـــدٍّ ومِقْدَارِ

* * *

خطب الحجاجُ ، فشكا سوء طاعة أهل العراق ، فقام إليه جامع المحاربىّ ، فقال : أيها الأمير ، دَعْ ما يباعِدُهم منك ، إلى ما يقرّبُهم إليك ، والتمس العافية ممّن دونك تُعْطَها ممّن فوقك ، فلوأحبُّوك لأطاعوك ؛ إنهم ما شنئوك بنسبك ولا لبأسك ، ولـكن لإيقاعك بعْدَ وعيدِك ، ووعيدِك بعد وَعْدِك .

فقال الحجاج : ما أرانى أرُدّ بنى اللـكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف ، فقال جامع : أيها الأمير ، إنّ السيف إذا لَاقى السيفَ ذهب الخيار ، فقال الحجاج : الخيار يومئذ لله ، فقال : أجل ، ولـكنك لا تدرى لمن يجعله الله ، فقال : يا هناه ، إيهاً فإنك من مُحارب ، فقال جامع :

وَلِلْحرْبِ سُمِّينَا فـكُنّا محارباً إذا ما الْقَنَا أَمْسَى مِنَ الطَّعْنِ أَحْمَرا

* * *

ومن الشعر الجيد فى تحسين الإباء والحميّة والتّحْرِيض على النّهوض والحرْب وطلب المُلْك والرياسة ، قصيدة عُمارة اليمنىّ شاعر المصريين فى فخر الدين تورانشاه بن أيوب ، التى يغريه فيهـا بالنُّهوض إلى اليمن ، والاستيلاء على مُلْـكها ، وصادفت هـذه القصيدة محلًّا قابلا ، وملك تورانشاه اليمن بمـا هزّت هـذه القصيدة من عطْفه ، وحركت من عزمه ، وأولها :

العِلم مُذْ كانَ محتـاجٌ إلى العَلَمِ ... وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغْنِى عَنِ الْقَلَمِ (١)

وَخَيْرُ خيلِكَ إنْ غَامَرْتَ فِى شَرَفٍ ... عَزْمٌ يفرّق بين السّاقِ والقَدَمِ

إنّ المعـالِى عَرُوسٌ غيرُ واصلةٍ ... مالم تخلّق رِدَاءيهـا بنَضْح دَمِ

تَرَى مَسامِعَ فَخْرِ الدِّين تَسْمَعُ ما ... أَمْلاهُ خاطِرُ أفكارِى عَلَى قَلَمِىَ

فإنْ أصبتُ فلِى حظُّ المصيب وإنْ ... أخطأت قَصْدَكَ فاعذِرْنى وَلَا تَلُمِ

كم تتركِ البيضُ فى الأَجْفَانِ ظامئةً ... إلى الموارِدِ فى الأعنـاقِ والقِمَمِ

ومقلةُ المجدِ نحو العزم شاَخِصَـةٌ ... فاترك قعودك عن إدراكها وَقُمِ

فعمّك الملك المنصور سَوَّمَهَا ... من الفُرَاتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ

واخلُقْ لنفسِك أمراً لا تضافُ به ... إلى سواك ، وأورِ النـار فى العلَمِ

وانْهَ المشيرين إن لّجتْ نصيحتُهُمْ ... أولا ، فأنعم على العُمْيان بالصَّمَمِ

واعزِمْ وَصَمِّمْ فقدطالت وقد سَمُجَتْ ... قضية لفظتهـــا ألسنُ الأُممِ

فربَّ أمرٍ يهـابُ النّاسُ غايتَهُ ... والأمرُ أهونُ فيـه مِنْ يدٍ لِفَمِ

فـكيف إن نهضتْ فيما هممْتَ به ... أُسْد تسير من الخطّىّ فى أَجَمِ

لايدرك المجـدَ إلّا كلّ مقتحمٍ ... فى مَوْجِ ملتطمٍ أو فوج مُضْطَرِمِ

لاينقض الخطْوة الأُولى بثانيةٍ ... ولا يفـكّر فى العُقْبَى مِنَ النَّدَمِ

كأنّمـا السَّيْفُ أفْتَاهُ بقتلِهِمُ ... فى فَتْح مكّة حَلَّ القتل فى الحرمِ

ولم يراعُوا لعثمانٍ ولا عمرٍ ... ولا الْحُسَيْن ذمام الأَشْهُر الحُرُمِ

فما ترومُ سوى فتحٍ صوارِمُه ... يُضحكْن فى كلّ يومٍ عابس البُهَمِ

حتى كأنّ لسان السَّيْف فى يده ... يروى الشريعةَ عن عادٍ وعَنْ إرمِ

---

(١) النكت العصرية ٣٥٢ .

هذا ابن تومرتَ قد كانَتْ بدايته | فيما يقول الورَى لحما على وَضَمِ
وقد ترقّى إلى أنْ صار طَالِعُهُ | من الكواكب بالأنفاس والكظمِ
وكان أوّلُ هذا الدين مِنْ رجل | سعى إلى أن دَعَوْهُ سَيِّدَ الأممِ

ـ كذب ، لم يظهر الدين الحنيف المقدّس على الأديان بسعى البشر ؛ بل بالتأييد الإلهى ، والسر الربانىّ ، صلوات الله وسلامه على القائم به ، والمتحمّل له ـ

والبدرُ يبدُو هلالا ثم يكشف بالأ | نوارِ ماسترته شَمْلَةُ الظُلَمِ
والغيثُ فَهْو كما قد قيل أوله | قَطْرٌ و بدء خراب السّد بالعَرِم
تنمُو قوى الشىء بالتّدْريج إن رزقت | لَظًى و يقوى شرارُ النار بالضَرَمِ
حاسِبْ ضميرَكَ عن رأى أتاكَ وَقُلْ | نصيحة وَرَدَتْ من غيرِ مُتَّهَمِ
أقسمت ماأنتَ مِمَّنْ جَلَّ همّتــه | ماراقَ مِن نعم أو رَقَّ مِنْ نِعمِ
وإنمـــا أنت مرجوٌّ لواحدةٍ | بنى بهـا الدهر مَجْداً غيرَ مُنهَدِمِ
كأنّنى بالليـــالى وهى هاتِفَةٌ | قد صمّ سمع رجال دُونَهـا وعَمِى
وبالعلا كلمـــا لاقتْك قائلة | أهلا بِمُنْشِرِ آمالى مِنَ الرِّمَمِ

***

ومن أُباة الضَّيْم الذين اختارُوا القتلَ على الأسر ، والموت على الدنية ، مُصْعب بن الزبير ، كان أميرَ العراقين من قِبَل عبد الله بن الزبير ، وكان قد كَسَر جيوش عبد الملك مِرارا ، وأعياهُ أمره ؛ فخرج إليه من الشام بنفسه ، فلِيمَ فى ذلك ، وقيل له : إنّك تغرّر بنفسك وخلافتِك ، فقال : إنه لايقوم لحرْب مُصْعَبٍ غيرى ؛ هذا أمر يحتاج إلى أن يقومَ به شجاع ذُو رأى ، وربّمـا بعثت شجاعا ولا رَأْى له ، أو ذا رَأْيٍ ولا شجاعة عنـده ، وأنا بصير بالحرب ، شجـاع بالسيف ؛ فلما أجمع على الخروج إلى حرب مُصْعب ، جاءته

امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فالتزمته ، وبكت لفراقه ، وبكى جواريها حولها ، فقال عبد الملك : قاتل الله ابن أبى جُمْعة[1] ! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول :

إذَا هَمّ بالأعْداء لَمْ يَثْنِ عَزْمَهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نَهتْهُ فلمّا لم ترَ النَّهْىَ عاقَهُ بَكَتْ فَبَكَى مِمّا عَرَاها قَطِينُها

فسار عبدُ الملك حتّى إذا كان بمسكن من أرض العراق ، وقد دنا منه عَسْكر مصعب ، تقاعد بمُصعب أصحابُه وقُوّاده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى : الحقْ بمكة فانج بنفسك ، وأخبر عَمّك عبد الله بما صنع أهلُ العراق بى ، ودعنى فإنى مقتول ، فقال : لاتتحدّث نساء قريش أنّى فررت عنك ، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار ، ولا عار فى القتل ، ثم قاتل دونه حتى قُتل . وخفّ مَنْ يحامى عن مُصعب من أهل العراق ، وأيقن بالقتل ، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان ، فأعطاه الأمان وولاية العراقين أبدا مادام حيا ، وألفى ألف درهم صلة ، فأبى ، وقال : إنّ مثلى لاينصرف عن هذا المكان إلا غالبا أو مقتولا ، فشدّ عليه أهل الشام ورموْه بالنَّبل فأثخنوه ، وطعنه زائدة ابن قيس بن قدامة السعدىّ ، ونادى : يالثارات المختار ! فوقع إلى الأرض ، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظَبْيان ، فاحتزّ رأسه ، وحمله إلى عبد الملك .

لما حُمِل رأسُ مصعب إلى عبد الملك ، بكى وقال : لقد كان أحبّ الناس إلىّ وأشدّهم مودّة لى ، ولكن الملك عقيم .

كتب مصعب إلى سُكَينة بنت الحسين عليه السلام ، وكانت زوجتَه لما شخص إلى حرب عبد الملك وهى بالكوفة بعد ليال من فراقها :

وكان عزيزاً أن أبيتَ وبينَنَا حِجابٌ فقد أصبَحْتِ مِنّى عَلَى عَشْرِ

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة.

وأبكاهُمَا واللهِ للعين فاعلمِي إذا ازددت مثليْهـا فَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ
وأنكَى لقلبِي منهُمَـــا اليومَ أنّنِي أخاف بألّا نلتقى آخر الدهرِ

ثم أرسل إليها وأشخصها ، فشهدتْ معه حربَ عبد الملك ، فدخل عليها يوم قُتِل ، وقد نزع ثيابه ثم لَبِس غُلالة ، وتوشّح بثوب واحد ، وهو محتضِنٌ سيفه ، فعلمتْ أنّه غيرُ راجع ، فصاحت : واحزناه عليك يامصعب ! فالتفت إليهـا ، وقال : إنّ كلّ هذا فى قلبك ! قالت : وما أخفِى أكثر ! قال : لو كنت أعلم هـذا لـكان لى ولك شأن ، ثم خرج فلم يرجع .

فقال عبدالملك يوما لجلسائه: مَنْ أشجعُ الناس ؟ فقالوا : قطرىّ ، شبيب ، فلان، وفلان، قال عبد الملك : بل رجل جَمَع بين سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز ، وقلابة ابنـة ريان بن أنيف الـكلبىّ سيد العرب ، وولىَ العراقين خمس سنين ، فأصاب كذا وكذا ألف درهم ، وأعطِى الأمان على ذلك كلِّه وعلى ولايته وماله فأبى ، ومشى بسيفِه إلى الموت حتى قُتِل . ذاك مصعب ابن الزبير ، لا مَنْ قطع الجسور مرة هاهنا ومرة هاهنا !

سُئِل سالم بن عبد الله بن عمر ، أىّ ابنَيِ الزبير أشجع ؟ فقال : كلاهما جاءه الموت ، وهو ينظر إليه .

لما وضع رأس مصعب بين يدى عبدالملك أنشد :

لقد أرْدَى الفوارسُ يومَ حِسْيٍ غُلاماً غيرَ مَنَّـــاعِ المتاعِ (١)
ولا فرِحٍ بخيرٍ إنْ أتاه وَلَا هَلِعٍ من الحدَثان لَاعِ
ولا وقّافَةٌ والخيل ترْدِى ولا خالٍ كأُنبُوبِ اليَرَاعِ

---

(١) من أبيات نسبها ابن الشجرى فى أماليه ٨٥ إلى طفيل الغنوى .

كان ابن ظبيان ، يقول : ماندِمْتُ على شيء نَدَمى على ألّا أكونَ لما حملت إلى عبد الملك رأسَ مصعب فسجَد قتلتهُ فى سَجْدَته ، فأكون قد قتلت مَلِكَىِ العرب فى يوم واحد .

قال رجل لعبد الله بن ظَبْيان : بماذا تحتجّ عند الله عز وجل غداً ، وقد قتلتَ مصعبا؟ قال : إن تُركت أحتجّ كنت أخطب من صعصعة بن صوحان ! كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن على عليه السلام ، وكيف كان قتله ؟ فجعل عروة ابن المغيرة يحدّث عن ذلك ، فقال متمثلا بقول سليمان بن قَتّة :

وإنّ الأولَى بالطَّفّ من آل هاشمٍ تأسَّوْا فسَنُّوا للكرامِ التأسِّيا [1]

قال عُروة : فعلمت أن مصعبا لا يفرّ .

لما كان يوم السَّبَخة ، وعسكر الحجاج بإزاء شَبِيب ، قال له الناس : أيها الأمير ، لو تنحَّيت عن هذه السّبخة ، فإنها منتنة الريح ! قال : ماتنحُّونى ـ والله ـ إليه أنتن ؛ وهل ترك مصعب لكريم مَفَرّا! ثم أنشد قول الكاهبة .

إذا المرْء لَمْ يَغْشَ الْكَرِيهَةَ أَوْشَكَتْ حِبَالُ الهُوَيْنَى بالهوَى أنْ تَقَطَّعا [2]

* * *

وروى أبو الفرج فى كتاب " الأغانى " [3] خطبة عبد الله بن الزبير فى قتل مُصعب برواية هى أتمّ مما ذكرناه نحن فيما تقدم ، قال : لما أتى خبرُ المصعَب إلى مكة ، أضرب عبد الله بن الزبير عن ذكره أياما ؛ حتى تحدث به جميعُ أهلِ مكة فى الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَلِيًّا لا يتكلم ، فنظر الناس إليه ؛ وإن الكآبة على وجهه لبادية ؛ وإنّ

(١) اللسان ١٨ : ٣٧

(٢) المفضليات ٣٢

(٣) الأغانى ١٧ : ١٦٦ ، تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، عيون الأخبار ٢ : ٢٤٠ مع اختلاف فى الروايات

جبينه ليرشَح عرقا، فقال واحد لآخر : ماله لايتكلم ؟ أتراه يهابُ النطق ! فوالله إنه لخطيب! فما تراه يهاب ؟ قال : أراه يريد أن يذكر قتل المُصعب سيّد العرب ، فهو يقطّع بذلك. فابتدأ فقال : الحمدُ لله الذى له الخلْق والأمر ، مِلك الدنيا والآخرة ، يعِزّ مَنْ يشاء ، ويُذِلّ مَنْ يشاء ؛ ألا إنّه لايذِلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفردا ضعيفا ، ولا يعزّ من كان الباطل معه ؛ وإن كان ذا عدد وكثْرة . ثم قال : أتانا خبرٌ من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرّنا ! أتانا أن مُصعبا قتل رحمه الله ؛ فأما الذى أحزننا من ذلك فإنّ لفراقِ الحميم لَذْعة ولوعة ، يجدها حَمِيمُه عند المصيبة ، ثم يرعوى ذو الرأى والدِّين إلى جميل الصبر . وأمّا الذى سَرّنا منه ؛ فإنّ قتلَه كان له شهادة ؛ وإن الله جاعلٌ لنا وله فى ذلك الخِيرة . ألا إنّ أهلَ العراق باعُوه بأقلِّ الأثمان وأخسرِها ، وأسلموه إسلام النَّعم المخطَّمة [١] فقتل ؛ وإن قُتِل لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه [٢] ، وكانوا الخيارَ الصالحين ؛ وإنّا والله مانموت حَتْف آنافنا ، مانموت إلا قتلا قتلا ، وقَعْصاً [٣] قَعْصاً ، بين قِصَد [٤] الرماح ، وتحت ظلالِ السيوف ؛ ليس كما تموت بنو مَرْوان ؛ والله ماقُتِل منهم رجل فى جاهلية ولا إسلام ؛ وإنما الدنيا عارية من المِلِك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يَبيد مُلْكه ، فإن تقبل الدنيا علىّ لا آخذها أخذ اللئيم البَطِر ، وإن تدبِرْ عَنّى لا أبكِى عليها بكاء الخرِف [٥] المُهْتَر. ثم نزل .

* * *

---

(١) المخطمة ، من قولهم خطم البعير بالخطام إذا جعله على أنفه ، والخطام: ماوضع على أنف البعير ليقتاد به .

(٢) قتل أبوه عبد الله بن الزبير يوم الجمل ، قتله عمرو بن جرموز فى صلاته بوادى السباع . وعمه عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتل يوم اليرموك وأخوه المنذر بن الزبير قتل يوم الحرة .

(٣) القعص : الموت السريع ؛ ويقال : مات قعصا ؛ أى أصابته ضربة أو رمية فمات فى مكانه .

(٤) القصدة : القطعة مما يكسر ، وجمعه قصد .

(٥) الخرف : من فسد عقله من الكبر ، وكذلك المهتر .

وقال الطِّرِمّاح بن حَكيم ، وكان يرى رأى الخوارج :

وإنى لَمُقْتادٌ جَوادِى فقاذفٌ ... به وبنَفْسى اليوم إحدى المتالفِ [1]

لأكسِبَ مالا أو أءوب إلى غِنًى ... مِنَ الله يكفينى عذابَ الخلائفِ [2]

فيارَبّ إن حانت وفاتى فلا تكنْ ... على شَرْجَعٍ يُعْلَى بخُضْرِ المطارفِ [3]

ولكنّ قبرى بَطْنُ شبر مَقِيلُه ... بجوّ السماء فى قصورٍ عَوَاكِفِ

وأُمْسِى شهيدا ثاوياً فى عِصابة ... يُصابون فى فجٍّ من الأرض خانفِ

فوارسُ أشتاتٍ يؤلِّف بينَهُمْ ... هُدَى الله نزّالُونَ عِنْدَ المواقِفِ

قال ابن شُبْرُمة : مررت يوماً فى بعض شوارع الكوفة ، فإذا بنعشٍ حوله رجال ، وعليه مُطرف خَزّ أخضر ، فسألت عنه فقيل: الطرماح ، فعلمت أنّ الله تعالى لم يَسْتَجِب له.

***

وقال محمد بن هانئ :

ولم أجِد الإنسانَ إلا ابنَ سَعْيِه ... فمَنْ كَانَ أَسْعَى كَانَ بالمَجْدِ أَجْدَرَا [4]

وبالهمّة العلياءِ تَرْقَى إلى العُلَا ... فَمَن كَانَ أعْلى هِمَّةً كَانَ أَظْهَرَا

وَلَمْ يتأخَّرْ مَنْ أَرَادَ تقدُّماً ... وَلَمْ يَتَقَدَّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخُّرا

الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى :

وَمَنْ أَخَّرَتْهُ نَفْسُهُ مَاتَ عَاجِزاً ... وَمَنْ قَدَّمَتْهُ نَفْسُه مَاتَ سَيِّدَا [5]

---

(١) ديوانه ١٥٥ والقود : نقيض السوق ؛ فهو من أمام .

(٢) الخلائف : جمع خليفة ؛ وهو السلطان .

(٣) الشرجع : النعش . وفى الديوان : « أذا العرش إن حانت »

(٤) ديوانه ٣٦٢

(٥) ديوانه ١٢٧ (طبعة نخبة الأخبار) .

وله رحمه الله :

مَامُقامِى عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِى مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِىُّ [(١)]

وإباء محلّق بى عَنِ الضَّيْــمِ كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِىُّ

أبو الطيب المتنبى :

تَقُولِينَ مَافِى النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ جِدِى مِثْلَ مَاأحببتهُ تجدى مثلِى [(٢)]

محبًّا كَنَى بالبيض عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وبالْحُسْنِ فى أجسامِهِنَّ عَن الصَّقْلِ [(٣)]

وبالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القنا غَــيْر أنَّنِى جَنَاها أَحِبّائِى وأَطرافُهَا رُسْــلِى

عَدِمْتُ فؤاداً لم يَبِتْ فيــه فَضْلَةٌ لغــيرِ ثنايا الْغُرِّ والحدَقِ النُّجْلِ

تُريدينَ إدراكَ المعالِى رَخِيصَــةً وَلَابُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

ابن الهبّارية : الهِمَمُ الْعَلِيّة ، والمهَجُ الأبية ، تقرّب المنّية ، منك أو الأمنية .

* * *

أبو تمام :

فَتَى النَّــكَبَاتِ مَنْ يأوى إذَا مَا يَطِفْنَ بِهِ إلى خُلُقٍ وَساعِ [(٤)]

يُثِــيرُ عَجَاجَةً فِى كُلِّ فَجٍّ يَهِيمُ بها عَدِىّ بنُ الرِّقَاعِ [(٥)]

يَخُوضُ مَعَ السِّباعِ الماءَ حَــتَّى لَتَحْسِبُه السِّبَاعُ من السِّبَاعِ

---

(١) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأخبار) .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٨٩ مع اختلاف فى الرواية .

(٣) البيض : النساء . والمرهفات : السيوف .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٣٦

(٥) يشير إلى ما ذكره عدى بن الرقاع فى حمار وأتان :

يتنازعَان من الغُبَارِ مُلَاءَةً فى الأرض منشؤها ، هما نسجاهَا

تطوى إذا فَرَعا بِلادا حَزنةً وإذا أصَابا سَهْلَةً نَشَراها

فَلَبٌّ العَزْمَ إن حاولتَ يوماً بأنْ تَسْطِيع غَــيْرَ المستطاعِ
فَلَمْ ترْكَبْ كناجيــةِ المهارَى وَلَمْ ترْكِبْ هُمُومَكَ كالزَّمَاعِ

وله أيضا :

إنّ خَــيْراً مما رأيتُ من الصَّفْــحِ عن النَّائباتِ والإغماضِ (١)
غُرْبةٌ تَقْتَــدِى بغُربة قَيْــسِ بنِ زُهَيْرٍ والحارثِ بنِ مضاضِ (٢)
غَرَضَىْ نَــكْبَتَيْنِ مافتلاَ رَأْ يَا لخافا عليه نَــكْثَ انتقاضِ
مَنْ أبَنَّ البيُوتَ أصْبَح فِى ثَوْ بٍ مِنَ العَيْشِ لَيْسَ بالفضْفَاضِ (٣)
صَلَتَانٌ أعْــداؤه حَيْثُ حَلُّوا فى حديثٍ من ذِكْرِهِ مُسْتَفاضِ (٤)
وَالْفَتَى مَنْ تَعرّفَتْهُ اللَّيالِى والفيافِى ، كالحَيَّةِ النَّضْنَاضِ (٥)
كلّ يَوْمٍ له بِصَرْفِ اللَّيــالِى فَتْــكَةٌ مِثْلُ فَتْــكةِ البَرَّاضِ (٦)

وله أيضا :

إنْ ترَيْــنى ترَىْ حُسَاماً صَقيلًا مَشْرَفِيًّا مِنَ السُّيُوفِ الحِدَادِ (٧)
ثانىَ اللَّيلِ ثالث البِيد والسَّيْــرِ نَدِيمَ النُّجُومِ تِرْبَ السُّهَادِ

أخذ هذا اللفظ أبو عُبادة البحترى فقال :

يانديمىّ بالسّواجِير من شَمْــسِ بن عمرو وبُحتر بن عَتود (٨)

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٩

(٢) قيس بن زهير العبسى ؛ بعد حربه ذبيان تنقل فى البلاد ؛ وفى آخر عمره لقيه رجل فسأله عن خبره فلما علم أنه قاتل حذيفة وحمل ابنى بدر قتله . والحارث بن مضاض الجرهمى ، كان رئيسا بمكة أيام كان بها قومه ، ويقال : إن خزاعة أجلتهم عنها ؛ وهو القائل .

كأن لم يكن بينَ الحجونِ إلى الصَّفا أَنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سَامِرُ

(٣) يقال : أبن بالموضع إذا أقام به .

(٤) الصلتان : الماضى فى أمره .

(٥) الحية النضناض : التى لاتستقر فى مكان .

(٦) البراض بن قيس الكنانى ، قتل عروة الرحال فى غير حرب ، فجر ذلك حرب الفجار بين قيس وكنانة .

(٧) ديوانه ١ : ٢٠٥ . وفى الديوان : « ود بن معن » .

اطلبا ثالثاً سواى فإنّى رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ
لستُ بالعاجز الضّعيف ولا القا ئل يوماً إنّ الغِنَى بالُجدود
وإذا استصعبتْ مقادةُ أمرٍ سَهّلَتْهُ أيدِى المهارِى القُودِ

***

قال الرضىّ رحمه الله تعالى :

ولم أرَ كالرّجاء اليومَ شيئاً تَذِلُّ لَهُ الجماجمُ والرقابُ [1]
وَبعْضُ العُدْمِ مأثُرَةٌ وفَخْرٌ وَبَعْضُ المالِ مَنْقَصةٌ وعَابُ
بنَانِى والعِنانُ إذا نَبَتْ بِى رُبَا أرْضٍ ، وَرِجْلِى والرِّكَابُ
وَقَدْ عرَفَتْ تَوَقُّلِىَ اللّيالِى كَمَا عرَفَتْ تَوَقُّلِىَ العِقَابُ [2]
لأمْنَعَ جَانِباً وَأُفِيدَ عِزّاً وَعِزُّ المَوْتِ مَاعَزّ الجَنَابُ
إذا هَوْلٌ دَعَاكَ فَلاَ تَهَبْهُ فَلَمْ يَبْقَ الّذِينَ أبَوْا وَهَابُوا
كُلَيْبٌ عَافَصَتْهُ يَدٌ وأوْدَى عُتَيْبَةُ يَوْمَ أقْعَصَهُ ذُؤابُ [3]
سَواءٌ مَنْ أقلّ التُّرْبَ مِنّا وَمَنْ وَارَى مَعَالِمَهُ التُّرَابُ
وَإنّ مُزَايِلَ الْعيشِ اغْتِبَاطاً مُسَاوٍ لّلذين بَقُوا وَشَابُوا
وَأوّلُنَا الْعَنَاءُ إذَا طَلَعْنا إلى الدنيا ، وآخرُنا الذّهابُ
إلى كم ذا التردد فى الأمانى وكم يُلْوِى بِنَاظِرِىَ السَّرَابُ !
وَلا نَقْعٌ يُثَارُ وَلَا قَتَامٌ وَلَا طَعْنٌ يُشَبُّ وَلَا ضِرَابُ

---

(١) ديوانه لوحة ٧٩
(٢) التوقل : الصعود . والعقاب : جمع عقبة ؛ وهي المرتقى الصعب فى الجبل ونحوه .
(٣) عافصته : صرعته ، وكليب هو كليب وائل ، وأراد باليد جساس بن مرة الذى قتله . وأودى : هلك . وعتيبة هو ابن الحارث بن شهاب ؛ كان فارس بنى تميم ، قتله ذؤاب بن ربيعة الأسدى . وأقعصه : قتله قتلا سريعاً .

وَلَا خَيْلٌ مُعَقَّدَةُ النَّوَاصِي ... يَمُوجُ عَلَى شَكَائِمِهَا اللُّعَابُ

عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهِبِ الحَوَاشِي ... يُصِيبُ مِنَ العَدُوِّ وَلَا يُصَابُ

سَأَخْطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْفِ فِعْلًا ... إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أَوْ خِطَابُ

وَآخُذُهَا وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفٌ ... مُغَالَبَةً وَإِنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

***

قعد سليمان بن عبدالملك يَعْرِض وَيَفْرِض ، فأقبل فتًى من بنى عبس وَسِيم ، فأعجبه ، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابن مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ، فأعرض عنه ، وجعل يَفْرِض لمن دونه ، فعلم الفتى أنه كرِه موافقةَ اسمِه واسم أبيه ، فقال: يا أمير المؤمنين لا عدمتَ اسمك ، ولا شَقِيَ اسمٌ يوافق اسمك ! فافْرِضْ ، فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضربتَ به قطعت ، وإن أمرتنى أطعْت ، وسَهْمٌ فى كنانتك، أشتدّ إن أرسلْت ، وأنفُذُ حيث وجَّهت . فقال له سليمان ، وهو يَرُوزه [1] ويختبره : ما قولك يا فتى ، لو لقيتَ عدوا ؟ قال : أقول : حسبي الله ونعم الوكيل . قال سليمان : أكنت مكتفِياً بهذا لو لقيت عدوّك دُونَ ضرب شديد ! قال الفتى : إنما سألتنى يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل فأخبرتك ، ولو سألتنى : ما أنت فاعل لأنبأتك ؛ إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيف حتى يتعقّف ؛ ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصّف ، ولعلمْتُ إن أَلِمْتَ فإنهم يألمون ، ولرجوت من الله ما لا يرجون . فأعجب سليمان به وألحقه فى العطاء بالأشراف ، وتمثل :

إذا ما اتّقى اللهَ الفتى ثم لم يكُنْ ... عَلَى أَهْلِهِ كَلًّا فقد كَمَلَ الفَتَى

---

(١) يروزه : يختبره ويجربه.

السر تحت قوله : « ثم لم يكن على أهله كلاًّ » ، يقال فى المثل : « لا تكن كَلًّا على أهلك ، فتهلك » .

عدىّ بن زيد :

فَهَلْ مِنْ خالدٍ إمّا هَلَكْنا ... وَهلْ بالْمَوتِ يا للنَّاسِ عارُ(١)

* * *

الرضىّ الموسوىّ رحمه الله تعالى :

إذَا لمْ يَكُنْ إلا الحِمَامُ فإنَّنى ... سَأُكْرِمُ نَفْسِى عَنْ مَقَالِ اللَّوائِمِ(٢)

وَألْبَسُها حَمْراءَ تَضْفُو ذُيُولُهَا ... من الدم بُعْداً عنْ لِبَاسِ الْمَلَاوِمِ

فَمِنْ قَبْلُ ما اخْتَارَ ابنُ الأشْعَثِ عَيْشَه ... عَلَى شَرَفٍ عَالٍ رفيعِ الدَّعَائمِ

فطار ذَمِيماً قَدْ تقلَّدَ عارَها ... بِشَرِّ جَنَاحٍ يومَ دَيْرِ الجَمَاجِمِ(٣)

وَجاءهُمُ يَجْرِى البَرِيدُ بِرَأْسِهِ ... وَلم يُغْنِ إيغالٌ به فى الهزائمِ

وَقَدْ حاصَ مِنْ خَوْفِ الرَّدَى كلَّ حَيْصَةٍ ... فلم ينجُ والأقدارُ ضَرْبَةُ لَازِمِ(٤)

وَهَذا يزيد بنُ المهلّب نافَرَتْ ... به الذلَّ أعراقُ الجدود الأكارِمِ(٥)

فَقَالَ وقَدْ عَنَّ الفِرارُ أو الرَّدَى : ... لحا اللهُ أخزَى ذِكْرِهِ فى الْمَوَاسِمِ

وَمَا غَمَرَاتُ الموتِ إلّا انْغِمَاسَةٌ ... ولا ذِى المنايا غيرُ تهويمِ نائمِ

---

(١) شعراء النصرانية ٤٥٦

(٢) ديوانه لوحة ١١٠

(٣) وقعة دير الجماجم ، كانت بين الحجاج الثقفى وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، انتهت بمقتل ابن الأشعث سنة ٨٣

(٤) حاص ، أى حاد وذهب بعيدا .

(٥) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، من أمراء الدولة الأموية وقوادها ، قتله يزيد بن عبد الملك فى خبر مشهور سنة ١٠٢

رأى أنَّ هـذا السَّيْفَ أهونُ مَحْمَلًا ... من العارِ يَبْقَى وَسْمُهُ فى الخَاطِمِ
وما قَلَّدَ البيضَ المباتيرَ عُنْقَـهُ ... سوى الخوف مِنْ تقليدِها بالأداهِمِ
فعافَ الدَّنَايَا وامتطى الموتَ شَامِخًا ... بمارِنِ عِزٍّ لا يذلُّ لِخَاطِمِ
وقَدْ حلقَتْ خَوْفَ الهوانِ بمُصْعَبٍ ... قوادمُ آباءٍ كرامِ القـادِمِ
عَلَى حِينَ أعْطَوْهُ الأمانَ فعافَهُ ... وَخُيِّرَ فاختارَ الرَّدى غَيرَ نادِمِ
وَفِى خِدْرِهِ غَرَّاءُ مِنْ آلِ طاحةٍ ... عَلَاقَةُ قَلْبِ للنَّـدِيمِ المُخَالِمِ (١)
تُحَبِّبُ أيَّامُ الحيـاةِ وإنَّهَا ... لَأَعْذَبُ مِنْ طَعْمِ الخلودِ لطاعِمِ
فَفَارَقَهـا والمُلْكَ لَمَّا رَآهما ... يَجُرَّانِ إذلالَ النُّفوسِ الكَرَائِمِ
وَلَمَّا ألاحَ الحَوْفَزانُ مِنَ الرَّدَى ... حَذَاه المَخَازِى رُمْحُ قَيْسِ بن عاصِمِ
وَغَادَرَها شَنْعاءَ إنْ ذُكِرَتْ له ... مِنَ العَارِ طَاطا رأسَ خَزْيانَ واجِمِ
كذاكَ مُنِى بَعْدَ الفرارِ أُمَيَّـةٌ ... بِشِقْشِقَةٍ لَوْ ثاءَ مِنْ آلِ دَارِمِ
وَسَلَّ لهـا سَلَّ الحُسَامِ ابنُ مَعْمَرٍ ... فَـكَرَّ عَلَى أعقابِ نابٍ بصارِمِ
يُرَدِّدُ ذِكْرَى كلُّ نَجْدٍ وَغَائِرٍ ... وَأَلْجَمَ خوْفِى كلَّ باغٍ وظالِمِ
وَهَدَّدَنى الأعداءُ فى المَهْدِ لم يَحِنْ ... نُهوضِى وَلَمْ تُقْطَعْ عقودُ تمائمى
وَعِنْدِىَ يَوْمٌ لَوْ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ ... بَدَا لَهُمَا لاستَصْغرا يَوْمَ وَاقِمِ
عَلَى العزِّ مُتْ لا مِيتَةً مُسْتَكِينَةً ... تُزِيلُ عنِ الدُّنيا بِشَمِّ المَرَاغِمِ
وَخَاطِرْ على الجُلَّى خِطارَ ابنِ حُرَّةٍ ... وإنْ زَاحَمَ الأمرُ العظيمُ فَزَاحِمِ

***

(١) هى عائشة بنت طلحة ؛ كانت زوجا لعبد الله بن عبـد الرحمن بن أبى بكر ؛ ولما هلك تزوجهـا مصعب بن الزبير ؛ فقتل عنها، والمخالمة : المصادقة والمغازلة .

ومن أُباةِ الضَّيْم ومُؤْثرى الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم ، ابنا عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام . لما أحاطتْ عساكر عيسى ابن موسى بمحمد وهو بالمدينة ، قيل له : انجُ بنفسك ، فإنّ لك خَيْلًا مُضمّرة [1] ونجائب سابقة [2] ، فاقعد عليها ، والتحق بمكة أو باليمن . قال : إنى إذاً لعبد ! وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه ، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل ، أشير عليه بالاستتار ، فقال : إذَنْ يستعرض عيسى أهلَ المدينة بالسيف ، فيكونُ لهم كيوم الحرّة ، لا والله لا أحفظُ نفسى بهلاك أهل المدينة ، بل أجعل دمى دون دمائهم . فبذل له عيسى الأمانَ على نفسه وأهله وأمواله ، فأبى ونَهَدَ [3] إلى الناس بسيْفه، لا يقار به أحد إلا قتله ، لا والله ما يبقى شيئا ؛ وإنّ أشبهَ خَلْق الله به فيما ذكر هو حمزة بن عبد المطلب . ورَمَى بالسِّهام ، ودَهَمته الخيل ، فوقف إلى ناحية جدارٍ ، وتحاماه الناس فوجد الموت ، فتحامل على سَيْفِه فكسره ؛ فالزيدية تزعم أنه كان سيفَ رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتاب " مقاتل الطالبيين " أن محمداً عليه السلام ، قال لأخته ذلك اليوم : إنى فى هذا اليوم على قِتال هؤلاء ، فإن زالت الشمس ، وأمطرت السماء فإنى مقتول، وإن زالت الشمس ولم تُمْطر السماء ، وهبّت الريح ، فإنى أظفر بالقوم ، فأجِّجى التنّانير ، وهيئى هذه الكتب — يعنى كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق — فإن زالت الشمس ، ومطرت السماء فاطْرَحِى هذه الكتب فى التنانير ، فإن قدرتم على بَدَنى

(١) ضمر الخيل ؛ إذا ربطها وأكثر ماءها وعلفها حتى تسمن ؛ ثم قلل ماءها وعلفها مدة ؛ ثم ركضها فى الميدان حتى تهزل ؛ ومدة التضمير عند العرب أربعون يوما.

(٢) الخيل السوابق : المجلية فى الجرى .

(٣) يقال نهد لعدوه ؛ إذا برز لقتاله وصمدله .

فخذوه ، و إن لم تقدروا على رأسى فخذوا سائر بدنى فأْتُوا به ظُلّة بنى بليـة [١] على مقدار أر بعة أذرع أو خمسة منها ؛ فاحفروا لى حفيرة، وادفنونى فيها . فمطرت السماء وقت الزوال ؛ وقتل محمد عليه السلام ؛ وكان عندهم مشهوراً أنّ آية قَتْل النفس الزكية أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة ، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت ؛ فلما مطرت السماء ذلك اليوم ، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتِكة ، وأخذ جسده ، فحفِر له حفيرة فى الموضع الذى حَدّه لهم ، فوقعوا على صخرة فأخرجوها ، فإذا فيها مكتوب : «هذا قبر الحسن بن على بن أبى طالب عليه السلام» ، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام : رحم الله أخى ، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن فى هذا الموضع [٢] .

* * *

وروى أبو الفرج ، قال : قَدِم على المنصور قادم ، فقال : هَرب محمد ! فقال له : كذبْت! إنا أهلَ البيت لا نفرّ .

* * *

وأما إبراهيم عليه السلام ، فروى أبو الفرج عن المفضّل بن أحمد الضبى ، قال [٣] : كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندى بالبَصْرة ، وكنت أخرُج وأتركه ، فقال لى : إذا خرجتَ ضاق صدرى ، فأخرج إلىّ شيئا من كتبك أتفرج به، فأخرجت إليه كتباً من الشعر ، فاختارَ منها القصائد السبعين التى صدّرْت بها كتاب "المفضليات" ، ثم أتممت عليها باقىَ الكتاب .

فلما خرج خرجت معه ؛ فلما صار بِالمرْبدِ ، مرْبد سليمان بن على ، وقف عليهم ، وأمّنهم واستَسْقَى ماء ، فأُتِىَ به فشرب ، فأخرِج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه ،

---

(١) مقاتل الطالبيين : « بنى نبيه » .
(٢) مقاتل الطالبيين ٢٧١ ـ ٢٧٢
(٣) ورد الخبر مختصرا فى مقاتل الطالبيين ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

وقال : هؤلاء والله مِنّا ، ونحن منهم ؛ لحمنا ودمنا ؛ ولكن آباءهم ما نتزَوْا على أمرنا ، وابتزُّوا حقوقنا ؛ وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مَهْلًا بَنِى عَمِّنا ظُلامَتَنا ⁂ إنّ بنا سَورةً من الغَلَقِ[1]

لمثلكُمْ نَحْمِلُ السيوفَ وَلَا ⁂ تُغْمَزُ أحسابُنَا مِنَ الرَّقَقِ

إنِّى لَأَنْمِى إذا انتميتُ إلى ⁂ عِزٍّ عَزِيزٍ وَمَعْشَرٍ صُدُقِ

بِيض سِبَاط كأنّ أعْيُنَهُمْ ⁂ تُكْحَلُ يومَ الهِيَاجِ بِالْعَلَقِ

فقلت له : ما أجودَ هذه الأبيات وأنحلها ! فلِمَنْ هى ؟ فقال : هذه يقولها ضِرار ابن الخطّاب الفِهْرِىّ يومَ عبرَ الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وتمثل بها علىّ ابن أبى طالب يوم صِفِّين والحسين يوم الطفّ ، وزيد بن على يوم السَّبَخَة ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان ؛ فتطيرتُ له من تمثّله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل . ثم سرنا إلى باخمرَى ، فلما قرب منها أتاه نعىُ أخيه محمد ، فتغيّر لونه وجَرِض بريقه ، ثم أجهش باكيا ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنّ محمداً خرج يطلب مرضاتك ، ويؤثر أن تكون كلمتُك العليا ، وأمرُك المتّبع المطاع ؛ فاغفر له وارحمه ، وارض عنه ، واجعل ما نقلتَه إليه من الآخرة خيرا مما نقلتَه عنه من الدنيا ؛ ثم انفجر باكيا ثم تمثل :

أبا المُنازِل يا خيرَ الفوارس مَنْ ⁂ يُفْجَعْ بمثلك فى الدّنيا فقَدْ فُجِعا[2]

الله يعلمُ أنى لو خشِيتُهُم ⁂ أو آنس القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا

لم يقتلوك ولم أُسلِم أخى لهمُ ⁂ حتّى نعيش جميعا ، أو نموت معا

قال المفضل : فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جزَعه ، فقال : إنى والله فى هذا ، كما قال دُرَيد بن الصِّمّة :

---

(١) من أبيات فى حماسة ابن الشجرى ١٦ ، والأغانى ١٠ : ٥ ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات وعددها وروايتها .

(٢) الأبيات لراسع بن خشرم يرثى هدبة ، الأغانى ٢١ : ١٧٧ .

يقولُ ألا تَبْكى أخاكَ وقَدْ أرَى مكانَ البُكا، لكن بُنيتُ على الصَّبْرِ [1]
لمقتلِ عبــد الله والهالكِ الّذِى على الشّرف الأعلى قتيلِ أبى بكرِ
وعبــد يغوث أو نديمىَ مالكٍ وجلّ مصاباً جَثْوُ قبرٍ على قبر
فإمّا ترينــا لا تزال دماؤنا لدى واترٍ يَسْعَى بهـا آخرَ الدّهر
فإنّا للَحْمُ السَّيْف غَيْرَ نَكيرةٍ ونُلْحِمهُ طوراً ، وليس بذى نُكْرِ
يُغَار علينــا واترين فَيُشْتَفى بِنَا إنْ أصِبْنا أو نُغِــيرُ على وِتْرِ
بذاك قَسَمْنَا الدهر شطرين بيننا فمــا ينقضى إلا ونحنُ على شَطْرِ

قال المفضل : ثم ظهرت لنا جيوش أبى جعفر مثل الجراد ، فتمثل إبراهيم عليه السلام قوله :

إن يقتلونىَ لا تُصِبْ أرماحهمْ ثأرى ويسعى القوم سَعْياً جاهِدَا
نبئت أنّ بنى جَــذيمة أجمعت أمرا تدبِّره لتقتــلَ خالدَا
أرمى الطريق وإن رُصِدْتُ بضيقهِ وأنازِلُ البطَلَ الكَمِىّ الحارِدا

فقلت له : مَنْ يقول هــذا الشعر يابن رسول الله ؟ فقال : يقوله خالد بن جعفر ابن كلاب يوم شِعْب [2] جبلة ؛ وهذا اليوم الذى لقيَتْ فيه قيس تميما . قال : وأقبلت عساكر أبى جعفر ، فطعن رجلا وطعنه آخر ، فقلت له : أتُباشر القتال بنفسك ! وإنمـا العسكر منوط بك ! فقال : إليك يا أخا بنى ضَبّة ، فإنى لكما قال عُوَيف القوافى :

ألمّتْ سُعادُ وإلمامُها أحاديث نفسٍ وأحلامُها
مُحجَّبَةٌ من بَنِى مالكٍ تَطَاوَلُ فى المجدِ أعْلامُها

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٩ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .
(٢) لعامر وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما . الأغانى ١٠ : ٣٣ (ساسى) .

وإنّ لنا أصلَ جُرثومةٍ تَرُدُّ الحوادثَ أيامُها
ترد الكتيبة مفلولةً بها أفنُها وبها ذامُها

والتحمت الحرب واشتدت ، فقال : يامفضّل ، احكنى بشىء ، فذكرت أبياتا لعويفِ القوافى لما كان ذكره هو من شعره ، فأنشدته :

ألَا أيُّها الناهِى فزَارَةَ بَعْدَما أجدّتْ لسيرٍ ، إنّما أنتَ ظالِمُ
أبى كلُّ حُرٍّ أن يبيت بوَتْرِه وتمنع منه النوم إذ أنت نائمُ
أقول لفتيانٍ كرامٍ تروّحُوا على الُجرْدِ فى أفواهِهِنّ الشّكائمُ
قفوا وقفةً من يحىَ لا يَخْزَ بعدها ومَنْ يُخْتَرَمْ لا تتبعْهُ اللوائم
وهل أنت إن باعدتَ نفسك عنهمُ لتسلمَ فيما بعد ذلك سالمُ

فقال : أعد ، وتبينت من وجهه أنه يستقتل ، فانتهيت وقلت : أو غير ذلك ؟ فقال : لا ، بل أعد الأبيات ، فأعدتها ، فتمطّى فى ركابَيْه فقطعهما ، وحمل فغاب عنّى ؛ وأتاه سهم عائر فقتله ؛ وكان آخر عهدى به عليه السلام .

قلت : فى هذا الخبر مايحتاج إلى تفسير ؛ أما قوله :

* إن بنا سورةً من الغَلَقِ *

فالغلق الضّجَر وضيق الصدر والحدّة ، يقال : احتد فلان فنشب فى حِدّته وغلِق . والسَّوْرة : الوثوب ، يقال : إن لغضبِه لسورة ، وإنه لسوّار ، أى وثّاب معربد . وسَوْرة الشراب : وثوبه فى الرأس ؛ وكذلك سَوْرة السّم ، وسورة السلطان : سطوته واعتداؤه .

وأما قوله : « لمثلكم نحمل السيوف » ؛ فمعناه أنّ غيركم ليس بكفء لنا لنحمِل له السُّيوفَ وإنما نحملها لكم ، لأنّكم أكفاؤنا ، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة ؛ وإنْ كانت أحسابُنا واحدة ، وهى شريفة لامغمَز فيها .

والرَّقق ، بفتح الراء : الضعف ؛ ومنه قول الشاعر :

* لم تلق فى عظمها وَهْناً وَلَا رَقَقاً *

وقوله :

* تُكحَل يوم الهيَاج بالعلَقِ *

فالعلَق الدم ؛ يريد أنّ عيونَهم حُمْر لشدّة الغيظ والغضب ؛ فكأنها كُحِلَتْ بالدم .

وقوله : « لكن بنيت على الصبر » ، أى خُلقت و بنيت بِنْيَة تقتضى الصبر . والشرف الأعلى : العالى ، و بنوأبى بكر بن كلاب ، من قَيْس عيلان ، ثم أحد بنى عامر بن صعصعة .

وأما قوله :

* إن يَقْتُلونِىَ لا تُصِب أرماحُهم *

فمعناه أنّهم إن قتلونى ثم حاولوا أنْ يصيبوا رجلا آخر مثلى يصلح أن يكون لى نظيرا؛ وأن يجعل دمه بَواء لدمى ، وسَعَوا فى ذلك سَعْياً جاهداً، فإنهم لم يجدوا ولم يقدرواعليه .

وقوله : « أزمى الطريق ... » البيت ، يقول : أسلك الطريق الضّيق ، ولو جعل عَلَىّ فيه الرّصَد لقتلى .

والحارد : المنفرد فى شجاعته ، الذى لامثل له .

[غلبة معاوية على الماء بصفين ثم غلبة علىّ عليه بعد ذلك]

فأما حديث الماء وغَلَبُ أصحابِ معاوية على شَرِيعة الفرات بصفين ، فنحن نذكره من كتاب " صفين " لنصر بن مزاحم .

قال نصر : كان [1] أبو الأعور السلمىّ على مقدّمة معاوية ، وكان قد نَاوَش مقدّمة

(١) ص ١٧٥ وما بعدها .

علىّ عليه السلام وعليها الأشتر النَّخَعِى مناوشةً ليست بالعظيمة ؛ وقد ذكرنا ذلك فيما سَبَق من هـذا الكتاب وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً ، فسبق إلى الماء فغلب عليه فى الموضع المعروف بقناصرين [١] إلى جانب صِفّين ، وساق الأشتر يتبعه ، فوجده غالبا على الماء؛وكان فى أربعة آلافٍ من مستبصرِى [١] أهل العراق،فصدَموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء ، فأقبل معاوية فى جَميع الفَيْلق ، بقضّه وقَضِيضه ، فلما رآهم الأشترانحاز إلى على عليه السلام ، وغلب معاوية وأهل الشام على الماء ، وحالوا بين أهل العراق و بينه ؛ وأقبل علىّ عليه السلام فى جُموعه ، فطلب موضعاً لعسكره ، وأمرَ النَّاسَ أن يضعوا أثقالهم ؛ وهم أكثر من مائة ألف فارس ، فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس علىّ عليه السلام على خيولهم إلى جهة معـاوية يتطاعنون ويرمون بالسهام ، ومعاوية بَعْدُ لم ينزل ، فناوشهم أهلُ الشام القتال ، فاقتتلوا هَوِيًّا .

قال نصر : فحدّثنى عمر بن سعد ، عن سعد بن طَرِيف ، عن الأصبغ بن نُباتة : فـكتب معاوية إلى على عليه السلام :عافانا الله و إياك .

ما أحسن العدلَ والإنصاف مِنْ عَمَلٍ ... وأقبحَ الطَّيْش ثم النَّفْش فى الرَّجُلِ

وكتب بعده :

ارْبِطْ حِمَارَكَ لاتنْزِعْ سويتَـه ... إذاً يُرَدَّ وقَيْدُ العَيْرِ مَـكْرُوبُ [٢]

ليست ترى السِّيدُ زيداً فى نفوسهمُ ... كما يراه بنو كُوز ومرهوب

إن تسألوا الحقّ نُعْطِ الحقّ سائلَه ... والدِّرْع مُحْقَبَةٌ والسَّيْف مقروبُ

أو تأنفونَ فإنّا مَعْشَرٌ أنفٌ ... لانطعَم الضّيف إن السّمّ مشروب

---

(١) صفين : « متبصرى أهل العراق » .

(١) قناصرين : موضع بالشام

(٢) الأبيات لعبد الله بن عنمة الضبي ؛ فى المفضليات ٣٨٢ ؛ مع اختلاف فى الرواية .

فأمر على عليه السلام أنّ يوزِعَ[1] الناس عن القتال ؛ حتى أخذ أهل الشام مصافّهم ثم قال : أيُّها الناس ، إنّ هذا موقفٌ ، مَنْ نَطِف[2] فيه نَطِف يوم القيامة ، ومن فَلَج فيه فلجَ يوم القيامة . ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين :

لقــــد أتانا كاشراً عن نَابِهِ   يُهَمِّطُ النَّاسَ على اعتزابِهِ[3]

* فليأتِنَا الدَّهْرُ بما أَتَى بِهِ *

قال نصر : وكتب على عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه ، أما بعد :

فإنَّ لِلْحَرْب عُراماً شَرَرا   إنَّ عليهـا قائداً عَشَنْزَرَا[4]

يُنْصِفُ مَنْ أَحْجَر أَوْ تَنَمَّرا   عَلَى نواحِيهـــا مِزَجًّا زَمْجَرَا

* إذا وَنَينا ساعَةً تَغَشْمَرَا[5] *

وكتب بعده :

أَلَمْ تَرَ قَوْمِي إن دَعَاهُمْ أخوهمُ   أجابُوا، وإنْ يَغْضَبْ على القَوْمِ يَغْضَبُوا

هُمُ حفِظوا غيبي كما كُنْتُ حافظاً   لقومِيَ أُخْرَى مثلها إنْ يُغَيَّبُوا

بنو الحربِ لم تقعدْ بهم أُمَّهَاتُهُمْ   وآباؤهمْ آباء صِدْقٍ فأنجَبُوا

قال : قد جمع النَّاس كلّ من الفريقين إلى معسكرهم ، وذهب شبابٌ من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهلُ الشام .

***

قلت فى هذه الألفاظ ماينبغى أن يشرح .

---

(١) يوزع الناس : يكفون . وفى صفين : « فوزعوا عن القتال حتى تأخذ أهل المصاف مصافهم »

(٢) نطف : اتهم بريبة .

(٣) يهمط الناس : يقهرهم .

(٤) العشنزر : الشديد .

(٥) تغشمر : تنمر ووثب .

قوله : « فاقتتلوا هَوِيًّا » ، بفتح الهاء ، أى قطعة من الزمان ، وذهب هَوِىٌّ من الليل ، أى فريق منه .

والنّفْش : كثرة الكلام والدعاوى ، وأصله من نفْش الصوف .

والسَّوِيّة : كساء محشوّ بثُمام ونحوه ، كالبرذعة . وكَرَبَ القيْد ، إذا ضيّقه على المقيّد ، وقَيْد مكروب ، أى ضيق ؛ يقول : لاتنزع برذعة حمارك عنه ، واربطه وقيّده ، وإلا أعيد إليك وقيْده ضيّق . وهذا مثل ضَرَبه لعلىّ عليه السلام ، يأمره فيه بأن يردَعَ جيشه عن التسرّع والعجلة فى الحرب .

وزيد المذكور فى الشعر ، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد ابن كعب بن بجالة بن ذُهْل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضَبّة بن أُدّ بن طابخة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ وهو المعروف بزيد الخيل ، وكان فارسهم . وبنو السِّيد من ضَبّة أيضا ؛ وهم بنو السِّيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبّة بن أُدّ ابن طابخة ... إلى آخر النسب ، وبنو السِّيد بنو عم زيد الفوارس ؛ لأنه من بنى ذُهل ابن مالك ، وهؤلاء بنو السِّيد بن مالك ، وبينهم عداوة النسب ؛ يقول : إن بنى السِّيد لا يرون زيدا فى نفوسهم كما تراه أهله الأدْنَوْن منه نَسَباً ، وهم بنو كوز وبنو مرهوب ؛ فأما بنو كوز فإنهم بنو كُوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك ، وأما بنو مَرْهوب ، فإنّهم بنو مَرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجَالة بن ذُهْل بن مالك ؛ يقول : نحن لا نعظم زيدا ولا نعتقد فيه من الفضيلة ما يعتقده أهله وبنو عمه الأدْنَوْن ؛ والمثل لعلىّ عليه السلام ؛ أى نحن لا نرى فى علىّ ما يراه أهلُ العراق من تعظيمه وتبجيله .

وقوله :

* والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيْفُ مَقْرُوب *

أى والدرع بحالها فى حِقابها ، وهو ما يُشدّ به فى غلافها . والسيف بحاله ، أى فى قرابه ،

وهو جَفْنه ؛ يقال : حقبت الدرعَ وقربت السيف ؛ كلاهما ثلاثيان ، يقول : إن سألتم الحق أعطيناكموه من غير حاجة إلى الحرب ؛ بل نجيبكم إليه والدّروع بحالها لم تلبس ، والسيوف فى أجفانها لم تشهر .

وأما إثبات النون فى « تأنفون » فإنّ الأصوب حذفُها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها؛ ولكنه استأنف ولم يعطف ، كأنه قال : أوكنتم تأنفون ؛ يقول : وإن أنفتم وأبيتم إلا الحرب ؛ فإنا نأنف مثلكم أيضا ، لا نطعم الضيم ولا نقبله . ثم قال : إنّ السمّ مشروب ؛ أى أنّ السمّ قد نشربه ولا نشرب الضيم ؛ أى نختار الموت على الضيم والذلة . ويروى :

وإن أنفتم فإنا معشر أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الضّيم إن الضّيْم مرهوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمة الضبىّ ؛ من بنى السّيد ، ومن جملته :

وقد أرُوح أمامَ الحىّ يقدُمنى صَافِى الأديم كُمَيْت اللَّوْن مَنْسُوبُ[(١)]

مُحَنَّبٌ مثل شاةِ الرَّبْلِ مُحْتَفِزٌ بالقُصْرَيَيْنِ عَلَى أولاه مَصْبُوبُ[(٢)]

يَبُذّ ملجَمَهُ هَادٍ له تَلَعٌ كأنّه من جُذوع العين مَشْذُوبُ

فذاكَ ذُخرى إذا ماخيلهمْ رَكَضَتْ إلى المثوّبِ أومقّاء سُرْحُوبُ[(٣)]

فأما قوله عليه السلام : « هذا موقف مَنْ نَطِف فيه نَطِف يوم القيامة » أى مَنْ تلطخ

---

(١) من هذه القطعة أبيات ، نسبها أبوعبيدة فى كتاب الخيل إلى يزيد بن عمرو الحنفى .

(٢) المحنب من الخيل : المعطف العظام ، وهو مدح فى الخيل . والربل : نبت . ويحتفز : يجتهد فى مد يديه . والقصريان : ضلعان يليان الترقوتين وقوله : « على أولاه مصبوب » ، يقول : يجرى على جريه الأول لايحول عنه ؛ كذا فسره صاحب اللسان (٧ : ٣٠٣)

(٣) المقاء من الخيل : الواسعة الأرفاغ . والسرحوب : الطويلة على وجه الأرض ؛ ورواية البيت فى كتاب الخيل .

فذاكَ عندى إذا ماخيلهمْ رُكِبَت إلى المثوب أو شقّاء سُرْحوبُ

فيه بعيب من فِرار أو نكول عن العدوّ . يقال : نَطِف فلان بالكسر ؛ إذا تدنس بعيب. ونَطُف أيضا إذا فسد ؛ يقول : مَنْ فسدت حاله اليوم فى هذا الجهاد فسدت حاله غدا عند الله .

قوله : « مَنْ فَلَج فيه » بفتح اللام، أى مَنْ ظهر وفاز ، وكذلك يكون غدا عند الله، يقال ؛ فَلَج زيدٌ على خصمه ، بالفتح ، يفلُج ، بضمّ اللام ؛ أى ظهرتْ حجته عليه ، وفى المثل : من يأت الحَكَم وحده يَفلُج .

قوله : « يهمّط الناس » ؛ أى يقهرهم ويخبطهم ، وأصله الأخذ بغير تقدير .

وقوله: « على اعتزابه » أى على بعده عن الإمارة والولاية على الناس . والعُرام ، بالضم: الشّراسة والهوَج . والعشنزر : الشديد القوىّ .

وأحجر : ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم . وتَنَمَّر ، أى تنكر حتى صار كالنَّمر ؛ يقول : هذا القائد الشديد القوىّ ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنكّر لهم ، أى ينصف منه ، فحذف حرف الجر كقوله : ﴿وَاخْتارَ مُوسَى قَوْمَه﴾، أى من قومه . والمِزَجّ ، بكسر الميم : السريع النفوذ ؛ وأصله الرمح القصير ، كالمِزْراق .

ورجل زمجر ، أى مانع حوزته ؛ والميم زائدة . ومن رواها « زَمْخَرا » بالخاء ، عَنَى به المرتفع العالى الشأن ؛ وجعل الميم زائدة أيضا ، من زَخَر الوادى ، أى علا وارتفع .

وغَشْمَر السيل : أقبل ، والغشْمرة : إثبات الأمر بغير تثبيت ؛ يقول: إذا أبطأْنَ ساقَهنَّ سَوْقًا عنيفا .

والأبيات البائية لربيعة بن مشروم الطائىّ .

* * *

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، عن يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن

الأحمر ، قال : لما [1] قدمْنا على معاوية وأهلِ الشام بصِفِّين ، وجَدْناهم قد نَزَلُوا منزِلًا اختاروه مستويا بساطا واسعاً ، وأخذوا الشَّريعة ؛ فهى فى أيديهم ؛ وقد صفّ عليها أبو الأعور الخيلَ والرَّجّالة ، وقدم الرّامية ومعهم أصحابُ الرّماح والدَّرَق ، وعلى رءوسهم البيض ، وقد أجمعوا أن يمنعونا المـاء ،ففزِعْنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك ، فدعا صَعْصَعَةَ بن صُوحان فقال : ائت معاوية ، وقلْ له: إنا سِرْنا إليك مسيرَنا هذا وأنا كَرِهٌ لقتالكم [2] قبل الإعذار إليكم ، وإنّك قدّمت خيلك ، فقاتلتنا قبل أنْ نقاتلك ، و بدأتنا بالحرب ؛ ونحن مِمّن رأينا الكَفَّ حتى ندعوَك ونحتجّ عليك ؛ وهذه أخْرَى قد فعلتموها، قد حُلْتُم بين النّاس و بين الماء ؛ فخلّ بينهم و بينه حتى ننظر فيما بيننا و بينكم ؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له ؛ و إنْ كان أحبّ إليك ، أن ندع ماجئتنا له ، وندعَ الناس يقتتلون حتى يكونَ الغالب هو الشارب ، فَعَلْنا .

فلما مضى صعصعة برسالتِه إلى معاوية ، قال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد ابن عُقْبة : امنعهم المـاء كما منعوه ابن عفان ، حَصَرُوه أر بعين يوما يمنعونه بَرْدَ المـاء ولين الطعام ، اقتلْهم عطشاً ، قتلهم الله !

وقال عمرو بن العاص : خَلِّ بين القوم و بين المـاء ؛ فإنهم لن يعطشوا وأنت رَيّان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك و بينهم .

فأعاد الوليد مقالتَه .

وقال عبد الله بن سَعيد بن أبى سَرْح ـ وكان أخا عثمان من الرضاعة ! امنعْهم المـاء إلى الليل ؛ فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعُهم هزيمتهم ، امنعهم الماء، منعَهم

---

(١) كتاب صفين للمنقرى ١٧٩ ، ١٨٠

(٢) صفين : « وأنا أكره قتالكم » .

الله يوم القيامة ! فقال صعصعة بن صُوحان : إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجَرة الكَفرة ، شَرَبة الخمْر؛ ضَرْبك وضَرْب [1] هذا الفاسق ـ يعني الوليد بن عقبة .

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كُفّوا عن الرجل ؛ فإنما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف بن أحمر : إن صعصعة لمّا رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية ، وما كان منه وماردّه عليه . قلنا : وما الذى ردّه عليك معاوية ؟ قال : لما أردتُ الانصراف من عنده ، قلت : ماترد علىّ ؟ قال : سيأتيكم رأيى ، قال : فوالله ماراعنا إلا تسوية الرجال والصُّفوف والخيل ؛ فأرسل إلى أبى الأعور : امنعهم الماء ؛ فازدلفنا والله إليهم ، فارتمينا واطّعنّا بالرماح ، واضطر بنا بالسيوف ، فطال ذلك بيننا و بينهم حتى صار الماء فى أيدينا ؛ فقلنا.لا والله لانسقيهم. فأرسل إلينا على عليه السلام: أن خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى معسكركم ، وخلُّوا بينهم و بين الماء ، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم و بغيهم .

* * *

وروى نصر بن محمد بن عبد الله ، قال : قام [2] ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السّكون ، يعرف بالشّليل بن عمر إلى معاوية ، فقال :

اسْمَع اليوم ما يَقُول الشّلِيلُ إنّ قولى قولٌ له تأويلُ
امنعِ الماءَ من صحابِ علىٍّ أن يذوقوه ، فالذّليل ذليلُ
واقْتُل القوم مِثْلَ ما قُتِل الشيخ صدًى فالقصاصُ أمرٌ جميل [3]
إنّنا والذى تُساق له البُدْنُ هَدَايَا كأنهنّ الفيُول [4]
[لو عَلِيٌّ وصحبه وردوا الماءَ لما ذقتموه حتى تقولوا] [5]

---

(١) ضربك ، أى مثلك .
(٢) صفين ١٨١
(٣) صفين : « ظما والقصاص أمر جميل » .
(٤) صفين : « هدايا لنحرها تأجيل » .
(٥) تكملة من صفين.

قَدْ رَضِينا بأمرِكُمْ وعلينا ... بَعْدَ ذاكَ الرِّضَا جِلادٌ ثقيلُ

فامْنَعِ القوم ماءكُمْ ، ليس لِلقَوْ ... مِ بقاء وإن يكنْ فقليل

فقال معاوية : أمّا أنت فتدرِي ماتقول ـ وهو الرأى ـ ولكنّ عمراً لا يدرى . فقال عمرو : خلِّ بينهم و بين الماء ؛ فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريّان ، وفى يده أعنّة الخيل ، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ، وأنت تعلم أنه الشجاع المُطْرِق [ومعه أهل العراق وأهل الحجاز] (١) ، وقد سمعته أنا مرارا وهو يقول : لو استمكنْتُ من أربعين رجلا (٢ يعنى فى الأمْر الأول ٢) !

☆☆☆

وروَى نَصْر ، قال : (٣)لما غَلَب أهلُ الشام على الفُرات ، فرِحُوا بالغَلبة ، وقال معاوية : ياأهلَ الشام ؛ هذا والله أوّلُ الظَّفَر ، لا سَقَانى الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبدا حتى يُقْتَلوا بأجمعهم عليه ؛ وتباشر أهلُ الشام ، فقام إلى معاويةَ رجُلٌ من أهل الشام هَمْدانىّ ، ناسِكٌ يتألّه ويكثر العبادة ، يعرف بمعرّىّ بن أقبل ، وكان صديقا لعمرو ابن العاص وأخا له ، فقال : يامعاوية ، سبحان الله ! لأنْ سبقتمُ القومَ إلى الفرات فغلبتُموهم عليه ، تمنعونهم الماء ! أمَا والله لو سبقُوكم إليه لسقوْكُم منه . أليس أعظم ما تنالون من القوم أنْ تمنعوهم الفرات فينزلوا على فُرْضَةٍ أخرى ويجازوكم بما صنعتم ! أما تعلمون أنّ فيهم العبد والأَمة والأجير والضعيف ، ومَنْ لا ذنب له . هذا والله أول الجوْر ! لقد شجّعتَ الجبان ، ونَصّرْتَ المرتاب ، وحَمَلت من لا يريد قتالك على كتِفَيْك . فأغلظ له معاوية ، وقال لعمرو : اكفِنِي صديقك . فأتاه عمرو فأغلظ له ، فقال الهمدانىّ فى ذلك شعرا :

لعمْر أبى معاويةَ بن حرْبٍ ... وعَمْرٍو ، ما لدائهما دَوَاء !

---

(١) تكملة من صفين .

(٢ـ٢) فى صفين : « فذكر أمراً ؛ يعنى لو أن معى أربعين رجلا يوم فتش البيت ـ يعنى بيت فاطمة »

(٣) صفين ١٨٢ .

سِوَى طَعْنٍ يحارُ العقل فيــهِ	وضربٍ حين تختلطُ الدِّمَاء
ولست بتابعٍ دينَ ابنِ هِنْدٍ	طَوَالَ الدّهر ما أرْسَى حِرَاء
لَقَدْ ذهبَ العِتاب فلا عتــابٌ	وَقَدْ ذهبَ الوَلَاء فلا وَلَاء
وقولي فى حوادث كلِّ خَطب[1] :	على عمرٍو وصاحبــه العَفَاء
ألا لله دَرُّك يابنَ هنــدٍ	لَقَدْ بَرِح الخفــاء فَلَا خَفَاء!
أتحمون الفرات على رجالٍ	وفى أيديهمُ الأَســلُ الظِّمَاء
وَفى الأعْناقِ أسْيَافٌ حِـدَادٌ	كأنّ القومَ عِنــدَهُمُ نِسَاء
أترجُو أنْ يجاورَكُمْ علىّ	بــلَا ماء وللأحزابِ ماء
دعاهم دعوةً فأجاب قومٌ	كجُرْب الإبْل خَالَطها الهِنَاء

قال : ثم سار الهمدانىّ فى سواد الليل حتى لحق بعلى عليه السلام .

* * *

قال : [2] ومكث أصحابُ على عليه السلام بغير ماء ، واغتمّ علىّ عليه السلام بمـا فيه أهل العراق .

قال نصر : وحدّثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجانىّ ، قال : لما اغتم علىّ بما فيه أهلُ العراق من العطش ، خرج ليلا قبل رايات مذحِـج ، فإذا رجل ينشد شعرا :

أيمنعُنــا القومُ ماءَ الفُراتِ	وَفِينَا الرِّمَاحُ وَفينَا الحَجَفْ [3]
وَفينَا الشَّوازبُ مِثْل الوَشِيجِ	وَفينَا السُّيُوفُ وَفينَا الزَّغفْ [4]

---

(١) صفين : « كل أمر » .

(٢) صفين ١٨٣ ، ١٨٤

(٣) الحجف : جمع حجفة ؛ وهى الترس من جلود الإبل يطارق بعضها فى بعض .

(٤) الشوازف : الخيل الضامرة ؛ والوشيج فى الأصل :شجر الرماح ؛ ويريد به هنا الرماح ؛ شبه بها الخيل فى ضمرها . والزغف : الدروع الواسعة .

وَفِينَــا عَلِيٌّ لَهُ سَوْرَةٌ إذا خَوَّفُوهُ الرَّدَى لم يَخَفْ
ونحنُ الذين غَــداةَ الزُّبَيْرِ وطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَـارَ التَّلَفْ (١)
فمــا بالُنــا أمسِ أُسْدَ العرينِ وما بالُنــا اليومَ شاءَ النَّجَفْ (٢)
فمــا للعِرَاقِ وَمَا لِلحِجَازِ سِوَى الشَّامِ خَصْمٌ فَصُكُّوا الهدَفْ (٣)
وَثُورُوا عَلَيهم كَبُزْلِ الجِمَــالِ دُوَيْنَ الذَّمِيلِ وَفَوْقَ القَطَفْ (٤)
فإمّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الفُرَاتِ وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْــهِ جِيَفْ
وإما تموتُوا عَلَى طَاعَــةٍ تُحِلّ الجِنَانَ وَتَحْبُو الشرفْ
وإلّا فأنتمْ عَبِيــدُ العَصَا وَعَبْــدُ العصَا مُستَذَلٌّ نَطِفْ (٥)

قال : فحرّك ذلك عليًّا عليه السلام ، ثم مضى إلى رايات كِنْدة ، فإذا إنسانٌ يُنشِد إلى جانب منزل الأشعث ، وهو يقول :

لَئِنْ لَمْ يُجَلِّ الأشعثُ اليومَ كُرْبَةً مِنَ الموتِ فيها للنفوسِ بَقِيَّةٌ (٦)
فنشربَ مِنْ ماءِ الفُراتِ بسَيْفِهِ فَهَبْنَا أُناساً قَبْلَ ذاكَ فوّتوا (٧)
فإنْ أنتَ لم تجمعْ لنَا اليومَ أَمْرَنَا وتَنضُ الَّتِي فيهَا عَلَيْكَ المَذَلَّةُ (٨)

---

(١) يشير إلى وقعة الجمل ، والغمار : جمع غمرة ؛ وهي الشدة .

(٢) العرين : مأوى الأسد ، والشاء : جمع شاة ، والنجف : الحلب الجيد حتى ينفض الضرع ، ويقال : انتجفت الغنم ؛ إذا استخرجت أقصى مافي الضرع من لبن ، والبيت من شواهد الكافية ؛ على أن « أسد العرين » ، و « شاء النجف » حالان ؛ إما على تقدير مثل ؛ وإما على تقديرهما بوصف . وانظر خزانة الأدب للبغدادي ١ : ٥٢٨ ، والمسعودي ٢ : ٣٨٥

(٣) صكوا : اضربوا ، وفي صفين : « سوى اليوم يوم » .

(٤) الذميل والقطف : ضربان من السير . والبازل : البعير الذي انشق نابه بدخوله في التاسعة ، وجمعه بزل . وفي صفين : « فدبوا إليهم » .

(٥) عبيد العصا ؛ أي أذلاء . والنطف : المعيب.

(٦) صفين : « للنفوس تعنت » ، وفي المسعودي ٢ : ٣٨٥ « تفلت » .

(٧) صفين والمسعودي : « كانوا فوتوا ».

(٨) صفين : « وتلق التي فيها عليك التشتت » .

فَمَنْ ذَا الَّذِى تُثْنَى الخناصِرُ باسْمِهِ   سِوَاكَ ؛ وَمَنْ هــذا إليه التَّلفتُ !
وَهَلْ مِنْ بقاء بَعْــدَ يومٍ وَلَيْلَةٍ   نَظَلّ خُفوتاً وَالْعَدُوّ يُصَوِّتُ !(١)
هَلُمّوا إلى ماءِ الفُرَاتِ وَدُونَهُ   صُدُورُ الْعَوَالى وَالصَّفيحُ المشتّتُ
وَأنْتَ امرؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ يمنيَّةٍ   وكلّ امرئٍ من سِنْخِهِ حِين يَنْبُتُ(٢)

قال : فلما سمع الأشعث قولَ الرجل ، قام فأتى عليا عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أيمنعُنا القوم ماءَ الفُرات ، وأنت فينا ، والسيوفُ فى أيدينا ! خلِّ عنّا وعن القوم ، فوالله لا نرجعُ حتى نردَه أو نموت ؛ وَمُرِ الأشترَ فيعلوَ بخيله ، ويقفَ حيث تأمره . فقال علىّ عليه السلام : ذلك إليكم .

فرجع الأشعثُ فنادَى فى النَّاس : مَنْ كان يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا ؛ فإنّى ناهض . فأتاه اثنا عشر ألفا من كِنْدة وأفناءِ قَحْطان ، واضعى سيوفهم على عواتقهم ، فشدّ عليه سلاحه(٣) ونهضَ بهم ؛ حتّى كاد يخالط أهل الشام ، وجعل يُلْقى رمحه ، ويقول لأصحابه : بأبى وأمّى أنتم ! تقدّموا إليهم قَابَ رُمْحِى(٤) هذا . فلم يزل ذلك دأبَه ؛ حتى خالط القوم ، وحسر عن رأسه ، ونادى : أنا الأشعث بن قيس ! خَلُّوا عن الماء . فنادى أبو الأعور : أما [والله](٥) حتى لا تأخذَنا وإياكم السيوفُ فلا . فقال الأشعث :

(١) صفين : « عطاشا والعدو يصوت » .
(٢) السنخ : الأصل ، وفى صفين : « من غصنه » .
(٣) صفين : وشد عليه سلاحه ، وهو يقول :

ميعادُنَا اليومَ بيَاضُ الصُّبْحِ   هَلْ يَصْلُحُ الزّادُ بِغيْرِ مِلْحِ !
لا لا ، ولَا أمْرٌ بغيرِ نُصْحِ   دِبُّوا إلى القَوْمِ بِطَعْنٍ سَمْحِ
مثـل العزَالِى بطعانٍ نَفْحِ   لَا صُلْحَ لِلقَوْمِ ، وَأَيْنَ صُلْحِى !
* حَسْبِى مِنَ الإقْحامِ قَابُ رُمْحِى *

(٤) قاب رمحى : قدر رمحى .
(٥) من صفين .

قد والله أظنّها دَنَتْ منّا ومنكم . وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره علىّ ، فبعث إليه الأشعث : أقحِم الخيلَ؛ فأقحمَها حتى وضعت سنابِكَها فى الفرات ، وأخذت أهلَ الشام السيوف ، فولوا مدبرين .

* * *

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبى جعفر وزيد بن الحسن ، قال : فنادى [١] الأشعث عَمْرو بن العاص ، فقال : ويحك يابنَ العاص ! خَلِّ بيننا وبين الماء ، فوالله لئن لم تفعل لتأخذنا وإياكم السيوف ؛ فقال عمرو : والله لا نخلِّى عنه حتى تأخذَنا السيوف وإياكم ، فيعلَم ربُّنا : أيّنا أصبرُ اليوم . فترجّل الأشعث والأشتر، وذَوُو البصائر من أصحاب على عليه السلام ، وترجَّل معهما اثنا عشر ألفا ، فحملوا على عمرو وأبى الأعور ومَنْ معهما من أهلِ الشام ، فأزالوهم عن الماء ، حتى غمست خيلُ على عليه السلام سنابكَها فى الماء .

قال نصر : فروى [٢] عمر بن سعد أنّ عليا عليه السلام قال ذلك اليوم : هذا يوم نصرتم فيه بالحَمِيّة .

* * *

قال نصر:وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : [٣] سمعت تميماً الناجىّ يقول : سمعت الأشعث يقول : حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفُرات ، فقلت له : ويحَك يا عمرو ! أما والله إن كنتُ لأظنّ لك رأيا ؛ فإذا أنت لا عَقْل لك ، أتُرانا نخلّيك والماء ! تَرِبَتْ يداك ! أما علمْتَ أنّا معشر عرب ! ثكلتْك أمُّك وهبلتك ! لقد رُمت أمرا عظيما . فقال لى عمرو : أما والله لتعلَمَنّ اليومَ أنّا سَنَفِى بالعهد ، ونُحْكِم العَقْد ، ونلقاكم

---

(١) صفين ١٨٧
(٢) صفين ١٨٧
(٣) صفين ١٨٩ .

بصبْر وجِدّ . فنادى به الأشتر : يابنَ العاص ؛ أمَا والله لقد نزلْنا هذه الفُرْضة ، و إنا لنريد القتال على البصائر والدين ، وما قِتالُنا سائر اليوم إلّا حميّة .

ثم كبَّر الأشتر وكبّرنا معه وحَمَلْنا ، فما ثار الغُبار حتى انهزم أهل الشام .

قالوا : فلَقِيَ عَمرو بن العاص بعد انقضاء صِفِّين الأشعث ، فقال له : يا أخا كِنْدَة ، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم المـاء ، ولـكن كنت مقهوراً على ذلك الرأى ، فـكابرتُك بالتهدّد والوعيد ، والحرب خُدْعة .

قال نصر : ولقد كان من رأى عَمْرو التَّخلِيَةُ بين أهل العراق والماء ، ورجع معاوية بأَخَرة إلى قوله بعـد اختلاط القوم فى الحرب ؛ فإن عَمْراً ـ فيما روينا ـ أرسل إلى معاوية : أنْ خَلِّ بين القوم و بين الماء ، أترى القوم يموتون عطشا وهم ينظرون إلى المـاء ! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسرىّ : أن خَلِّ بين القوم و بين المـاء يا أبا عبد الله ، فقال يزيد ـ وكان شديدَ العثمانية : كلّا والله لنقتلنّهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين .

***

قال: فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : خطب على عليه السلام يوم الماء فقال : « أمّا بعـد ؛ فإنّ القوم قد بَدَءوكم بالظلم ، وفاتحوكم بالبغى ، واستقبلوكم بالعدوان ، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم المـاء ، فأقِرّوا على مذلة وتأخـيره مهلة . . . . . » ، الفصل إلى آخره .

قال نصر : وكان(١) قد بلغَ أهلَ الشام أنّ عليا عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يَقْسِم بينهم التبر والذهب ـ وهما الأحمران ـ وأنْ يعطِىَ كلاًّ منهم خمسمائة ، كما أعطاهم بالبصرة ، فنـادى ذلك اليوم منادى أهل الشام : يا أهل العراق ؛ لمـاذا نزلتم بعَجاج

---

(١) صفين ١٨٨

من الأرض ! نحن أَزْدُ شَنُوءة لا أَزْدُ عمان ، يا أهلَ العراق :

لا خَمْسَ إلا جَنْدلُ الأحرِّين[1]　　والخمسُ قَدْ تُجشِّمُكَ الأمرِّيْن[2]

* * *

قال نصر : فحدّثنى عمرو بن شمر ، عن إسماعيل السّدىّ ، عن بكر بن تغلب ، قال : حدّثنى[3] مَن سَمع الأشعث يوم الفُرات ـ وقد كان له غَناء عظيم مِنْ أهل العراق ، وقتَل رجالًا من أهل الشام بيده ، وهو يقول : واللهِ إنْ كنتُ لَكارِهاً قتال أهلِ الصلاة ، ولكن معى مَنْ هو أقدَمُ منّى فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنّة ، فهو الذِى يَسْخَى بنفسه .

* * *

---

(١) لا خمس ، أراد لاخمسمائة . والجندل : الحجارة والأحرين : جمع حرة ، وهى الحجارةالسوداء.

(٢) الأمرين : الشر والأمر العظيم ، وفى اللسان (٥ : ٢٥٢) بعد شرح كلمة « الأحرين » : أنشد ثعلب لزيد بن عناهية التيمى ، وكان زيد المذكور لما عظم البلاء بصفين قد انهزم ولحق بالكوفة ، وكان على رضى الله عنه قد أعطى أصحابه يوم الجمل خمسمائة من بيت مال البصرة ، فلما قدم زيد على أهله قالت له ابنته : أين خمس المائة ؟ فقال :

إنّ أباكَ فرّ يوم صِفّينْ　　لما رأى عكًّا والاشعريينْ

وقيس عيلان الهوازنيينْ　　وابن نمْيرٍ فى سراة الكندِيين

وذا الكَلاَع سيد اليمانينْ　　وحابساً يستنّ فى الطائيينْ

قال لنفس السوء هل تفرين ؟　　لا خمس إلا جندل الأحرِّينْ

والخمس قد جشمتْك الأمرِّينْ　　جَمْزًا إلى الكوفة من قنّسْرِينْ

ويروى : « قد تجشمك » ، و « قد يجشمنك » . وقال ابن سيده : معنى « لاخمس » ماورد فى حديث صفين أن معاوية زاد أصحابه يوم صفين خمسمائة ، فلما التقوا بعد ذلك قال أصحاب على رضى الله عنه :

* لا خَمْس إلا جندل الأخرّين *

أرادوا : لاخمسمائة .

(٣) صفين ١٩١ ـ ١٩٢

قال نصر : وحمل [١] ظَبْيان بن عُمارة التميمى على أهل الشام ، وهو يقول :

هَلْ لكَ يا ظَبْيَانُ مِنْ بقَاءِ ... فى سَاكِنى الأرْضِ بغَيْرِ ماءِ!

لَا وإلٰهِ الأرْضِ والسّماءِ ... فاضْرِبْ وُجُوه الغُدُرِ الأعداءِ

بالسَّيفِ عِنْدَ حَمَس الهيْجاءِ [٢] ... حَتى يجيبُوكَ إلى السَّوَاءِ

قال : فضَرَبَهُمْ والله حتى خَلّوْا له الماء .

* * *

قال نصر : ودعا [٣] الأشتر بالحارث بن همام النَّخَعىّ ، ثم الصّهبانىّ ، فأعطاه لواءه ، وقال له : يا حارث ، لولا أنى أعلم أنّك تصبر عند الموت ، لأخذت لوائى منك ، ولم أحْبُك بكرامتى ، فقال : والله يا مالك لأسُرّنّك أو لأموتَنّ ، فاتّبِعْنى . ثمّ تقدّم باللواء وارتجز ، فقال :

يَا أخَا الخَيْراتِ يا خَيْرَ النَّخَعْ ... وَصَاحِبَ النَّصْر إذا عَمّ الفَزَعْ

وكَاشِفَ الخَطْبِ إذا الأمْرُ وَقَعْ ... ماأنتَ فى الحرْبِ العَوانِ بالجَذَعْ [٤]

قد جَزِعَ القومُ وعُمّوا بالجَزَعْ ... وجُرِّعُوا الغيظ وغُصّوا بالجُرَعْ

إنْ تَسقنا المـاء فليست بالبِدَعْ ... أو نعطش اليوم فجُند مُقتَطَعْ

* ما شِئْتَ خُذْ مِنْها وَمَا شِئْتَ فَدَعْ *

فقال الأشتر : ادْنُ منّى يا حارث ؛ فدنا منه فقَبّل رأسه ، فقال : لا يتبَعْ رأسَه اليومَ إلّا خَيْرٌ . ثم صاح الأشتر فى أصحابه : فدتكُمْ نفسى! شُدّوا شِدّة المحرَجِ الرّاجى للفرَج ، فإذا نالتْكم الرماح فالتووا فيها ، فإذا عضتْكُم السيوف فليعضّ الرجُلُ على نواجذه ، فإنّه أشد لشئون [٥] الرأس ؛ ثم استَقْبِلُوا القوْمَ بِهَامِكم .

---

(١) صفين ١٩٢ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ٢٤٠

(٢) الحمس : الشدة فى القتال ، وفى صفين والطبرى : « حمس الوغاء » .

(٣) صفين ١٩٣ ، والمسعودى ٢ : ٣٨٦

(٤) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة ؛ كأنهم جعلوا الأولى بكرا . والجذع : الصغير السن.

(٥) الشئون هنا : جمع شأن ؛ وهو موصل قبائل الرأس .

قال : وكان الأشتر يومئذ على فَرَس له مَحْذوف (١) أدْهم ، كأنه حَلَكُ الغُراب ، وقتل بيده مِنْ أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة : صالح بن فيروز العكّى، ومالك بن أدهم السَّلْمانىّ ، ورِيَاح بن عَتِيك الغسانىّ ، والأجلح بن منصور الكِنْدىّ ـ وكان فارس أهل الشام ـ وإبراهيم بن وضاح الجُمَحِىّ ، وزامل بن عبيد الحزامى ، ومحمد ابن روضة الجمحىّ .

قال نصر : فأول قتيل قتله الأشتر بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز ، ارتجز على الأشتر وقال له :

يا صَاحِبَ الطِّرْفِ الحصان الأدْهَمِ ... أقْدِمْ إذا شئت علَيْنا أَقْدِمِ
أنا ابنُ ذى العزّ وذِى التَّكرُّمِ ... سَيّدُ عَكٍّ كُلِّ عَكٍّ فاعلمِ

قال : وكان صالح مشهوراً بالشدّة والبأس ، فارتجز عليه الأشتر ، فقال له :

أنا ابنُ خير مَذْحِجٍ مركبَا ... وخَيرُها نَفْساً وأمّا وأَبَا
آليتُ لاأرجعُ حتى أضرِبَا ... بسيفىَ المصقولِ ضَرْباً مُعْجِبا

ثم شدّ عليه فقتله ، فخرج إليه مالك بن أدهم السَّلمانىّ ـ وهو من مشهوريهم أيضا ، فحَمَلَ علىَ الأشتر بالرمح ، فلما رَهَقَه (٢) التوى الأشتر على فرسه ومارَ السنان (٣) فأخطأه ، ثم استوى على فرسه ، وشدّ على الشامىّ فقتله طعْناً بالرمح ، ثم قتل بعده رياح بن عقيل (٤) ، و إبراهيم بن وضاح ، ثم برز إليه زامل بن عَقِيل ـ وكان فارسا ـ فطعن الأشتر فى موضع الجَوْشن (٥) فصرَعه عن فرسه ، ولم يصب مقتلا ، وشدّ عليه الأشتر بالسيف راجلا فكشف قوائم فرسه ، وارتجز عليه فقال :

---

(١) المحذوف : المقطوع الذنب.
(٢) رهقه : غشيه .
(٣) مار السنان : اضطرب .
(٤) صفين : « رياح بن عتك » .
(٥) الجوشن : الصدر.

لَا بُدَّ مِنْ قتلِي أو مِنْ قَتْلِـكاَ   قتلتُ منكم أرْبَعاً من قبلكا [١]

* كلّهم كانُوا حُماةً مِثْلَـكاَ *

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان ، فقتله ، ثم خرج إليه محمد بن روضة ، فقال وهو يضرب فى أهل العراق ضَرْبا منكرا :

يا ساكنِي الـكُوفَةِ ياأهْلَ الفتَنْ   ياقاتِلى عُثْمانَ ذَاكَ الْمُؤْتَمَنْ

أورث قلبي قتلُه طُولَ الحزَنْ   أضربُكم وَلَا أَرَى أبا حَسَنْ !

فشدّ عليه الأشتر فقتله ، وقال :

لا يبعِد اللهُ سِوَى عُثْمَانَا   وَأَنْزَلَ الله بِـكُمْ هَوَانا

* وَلَا يَسلّى عَنْـكُمُ الأحْزَانَا [٢] *

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الـكندى ، وكان من شجعان العرب وفُرسانها ، وهو على فرَس له اسمه لاحق ، فلما استقبله الأشتر ، كره لقاءه واستحيا أن يرجعَ عنه ، فتضاربا بسيفهما ، فسبقه الأشتر بالضَّرْبة فقتله ، فقالت أخته ترثيه :

ألا فابْـكى أخا ثِقَةٍ   فقَدْ واللهِ أبْـكِينا

بقتلِ الْمَاجد القَمْقَا   م لا مِثْلَ له فينا [٣]

أتانَا اليومَ مقتلُه   فقد جُزَّتْ نَوَاصِينَا

كريمٌ ماجِدُ الجدّيْـ   ـنِ يَشْفِي مِنْ أعادِينَا

شفانا الله من أهل الـ   ـعراقِ فقد أبادُونَا

أمَا يخشوْنَ رَبَّهُمُ   ولَمْ يرعوْا له دينا !

---

(١) صفين : « قتلت خمسة »

(٢) بقية الرجز كما فى صفين :

مُخالفٌ قَدْ خَالَفَ الرَّحْمَانا   نَصَرْتموهُ عابداً شيطـانا

(٣) القمقام : السيد الـكثير العطاء .

قال : وبلَغ شعرُها عليًّا عليه السلام ، فقال : أما إنهُنّ ليس بمَلْكهِنّ ماراًيتم من الجزَع ، أما إنهم قد أضرُّوا بنسائهم ، فتركوهنّ أيامَى حزَانى [1] بائسات . قاتل الله معاوية ! اللهم حَمّله آثامهم وأوزارا وأثقالا مع أثقاله ! اللهم لاتعفُ عنه !

* * *

قال نصر: وحدثنا [2] عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن الحارث بن أدهم ، وعن صعصعة ، قال : أقبل الأشترُ يوم الماء ، فضرب بسيفه جمهورَ أهل الشام حتى كشفهم عن الماء ، وهو يقول :

لَا تَذْكُروا ما قَدْ مَضَى وَفَاتَا   وَاللهِ رَبِّى الباعثِ الأمْوَاتَا
مِنْ بَعْدِ ماصاروا كَذَا رُفَاتَا [3]   لأوردَنّ خَيْلِيَ الفُرَاتَا
* شُعْثَ النَّواصِي أو يقال ماتا *

قال : وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث ، فقال له الأشعث: لله أبوك ! ليست النَّخَع بخير مِنْ كِنْدة ، قَدِّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق ؛ فتقدم لواء الأشعث ، وحملت الرجال بعضُها على بعض ، وحمل فى ذلك اليوم أبو الأعور السلمّى ؛ وحمل الأشترُ عليه ، فلم ينتصف أحدُهما من صاحبه ، وحمل شُرحبيل بن السِّمْط على الأشعث ، فكانا كذلك ، وحمل حَوْشب ذو ظليم على الأشعث أيضا ، وانفصلا ولم ينلْ أحدهما من صاحبه أمرا ، فما زالوا كذلك حتى انكشفَ أهلُ الشام عن الماء ، وملك أهلُ العراق المشرَعة .

* * *

قال نصر : فحدّثنا محمد بن عبد الله ، عن الجرجانى ، قال : قال [4] عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهلُ العراق الماء : ماظنّك يامعاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتَهم

(١) صفين : « خزايا » .
(٢) صفين ٢٠١
(٣) صفين : « صدى فراتا » .
(٤) صفين ٢٠٨

أمس ! أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ! ماأغنى عنك أن تكشف لهم السوءة . فقال معاوية : دع عنك مامضى،فما ظنّك بعلى ؟ قال :ظنى أنه لايستحلّ منك مااستحللت منه ، وأنّ الذى جاء له غير الماء . قال : فقال له معاوية قولا أغضبه ، فقال عمرو :

أمرتُك أمراً فَسَخَّفْتَـــهُ وخالفنى ابن أبى سَرْحَهْ [1]

وأغمضتَ فى الرَّأيِ إغماضةً ولم ترَ فى الحرب كالفُسْحَهْ

فكيفَ رأيت كِباشَ العِرَاقِ ألم ينطحُوا جَمْعَنَا نَطْحَـــهْ !

فإن ينطحونا غـــداً مثلها فكنْ كالزبيرىّ أو طَلْحَهْ

أظنّ لهـا اليومَ مابعـــدَها وميعاد مابيننا صُبْحَهْ

وإن أخروها لِمَا بَعْـــدَها فقد قَدَّمُوا الخبْطَ والنَّفْحَهْ

وقد شرب القومُ ماء الفراتِ وَقَلَّدَكَ الأشتر الْفَضْحَهْ

قال نصر: فقال أصحاب على عليه السلام له: امنعهم الماء ياأمير المؤمنين كما منعوك. فقال: لا، خلّوا بينهم و بينه ، لاأفعل مافعله الجاهلون ، سنعرض عليهم كتابَ الله ، وندعوهم إلى الهدى ، فإن أجابوا و إلا ففى حَدّ السيف مايغنى إن شاء الله .

قال : فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سُقاتهم وسقاةَ أهل الشام وَرواياهم ، وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء ، مايؤذِى إنسانٌ إنسانا .

---

(١) يريد عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

(٥٢)[*]

ومن خطبة له عليه السلام، وقد تقدم مختارها برواية، ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى، لتغاير الروايتين :

الأصلُ :

أَلَا وَ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ[1] كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ.

فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا[2] الأَمَدُ، فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ؛ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ؛ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ.

وَتَاللهِ لَوْ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً، وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا؛ مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ؛ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلإِيمَانِ.

(*) انظر الخطبة رقم ٢٨ الجزء الثانى ص ٩١

(١) مخطوطة النهج : « وجرعة ».

(٢) كلمة «فيها» ساقطة فى مخطوطة النهج

الشرح :

تصرّمت: انقطعت وفنيت .وآذنت بانقضاء : أعلمت بذلك،آذنته بكذا أى أعلمته .

وتنكّر معروفها : جُهِل منها ما كان معروفا .

والحذّاء: السريعة الذهاب ، ورحِم حذاء : مقطوعة غير موصولة . ومن رواه« جذاء » بالجيم ،أراد منقطعة الدَّرّ والخير .

وتحفز بالفناء سكانها : تُعجلهم وتسوقهم . وأمرّ الشىء : صار مرّا . وكَدِر الماء بكسر الدال ، ويجوز كَدُر بضمها . والمصدر من الأول كَدَراً ، ومن الثانى كُدُورة .

والسَّمَلة، بفتح الميم : البقية من الماء تَبْقى فى الإناء .

والمَقْلة ، بفتح الميم وتسكين القاف : حصاة القَسْم التى تلقى فى الماء ليعرف قَدْر مايُسقى كلّ واحد منهم ؛ وذلك عند قلة الماء فى المفاوز، قال :

قَذَفُوا سَيِّدَهُمْ فى ورطةٍ قَذْفَكَ الْمَقلَةَ وَسْطَ المعترَكْ [1]

والتمزز : تمصّص الشراب قليلا قليلا . والصّديان : العطشان .

ولم ينقع:لم يرْو ؛ وهـذا يمكنُ أن يكونَ لازما ، ويمكن أن يكون متعدّياً ، تقول : نقع الرجل بالماء ، أى روى وشفى غليله ،ينقع . ونقع الماء الصدىّ ينقع، أى سكنه .

فأزمعوا الرحيل ، أى اعزموا عليه ، يقال : أزمعت الأمر ، ولا يجوز أزمعت على الأمر؛ وأجازه الفراء .

قوله :« المقدور على أهلها الزوال » ، أى المكتوب ، قال :

واعْلم بأنّ ذَا الجلال قد قَدَرْ فى الصحف الأولى الذى كان سُطِرْ

---

(١) اللسان ١٤ : ١٥٠ ، ونسبه إلى يزيد بن طعمة الخطمى.

أى كتب . والولّه العجال : النُّوق الوالهة الفاقدة أولادَها ، الواحدة عَجُول ، والوَلَه : ذهاب العقل وفقْد التمييز .

وهدِيلِ الحمام : صوت نوحه . والجؤار : صوت مرتفع . والمتبتِّل : المنقطع عن الدنيا . وانماث القلب ، أى ذاب .

وقوله : « ولو لم تبقوا شيئا من جَهْدكم » اعتراض فى الـكلام .

وأنعمه ، منصوب لأنه مفعول «جزت » .

* * *

وفى هذا الـكلام تلويح و إشارة إلىّ مذهب البغداديين من أصحابِنا فى أنّ الثواب على فعل الطاعة غير واجب ؛ لأنه شكر النعمة ، فلا يقتضى وجوبَ ثواب آخر ؛ وهو قوله عليه السلام : « لو انماثت قلوبكم انمياثا . . . » ، إلى آخر الفصل .

وأصحابنا البصريون لايذهبون إلى ذلك ، بل يقولون : إنّ الثواب واجب على الحـكيم سبحانه ، لأنه قد كلّفنا مايشقّ علينا ، وتـكليف المشاقّ كإنزال المشاقّ ، فكما اقتضت الآلام والمشاقّ النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا ، كذلك تقتضى التـكليفات الشاقة ثوابا مستحَقًّا عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها ، قالوا : فأما ماسلف من نعمه علينا فهو تفضُّل منه تعالى ، ولا يجوز فى الحـكمة أن يتفضَّل الحـكيم على غيره بأمر من الأمور ، ثم يُلزمه أفعالا شاقة و يجعلها بإزاء ذلك التفضُّل ؛ إلا إذا كان فى تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحـكيم فـكان ماسلَف من المنافع جاريًا مجرى الأجرة ؛ كمن يدفع درهما إلى إنسان ليَخِيط له ثو با ، والبارى تعالى منزَّه عن المنافع ؛ ونعمه علينا منزهة أن تجرى مجرى الأجرة على تـكليفنا المشاقّ .

وأيضا فقد يتساوى اثنان من الناس فى النعم المنعم بها عليهما ، و يختلفان فى التكاليف،

فلو كان التكليف لأجل مامضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها ؛ فإن قيل: فعلَى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين ؟

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين ؛ ولكنه قال : لو عبدتموه بأقصى ماينتهى الجهد إليه ماوفّيتم بشكر أنعمه ؛ وهذا حقٌّ غيرُ مختلف فيه ، لأنّ نعم البارى تعالى لاتقوم العباد بشكرها ، وإن بالغوا فى عبادته والخضوع له والإخلاص فى طاعته ؛ ولايقتضى صدق هذه القضية وصحتها صحةَ مذهب البغداديين فى أنّ الثواب على الله تعالى غيرُ واجب؛ لأنّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة .

[ماقيل من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

فأما ماقاله الناس فى ذمّ الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها ، وتنكّرها لأهلها ، والشكوى منها ، والعتاب لها، والموعظة بها ، وتصرمها وتقلّبها ، فكثير؛ من ذلك قول بعضهم :

هِيَ الدُّنيَا تَقُولُ بِملْءِ فِيهـــا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي (1)

فلا يغرركُمُ حُسْنُ ابتسامى ... فَقَوْلِي مُضْحِكٌ والفعل مُبْكِي

وقال آخر :

تنحّ عَنِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْلُبَنّهـــا ... وَلَا تَخْطُبَنْ قتالةً مَنْ تُنَاكِحُ

فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِهـــا ، ... وَمَكْرُوهُها إمّا تأمّلْتَ رَاجِحُ

لَقَدْ قال فيهـــا القائلون فأكْثَرُوا ... وَعِنْدِى لها وصفٌ لعَمْرُك صَالِحُ

سُلافٌ ،قُصَاراها ذُعَافٌ ، ومركبٌ ... شهىّ إذا استـــلذذته فهو جَامِحُ

وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النّاسَ حُسْنُه ... ولكنْ له أفعـــالُ سُوء قبائِحُ

---

(1) لأبى الفرج الساوى ، معاهد التنصيص ٤ : ٢٤١ .

وقال أبو الطيب :

أبداً تَسْتَرِدُّ ماتَهَبُ الدُّنيَا ... فيَالَيْتَ جُودَها كَانَ بُخْلَا (١)

وَهْي مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَاتَحْـ ... ـفَظُ عَهْداً ولا تتمّم وَصْلَا

كلُّ دَمْع يَسِيلُ مِنْها عَلَيْهـا ... وبفكّ اليدَيْنِ عَنْهـا تُخَلّى

شِيَمُ الغانيَات فِيهـا ولا أدْ ... رِى لذا أنّثَ اسمَها النـاس أم لا

وقال آخر :

إنّمـا الدّنيـا عَوَارٍ ... والعوارِى مُسْتَرَدَّهْ (٢)

شدّة بعد رَخَاء ... ورخاء بعد شِدّه

وقال محمد بن هانىء المغربىّ :

وَما النَّـاسُ إلّا ظَـاعِنٌ فَمُوَدِّعٌ ... وثاوٍ قريح الْجفْنِ يَبْـكِى لرَاحل (٣)

فـا الدّهر إلا كالزمان الّذِى مَضَى ... ولا نحنُ إلا كالقرُون الأوائل

نُسَاقُ من الدُّنيـا إلى غـير دائمٍ ... ونبـكى من الدنْيـاَ على غـيرِ طائل

فـا عاجلٌ نَرجوهُ إلّا كآجِلٍ ... ولا آجلٌ نَخْشَاهُ إلا كعـاجلِ

وقال ابن المظفر المغربىّ :

دُنْيـاكَ دَارُ غُرُورٍ ... ونعمـةٌ مُسْتَعـارَهْ

ودَارُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ ... وَمَـكْسَب وَتِجـارَهْ

ورأس مالك نَفْسٌ ... فخفْ عليهـا الخسارهْ

---

(١) ديوانه ٣ : ١٣١

(٢) محاضرات لأدباء ٢ : ١٢٦ من غير نسبة .

ولا تَبِعْهَـا بأ كلٍ وطيب عَرْفٍ وَشَارَهْ
فإنّ مُلْكَ سليما نَ لايفى بشَرارَهْ

***

وقال أبو العتاهية :

ألا إنّمـا التقوى هِىَ البرُّ والـكَرَمْ وَحُبُّكَ للدّنيا هو الفَقْرُ والعَدَمْ (١)
وَليس عَلَى عَبْد تَقِىّ غضـــاضَةٌ إذا صَحّحَ التَّقْوى و إن حاكَ أوحَجَمْ (٢)

وقال أيضاً :

تَعلّقْتَ بآمالٍ طوالٍ أىِّ آمالِ
وأَقْبَلْتَ على الدُّنيـاَ مُلِحّا أىَّ إقبالِ
أيا هَـذَا تَجَهَّزْ لِـ فِراقِ الأهل والمـال
فلابدَّ مِنَ المَوْتِ عَلَى حالٍ مِنَ الحالِ

وقال أيضاً :

سَـكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَـكَنُ مَا بِهذَا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ ! (٣)
نَحْنُ فى دارٍ يُخَبِّرُنا بيلاها ناطقٌ لَسِنُ
دَارُ سُوءٍ لم يدم فَرَحٌ لامرئٍ فيهـاَ وَلَا حَزَنُ
فى سبيلِ الله أنفُسُنـــاَ كُلّنـــا بالموْتِ مُرْتَهَنُ
كلّ نفسٍ عِنْدَ مَوْتَها حَظُّها مِنْ مالِها الـكَفَنْ
إنّ مالَ المرء ليس لَه مِنْهُ إلا ذِكْرُهُ الحسنُ

---

(١) ديوانه ٢٤٣
(٢) ديوانه ٢١٣
(٣) ديوانه ٢٥٢

وقال أيضاً :

أَلَا إِنَّنَا كُلُّنَـــا بَائِدُ وأَىّ بَنِى آدمٍ خَالِدُ ! [١]

وَبَدْؤُهُمُ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ وَ كُلٌّ إلى رَبِّهِ عَائِدُ

فواعجبًا كيف يَعصِى الإ لهَ أمْ كيف يَجْحَدُهُ الجاحِدُ !

وفى كلّ شيء له آيةٌ تَدُلّ على أنّه الواحِـــدُ

وقال الرضى الموسوى :

يا آمنَ الأيام بادِرْ صَرْفَهَـــا واعْلَمْ بأنّ الطّالبينَ حِثاثُ [٢]

خُذْ مِنْ تُراثِكَ مَااسْتَطَعْتَ فإنّما شُرَكاؤكَ الأيامُ والوُرّاثُ

لَمْ يَقْضِ حَقَّ المَالِ إلّا مَعْشَرٌ نَظَرُوا الزّمَانَ يَعيثُ فيه فعَاثُوا

تحثو على عَيْبِ الغَنِىِّ يَدُ الغِنـا وَالْفقرُ عَنْ عَيْبِ الْفَتَى بَحّاثُ

المَالُ مَالُ الْمَرْءِ مابلغت به الشّهَوَاتُ أو دُفِعَتْ به الأحـــداثُ

مَا كَانَ مِنْـهُ فَاضِلًا عَنْ قُوتِهِ فليعلمنْ بأنه مِـــيرَاثُ

مالى إلى الدنيا الدنيّـــة حاجةٌ فَلْيَجْنِنِ ساحرَ كيدها النَّفّاثُ

طَلّقْتُها أَلفـــاً لأحْسِمَ دَاءها وطلاقُ مَنْ عَزَمَ الطّلاقَ ثَلَاثُ

وَثَبَاتُهَا مَرْهُوبَةٌ ،وَعِدَاتُهَـــا مَــكْذُوبَةٌ ، وحبالها أنــكَاثُ

أمّ المصائب لاتزال تَرُوعُنَـــا مِنْهَـا ذُكُورُ حَوادِثٍ و إناثُ

إنّى لَأَعْجَبُ للذين تَمَسّكُوا بحبائلِ الدُّنْيَا ، وَهُنّ رِثَاثُ

كنزوا الـكُنوز وأعقلوا شهواتِهم فالأرضُ تَشْبَعُ والبطونُ غِرَاثُ

أتُرَاهُمُ لَمْ يَعْلَمُوا أنّ التقى أزْوَادُنا ، وديارنا الأجْـــدَاثُ

---

(١) ديوانه ٦٩

(٢) ديوانه لوحة ١٢٣ ، وفيه : « يا آمن الأقدار » .

وقال آخر :

هذهِ الدنيا إذا صَرَفَتْ وَجْهَهـــا لم تنفع الحِيَلُ
وإذا ما أقْبَلَتْ لِعَمٍ بَصَّرَتْهُ كَيْفَ يفتعِلُ
وإذا ما أدْبَــرَتْ لذَكِيّ غَابَ عَنْهُ السّهْلُ والجبَلُ
فَهْيَ كالدُّولابِ دَائِرَةٌ تَرْتَقِي طَوْراً وَتَسْتَفِلُ
فِي زَمَانٍ صَارَ ثَعْلَبُهُ أَسَداً واسْتَذْأَبَ الْحَمَلُ
فالذُّنَابَى فيه ناصيـــةٌ والنَّواصِي خُشَّعٌ ذُلُلُ
فاصْبِرِى يَا نَفْسُ واحْتَمِلِي إنّ نَفْسَ الحرّ تَحْتَمِلُ

وقال أبو الطيب :

نُعِدُّ المشرفيَّـــةَ والعوالِي وتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتَالِ [1]
وَنَرْتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَباتٍ وَما يُنجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي [2]
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنيَا قديماً وَلَـكِنْ لَاسَبِيلَ إلى الْوِصَالِ!
نَصِيبُكَ فى حياتك مِن حَبيبٍ نَصِيبُكَ فى منامك مِنْ خَيالِ
رَمَانِى الدَّهْرُ بالأَرْزاء حَتّى فُؤادِى فى غِشَـــاءٍ مِنْ نِبَالِ
فصِرْتُ إذَا أصَابَتْنِي سِهامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهَانَ فَمَـــا أبالى بالرّزَايا لأنّى مَا انْتَفَعْتُ بِأنْ أُبَالِي
يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضــاً وَيَمْشِي أواخِرُنا عَلَى هَامِ الأَوَالِي
وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبَّـــلَةِ النَّواحِي كَحِيلٍ فى الجَنَـــادِلِ والرمالِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٨ . المشرفية : السيوف ، والعوالى : الرماح .
(٢) المقربات من الخيل : الكرام التى تربط لكرامتها على أصحابها .

وَمُغضٍ كانَ لا يُغضِى لخطبٍ … وبالٍ كان يُفكِرُ فى الهُزَالِ

* * *

وقال أبو العتاهية فى أرجوزته المشهورة فى ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة :

مازَالَتِ الدُّنيا لنَا دَارَ أَذَى … ممزوجَةَ الصَّفو بألوانِ القَذَى[1]

الخيرُ والشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ … لِذَا نِتاجٌ ، ولذا نِتَاجُ

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضُ … يَخْبُثُ بَعضٌ وَيَطِيبُ بَعضُ

لِكُلِّ إنسانٍ طَبِيعَتَانِ … خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ

والخيرُ والشَّرُّ إذا ما عُدَّا … بينهمَا بَوْنٌ بعيدٌ جِدَّا

إنَّك لَوْ تَسْتَنْشِقُ الشَّحِيحَا … وَجَدْتَهُ أَنْتَنَ شىء رِيحَا

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوتُ … مَا أَكْثَرَ الْقُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ !

الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا … مَنِ اتَّقَى اللّهَ رَجَا وخَافَا

هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلُمْنِى أَوْ فَذَرْ … إنْ كنتُ أخطَأْتُ فمَا أخطا الْقَدَرْ

لِكُلِّ ما يؤذِى وإنْ قلَّ أَلَمْ … مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنَمْ !

ماانتفعَ المرء بمثلِ عَقْلِهِ … وَخَيْرُ ذُخْرِ المرء حُسْنُ فِعلِهِ

إنّ الفسادَ ضِدُّهُ الصلاحُ … وربَّ جِدٍّ جَرَّهُ المُزاحُ

مَنْ جَعَل النَّمام عَيْناً هَلَكَا … مُبْلغك الشَّرّ كباغيهِ لَكَا

إنّ الشَّبابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ … مَفْسَدَةٌ للمرءِ أىّ مَفْسَدَهْ

يُغنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ … قَدْ يُوهِنُ الرَّأْىَ الأصيلَ شَكُّهُ

مَاعَيْشُ مَنْ آفَتُه بَقَاهُ … نَغَّصَ عَيْشاً نَاعِماً فَنَاهُ

---

(١) ديوانه ٣٤٦ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات .

يَارُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجُهْدِهِ ... قَدْ سَرَّنَا اللهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ

مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ ... إِلَّا لِأَمْرٍ شَأْنُهُ عَجِيبُ

لِكُلِّ شيء قَدَرٌ وَجَوْهَرُ ... وَأَوْسَطٌ وَأَصْغَرٌ وَأَكْبَرُ

وَكُلُّ شيء لاحقٌ بجوهرِهِ ... أَصْغَرُهُ متَّصِلٌ بأكْبَرِهِ

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ ... وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ تَعْتَلِجْ

عجبتُ واستغرقنى السُّكُوتُ ... حَتَّى كَأَنِّى حائرٌ مَبْهُوتُ

إذا قَضَى الله فكيف أَصْنَعُ ... والصَّمْتُ إِنْ ضاقَ الكلامُ أَوْسَعُ

وقال أيضاً :

كلٌّ عَلَى الدُّنْيَا لَهُ حِرْصُ ... والحادِثَاتُ لِنَابِهَا قَرْصُ (١)

وَكَمْ بِهَا مَنْ وَارَتْهُ فى جَدَثٍ ... لم يَبْدُ مِنْهُ لِنَاظِرٍ شَخْصُ

يَهْوَى مِن الدُّنيا زيادتَهَا ... وزيادةُ الدُّنيا هِى النَّقْصُ

لِيَدِ الْمَنِيَّةِ فى تَلَطُّفِهَا ... عَنْ ذُخْرِ كلِّ نَفِيسَةٍ فَحْصُ

وقال أيضاً :

أَبْلَغَ الدَّهْرُ لى فِي مواعِظِه ... بَلْ زَادَ فِيهِنَّ لِي من الإِبْلاغِ (٢)

أىّ عَيْشٍ يكونُ أطيبَ من عيشٍ ... كَفاف قوتٍ بقَدْرِ الْبَلاغِ

غصبتنىَ الأَيام أَهْلِى ومالى ... وشبابى وصحتى وفَرَاغى

صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْسَ يَسْلَمُ مِنْهُ ... وَعَلَى نَفْسِهِ بَغَى كُلُّ باغِ

رُب ذِى لقمة يعرض مِنْهَا ... حائلٌ بينهُ وبَيْن المساغِ

***

---

(١) ديوانه ١٣٦

(٢) ديوانه ٣٣٥

وقال ابن المعتز :

حَمْداً لربِّى وَذمًّا للزَّمَانِ فمَاَ — أقلَّ فِى هَـذِهِ الدُّنياَ مَسَرَّاتِى !
كفت يَدِى أملِى عن كلّ مُطَّلَبِ — وَأَغْلَقَتْ بَابَهَا مِنْ دُونِ حَاجاَتِى

وله أيضاً :

ألست ترى ياصاح ما أعجبَ الدَّهْرَا — فَذَمًّا لَهُ لَـكِنَّ لِلْخالِقِ الشُّكْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الموتَ البقاء الّذِى أَرَى — فَيَا حَبَّذَا مِنِّى لِمَنْ سَكَنَ الْقَبْرَا
وَسُبْحانَ رَبِّى راضياً بقضائه — وَكَانَ اتقائى الشرَّ يُغْرِى بِىَ الشَّرَّا

وله :

قُلْ لدنيا وقد تمكَّنْتِ منِّى — فَافْعَلِى مَا أَرَدْتِ أن تفعلِى بِى
واخرقى كيف شئت خَرْقَ جَهُولِ — إن عندى لك اصطبـارَ لَبِيب

وقال أبو العلاء المَعرِّى :

والدَّهْرُ إبْرَامٌ وَنَقْضٌ وَتَفْـ — ـرِيقٌ وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَلَيْل (١)
لو قال لى صاحبه سمِّـــه — ماجزت عن ناجيـة أو بديل

وقال آخر :

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حاَلَةٍ — لابُدَّ أَنْ يُدْبِرَ أَوْ يُقْبِلاَ

وقال أبو الطيب :

فمالِى ولِلدُّنيا طلابِى نجومُها — وَمَسْعَاىَ مِنْهاَ فى شِفاهِ الأَرَاقِمِ (٢)

---

(١) سقط الزند ١٦١
(٢) ديوانه ٤ : ١١١ .الأراقم : الحيات.

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما الأيامُ إلّا مُعارَةٌ ... فما اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِها فتزوّدِ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ماالأيام إلا كما ترى ... رزيّة مالٍ ، أو فِراقُ حَبيب

الوزير المهلّبيّ :

أَلا مَوْتٌ يُبـاعُ فأشتريهِ ... فهذا العَيْشُ مالا خيرَ فيهِ (١)

أَلا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ ... تصدّقَ بالمماتِ عَلَى أخيهِ

وله :

أشكو إلى الله أحداثاً من الزّمَنِ ... يَبريننى مثل بَرْيِ القِدْحِ بالسَّفَنِ

لَمْ يَبْقَ بالعيشِ لي إلّا مرارتُه ... إذا تذوّقتُهُ ، والحلوُ منـه فني

لا تحسَبَنْ نِعَماً سرّتك صُحْبَتُها ... إلا مفاتيحَ أبوابٍ من الحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أَلاأيُّها الدّهر الذى قد مللته ... سألتُك إلا ما سَلَبْتَ حياتى

فقـد وجلالِ الله حبّبتَ جاهِداً ... إلىّ - عَلَى كُرْه المماتِ - مماتِى

وله :

أَلَمْ ترَ أنّ الدّهرَ يَهْدِمُ ما بَنَى ... وَيَسْلُبُ ما أعطى وَيُفسِدُ ما أَسْدَى

فَمَنْ سَرّهُ أَلّا يرَى ما يَسُوءهُ ... فَلا يتّخِـذْ شيئاً يخافُ لَهُ فَقْدَا

البحترى :

كَأنّ اللّيـالى أغرِيَتْ حادِثاتُها ... بِحُبِّ الّذِى نأبَى، و بغضِ الّذِى نَهْوَى (٢)

---

(١) ابن خلـكان ١ : ١٤٢

(٢) ديوانه ١ : ١٠

وَمَنْ عَرَفَ الأيّام لَمْ يرَ خَفْضَهَا نعيما ولم يعـــدُدْ مضرّتها بلْوَى

أبو بكر الخوارزمى :

مَا أثْقَلَ الدّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهْ
حَدّثنِي عَنـهُ لِسَانُ التّجْرِبَهْ
لَا تَشْكُرِ الدّهْر لخـــير سَبّبَهْ
فإنّه لم يتعمّـدْ بالْهِبَـــهْ
وإنّمـا أخطأ فِيكَ مَذْهَبَـــهْ
كالسّيْلِ قَدْ يَسْقِي مَكَانًا أَخْرَبَهْ
والسُّمّ يَسْتَشفِي بِهِ مَنْ شَرِبَهْ

وقال آخر :

يَسْعَى الْفَتَى فى صَلَاح الْعَيْشِ مُجْتَهِداً والدّهْرُ مَاعَاشَ فى إفْسَادِهِ سَاعِي

آخر :

يغُرّ الْفَتَى مَرُّ الليالِى سَلِيمَةً وَهُنّ بِهِ عَمّا قَلِيلٍ عَوَاثِرُ

آخر :

إذَا مَاالدّهْرُ جَرّ عَلَى أُنَاسٍ حَوَادِثَه أَناخَ بآخَرِينَا
فَقُلْ للشّامِتِين بِنَا أفِيقُوا سَيَلْقَى الشّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

آخر :

قُلْ لِمَنْ أَنْـكَرَ حَالًا مُنْـكَرَهْ وَرَأَى مِنْ دَهْرِهِ مَاحَـــيّرَهْ
لَيْسَ بالمنْـكَرِ مَا أنْـكَرْتَهُ كُلُّ مَنْ عَاشَ رَأَى مَالَمْ يرَهْ

ابن الرومى :

سَكَنَ الزّمانُ وَتحْتَ سَكْنَتِهِ دَفْعٌ مِنَ الحَرَكَاتِ والْبَطْشِ (١)

---

(١) ديوانه

كَالأُفعُوَانِ تَرَاهُ مُنْبَطِحاً ... بالأرضِ ثُمَّ يَثُورُ لِلنَّهْش

أبو الطيب :

إنّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ ... مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إحْسَانٌ و إجْمَالُ [١]

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُه الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَافَاتَهُ ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وقال آخر :

جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْنَا فِي تَصَرُّفِهِ ... وأيُّ حُرٍّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ لَمْ يَجُرِ !

عِنْدِي مِنَ الدَّهْرِ مالوأنّ أَيْسَرَهُ ... يُلْقَى عَلَى الْفَلَكِ الدَّوّارِ لم يَدُرِ

آخر :

هَــذَا الزَّمانُ الَّذِي كُنَّا نُحَاذِرُه ... فِيما يحدّث كَعْبٌ وابنُ مسعودِ

إنْ دَامَ هَذَا ولم تعقبْ لَهُ غِيَرٌ ... لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ ،وَلَمْ يُفْرَحْ بمولودِ

آخر :

يَازَمَاناً أَلْبَسَ الأَحْــرَارَ ذُلًّا وَمَهَانَهْ

لَسْتَ عِنْدِي بِزَمانٍ إنّمــا أَنْتَ زَمَانَهْ

أَجُنُونٌ مانراه مِنْكَ يَبْدُو أَمْ مَجَانَهْ

الرضى الموسوىّ :

تَأْبَى اللَّيالِي أنْ تُدِيمَا بُؤْساً لِخَلْقٍ أَوْ نَعِيماً [٢]

وَالْمَرْءُ بالإقْبَال يَبْــلُغُ وادِعاً خَطَرًا جَسِيماً

فإذا انْقَضَى إقبَالُهُ رَجَعَ الشَّفيــعُ لَهُ خَصِيماً

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٨٧

(٢) ديوانه لوحة ٦٤

وَهُوَ الزَّمَانُ إِذَا نبَا سَلَبَ الّذِى أَعْطَى قَدِيما
كَالرِّيحِ تَرْجِعُ عَاصِفاً مِنْ بَعْدِ مَا بَدَأَتْ نَسِيما

أبو عثمان الخالدى :

أَلِفْتُ مِنْ حَادِثَاتِ الدهرِ أَكْبَرَهَا فَمَا أعاد عَلَى أحـــداثها الصُّغَرِ
تَزِيدُنى قَسْوَةُ الأيام طِيبَ ثناً كأنَّنى المِسْكُ بين الفِهْرِ والحَجَرِ

السرى الرفاء :

تَنَــكَّدَ هذا الدَّهْرُ فيماَ يَرُومُهُ عَلَى أنّه فِيماَ نُحَاذِرُهُ نَدْبُ (١)
فَسَيْرُ الذِى نَرْجُوهُ سيْرٌ مقيَّدٌ وَسيْرُ الّذى نَخْشَى غَوَائلَهُ وَثْبُ

ابن الرومى :

أَلَا إِنَّ فى الدنياَ عجَائِبُ جَمَّـــةٌ وَأَعْجَبُها أَلَّا يشِيبَ وَلِيدُهَا
إذا ذَلّ فى الدُّنيا الأعِزّاء واكتَسَتْ أذِلّتُها عِزًّا وســاد مَسُودُهَا
هُنَاكَ فَلَا جَادَتْ سماءٌ بَصَوبِهـــا وَلَاأَمْرَعَتْ أرضٌ،ولا اخْضَرَّ عُودُها
أرى النَّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَــيْرَ أَنَّهُمْ على الأرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا
وَمَا الخَسْفُ أن يُلْفَى أسافلُ بلدةٍ أعَالِيَهـــا ؛ أو أنْ يَسُودَ عَبِيدُهَا

السرى الرفاء :

لَنَا من الدَّهْرِ خَصْمٌ لَا نُطَالِبُهُ فما على الدَّهرِ لَوْ كَفَّتْ نوائبُهُ (٢)!
يَرْتَدُّ عَنْهُ جَرِيحاً مَنْ يُسالِمُه فَـكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ يحَارِبُهُ!
وَلَوْ أَمِنْتُ الّذِى تجْنى أراقمُهُ علىَّ هانَ الّذى تجْنى عَقَارِبُهُ

---

(١) ديوانه ٣٦

(٢) ديوانه ٥٤ ، وفيه : « خصم لا نغالبه » .

أبو فراس بن حمدان :

تَصَفَّحْتُ أحْوَالَ الزَّمانِ وَلَمْ يَكُنْ ... إلَى غَيْرِ شاكٍ للزَّمانِ وُصُولُ [١]

أكلَّ خليلٍ هكَذَا غَيْرُ منصِفٍ ... وكلُّ زمانٍ بالكرام بخيلُ !

ابن الرومى :

رأَيْتُ الدَّهْرَ يرْفعُ كلَّ وَغدٍ ... وَيخفِضُ كلَّ ذِى شِيَمٍ شَرِيفَهْ

كمثْلِ البَحْرِ يَغرَقُ فيه حَىّ ... وَلَا يَنفكّ تطفُو فيه جيفَهْ

أو الميزان يخفِضُ كلَّ وافٍ ... وَيَرْفَعُ كلَّ ذى زِنَةٍ خَفِيفَهْ

ابن نباتة :

وأصْغَرُ عيبٍ فى زَمَانِك أنَّه ... به العِلْمُ جَهْلٌ ، والعفافُ فُسُوقُ

وَكَيْفَ يُسَرّ الحرُّ فيه بمَطْلَبٍ ... وما فيه شىء بالسرور حَقِيقُ !

***

أبو العتاهية :

لِتَجْذِبُنِّى يَدُ الدُّنيَا بِقُوَّتِها ... إلى المنايا ، وإنْ نَازَعْتُها رَسَنِى [٢]

لِله دُنْيَا أناسٍ دائبينَ لَهَا ... قَد ارْتَعَوْا فى غِياض الغَىِّ والفِتَنِ

كسائماتٍ رواعٍ تبتغى سِمَنًا ... وحَتْفُها لَوْ دَرَتْ فِى ذَلِكَ السِّمَنِ

وله أيضا :

أنْسَاكَ مَحْيَاكَ المَمَاتا ... فَطَلَبْتَ فى الدُّنْيَا الثباتَا [٣]

---

(١) ديوانه ٣١٥ (ونسر سامى الدهان) .

(٢) ديوانه ٢٨٨

(٣) ديوانه ٥٣

وَوَثِقْتَ بِالدُّنيَا وأنـــتَ ترى جَماعَتَها شَتَاتا
وَعَزَمْتَ وَيْكَ عَلَى الحيا ةِ وَطُولِهَا عَزْماً بَتَاتَا
يَامَنْ رَأَى أبوَيْهِ ـ فِيـــمَنْ قَدْ رَأَى ـ كَانَا فَمَاتَا
هل فيهما لك عِـــبْرَةٌ أم خِلْتَ أنَّ لَكَ انفلاتَا!
ومن الذى طلب التفلُّـــتَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَفَاتَا!
كلٌّ تُصَبِّحُه المنـــيّةُ أو تُبَيِّتُهُ بَيَاتَا

وله :

أَرى الدُّنيَا لِمَنْ هِيَ فى يَدَيْهِ عَذَاباً كُلَّمَا كَبُرَتْ لَدَيْهِ (١)
تُهِينُ المكرَمِينَ لَهَا بِصُغْرٍ وتُـكْرِمُ كلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إذا استَغْنَيْتَ عَنْ شيء فَدَعْهُ وَخُـــذْ مَا أَنْتَ مُحتَاجٌ إليْهِ

وله :

أَلَمْ تَرَ رَيْبَ الدَّهْرِ فى كلِّ سَاعَةٍ لَهُ عَارِضٌ فيـــه المنيّةُ تَلْمَعُ (٢)
أَيَا بَانِيَ الدُّنيَا لِغَـــيْرِكَ تَبْتَنِي وَيَا جَامِـعَ الدُّنيَا لغَـــيْرِكَ تَجْمَعُ
أَرَى المْرْءِ وَثَّاباً عَلَى كلِّ فُرْصَةٍ وَلِلْمَرْءِ يوماً لَا مَحَالَةَ مَصْرَعُ
يُنازِلُ مَا لَا يَملْكُ المُلكَ غَـــيْرُه مَتَى تَنقَضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ يَشْبَعُ!
وأيّ امرئٍ فى غايةٍ ليس نفسه إلى غايةٍ أُخْرَى سِوَاها تَطَلَّعُ!

وله :

سَلِ الأَيَّامَ عَنْ أُمَمٍ تَقَضَّتْ سَتُخْبِرُكَ المَعالِمُ والرُّسُومُ (٣)

---

(١) ديوانه ٢٨٨
(٢) ديوانه ١٤٤
(٣) ديوانه ٢٤٦

تَرُومُ الخُلْدَ فى دارِ التَّفَانى ... وَكَمْ قَدْ رَامَ قَبلَكَ ما تَرُومُ!

لأمْرٍ ما تَصَرَّمَتِ اللَّيــالى ... وأمرٍ ما تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ

تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنكَ المنــايَا ... تَنَبَّهْ لِلْمَنِيَّةِ يا نئومُ!

إلى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّين نَمْضِي ... وَعِنْدَ الله تجتمع الخُصُومُ

***

حسبنا الله وحده، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين.

***

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

فهرس الموضوعات

صفحة

استدراك وتعليق (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	
٥	٤	فى نسختى ا ، ب « يحجم بذكرها » ، والصواب « يجمجم » كما فى نسخة ج ؛ وجمجم بالكلام : لم يبينه .
١٨٥	٢٢	الصواب : « والبأو بالذى حدث لك » ، وتحذف الحاشية رقم (٢) ، وبَأى بنفسه ؛ فخر بها ، ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « فى طلحة بأواء » .
١٨٨	١٣	الصواب : « صَفَق » بالتخفيف ، ويقال : صَفَق على يده ، أى بايعه .
١٩٦	٩	
٢٩٤	١٥	
١٨٩	١٦	تكتب العبارة كما وردت فى الأصول هكذا : « يا عبد الله ما ـ تقول ـ منع قومكم منكم ؟ » ، وكلمة « تقول » هنا بمعنى الظن ، وفى الطبرى ٦ : ٣١ : « أتدرى ما منع قومكم منكم ؟ » .
١٩٣	١٤	ورد « العوام » من أبناء عبد المطلب من هالة بنت وهيب ، وكذا فى جميع الأصول ؛ ويرى السيد مكى السيد جاسم أنها ربما كانت محرفة عن « الغيداق » ، وانظر نسب قريش ١٨ .
١٩٦	١٣	الصواب : « طمار بالزوراء » ، وذكر ياقوت أن الزوراء موضع عند سوق المدينة.

(*) انظر ما سبق فى آخر الجزء الثانى .

الصفحة	السطر	
١٩٩	١٧	فى جميع الأصول: « وضم إلى ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين » ، و يرى السيد مكى السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذى وجدوه ، موجّه إلى عبد الله ابن أبى سرح، لا إلى معاوية .
٢٥٤	١٠	فى ج : « انجزل » ، أى انقسم نصفين .
٢٦٢	٦	« وكان مُجَفِّفا » ، أى ألبس التَّجْفَاف ؛ وهو آلة للحرب توضع على الفرس ، وتحذف الحاشية رقم (١) .
٢٩٦	١٣	تحذف كلمة « فقال » ليستقيم الكلام .
٣٠٧	١	خطبة على بالمدينة .
٣٠٧	١٢	ا : « خشيت الصدور » ، وفى ج : « خشنت » ؛ وهو الأوجه ؛ وخشنت ، أى أوغرت ؛ ومنه قوله عنترة : * وخشنتَ صدراً جيبه لك ناصح *
٣٢٢	٢	الصواب : « والله لا يبخبخ بعدها » ، وفى اللسان (٣ : ٤٨٣) : « والله لا بخبخت بعدها » .
٣٢٣	١٠	« عاقبة محمودة الأثر » يجوز النصب والرفع ، والنصب أفصح .
٣٢٧	١٢	« وإن قيل قاطع » ، يجوز فتح الهمزة وكسرها ؛ انظر التبريزى ١ : ٣٨٠
٣٢٩	١١	صواب كتابة النص كما فى ج : وقال بعض المحدثين : مَنِ اشترى بمالِهِ حُسْنَ الثنا ما غُبِنَا أفقره سَمَاحُهُ وذلك الفقر الغنى

الصفحة	السطر	
٣٣٠	١٢،١١	رواية الديوان للبيت الأول « شآمية تزوى » ، أى تقبض . وللبيت الثانى : « تذاءب منها » ، ويقال : تذاءبت الريح ، إذا جاءت من هنا ومن هنا .

الجزء الثانى

الصفحة	السطر	
٢٤	١	الأفصح : « مُزَّمّل » ، وازمّل الرجل بثوبه ، أى تلفف .
٣٧	١٤	صواب كتابة البيت : ولكِنّ أمراً كان أُبرِم بينَهُمْ ... وإن قال قومٌ فَلْتَةً غير مُبْرَمِ
٤٦	٧	« لخيرٌ له » لغة رديئة ، والأفصح : « خير له » .
١٥١	٤	الصواب : «فتربض به معاوية» ، والتربض : القعود عن النصرة .
١٥٣	١١	صواب العبارة كما فى ج : « ولم تُقِد من نفسك مَنْ ظلمته » ،

تصويبات مطبعية (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
٢٤	١١	أحمد بن يحيى بن جابر	١٧٩	٧	تُقيده
٤٣	١	بشرح	١٧٩	١٨	الأعيسر
٥٤	٩	انضحوا الرحم	١٨٣	٦	سليمان بن عبد الملك
١٠٤	٨،٧	بالتولّد	١٨٣	١٥	لَطَمها
١٢٠	١٧	الراوندى	١٨٦	٣	يغنيه .
١٤١	١	وأهلِه	١٩١	٣	غالبٌ أمْرُه
١٤١	٣	ونصرة الله	١٩١	١٢	فأرضوه
١٤٣	٤	لمعاويةَ	١٩١	١٩	فيولّيها
١٤٦	١٥	لَجْلَج	١٩٢	١١	لا تُرَعْ
١٤٧	١٥	رسول الإمام	١٩٣	١٤	مِسْوَر
٢٤٩	٢	رئيس اليمانية	٢٣٠	٧	كان الزبير
١٤٩	١٤	نَزُرْكَ بجحفل	٢٣٣	١٥	ضجيجُها
١٦٨	٥	لَيْلَهُ	٢٣٤	٩	مُخْرَج
١٧٠	٣	ظلومُ	٢٣٤	١٣	بعضُ
١٧٤	٦	ووَقَم	٢٤٩	٩	من بنى جُمح
١٧٥	١٦	ومعتلقاً	٢٥٠	٦	عُروض
			٢٥٠	٩	أُغلِقَتْ

(*) انظر ما سبق آخر الجزء الثانى .

صفحة	سطر	الصواب
٢٥٠	١٠	فأقرعوا
٢٥٤	٥	حان
٢٥٦	٩	الصبيِّ
٢٥٦	٩، ١٥، ١٦	خِطام
٢٥٧	١٤	فَرِقَ
٢٥٨	٩	وعُظْمُهم
٢٩٧	١٠	يَخُصُّ
٣٠٢	١٤	مجيء من يخلقون
٣٠٦	٤	بَغْيِهم
٣١٦	١١	إلّا شهادةَ
٣٢٠	١٠	الأحنف بن قيس
٣٢٧	٥	أنّك
٣٢٩	١٥	ماقاته
٣٣٥	١٧	شَفَع ، بالتخفيف
٣٣٨	٩	لايقامُ
٣٣٩	١٢	بأخَسِّ
٣٤٢	٣	فُرسان
٣٤٦	٣	أَمَره أن يقبل
٣٤٦	١٠	المستريحِ
٣٤٦	١٢	مالا تعلمون

الجزء الثانى

الصفحة	السطر	الصواب
٣	٥	بسر بن أرطاة
٥	١	خرجتُ
٦	١	لاهتبلتُها
٨	١٢	أَضْعَفْتَ
١٣	٥	فخرج ابنا عبيدالله
١٣	١٤	نُبِّئْتُ
١٣	١٤	صبيَّيْنِ
١٥	١٠	الأجْرِى
١٥	٢١،١١	البكى
١٦	١٢	أغذّ السير
٢٠	١٥	وأغْضَيْتَ
٢٦	٤	منْسُوق
٣٢	٣	وأن تشرَكنا
٣٤	٣	ما ذكر لى
٣٤	٧	أن يثبت
٣٤	١٨	وقوعَها
٣٥	١١	يخرجُ
٣٦	١٧	فى الخبَرِ
٣٧	١٢	واعلم أن
٣٩	١٤	ثم حُمِل
٤١	٥	أيقنت
٤٤	١١	فَصِيل
٥١	١٩	«المقدادَ بن الأسود»
٥٨	١	فشكا
٦٠	٧	سألوه البيعة
٦١	١٢	ووثّقُوا له
٦٣	٥	ياوردان
٦٣	١٦	أمّا علىٌّ
٦٥	٦	عمر بن سعد
٦٦	٣	أخَذْتَ بها
٦٧	٤	لم يُجزْ
٦٧	٥	لم تُحَزْ
٦٧	٧	يُنْتَهَزْ
٩٠	١٠	نُعْظِم
٩٥	١٧	مُوَرَّق
١٢١	٩	بغرْبىٍّ
١٢١	١٦	عبد الرحمن بن عبيد

صفحة	سطر	الصواب
١٢٨	٢	المحدِثينا
١٢٨	٣	وَرَفعِ
١٣٩	٣	لأضيِّقُ
١٤٧	٥	فتلعّب
١٤٧	٨	بذى رأيٍ
١٥٣	١	فَلَمْ يُبَالِ
١٥٣	٢	فوَ كَل (بالتخفيف)
١٤٣	٤	أمَا إنكم
١٥٦	٧	وإن كنت تريد
١٥٦	١١	ونَدَعَك

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

روجع هذا الجزء على النسخ الآتية :

١ – نسخة شرح ابن أبى الحديد ، المصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ (المجموعة الأولى) ، وهى التى رمز لها بالحرف (ا).

٢ – نسخة شرح ابن أبى الحديد المطبوعة فى طهران سنة ١٢٧١ هـ وهى التى رمزلها بالحرف (ب).

٣ – نسخة نهج البلاغة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٤٨٤٠ ـ أدب ، وهى التى رمزلها بـ « مخطوطة النهج » .

٤ – نسخة شرح ابن أبى الحديد ، المصورة عن النسخة الخطية بمكتبة الظاهرية، والمحفوظة برقم (٧٩٠٤ ـ عام) ، والتى رمزلها بالحرف (ج)

وقد وُصفت النسخ الثلاث الأولى فى مقدمة الجزء الأول ووصفت النسخة الرابعة فى مقدمة الجزء الثانى .

والله ولىّ التوفيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

١٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٩
٣٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ — ٦٥٦)

الجزء الرابع

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل الحكيم ، وصلى الله على رسوله الكريم .

***

ومنها [1] فى ذكر يوم النحر وصفة الأضحية :

وَمِنْ تَمَامِ ٱلْأُضْحِيةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ ٱلْأُذُنُ وَٱلْعَيْنُ سَلِمَتِ ٱلْأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ القَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى ٱلْمَنْسَكِ .

***

قال الرضى رحمه الله :

والمَنْسَكُ هاهنا : المَذْبَحُ .

الشَّرْحُ :

الأضحية : مايذبح يوم النحر ، وما يجرى مجراه أيام التشريق من النَّعم . واستشراف أذنها : انتصابها وارتفاعها ، أُذن شَرْفاء أى منتصبة .

والعضباء : المكسورة القرن ، والتى تجرّ رجلها إلى المنْسَك كناية عن العَرْجاء ، ويجوز المنسِك ، بفتح السين وكسرها .

[اختلاف الفقهاء فى حكم الأضحية]

واختلف الفقهاء فى وجُوب الأضحية، فقال أبو حنيفة : هى واجبة على المقِيمين من أهل

(١) تتمة الخطبة الثانية والخمسين ؛ الجزء السابق ص ٣٣٣ .

الأمصار ، ويعتبر في وُجُوبها النصاب ، وبه قال مالك والثوريّ ؛ إلا أن مالكا لم يعتبر الإقامة .

وقال الشافعيّ : الأضحيَة سُنّة مؤكدة ، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد .

واختلفوا في العَمْياء ؛ هل تجزئ أم لا ، فأكثر الفقهاء على أنّها لاتجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك ؛ لأنه قال : إذا سَلِمت العين سلمت الأضحية ، فيقتضي أنّه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحيَة . ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء أجزائها .

وحكى عن بعض أهل الظاهر أنه قال : تُجزئ العمياء .

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضى الله تعالى عنه ، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف " بالمقنعة " : إنّ الصادق عليه السلام سُئِل عن الرّجل يُهْدِي الهدىَ أو الأضحية وهي سمينة ، فيصيبها مرض ، أو تفقأ عينُها أو تنكسر ، فتبلغ يوم النحر وهي حية : أتجزئ عنه ؟ فقال : نعم .

فأما الأذن ، فقال أحمد : لايجوز التضحية بمقطوعة الأذن ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك . وقال سائر الفقهاء : تجزئ ، إلا أنه مكروه .

وأما العضْباء ، فأكثر الفقهاء على أنها تجزئ ، إلا أنه مكروه ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِي ذلك ، وكذلك الحكم في الجَلْحاَء ؛ وهي التي لم يخلق لها قَرْن ، والقَصْماء ، وهي التي انكسر غلاف قَرْنها ، والشرقاء: وهي التي انثقبَ أذنها من الكَيّ ، والخرقاء ، وهي التي شُقت أذنها طولا .

وقال مالك : إن كانت العَضْباء يخرج من قرنها دم لم تجزئ .

وقال أحمد والنخعيّ : لا تجوز التضحية بالعَضْباء .

فأما العرجاء التى كنى عنها بقوله: « تجرّ رجلَها إلى المنسَك » ؛ فأكثر الفقهاء على أنها لاتجزئ ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضى أنها تجزئ . وقد نقل أصحاب الشافعى عنه فى أحد قوليه : أن الأضحية إذا كانت مريضة مرضا يسيرا أجزأت .

وقال الماوردىّ من الشافعيّة فى كتابه المعروف بـ « الحاوى » : إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلْقةً أجزأت ، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزئ .

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر البيعة :

الأَصْـلُ :

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الهِيمِ يَوْمَ وِرْدِها ، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا ، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا ؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قاتِلِيَّ ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَىَّ . وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَه حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ ، فَما وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عَلَيْهِ وآله ؛ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ القِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ العِقَابِ ، وَمَوْتَاتُ الدُّنيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ .

الشَّـرْحُ :

تداكُّوا : ازدحموا . والهيم : العِطاش . ويوم وِرْدها : يوم شربها المـاء . والمثانى : الحِبال ، جمع مَثناة ومِثناة ، بالفتح والـكسر ، وهو الحبل .

وجهاد البُغاة واجب على الإمام ، إذا وجد أنصارا ، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب ، واستحقّ العقاب .

فإن قيل : إنه عليه السلام قال : « لم يسعنى إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله » ؛ فـكيف يكون تارك الواجِب جاحداً لما جاء به النبى صلى الله عليه وآله ؟

قيل : إنه فى حكم الجاحد ؛ لأنه مخالف وعاصٍ ؛ لاسيما على مذهبنا فى أنّ تارك الواجب يخلَّد فى النار وإن لم يجحد النبوة .

[بيعة علىّ وأمر المتخلفين عنها]

اختلف الناس فى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، فالذى عليه أكثرُ الناس وجمهورُ أرباب السِّيَر أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعيْن غير مكرهيْن ، ثم تغيرت عزائمهما ، وفسدت نياتهما ، وغدرًا به .

وقال الزبيريون ، منهم عبدُ الله بن مصعب ، والزبير بن بكّار وشيعتهم ، ومَنْ وافق قولَهم من بنى تَيْم بن مرة ، أرباب العصبية لطلحة : إنهما بايعاً مكرهيْن ، وإنّ الزبير كان يقول : بايعتُ واللُّجّ على قَفَىّ ، واللُّجّ سيف الأشتر ، وقفىّ لغة هُذَليّة ؛ إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء ، وأدغموا إحدى الياءين فى الأخرى ؛ فيقولون : قد وافق ذلك هوىّ ، أى هوَاىَ ، وهذه عصىّ ، أى عصاىَ .

* * *

وذكر صاحبُ كتاب " الأوائل " أنّ الأشتر جاء إلى علىّ عليه السلام حين قتل عثمان ، فقال : قم فبايع الناس ، فقد اجتمعوا لك ، ورغِبُوا فيك ؛ والله لئن نَكَلْتَ عنها لتعصِرَنّ عليها عينيك مرة رابعة ، فجاء حتى دخل بئر سكن ، واجتمع الناس ، وحضر طلحة والزُّبَيْرُ ، لايشكّان أنّ الأمر شورى ، فقال الأشتر : أتنتظرون أحداً ! قم ياطلحة فبايع ، فتقاعس ، فقال : قم يابن الصَّعْبة — وسلّ سيفه — فقام طلحة يجرّ رجله ؛ حتى بايع ، فقال قائل : أولُ مَنْ بايعه أشلّ ، لا يتم أمره ، ثم لايتمّ ، قال : قم يازبير ، والله لاينازع أحد إلا وضربت قُرْطَه بهذا السيف ، فقام الزبير فبايع ؛ ثم انثال الناسُ عليه فبايعوا .

وقيل : أولُ مَنْ بايعه الأشتر ، ألقى خَمِيصَةً كانت عليه ، واخترطَ سيفه ، وجذَب يد علىّ عليه السلام فبايعه : وقال للزبير وطلحة : قوما فبايعا ؛ وإلا كنتما الليلة عند عثمان ، فقاما يعثران فى ثيابهما ، لايرجوان نجاةً ، حتى صَفَقا بأيديهما على يده ، ثم قام بعدهما البصريون ؛

وأولهم عبد الرحمن بن عديس البلوىّ ، فبايعوا . وقال له عبد الرحمن :

خُذْهَا إليكَ واعْلَمَنْ أبا حَسَنْ   أنَا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ

وقد ذكرنا نحن فى شرح الفصل[1] الذى فيه أن الزبير أقرّ بالبيعة ، وادّعى الوليجة : أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة ، أولهم طلحة والزبير ، وذكرنا فى ذلك مايبطل رواية الزبير .

وذكر أبو مخنف فى كتاب " الجمل " أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لينظروا مَنْ يولّونه أمرَهم ، حتى غَصّ المسجدُ بأهله ، فاتفق رأىُ عمار وأبى الهيثم بن التَّيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبى أيوب خالد بن يزيد ، على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام فى الخلافة ، وكان أشدَّهم تهالكا عليه عمار ، فقال لهم : أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه ، وأنتم على شَرَف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإنّ عليا أوْلَى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته ، فقالوا : رضينا به حينئذ ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين : أيّها الناس ، إنا لن نألوَكم خيرا وأنفسَنا إن شاء الله ، وإن عليا مَنْ قد علمتم ، وما نعرف مكانَ أحد أحْمَل لهذا الأمر منه ، ولا أوْلَى به . فقال الناس بأجمعهم : قد رضِينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل ، وقاموا كلّهم ، فأتَوْا عليا عليه السلام ، فاستخرجوه من داره ، وسألوه بَسْط يده ، فقَبَضها فتداكُّوا عليه تداكَّ الإبل الهِيم على وِرْدها ، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضا ؛ فلما رأى منهم مارأى ، سألهم أن تكونَ بيعتُه فى المسجد ظاهرة للناس . وقال : إن كرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر .

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد ، فكان أوّل من بايعه طلحة . فقال قبيصة بن ذؤيب الأسدىّ : تخوفت ألّا يتم له أمرُه ، لأنّ أول يد بايعته شَلّاء ، ثم بايعه الزبير ،

(١) الجزء الأول ص ٢٣٠ ، الوليجة : الأمر يسر ويكتم .

و بايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وسعد ابن أبي وقاص ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام .

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر ، فقال له : بايع ، قال : لا أبايع حتى يبايعَ جميعُ الناس ، فقال له على عليه السلام : فأعطنى حَميلا ألّا تبرح ، قال : ولا أعطيك حَميلا ، فقال الأشتر : ياأمير المؤمنين ؛ إنّ هذا قد أمِنَ سوطك وسيفك ، فدعْنى أضرب عنقَه ، فقال : لست أريد ذلك منه على كُرْه ، خلُّوا سبيله ، فلما انصرف قال أمير المؤمنين : لقد كان صغيراً وهو سيىء الخلق ، وهو فى كِبَره أسوأ خُلُقا .

ثم أتى بسعد بن أبى وقّاص ، فقال له بايع ، فقال : ياأبا الحسن خلّنى ، فإذا لم يبق غيرى بايعتُك ، فوالله لايأتيك مِنْ قِبَلِي أمر تكرهه أبدا ، فقال : صدق ، خلُّوا سبيلَه .

ثم بعث إلى محمد بن مسلمة ، فلما أتاه قال له : بايع ، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَنى إذا اختلف الناسُ وصاروا هكذا — وشبك بين أصابعه — أن أخرج بسيفى فأضرب به عُرض أحد فإذا تقطّع أتيتُ منزلى ، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيَنى يد خاطية ، أو منيّة قاضية . فقال له عليه السلام : فانطلق إذاً ، فكن كما أمِرْت به .

ثم بعث إلى أسامة بن زيد ، فلما جاء قال له : بايع ، فقال : إنى مولاك ولا خلافَ منى عليك ، وستأتيك بيعتى إذا سكن الناس . فأمره بالانصراف ، ولم يبعث إلى أحد غيره .

وقيل له : ألا تبعث إلى حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن سلام ! فقال : لاحاجةَ لنا فيمن لاحاجةَ له فينا .

فأما أصحابُنا فإنهم يذكرون فى كُتُبهم أنّ هؤلاء الرهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به

لما ندبهم إلى الشخوص معه لحرب أصحاب الجمل ، وأنهم لم يتخلفوا عن البَيْعة ، و إنما تخلّفوا عن الحرب .

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى فى كتاب " الغرر " أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار ، قال لهم : ما كلّ مفتون يعاتَب ، أعندكم شكّ فى بيعتى ؟ قالوا : لا ، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم . وأعفاهم من حضور الحرب .

فإن قيل : رويتم أنه قال : إن كَرِهَنى رجل واحد من الناس لم أدخل فى هذا الأمر ، ثم رويتم أنّ جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم .

قيل : إنما مراده عليه السلام أنّه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضتُ يدى عن الأمر ولم أدخل فيه ، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة ، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر و يتركه ؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة ، و إذا ثبتت لم يجز له تركها .

وروى أبو مخنف عن ابن عباس ، قال : لما دخل علىّ عليه السلام المسجدَ ، وجاء الناس ليبايعوه خِفْتُ أن يتكلّم بعض أهل الشنآن لعلىّ عليه السلام ممن قتل أباه أوأخاه، أو ذا قرابته فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيزهد علىّ فى الأمر و يتركه ، فكنت أرصُد ذلك وأتخوّفه ، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غيرَ مكرهين .

* * *

لما بايع الناس عليا عليه السلام ، وتخلّف عبد الله بن عمر ، وكلّمه على عليه السلام فى البيعة فامتنع عليه ، أتاه فى اليوم الثانى ، فقال : إنى لك ناصح ، إنّ بيعتَك لم يرض بها كلهم ، فلو نظرت لدينك ورددْت الأمر شورى بين المسلمين ! فقال على عليه السلام : و يحك! وهل ما كان عن طلب منى له ! ألم يبلغْك صَنِيعُهم ؟ قم عَنّى ياأحمق ، ما أنت وهذا الكلام!

فلما خرج أتى عليا فى اليوم الثالث آتٍ ، فقال : إنّ ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك ، فأمر بالبَعْث فى أثره ، فجاءت أمُّ كلثوم ابنته ، فسألته وضرِعت إليه فيه ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها ، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن ، وطلبت إليه أن يقبل شفاعَتها فى أمره ؛ لأنه ابنُ بعلها . فأجابها وكفّ عن البَعثة إليه ، وقال : دعوه وما أراده .

(٥٤)

ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم فى القتال بصفين :

الأَصْلُ :

أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَ كُلَّ ذَٰلِكَ كَرَاهِيَةَ ٱلْمَوْتِ! فَوَاللهِ مَا أُبَالِي ؛ دَخَلْتُ إِلَى ٱلْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ ٱلْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا فِي أَهْلِ ٱلشَّامِ! فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ ٱلْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وَذَٰلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا.

* * *

الشَّرْحُ :

من رواه : « أَ كُلَّ ذلك» بالنصب فمفعول فعل مقدر ، أى تفعل كلَّ ذلك، وكراهية منصوب لأنه مفعول له . ومن رواه «أَ كُلُّ ذلك» بالرفع أجاز فى «كراهية» الرفع والنصب، أما الرفع فإنه يجعل « كلّ » مبتدأ ، وكراهية خبره ؛ وأما النصب فيجعلها مفعولًا له كما قلنا فى الرواية الأولى ، و يجعل خبر المبتدأ محذوفا ،تقديره : أ كل هذا مفعول ! أو تفعله كراهية للموت ! ثم أقسم أنه لا يبالى أتعرّض هو للموت حتى يموتَ أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرّض له .

وعشا إلى النار يَعْشُو : استدلّ عليها ببصر ضعيف ، قال :

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خيرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ [1]

---

(١) للحطيئة ، ديوانه ٢٥

وهذا الـكلام استعارة ، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشو ليلا إلى النار ؛ وذلك لأن بصائرَ أهل الشام ضعيفة ؛ فهم من الاهتداء بهـداه عليه السلام كمن يعشُو ببصرٍ ضعيف إلى النار فى الليل ، قال : ذاك أحبّ إلىّ من أن أقتلهم على ضلالهم ، و إن كنتُ لو قتلتهم علىهذه الحالة لباءوا بآثامهم ، أى رجعوا ، قال سبحانه: ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [1] أى ترجع .

[من أخبار يوم صفين]

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة ، رجاء أن يعطفوا إليه ، واستمالةً لقلوبهم و إظهـارا للمعدلة وحسن السيرة فيهم ، مكث أياما لايُرسِل إلى معاوية ، ولا يأتيه مِنْ عند معاوية أحدٌ ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم فى القتال ، وقالوا : ياأميرَ المؤمنين خَلَّفْنا ذراريَّنا ونساءنا بالـكوفة ، وجئنا إلى أطراف الشام لنتّخذها وطنا ، ائذن لنافى القتال ، فإنّ الناس قد قالوا . قال لهم عليه السلام: ماقالوا؟ فقال منهم قائل: إنّ الناس يظنون أنّك تـكرهُ الحرب كراهيةً للموت ، و إن من الناس من يظن أنّك فى شكٍّ مِنْ قتال أهلِ الشام . فقال عليه السلام : ومَتَى كنت كارها للحرب قطّ ! إنّ من العجب حُبِّى لها غلاما ويَفَعا ، وكراهيتى لها شيخا بعد نفادِ العمر وقرب الوقت . وأما شـكِّى فى القوم فلو شـككت فيهم لشـككتُ فى أهل البصرة ، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً ، فما وجدت يسعُنى إلا القتال أو أن أعصىَ الله ورسوله ، ولـكنى أستأنى بالقوم ، عسى أن يهتدوا أو تهتدى منهم طائفة ، فإن

---

(١) سورة المائدة ٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى يوم خيبر : لأنْ يهدىَ الله بك رجلا واحداً خير لك مِمّا طلعت عليه الشمس .

* * *

قال نصر بن مزاحم : حدثنا[١] محمد بن عبيدالله عن الجرجانى ، قال : فبعث علىّ عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصارى ، وسعيد بن قَيْس الهَمْدانِىّ وشَبَث ابن الرِّبْعى التميمىّ ، فقال : ائتوا هـذا الرجل ، فادعوه [إلى الله عز وجلّ ، و][٢] إلى الطاعة والجماعة ، وإلى اتباع أمر الله سبحانه . فقال له شَبَث : ياأمير المؤمنين ، ألا تطمِعُه فى سلطان تولّيه إياه ، ومنزلةٍ يكون له بها أُثْرَةٌ عندك إن هو بايعك ؟ فقال : ائتوه الآن والقَوْه واحتجّوا عليه ، وانظروا مارأْيُه فى هذا[٣] .

فأتوه فدخلوا عليه ، فحمِد أبو عمرو بن مِحْصَن اللهَ وأثنى عليه ، وقال : أمّا بعد يامعاوية فإن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن اللهَ مجازِيك بعملِك ومحاسبُك بما قدَّمتْ يداك ، وإنّنى أنشدُك الله ألّا تفرّق جماعةَ هذه الأمة ، وألّا تسفِك دماءها بينها . فقطع معاويةُ عليـه الـكلامَ وقال : فهلاّ أوصيتَ صاحبك ! فقال : سبحان الله ! إنّ صاحبى لايوصَى ، إنّ صاحبى ليس مِثْلَك ، صاحبى أحقّ الناس بهـذا الأمر فى الفضلِ والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول ! قال معاوية : فتقول ماذا ؟ قال : أدعوكَ إلى تقوى ربّك ، وإجابة ابنِ عمك إلى ما يدعُوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخـير لك فى عاقبة أمرك . قال : ويُطَلّ دم عثمان ! لا والرحمنِ لاأفعل ذلك أبدا .

---

(١) صفين ٢٠٩
(٢) تكملة من صفين .
(٣) صفين : « وانظروا مارأيه — وهذا فى شهر ربيع الآخر — فأتوه » .

فذهب سعيد بن قيس يتكلّم ، فبدره شَبَث بن الرِّبعىّ ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال: يامعاوية ، قد فهمتُ ماردَدْت على ابن مِحْصَن ؛ إنه لا يخفى علينا ما تقرّ وما تطلب، إنك لاتجدُ شيئا تستغوِى به الناس ، ولا شيْئاً تستميل به أهواءهم ؛ وتستخلِص به طاعتهم إلا أن قُلْتَ لهم : قُتِل إمامُكم مظلوما ، فهلمّوا نطلب بدمه ؛ فاستجاب لك سفهاء طَغام رُذَال ، وقد علمنا أنّك أبطأتَ عنه بالنّصر ، وأحببت له القتل ؛ لهذه المنزلة التى تطلب ؛ وربّ مبتغٍ أمراً ، وطالبٍ[1] له يحولُ الله دونه ، وربّما أوتى المتمنّى أمنيّتَه ، وربما لم يُؤتها، ووالله مالَكَ فى واحدة منهما خير ؛ والله لئن أخطأك ما ترجُو إنّك لَشرُّ العرب حالا ، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبُه حتَّى تستحقَّ صَلَى النار ؛ فاتق الله يامعاوية ، ودَعْ ماأنتَ عليه، ولا تنازِع الأمر أهلَه .

فحمِد معاوية الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعد ؛ فإنّ أولَ ما عرفتُ به سفهك وخفّة حِلْمك قطعُك على هذا الحسيب الشريف سيِّد قومه منطقه . ثم عتبتَ بعدُ فيما لاعلم لك به ، ولقد كذَبت ولَؤُمت[2] أيها الأعرابىّ الجِلْف الجافى فى كلّ ماوصفت [وذكرت][3] . انصرفوا من عندى ؛ فإنّه ليس بينى و بينكم إلا السيف .

وغضب . فخرج القوم وشَبَث يقول : أعلينا تُهوّل بالسيف ! أما والله لنعجلَنّه إليك، [فأتوا عليا عليه السلام ، فأخبروه بالذى كان من قوله ، وذلك فى شهر ربيع الآخر][3]

قال نصر : وخَرَج قراء أهلِ العِراق ، وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صِفّين فى ثلاثين ألفا .

---

(١) صفين : « وطالبه » .

(٢) صفين : « ولويت » .

(٣) تكملة من صفين .

قال : وعسكر على عليه السلام على الماء ، وعسكر معاوية فوقه على الماء أيضا ، ومشت القُرّاء فيما بين على عليه السلام ومعاوية ، منهم عَبيدة السّلمانىّ ، وعلقمة بن قَيْس النَّخَعِىّ ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد القيس — وقد كان فى بعض تلك السواحل — فانصرف إلى عسكر على عليه السلام ؛ فدخلوا على معاوية فقالوا : يامعاوية ، ماالذى تطلب ؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قالوا : ممّن تطلب بدم عثمان ؟ قال : أطلبه من علىّ ، قالوا : وعلىّ قتله ؟ قال : نعم هو قتله ، وآوى قَتلته ، فانصرفوا من عنده فدخلوا على علىّ عليه السلام ، فقالوا : إن معاوية يزعُمُ أنك قتلت عثمان ، قال : اللهمّ لَكَذَب فيما قال . لم أقتله .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه ، فقال لهم : إنه إن لم يكن قَتَله بيده فقد أمر ومالأ ، فرجعوا إلى على فقالوا : إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلتَ بيدك ، فقد أمرت ومالأت على قَتْل عثمان ، فقال : اللهم لَكَذَب فيما قال ، فرجعوا إلى معاوية ، فقالوا : إنّ عليا يزعم أنّه لم يفعل ، فقال معاوية : إن كان صادِقا فليُقِدْنا [1] من قَتلةِ عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعَضُده . فرجعوا إلى على عليه السلام ، فقالوا . إنّ معاويةَ يقول لك : إنْ كنتَ صادقا فادفع إلينا قَتَلة عثمان أو مكِّنّا منهم ، فقال لهم . إنّ القوم تأوّلوا عليه القرآن ، ووقعت الفرقة ، فقتلوه فى سلطانه ، وليس على ضَرْبهم قَوَد ؛ فخَصَمَ [2] علىّ معاوية .

* * *

قلت : على ضَرْبهم هاهنا على مثلهم : يقال : زيدٌ ضَرْب عمرو ، ومِنْ ضَرْبه أى مِثله ومِنْ صِنْفه ، ولا أدرى لم عَدَل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام ؛ وهو أنْ يقول : إنّ الذين باشروا قتله بأيديهم ؛ كانوا اثنين وهما قُتيرة بن وهب وسُودان ابن حُمران ، وكلاهما قُتِل يوم الدار ، قَتلهما عبيد عثمان ، والباقون الذين هم جندِى وعَضُدى

(١) صفين : « فليمكنا » .

(٢) خصمه ، أى غلبه بالحجة .

كما تزعمون ، لم يقتلوا بأيديهم ؛ وإنما أغرَوْا به ، وحصروه وأجْلَبُوا عليه ، وهَجَمُوا على داره ، كمحمد بن أبى بكر والأشتر وعمرو بن الحمِق وغيرهم ؛ وليس على مثل هؤلاء قَوَد .

قال نصر : فقال لهم معاوية إنْ كان الأمرُ كما تزعمون ؛ فلِمَ ابتزَّ الأمْرَ (١) دوننا على غير مشورة مِنّا ولا ممن هاهنا معنا ؟ فقال على عليه السلام : إنّ الناس تَبَع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود للمسلمين فى البلاد على ولاتهم وأمراء دينهم ، فرضُوا بى وبايعونى ، ولست أستحلّ أن أدع ضَرْب (٢) معاوية يحكُم بيده على الأمة ويركبهم ويشُقُّ عصاهم .

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك ، فقال : ليس كما يقول ، فما بالُ مَنْ هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر ويؤامِروا فيه (٣) .

فانصرفوا إلى علىّ عليه السلام، فأخبروه بقوله ، فقال : وَيْحكم ! هذا للبدريين دون الصحابة ، ليس فى الأرض بَدْرِىّ إلا وقَدْ بايعنى وهو معى ، أو قد قام ورَضِىَ ، فلا يغرّنّكم معاوية من أنفسكم ودينكم .

قال نصر : فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر : ربيع الآخر ، وجُمادَيَيْن ؛ وهم مع ذلك يَفزَعون الفَزْعة فيما بينهما ، فيزحف بعضهم إلى بعض ، وتحجز القرّاء بينهم .

قال : فزعوا فى ثلاثة أشهر خمسا وثمانين فَزْعة؛ كلُّ فزعة يزْحَفُ بعضهم إلى بعض ، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال .

قال نصر : وخرَج أبو أمامة الباهلىّ وأبو الدرداء ، فدخلا على معاوية وكانا معه ، فقالا : يامعاوية ، علامَ تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لهو أقدَمُ منك إسلاما (٤) ، وأحقّ بهذا

---

(١) صفين : « فلِمَ ابتز الأمر دوننا » ؟

(٢) ضرب معاوية : شبيهه .

(٣) المؤامرة : المشاورة ، وفى صفين : « فيؤامروه » .

(٤) صفين : « سلما » ، وهما بمعنى .

الأمر ؛ وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فعلام تقاتله ! فقال : أقاتله على دَمِ عثمان ، وأنه آوى قَتلته ، فقولوا له : فَلْيُقِدْنا مِنْ قتلته وأنا أول من بايعه من أهل الشام .

فانطلقوا إلى على عليه السلام فأخبروه بقول معاوية ، فقال : إنما يطلب الذين تَرَوْن ، فخرج عشرون ألفا أو أكثر متسربلين الحديد ؛ لايُرى منهم إلا الحدَق ، فقالوا : كُلّنا قتله ؛ فإن شاءوا فَلْيَرُوموا ذلك منا. فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهَدا شيئاً من القتال.

قال نصر : حتى إذا كان رجب ، وخَشِي معاوية أن يتابع القرّاء عليًّا عليه السلام ، أخذ فى المكر ، وأخذ يحتال للقراء لكيما يُحجموا ويكفُّوا حتى ينظروا .

قال : فكتب فى سهم : مِنْ عبد الله الناصح ؛ إنى أخبركم أنّ معاوية يريد أن يُفَجِّر عليكم الفرات فيغرِقكم ، فخذوا حذركم . ثم رمى بالسهم فى عسكر علىّ عليه السلام ، فوقع السهم فى يَدِ رجل ، فقرأه ثم أقرأه صاحبَه ؛ فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَنْ أقبل وأدبر، قالوا : هذا أخ لنَا ناصح ؛ كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية ؛ فلم يزل السَّهْم يُقرأ ويرتفع حتى رُفع إلى على عليه السلام ؛ وقد بعث معاوية مائتى رجل من العَمَلة إلى عاقول[1] من النهر ، بأيديهم المرور والزّبُل[2] يحفرون فيها بحيال عسكر على عليه السلام . فقال علىّ عليه السلام : ويحكم ! إن الذى يعالج معاوية لايستقيم له ، ولا يقوى عليه؛ إنما يريد أن يُزِيلكم عن مكانكم ؛ فانتهوا عن ذلك ، فقالوا له : لانَدَعهم والله يحفِرون ، فقال على عليه السلام: لاتكونوا ضَعْفَى ، ويحكم !لاتغلبونى على رأيى . فقالوا : والله لنرتحلنّ ، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم ؛ فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم ملياً ، وارتحل على عليه السلام فى أخريات الناس ، وهو يقول :

---

(١) عاقول النهر : ماعوج منه .

(٢) المرور : جمع مر ؛ وهو المسحاة . والزبل : جمع زبيل وهو القفة .

فَلَوْ أنى أطِعْتُ عصمتُ قومى إلى ركن اليمـامة أو شَمَامِ (١)
ولـكنّى مَتَى أبْرَمْتُ أمراً مُنيتُ بخُلْف آراء الطَّغَامِ

قال : وارتحل معاوية حتى نزل معسكر علىّ عليه السلام الذى كان فيه ، فدعا علىّ عليه السلام الأشتر ، فقال : ألم تغلبنى على رأيى (٢) أنت والأشعث ! فدونكما . فقال الأشعث : أنا أكفيك ياأمير المؤمنين ، سأداوى ماأفسدتُ اليوم من ذلك ، فجمع كِنْدة فقال لهم : يامعشر كِنْدة ، لاتفضحونى اليوم ولا تُخزونى ؛ فإنى إنما أقارع بكم أهل الشام ، فخرجوا معه رجّالة يمشون ، و بيده رمح له يلقيه على الأرض ، ويقول : امشوا قَيْد رمحى هذا ، فيمشون، فلم يزل يَقِيس لهم الأرض برمحه ، ويمشون معه رَجّالة حتى لَقِىَ معاويةَ وسط بنى سُلَيْم واقفا على الماء ، وقد جاءه أدانى عسكره ، فاقتتلوا قتالا شديدا على الماء ساعة ، وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا ، وأقبل الأشتر فى خَيْل من أهل العراق ، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب فى ناحية أخرى؛ فانحاز معاوية فى بنى سُلَيم ، فردّ وجوه إبله قدر ثلاث فراسخ ، ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم ، والأشعث يهدِرُ ويقول : أرضيتك ياأمير المؤمنين ! ثم تمثل بقول طَرَفة بن العبد :

فِدًا لبَنِى سَعْـــد عَلَى مَا أصاب الناس من خَيْرٍ وَشَرْ (٣)
ما أقلّتْ قدماى إنهم نِعِمَ الساعونَ فى الحىّ الشُّطُرْ (٤)
وَلَقَـــدْ كُنْتُ عليكم عاتباً فعقَبْتُم بذنوب غَــيْر مُرْ (٥)

---

(١) صفين : « عصبت قومى » . وشمام : جبل لباهلة .

(٢) صفين : « على رائى » ، والرائى والرأى بمعنى .

(٣) ديوانه ٧٢ وروايته : « لبنى قيس . . . من سر وضر »

(٤) الشطر : جمع شطير ؛ وهو الغريب البعيد

(٥) عاتبا : واجدا ، وعقبتم ، أى جدتم عقب ذلك . ومر : نقيض حلو ؛ قال شارح الديوان : « أى عقبتم عتبى عليكم بعطاء حلو » .

كنت فيكم كالمغطِّى رأسَه   فانجلَى اليوم قِناعى وَخُمُرْ[1]
سادراً أحسب غيِّ رَشَـــداً   فتناهيتُ وقد صابت بِقُرْ[2]

وقال الأشتر : ياأمير المؤمنين ؛ قد غلب الله لك على الماء ، فقال على عليه السلام : أنتما كما قال الشاعر :

تلاقِينَ قَيْساً وأشياعَهُ   فيُوقد لِلْحَــرْب ناراً فنارَا
أَخُو الحرب إن لَقِحَتْ بازِلًا   سَمَا للعلا وأجل الخِطارا[3]

قال نصر : فكان كلّ واحدٍ من علىّ ومعاوية يُخرِج الرجلَ الشريفَ فى جماعة ، فيقاتل مثله ؛ وكانوا يكرهون أن يتزاحفُوا بجميع الفَيْلق مخافة الاستئصال والهلاك ، فاقتتل الناسُ ذَا الحجة كلّه ، فلما انقضَى تداعوْا إلى أن يكفّ بعضُهم عن بعض ، إلى أن ينقضىَ المحرّم ؛ لعلّ الله أن يُجرِى صلحا أو إجماعا ، فكفّ الناس فى المحرّم بعضُهم عن بعض .

* * *

قال نصر : حدثنا عمر بن سعد ، عن أبى المجاهد عن المحلّ بن خليفة ، قال[4] : لما توادَعُوا فى المحرّم ، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصُّلْح ، فأرسل علىّ عليه السلام إلى معاوية عدىّ بن حاتم الطائىّ وشَبَث بن ربعىّ التميمىّ ويزيد بن قَيْس وزياد ابن خَصَفة ، فلما دخلوا عليه ، حَمِد الله تعالَى عدىّ بن حاتم الطائىّ وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّا أتيناك لندعوَك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتنا وأمّتنا ، ويحقِن به دماء

---

(١) المغطى : اسم فاعل من التغطية وانجلى : انكشف . وخمر : جمع خمار .
(٢) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صنع . وتناهيت ، أى انتهيت من سفهى
(٣) البعير البازل : الذى طعن فى التاسعة ، والخطار : المخاطرة .
(٤) صفين ٢٢١ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٣

المسلمين . ندعُوك إلى أفضلِ النّاس سابقة ، وأحسنِهم فى الإسلام آثارا ؛ وقد اجتمع إليه [١] الناس ، وقد أرشدهم الله بالذى رَأَوْا وأتوا ، فلم يبق أحدٌ غيرُك وغيرُ مَنْ معك ؛ فانته يامعاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

فقال له معاوية : كأنّك إنما جئت مُهَدّدا ، ولم تأت مصلحا ، هيهات ياعدىّ ! إنى لابنُ حرب ! ما يُقعْقَعُ لى بالشِّنان [٢] أما والله إنك من المجلبين على عثمان ، وإنّك لَمِنْ قتلته ؛ وإنّى لأرجو أن تكون ممن يقتُله الله .

فقال له شَبَث بن رِبعىّ ، وزياد بن خَصَفة ، وتنازعا كلاما واحدا : أتيناك فيما يصلِحنا وإياك ، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال ؛ دع ما لا ينفعُ من القول والفعل ؛ وأجِبْنا فيما يعمّنا وإياك نفعُه .

وتكلّم يزيد بن قيس الأرحبىّ ، فقال : إنا لم نأتِك إلا لنبلّغك مابعثنا به إليك ، ولِنُؤدِّىَ عنك ماسمعنا منك ؛ ولم نَدَعْ أن ننصح لك : وأن نذكر ماظننا أن لنا عليك به حُجّة ، أو أنه راجع بك إلى الألفة والجماعة إنّ صاحبَنا مَنْ قد عَرَفْتَ وعرف المسلمون فضلَه ، ولا أظنه يخفى عليك ؛ إنّ أهلَ الدين والفضل لا يعدِلُونك بعلىّ ، ولا يميّلون [٣] بينك وبينه ، فاتق الله يامعاوية ولا تخالف عليا ؛ فإنا والله ما رأينا رجلا قطّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلِّها منه .

فحمِد الله معاوية وأثنى عليه ؛ وقال : أما بعد ، فإنّكم دعوتم إلى الجماعة والطاعة ؛ فأمّا الجماعة التى دعوتُم إليها فنِعِمّا هى ! وأما الطاعة لصاحبكم ؛ فإنا لا نراها ؛ إنّ صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقَتَلتنا ؛ وصاحبكم يزعُم أنه لم يقتله ؛ فنحن

---

(١) صفين : « اجتمع له الناس » . الطبرى : « استجمع له الناس » .

(٢) الشنان : جمع شن ؛ وهو القربة الخلق ؛ كانوا يحركونها للابل إذا أرادوا حثها على السير ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) التمييل : الترجيح بين الشيئين .

لا نردّ ذلك عليه أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا ! ألستُم تعلمون أنّهم أصحابُ صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلْنقتلهم به ؛ ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شَبَث بن ربعيّ : أيسرّك بالله يامعاوية ، أنْ أمكِنْت من عمار بن ياسر فقتلته ! قال : وما يمنعُنى من ذلك ؛ والله لو أمكننى صاحِبُكم من ابن سُمَيّة ماقتلته بعثمان ؛ ولكنى كنت أقتله بنائل مولى عثمان !

فقال شَبَث : وإله السماء ماعَدَلْتَ معدِلا ، ولا والذى لاإله إلا هو ؛ لاتصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُنْدَرَ الهامُ عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرضُ الفضاء عليك برُحبها .

فقال معاوية : إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيق .

ثم رجع القوم عن معاوية ، فبعث إلى زياد بن خَصَفَة من بينهم ، فأدخل عليه ، فحمِد معاوية الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ياأخا ربيعة ؛ فإنّ عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلةَ صاحبنا ؛ وإنّى أسألك النُّصرة بأسرتك وعشيرتك ؛ ولك علىّ عهدالله وميثاقه إذا ظهرت أن أولِّيك أىّ المصرين أحببت .

قال أبو المجاهد : فسمعت زياد بن خَصفة يحدث بهذا الحديث .

قال : فلما قضى معاوية كلامه ، حَمِدت الله وأثنيت عليه ، ثم قلت : أما بعدُ ؛ فإنّى لَعَلَى بينةٍ من ربى وبما أنعم عَلَىّ ؛ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ؛ ثم قمت .

فقال معاوية لعمرو بن العاص — وكان إلى جانبه — : مالهم عَضَبهم الله ! ماقلبهم إلا قلب رجل واحد !

* * *

قال نصر : وحدثنا سليمان بن أبى راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود ،

قال[1]: بعث معاوية حبيب بن مَسْلمة الفِهْرىّ إلى على بن أبى طالب عليه السلام ، و بعث معه شُرَحْبيل بن السِّمط ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمىّ ، فدخلوا على علىّ عليه السلام فتكلّم حبيب بن مسلمة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعدُ فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ويُنيب إلى أمر الله ، فاستثقلتُم حياته ، واستبطأتم وفاته . فعدوْتم عليه فقتلتموه ؛ فادفع إلينا قتلَة عثمان نقتلهم به ؛ فإن قلت : إنكَ لم تقتله فاعتزل أمرَ الناس ، فيكونَ أمرُهم هذا شورى بينهم ، يولِّى الناس أمرَهم مَنْ أجمع عليه رأيهم .

فقال له علىّ : وما أنت لاأمّ لك ! والولايةَ والعزلَ والدخول فى هذا الأمر . اسكت فإنّك لست هناك ، ولا بأهلٍ لذاك . فقام حبيب بن مسلمة ، وقال : أما والله لتريَنّى حيثُ تكره . فقال له عليه السلام : وما أنتَ ! ولو أجْلَبْت بخَيْلك ورَجِلك . اذهب فصوّب وصعّد مابدا لك ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت !

فقال شُرَحْبِيل بن السِّمط : إنْ كلمتك ، فلعَمْرِى ما كلامى لك إلا نحو كلام صاحبى ، فهل لى عندك جواب غير الجواب الذى أجبتَه به ؟ [2] فقال : نعم ، قال : فقله[2] ؛ فحمد الله على عليه السلام ، وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ فإنّ الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه فأنقذ به من الضّلالة ، و نَعش[3] به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرْقة ، ثم قَبَضَه الله إليه ؛ وقد أدّى ما عليه ؛ فاستخلف النَّاس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ؛ فأحْسَنا السيرة ، وعَدَلا فى الأمّة ؛ ووجَدْنا

---

(١) وقعة صفين ٢٢٥ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٤

(٢-٢) وقعة صفين : « فقال على عليه السلام : عندى جواب غير الذى أجبته به ، لك ولصاحبك » وفى الطبرى : « نعم لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به » .

(٣) الطبرى : « وانتاش به من الهلكة » .

عليهما أن توليا الأمر دوننا ، ونحن آلُ الرسول ، وأحقُّ بالأمر ؛ فغفرنا ذلك لهما . ثم وَلِىَ أمرَ الناس عثمان ، فعمِل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناسٌ فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمرَهم ، فقالوا لى : بايع ، فأبيْتُ عليهم ، فقالوا لى : بايع ، فإنّ الأمة لا ترضَى إلا بك ، و إنا نخاف إنْ لم تفعلْ أن يفترِق الناس ؛ فبايعتُهم فلم يَرُعْنى إلّا شقاق رجلين قد بايعا (١) ، وخلاف معاوية إياى الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلفَ صِدْق فى الإسلام ، طَلِيق ابن طليق ، وحزب من الأحزاب ؛ لم يزَل لله ولرسوله وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلاَ فى الإسلام كارهين مكرهين ، فيا عجبا (٢) لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ؛ وتدعون آل بيت نبيّكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ؛ ولا تعدِلوا بهم أحدا من الناس ؛ إنى أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم ، و إماتة الباطل ، و إحياء معالم الدين ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ولكلّ مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة.

فقال له شُرَحْبِيل ومَعْن بن يزيد : أتشهدُ أنّ عثمان قُتِل مظلوما . فقال لهما : إنّى لا أقول ذلك ؛ قالا : فمَنْ لم يشهد أنّ عثمان قتل مظلوما ، فنحن برآء منه! ثم قاما فانصرفا. فقال على عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنتَ بِهَادِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

ثم أقبل على أصحابه، فقال : لا يكن هؤلاء فى ضلالتهم بأوْلَى بالجدّ منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . ثم مكث النّاسُ متوادعين إلى انسلاخ المحرّم ، فلما انسلخ المحرّم واستقبل الناس صَفَراً من سنة سبع وثلاثين ، بعث علىّ عليه السلام نفَراً من أصحابه ؛ حتى إذا كانوا

---

(١) صفين : « قد بايعانى »

(٢) صفين : « فعجبا لكم » . وفى الطبرى : « فلاغرو إلا خلافكم معه » .

(٣) سورة النمل ٨٠ ، ٨١ .

من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت ، قام مَرْثَد بن الحارث الْجُشَمِيّ ، فنادى عند غروب الشمس : ياأهلَ الشام : إنّ أميرَ المؤمنين عليا وأصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم : إنّا لم نَكُفَّ عَنْكم شَكاًّ فى أمركم ؛ ولا إبقاء عليكم ؛ وإنما كَفَفْنا عنكم لخروج المحرّم ، وقد انسلخ ؛ وإنا قد نَبَذْنا إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

قال : فتحاجز الناس وثارُوا إلى أمرائهم .

***

قال : نصر فأما رواية عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبى الزبير : أنّ نداء مَرْثَد بن الحارث الْجُشَمىّ ، كانت صورته : ياأهلَ الشام ألَا إنّ أميرَ المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمْتُكم واستأنَيْتُ بكم ، لتراجِعوا الحقّ ، وتُنِيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم إليه ، فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حَقّ ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين .

قال : فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم .

قال نصر : وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتّبان الكتائب ، ويُعبِّيَان العساكر ، وأوقدُوا النيران ، وجاءوا بالشموع ، وباتَ على عليه السلام تلك الليلة كلّها ، يعبّى الناس ، ويُكتِّبَ الكتائب ويدور فى الناس ويحرّضهم .

***

قال نصر : حدّثنا عمر بن سعد ، بإسناده عن عبد الله بن جُندب ، عن أبيه أن [١] عليا عليه السلام كان يأمرنا فى كل موطن لقينا معه عدوّه ؛ فيقول :

(١) وقعة صفين ٢٢٩ وتاريخ الطبرى ٦ : ٦

لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ؛ فهِيَ حُجّة أخرى لكم عليهم ؛ فإذا قاتلتموهم فهزمتُموهم فلا تقتلوا مُدبِراً ، ولا تُجهزوا على جَريح ، ولا تكشفوا عَوْرة ، ولا تُمَثّلوا قتيلا ؛ فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتِكوا سِترا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذنى ؛ ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم ، ولا تَهيجوا امرأةً إلا بإذنى ، وإنْ شتَمْنَ أعراضكم ، وتناوَلْنَ أمراءكم وصلحاءكم ؛ فإنهنّ ضِعاف القوى والأنفس والعقول ؛ ولقد كُنّا وإنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وهن مشركات ، وإن كان الرجلُ ليتناول المرأة فى الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعيَّر بها عَقِبه من بعده .

***

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن إسماعيل بن يزيد ـ يعنى ابن أبى خالد ـ عن أبى صادق ، أنّ عليا [١] عليه السلام حَرّض الناس فى حروبه ، فقال :

عبادَ الله ، اتقوا الله وغُضُّوا أبصاركم ، واخفضُوا الأصوات ، وأقلّوا الكلام ، ووطّنوا أنفسكم عَلَى المنازلة والمجاولة والمبارزة والمعانقة ؛ واثبتوا : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢] ؛ ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٣] . اللهم ألهِمْهم الصبر ، وأنزِل عليهم النصر ، وأعظِم لهم الأجر .

***

قال نصر : وكان ترتيب عسكر علىّ عليه السلام ، بموجب ما رواه لنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن محمد بن على ، وزيد بن حسن ، ومحمد بن عبد المطلب [٤] : أنه جعَلَ عَلَى الخيل عمّار بن ياسر ، وعلى الرجّالة عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعىّ ، ودفع اللواء

---

(١) وقعة صفين ٢٣٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٦

(٢) سورة الأنفال آية ٤٥

(٣) سورة الأنفال آية ٤٦

(٤) وقعة صفين ٢٣١

إلى هاشم بن عُتْبة بن أبى وقّاص الزّهرىّ ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس ، وعَلَى الميسرة عبد الله بن العباس ، وجعل عَلَى رَجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد الخزاعىّ ، وعَلَى رَجّالة الميسرة الحارث بن مرة العبدىّ ، وجعل القَلْبَ مُضَر الكوفة والبصرة ، وجعل عَلَى مَيمنة القلب اليمن وعلى ميسرته ربيعة ، وعقد ألوية القبائل ، فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم ؛ وجعلهم رؤساءهم وأمراءهم ، وجعل عَلَى قريش وأسد وكنانة عبد الله بن عباس، وعَلَى كِنْدة حُجْر بن عدىّ الكندىّ ، وعَلَى بَكْر البصرة الحصين بن المنذر الرقاشىّ ، وعَلَى تميم البصرة الأحنف بن قيس ، وعَلَى خُزاعة عمرو بن الحمِق ، وعَلَى بَكْر الكوفة نُعَيْم بن هُبيرة ، وعَلَى سَعْد البصرة ورِبابها جارية بن قُدامة السعدىّ ، وعَلَى بَجِيلة رفاعة ابن شدّاد ، وعلى ذُهْل الكوفة رُوَيْماً الشيبانىّ ، أو يزيد بن رُوَيم ، وعلى عمرو البصرة وحَنْظلَتِها أعْيَن بن ضُبَيْعَة ، وعلى قُضاعة وطيىء عدىّ بن حاتم الطائىّ ، وعلى لهازم الكوفة عبد الله بن حَجَل العجْلىّ ،وعلى تميم الكوفة عُمير بن عطارد ، وعلى الأزْد واليمن جُندَب بن زهير ، وعلى ذُهْل البصرة خالد بن المعمَّر السّدوسىّ ، وعلى عَمرو الكوفة وحَنْظلتها شَبَث بن رِبْعىّ ، وعلى هَمْدان سعيد بن قيس ، وعلى لهازم البصرة حُرَيْث ابن جابر الجعفىّ [(١)] ، وعلى سعد الكوفة ورِبابها الطُّفيل أبا صُرَيْمة ، وعَلَى مَذْحِج الأشتر ابن الحارث النَّخَعِىّ ، وعَلَى عبد القيس الكوفة صَعْصعة بن صُوحان ، وعَلَى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعَلَى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل البَكّائىّ ، [وعَلَى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة ، وعَلَى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشمى] [(٢)] وعَلَى قيس البصرة قبيصة بن شدّاد الهلالىّ ، وعَلَى اللفيف من القواصى القاسم بن حَنْظلة الجُهَنىّ .

وأما معاوية فاستعمل عَلَى الخيل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وعَلَى الرجّالة مسلم ابن عقبة المرّىّ ، وجعل عَلَى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعَلَى الميسرة حبيب

---

(١) صفين : « الحنفى » .

(٢) من صفين .

ابن مسلمة الفهرىّ ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل عَلَى أهل دمشق – وهم القلب – الضحاك بن قيس الفِهرىّ ، وعَلَى أهل حِمْص – وهم الميمنة – ذا الكَلاع الحِميرىّ ، وعَلَى أهل قِنّسرين – وهم فى الميمنة أيضاً – زُفَر بن الحارث الكِلابىّ ، وعلى أهل الأردنّ – وهم الميسرة – سفيان بن عمرو أبا الأعور السُّلَمِىّ ، وعلى أهل فلسطين – وهم فى الميسرة أيضا – مسلمة بن مَخْلد ، وعلى رجالة أهل دمشق بُسْر بن أبى أرطاة العامرى ، بن لؤى بن غالب ، وعلى رجّالة أهل حِمْص حَوْشبا ذا ظُلَيم ، وعلى رَجّالة قيس طريف بن حابس الألهانىّ ، وعلى رَجّالة الأردنّ عبد الرحمن بن قيس القَيْنى ، وعلى رجّالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدىّ ، وعلى رجّالة قيس دمشق همام بن قَبيصة ؛ وعلى قيس حِمْص و إيادها بلال بن أبى هُبيرة الأزدىّ ، [وحاتم بن المعتمر الباهلى][1] ، وعلى رجّالة الميمنة حابس بن سعيد الطائىّ ، وعلى قُضاعة دمشق حَسّان بن بَحْدل الكلبىّ ، وعلى قُضاعة عباد بن يزيد الكلبىّ ، وعلى كِنْدة دمشق حسان بن حوىّ السَّكسكى ، وعلى كِنْدة حِمْص يزيد بن هبيرة السَّكونىّ ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَلىّ ، وعلى حِمْيَر وحضرموت اليمان بن غفير ، وعلى قُضاعة الأردنّ حبيش بن دلجة القَيْنىّ ، وعلى كنانة فلسطين شريكا الكنانِىّ ، وعلى مذحِج الأردنّ المخارق بن الحارث الزبيدىّ ، وعلى جُذام فلسطين ولخمها ناتل بن قيس الجذامىّ ، وعلى هَمْدان الأرْدنّ حمزة بن مالك الهمدانىّ ، وعلى الخثعم حَمَل بن عبد الله الخثعمىّ ، وعلى غسان الأردنّ يزيد بن الحارث ، وعلى جميع القواصى القعقاع بن أبرهة الكَلَاعِىّ ؛ أصيب فى المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان .

☆ ☆ ☆

قال نصر : فأما رواية الشعبىّ ، التى رواها عنه إسماعيل بن أبى عُمَيرة [2] ؛ فإنّ عليا

(١) من صفين .

(٢) صفين ٢٣٤ .

عليه السلام ، بعث على ميمنته عبـد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء الُخزاعىّ ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس ، وعلى خيل الـكوفة الأشتر ، وعلى البصرة سهل بن حنيف ، وعلى رجّالة الـكوفة عَمّار بن ياسر ، وعلى رجّالة أهل البصرة قيس بن سعد ـ كان قد أقبل من مصر إلى صِفّين وجعل معه هاشم بن عُتبة ، وجعل مسعود بن فدكى التميمىّ على قراء أهل البصرة ؛ وأما قراء أهل الـكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيل ، وعمار بن ياسر .

* * *

قال نصر : وأما[١] ترتيب عسكر الشام ـ فيما رواه لنا عمر بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية ـ فإنّ معاوية بعث على ميمنته ذا الـكَلَاع ؛ وعلى يسرته حبيب بن مَسْلَمَة الفِهرىّ ، وعلى مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعوَر السلمىّ ، وكان على خَيْل دمشق كلّها عمرو بن العاص ، ومعـه خيول أهل الشام بأسرها ، وجعل مسلم بن عُقْبة المرىّ على رجّالة دمشق، والضحاك بن قيس على سائر الرجّالة بعد .

* * *

قال نصر : [٢]وتبَايَع رجال من أهل الشام على الموت ، وتحالفوا عليـه ، وعَقّلوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا صُفوفا خمسة [معقّلين] [٣] كانوا يخرجون فيصطفّون أحدَ عشر صفا ، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفُّون أحدَ عشرَ صفا أيضا . .

قال نصر : فخرجوا أوّلَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين ، وهو يوم الأربعاء ، فاقتتلوا وعَلى مَنْ خرج يومئذ من أهل الـكوفة الأشتر ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة

---

(١) صفين ٢٣٩

(٢) صفين ٢٣٩

(٣) من صفين

فاقتتلوا قِتالا شديدا جُلَّ النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصفَ بعضُهم من بعض . ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتْبة في خَيْل ورجال حَسَنٍ عددها وعُدّتها ؛ فخرج إليه من أهل الشام أبوالأعور السُّلَميّ ، فاقتتلوا يومهم ذلك ، تحمِلُ الخيل على الخيل ، والرجال على الرجال . ثم انصرفوا وقد صَبَرَ القومُ بعضُهم لبعض ؛ وخرج في اليوم الثالث عَمّار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ، فاقتتل الناس كأشدّ قتال كان ، وجعل عمار يقول : ياأهل الشام ، أتريدون أنْ تنظُروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهدهما ، و بغى على المسلمين ، وظاهر المشركين . فلما أراد الله أنْ يُظهِر دِينَه ، و ينصر رسوله أتى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأسلم ؛ وهو والله فيما يُرَى راهبٌ غير راغب . ثم قبض الله رسوله ، وإنا واللهِ لنعرفه بعداوة المسلم ، ومودّة المجرم ! ألا و إنه معاوية ؛ فقاتلوه والعنوه ؛ فإنه ممن يطفىء نور الله ، و يظاهر أعداء الله .

قال : وكان مع عَمّار زيادُ بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل في الخيل ، فحمل فصَبَر له ، وشَدّ عمار في الرَّجّالة ، فأزال عمرو بن العاص عن مَوْقِفه ، و بارز يومئذ زياد بن النضر أخا له[1] من بني عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العقيلي ؛ وأمهما هند الزبيديّة، فانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالما ، ورجع الناس يومهم ذلك .

* * *

قال نصر : وحدثني[2] أبو عبد الرحمن المسعوديّ قال : حدثني يونس بن الأرقم ، عَمّن حدثه من شيوخ بَكْر بن وائل ، قال : كنا مع علي عليه السلام بصِفّين ، فرفع عمرو ابن العاص شُقّة خميصةٍ سوداء في رأس رُمْح ، فقال ناس : هذا لواء عَقَده له رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يزالُوا يتحدّثون حتى وصل ذلك إلى عليّ عليه السلام ، فقال :

(١) في الطبري : « لأمه » .
(٢) صفين ٢٤١

أتدرُون ماأمرُ هذا اللواء ! إنّ عدوّ الله عَمْراً أخرج له رسول الله صلى الله عليه وآله هـذه الشُّقّة ، فقال : مَنْ يأخذها بمـا فيها ؟ فقال عمرو : وما فيها يارسول الله ؟ قال : فيها ألّا تقاتل بها مسلما ولا تقرّبها من كافر ؛ فأخذها ؛ فقد والله قرّبها من المشركين ، وقاتل بها اليوم المسلمين ؛ والّذِى فَلَق الحبّة ، وبرأ النَّسَمة ؛ ماأسلموا ولـكنهم استسلموا وأسرّوا الـكفر ؛ فلما وجدوا عليه أعوانا أظهروه .

* * *

وروى نصر ، عن أبى عبـد الرحمن المسعودى ، عن يونس بن الأرقم ، عن عوف ابن عبد الله ، عن عمرو بن هند البَجَلىّ ، عن أبيه ، قال [1] : لما نظر علىّ عليـه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام ، قال : والذى فَلَق الحبّة ، و برأ النسمة ؛ ما أسلموا ؛ ولـكن استسلموا ، وأسرُّوا الـكفر ؛ فلما وجدوا عليـه أعوانا ، رجعوا إلى عَدَاوتهم لنا ؛ إلا أنّهم لم يتركوا الصلاة .

* * *

وروى نصر ، عن عبد العزيز بن سياه ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : [1] لما كان قتال صِفّين ، قال رجل لعمار : يا أبا اليقظان ؛ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله : «قاتلوا الناس حتى يُسلموا ؛ فإذا أسلموا عَصَموا منّى دماءهم وأموالهم » ؟ قال : بلى ، ولـكن والله ما أسلموا ؛ ولـكن استسلموا ، وأسرّوا الـكفر حتى وَجَدُوا عليه أعوانا .

* * *

وروى نصر ، عن عبد العزيز عن حبيب بن أبى ثابت ، عن منذر الثورىّ ، قال قال محمد بن الحنفية : لما [1] أتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أعلى الوادى ومن أسفله ،

---

(١) صفين ٢٤١ ـ ١٤٢

وملأ الأودية كتائب ـ يعنى يوم فتح مكة ـ استسلموا حتى وجدوا أعوانا .

وروى نصر ، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل ، عن الحسن ، قال : وحدثنا الحكم أيضا عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم معاوية بن أبى سفيان يخطُب على مِنْبَرى فاضربوا عنقه » ، فقال الحسن : فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا [1]

---

(١) صفين ٢٤٣

ومن كلام له عليه السلام :

الأصـلُ :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَ إِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا ، مَا يَزِيدُنَا ذَٰلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ؛ وَمُضِيًّا عَلَى ٱللَّقَمِ ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ ٱلأَلَمِ ، وَجِدًّا فِي[1] جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ ، وَلَقَدْ كَانَ ٱلرَّجُلُ مِنَّا وَٱلآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ ٱلْفَحْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا : أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ ٱلْمَنُونِ ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى ٱللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا ٱلْـكَبْتَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا ٱلنَّصْرَ ، حَتَّى ٱسْتَقَرَّ ٱلإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ .

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا ٱخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ . وَٱيْمُ ٱللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً ، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً !

***

الشَّـرْحُ :

لَقَمُ الطريق : الجادّة الواضحة منها . والمَضَض : لذع الألم و برحاؤه . والتَّصاول : أنْ يحمل كلٌّ واحـدٍ من القِرنين على صاحبه . والتخالس : التسالُب والانتهاب . والـكبت : الإذلال . وجِران البعير : مقـدّم عنقه . وتبوأت المنزل : نزلته . و يقال لمن أسرف فى الأمر لتحتلِبَنَّ دما ، وأصله الناقة يُفْرَط فى حَلْبها فيحلب الحالب الدم .

---

(١) مخطوطة النهج : « فى جهاد العدو » .

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة ؛ وهى :

قوله: « استقرَّ الإسلامُ ملقيا جِرانه »،أى ثابتا متمكّنا،كالبعير يلقى جِرانه على الأرض.

وقوله : « متبوئًا أوطانه » ، جعله كالجسم المستقرّ فى وطنه ومكانه .

وقوله : « ما قام للدين عمود » ، جعله كالبيت القائم على العُمُدِ .

وقوله : « ولا اخضرّ للإيمان عود »،جعله كالشّجرة ذات الفروع والأغصان .

فأما قتلهم الأقاربَ فى ذات الله ؛ فكثير ؛ قتلَ علىّ عليه السلام الجمّ الغفير من بنى عبد مناف و بنى عبد الدار فى يوم بَدْر وأُحُد ؛ وهم عشيرته و بنو عَمّه ، وقَتَل عمرُ ابن الخطاب يومَ بَدْر خاله العاص بن هشام بن المغيرة ، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شيبةَ ابن ربيعة يوم بَدْر ؛ وهو ابنُ عمه لأنهما ابنا عبدِ مناف ؛ ومثل ذلك كثير مذكور فى كتب السيرة .

وأما كَوْنُ الرجل منهم وقِرْنِه يتصاولان و يتخالسان ؛ فإنّ الحال كذلك كانت ؛ بارز علىّ عليه السلام الوليدَ بن عُتْبة،و بارز طلحةَ بن أبى طلحة ، و بارز عمرو بن عبد وَدّ؛ وقتل هؤلاء الأقران مبارزة ،و بارز كثيرا من الأبطالِ غيرهم وقَتَلهم ؛ و بارز جماعةٌ من شُجْعان الصحابة جماعةً من المشركين ؛ فمنهم مَنْ قُتِل ، ومنهم مَنْ قَتَل ، وكتب المغازى تتضمّن تفصيل ذلك .

[فتنة عبد الله بن الحضرمىّ بالبصرة]

وهذا الكلام قاله أميرالمؤمنين عليه السلام فى قصة ابن الحضرمىّ حيث قدم البَصْرة من قِبَل معاوية ، واستنهض أميرُ المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة ؛ فتقاعدوا .

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفىّ فى كتاب '' الغارات '' :

حدّثنا محمد بن يوسف ، قال : حـدثنا الحسن بن على الزّعفرانىّ ، عن محمد بن عبـد الله ابن عثمان ، عن ابن أبى سيف ، عن يزيد بن حارثة الأزدىّ ، عن عمرو بن محصن ، أن معاوية لما أصابَ محمد بن أبى بكْر بمصر وظهر عليها ، دعا عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فقال له : سرْ إلى البصرة ؛ فإن جلّ أهلها يروْن رأينا فى عثمان ، و يعظّمون قتلَه ، وقد قُتِلوا فى الطلب بدمِه ، فهم موتورون حَنقون لما أصابهم ؛ ودُّوا لو يجدون مَنْ يدعوهم و يجمعهم وينهض بهم فى الطلب بدم عثمان ؛ واحذرْ ربيعة ، وانزل فى مُضَر ، وتودّدِ الأزْد ؛ فإنّ الأزْدَ كلَّها معك إلا قليلًا منهم ؛ وإنهم إن شاء الله غيرُ مخالفيك .

فقال عبد الله بن الحضرمىّ له : أنا سهمٌ فى كنانتك ، وأنا مَنْ قد جرَّبت ، وعدوّ أهل حربك ، وظهيرك على قتلة عثمان ؛ فوجِّهْنِى إليهم متى شئت . فقال : اخْرُج غدا إن شاء الله . فودّعه وخرج من عنده .

فلما كان الليل جَلس معاوية وأصحابه يتحدّثون ، فقال لهم معاوية : فى أىّ منزل ينزل القمر الليلة ؟ فقالوا : بسعد الذّابح ، فـكرِه معاوية ذلك ، وأرسل إليه ألّا تبرح حتى يأتيَك أمرى . فأقام .

* * *

ورأى معاوية أن يكتبَ إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ بمصر ، عاملُه عليهـا ، يستطلع رأيه فى ذلك ، فـكتب إليه ؛ وقد كان تَسَمَّى بإمْرة المؤمنين بعد يوم صِفّين ، و بعد تحـكيم الحـكمين :

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى قد رأيتُ رأياً هممتُ بإمضائه ، ولم يخذُلنى عنـه

إلّا استطلاع رأيك ؛ فإن توافِقْنى أحمَدُ الله وأمضه ؛ وإن تخالفنى ؛ فإنى أستخيرُ اللهَ وأستهديه. إنى نظرتُ فى أمرِ أهل البصرة فوجدتُ معظَم أهلِها لنا وليًّا ولعلىّ وشيعته عدوا ؛ وقد أوقعَ بهم علىّ الوَقْعة التى علمت ، فأحقاد تلك الدماء ثابتة فى صدورهم لا تبرح ولا تريم ؛ وقد علمتَ أنّ قتلَنا ابن أبى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر ، قد أطفأتْ نيران أصحاب علىّ فى الآفاق ، ورفعت رءوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد ؛ وقد بلَغ مَنْ كان بالبصرة على مثلِ رأينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس أحد ممّن يرى رأينا أكثرَ عددا ، ولا أضرّ خلافاً على علىّ من أولئك ؛ فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، فينزل فى مُضَر ويتودّد الأزد ، ويحذرَ ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكّرهم وقعة علىّ بهم ؛ التى أهلكتْ صالحى إخوانهم وآبائهم وأبنائهم ، فقد رجوتُ عند ذلك أن يُفْسِدَ على علىّ وشيعته ذلك الفَرْج من الأرض ؛ ومتى يُؤْتَوْا من خَلْفهم وأمامهم يضلّ سعيهم ، ويبطل كيدُهم . فهذا رأيى فما رأيك ؟ فلا تحبس رسولى إلا قَدْر مضىّ الساعة التى ينتظرُ فيها جواب كتابى هذا . أرشدنا الله وإياك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية :

أما بعدُ ، فقد بلغنى رسولُك وكتابك ، فقرأته وفهمتُ رأيَك الذى رأيتَه ، فعجبت له ، وقلت : إنّ الذى ألقاه فى روعِك ، وجعله فى نفسك هو الثائر بابن عفان ، والطالب بدمه ؛ وإنه لم يك مِنك ولا مِنّا منذ نهضنا فى هذه الحروب ونادينا أهلها ، ولا رأى الناس، رأيا أضرّ على عدوك ، ولا أسرّ لوليك مِنْ هذا الأمر الذى ألهِمْته ، فامض رأيَك مسدّدا ؛ فقد وَجّهْتَ الصَّليب الأريب الناصح غير الظَّنِين والسلام .

* * *

فلما جاءه كتاب عمرو ، دعا ابن الحضْرمىّ ـ وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لايأمرُهُ بالشخوص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه ـ فقال : يا بنَ الحضرمىّ، سر على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل فى مُضَر ، واحْذَرْ ربيعة ، وتودّد الأزْد ، وانعَ ابن عفان ، وذكّرهم الوَقْعة التى أهلكتهم ، ومَنِّ لمن سمع وأطاع دُنْيا لاتفنى ، وأَثَرَةً لايفقِدها حتى يفقدنا أو نفقده .

فودعه ثم خرج من عِنده ، وقد دفع إليه كتاباً ، وأمره إذا قدِم أن يقرأه على النّاس .

قال عمرو بن محصن : فكنتُ معه حين خرج ، فلما خرجْنا سرنا ماشاء الله أن نَسير، فسنَحَ لنا ظبي أعْضب [1] عن شمائلنا ، فنظرت إليه ؛ فوالله لرأيتُ الكراهيَة فى وجهه ؛ ثم مضينا حتى نزلنا البصرة فى بنى تميم ، فسمعَ بقدُومنا أهلُ البصرة ؛ فجاءنا كلّ مَنْ يرى رأى عثمان ، فاجتمع إلينا رءوس أهلِها ؛ فحمد الله ابنُ الحضرمىّ وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ؛ أيها الناس؛ فإن إمامكم إمامَ الهدى عثمان بن عَفّان ، قتله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ظُلْماً ، فطلبتم بدمه ، وقاتلتم مَنْ قَتَله ، فجزاكم الله مِنْ أهل مصر خيرا ؛ وقد أُصيبَ منكم الملأ الأخيار ؛ وقد جاءكم الله بإخوان لكم ؛ لهم بأسٌ يُتّقَى ، وعددلا يُحصى؛ فلَقُوا عدوّكم الذين قتلوكم ؛ فبلغوا الغاية التى أرادوا صابرين ، ورجعوا وقد نالوا ماطلبوا ، فمالئوهم وساعدوهم ، وتذكروا ثأرَكم لتَشفوا صدورَكم من عدوّكم .

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلالىّ ، فقال : قَبّح الله ماجئتنا به ، وما دعوتنا إليه ! جئتَنا والله بمثل ماجاء به صاحِباك طلحة والزبير؛ أتيَانا وقد بايعْنا عليا ، واجتمعنا له ، فكلمتنا واحدة ونحن على سَبيل مستقيم ، فدعوَانا إلى الفرقة ، وقاما فينا بزُخرف القول ؛ حتى ضربْنَا بعضَنا ببعضٍ عُدوانا وظُلْما؛ فاقتتلنا على ذلك ، وايمُ الله ، ماسلِمْنا من عظيم وبال

(١) الأعضب : مكسور أحد القرنين ؛ وكانوا يتشاءمون منه

ذلك ؛ ونحن الآن مجمعون على بَيْعة هذا العبد الصالح الذى أقال العَثْرة ، وعفا عن المسىء ، وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا . أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافَنا من أغمادها ، ثم يضرب بعضنا بعضا ، ليكون معاويةُ أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدِل بهذا الأمر عن علىّ ! والله لَيومٌ من أيام علىّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا فى الدنيا ؛ ما الدنيا باقية .

فقام عبد الله بن حازم السلمىّ ، فقال للضحاك : اسكت ؛ فلست بأهلٍ أنْ تتكلم فى أمرِ العامة . ثم أقبل على ابن الحضرمى ، فقال : نحن يدُك وأنصارك ؛ والقول ماقلت ؛ وقد فهمنا عنك ؛ فادعنا أنى شئت ! فقال الضّحاك لابن حازم : يابن السوداء ؛ والله لايعِزّ من نصرت ، ولا يذِلّ بخذلانك مَنْ خذلت ؛ فتشاتما .

* * *

قال صاحب كتاب الغارات : والضحاك هذا هو الذى يقول :

يأَيّهذَا السائِلى عن نَسَبِى ... بين ثقيفٍ وهلال منصِبِى

* أمِّىَ أسماء وضَحّاكٌ أبى *

قال : وهو القائل فى بنى العباس :

مَا وَلَدَتْ من ناقة لفحلِ ... فى جَبَلٍ نعلمُه وسَهلِ

كستة مِنْ بَطْن أم الفضلِ ... أكْرِمْ بها من كَهْلَةٍ وكَهْلِ

عمّ النبىّ المصطفى ذى الفضلِ ... وخاتم الأبناء بعد الرُّسْلِ

قال : فقام عبدُ الرحمن بن عمير بن عثمان القرشىّ ثم التميمى ، فقال : عباد الله ؛ إنا لم ندعكم إلى الاختلاف والفرْقة ، ولا نريد أنْ تقتتلوا ولا تتنابزوا ؛ ولكنا إنّما ندعوكم إلى أنْ تجمَعُوا كلمتكم ، وتوازروا إخوانكم ؛ الذين هم على رأيكم ، وأنْ تلمُّوا شَعَثكُمْ

وتُصلِحوا ذاتَ بينكم ؛ فمهلا مهلا ! رحمكم الله ،استمعوا لهـذا الـكتاب وأطيعوا ، الذى يقرأ عليكم .

فقضوا كتابَ معاوية وإذا فيــه : مِنْ عبد الله معاوية أمير المؤمنين، إلى من قرئ كتابى هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة :

سلام عليكم.أما بعدُ ،فإنّ سَفْك الدماء بغيرِ حلّها ، وقتل النفوس التى حرّم الله قتلها هلاكٌ موبِق ، وخسران مبين ؛ لا يقبل الله مِمّن سَفَـكها صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وقد رأيتُم رحِمكم الله آثار ابن عفّان وسيرتَه ، وحُبّه للعافية ، ومَعْدَلته ، وسَدّه للثغور ، وإعطاءه فى الحقوق ، وإنصافه للمظلوم ، وحُبّه الضعيف ؛ حتى توثّب عليــه المتوثبون ؛ وتظاهر عليــه الظالمون ، فقتلوه مسلما محرما ظمآن صائما لم يسفِكْ فيهم دما ، ولم يقتُلْ منهم أحـدا ، ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوطٍ ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه ، وإلى قتال مَنْ قتله ؛ فإنا وإياكم على أمرِ هُدًى واضح ، وسبيل مستقيم . إنـكم إن جامعتمونا طفئت النائرة ، واجتمعت الـكلمة ، واستقام أمرُ هذه الأمة ، وأقر الظالمون المتوثبون الذين قَتَلوا إمامهم بغـير حق فأخِذُوا بجرائرهم وما قدّمت أيديهم . إنّ لـكم أنْ أعمَل فيكم بالـكتاب ، وأنْ أعطيَـكم فى السَّنَة عطاءيْن ، ولا أحتمل فضلًا من فيئكم عنكم أبدا ، فسارعوا إلى ماتُدْعون إليــه رحمكم الله ! وقد بعثتُ إليكم رجلًا من الصالحين ؛ كان من أمناء خليفتـكم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يجيب إلى الحق ويعرفه ، ويُنـكِر الباطل ويَجْحَده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

قال : فلما قُرِئ عليهم الـكتاب ، قال معظمهم : سمعنا وأطعنا .

قال : وروى محمد بن عبد الله بن عثمان ، عن على ، عن أبى زهير ،عن أبى مِنْقر الشيبانىّ ، قال : قال الأحنف لمـا قرئ عليهم كتاب معاوية : أمّا أنا فلا ناقةَ لى فى هذا ولا جَمَل ، واعتزل أمرهم ذلك .

وقال عمرو بن مرحوم ، من عبد القيس : أيّها الناس ، الزموا طاعتَكم ، ولا تنكُثُوا بيعتَكم ، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة ؛ ولا يكن بعدها لكم بقية ؛ ألَا إنّى قد نصحتُ لكم ؛ ولكن لاتحبون الناصحين .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : وروى محمد بن عبد الله ، عن ابن أبى سيف ، عن الأسود بن قيس ، عن ثعلبة بن عبّاد أن الذى كان سَدَّدَ لمعاوية رأيه فى تسريح ابن الحضرمىّ كتاب كتبه إليه عبّاس بن ضحّاك العبدىّ ، وهو ممن كان يرى رأى عثمان ، ويخالف قومَه فى حبهم عليًّا عليه السلام ونصرتهم إياه ؛ وكان الكتاب :

أما بعد فقد بلغنا وقعتُك بأهلِ مصر ؛ الذين بَغَوْا على إمامهم ، وقتلوا خليفتَهم طمَعاً و بَغْيا ، فقرت بذلك العيون ، وشُفِيت بذلك النفوس ؛ و بردت أفئدة أقوامٍ كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوّه مفارقين ؛ ولكم موالين ، و بك راضين ؛ فإن رَأيتَ أن تبعثَ إلينا أميراً طيبا ذكيا ذَا عَفاف ودين ، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْت ؛ فإنى لا أخال الناس إلا مجمعين عليك ؛ وأن ابن عباس غائب عن المصر . والسلام .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه قال : لاعزمتُ رأياً سوى ما كتب به إلىّ هذا ، وكتب إليه جوابه :

أما بعد ؛ فقد قرأتُ كتابَك ، فعرفت نصيحتَك ، وقَبلت مشورتك ، رحمك الله وسددك ، اثبُتْ هداك الله على رأيك الرشيد ، فكأنّك بالرجل الذى سألت قد أتاك ، وكأنّك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحييت ؛ والسلام .

* * *

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثنى على بن أبى سيف عن أبى زهير

قال : لما نزل ابن الحضرمىّ فى بنى تميم أرسل إلى الرءوس فأتوه ، فقال لهم :أجيبونى إلى الحقّ ، وانصرونى على هذا الأمر .

قال : و إنّ الأميرَ بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس ، وقدم على علىّ عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبى بكر ، قال : فقام إليه ابن ضَحّاك ، فقال : إى والذى له أسعى، و إياه أخشى،لننصرنّك بأسيافنا وأيدينا .

وقام المثنى بن مخرمة العبدىّ فقال : لا والذى لا إله إلا هو ، لئن لم ترجع إلى مكانك الذى أقبلت منه لنجاهدنّك بأسيافنا وأيدينا ، ونبالنا وأسنّة رماحنا، نحن نَدَع ابنَ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيد المسلمين ، وندخل فى طاعة حزب من الأحزاب طاغ! والله لا يكون ذلك أبدا حتى نسيّر كتيبة ، ونفلّق السيوف بالهام .

فأقبل ابنُ الحضرمىّ على صَبْرة بن شَيْمان الأزدىّ فقال : ياصَبْرة ، أنت رأسُ قومك ، وعظيمٌ من عظماء العرب ، وأحد الطَّلبة بدم عثمان ، رأينا رأيُك ، ورأيُك رأينا، و بلاء القوم عندك فى نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت فانصرنى ، وكُنْ من دونى . فقال له : إن أنت أتيتَنى فنزلت فى دارى نصرتُك ومنعتك . فقال : إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرَنى أنْ أنزِل فى قومه من مُضر ، فقال : اتّبع ماأمرَك به .

وانصرف من عنده ، وأقبل الناسُ إلى ابن الحضْرمىّ ، وكثر تبَعُه ، ففزع لذلك زياد وهاَلَهُ وهو فى دار الإمارة ، فبعث إلى الحصين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع ، فدعاهما ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنكم أنصارُ أمير المؤمنين وشيعتُه وثقته ، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم ، فأجيرونى حتى يأتيَنى أمْرُ أمير المؤمنين ورأيُه.

فأما مالك بن مسمع ،فقال :هذا أمر فيه نَظَر،أرجع إلى مَنْ ورائى،وأنظر وأستشير فى ذلك.

وأمّا الحصين بن المنذر فقال ، نعم ، نحن فاعلون ، ولن نخذُلَك ولن نُسلِمك .

فلم يرَ زياد من القوم مايطمئنّ إليه ، فبعث إلى صَبْرة بن شَيْمان الأزدىّ ، فقال : يا بن شَيْمان ، أنت سيدُ قومك ، وأحد عظماء هذا المِصْر ، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم أهله فأنت ذاك ؛ أفلا تجيرنى وتمنعُنى ، وتمنع بيتَ مال المسلمين ! فإنما أنا أمين عليه . فقال : بَلى ، إن تحمّلت حتى تنزِل فى دارى منعتُك ، فقال : إنى فاعل .

فارتحل ليلا حتى نزل دار صَبْرة بن شَيْمان ، وكتب إلى عبد الله بن عباس – ولم يكن معاوية ادَّعى زياداً بعد ؛ لأنه إنما ادّعاه بعد وفاة على عليه السلام :

للأمين عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد .

سلام عليك ، أما بعدُ فإنّ عبدَ الله بن عامر بن الحضرمىّ أقبل مِنْ قِبَل معاوية حتى نزل فى بنى تميم ، ونَعى ابنَ عفّان ، ودعا إلى حرب ، فبايَعه جُلُّ أهلِ البصرة ، فلما رأيت ذلك استجرتُ بالأزْد بصَبْرَة بن شَيْمان وقومِه لنفسى ولبيت مال المسلمين ، ورحلتُ من قصر الإمارة فنزلت فيهم ، وإنّ الأزْد معى ، وشيعة أمير المؤمنين مِن فُرسان القبائل تختلف إلىّ ، وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرمىّ ؛ والقصر خالٍ منّا ومنهم ، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، لِيَرَى فيه رأيه ، وأعْجِل إلىّ بالذى ترى أن يكون منه فيه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فرفع ذلك ابنُ عباس إلى على عليه السلام ، وشاع فى الناس بالكوفة ما كان ذلك ، وكانتْ بنو تميم وقيس ، ومَنْ يرى رأى عثمان قد أمرُوا ابنَ الحضرمىّ أن يسيرَ إلى قصر الإمارة حين خَلّاه زياد ، فلما تهيَّأ لذلك ودعا أصحابَه ، ركبت الأزد ، وبعثت إليه وإليهم : إنا والله لانَدَعكم تأتونَ القصر فتُنزلون فيه مَنْ لا نرْضَى ، ومَنْ نحن له كارهون ؛ حتى يأتىَ رجل لنا ولكم رضا . فأبى أصحابُ ابن الحضرمى إلا أنْ يسيروا إلى القصر ، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم . فركب الأحنف فقال لأصحاب ابنِ الحضرمىّ : إنكم والله

ماأنتم أحقّ بقصر الإمارة من القوم ، وما لكم أن تؤمِّروا عليهم مَنْ يكرهونه ،فانصرفوا عنهم : ففعلوا ، ثم جاء إلى الأزد ، فقال : إنه لم يكن ماتكرهون ، ولا يُؤْتَى إلّا ماتُحِبّون؛ فانصرفوا رحمكم الله، ففعلوا .

* * *

قال إبراهيم : وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبى سيف ،عن الكلبىّ، أنّ ابن الحضرمىّ لما أتَى البصرة ، ودخلها نزل فى بنى تميم فى دار سبيل ، ودعا بنى تميم وأخلاط مُضَر ، فقال زياد لأبى الأسود الدؤلى : أما ترى ماصَغَى أهلُ البصرة إلى معاوية ؛ وما فى الأزْد لى مطمع ؛ فقال : إن كنتَ تركتَهم لم ينصروك ، وإن أصبحت فيهم منعوك .

فخرج زيادٌ من ليلته ، فأتى صَبْرة بن شَيْمان الُحدانىّ الأزدىّ ، فأجاره ، وقال له حين أصبح : ياز ياد ؛ إنه ليس حسنا بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا ؛ فأعد له منبرا وسريرا فى مسجد الُحدّان ، وجعل له شرَطاً ، وصلى بهم الجمعة فى مسجد الُحدّان .

وغلب ابن الحضرمىّ على مايليه من البصرة وجَباها ، وأجمعت الأزد على زياد ، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يامعشر الأزد، إنكم كنتم أعدائى فأصبحتم أوليائى ، وأوْلى الناس بى. وإنى لو كنت فى بنى تميم وابنُ الحضرمىّ فيكم لم أطمعْ فيه أبدا وأنتم دونه ، فلا يطمع ابنُ الحضرمىّ فىّ وأنتم دونى ، وليس ابنُ آكلةِ الأكباد فى بقية الأحزاب وأولياء الشيطان ، بأدْنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين فى المهاجرين والأنصار ؛ وقد أصبحت فيكم مضمونا ، وأمانة مؤدّاة ، وقد رأينا وقْعَتَكم يوم الجمل ، فاصبِروا مع الحقّ ، صبرَكم مع الباطل ؛ فإنكم لاتُحْمَدون إلا على النجدة ، ولا تُعْذَرون على الجبن .

فقام شَيْمان أبو صبرة ــ ولم يكن شهد يوم الجمل ، وكان غائبا ــ فقال : يا معشرَ الأزد ،

ماأبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على علىّ عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أنّ إسلامكم له ذلّ وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حىٌّ مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فسيرُوا بصاحبكم ، وإن استمدُّوا معاوية ، فاستمدّوا عليا عليه السلام ، وإن وَادَعُوكم فوادِعُوهم .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : يامعشر الأزْد ، إنا قلنا يومَ الجمل: نمنع مِصْرنا ، ونطيع أُمَّنا، نطلب دم خليفتنا المظلوم ، فجدَدْنا فى القتال ، وأقمنا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِل منا مَنْ لاخير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من علىّ مانخاف من معاوية ، فهبُوا لنا أنفُسكم ، وامنعوا جاركم أو فأبلِغوه مأمنه .

فقالت الأزد : إنما نحن لكم تبع فأجيروه . فضحك زياد ، وقال : ياصبرة ، أتخشون ألاّ تقوموا لبنى تميم ! فقال صبرة : إن جاءونا بالأحنف جئناهم بأبى صَبْرة ، وإن جاءوا بالحباب جئت أنا وإن كان فيهم شباب كثير . فقال زياد : إنما كنت مازحا .

فلما رأت بنو تميم أنّ الأزدَ قد قامت دون زياد بعثت إليهم : أخرجوا صاحبَكم ونحن نخرج صاحبنا ، فأىّ الأميرين غَلَب : علىّ أو معاوية دخلنا فى طاعته ، ولا نهلِك عامّتنا .

فبعث إليهم أبو صبرة : إنّما كان هذا يُرجى عندنا قبل أن نجيره ، ولعمرى ماقَتْل زياد وإخراجه إلا سواء ؛ وإنكم لتعلمون أنّا لم نُجِرْه إلا كرما ، فالهوا عن هذا .

* * *

قال : وروى أبو الكنود أنَّ شَبث بن رِبعىّ قال لعلى عليه السلام : ياأمير المؤمنين ، ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادْعُهم إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلّط عليهم أزْدَ عُمان البُعداء البُغضاء ؛ فإنّ واحدا من قومك خيرٌ لك من عشرة من غيرهم .

فقـال له مِخْنَف بن سليم الأزدىّ : إن البعيـد البغيض ، من عَصَى الله وخالف أمير المؤمنين ، وهم قومك ، و إن الحبيب القريب مَنْ أطاع الله ونصر أمير المؤمنين ،وهم قومى، واحدُهم خيرٌ لأمير المؤمنين من عشرة من قومك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مه !تناهوْا أيها الناس ، وليردَعْـكم الإسلام ووقارُه عن التباغى والتهاذى ، ولتجتمِـعْ كلمتـكم ،والْزَموا دينَ الله الذى لا يقبل من أحد غيره ، وكلمة الإخلاص التى هى قوام الدين ، وحجـة الله على الـكافرين ؛ واذكروا إذ كنتم قليلاً مشركين متباغضين متفرقين فألّف بينـكم بالإسلام فـكثُرتم ، واجتمعتم وتحاببتم فلا تفرّقوا بعد إذ اجتمعتم ، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم ؛ و إذا رأيتم الناس بينهم النّائرة(١) وقد تداعَوا إلى العشائر والقبائل ؛فاقصِدوا لهامهم ووجوههم بالسّيف حتى يفزَعوا إلى الله، و إلى كتابه وسنة نبيه ؛ فأمّا تلك الحميّة من خَطَرات الشياطين فانتهوا عنها ، لا أبا لـكم تفلحوا وتنجحوا !

ثم إنه عليه السلام دعا أعْيَن بن صبيعة المجاشعىّ ، وقال : ياأعْيَن ، ألم يبلغك أن قومَك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمىّ بالبصرة ، يَدْعُون إلى فراق وشقاق و يساعدون الضلاّل القاسطين علىّ !

فقال : لَا تُسَأْ ياأمير المؤمنين ، ولا يكن ماتـكره ، ابعثنى إليهم ؛ فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم ، و نَفْىِ ابن الحضرمىّ من البصرة أو قتله .

قال : فاخرج الساعة .

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة .

---

(١) النائرة: الفتنة.

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات .

* * *

وروى الواقدىّ أن عليا عليه السلام ، استنفرَ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصْرة مَنْ يكفيه أمرَ ابن الحضرمى ، ويردّ عادية بنى تميم ، الذين أجاروه بها ، فلم يُجِبه أحد ، فخطبهم ، وقال : أليس من العَجَب أن ينصرَنى الأزد ، وتخذُلَنى مضر ! وأعجب من ذلك تقاعدُ تميم الكوفة بى ، وخلاف تميم البَصْرة علىّ ، وأن أستنجد بطائفة منها ، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد ، فإن أجابت ؛ وإلّا فالمنابذة والحرب . فكأنى أخاطبُ صُماً بُكماً لا يفقهون حِواراً ، ولا يجيبون نداء ؛ كلُّ هذا جبناً عن البأس ، وحُبًّا للحياة ؛ لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتُل آباءنا وأبناءنا . . . . . . الفصل إلى آخره .

قال : فقام إليه أعين بن صبيعة المجاشعىّ ، فقال : أنا إنْ شاء اللهُ أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخطْب ، وأتكفَّلُ لك بقتل ابن الحضرمى ، أو إخراجه عن البصرة. فأمره بالتَّهَيُّؤ للشخوص ؛ فشَخص حتى قدم البصرة .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : فلما قدمها دخلَ على زياد وهو بالأزْد مقيم ، فرحب به وأجلسه إلى جانبه ، فأخبره بما قال له علىّ عليه السلام ، وما رَدّ عليه ، وما الذى عليه رأيه ؛ فإنه يكلمه إذ جاءه كتاب من علىّ عليه السلام فيه :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زياد ابن عبيد :

سلام عليك ، أما بعد ؛ فإنى قد بعثت أعْين بن صبيعة ، ليفرّق قومَه عن ابن الحضرمىّ ، فارقُبْ ما يكون منه ؛ فإن فعل و بلغ من ذلك ما يظنّ به ، وكان فى ذلك تفريق تلك الأوباش ؛ فهو ما نحبّ ، و إن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ،

فانبذْ مَنْ أطاعك إلى مَنْ عصاك ؛ فجاهدْهم ، فإن ظهرتَ فهو ما ظننت ، وإلّا فطاوِلْهم وما طِلْهم ؛ فـكأنَّ كتائب المسلمين قد أطلّت عليك ؛ فقتَل الله المفسدين الظالمين ، ونصر المؤمنين المحقين ، والسلام .

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن صبيعة ، فقال له : إنّى لأرجو أن يُـكفَى هـذا الأمر إن شاء الله . ثم خرج من عنـده ؛ فأتى رَحْله ، فجمع إليه رجالا من قومه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا قوم علىّ ، ماذا تقتلُون أنفسكم ! وتُهرِيقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ! وإنى والله ما جئتُـكم حتَّى عَبَّيْت إليكم الجنود ؛ فإن تُنيبوا إلى الحقّ يقبل منكم ، ويكفّ عنكم ؛ وإن أبيتم فهو والله استئصالـكم وبَوَاركم .

فقالوا : بل نسمع ونطيع . فقال : انهضوا الآن على بركة الله عزّ وجل . فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرمىّ ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرمى فصافّوه وواقفهم[1] عامة يومه يُناشدهم الله ، ويقول : يا قوم لا تنكثُوا بَيْعَتَـكم ، ولا تخالفوا إمامَـكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا ، فقد رأيتم وجرّبتم كيفَ صنع الله بكم عند نَـكْثـكم بيعتكم وخلافـكم . فـكفّوا عنه ، ولم يكن بينه وبينهم قتال ؛ وهم فى ذلك يشتِمونه وينالون منـه ، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف . فلما أوى إلى رحله تبِعه عشرة نفر يظن الناس أنّهم خوارج ، فضربوه بأسيافهم ؛ وهو على فراشه ، ولا يظن أنّ الذى كان يكون ، فخرج يشتدّ عُريانا ، فلحقوه فى الطريق فقتلوه ، فأراد زياد أن يناهضَ ابنَ الحضرمى حين قتـل أعين بجماعة مَنْ معه من الأزد وغيرهم من شيعة على عليـه السلام ، فأرسل بنو تميم إلى الأزد : والله ما عرضْنا لجاركم إذ أجرتموه ، ولا المـال هُوَ لَهُ ولا لأحدٍ ليس على رأينا ؛ فمـا تريدون

(١) صافوه ؛ أى وقفوا صفوفا ويقال : واقفه فى الحرب ؛ أى وقف كل منهما مع الآخر.

إلى حَرْبنا و إلى جارنا ؟ فـكأنَّ الأزد عند ذلك كَرِهَتْ قتالهم .

فـكتب زياد إلى على عليه السلام : أما بعد يا أميرَ المؤمنين ، فإن أعْيَن بن صبيعة قدِم علينا مِنْ قِبَلك بجدّ ومناصحة وصدق و يقين ، فجمع إليه مَنْ أطاعه من عشيرته ، فحثهم على الطاعة والجماعة ، وحذّرهم الخلاف والفرقة ، ثم نهض بمَنْ أقبل معه إلى مَنْ أدبر عنه ، فواقفهم عامَّة النهار ، فهالَ أهلَ الخلاف تقدُّمُه ، وتصدَّع عن ابن الحضرمى كثير مِمَّنْ كان يريد نُصرته ، فـكان كذلك حتى أمسى ، فأتى فى رَحْله فبيَّته نفر من هـذه الخارجة المارقة ، فأصيب رحمه الله تعالى ، فأردتُ أنْ أناهضَ ابنَ الحضرمى عند ذلك ، فحدث أمرٌ قد أمرتُ صاحب كتابى هذا أن يذكره لأمير المؤمنين ، وقد رأيتُ إنْ رأى أميرُ المؤمنين ما رأيت ، أن يبعث إليهم جارية بن قُدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، ومطاع فى العشيرة ، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين ، فإنْ يقدُم يفرِّق بينهم بإذن الله ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته .

فلما جاء الـكتاب ، دعا جارية بن قُدامة ، فقال له : يابنَ قدامة ، تمنع الأزد عاملى و بيت مالى ! وتشاقّنى مضر وتنابذنى ! و بنا ابتدأها الله تعالى بالـكرامة ، وعرَّفها الهدى ، وتداعَوْا إلى المعشر الذينَ حادوا الله ورسوله ، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه ، حتى علَتْ كلمة الله وهلك الـكافرون .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ابعثنى إليهم واستَعِنْ بالله عليهم . قال : قد بعثتك إليهم ، واستعنت بالله عليهم .

* * *

قال إبراهيم : فحدثنا محمد بن عبد الله ، قال : حدثنى ابنُ أبى السيف ، عن سليمان ابن أبى راشد ، عن كعب بن قُعين ، قال : خرجتُ مع جارية من الـكوفة إلى البَصْرة

فى خمسين رجلا من بنى تميم ، ما كان فيهم يمانىٌّ غيرى ، وكنتُ شديدَ التشيُّع ، فقلت لجارية : إن شئتَ كنتُ معك وإن شئتَ ملتُ إلى قومى ! فقال : بل معى ؛ فوالله لوَدِدْت أنّ الطير والبهائم تنصرُنى عليهم ، فضلا عن الإنس .

***

قال : وروى كعب بن قعين أنّ عليًّا عليه السلام كتب مع جارية كتابا ، وقال : اقرأه عَلَى أصحابك ، قال : فمضينا معه ، فلما دخلْنا البصرة ، بدأ بزياد ، فرحّب به وأجلسه إلى جانبه ، وناجاه ساعة وساءلَهُ ، ثم خرج فكان أفضلُ ما أوصاه به أنْ قال : احذَرْ على نفسك ، واتّقِ أن تَلْقَى ما لقِيَ صاحبُك القادمُ قَبْلك .

وخرج جارية من عنده ، فقام فى الأزد ، فقال : جزاكم الله من حَىّ خيرا ! ما أعظَم غَناءكم ، وأحسنَ بلاءكم ، وأطوَعكم لأميركم ! لقد عرفتم الحقّ إذ ضيّعه مَنْ أنكره ، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه ، ثم قرأ عليهم وعلى مَنْ كان معه من شيعة علىّ عليه السلام وغيرهم . كتابَ على عليه السلام ، فإذا فيه :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابى هذا من ساكنى البصرة من المؤمنين والمسلمين :

سلام عليكم ، أما بعد فإنّ الله حَليم ذو أناة لا يَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البيّنة ، ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلة ، ولكنه يقبل التوبة ، ويستديم الأناة ، ويرضى الإنابة ليكون أعظمَ للحجّة ، وأبلغ فى المعذرة ؛ وقد كان من شقاق جُلّكم أيها الناس ما استحققتم أنْ تعاقَبوا عليه ، فعفوت عن مجرمكم ، ورفعت السّيف عن مُدْبركم ، وقبلت من مُقْبلكم ، وأخذت بيعتكم ، فإن تَفُوا ببيْعتى ، وتقبلُوا نصيحتى ، وتستقيموا على طاعتى ، أعملْ

فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق ، وأُقِمْ فيكم سبيل الهدى ، فوالله ما أعلم أنّ والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلمَ بذلك منّى ، ولا أعمل بقولى . أقول قولى هذا صادقاً ، غيرَ ذامٍّ لمن مضى ، ولا منتقصاً لأعمالهم ، وإن خَبَطَتْ[1] بكم الأهواء المُرْدِية، وسَفَهُ الرأى الجائر إلى منابذتى، تريدون خلافى ! فها أنا ذا قرَّبْتُ جيادى ، وَرَحَلْتُ ركابى ، وايمُ الله لئن ألجأتمونى إلى المسير إليكم لأُوقِعَنّ بكم وَقْعَةً ، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلَعْقَة لاعق ، وإنى لظانّ ألّا تجعلوا إن شاء الله على أنفسكم سبيلا . وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ، ولنْ أكتبَ إليكم من بعده كتاباً ، إن أنتم استغششتُم نصيحتى ، ونابذْتُم رسولى ، حتى أكونَ أنا الشّاخص نحوكم إن شاء الله تعالى. والسلام .

قال : فلما قُرِئَ الكتاب على الناس ، قام صَبْرة بن شَيْمان ، فقال : سمعنا وأطعنا ، ونحن لِمنْ حارب أمير المؤمنين حَرْب ، ولمن سالم سِلْم ، إنْ كَفَيْتَ يا جارية قومَك بقومك فذاك، وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك.

وقام وجوه النـاس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه ، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه ، ومضى نحو بنى تميم .

فقام زياد فى الأزد ، فقال :

يا معشر الأزْد ، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلما ، فأصبحوا اليوم حرباً ، وإنكم كنتم حَرْبا فأصبحتم سلما ، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتمونى ، حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شُرَطا وأعوانا ، ومناديا وجمعة ، فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم ، لا أجْبيه اليوم ، فإن لم أجْبه اليوم أجْبِه غدا إن شاء الله . واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمس عليا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة ، وإنما أرسله علىّ

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « خطت ».

ليصدَع أمرَ قومه ، والله ما هو بالأمير المطاع ، ولو أدرك أمله فى قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لى تبعاً ، وأنتم الهامةُ العظمى ، والجمرة[1] الحامية ، فقدِّموه إلى قومه ، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رأيتم ذلك .

فقام أبو صبرة بن شَيْمان فقال : يا زياد ، إنى والله لو شهدتُ قومى يومَ الجمل ، رجوتُ ألّا يقاتلوا عليا ، وقد مضى الأمرُ بما فيه . وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسيئ ، والتوبة مع الحق ، والعفو مع الندم ، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولكنها جماعة دماؤها حرام ، وجرُوحها قصاص ، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ .

فعجب زياد من كلامه ، وقال : ما أظنّ فى الناس مثل هذا .

ثم قام صبرة ابنه ، فقال : إنا والله ما أصِبْنا بمصيبة فى دين ولا دنيا كما أصِبْنا أمس يوم الجمل ، وإنا لنرجو اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأمّا أنْتَ يا زياد ، فوالله ما أدركت أَمَلك فينا ، ولا أدركْنا أملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك ، ونحن رادّوك إليها غدا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أَوْلَى بك مِنّا ، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك[2] ، وإنا والله نخاف من حرب علىّ فى الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية فى الدنيا ، فقدّم هواك وأخِّر هوانا ، فنحن معك وطوعك .

ثم قام خنفُر[3] الحمانىّ ، فقال : أيُّها الأمير ، إنّك لو رضيت مِنا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرض ذلك لأنفسنا ، سِرْ بنا إلى القوم إن شئت ، وايمُ الله ما لقينا يوما قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا ؛ إلا ما كان أمس .

---

(١) الجمرة : كل قبيلة انضموا فصاروا يداً واحدة ولم يحالفوا غيرهم .

(٢) ج : « تشبهه » .

(٣) ج : « حيقن » .

قال إبراهيم : فأمّا جارية ، فإنّه كلّم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباشٌ فناوشوه بعد أنْ شتموه وأسمعوه ، فأرسل إلى زياد والأزد ، يستصرِخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه ، فسارت الأزْد بزياد ، وخرج إليهم ابنُ الحضرميّ ، وعلى خيله عبد الله بن حازم السلميّ ، فاقتتلوا ساعة ، وأقبل شريك بن الأعور الحارثيّ — وكان من شيعة عليّ عليه السلام ، وصديقا لجارية بن قدامة — فقال : ألا أقاتل معك عدوّك ؟ فقال : بلى ؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سبيل السعدى ؛ فحصروا ابنَ الحضرميّ وحدُّوه ، فأتى رجل من بنى تميم ، ومعه عبد الله بن حازم السلميّ ، فجاءت أمه وهى سوداء حبشية اسمها عجلى ، فنادته ، فأشرف عليها ، فقالت : يا بُنَى ، انزل إلىّ ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها، وسألته النزول فأبى ، فقالت : والله لتنزلنّ أو لأتعرّينّ ، وأهوت بيدها إلى ثيابها[1] ، فلما رأى ذلك نزَل ، فذهبت به ، وأحاط جارية وزياد بالدّار ، وقال جارية : علىّ بالنار ، فقالت الأزد : لسنا من الحريق بالنار فى شىء ؛ وهم قومُك وأنت أعلم ، فحرّق جارية الدّار عليهم ، فهلك ابنُ الحضرميّ فى سبعين رجلا ؛ أحدهم عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشى ، ثم التيميّ ؛ وسُمِّىَ جارية منذ ذلك اليوم محرِّقا ؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة ؛ ومعه بيت المال ، وقالت له : هل بقى علينا مِنْ جوارك شىء ؟ قال : لا ، قالوا : فبرّئنا منه ، فقال : نعم ؛ فانصرفوا عنه . وكتب زيادٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

أما بعد ، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك ، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرميّ بمن نصره وأعانه من الأزد ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة فى عدد كثير من أصحابه ، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما ، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه، منهم من أحرق بالنار ؛ ومنهم من أُلقى عليه جدار ؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه ؛ ومنهم من قُتِل بالسيف ، وسلم

(١) ا ، ب : « ساقها » .

منهم نفر أنابوا وتابوا ، فصَفح عنهم ، و بعداً لمن عصى وغوى ! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته .

فلما وصل كتاب زياد قرأه عليّ عليه السلام على الناس ، وكان زياد قد أنفذه مع ظَبْيان بن عُمارة ، فسرّ علي عليه السلام بذلك وسُرّ أصحابه ، وأثنى على جارية وعلى الأزد ، وذمّ البصرة فقال : إنها أول القُرى خرابا ؛ إما غرقا وإما حرقا ؛ حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة . ثم قال لظَبْيان : أين منزلك منها ؟ فقال : مكان كذا ، فقال : عليك بضواحيها .

وقال ابن العرندس الأزديّ يذكر تحريقَ ابن الحضرميّ ، ويعيِّر تميما بذلك :

رَدَدْنَا زياداً إلى دَارِهِ ... وجار تميم ينادى الشَّجَبْ (١)

لحا الله قوماً شَوَوْا جارهم ... لَعَمْرِى لبئس الشِّواء الشُّصُبْ (٢)

ينادى الخناق وأبناءها ... وقد شَيَّطُوا رأسَها باللَّهَبْ

والخناق لقب قوم بنى تميم .

---

(١) الشجب : الهلاك

(٢) الشصب : الشاة المسلوخة .

ومن كلام له عليه السلام لأصحابه :

الأصْلُ :

أَما إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجلٌ رَحْبُ البُلْعُوم ، مُنْدَحِقُ البَطْنِ ، يَأْكُلُ مَايَجِدُ ، وَيَطْلُبُ مَالَا يَجِدُ ، فَاقْتُلُوهُ ـ وَلَنْ تَقْتُلُوه . أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بسبِّي والبَرَاءَةِ مِنِّى ؛ فأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي ؛ فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجاةٌ ، وَأَمَّا البَرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرَّءوا مِنِّى ؛ فإنى وُلِدْتُ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَسَبَقْتُ إلى الْإِيمانِ وَالْهِجْرَةِ .

الشَّرْحُ :

مُنْدَحِق البطن : بارزها ، والدَّحُوق من النوق : التى يخرج رَحِمها عند[1] الولادة . وسيظهر : سيغلب . ورحْب البُلعوم : واسعه .

وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عَنَى زيادا ، وكثير منهم يقول : إنّه عَنَى الحجاج ، وقال قوم : إنّه عَنَى المغيرة بن شعبة . والأشبه عندى أنه عَنَى معاوية ، لأنه كان موصوفا بالنَّهَم وكثرة الأكل ، وكان بطينا ، يقعُد بطنُه إذا جلس على فَخِذَيه ، وكان معاوية جواداً بالمال والصِّلات ، وبخيلا على الطعام ؛ يقال : إنه مازح أعرابيا على طعامه ، وقد قُدِّم بين يديه خروف ، فأمعن الأعرابىّ فى أكله ، فقال له : ماذنبه إليك؟ أنطحك أبوه ؟ فقال الأعرابىّ : وما حُنُوُّك عليه ؟ أأرضعتْك أمه!

وقال لأعرابىّ يأكلُ بين يديه ، وقد استعظم أكله: ألا أبغيك سِكّينا ، فقال : « كلّ امرئ سِكِّينُه فى رأسه » .

---

(١) ج : « بعد » .

فقال : ماٱسمُك ؟ قال : لُقيم ، قال : منها أُتيت .

كان معاوية يأكل فيكثر ، ثم يقول : ارفعوا ، فوالله ماشبِعت ، ولكن مَلِلت وتعِبت .

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وآله دَعاَ عَلَى معاوية لَمَّا بعث إليه يستدعيه ، فوجده يأكل ، ثم بعث فوجده يأكل ، فقال : « اللهم لاتُشْبِع بطنه » ، قال الشاعر :

وَصَاحِبٍ لِى بَطْنُه كَالْهَاوِيَهْ   كَأَنَّ فِى أَحْشَائِهِ مُعَاوِيَهْ

***

وفى هذا الفصل مسائل :

الأولى : فى تفسير قوله عليه السلام : « فاقتلوه ولن تقتلوه » فنقول : إنه لاتنافىَ بين الأمر بالشىء والإخبار عن أنه لايقع ، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أنَّ أبا لَهب لا يؤمن وأَمَره بالإيمان ، وكما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] ثم قال : ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾ [2] ، وأكثر التكليفات على هذا المِنْهاج .

[مسألة كلامية فى الأمر بالشىء مع العلم بأنه لايقع]

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا فى أنه تعالى قَدْ يأمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عن أنه لايقع ؛ وإنما اختلفوا : هل يصحّ أن يريدَ مايعلم أنه لايقع ، أو يخبر عنه أنه لايقع؟ فقال أصحابنا : يصحّ ذلك ، وقالت المجبِرة : لايصحّ؛ لأنّ إرادة مايعلم المريد أنه لايقع قضية متناقضة ، لأن تحت قولنا : « أراد » مفهوم أنّ ذلك المراد مما يمكن حصوله ، لأنّ إرادة المحال ممتنعة . وتحت قولنا : « إنه يعلم أنه لايقع » مفهوم أنّ ذلك المراد مما لايمكن حصوله ، لأنا قد

---

(١) سورة البقرة ٩٥

(٢) سورة الجمعة ٧

فرضنا أنه لايقع وما لا يقع لايمكن حصوله مع فرض كونه لايقع ، فقال لهم أصحابنا : هذا يلزمكم فى الأمر ؛ لأنّكم قد أجزتم أنْ يأمرَ بما يعلم أنّه لايقع ، فقالوا فى الجواب : نحن عندنا أنه يأمر بما لايريد ، فإذا أمر بما يعلم أنه لايقع ، أو يخبر عن أنه لايقع ، كان ذلك الأمر أمراً عاريا عن الإرادة ، والحال إنما نشأ من إرادة ماعلم المريد أنه لايقع ، وهاهنا لاإرادة .

فقيل لهم : هب أنّكم ذهبتم إلى أن الأمر قد يَعْرَى من الإرادة مع كونه أمرا ، ألستم تقولون : إن الأمر يدلّ على الطلب ، والطلب شىء آخر غير الإرادة ! وتقولون : إن ذلك الطلب قائم بذات البارى ، فنحن نُلْزِمكم فى الطلب القائم بذات البارى ، الذى لايجوز أن يَعْرَى [1] الأمر منه ماألزمتمونا فى الإرادة .

ونقول لكم : كيف يجوز أن يطلب الطالب مايعلم أنّه لايقع ! أليس تحت قولنا طلب مفهوم أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه ! فالحال فى الطلب كالحال فى الإرادة ، حَذْو النّعل بالنعل . ولنا فى هذا الموضع أبحاث دقيقة ذكرناها فى كتبنا الكلامية .

[فصل فيما روى من سبّ معاوية وحزبه لعلى]

المسألة الثانية : فى قوله عليه السلام : «يأمركم بسبي والبراءة منى » ، فنقول: إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ علىّ عليه السلام والبراءة منه .

وخطب بذلك على منابر الإسلام ، وصار ذلك سنة فى أيام بنى أمية إلى أنْ قام عمر ابن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله . وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول فى آخر خطبة الجمعة : اللهم إنّ أبا تراب أَلْحَد فى دينك ، وصدّ عن سبيلك

---

(١) ا : « يتعرى ».

فالعنه لعنا و بيلا ، وعذبه عذابا أليما . وكتب بذلك إلى الآفاق ، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم ، فقام إليه إنسان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب ، فقال : اكفف ، فما لهذا جئنا .

وذكر المبرّد في '' الكامل '' أن خالد بن عبد الله القسريّ لَمّا كان أمير العراق في خلافة هشام ، كان يلعن عليا عليه السلام على المِنْبر ، فيقول : اللهم الْعن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته ، وأبا الحسن والحسين ! ثم يقبل على الناس ، فيقول : هل كَنَّيت [1] !

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بنى أمية قالوا لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، إنّك قد بلغتَ ماأمّلت ، فلو كففت عن لَعْن هذا الرجل ! فقال : لا والله حتى يربوَ عليه الصغير ، و يهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلا !

وقال أبو عثمان أيضاً : وما كان عبد الملك مع فَضْله وأناته وسَدَاده ورُجْحانه ممن يخفى عليه فضلُ على عليه السلام ، و إن لعنه على رءوس الأشهاد ، وفى أعطاف الخطب ، وعلى صَهَوات المنابر مما يعود عليه نقصه ، و يرجع إليه وهنه ، لأنهما جميعا من بنى عبد مناف ، والأصل واحد ، والجرثومة منبت لهما ، وشرف علىّ عليه السلام وفضله عائد عليه ، ومحسوب له ، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ مافعله الأسلاف ، وأن يقرّر فى أنفُس الناس أنّ بنى هاشم لاحَظّ لهم فى هذا الأمر ، وأنّ سيّدَهم الذى به يصولون ، و بفخره يفخرون ،

---

(١) الكامل ٤١٤ (طبع أوربا) .

هذا حاله وهذا مقداره ، فيكون مَنْ ينتمِي إليه ويُدْلِي به عن الأمر أبعد ، وعن الوصول إليه أشْحَط وأنْزَحَ .

وروى أهل السِّيرة أن الوليد بن عبد الملك فى خلافته ذكر عليا عليه السلام ، فقال: لعنه « اللهِ » بالجر ،كان لص ابن لص .

فعجب الناس من لَحْنه فيما لايلحن فيه أحد ، ومِنْ نسبته عليا عليه السلام إلى اللصوصيّة وقالوا : ماندرى أيّهما أعجب ! وكان الوليد لَحّانا .

وأمر المغيرة بن شعبة ــ وهو يومئذ أمير الكوفة مِنْ قِبَل معاوية ــ حُجْر بن عدىّ أن يقوم فى الناس، فليلعنَ عليا عليه السلام، فأبى ذلك ، فتوعده ، فقام فقال :أيّها الناس، إن أميركم أمرنى أن ألعن عليا فالعنوه .فقال أهل الكوفة : لعنه الله ! وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد .

وأراد زياد أن يعرِّض أهلَ الكوفة أجمعين على البراءة من علىّ عليه السلام ولعنه وأن يقتُلَ كلّ من امتنع من ذلك ، ويُخرِب منزله ، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون ، فمات ــ لارحمه الله ــ بعد ثلاثة أيام ، وذلك فى خلافة معاوية .

وكان الحجاج لعنه الله يلعنُ عليا عليه السلام ، ويأمر بلعنه . وقال له متعرّض به يوما وهو راكب: أيها الأمير ، إن أهلِي عَقُّونى فسمّونى عليا ، فغيِّر اسمى ، وصِلْنى بما أتبلّغ به ، فإنى فقير . فقال : لِلُطف ماتوصلت به قد سميتُك كذا ، ووليتك العمل الفلانىّ فاشْخَصْ إليه .

* * *

فأما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإنه قال : كنت غلاما أقرأ القرآن على بعض ولد عُتبة بن مسعود ، فمرَّ بى يوما وأنا ألعب مع الصبيان ، ونحن نلعنُ عليا ،

فكره ذلك ودخل المسجد ، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وِرْدى ، فلما رآنى قام فصلّى وأطالَ فى الصلاة ـ شِبْه المعرِض عَنّى ، حتى أحسست منه بذلك ، فلما انفتل من صلاته كَلَح فى وجْهى ، فقلت له : مابال الشيخ ؟ فقال لى : يابنىّ ، أنت اللاعن عَليًّا منذ اليوم ! قلت : نعم ، قال: فمتى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر بعد أن رَضِىَ عنهم! فقلت : ياأبت ، وهل كان علىّ من أهل بدر ؟ فقال : ويحك ! وهل كانت بدر كلُّها إلا له ! فقلت : لا أعود ، فقال : اللهَ أنك لاتعود ! قلت : نعم . فلم ألعنه بعدها ، ثم كنتُ أحضر تحت مِنْبر المدينة ، وأبى يخطب يوم الجمعة ، وهو حينئذ أمير المدينة ، فكنت أسمع أبى يمر فى خُطَبِه تهدِر شقاشقه ، حتى يأتىَ إلى لعن على عليه السلام فيجمْجِمُ ، و يعرِض له من الفهاهة والحَصَر مالله عالم به ، فكنت أعجب من ذلك ، فقلت له يوما : ياأبتِ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم ، فما بالِى أراك أفصحَ خطيب يوم حَفْلك ، حتى إذا مررت بلعْن هذا الرجل ، صِرْتَ ألكن عَيِيا ! فقال : يابنىّ ، إنّ مَنْ ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم ، لو علموا من فضل هذا الرجل مايعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد . فوقرت كلمتُه فى صدرى ؛ مع ما كان قاله لى معلمى أيام صِغَرى ، فأعطيت الله عهدا ؛ لئن كان لى فى هذا الأمر نصيب لأغيِّرنّه ، فلما منّ الله علىّ بالخلافة أسقطت ذلك ، وجعلت مكانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١) ، وكتبت به إلى الآفاق فصار سنة .

وقال كثيّر بن عبد الرحمن يمدح عُمَرَ ويذكر قطعه السبَّ :

وَلِيت فلم تشتِم عليا ولم تُخِفْ ... بريًّا ولم تَقبَلْ إساءَةَ مُجْرِم(٢)

وكفَّرت بالعفو الذنوب مع الّذِى ... أتيتَ فأضحى راضياً كلُّ مسلِمِ

---

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الأغانى ٩ : ٢٥٨ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية .

ألا إنمــا يكفى الْفَتَى بعد زَيْغِهِ من الأَوَدِ البادى ثِقــافُ المقوّمِ
وما زلتَ تَوّاقا إلى كلِّ غَايَةٍ بلغت بهــا أعْلَى العَلاء المُقَدَّمِ
فلمـا أتاك الأمر عَفْواً ولم يـكُنْ لطالبِ دنيـاَ بَعْدَهُ مِنْ تَـكَلُّمِ
تركتَ الذى يَفْنَى لأنْ كانَ بائدا وآثرتَ مايَبْقَى برأىٍ مصممِ

وقال الرضىّ أبو الحسن رحمه الله تعالى :

يَا بْنَ عَبْدِالْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ الْعَيْـــنُ فَتًى مِنْ أُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُكْ [(١)]
غـــير أنى أقول إنكَ قَدْ طِبْـــتَ وإن لم يَطِبْ ولَمْ يَزْكُ بيتُكْ
أنتَ نزَّهتَنا عن السبّ والقَذْ فِ ؛ فلو أمكنَ الجزاء جَزَيْتكْ
ولو أنِّى رأيت قـــبرك لاسْتحــيتُ مِنْ أن أُرَى وَمَا حَيَّيْتُكْ
وقليلٌ أنْ لو بزلتُ دِماء الــبُدْن صِرْفاً على الذُّرا وَسَقَيْتُكْ
دَيْرَ سَمْعان فيك مأوى أبِي حفـ ـصٍ بودّى لو أننى آويتُكْ
دَيْرَ سَمعَانَ لاأغبَّك غيثٌ خَيْرُمَيْتٍ من آلِ مَرْوَانَ مَيْتُكْ [(٢)]
أنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي إنْ تدانيتُ مِنْكَ أو إنْ نأيتُكْ
وإذا حرّك الحشا خاطرٌ منــك توهمْتُ أنَّنِي قد رأيتُكْ
وعجيب أنى قَلَيْتُ بَنِي مَرْ وان طُرًّا وأنَّنِي ماقليتُكْ
قرّب العدلُ منك لما نأى الجوْ رُ بهم فاجتويتُهمْ واجْتَبيتُكْ
فَلَوَ أنّى ملـكتُ دفعا لمانا بك من طارقِ الردى لَفَدَيْتُكْ

***

(١) ديوانه لوحة ١٢٤
(٢) دير سمعان ، بكسر السين وفتحها ؛ دير بنواحى دمشق عنده قبر عمر بن عبد العزيز (ياقوت)

وروى ابن الكلبيّ ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن السائب ، قال : قال الحجاج يوما لعبد الله بن هانئ ، وهو رجل من بنى أَوْد، حىّ من قَحْطان ، وكان شريفا فى قومه ، قد شهد مع الحجّاج مشاهده كلّها ، وكان من أنصاره وشيعته : والله ما كافأتك بعد ! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيّد بنى فزارة : أنْ زَوِّجْ عبد الله بن هانئ بابنتك ، فقال : لا والله ولا كرامة ! فدعا بالسياط ، فلما رأى الشرّ قال : نعم أزوّجه ، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الهَمْدانىّ رئيس اليمانية : زَوِّج ابنتك من عبد الله بن أَوْد ، فقال : ومَنْ أَوْد ! لا والله لا أزوجه ولا كرامة ! فقال : علىّ بالسيف، فقال: دَعْنِى حتى أشاورَ أهلى ، فشاورهم ، فقالوا: زَوِّجْه ولا تعرِّض نفسك لهذا الفاسق ، فزوجه . فقال الحجاج لعبد الله : قد زوجْتُك بنت سيّد فزارةَ و بنت سَيّد همدان ، وعظيم كهلان وما أَوْد هناك ! فقال : لاتَقُل أصلح الله الأمير ذاك ! فإنّ لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب ، قال : وما هى ؟ قال : ماسُبّ أمير المؤمنين عبد الملك فى نادٍ لنا قطّ ، قال : منقبة والله ، قال : وشهد مِنّا صِفِّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلا، ماشهد منا مع أبى تراب إلا رجل واحد ، وكان والله ماعلمته امْرَأ سوء ، قال : منقبة والله ، قال : ومنّا نسوة نَذَرْن : إن قتل الحسين بن على أنْ تنحر كلّ واحدة عشر قلائص ، ففعلن ، قال : منقبة والله ، قال : وما مِنّا رجل عُرِضَ عليه شتمُ أبى تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيْه حسناً وحسينا وأمهما فاطمة ، قال : منقبة والله ، قال : وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة مالنا ، فضحك الحجاج ، وقال : أماهذه ياأبا هانئ فدعها . وكان عبدُ الله دميما شديد الأُدْمة[1] مجدورا فى رأسه عَجَر ، مائل الشِّدق ، أحوَل قبيح الوجه ، شديد الحوَل .

* * *

وكان عبد الله بن الزبير يُبْغض عليا عليه السلام ، و ينتقِصه و ينال من عِرْضه .

---

(١) الأدمة . السمرة .

وروى عُمر بن شبّة وابنُ الكلبىّ والواقدىّ وغيرهم من رواة السير، أنّه مكث أيام ادّعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلِّى فيها على النبى صلى الله عليه وآله، وقال: لايمنعنى من ذِكره إلا أن تشمَخَ رجال بآنافها.

وفى رواية محمد بن حبيب وأبى عبيدة معمر بن المثنّى: أنّ له أُهَيْلَ سوء يُنغِضون رءوسهم عند ذكره.

وروى سعيد بن جُبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس: ماحديثٌ أسمعه عنك؟ قال: وماهو؟ قال: تأنيبى وذمّى! فقال: إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بئس المرءالمسلم يَشْبَع ويجوعُ جاره»، فقال ابن الزبير: إنى لأكتمُ بغضَكم أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة. وذكر تمام الحديث.

وروى عمر بن شبّة أيضا عن سعيد بن جُبير، قال: خطب عبدُ الله بن الزبير، فنال من علىّ عليه السلام، فبلغ ذلك محمد بن الحنفيّة، فجاء إليه وهو يخطُب، فوضِع له كرسىّ، فقطع عليه خطبتَه، وقال: يامعشرَ العرب، شاهت الوجوه! أَيُنتقصُ علىّ وأنتم حضور! إنّ عليا كان يدَ الله على أعداء الله، وصاعقةً من أمره، أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمروا له السيف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وآله حىّ بعدُ لم يمت؛ فلما نقلَه الله إلى جواره، وأحبّ له ماعنده، أظهرتْ له رجال أحقادها، وشفَتْ أضغانها، فمنهم مَنِ ابتزّه حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذرّيته وناصرى دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفِر على أجسادهم؛ والأبدانُ منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذلّ رقَابهم، فيكون الله عزّ اسمُه قد عذّبَهُم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشَفَا صدورَنا منهم؛ إنّه والله مايشتِم عليا إلا كافر يُسِرّ شتمَ رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن يبوحَ به،

فيكنى بشتم على عليه السلام عنه . أما إنّه قد تخطت المنيةُ منكم مَن امتدّ عمره ، وسمع قولَ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه : « لا يحبّك إلا مؤمن ، ولا يُبغضك إلا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »، فعاد ابنُ الزبير إلى خطبته ، وقال : عذرتُ بنى الفواطم يتكلّمون ؛ فما بالُ ابن أم حنيفة! فقال محمد : يابن أمّ رُومان [1] ؛ ومالى لا أتكلم ، وهل فاتنى من الفواطم إلا واحدة ! ولم يفتنى فخرها ؛ لأنّها أمّ أخوىّ . أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بن مخزوم ، جدة رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم ، كافلة رسول الله صلى الله عليه وآله ، والقائمة مقام أمّه ؛ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركتُ فى بنى أسد بن عبدالعزى عظما إلا هشمته ! ثم قام فانصرف.

***

[فصل فى ذكر الأحاديث الموضوعة فى ذم علىّ]

وذكر شيخُنا أبو جعفر [2] الإسكافىّ رحمه الله تعالى ـ وكان من المتحققّين بموالاة على عليه السلام ، والمبالغين فى تفضيله ؛ وإن كان القولُ بالتَّفْضِيل عاما شائعا فى البغداديين من أصحابنا كافة ؛ إلا أنّ أبا جعفر أشدُّهم فى ذلك قولًا ، وأخلصهم فيه اعتقادا ـ أنّ معاويةَ وضعَ قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة فى علىّ عليه السلام ، تقتضى الطعنَ فيه والبراءة منه ؛ وجعل لهم على ذلك جُعلا يُرْغَبُ فى مثله ؛ فاختلقوا ما أرضاه ، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير .

روى الزهرىّ أن عروة بن الزبير حدّثه ، قال : حدثتنى عائشة ، قالت : كنتُ عند

---

(١) كذا فى ا ، ب ، وفى ج : « قتيلة » .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى ؛ من متكلمى المعتزلة وأحد أئمتهم ؛ وإليه تنسب الطائفة الإسكافية منهم ؛ وهو بغدادى أصله من سمرقند ؛ قال ابن النديم : كان عجيب الشأن فى العلم والذكاء والصيانة ونبل الهمة والنزاهة ؛ بلغ فى مقدار عمره مالم يبلغه أحد ؛ وكان المعتصم يعظمه . وله مناظرات مع الكرابيسى وغيره . توفى سنة ٢٤٠ ، لسان الميزان ٥ : ٢٢١

رسول الله إذ أقبل العباس وعلىّ ، فقال : ياعائشة ، إن هذين يموتان على غير ملّتى — أو قال دينى .

وروى عبد الرزاق عن معمر ، قال : كان عنـد الزهرىّ حديثان عن عُروة عن عائشة فى علىّ عليـه السلام ؛ فسألتُه عنهما يوما ، فقال : ماتصنع بهما و بحديثهما ! الله أعلم بهما ؛ إنّى لأتهمهما فى بنى هاشم .

قال : فأمّا الحديث الأول ؛ فقد ذكرناه ؛ وأما الحديث الثانى فهو أن عُروة زعم أن عائشة حدثته ، قالت: كنت عند النبى صلى الله عليـه وآله إذ أقبل العباس وعلى ، فقال : «ياعائشة ؛ إن سَرّكِ أن تنظرى إلى رجلين من أهل النار فانظرى إلى هذين قد طلعا» ، فنظرت ، فإذا العباس وعلى بن أبى طالب .

وأما عمرو بن العاص ، فروى عنه الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما مسنداً متصلا بعمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنّ آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء إنّما وليىَّ الله وصالح المؤمنين » .

وأما أبو هريرة ، فروى عنـه الحديث الذى معناه أنّ عليا عليه السلام خطبَ ابنة أبى جهل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسخطه ، فخطب على المنبر ، وقال : لاها الله !لاتجتمع ابنـة ولىّ الله وابنة عدو الله أبى جهل ! إنّ فاطمة بَضعة(١) منى يؤذينى مايؤذيها ؛ فإن كان على يريد ابنةَ أبى جهل فيلفارق ابنتى ، وليفعل ما يريد» ، أو كلاما هذا معناه ، والحديث مشهور من رواية الكرابيسى .

قلت : هـذا الحديث أيضـا مخرج فى صحيحى مسلم والبخارى عن المِسْوَر بن مخرَمة الزهرىّ ؛ وقد ذكره المرتَضى فى كتابه « المسمى تَنْزيه الأنبياء والأئمة»، وذكر أنه رواية

---

(١) بضعة ، أى قطعة .

حسين الكرابيسى[1]، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام ، وعداوتهم والمناصبة لهم ، فلا تقبل روايتُه .

ولشياع هذا الخبر وانتشارِه ذكره مروان بن أبى حفصة فى قصيدة يمدح بها الرشيد ، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنْحِي عليهم ، ويذمّهم ،وقد بالغ حين ذمّ عليا عليه السلام ونال منه ، وأولها :

سَلَامٌ على جُمْلٍ ، وهَيْهَاتَ مِنْ جملِ ... وياحبّذا جملٌ وإن صَرَمَتْ حَبْلِي

يقول فيها :

علىّ أبوكمْ كان أفضلَ منكمُ ... أباه ذوُو الشورى وكانوا ذَوِى الفَضْلِ

وساء رسولَ الله إذ ساء بنتَه ... بخِطْبتِه بنتَ اللعين أبى جهلِ

فذمَّ رسول الله صهر أبيكمُ ... على مِنْبَرٍ بالمنطق الصادع الفَصْلِ

وحكّم فيها حاكمَيْن أبوكمُ ... هما خلعاه خَلْعَ ذِى النَّعْل للنعلِ

وقد باعها من بعده الحسنُ ابنُه ... فقد أبطلت دعواكمُ الرثّةُ الحبْلِ

وخلّيتُموها وهى فى غيرِ أهلها ... وطالبتُموها حين صارتْ إلى أهلِ

وقد رُوى هذا الخبر على وجوه مختلفة ، وفيه زيادات متفاوتة ؛ فمن الناس من يروى فيه : « مهماذممنا من صهر فإنا لم نذمّ صهر أبى العاص بن الربيع »، ومن الناس من يروى فيه : « ألا إن بنى المغيرة أرسلوا إلى علىٍّ ليزوجوه كريمتهم » ؛ وغير ذلك .

وعندى أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قَدْح ، لأنّ

---

(١) هو أبو على الحسين بن على بن يزيد الكرابيسى البغدادى ؛ صاحب الإمام الشافعى ، وأشهرهم بارتياد مجلسه وأحفظهم لمذهبه ؛ وله تصانيف كثيرة فى أصول الفقه وفروعه . توفى سنة ٢٤٨ . ابن خلكان ١ : ١٤٥

الأمة مجمعة على أنه لو نكح ابنةَ أبي جهل ، مضافا إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز ؛ لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع ؛ فابنةُ أبي جهل المشارُ إليها كانت مسلمة ، لأنّ هذه القصة كانت بعد فتح مكة ، وإسلامِ أهلها طوعا وكرها ، ورواة الخبر موافقون على ذلك ؛ فلم يبق إلا أنه إنْ كان هذا الخبر صحيحا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا رأى فاطمة عليها السلام قد غارت ، وأدركها ما يدرِكُ النساء ، عاتب عليا عليه السلام عتابَ الأهل ، وكما يستثبت الوالد رأى الولد ، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلح زوجته . ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام فحُرِّف وزيد فيه . ولو تأملت أحوال النبيّ صلى الله عليه وآله مع زوجاته ، وما كان يجرى بينه وبينهنّ من الغضب تارة ، والصلح أخرى ، والسخط تارة والرضا أخرى ، حتى بلغ الأمرُ إلى الطلاق مرة ، وإلى الإيلاء مرة ، وإلى الهَجْر والقطيعة مرة ، وتدبرت ما ورد فى الروايات الصحيحة مما كُنّ يلقيْنَه عليه السلام به ، ويُسمِعْنه إياه ؛ لعلمت أنّ الذى عاب الحسدة والشانئون عليًّا عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط ، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين تَيْنِكَ الامرأتين من الأحوال والأقوال ؛ حتى أنزِل فيهما قرآن يُتلَى فى المحاريب ، ويكتَب فى المصاحف ، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حيا ، منابذا لرسول الله صلى الله عليه وآله : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[1] ، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ . . . ﴾[1] الآيات بتمامها . ثم ضرب لهما مثلا امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعلَيْهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وتمام الآية معلوم ، فهل ما روى فى الخبر من تعصُّب فاطمة على علىّ عليه السلام

---

(١) سورة التحريم ٤ ، ٥

وغَيْرتها من تعريض بنى المغيرة له بنكاح عقيلتهم ، إذا قُويس إلى هذه الأحوال وغيرها مما كان يجرى، إلّا كنسبة التأفيف[1] إلى حرب البسوس ! ولكنّ صاحب الهوى والعصبية لا علاج له .

* * *

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبى جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى . قال أبو جعفر : وروى الأعمش ، قال : لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عامَ الجماعة ، جاء إلى مسجد الكوفة ، فلما رأى كثرة مَن استقبله من الناس جَثا على ركبتيه ، ثم ضرب صَلْعته مرارا ، وقال : يا أهل العراق ، أتزعمون أنّى أكذب على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسى بالنار ! والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إنّ لكل نبىٍّ حَرَماً ، وإنّ حَرَمى بالمدينة ، ما بين عَيْر إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناسِ أجمعين » ، وأشهد بالله أن عليا أحدث فيها ؛ فلما بلغ معاوية قولُه أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة .

قلت : أمّا قوله : «ما بين عَيْر إلى ثور[2] »، فالظاهر أنّه غلط من الراوى، لأن ثوراً بمكة وهو جبل يقال له: ثَوْر أطحل ، وفيه الغار الذى دخله النبى صلى الله عليه وآله وأبو بكر ؛ وإنما قيل : « أطحل » لأن أطحل بن عبد مناف بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مُضر بن نزار ابن عدنان كان يسكنه . وقيل اسم الجبل أطْحَل، فأضيف «ثور» إليه ؛ وهو ثَوْر بن عبد مناف، والصواب: « ما بين عَيْر إلى أُحد» .

فأما قول أبى هريرة : « إنّ عليا عليه السلام أحدَث فى المدينة» ، فحاش لله ! كان علىّ عليه السلام أتقى لله من ذلك؛ والله لقد نَصَر عثمان نصرا لو كان المحصورُ جعفر بن أبى طالب لم يبذُلْ له إلا مثله .

قال أبو جعفر : وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضىّ الرواية ، ضربَه عمر

(١) ج : « التأنف » .

(٢) عير : جبل بالحجاز .

بالدِّرة ، وقال : قد أكثرتَ من الرواية وأحْرِ بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه !

وروى سفيان الثوريّ عن منصور ، عن إبراهيم التيميّ ، قال : كانوا لا يأخذون عن أبى هريرة إلّا ما كانَ من ذِكْر جنة أو نار .

وروى أبو أسامة عن الأعمش ، قال : كان إبراهيمُ صحيحَ الحديث ، فكنتُ إذا سمعت الحديث أتيتهُ فعرضتهُ عليه ، فأتيته يوما بأحاديث من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، فقال : دعنى من أبى هريرة ، إنهم كانوا يتركون كثيرا من حديثه .

وقد روى عن علىّ عليه السلام أنه قال : ألَا إنّ أكذبَ الناس ـ أو قال : أكذب الأحياء ـ على رسول الله صلى الله عليه وآله أبو هريرة الدَّوْسِىّ .

وروى أبو يوسف ، قال : قلت لأبى حنيفة : الخبر يجىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف قياسَنا ما تصنع به ؟ قال : إذا جاءت به الرواة الثقاتُ عَمِلْنا به وتركنا الرأى ، فقلت : ما تقول فى رواية أبى بكر وعمر ؟ فقال : ناهيك بهما ! فقلت : علىّ وعثمان ، قال : كذلك ، فلما رآنى أعُدّ الصحابة قال : والصحابةُ كلّهم عدول ما عدَا رجالًا ، ثم عدّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك .

وروى سُفيان الثورىّ ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن عمر بن عبد الغفار ، أنّ أباهريرة لما قدِم الكوفة مع معاوية ، كان يجلس بالعشيّات بباب كِنْدة ، ويجلس الناس إليه ، فجاء شابٌّ من الكوفة ، فجلس إليه ، فقال : يا أبا هريرة ، أنشُدُك الله ، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلى بن أبى طالب : « اللهمّ والِ من والاه وعاد من عاداه » ! فقال : اللهم نعم ، قال : فأشهد بالله ، لقد واليتَ عدوّه ، وعاديت وليّه ! ثم قام عنه .

وروت الرواة أنّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان فى الطريق ، ويلعب معهم ، وكان يخطُب وهو أمير المدينة ،فيقول : الحمد لله الذى جعل الدِّين قياما،وأبا هريرة إماما؛ يُضحك الناس بذلك . وكان يمشى وهو أمير المدينة فى السُّوق ، فإذا انتهى إلى رجل يمشى أمامه ، ضرب برجليه الأرض ، ويقول : الطريق الطريق ! قد جاء الأمير ! يعنى نفسه .

قلت : قد ذكر ابن قتيبة هذا كله فى كتاب "المعارف" [1] فى ترجمة أبى هريرة ، وقوله فيه حجة لأنه غيرُ متّهم عليه .

***

قال أبو جعفر : وكان المغيرة بن شعبة يلعَنُ عليا عليه السلام لعنا صريحا على مِنْبر الكوفة وكان بلغه عن علىّ عليه السلام فى أيام عمر أنه قال : لئن رأيتُ المغيرة لأرجُمَنّه بأحجاره ـ يعنى واقعة الزنا بالمرأة التى شهد عليه فيها أبو بَكْرة ، وَنَكَل زياد عن الشهادة ـ فكان يُبغضه لذلك ولغيره من أحوال اجتمعت فى نفسه .

قال : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزّمع [2] عند ذكر علىّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى ، ويقول : وما يغنى أنّه لم يخالف إلى ما نُهِى عنه وقد أراق مِنْ دماء المسلمين ما أراق !

***

قال : وقد كان فى المحدّثين مَنْ يُبغضه عليه السلام ، ويروى فيه الأحاديثَ المنكرة ؛ مِنهم حَرِيز بن عثمان ، كان يُبغضه وينتقصه ، ويروى فيه أخبارا مكذوبة . وقد روى

---

(١) المعارف ص ١٢١

(٢) الزمع : تحرك الأنف غضبا .

المحدِّثون أنّ حَرِيزا رُئِيَ فى المنام بعد موته ، فقيلْ له . ما فعل الله بك ؟ قال : كاد يغفر لى لولا بغض علىّ .

قلت: قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب '' السقيفة '' ، قال : حدثنى أبو جعفر بن الجنيد ، قال : حدثنى إبراهيم بن الجنيد ، قال : حدثنى محفوظ ابن المفضل بن عمر ، قال : حدثنى أبو البُهلول يوسف بن يعقوب ، قال : حدثنا حمزة ابن حسان ــ وكان مولى لبنى أمية ، وكان مؤذِّنا عشرين سنة ، وحجّ غير حجة ، وأثنى أبو البهلول عليه خيرا ــ قال : حضرت حَرِيز بن عثمان ، وذكَر علىّ بن أبى طالب ، فقال : ذاك الذى أحلّ حرم رسول الله صلى الله عليه وآله ، حتى كاد يقع .

قال محفوظ : قلت ليحيى بن صالح الوُحاظىّ :قد رويت عن مشايخ مِنْ نظراء حَرِيز ، فما بالك لم تحمِلْ عن حَرِيز ؟قال : إنى أتيته فناولَنى كتابا ، فإذا فيه: حدثنى فلان عن فلان أنّ النبى صلى الله عليه وآله لما حضرتْه الوفاة أوصى أن تُقطعَ يدُ على بن أبى طالب عليه السلام، فرددت الكتاب ،ولم أستحلّ أنْ أكتب عنه شيئا .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو جعفر ، قال : حدّثنى إبراهيم ، قال : حدّثنى محمد ابن عاصم ، صاحب الخانات ، قال : قال لنا حريز بن عثمان : أنتم يا أهل العراق تحبُّون علىّ بن أبى طالب عليه السلام ونحن نُبغضه ، قالوا : لم ؟ قال : لأنه قتل أجدادى .

قال محمد بن عاصم : وكان حَرِيز بن عثمان نازلًا علينا .

* * *

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى : وكان المغِيرة بن شعبة صاحبَ دنيا، يبيع دينه بالقليل النَّزر منها ، يُرضِى معاوية بذكر على بن أبى طالب عليه السلام ، قال يوما فى مجلس معاوية : إنّ عليا لم يُنْكِحْه رسولُ الله ابنته حبا ؛ ولكنه أراد أن يكافىء بذلك إحسان أبى طالب إليه .

قال : وقد صح عندنا أن المغيرة لعنَه على منبر العراق مراتٍ لا تحصى ؛ ويروى أنه لما مات ودفنُوه ، أقبل رجل راكب ظَلِيما ، فوقف قريبا منه ثم قال :

أمن رَسْمِ دارٍ من مغـــيرة تعرف   عليهـــا زوانى الإنس والجن تَعْزِفُ

فإنْ كنتَ قد لاقيتَ فِرْعَوْنَ بَعْدَنا   وهامان فاعلم أنّ ذا العرش منصِفُ

قال : فطلبوه فغاب عنهم ولم يَرَوْا أحدا ، فعلموا أنه من الجنّ .

* * *

قال : فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقلّ من أن يذكر فى الصحابة الذين قد غمصْناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم ؛ لأنه كان مجاهرا بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبى العاص ؛ وهما الطَّريدان اللعينان ، كان أبوه عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحكيه فى مَشْيِه ، ويغمز عليه عينَه ، ويُدْلِع [1] له لسانه ويتهكم به ، ويتهافت عليه ؛ هذا وهو فى قبضتِه وتحت يده ، وفى دار دَعْوته بالمدينة ؛ وهو يعلم أنّه قادر على قتله أىّ وقت شاء من ليل أو نهار ، فهل يكون هذا إلا من شانئ شديد البِغْضة ، ومستحكم العداوة ؛ حتى أفضى أمرُه إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة ، وسيّره إلى الطائف .

وأما مَرْوان ابنهُ فأخبثُ عقيدة ، وأعظم إلحادا وكفرا ؛ وهو الذى خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة ؛ وهو يومئذ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال :

يَاحَبّذا بردُك فى اليدَيْنِ   وَحُمْرَةٌ تجْرِى عَلَى الخدَّيْنِ

* كأنّما بِتّ بمَحْشَدينِ *

---

(١) يدلع لسانه . يخرجه .

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبى ، وقال : يامحمد ، يوم بيوم بدر . وهـذا القول مشتق من الشعر الذى تمثّل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزِّبَعْرَى يوم وصل الرأس إليه . والخبر مشهور[1] .

قلت : هكذا قال شيخنا أبو جعفر ؛ والصحيح أنّ مروان لم يكن أميرَ المدينة يومئذ ؛ بل كان أميرَها عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحمـل إليه الرأس ؛ وإنمـا كتب إليه عُبيد بن زياد يبشّره بقتل الحسين عليـه السـلام ؛ فقرأ كتابه على المنبر ، وأنشـد الرجز المذكور ، وأومأ إلى القبر قائلا : يوم بيوم بَدْر ، فأنـكر عليـه قوله قومٌ من الأنصار . ذكر ذلك أبو عُبيدة فى كتاب " المثالب " .

قال : وروى الواقدىّ أنّ معاوية لمـا عادَ من العراق إلى الشام بعد بَيْعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال : أيها الناس ؛ إنّ رسول الله صلى الله عليـه وآله قال لى : « إنك ستلِي الخلافة من بعدى ، فاختر الأرض المقدّسة ، فإن فيها الأبدال ؛ وقد اخترتـكم ، فالعنوا أبا تراب . فلعنوه ، فلما كان من الغـد كتب كتابا ، ثم جمعهم فقرأه عليهم ؛ وفيه : هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية ، صاحب وحى الله الذى بعثَ محمدا نبيا ، وكان أميا لايقرأ ولا يكتب، فاصطفى له مِنْ أهله وزيراً كاتبا أمينا ، فـكان الوحى ينزلُ على محمد وأنا أكتبه ؛ وهو لايعلم ماأكتب ؛ فلم يكن بينى و بين الله أحدٌ من خَلْقِه . فقال له الحاضرون كلهم : صدقت ياأمير المؤمنين .

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين ١١٩ : « وقيل : إنه تمثل أيضا والرأس بين يديه بقول عبد الله بن الزبعرى :

لَيْتَ أشْيَاخِى بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأسَلْ

قَدْ قَتَلْنَا الْقَرْمَ مِنْ أشْيَاخِهِمْ ... وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فاعْتَدَلْ

والبيتان من قصيدة أنشدها يوم أحد ؛ فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٤، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٩٩ ، ٢٠٠

قال أبو جعفر : وقد روى أن معاوية بَذل لِسَمُرة بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروِى أن هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [1]،وأنّ الآية الثانية نزلت فى ابن مُلجم ، وهى قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَه ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[2] ، فلم يقبل، فبذل له مائتى ألف درهم فلم يقبل فبذل له ثلثمائة ألف فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة ألف فقبلَ ، وروى ذلك .

قال : وقد صحّ أنّ بنى أمية مَنَعُوا من إظهار فضائل على عليه السلام ، وعاقبوا ذلك الراوى له؛ حتى إنّ الرجلَ إذا رَوَى عنه حديثا لايتعلّق بفضله بل بشرائع الدِّين لايتجاسرُ على ذكر اسمه ؛ فيقول : عن أبى زينب .

وروى عطاء ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد ، قال : ودِدْت أن أترَكَ فأحدِّثَ بفضائل علىّ بن أبى طالب عليه السلام يوما إلى الليل ؛ وأنّ عُنُقى هذه ضربت بالسيف .

قال : فالأحاديث الواردة فى فضله لو لم تكن فى الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطاع نقلُها للخوف والتقيّة ، من بنى مروان مع طول المدّة ، وشدة العداوة ؛ ولولا أنّ لله تعالى فى هذا الرجل سرًّا يعلمه مَنْ يعلمه لم يُرْوَ فى فضله حديث ، ولا عُرِفَتْ له منقبة؛ ألا ترى أنّ رئيس قرية لو سخِط على واحد من أهلها ، ومنع النّاسَ أن يذكروه بخير وصلاح لخمل ذكرهُ ، ونسى اسمه ، وصار وهو موجود معدوما ، وهو حىٌّ ميتا . هذه خلاصة ماذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى فى هذا المعنى فى كتاب التفضيل .

* * *

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) سورة البقرة ٢٠٧

[فصل فى ذكر المنحرفين عن علىّ]

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أنّ عدة من الصحابة والتابعين والمحدّثين كانوا منحرفين عن على عليه السلام ، قائلين فيه السوء ، ومنهم من كَتم مناقبه وأعان أعداءه ميلا مع الدنيا ، و إيثارا للعاجلة ؛ فمنهم أنس بن مالك ، ناشد علىّ عليه السلام الناسَ فى رَحبَة القصر ــ أو قال رحبة الجامع بالكوفة ــ : أيّكم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ كنت مولاه فعلىّ مولاه » ؟ فقام اثنا عشر رجلا فشهدوا بها ، وأنس بن مالك فى القوم لم يقم ، فقال له : يا أنس ، مايمنعك أن تقوم فتشهد ، ولقد حضرتَها ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، كبرتُ ونسيت ، فقال : اللّهم إن كان كاذبا فارمه بها بيضاء لاتواريها العمامة . قال طلحة بن عمير : فوالله لقد رأيتُ الوَضَح به بعد ذلك أبيض بين عينيه .

وروى عثمان بن مُطرِّف أنّ رجلا سأل أنس بن مالك فى آخر عمره عن على بن أبى طالب ، فقال : إنى آليتُ ألّا أكتم حديثا سئلت عنه فى علىّ بعد يوم الرّحبة ؛ ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة ، سمعته والله من نبيكم .

* * *

وروى أبو إسرائيل عن الحكَم عن أبى سليمان المؤذن، أنّ عليا عليه السلام نَشَد الناس مَنْ سمع رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقول : « مَنْ كنت مولاه فعلّى مولاه » ! فشهد له قوم وأمسك زَيْد بن أرقم ، فلم يَشْهَد ــ وكان يعلمها ــ فدعا على عليه السلام عليه بذهاب البصر فعمِىَ ، فكان يحدّث الناس بالحديث بعد ما كُفّ بصره .

* * *

قالوا : وكان الأشعث بن قيس الكندىّ وجرير بن عبد الله البَجَلِىّ يُبغضانه ؛ وهدم علىّ عليه السلام دار جرير بن عبد الله .

قال إسمعيل بن جرير : هدم علىّ دارَنا مرتين .

وروى الحارث بن حصين ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبدالله نَعْلَيْن من نعاله ، وقال : احتفظ بهما ، فإن ذهابَهما ذهاب دينك ؛ فلما كان يومُ الجمل ذهبت إحداهما ، فلما أرسله على عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى ؛ ثم فارق عليا واعتزل الحرب .

***

وروى أهل السيرة أنّ الأشعث خطب إلى على عليه السلام ابنته ، فزَبره ، وقال : يابن الحائك ، أغرك ابنُ أبى قحافة !

وروى أبو بكر الهذلىّ عن الزّهرى ، عن عبيد الله بن عدىّ بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف ، قال : قام الأشعث إلى على عليه السلام ، فقال : إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد إليك عَهْدا لم يعهده إلى غيرك ؛ فقال : إنه عهد إلىّ مافى قراب سيفى ؛ لم يعهد إلىّ غير ذلك . فقال الأشعث : هذه إن قلتها فهى عليك لالك ؛ دَعْها ترحل عنك ، فقال له : وما علمك بما علىّ مما لى ! منافق ابن كافر ، حائك ابن حائك ! إنّى لأجد منك تيه الغزِل [1] . ثم التفت إلى عبيد الله بن عدى بن الخيار ، فقال : ياعبيدالله ، إنك لتسمع خلافا وترى عجبا ، ثم أنشد :

أصبحت هزأ لراعي الضأن أتبعُه [2] ... ماذا يَرِيبك منى راعىَ الضّان !

وقد ذكرنا فى بعض الروايات المتقدمات أنّ سبب قوله هذه : « عليك لالك » ، أمر آخر ، والروايات تختلف .

وروى يحيى بن عيسى الرملىّ ، عن الأعمش : أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبّان [3] الكوفة ، فمر بهما ضبّ يعدو ، وهما فى ذمّ على عليه السلام ، فنادياه : يا أبا حِسْل ؛ هلم

(١) الغزل : المسترخى الخلق ، وفى ج « الغزل » .

(٢) ج : « أصبحت فردا » .

(٣) الجبان فى الأصل : الصحراء ، وأهل الكوفة يسمون المقبرة جبانة ، وفى ا : « إلى الجبال » . وانظر مراصد الاطلاع .

يدَك نبايعك بالخلافة ، فبلغ عليا عليه السلام قولهما ، فقال : أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضبّ .

* * *

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفا عنه عليه السلام ، روى شريك ، عن عثمان ابن أبى زرعة ، عن زيد بن وهب ، قال : تذاكرنا القيام إذ مرّت الجنازة عند علىّ عليه السلام ، فقال أبو مسعود الأنصارى : قد كنا نقوم ، فقال على عليه السلام : ذاك وأنتم يومئذ يهود .

وروى شعبة ، عن عبيد بن الحسن ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : حضرتُ عليا عليه السلام ، وقد سأله رجل عن امرأة تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل ، فقال : تتربصُ أبْعَدَ الأجَلَيْن ، فقال رجل : فإن أبا مسعود يقول : وضعُها انقضاء عدتها ، فقال علىّ عليه السلام : إن فروجا لا يعلم ؛ فبلغ قوله أبا مسعود ، فقال : بلى ، والله إنى لأعلم أنّ الآخر شرّ .

* * *

وروى المنهال ، عن نعيم بن دجاجة ، قال : كنت جالسا عند على عليه السلام ، إذ جاء أبو مسعود ، فقال على عليه السلام : جاءكم فرّوج ، فجاء فجلس ، فقال له على عليه السلام : بلَغنى أنك تُفتى الناس ، قال : نعم ، وأخبِرهم إن الآخر شرّ ، قال : فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا؟ قال : نعم ، سمعته يقول : « لا يأتى على الناس سنة مائة وعلى الأرض عين تطرف » ، قال : أخطأت استُك الحفْرة ، وغلطت فى أوّل ظنك ؛ إنما عَنَى مَنْ حضره يومئذ ، وهل الرخاء إلا بعد المائة !

* * *

وروى جماعة من أهل السِّيَر أن عليا عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار : إنه لكذّاب ؛ وكان كعب منحرفا عن على عليه السلام . وكان النعمان بن بشير الأنصاريّ منحرفا عنه ، وعدوًّا له ، وخاض الدماء مع معاوية خوضاً ، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله .

وقد روى أنّ عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام ، وأنّ عليا سيّره إلى المدائن ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مات علىّ فلا أدرى ما موته، وإن قتل فعسى أنّى إن قتل زجوت له .

ومن الناس من يجعل عمران فى الشيعة .

* * *

وكان سَمُرة بن جندب من شرطة زياد ،روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن ، قال : جاء رجل من أهل خُراسان إلى البصرة ، فترك مالًا كان معه فى بيت المال ، وأخذ براءة ، ثم دخل المسجد فصلّى ركعتين فأخذه سَمُرة بن جُنْدَب ، واتّهمه برأى الخوارج ، فقدّمه فضرب عنقه ؛ وهو يومئذ على شُرْطة زياد ، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال ، فقال أبو بَكْرة: يا سَمُرة ، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [1] ، فقال : أخوك أمرنى بذلك .

* * *

وروى الأعمش ، عن أبى صالح ، قال : قيل لنا : قد قَدِم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتيناه فإذا هو سَمُرة بن جُنْدَب ، وإذا عند إحدى رجليه خَمْر ، وعند الأخرى ثَلْج ، فقلنا : ما هذا ؟ قالوا : به النِّقْرس ، وإذا قوم قد أتوه ، فقالوا يا سَمُرة ،

(١) سورة الأعلى ١٤ ، ١٥

ما تقول لربِّك غدا ؟ تؤتى بالرجل فيقال لك : هو من الخوارج فتأمر بقتله ؟ ثم تؤتى بآخر فيقال لك : ليس الذى قتلتَه بخارجىّ ، ذاك فتى وجدناه ماضياً فى حاجته ، فشبّه علينا ، وإنما الخارجىّ هذا، فتأمر بقتل الثانى ! فقال سَمُرة : وأىّ بأس فى ذلك ؛ إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة ، وإن كان من أهل النار مضى إلى النار .

* * *

وروى واصل مولى أبى عيينة ، عن جعفر بن محمد بن على عليه السلام عن آبائه ، قال : كان لسُمرة بن جُنْدَب نخل فى بستان رجل من الأنصار ، فكان يؤذيه ، فشكا الأنصارىّ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبعث إلى سَمُرة ، فدعاه فقال له : بع نخلك من هذا ، وخذ ثمنه ، قال : لا أفعل ، قال : فخذ نخلا مكان نخلك ، قال : لا أفعل ، قال : فاشترِ منه بستانه ، قال : لا أفعل ، قال : فاتركْ لى هذا النخل ولك الجنة ، قال : لا أفعل ، فقال صلى الله عليه وآله للأنصارى : « اذهب فاقطع نخله ، فإنه لا حق له فيه » .

* * *

وروى شريك قال : أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجْر بن عدى ، قال : قدمتُ المدينة فجلست إلى أبى هريرة ، فقال : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ، قال : ما فعل سَمُرة ابن جندب ؟ قلت : هو حىّ ، قال : ما أحدٌ أحبّ إلىّ طول حياة منه ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لى وله ولحذيفة بن اليمان : « آخركم موتا فى النار » ، فسبَقنا حذيفة ؛ وأنا الآن أتمنّى أن أسبِقه ، قال : فبقى سَمُرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين .

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام ، قال : كان سَمُرة بن جندب أيام مسير

الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرْطة عبيد الله زياد ، وكان يحرّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله .

* * *

ومن المنحرفين عنه ، المبغضين له عبد الله بن الزبير ؛ وقد ذكرناه آنفا ؛ كان على عليه السلام يقول : ما زال الزبير مِنّا أهلَ البيت حتى نشأ ابنهُ عبد الله ، فأفسده .

وعبد الله هو الذى حَمَل الزبيرَ على الحرب ؛ وهو الذى زيّن لعائشة مسيرَها إلى البصرة ؛ وكان سبّابا فاحشا ، يُبغض بنى هاشم ، ويلعن ويسب عليّ بن أبى طالب عليه السلام . وكان على عليه السلام يقنُت فى صلاة الفجر وفى صلاة المغرب ، ويلعن معاوية ، وعمرا ، والمغيرة ، والوليد بن عقبة ، وأبا الأعور ، والضحاك بن قيس ، وبُسْر بن أرطاة ، وحبيب بن مسلمة ، وأبا موسى الأشعرى ، ومَرْوان بن الحكم ؛ وكان هؤلاء يقنُتُون[1] عليه ويلعنونه .

* * *

وروى شيخُنا أبو عبد الله البصرىّ المتكلم رحمه الله تعالى ، عن نصر بن عاصم الليثى ، عن أبيه ، قال : أتيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والناس يقولون : نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، فقلت : ماهذا ؟ قالوا : معاوية قام الساعة ، فأخذ بيد أبى سفيان ، فخرجا من المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لعن الله التابع والمتبوع؛ رب يوم لأمّتى من معاوية ذى الأستاه » ، قالوا : يعنى الكبير العَجُز .

وقال روى العلاء بن حريز القشيرىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « لتتخذَنّ يامعاوية البدْعة سنة ، والقبيح حسنا ، أكلُك كثير ، وظلمك عظيم » .

قال : وروى الحارث بن حَصِيرة ، عن أبى صادق ، عن ربيعة بن ناجذ ، قال : قال

(١) يقنتون عليه : يدعون عليه .

على عليه السلام : نحن وآل أبى سفيان قوم تعادَوْا فى الأمر ، والأمر يعود كما بدا .

قلت : وقد ذكرنا نحن فى تلخيص نقض " السفيانية " مافيه كفاية فى هذا الباب .

* * *

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبى صادق ، عن جُندب بن عبد الله ، قال : ذُكِر المغيرة بن شُعبة عندَ علىّ عليه السلام وجدّه مع معاوية ، قال : وما المغيرة ! إنما كان إسلامه لفجْرةٍ وغَدْرة غدرها بنفر من قومه فتك بهم ؛ وركبها ، فهرب منهم ؛ فأتى النبى صلى الله عليه وآله كالعائذ بالإسلام ؛ والله مارأى أحدٌ عليه منذ ادّعى الإسلام خُضوعا ولا خشوعا ، ألا وإنه كان من ثَقِيف فراعنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق ، ويسعِّرون نيران الحرب ويوازرون الظالمين ؛ ألا إن ثقيفا قوم غُدُر ، لايوفون بعهد ، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم ؛ ولرب صالح قد كان فيهم. فمنهم عُروة بن مسعود وأبو عُبيد بن مسعود المستشهد يوم قُسّ النّاطف. وإن الصالح فى ثقيف لغَريب .

* * *

قال شيخنا أبو القاسم البلخى : من المعلوم الذى لاريبَ فيه لاشتهار الخبر به ؛ وإطباق الناس عليه ، أنّ الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيط ، كان يُبغِض عليا ويشتِمه ، وأنه هو الذى لَاحَاهُ فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ونابذه ، وقال له : أنا أثبتُ منك جَنانا ، وأحدّ سنَانا ، فقال له على عليه السلام : اسكت يافاسق ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ... ﴾[1] الآيات المتلوة ؛ وسمّى الوليد بحسب ذلك فى حياة رسول صلى الله عليه وآله الفاسق ؛ فكان لايُعْرَفُ إلا بالوليد الفاسق .

---

(١) سورة السجدة ١٨

وهـذه الآية من الآيات التى نزل فيهـا القرآن بموافقة علىّ عليه السلام ، كما نزل فى مواضع بموافقة عمر ؛ وسماه الله تعالى فاسقا فى آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[١]؛وسبب نزولها مشهور ؛ وهو كذبه على بنى المصطلق ، وادعاؤه أنّهم منعوا الزكاة وشهروا السيف؛حتى أمر النبى صلى الله عليه وآله بالتجهز[٢] للمسير إليهم؛ فأنزل الله تعالى فى تـكذيبه و براءة ساحة القوم هذه الآية[٣] .

وكان الوليد مذموما معيبا عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، و يشنؤه و يُعرِض عنه ؛ وكان الوليد يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً و يشنؤه، وأبوه عُقْبة بن أبى مُعيط هو العـدوّ الأزرق بمـكة ، والذى كان يؤذى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه وأهله ؛ وأخباره فى ذلك مشهورة ، فلما ظفر به يوم بَدْر ضرب عنقَه . وورث ابنُه الوليد الشنآن والبِغضْة[٤] لمحمد وأهله ؛ فلم يزل عليهما إلى أن مات .

قال الشيخ أبو القاسم : وهو أحد الصبية الذين قال أبوه عُقْبة فيهم ، وقد قُدّم ليُضرَب عنقه : مَنْ للصبية يا محمد ، فقال : «النار، اضربوا عنقه» .

قال : وللوليد شعر يقصد فيـه الرّد على رسول الله صلى الله عليـه وآله حيث قال : « إن تولوها عليا ، تجدوه هاديا مهديا » . قال : وذلك أن عليا عليه السلام لما قتِل قصد بنوه أن يُخْفُوا قبَره خوفا من بنى أمية أن يحدِثوا فى قبره حدَثاً ، فأوهموا الناس فى موضع قبره تلك الليلة ــ وهى ليلة دفنه ــ إيهاماتٍ مختلفة ، فشدّوا على جمل تابوتا موثَقاً بالحبال ، يفوح منه روائح الـكافور ، وأخرجوه من الـكوفة فى سواد الليل صحبة ثقاتهم ، يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام ،وأخرجوا بَغْلاً وعليه جِنازة[٥] مغطاة ،

---

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) ج : التجهيز .

(٣) أسباب النزول ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٤) البغضة : شدة البغض .

(٥) الجنازة ، بالـكسر ويفتح : الميت .

يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عِدّة، منها بالمسجد، ومنها برحبة القصر؛ قصر الإمارة، ومنها فى حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومىّ؛ ومنها فى أصل دار عبدالله ابن يزيد القَسْرى بحذاء باب الوراقين مما يلى قبلة المسجد، ومنها فى الكُناسة، ومنها فى الثّوِيّة، فعمىَ عَلَى الناس موضع قبره؛ ولم يَعْلَم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواصّ المخلِصون من أصحابه؛ فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السَّحر فى[1] الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه على النَّجف، بالموضع المعروف بالغرِىّ بوصاة منه عليه السلام إليهم فى ذلك، وعهدٍ كان عهد به إليهم، وعمىَ موضع قبره على الناس؛ واختلفت الأراجيف فى صبيحة ذلك اليوم اختلافا شديدا، وافترقت الأقوال فى موضع قبره الشريف وتشعّبت، وادّعى قوم أنّ جماعة من طيئٍ وقعوا على جملٍ فى تلك الليلة، وقد أضلّه أصحابه ببلادهم، وعليه صندوق، فظنوا فيه مالًا، فلما رأوا مافيه خافوا أن يُطْلَبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك فى بنى أمية وشيعتهم؛ واعتقدوه حقا؛ فقال الوليد بن عُقْبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها:

فإن يك قَدْ ضَلّ البعير بحَمْله ... فمَا كان مَهْدِيًّا ولا كان هاديا

وروى الشيخ أبو القاسم البلخِىّ أيضاً، عن جرير بن عبدالحميد، عن مغيرة الضبى، قال: مرّ ناس بالحسن بن على عليه السلام، وهم يريدون عيادَة الوليد بن عقبة، وهو فى عِلّة له شديدة، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائدا، فقال للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بينى و بين جميع الناس؛ إلّا ما كان بينى و بين أبيك، فإنّى لاأتوب منه.

قال شيخنا أبو القاسم البلخى: وأكد بُغْضَه له ضربه إياه الحدّ فى ولاية عثمان، وعزْله عن الكوفة.

---

(١) ج: «من الليلة».

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدّثين ؛ على أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا يُبغضك إلا منافق ، ولا يحبّك إلا مؤمن ».

قال : وروى حَبّة العُرَنيّ ، عن عليّ عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل أخذ ميثاق كلّ مؤمن على حُبّي وميثاق كل منافق على بغضي ، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ماأبغضني ، ولو صببت الدنيا على المنافق ماأحبّني .

وروى عبد الكريم بن هلال، عن أسلم المكيّ ، عن أبي الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، وهو يقول : لو ضربتُ خياشيمَ المؤمن بالسيف ما أبغضني ، ولو نثرت[1] على المنافق ذهبا وفضة ما أحبّني ؛ إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبي وميثاق المنافقين ببغضي ، فلا يُبغضني مؤمن ولا يحبني منافق أبدا .

قال الشيخ أبو القاسم البلخيّ : وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة ، قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا ببغض علي بن أبي طالب .

***

ذكر إبراهيم بن هلال ، صاحب كتاب " الغارات " فيمن فارق عليا عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجَيّة التيميّ، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وكان عليه السلام قد استعمله على الرّيّ ودَسْتَبَى[2] ، فكسرَ الخوارج ، واحتجن المال لنفسه ، فحبسه عليّ عليه السلام ، وجعل معه سعدا مولاه ، فقرّب يزيد ركائبه ، وسعد نائم ، فالتحق بمعاوية ، وقال :

---

(١) ج : « صببت ».
(٢) دستبى ، بالفتح ، ثم السكون وفتح التاء : كورة كانت مشتركة بين الري وهمذان .

خَادَعْتُ سَعْداً وارْتَمَتْ بِي رِكَائِبي ... إلى الشَّامِ واخْتَرْتُ الَّذِي هو أَفْضَلُ
وغادرتُ سعدا نائما في عباءةٍ (١) ... وسعدٌ غلامٌ مُسْتَهَامٌ مُضَلَّلُ

ثم خرج حتى أتى الرَّقة ، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق عليا عليه السلام، يبدأ بالرَّقة حتى يستأذِن معاوية في القُدوم عليه ، وكانت الرَّقة والرُّها وقَرْقِيسيا (٢) وحَرّان من حَيِّز معاوية ؛ وعليهم الضحاك بن قيس ، وكانت هِيت وعَانات ونصيبين ودارا وآمِد وسِنْجار من حَيِّز عليّ عليه السلام ؛ وعليها الأشتر ، وكانا يقتتلان في كل شهر .

وقال يزيد بن حُجَيَّةَ وهو بالرَّقة يهجو عليا عليه السلام :

ياطولَ لَيْلِيَ بالرَّقَّاتِ لَمْ أَنَمِ ... مِنْ غَيْرِ عِشْقٍ صَبَتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمِ
لكِنْ لذِكرِ أمورٍ جَمَّةٍ طَرَقَتْ ... أخشَى على الأَصْلِ مِنْهَا زَلَّةَ القَدمِ
أخشى عَلِيًّا عليهم أن يكونَ لَهُمْ ... مثلَ العَقُور الذي عَفَّى عَلَى إرَمِ

وبعد ذلك مالا نذكره .

قال إبراهيم بن هلال : وقد كان زياد بن خَصَفة التيميّ ، قال لعلي عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجَيَّة: ابعثني ياأمير المؤمنين في أثره أردّه إليك ؛ فبلغ قوله يزيد بن حُجَيَّة، فقال في ذلك :

أبلغ زياداً أنني قد كفيتُهُ ... أمورِي وَخَلّيت الَّذِي هُوَ عاتِبُهْ
وَبَابٌ شديدٌ مُوثَقٌ قد فتحتُه ... عليك ، وقد أعْيَتْ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهْ
هُبِلْتَ أَمَا ترجو غَنائي ومشهدِي ... إذا الخصمُ لم يُوجَدْ لَهُ مَنْ يُجاذِبُهْ ! (٣)

---

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب « غيابة » .
(٢) قرقيسياء : بلد على الخابور عند مصبه .
(٣) يجاذبه ، أي يحوله عن طريقه .

فأقسِمُ لولا أنَّ أمّكَ أمُّنا وأنك مولًى ماطفِقْتُ أعاتِبُهْ
وأقسم لو أدركْتَنِي مارَدَدْتَنِي كلانا قد اصطفّت إليه جَلائبُهْ

قال ابن هلال : وكتب إلى العراق شعرا يذمّ فيه عليا عليه السلام ، ويخبره أنّه من أعدائه ، فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصلاة : ارفعوا أيديَكم فادعوا عليه . فدعا عليه وأمّن أصحابُه .

قال أبو الصلت التيميّ : كان دعاؤه عليه : اللهم إنّ يزيدَ بن حُجَيّة هرب بمالِ المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين ، فاكفِنا مكره وكيدَه واجْزِه جزاء الظالمين .

قال : ورفع القومُ أيديَهم يُؤمِّنون ، وكان فى المسجد عِفاق بن شُرَحْبيل بن أبى رهم التيميّ شيخا كبيرا ، وكان يعدّ ممن شهد على حُجْر بن عديّ حتى قتله معاوية ، فقال عِفاق : عَلَى مَنْ يدعو القوم ؟ قالوا : عَلَى يزيد بن حُجَيّة ، فقال: تربَتْ أيديكم ! أعَلَى أشرافنا تدعُون ! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلِك . وقام زياد بن خَصَفة — وكان من شيعة على عليه السلام — فقال : دعوا لى ابنَ عمّى . فقال عليّ عليه السلام : دعوا للرَّجُل ابنَ عمه ، فتركه الناس ، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد ، وجعل يمشى معه يمسح التراب عن وجهه ، وعِفاق يقول : والله لاأحبّكم ماسعيت ومشيت ، والله لا أحبّكم ما اختلفت الدرّة والجرّة ؛ وزياد يقول : ذلك أضرّ لك ، ذلك شرٌّ لك .

وقال زياد بن خَصَفة يذكر ضرب الناس عِفاقا :

دعوت عِفاقا للهُدَى فاستغشّنِي وولّى فَرِيًّا قولُه وَهُوَ مُغْضَبُ
ولولا دفاعى عن عِفَاقٍ ومشهدِى هوت بِعفاقٍ عَوضُ عَنْقاءُ مُغْرِبُ[1]

---

(١) عوض ، معناه أبدا . وعنقاء مغرب ، قال فى اللسان : « العنقاء المغرب : كلمة لا أصل لها ؛ ويقال إنها طائر عظيم لا ترى إلا فى الدهور ؛ ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية عنقاء مغربا ومغربة » .

أنبِّئه أنّ الهـــدى فى اتباعنا فيأبى، ويُضْرِيه المراء فيشغَبُ [١]

فإلّا يشَايِعْنَا عِفاقُ فإننا [٢] على الحق ماغنّى الحَمام المطرِّبُ

سَيُغْنِى الإله عن عِفاق وَسَعْيه إذا بعثت للناس جَأواء تحْرَبُ [٣]

فإنّكَ من حىّ معد ومثلُهـــا يمـــانية لاتنثنِي حين تُنْدَبُ [٤]

لَهُمْ عَدَدٌ مثلُ التّراب وطاعةٌ تودّ، وبأس فى الوغى لايؤنّبُ

فقال له عِفاق : لو كنتُ شاعرا لأجبتك ؛ ولـكنى أخبركم عن ثلاث خصال، كنّ منكم؛ والله ماأرى أن تُصيبوا بعدهنّ شيئا مما يسركم :

أمّا واحدة، فإنكم سرتُم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم ؛ فلما ظنّ القومُ أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف ، فسخِروا بكم فردّوكم عنهم ، فلا والله لاتدخلونها بمثل ذلك الجِدّ والحدّ والعدد الذى دخلتموها أبدا .

وأما الثانية ،فإنكم بعثتم حَكَماً و بعث القوم حَكَمًا ؛ فأما حكَمُكم فخلعكمُ، وأما حَكَمهم فأثبتهم ؛ فرجع صاحبهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ورجعتم متلاعنين متباغضين ؛ فوالله لايزال القوم فى عَلاء ، ولا تزالون فى سِفال .

وأما الثالثة ، فإنه [٥] خالفكم قُرّاؤكم وفُرسانكم فعدوتُم عليهم فذبحتموهم بأيديكم؛ فوَالله لاتزالون بعدها متضعضعين [٦] .

قال : وكان يمرّ عليهم بعد، فيقول : اللهم إنى منهم برىء ولابن عفان ولىّ ! فيقولون : اللهم إنّا لعلى أولياء ومن ابن عفان برآء، ومنك ياعِفاق!

---

(١) الشغب : الشر .

(٢) ج : « يتابعنا » .

(٣) كتيبة جأواء : هى التى يعلوها لون السواد لكثرة الدروع .

(٤) تندب : تدعى فتخف للدعوى .

(٥) ج : « فإنكم » .

(٦) تضعضع : خضع وذل .

قال : فأخذ لا يُقْلِع؛ فدعوا رجلا منهم له سجاعة كسجاعة الكهان ، فقالوا : ويحك! أما تكفينا بسجْعك وخطبك هذا ! فقال : كفيتكم ، فمرّ عِفاق عليهم ، فقال كما كان يقول ، فلم يمهله أن قال له : اللهم اقتُل عِفاقا ، فإنه أسرّ نفاقا ، وأظهر شِقاقا ، وبيَّن فراقا ، وتلوّن أخلاقا .

فقال عُفاق : وَيْحكم ! من سَلّط علىّ هذا ؟ قال : الله بعثني إليك ، وسلّطني عليك لأقطع لسانك ، وأُنصِل سِنانك [1] ، وأطرد شيطانك .

قال : فلم يك يمرّ عليهم بعد ؛ إنما يمرّ على مزينة .

* * *

وممن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعَتِّب الثقفىّ ، شهد مع على عليه السلام صفين ، وكان فى أول أمره مع معاوية ؛ ثم صار إلى علىّ عليه السلام ، ثم رجع بعد إلى معاوية ، وكان على عليه السلام يسميه الهجَنّع ، والهجنّع: الطويل.

* * *

ومنهم القعقاع بن شُور ، استعمله على عليه السلام على كَسْكَر ، فنقَم منه أمورا ؛ منها أنه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم ؛ فهرب إلى معاوية .

* * *

ومنهم النجاشىّ الشاعر من بنى الحارث بن كعب ، كان شاعرَ أهل العراق بصِفّين ، وكان على عليه السلام يأمر بمحاربة شعراء أهل الشام ، مثل كَعْب بن جُعَيل وغيره ، فشرب الخمر بالكوفة ، فحدّه علىّ عليه السلام ، فغضب ولحق بمعاوية ؛ وهجا عليا عليه السلام .

---

(١) أنصل السنان : جعل له سنا ، ونزعه عنه ، من الأضداد ؟

حدث ابن الكلبيّ عن عَوانة ، قال : [1]خرج النجاشيّ فى أول يوم من شهر رمضان ، فمر بأبى سَمَّال الأسدىّ ، وهو قاعد بفناء داره ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أردت الكُناسة ، فقال هل لك فى رءوس وأَلْيات قد وُضِعت فى التَّنُّور من أول الليل ، فأصبحت قد أينعت وقد تهرّأت ؟ قال : وَيْحك ! فى أول يوم من رمضان ! قال : دعنا مما لا نَعرف ، قال : ثم مه ، قال : أسقيك من شرابَ كالوَرْس ، يُطَيِّب النفس ، ويجرى فى العِرْق ، ويزيد فى الطَّرْق ، يهضم الطعام ، ويُسَهِّل للفدْم [2] الكلام ؛ فنزل فتغديا ، ثم أتاه بنبيذ فشرباه ، فلما كان آخر النهار علت أصواتُهما ، ولهما جارٌ من شيعة على عليه السلام ، فأتاه فأخبره بقصّتهما ، فأرسل إليهما قوما فأحاطوا بالدار ، فأما أبو سمَّال فوثَب إلى دور بنى أسد فأفلت ؛ وأخِذ النجاشىّ ، فأتى عليه السلام به ، فلما أصبح أقامه فى سراويل ، فضربه ثمانين ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الحدّ فقد عرفته ، فما هذه العِلاَوة ؟ قال : لجراءتك على الله ، وإفطارك فى شهر رمضان . ثم أقامه فى سرَاويله للناس ، فجعل الصبيان يصيحون به : خَزِىَ النجاشىّ ، خزى النجاشى ! وجعل يقول : كلاّ إنهـا يمانية وِكاؤها شعر [3] .

قال : ومرّ به هند بن عاصم السّلولى ، فطرح عليه مُطرَفا ، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف ؛ حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة ، فمدح بنى سلول فقال :

إذا الله حَيَّا صالحاً من عباده	تقيًّا فحيّا الله هِنْدَ بْنَ عاصمِ
وكلّ سَلُولىّ إذا ما دعوتَه	سريع إلى داعى العلا والمكارمِ
هم البيض أقداما وديباجُ أوجهٍ	جلوها إذا اسودّتْ وجوهُ الملائمِ
ولا يأكل الكلب السروق نعالَهمْ	ولا يبتغى المخّ الذى فى الجماجمِ

---

(١) الخبر فى الشعر والشعراء ٢٨٩ والخزانة ٤ : ٣٦٨

(٢) الفدم : الغبي .

(٣) كذا فى الأصول .

ثم لحق معاوية، وهجا عليا عليه السلام، فقال:

أَلَا مِنْ مُبْلِغٍ عَنِّى عَلِيًّا ... بأنِّى قَدْ أَمِنْتُ فلا أَخَافُ
عَمِدْتُ لمستقرّ الحقّ لَمَّا ... رأيتُ أمورَكُمْ فيها اختِلافُ

وروى عبد الملك بن قُريب الأصمعىّ، عن ابن أبى الزناد، قال: دخل النجاشىّ على معاوية، وقد أذن للناس عامة، فقال لحاجبه: ادعُ النجاشىّ، والنجاشىّ بين يديه، ولكن اقتحمته عينه، فقال: هأنذا النجاشىّ بين يديك يا أمير المؤمنين؛ إنّ الرجال ليست بأجسامها؛ إنما لك من الرجل أصغراه: قلبه ولسانه، قال: ويحك! أنت القائل (١):

ونَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ ... أجشّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانى (٢)
إذا قلتُ أطراف الرماح تَنُوشُه ... مَرَتْه بِهِ الساقان والقَدَمانِ (٣)

ثم ضرب بيده إلى ثَدْيه (٤)، فقال: ويحك! إنّ مثلى لا تعدُو به الخيل؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنى لم أَعْنِك؛ إنما عنيتُ عُتْبَة.

وروى صاحب كتاب "الغارات" أن عليا عليه السلام لما حدّ النجاشىّ غضبت اليمانية لذلك، وكان أخصّهم به طارق بن عبد الله بن كعب النَّهْدىّ، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنّا نرى أنّ أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سِيّان فى الجزاء؛ حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث،

---

(١) البيتان فى الأغانى ١٣: ٢٦٠ (طبعة الدار)، والأول مع الخبر فى الشعر والشعراء ٢١٩

(٢) السابح: الفرس السريع كأنه يسبح بيديه والعلالة هنا بقية جرى الفرس. والأجش الغليظ الصوت فى صهيله؛ وهو مما يحمد فى الخيل. والهزيم: الفرس الشديد الصوت.

(٣) مرته: استدرت جريه

(٤) فى الشعر والشعراء: «ثندوءتيه»، والثندوءة: اللحم الذى حول الثدى.

فأوغرت صدورنا ، وشتّت أمورنا ، وحملتنا على الجادّة[١] التي كنا نرى أن سبيل مَنْ ركبها النار . فقال علي عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾[٢] ؛ يا أخا نَهْد ، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حُرَم الله ، فأقمنا عليه حدًّا كان كفارته ؛ إن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[٣] . قال : فخرج طارق من عنده ، فلقيه الأشتر ، فقال : يا طارق ؛ أنتَ القائل لأمير المؤمنين : « أوغَرْتَ صدورَنا، وَشَتَّتَّ أمورنا » ؟ قال طارق : نعم ، أنا قائلها ، قال : والله ما ذاك كما قلتَ ؛ إنّ صدورَنا له لسامِعة ، وإن أمورنا له لجامعة ، فغضب طارق وقال : ستعلم يا أشتر أنه غير ما قلت ؛ فلما جَنّه الليل هَمَس[٤] هو والنجاشيّ إلى معاوية ، فلما قدما عليه ، دخل آذنُه فأخبره بقدومهما ، وعنده وجوه أهل الشام ، منهم عمرو بن مرة الجهني وعمرو بن صيفيّ وغيرهما ، فلما دخلا نظر معاوية إلى طارق ، وقال : مرحبا بالمورق غصنُه ، والمعرِق أصلُه ، المسوّد غير المَسُود ؛ من رجل كانت منه هفوة ونبوة ، باتّباعه صاحبَ الفتنة ، ورأس الضلالة والشبهة ، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رَحْلها ، ثم أوجف في عَشْوة ظُلْمتها وتيه ضلالتها ؛ واتبعه رجرجة[٥] من الناس ، وأشابة[٦] من الحُثالة لا أفئدة لهم : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[٧]

فقام طارق ، فقال : يا معاوية إني متكلّم فلا يسخطك ، ثم قال : وهو متكئ على سيفه : إنّ المحمود على كلّ حال ربٌّ علا فوق عباده ، فهم منه بمنظر ومسمع ؛ بعث فيهم

---

(١) الجادّة : معظم الطريق ، أو وسطه .
(٢) سورة البقرة ٤٥ .
(٣) سورة المائدة ٨ .
(٤) الهمس : السير بالليل .
(٥) الرجرجة : الجماعة الكثيرة من الناس
(٦) الأشابة : أخلاط الناس
(٧) سورة محمد ٢٤

رسولا منهم ، يتلو كتابا لم يكن من قبله ولا يخطّه بيمينه ؛ إذاً لارتاب المبطلون ؛ فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًّا رحيما ! أما بعد ، فإنّ ما كنا نُوضِع فيما أوْضَعنا فيه بين يدى إمام تقىٍّ عادل ، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، أتقياء مرشدين ، ما زالوا مناراً للهدى ، ومعالم للدين ، خلفاً عن سلف مهتدين ، أهل دين لا دنيا ، كلّ الخير فيهم ، واتّبعهم من الناس ملوك وأقيال ، وأهلُ بيوتات وشرَف ، ليسوا بناكثين ولا قاسطين ، فلم يكن رغبةُ مَنْ رغب عنهم عن صحبتهم إلا لمرارة الحقّ حيث جُرِّعُوها ، ولوعورته حيث سلكوها ؛ وغلبت عليهم دنيا مؤْثَرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا؛ وقد فارق الإسلام قبلنا جَبَلة بن الأيهم فرارامن الضيم،وأنفا[1] من الذِّلة ، فلا تفخرَنّ يا معاوية ؛ إن شدَدْنا نحوك الرحال ، وأوْضَعْنا إليك الركاب ، أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولجميع المسلمين.

فعظُم على معاوية ما سمعه وغضب ، لكنه أمسك[2] ؛ وقال : يا عبد الله ؛ إنا لم نُرِدْ بما قلناه أن نوردَك مَشْرَع ظمأ ، ولا أن نُصدرك عن مَكْرَع رِىّ ؛ ولكنّ القول قد يجرى بصاحبه إلى غير ما ينطوى عليه من الفعل ، ثم أجلسه معه على سريره ، ودعا له بمقطّعات وَبُرود يضعها عليه ؛ وأقبل نحوه بوجهه يحدثه حتى قام .

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفى الجهنيان ، فأقبلا عليه بأشدّ العتاب وأمضّه ، يلومانه فى خطبته ، وما واجه به معاوية .

فقال طارق : والله ما قمت بما سمعتماه حتى خُيِّل لى أنّ بطن الأرض خير لى من ظهرها عند سماعى ما أظهرَ من العيب والنقص لمن هو خير منه فى الدنيا والآخرة ، وما زهَتْ به نفسُه ، وملَكه عجبه ، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقصهم ، فقمت مقاما أوجب الله علىّ فيه ألّا أقول إلّا حقا ، وأىّ خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غدا !

---

(١) ج : « وأنفة من المذلة » .
(٢) ج : « تماسك » .

فبلَغ عليًّا عليه السلام قولُه ، فقال : لو قُتل النهدىّ يومئذ لقتل شهيدا .

وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبى العُريان ـ وكان عُثمانيا ، وكانت امرأته عَلَوِيّة الرأى ، تكتب بأخبار معاوية فى أعنّة الخيل وتدفعُها إلى عسكر على عليه السلام بصفين فيدفعونها إليه ـ فقال معاوية بعد التحكيم : ياهيثم ، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعلى فى صِفّين أم أهل الشام لى ! فقال : أهل العراق قبل أن يُضْرَبوا مالبلاء كانوا أنْصَح لصاحبهم ؛ قال : كيف قلت ذلك ؟ قال : لأنّ القوم ناصحوه على الدّين ، وناصَحَك أهل الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصْبَرُ ، وهم أهل بصيرة ، وإنما أهل الدنيا أهلُ طمع ؛ ثم والله مالبث أهلُ العراق أنْ نبذُوا الدِّين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا ، فالتحقوا بك .

فقال معاوية فما الذى يمنع الأشعثَ أن يقدَم علينا ، فيطلب ماقِبَلنا ! قال : إن الأشعث يكرِم نفسَه أن يكون رأسا فى الحرب ، وذَنَباً فى الطمع .

* * *

ومن المفارقين لعلىّ عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبى طالب ؛ قَدِم على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفِدُه[1] ، فعرَض عليه عطاءه ، فقال : إنما أريدُ من بيت المال ، فقال : تقيم إلى يوم الجمعة ، فلما صلَّى عليه السلام الجمعة ، قال له : ماتقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين ؟ قال بئس الرجل ! قال : فإنك أمرتَنِى أن أخونهم وأعطيَك ، فلما خرج من عنده شخَص إلى معاوية ، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم ، وقال له : ياأبا يزيد ، أنا خير لك أم علىّ ؟ قال : وجدت عليا أنظرَ لنفسه منهُ لى ، ووجدتك أنظر لى منك لنفسك .

وقال معاوية لعقيل : إنّ فيكم يابنى هاشم ليناً ، قال : أجل إنّ فينا ليناً من غير

---

(١) يسترفده : يطلب عطاءه .

ضَعْف ، وعِزًّا من غير عُنْف ، و إن لينَكم يامعاوية غَدْر ، وسلْمكم كُفْر . فقال معاوية: ولا كلّ هذا ياأبا يزيد !

وقال الوليد بن عُقْبة لعقيل فى مجلس معاوية : غَلبك أخوك يا أبا يزيد على الثَّرْوة ! قال : نعم ، وسبقنى و إياك إلى الجنة ، قال: أما والله إن شِدْقَيْه لمضمومان من دم عثمان ، فقال : وما أنتَ وقريش ! والله ما أنتَ فينا إلا كنطيح التَّيْس . فغضب الوليد وقال : والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا فى قتله لأُرهِقُوا صَعُودا[1] ، و إن أخاك لأشدّ هذه الأمة عذابا ، فقال : صه ! والله إنا لنرغب بعبدٍ من عبيده عن صُحْبة أبيك عُقْبة ابن أبى مُعَيْط .

وقال معاوية يوما ـ وعنده عَمْرو بن العاص ،وقد أقبل عَقِيل: لأضحكنّك من عَقيل، فلما سلّم قال معاوية: مرحبا برجل عمّه أبو لهب؛ فقال عَقِيل : وأهلا برجل عَمّته : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾؛[2] لأنّ امرأة أبى لهب أمّ جميل بنت حرب ابن أمية .

قال معاوية: ياأبا يزيد ماظنّك بعمك أبى لهب ! قال: إذا دخلت النارَ فَخُذ على يسارك تجدْه مفترشا عَمّتك حمالةَ الحطب؛أفناكحٌ فى النار خيرٌ أم منكوح ! قال : كلاهما شرّ وا لله .

* * *

وممن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب ، خرج هو وجرير بن عبد الله البَجَلِيّ من الكوفة إلى قرقيسيا ؛ وقالا : لا نقيمُ ببلدة يُعاب فيها عثمان .

* * *

---

(١) الصعود : العقبة الشاقة .

(٢) المسد: حبل من ليف المقل.

وممن فارقه وائل بن حجر الحضرمىّ ، وخبره مذكور فى قصة بُسْر بن أرطاة .

* * *

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن إسماعيل بن حكيم ، عن أبى مسعود الجريرىّ ، قال: كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصلُون على بُغْض علىّ عليه السلام : مطرف بن عبد الله ابن الشخِّير ، والعلاء بن زياد ، وعبد الله بن شقيق .

قال صاحب كتاب " الغارات " : وكان مطرف عابدا ناسكا ؛ وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين : أن عمّار ابن ياسر دخل على أبى مسعود وعنده ابن الشِّخّير ، فذكر عليا بما لا يجوز أن يُذْكَر به ، فقال عمار : يافاسق و إنك لهاهنا ! فقال أبو مسعود : أذكِّرك الله يا أبا اليقظان فى ضَيْفى !

قال : وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانية ، وكانت فى أنفسهم أحقاد يوم الجمل ، وكان هو عليه السلام قليل التألّف للناس ، شديدا فى دين الله ، لا يبالى مع علمه بالدين ؛ واتباعه الحقّ مَنْ سخط ومَنْ رضِىَ .

قال : وقد روى يونس بن أرقم ، عن يزيد بن أرقم ، عن أبى ناجية ، مولى أم هانئ ، قال : كنت عندَ على عليه السلام ، فأتاه رجل عليه زِىُّ السّفر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى أتيتك من بلدة ما رأيت لك بها محبا ، قال : منْ أين أتيتَ ؟ قال : من البصرة ، قال : أما إنهم لو يستطيعون أن يحبونى لأحبونِى ؛ إنى وشيعتى فى ميثاق الله لا يزاد فينا رجلٌ ، ولا ينقص إلى يوم القيامة .

* * *

وروى أبو غسّان البصرىّ ، قال : بَنَى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض على بن أبى طالب والوقيعة فيه : مسجد بنى عدىّ ، ومسجد بنى مجاشع ،

ومسجد كان فى العلاّفين على فُرْضَة البصرة ، ومسجد فى الأزد .

***

ومما قيل عنه إنه يبغض عليا عليه السلام و يذمّه ، الحسن بن أبى الحسن البصرىّ أبو سعيد ؛ روى عنه حماد بن سلمة أنه قال : لو كان علىّ يأ كل الحَشَف [1] بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه .ورووا عنه أنه كان من المخذّلين عن نصرته .

وروى عنه أنّ عليا عليه السلام رآه وهو يتوضّأ للصلاة ، وكان ذا وسوسة، فصبّ على أعضائه ماء كثيرا ، فقال له : أرَقْتَ ماء كثيرا ياحسن ؛ فقال : ماأراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر ! قال : أو ساءك ذلك ؟ قال : نعم ، قال: فلا زلت مسوءاً .

قالوا : فما زال الحسن عابسا قاطبا مهموما إلى أن مات .

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكرونه و يقولون : إنه كان من محبّى على ابن أبى طالب عليه السلام والمعظّمين له .

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدّث فى كتابه المعروف بـ " الاستيعاب فى معرفة الصحاب " أنّ إنسانا سأل الحسن عن على عليه السلام ، فقال : كان والله سهماً صائبا من مرامِى الله على عَدُوِّه ، ور بانىّ هذه الأمة وذا فضلها ، وذا سابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لم يكن بالنُّوَمة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففازَ منه برياضٍ مُونقة ، ذلك على بن أبى طالب يالُكَع !

وروى الواقدىّ ، قال : سئِل الحسنُ عن علىّ عليه السلام ـ وكان يظنّ به الانحراف عنه ، ولم يكن كما يظنّ ـ فقال : ماأقول فيمن جَمَع الخصال الأربع ، ائتمانه على براءة ،

---

(١) الحشف : أردأ التمر.

وما قال لَهُ الرسول فى غزاة تَبُوك ، فلو كان غير النبوّة شىء يفوته لاستثناه ، وقول النبى صلى الله عليه وآله : « الثقلان كتاب الله وعِتْرتى » ، وإنه لم يؤمّر عليه أميرقطّ ، وقدأُمِّرت الأمراء على غيره .

وروى أبَان بنُ عياش ، قال : سألتُ الحسنَ البصرىّ عن علىّ عليه السلام ، فقال : ما أقولُ فيه ! كانتْ له السابقة ، والفضْل والعلْم والحكمة والفقه والرأى والصُّحبة والنَّجْدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة ، إن عليا كان فى أمرِه عليًّا ، رحم الله عليًّا ، وصلى عليه! فقلت: يا أبا سعيد ، أتقول: « صلّى عليه» لغير النبىّ ! فقال : ترحَّمْ على المسلمين إذا ذكروا ، وصلِّ على النبىّ وآله وعلى خير آله . فقلت : أهو خيرٌ مِنْ حمزة وجعفر ؟ قال : نعم ، قلت : وخيرٌ من فاطمة وابنيها ؟ قال : نعم ، والله إنه خيرُ آلِ محمد كلِّهم ، ومَنْ يَشُكّ أنّه خير منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « وأبوهما خير منهما » ! ولم يجر عليه اسمُ شِرْك ، ولا شرب خمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام: « زوّجتُكِ خير أمتى » ، فلو كان فى أمته خيرٌ منه لاستثناه ، ولقد آخى رسولُ الله صلى الله عليه آله بين أصحابه ، فآخى بين علىّ ونفسه ، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرُ الناس نفسا ، وخيرُهم أخا . فقلت : يا أبا سعيد ، فما هذا الذى يقال عنك إنّك قلته فى علىّ ؟ فقال : يابن أخى ، أحقِنُ دمى من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لسالَتْ بى الْخُشُب .

* * *

قال شيخُنا أبو جعفر الإسكافىّ رحمه الله تعالى، ووجدته أيضا فى كتاب " الغارات " لإبراهيم بن هلال الثقفى : وقد كان بالكوفة من فقهائها مَنْ يعادى عليا و يُبغضه ، مع غَلبة التشيّع على الكوفة ، فمنهم مرةُ الهمدانى .

* * *

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَين عن فِطْر بن خليفة ، قال : سمعت مُرّة يقول : لَأَنْ يكون علىّ جملًا يَستَقِى عليه أهلُه خير له ممّا كان عليه .

وروى إسماعيل بن بَهرام ، عن إسماعيل بن محمد ، عن عمرو بن مرة ، قال : قيل لمرّة الهمْدانىّ : كيف تخلّفْت عن علىّ ؟ قال[1] : سَبَقَنا بحسناته ، وابتُلِينا بسيئاته .

قال إسماعيل بن بَهْرام : وقد روينا عنه أنه قال أشدّ فُحْشاً من هذا ؛ ولكنا نتورّع عن ذكره .

وروى الفضل بن دُكَين ، عن الحسن بن صالح ، قال : لم يصلّ أبو صادق على مُرّةَ الهمْدانىّ .

قال الفضلُ بن دُكين : وسمعتُ أنّ أبا صادق قال فى أيام حياة مُرّة : والله لا يظلّنى وإياه سَقْفُ بيتٍ أبدا .

قال : ولما مات لم يحضُره عمرو بن شرحبيل ، قال : لا أحضُره لشىء كان فى قلبه عَلَى علىّ بن أبى طالب .

قال إبراهيم بن هلال : فحدّثنا المسعودىّ، عن عبد الله بن نُمير بهذا الحديث . قال : ثم كان عبد الله بن نُمير يقول ، وكذلك أنا ؛ والله لو مات رجلٌ فى نفسه[2] شىء عَلَى علىّ عليه السلام لم أحضُرْه ، ولم أصلّ عليه .

***

ومنهم الأسود بن يزيد ومَسْروق بن الأجدع ؛ روى سَلَمة بن كُهيل : أنّهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقَعانِ فى علىّ عليه السلام ؛ فأمّا الأسود فمات على ذلك ؛ وأما مسروق فلم يمُتْ حتى كانَ لا يصلّى لله تعالى صلاةً

---

(١) : ب « فقال » .

(٢) ب « فى قلبه » .

إلا صلّى بعدها عَلَى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، لحديث سمعه من عائشة فى فضله .

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكين ، عن عبد السلام بن حَرْب ، عن ليث بن أبى سُلَيم ، قال : كان مسروق يقول : كان علىّ كحاطب ليل ؛ قال : فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا .

وروى سَلَمة بن كُهَيْل ، قال : دخلتُ أنا وزبيد اليامىّ على امرأةِ مسروق بعد موته ؛ فحدثتْنا ، قالت : كان مسروق والأسود بن يزيد يُفْرِطان فى سبّ على ابن أبى طالب ، ثم ما مات مسروق حتى سمعتُه يصلّى عليه ، وأما الأسود فمضى لشأنه ، قال : فسألناها : لم ذلك ؟ قالت : شىء سمعه مِنْ عائشة تَرْوِيه عن النبىّ صلى الله عليه وآله فيمن أصابَ الخوارج .

ورُوِى أبو نعيم ، عن عمرو بن ثابت ، عن أبى إسحاق ، قال : ثلاثة لا يؤْمَنُون عَلَى علىّ ابن أبى طالب : مسروق ، ومرّة ، وشُريح .

وروى أنّ الشعبىّ رابعهم .

ورُوِى عن هيثم ، عن مجالد ، عن الشعبى ، أنّ مسروقا ندِم عَلَى إبطائه عن علىّ ابن أبى طالب عليه السلام .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم التّيمىّ ؛ قال : قال علىّ عليه السلام لشريح ؛ وقد قضى قضيَّة نَقَم عليه أمرَها : والله لأنفينّك إلى بَانِقْيَا[1] شهرين تقضى بين اليهود ، قال : ثم قُتِل علىّ عليه السلام ومضى دهر ؛ فلما قام المختار بن أبى عبيد قال لشُريح : ما قال لك أميرُ المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال : إنه قال لى كذا ، قال : فلا والله لا تقعد ، حتى تخرج إلى بانِقْيَا تقضى بين اليهود . فسيّره إليها فقضَى بين اليهود شهرين .

* * *

(١) بانقيا ، بكسر النون : ناحية من نواحى الكوفة كانت على شواطئ الفرات (مراصد الاطلاع).

ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة ، كان عُثمانيا يقع فى علىّ عليه السلام ، ويقال : إنه كانَ يرى رأىَ الخوارج ، ولم يختلف فى أنه خرج معهم ؛ وأنّه عاد إلى علىّ عليه السلام مُنِيبا مقلِعا .

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، فخرج إلينا علىّ، فما زال يكلّمنا حتى رجع منا ألفان .

وروى صاحب كتاب '' الغارات '' ، عن عثمان بن أبى شيبة ، عن الفَضْل بن دُكَيْن، عن سفيان الثورىّ ، قال : سمعت أبا وائل يقول : شهدت صِفّين وبئس الصُّفوف كانت !

قال : وقد روى أبو بكر بن عياش ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، قال : كان أبو وائل عثمانيا ، وكان زِرُّ بن حُبَيش عَلَوِيًّا .

***

ومن المبغضين القالين أبو بُرْدة بن أبى موسى الأشعرىّ ، ورِث البِغْضة له ، لا عن كلالة [1] .

وروى عبد الرحمن بن جُندَب ، قال: قال أبو بردة لزياد : أشهد أنّ حُجْر بن عدىّ قد كفر بالله كفرة أصْلَع ، قال عبد الرحمن : إنّما عَنَى بذلك نِسْبَة الكفر إلى علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ لأنّه كان أصلع .

قال : وقد روى عبد الرحمن المسعودىّ، عن ابن عياش المنتُوف، قال : رأيت أبا بُرْدة قال لأبى العادية الُجهنىّ قاتل عمار بن ياسر : أأنت قتلتَ عمار بن ياسر ؟ قال : نعم ، قال : ناولنى يدَك . فقبّلَها ، وقال : لا تمسّك النار أبدا .

---

(١) يقال : لم يرثه كلالة ، أى لم يرثه عن عرض بل قرب ؛ يريد أنه ورث البغض عن أبيه أبى موسى الأشعرى .

وروى أبو نُعيم عن هشام بن المغيرة ، عن الغضبان بن يَزيد ، قال : رأيت أبا بُرْدة قال لأبى العادية قاتلِ عمار بن ياسر : مرحبا بأخى هاهنا ! فأجلسه إلى جانبه .

***

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ القارئ ؛ روى صاحب كتاب " الغارات " عن عطاء بن السائب ، قال : قال رجل لأبى عبد الرحمن السُّلمىّ : أنْشُدُكَ بالله ، إن سألتُك لتخبرنّى ؟ قال : نعم ، فلما أكّد عليه قال : بالله هل أبغضت عليًّا إلا يوم قسم المال فى الكوفة فلم يصلْك ولا أهلَ بيتك منه بشىء ! قال : أما إذْ أنْشَدْتَنى بالله ، فلقد كان كذلك .

قال : وروى أبو عمر الضّرير ، عن أبى عوانة ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عطية و بين أبى عبد الرحمن السُّلمِىّ شىء فى أمر علىّ عليه السلام ؛ فأقبل أبو عبد الرحمن على حَيّان ، فقال : هل تَدْرِى ما جَرّأ صاحبَك عَلَى الدماء ؟ يعنى عليا ، قال : وما جَرّأه لا أبا لغيرك؟ قال : حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، أو كلاما هذا معناه .

***

وكان عبد الله بن عُكَيْم عُثمانيا ؛ وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى عَلَوِيًّا ، فروى موسى الجهنى ، عن ابنة عبد الله بن عُكَيْم ، قال : تحدثا يوما ، فسمعت أبى يقول لعبد الرحمن : أما إن صاحبَك لو صَبَرَ لأتاه الناس .

***

وكان سهم بن طريف عثمانيا ، وكان علىّ بن ربيعة عَلَوِيًّا ، فضرب أمير الكوفة عَلَى الناس بعثا ، وضرب عَلَى سهم بن طريف معهم ، فقال سهم لعلىّ بن ربيعة : اذهب إلى الأمير فكلِّمْه فى أمرى ليُعْفِيَنى ، فأتى علىّ بن ربيعة الأمير ، فقال : أصلحك الله !

إن سهما أعمى فأعْفِهِ ، قال : قد أعفيتهُ ، فلما التقيا قال : قد أخبرت الأميرَ أنّك أعمى ؛ وإنما عنيت عمى القلب .

***

وكان قيس بن أبى حازم يُبْغِض عليا عليه السلام ؛ روى وكيع ، عن إسماعيل ابن أبى خالد ،عن قيس بن أبى حازم ، قال : أتيت عليا عليه السلام ليكلّم لى عثمان فى حاجة ، فأبى فأبغضتهُ .

قلت: وشيوخنا المتكلّمون ــ رحمهم الله ــ يُسقِطون روايته عن النبى صلى الله عليه وآله: « إنكم لترونَ ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر » ، ويقولون : إنه كان يُبغِض عليا عليه السلام ؛ فكان فاسقا ، ونقلوا عنه أنه قال : سمعت عليا عليه السلام يخطب على المنبر ، ويقول : « انفروا إلى بقية الأحزاب » ، فدخل بغضُه فى قلبى .

***

وكان سعيد بن المسيّب منحرفا عنه عليه السلام ، وجبّهه عُمر بن على عليه السلام فى وجهه بكلام شديد .

روى عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبى داود الهمدانىّ ، قال : شهدت سعيد ابن المسيّب ــ وأقبل عمر بن على بن أبى طالب عليه السلام ، فقال له سعيد : يا بن أخى ، ما أراك تكثِر غِشْيان مسجد رسول الله صلى الله عليه كما يفعل إخوتك وبنو أعمامك ! فقال عمر : يابن المسيّب ، أكلما دخلت المسجد أجىء فأشهدك ! فقال سعيد : ما أحبّ أن تغضب ، سمعت أباك يقول : إنّ لى من الله مقاما لهو خيرٌ لبنى عبد المطلب ممّا على الأرض من شىء . فقال عمر : وأنا سمعت أبى يقول : ما كلمة حكمة

فى قلب منافق فيخرج من الدنيا، حتى[1] يتكلم بها . فقال سعيد:يابن أخى،جعلتنى منافقا ! قال : هو ما أقول لك. ثم انصرف .

***

وكان الزهرىّ من المنحرفين عنه عليه السلام .

وروى جرير بن عبد الحميد ، عن محمد بن شيبة ، قال : شهدتُ مسجد المدينة ، فإذا الزهرىّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران عليا عليه السلام ، فنالا منه ، فبلغ ذلك علىّ ابن الحسين عليه السلام ؛ فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : أمّا أنتَ ياعُروة فإن أبى حاكم أباك إلى الله ، فحكَم لأبى على أبيك ؛ وأما أنت يازهرىّ ، فلو كنتَ بمكة لأريتُك كِيرَ أبيك .

وقد روى من طرق كثيرة ، أنّ عروة بن الزبير كان يقول : لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه يزهو إلا علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد .

وروى عاصم بن أبى عامر البَجَلىّ،عن يحيى بن عروة ، قال : كان أبى إذا ذكر عليا نال منه .

وقال لى مرة : يابنى ، والله ماأحجم الناسُ عنه إلا طلبا للدنيا ؛ لقد بعَثَ إليه أسامة ابن زيدأن ابعثْ إلىّ بعطائى، فوالله إنّك لتعلمأنك لو كنتَ فى فم أسدلدخلتُ معك.فكتب إليه : إنّ هذا المال لمن جاهد عليه ؛ ولكنّ لى مالًا بالمدينة فأَصِبْ منه ماشئت .

قال يحيى : فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به ، ومن عيبه له وانحرافه عنه .

***

وكان زيد بن ثابت عُثمانيا شديداً فى ذلك ، وكان عمرو بن ثابت عثمانيا ، من أعداء على عليه السلام ومُبغضيه ، وعمرو بن ثابت هو الذى روى عن أبى أيوب الأنصارى حديثَ : « ستة أيام من شوّال» .

---

(١) ب : « إلا » .

روى عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرَى بالشام ويجمع أهلها ، ويقول : أيّها الناس ، إنّ عليا كان رجلا منافقا ، أراد أن ينْخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة ، فالعنوه ، فيلعنه أهلُ تلك القرية ؛ ثم يسير إلى القرية الأخرى ، فيأمرهم بمثل ذلك . وكان فى أيام معاوية .

* * *

وكان مكحول من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحرّ ، قال : لقيت مكحولا ؛ فإذا هو مطبوع — يعنى مملوءا — بغضا لعلىّ عليه السلام — فلم أزل به حتّى لان وسكن .

وروى المحدّثون عن حماد بن زيد ، أنه قال : أرى أن أصحاب علىّ أشدُّ حبا له من أصحاب العِجْل لعجلهم . وهذا كلام شنيع .

وروى عن شبابة بن سوّار أنه ذكر عنده ولد على عليه السلام ، وطلبهم الخلافة فقال : والله لايصِلُون إليها أبدا ، والله ما استقامت لعلىّ ، ولا فرح بها يوما ، فكيف تصير إلى ولده ! هيهات هيهات ! لا والله لا يذوقُ طعمَ الخلافة مَنْ رضِىَ بقتل عثمان .

* * *

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ : كان أهلُ البصرة كلّهم يُبغضونه ، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة ؛ وأما أهلُ مكة فكلّهم كانوا يُبغضونه قاطبةً ، وكانت قريش كلها على خلافه ، وكان جُمهور الخلق مع بنى أمية عليه .

وروى عبد الملك بن عمير ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، وهو يقول : مالقىَ أحدٌ من الناس مالقيت ! ثم بكى عليه السلام .

وروى الشَّعبىّ ، عن شريح بن هانئ ، قال: قال علىّ عليه السلام: اللهم إنّى أستعديك

على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحِمِى ، وأصغوْا[1] إنائى ، وصَغَّروا عظيم منزلتى ، وأجمعوا على منازعتى .

وروى جابر عن أبى الطفيل ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : اللهم إنّى أستعديك على قريش ؛ فإنهم قطعوا رَحمى ، وغَصَبُونى حَقِّى، وأَجمعوا على منازعتى أمراً كنت أولى به ، ثم قالوا : إنّ من الحق أن تأخذه ، ومن الحق أن تتركه .

وروى المسيّب بن نَجْبَة الفزارىّ ، قال : قال على عليه السلام : من وجدتموه من بنى أميّة فى ماء فغطُّوا على صِماخه ، حتى يدخل الماء فى فيه .

وروى عمرو بن دينار، عن ابن أبى مُليكة، عن المِسْوَر بن مخرمة ، قال : لقىَ عبدالرحمن ابن عوف عمرَ بن الخطاب ، فقال : ألم نكن نقرأ من جملة القرآن : قاتلوهم فى آخر الأمر كما قاتلتموهم فى أوله ؟ قال : بلى ؛ ولكن ذاك إذا كان الأمراء بنى أمية والوزراء بنى مخزوم .

وروى أبو عمر النّهدىّ ، قال : سمعت على بن الحسين يقول : ما بمكة والمدينة عشرون رجلا يحبُّنا .

وروى سفيان الثورىّ ، عن عمرو بن مرة، عن أبى البخترىّ ، قال : أثنى رجلٌ على علىّ بن الحسين فى وجهه ــ وكان يُبغضه ــ فقال علىّ : أنا دون ما تقول ، وفوق ما فى نفسك .

وروى أبو غسان النهدىّ ، قال:دخل قوم من الشيعة على علىّ عليه السلام فى الرّحبة، وهو على حَصير خَلَق ، فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : حبك ياأمير المؤمنين ، قال : أما إنه مَنْ أحبنى رآنى حيث يحبّ أن يرانى ، ومن أبغضنى رآنى حيث يكره أن يرانى ، ثم قال : ماعَبَد الله أحدٌ قبلى إلا نبيه عليه السلام ؛ ولقد هَجَم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان ، فقال : أو أفعلتموها ! ثم قال لى وأنا غلام : وَيْحَك ، انصر ابن عمك ! وَيْحك لاتخذله ،

(١) يقال : أصغى فلان إناء فلان إذا أماله ونقصه حقه . (اللسان) .

وجعل يحثنى على موازرته ومكانفته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « أفلا تصلّى أنت معنا ياعمّ! » فقال : لا أفعل يابن أخى ، لاتعلونى استى . ثم انصرف .

وروى جعفر بن الأحمر، عن مسلم الأعور، عن حبّة العُرَنىّ، قال: قال على عليه السلام: مَنْ أحبنى كان معى ؛ أما إنكَ لو صُمْت الدهر كلَّه ، وقمت الليل كله ، ثم قُتِلت بين الصفا والمروة ـ أو قال بين الركن والمقام ـ لما بعثك الله إلا مع هواك بالغا مابلغ ؛ إنْ فى جنة ففى جنة ، وإن فى نار ففى نار .

وروى جابر الجعفىّ، عن على عليه السلام أنه قال : مَنَ أحبنا أهلَ البيت فليستعدّ عدة للبلاء .

وروى أبو الأحوص، عن أبى حيان عن علىّ عليه السلام : يهلِك فىّ رجلان، محبّ غالٍ ، ومبغض قالٍ .

وروى حماد بن صالح ، عن أيوب ، عن كهمس ؛ أنّ عليا عليه السلام قال : يهلِك فىّ ثلاثة : اللاعن والمستمع المقرّ ، وحامل الوِزْر، وهو الملك المترَف ، الذى يُتقرَّب إليه بلعنتى، ويُبرأ عنده من دينى ، ويُنتقص عنده حسبى ؛ وإنما حَسَبى حسب رسول الله صلى الله عليه وآله ، ودينى دينه . وينجو فىّ ثلاثة : مَنْ أحبنى ، ومَنْ أحبّ محبى ، ومَنْ عادى عدوى؛ فمن أُشرِب قلبُه بغضِى أوَ ألّب على بغضى ؛ أو انتقصنى ؛ فليعلم أنّ الله عدوه وخصمه[1] ؛ والله عدو للكافرين .

وروى محمد بن الصَّلْت ، عن محمد بن الحنفيّة ، قال : مَنْ أحبَّنا نفعه الله بحبنا ؛ ولو كان أسيرا بالدَّيْلم .

وروى أبو صادق ، عن ربيعة بن ناجد ، عن علىّ عليه السلام ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ فيك لَشَبَهاً من عيسى بن مريم ، أحبته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التى ليست له ، وأبغضته اليهود حتى بهتَتْ أمّه » .

---

(١) ج : « وجبريل » .

ورَوَى صاحب كتـاب "الغارات" حديثَ البراءة على غَـيْرِ الوجه المذكورِ في كتاب "نَهْج البلاغة"، قال: أخبرنا يوسف بن كليب المسعوديّ، عن يحيى بني سليمان العبديّ، عن أبي مريم الأنصاريّ، عن محمد بن علي الباقر عليه السلام، قال: خطب علي عليـه السـلام على مِنْبر الـكوفة، فقال: سيُعرَض عليكم سَبّي، وستذبحون عليـه؛ فإن عُرِض عليكم سَبّي فسُبّونِي، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وآله؛ ولم يقل: « فلا تَبرّءوا مني ».

وقال أيضا: حدّثني أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليـه السلام، قال: قال علي عليـه السلام: والله لتُذبحنّ على سَبّي، وأشار بيده إلى حَلْقه، ثم قال: فإن أمَرُوكم بسبّي فسُبّوني؛ وإن أمرُوكم أن تبرءوا مني فإنّي على دين محمد صلى الله عليه وآله. ولم ينههم عن إظهار البراءة.

وروى شيخُنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كُهيل، عن المسيّب بن نَجْبة، قال: بينا علي عليه السلام يخطُب إذ قام أعرابيّ، فصاح: وامظلِمتاه! فاستدناه عليّ عليـه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلِمة واحدة، وأنا قد ظُلمت عدد المدَر والوبر قال: وفي رواية عباد بن يعقوب، أنّه دعاه فقال له: وَيحك! وأنا والله مظلوم أيضا؛ هاتِ فلنَدْعُ عَلَى مَنْ ظلمنا.

وروى سَدِير الصيرفيّ، عن أبي جعفر محمـد بن علي، قال: اشتـكى عليّ عليـه السلام شَـكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبي صلى الله عليـه وآله، فسألهما: مِنْ أين جئتما؟ قالا: عُدْنا عليا، قال: كيف رأيتماه؟ قال: رأيناه يُخاف عليه مما به، فقال: « كلا إنه لن يموت حتى يُوسَع غدرا و بغيا، وليكوننّ في هذه الأمة عبرةً يعتبر به الناس من بعده ».

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن الغنوىّ ، أن عليا عليه السلام خطب بالرّحبة ، فقال : أيها الناس ؛ إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها ! وربّ السماء والأرض ، إنّ من عهد النبىّ الأمىّ إلىّ : « إنّ الأمة ستغدر بك بعدى » .

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله . وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه .

وروى أبو جعفر الإسكافى أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه وآله دخل عَلَى فاطمة عليها السلام ، فوجد عليًا نائما ، فذهبت تنبّهه ، فقال : « دعيه فربّ سهر له بعدى طويل ، ورب جفوة لأهل بيتى مِنْ أجله شديدة » ؛ فبكت ، فقال : « لا تبكى فإنكما معى ، وفى موقف الكرامة عندى » .

وروى الناس كافة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : « هذا وليّ وأنا وليُّه ، عاديت مَنْ عاداه ؛ وسالمت من سالمه » ، أو نحو هذا اللفظ .

وروى أيضا محمد بن عبيد الله بن أبى رافع ، عن زيد بن على بن الحسين عليه السلام ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلىّ عليه السلام : « عدوك عدوىّ وعدوى عدو الله عزّ وجلّ » .

وروى يونس بن خَباب ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعلى بن أبى طالب معنا ، فمررنا بحديقة ، فقال علىّ : يا رسول الله ، ألا تَرَى ما أحسن هذه الحديقة ! فقال : « إن حديقتك فى الجنّة أحسن منها » ؛ حتى مررْنا بسبع حدائق ، يقول علىّ ما قال ، ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وَقف ، فوقفنا ، فوضع رأسه عَلَى رأس علىّ وبكى ، فقال على : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « ضغائن فى صدور قوم لا يبدُونها لك حتى يفقدونى » ،

فقال : يا رسول الله ، أفلا أضع سيفي عَلَى عاتقي فأبيدَ خضراءهم ! قال : بل تصبر ، قال : فإن صبرت ، قال : تلاقي جهدا ، قال : أفي سلامةٍ من ديني ؟ قال : نعم ، قال : فإذاً لا أبالي .

وروى جابر الجعفيّ ، عن محمد بن علي عليه السلام ، قال : قال علي عليه السلام : ما رأيت منذ بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله رخاء ، لقد أخافتْني قريش صغيرا ، وأنصبتني كبيراً ؛ حتى قبض الله رسوله ، فكانت الطامّة الكبرى ، والله المستعان على ما تصفون !

وروى صاحب كتاب " الغارات " عن الأعمش ، عن أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : سيظهر عَلَى الناس رجل من أمتي ، عظيم السّرم ، واسع البُلعوم ، يأكل ولا يشبع ، يحمل وِزْر الثَّقَلين ، يطلب الإمارة يوما ، فإذا أدركتموه فابقروا بطنَه ، قال : وكان في يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب ، قد وضع طرفه في بطن معاوية .

قلت : هذا الخبرمرفوع مناسب لما قاله علي عليه السلام في " نهج البلاغة " ، ومؤكِّد لاختيارنا أنّ المراد به معاوية ، دون ماقاله كثير من الناس أنّه زياد والمغيرة.

وروى جعفر بن سليمان الضبعيّ ، عن أبي هارون العبديّ ، عن أبي سعيد الخُدريّ ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله يوما لعليّ مايلقى بعدَه من العَنت فأطال ، فقال له عليه السلام : أنشدك الله والرَّحمَ يارسول الله لما دعوت الله أن يقبِضَني إليه قبلك ! قال : كيف أسأله في أجلٍ مؤجّل ؟ قال : يارسول الله ، فعلام أقاتل مَنْ أمَرتني بقتاله ؟ قال : عَلَى الحدَث في الدين .

وروى الأعمش ، عن عمار الدُّهني ، عن أبي صالح الحنفيّ ، عن علي عليه السلام ، قال:

قال لنـا يوماً : لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله فى المنام ، فشـكوت إليـه مالقيتُ حتى بكيت ، فقال لى : انظر ، فنظرت فإذا جلاميد ، و إذا رجلان مصفّدان ـ قال الأعمش : هما معـاوية وعمرو بن العاص ـ قال : فجعلتُ أرضخُ رءوسهما ثم تعود ، ثم أرضخُ ثم تعود ؛ حتى انتبهت .

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مُرّة ، عن أبى عبد الله بن سلمة، عن على عليه السلام ، قال : رأيتُ الليلة رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فشـكوت إليه ، فقال : هـذه جهنّم ، فانظر مَنْ فيها ، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلّقَين بأرجلهما منكّسين ، تُرْضَخ رءوسهما بالحجارة ـ أو قال: تُشدَخ .

وروى قيس بن الربيع ، عن يحيى بن هانئ المرادىّ ، عن رجل من قومه ، يقال له زياد ابن فلان ، قال : كنا فى بيتٍ مع على عليه السلام نحن وشيعتُه وخواصّه ، فالتفت فلم ينكرْ منّا أحداً ، فقال : إن هؤلاء القوم سيظهرون عليـكم فيقطعون أيديَـكم و يسمُلون أعينَـكم ، فقـال رجلٌ منّا: وأنت حىّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : أعاذنى الله من ذلك ؛ فالتفتّ فإذا واحدٌ يبكى ، فقال له : يابنَ الحمقاء ، أتريد اللذات فى الدنيا والدرجات فى الآخرة ! إنما وعد الله الصابرين .

وروى زرارة بن أعين عن أبيه ، عن أبى جعفر محمد بن على عليه السلام ، قال : كان علىّ عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزلْ معقّبا إلى أنْ تطلع الشمس ؛ فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ؛ فيعلمهم الفقه والقرآن ؛ وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك ؛ فقام يوما فمرّ برجل ، فرماه بكلمة هُجْر ؛ ـ قال : لم يسمه محمد بن على عليه السلام ـ فرجع عَوْدَه إلى بدئه حتى صعِد المنبر ، وأمر فنودىَ : الصلاة جامعة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس ، إنه ليس شىء أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من

حِلْم إمام وفقهه ؛ ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضررا من جهل إمام وخُرْقه ، ألا وإنه مَنْ لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ ؛ ألَا وإنه من أنصَف من نفسه لم يزِدْه الله إلا عزا ؛ ألَا وإنّ الذلّ فى طاعة الله أقربُ إلى الله من التعزّز فى معصيته . ثم قال : أين المتكلّم آنفا ؟ فلم يستطع الإنكار ، فقال : هأنذا ياأمير المؤمنين ، ، فقال : أما إنى لو أشاء لقلت ، فقال : إن تعف وتصفح ، فأنت أهل ذلك ؛ قال : قد عفوت وصفحت ؛ فقيل لمحمد بن على عليه السلام : ماأراد أن يقول ؟ قال : أراد أن ينسبه .

وروى زرارة أيضاً ، قال : قيل لجعفر بن محمد عليه السلام : إن قوما هاهنا ينتقصون عليا عليه السلام ،قال: بمَ ينتقصونه لا أبا لهم ! وهل فيه موضع نقيصة ! والله ماعَرَض لعلىّ أمران قطّ كلاهما لله طاعة إلا عمِل بأشدّهما وأشقّهماعليه ، ولقد كان يعمل العمل كأنّه قائم بين الجنة والنار ، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له ، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له ، وإن كان ليقُوم إلى الصلاة ،فإذا قال : وجَّهت وجهىَ تغير لونه ؛ حتى يعرف ذلك فى وجهه[1] ؛ ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده ؛ كلهم يعرق فيه جبينه ، وتحفى فيه كفّه ، ولقد بُشِّرَ بعين نبعت فى ماله مثل عنق الجزور ، فقال : بشّر الوارث بِشرّ ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، ليصرف الله النار عن وجهه ، ويصرف وجهه عن النار .

وروى العباد،عن أبى مريم الأنصارى ، عن على عليه السلام:لايحبنى كافر ولا ولد زنا.

وروى جعفر بن زياد،عن أبىهارون العبدى، عنأبى سعيد الخدرىّ ، قال : كنا بنور إيماننا نحبّ على بن أبى طالب عليه السلام ، فمن أحبّه عرفنا أنه منا .

* * *

---

(١) ج : « لونه » .

[فصل فى معنى قول علىّ : « فسبّونى فإنه لى زكاة »]

المسألة الثالثة :

فى معنى قوله عليه السلام: « فسبونى ، فإنه لى زكاة ، ولـكم نجاة »، فنقول : إنه أباح لهم سبَّه عند الإكراه ، لأنّ الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفّظ بكلمة الـكفر ؛ فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، والتلفظ بكلمة الـكفر أعظم من التلفظ بسب الإمام .

فأما قوله : « فإنه لى زكاة ولـكم نجاة »؛ فمعناه أنـكم تنجون من القتل إذا أظهر تم ذلك ، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين : أحدهما ماورد فى الأخبار النبوية أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة فى حسناته .

والثانى : أن يريد به أن سبَّهم لى لاينقص فى الدنيا مِنْ قدرى ، بل أزيد به شَرَفاً وعُلُوَّ قدر ، وشياع ذكر ؛ وهكذا كان ، فإن الله تعالى جعل الأسباب التى حاولت أعداؤه بها الغضّ منه عللا لانتشار صيته فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نُباتة ، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العلوى :

وأبوكَ الوصىّ أوّلُ من شا دَ منـار الهدى وَصَامَ وَصَلَّى
نشرت حبـله قريش فأعطتـهُ إلى صُبْحَة القيـامة فَتْلاَ

واحتذيت أنا حذوه ، فقلت لأبى المظفر هبة الله بن موسى الموسوىّ رحمه الله تعالى : فى قصيدة ، أذكر فيها أباه :

أمّكَ الدرة التى أنجبت من جَوْهَرِ المجـدِ راضياً مَرْضِيّا
وأبوكَ الإمامُ موسى كظيم الـغيظِ حتى يُعِيدَهُ مَنْسِيّـا

وأبوه تاج الهُدى جعفرُ الصا دق وَحياً عن الغُيوب وَحيّا

وأبوه محمد باقرُ العلم مَضى لَنا هادِياً مَهدِيّا

وأبوه السّجّاد أتقى عبا د الله مخلِصاً وَوفيّا

والحسين الذى تخير أن يَقضِى عَزيزاً ولا يعيشَ دنيّا

وأبوه الوصىّ أولُ مَنْ طا فَ وَلبّى سَبعاً وساقَ الهديّا

طامَنتْ مجده قريش فأعطتْهُ إلى سدْرَة السّماء رقيّا

أخملتْ صيتَه فطار إلى أن ملأ الأفقَ ضَجّةً وَدَويّا

وأبو طالب كفيلُ أبى القاسِم كَهلاً وَيافِعاً وَفتيّا

وَلِشَيْخِ البَطْحاء تاجُ مَعَدٍّ شيبةِ الحَمْدِ هل علمت سَمِيّا !

وأبو عمرو العُلا هاشِمُ الجو دِ ومَنْ مثلُ هاشم بَشَرِيّا !

وأبوه الهمامُ عبد منافٍ قُلْ تقُلْ صادقاً وتُبْدِى بَدِيّا

ثم زيدٌ – أعنى قصىَّ الذى لمْ يك عن ذِرْوَةِ العَلاءِ قَصيّا

نسبٌ إن تلفّع النسب المحض لِفاعاً كان السليبَ العَريّا

وإذا أظلمت مُناسخة الأنْ ساب يوماً كان المُنيرَ الجليّا

ياله مجدٌ عَلَى قِدَمِ الدّهْرِ وقد يَفْضُلُ العَتيقُ الطَّرِيّا

وذكرنا هاهنا ماقبل المعنى وما بعده ؛ لأنّ الشعر حديث ، والحديث – كما قيل – يأخذ بعضه برقاب بعض ؛ ولأنّ ماقبل المعنى وما بعده مكمّل له ، وموضح مقصده .

فإن قلت : أىّ مناسبة بين لفظ « الزكاة » وانتشار الصيت والسّمع ؟

قلت : لأنّ الزكاة هى النماء والزيادة ؛ ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمى المال المزكى ، وانتشار الصيت نماء وزيادة .

***

[فصل فى اختلاف الرأى فى معنى السبّ والبراءة]

المسألة الرابعة :

أن يقال : كيف قال عليه السلام : « فأمّا السبُّ فَسُبُّونى ، فإنه لى زكاة ، ولكم نجاة ، وأما البراءة فلا تبرءوا منى »؟ وأىّ فرق بين السب والبراءة ؟ وكيف أجاز لهم السبّ ومنَعهم عن التبرى ، والسبّ أفحش من التبرى !

والجواب ؛ أما الذى يقوله أصحابنا فى ذلك فإنه لافرق عندهم بين سبّه[1] والتبرى منه ، فى أنّهما حرام وفسق وكبيرة ، وأنّ المكرَه عليهما يجوز له فعلُهما عند خَوْفه على نفسه ، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف .

ويجوز ألّا يفعلهما ؛ وإن قتل ،إذا قصد بذلك إعزاز الدين ، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازاً للدين؛ وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأنّ هذه اللفظة ماوردت فى القرآن العزيز إلا عن المشركين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾[3] ، فقد صارت بحسب العرْف الشرعىّ مطلَقة على المشركين خاصّة؛فإذَنْ يُحمل هذا النهى على تَرجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبّ ، وإن كان حكمهما واحدا ؛ ألا ترى أنّ إلقاء المصحف فى القذر أفحشُ من إلقاء المصحف فى دَنّ الشراب ؛ وإن كانا جميعا محرمين ، وكان حكمهما واحداً !

فأما الإماميـة فتروى عنه عليـه السلام أنه قال : إذا عُرِضتم على البراءة منّا فمدّوا الأعناق .

ويقولون : إنه[4] لايجوز التبرى منه ؛ وإن كان الحالف صادقا ، وإنّ عليه الكفارة.

---

(١) ج : « السب » .
(٢) سورة التوبة ١ .
(٣) سورة التوبة ٣ .
(٥) ساقطة من ا .

ويقولون: إنّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام ، ومن أحد الأئمة عليهم السلام ،حكم واحد .

ويقولون إنّ الإكراه على السبّ يُبيح إظهـاره ؛ ولا يجوز الاستسلام للقتل معه ، وأما الإكراه على البراءة ؛ فإنه يجوز معـه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التبرى ، والأولى أن يستسلم للقتل .

***

[فصل فى معنى قول علىّ : « إنى ولدت على الفطرة »]

المسئلة الخامسة :

أن يقال : كيف علّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه السلام ، بقوله: « فإنّى ولدْت على الفطرة » ؛ فإن هذا التعليل لايختص به عليه السلام ، لأن كلّ أحدٍ[1] يولد على الفطرة ؛ قال النبي صلى الله عليـه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ؛ وإنما أبواه يهوّدانه وينصرانه» .

والجواب ،أنه عليـه السلام علّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل ؛ وهى كونه ولد على الفطرة ، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة ؛ ولم يعلل بآحاد هـذا المجموع ، ومراده هاهنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولَدْ فى الجاهلية ؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاما مضت من عام الفيل ؛ والنبى صلى الله عليه وآله أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء فى الأخبار الصحيحة ، أنه صلى الله عليه وآله مكَث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء ، ولا يخاطبه أحد ؛ وكان ذلك إرهاصا لرسالته عليـه السلام، فحُكم تلك السنين العَشْر حكم أيام رسالته صـلى الله عليـه وآله ؛ فالمولود فيها إذا كان فى حجره وهو المتولّى لتربيته مولود فى أيام كأيام النبّوة ، وليس بمولود فى جاهلية محضة ، ففارقت حالُه حال مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته فى الفضل . وقد روى أنّ السَّنَة التى ولد فيها علىٌّ

(١) ج : « واحد » .

عليه السلام هى السنة التى بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسمع الهُتافَ من الأحجار والأشجار ، وكشف عن بصره ، فشاهد أنواراً وأشخاصا ؛ ولم يخاطَب فيها (١) بشىء. وهذه السَّنَة هى السنة التى ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة فى جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة ، وأنزل عليه الوحى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيّمن بتلك السنة ، وبولادة علِيّ عليه السلام فيها ، ويسمِّيها سَنَة الخير وسَنَة البركة ؛ وقال لأهله ليلة ولادته ، وفيها شاهد ماشاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ، ولم يكن مِنْ قبلِها شاهد من ذلك شيئا : « لقد وُلد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » ، وكان كما قال صلوات الله عليه ، فإنه عليه السلام كان ناصرَه ، والحامىَ عنه ، وكاشف الغمّاء (٢) عن وجهه ؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام، وأرست دعائمه ، وتمّهدت قواعده عليه السلام .

وفى المسألة تفسير آخر ؛ وهو أن يعنى بقوله عليه السلام : « فإنّى ولدتُ على الفطرة »، أى على الفِطْرة التى لم تتغيّر ولم تَحُلْ ، وذلك أن معنى قول النبى صلى الله عليه وآله : « كلّ مولودٍ يولد على الفِطْرة » أنّ كلّ مولود فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذى خلقه فيه وبصحّة الحواس والمشاعر ، لأنْ يعلم التوحيد والعدْل ، ولم يجعل فيه مانعا يمنعه عن ذلك ؛ ولكن التربية والعقيدة فى الوالدين والإلْف لاعتقادهما وحسن الظن فيهما يصدّه عما فُطِر عليه ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام دون غيره، وُلِد على الفطرة التى لم تَحُلْ ولم يصدّ عن مقتضاها مانع ؛ لامن جانب الأبوين ولا من جهة غيرهما ، وغيره ولد على الفِطْرة ، ولكنه حالَ عن مقتضاها ، وزالَ عن موجبها .

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرة العِصْمة ؛ وأنّه منذ ولد لم يواقع قبيحا ؛

(١) ج : « منها » .
(٢) ج : « الغم » .

ولا كانَ كافرا طَرْفَةَ عين قطّ ، ولا مخطئا ولا غالطا فى شىء من الأشياء المتعلّقة بالدين .
وهذا تفسير الإمامية .

***

[فصل فيما قيل من سبق علىّ إلى الإسلام]

المسألة السادسة :

أن يقال : كيف قال : « وسبقتُ إلى الإيمان »، وقد قال قوم[1] من الناس : إنّ أبا بكر سَبَقه ، وقال قوم : إن زيد بن حارثة سبقه ؟

والجواب ، أنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السيرة رَوَوْا أنّه عليه السلام أول من أسلم ؛ ونحن نذكر كلام أبى عمر يوسف بن عبد البرّ ، المحدِّث فى كتابه المعروف " بالاستيعاب " .

قال أبو عمر فى ترجمة[2] على عليه السلام : المروىّ عن سلْمان وأبى ذَرّ والمقداد وخَبّاب وأبى سعيد الخدرىّ وزيد بن أسلم أن عليا عليه السلام أول من أسلم ؛ وفَضّله هؤلاء على غيره .

قال أبو عمر : وقال ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وهو قول ابن شِهاب ؛ إلا أنه قال : « من الرجال بعد خديجة» .

قال أبو عمر : وحدّثنا أحمد بن محمد ، قال : حدّثنا أحمد بن الفَضْل ، قال : حدثنا محمد ابن جرير ، قال : حدّثنا على بن عبد الله الدِّهقان ، قال : حدثنا محمد بن صالح ، عن سِماك بن حرب ، عن عِكْرمة، عن ابن عباس ، قال : لعلىّ عليه السلام أربع خصال ، ليست

---

(١) ب : « كثير » ، وما أثبته من ج .
(٢) الاستيعاب ٤٥٦ وما بعدها .

لأحد غيره :هو أوّل عربىّ وعجمىّ صلى مع رسول اللهصلىالله عليه وآله ،وهو الذى كان معه لواؤه فى كل زَحْف ، وهو الذى صبر معه يوم فرّ عنه غيره ؛ وهو الذى غَسّله وأدخله قبره .

قال أبو عمر :ورُوِى عن سلمان الفارسىّ أنهقال: أوّل هذه الأمة وروُدا على نبيها صلى الله عليه وآله الحوضَ ، أولها إسلاما: عَلِىّ بن أبى طالب . وقد رُوِى هــذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن؛ النبى صلى الله عليــه وآله ،أنه قال :« أول هــذه الأ-ة وروداً عَلَىّ الحوض أولُها إسلاما : عَلِىّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : ورفعه أوْلى ، لأن مثله لايُدْرَك بالرأى .

قال أبو عمر : فأما إسناد المرفوع ؛ فإن أحمد بن قاسم ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ قال : حدثنا الحارث بن أبى أسامة ، قال : حدثنى يحيى بن هاشم ، قال : حدثنا سفيان الثورىّ ،عن سلمة بن كُهَيل ،عنأبى صادق،عن حَنَش بنالمعتمِر ، عنعُلَيم[1] الـكِندىّ ، عن سلمان الفارسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليهوآله : « أولـكم واردا عَلَىّ الحوض أوّلُـكم إسلاما ؛ عَلىُّ بن أبى طالب » .

قال أبو عمر : وروى أبو داود الطيالسىّ ، قال : حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بَلْج ، عن عمرو بن ميمون ، عن ابن عباس أنه قال : أول مَنْ صلى مع النبى صلى الله عليه وآله بعدَ خديجة عَلىُّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وحدثنا عبد الوارث بنسفيان ، قال : حدثنا قاسم بن أصبغ، قال :حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، قال : حدثناالحسن بن حماد، قال: حدثنا أبو عوانة ،عن أبى بَلْج ، عن عمرو بن ميمون،عن ابن عباس ، قال:كان علىٌّ أول من آمن من النّاس بعد خديجة .

قال أبو عمر : هذا الإسناد لامطعن فيه لأحد ؛ لصحته وثقة نَقَلَتِه ؛ وقد عارض[2]

---

(١) فى الأصول : « عكيم » ، وما أثبته عن الاستيعاب .

(٢) ج : «عورض» ، والاستيعاب: « وهو يعارض».

ماذكرنا فى باب أبى بكر الصديق ، عن ابن عباس: والصحيح فى أمرِ أبى بكر أنه أول مَنْ أظهر إسلامه كذلك . قاله مجاهد وغيره ، قالوا : ومنعه قومه .

قال أبو عمر : اتفق ابنُ شهاب ، وعبد الله بن محمد بن عَقِيل ، وقتادة ، وابن إسحاق عَلَى أنّ أول من أسلم[1] من الرجال عِلِيّ . واتفقوا على أن خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدّقه فيما جاء به ، ثم علىّ بعدها .

وروى عن أبى رافع مثل ذلك .

قال أبو عمر : وحدّثنا عبد الوارث ، قال : حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال : حدثنا عبد السلام بن صالح ، قال : حدثنا عبد العزيز بن محمد الدراوردى ، قال: حدثنا عُمر مولى غُفْرة ، قال : سئل محمد بن كعب القرظىّ عن أول مَنْ أسلم : عَلِيّ أم أبى بكر ؟ فقال : سبحان الله ! عَلِيّ أولُهما إسلاما ؛ وإنما شُبِّه عَلَى الناس ؛ لأنّ عليا أخْفَى إسلامه من أبى طالب ، وأسلم أبو بكر ، فأظهر إسلامه .

قال أبو عمر: ولاشك عندنا أنّ عليا أولُهما إسلاما ، ذكر عبدالرزاق فى جامعه ، عن مَعْمر ، عن قتادة ، عن الحسن وغيره ، قالوا : أول مَنْ أسلم بعد خديجة عَلِيّ بن أبى طالب عليه السلام .

وروى معمر ، عن عثمان الجزرىّ ، عن مِقْسَم ، عن ابن عباس ، قال : أوّل مَنْ أسلم عَلِيّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : وروى ابنُ فضيل عن الأجْلح ، عن حَبّة بن جوين العُرنىّ ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين .

قال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن سلَمة بن كُهَيل ، عن حَبّة العرنىّ ، قال : سمعت عليا يقول : أنا أول مَنْ صلى مع رسول الله صلى الله عليه .

---

(١) ج : « آمن » .

قال أبو عمر : وقد روى سالم بن أبى الجعْد ، قال : قلت لابن الحنفيّة : أبو بكر كان أولهما إسلاما ؟ قال : لا.

قال أبو عمر : وروى مسلم الملائىّ ، عن أنس بن مالك ، قال : استنبِئَ النبى صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلَّى علىّ يوم الثلاثاء .

قال أبو عمر : وقال زيد بن أرقم : أولُ مَنْ آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بن أبى طالب.

قال : وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه ، ذكرها النّسائى وأسْلم بن موسى وغيرهما ؛ منها ماحدثنا به عبدالوارث ، قال: حدثنا قاسم ، قال : حدثنا أحمد بن زهير ، قال: حدثنا على بن الجعْد ، قال : حدثنا شعبة ، قال : أخبرنى عمرو بن مرة ، قال : سمعت أبا حمزة الأنصارىّ قال : سمعت زيد بن أرقم يقول: أول مَنْ صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله علىّ بن أبى طالب .

قال أبو عمر : [وحدثنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ،(١)] ، حدثنا أبى ، قال : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، قال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنا يحيى بن أبى الأشعث ، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندىّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنت امرأ تاجرا ، فقدِمت الحج ، فأتيت العبّاس ابن عبد المطلب لأبْتَاع منه بعض التجارة ، وكان امرأ تاجرا ، فوالله إنّى لعنده بمِنى ، إذ إذ خرج رجل من خِباء قريب منه ، فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت قام يصلِّى ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخِباء الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامتْ خلفه تصلى ، ثم خرج غلام حين راهقَ الحلمُ من ذلك الخباء ، فقام معه يصلّى ، فقلتُ للعباس : ماهذا ياعباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ابن أخى ، قلتُ : مَنْ هذه المرأة ؟

(١) من الاستيعاب .

قال : امرأته خديجة بنت خويلد ، قلت : ماهـذا الفتى ؟ قال : على بن أبى طالب ابن عمه ، قلت : ماهذا الذى يصنع ؟ قال : يصلّى ، وهو يزعم أنه نبيّ ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابنُ عمه هذا الغلام ؛ وهو يزعم أنه سيفتَح على أمته كنوزَ كسرى وقيصر ، قال : فكان عفيف الكندى يقول ـ وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه : لو كان الله رزقنى الإسلام يومئذ كنتُ أكون ثانيا مع على .

قال أبو عمر : وقد ذكرنا هـذا الحديث من طُرق فى باب عفيف الكندىّ من هذا الكتاب .

قال أبو عمر: ولقد قال علىّ عليه السلام : صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا ،لا يصلِّى معه غيرى إلا خديجة .

فهذه الروايات والأخبار كلّها ، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البر فى الكتاب المذكور ، وهى كما تراها تكاد تكون إجماعا .

قال أبو عمر : وإنما الاختلافُ فى كمية سنِّه عليه السلام يوم أسلَم ، ذكر الحسن ابن علىّ الحلوانىّ فى كتاب " المعرفة " له، قال :حدّثنا عبد الله بن صالح، قال :حدثنا الليث ابن سعد ، عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن ، أنه بلغه أنّ عليا والزبير أسلما وهما ابنا ثمانى سنين .كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة ؛ وذكره أيضا ابنُ أبى خيثمة عن قُتيبة بن سعيد ، عن الليث بن سعد ، عن أبى الأسود ؛ وذكره معمر بن شَبّة ، عن الحرامىّ ، عن أبى وهب ، عن الليث ، عن أبى الأسود ، قال الليث : وهاجرا وهما ابنا ثمانىَ عشرة سنة .

قال أبو عمر : ولا أعلم أحدا قال بقول أبى الأسود هذا .

قال أبو عمر : وروى الحسن بن على الحلوانىّ ، قال : حدثنا عبد الرزاق ، قال : حدثنا مَعْمَر، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علىّ وهو ابن خمس عشرة سنة.

قال أبو عمر : وأخبرَنا أبو القاسم خلَف بن قاسم بن سهل ، قال : حدّثنا أبو الحسن على بن محمد بن إسماعيل الطوسىّ ، قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السرّاج ، قال : حدثنا محمد بن مسعود ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قَتادة ، عن الحسن ، قال : أسلم علىّ ، وهو أول مَنْ أسلم ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة سنة .

قال أبو عمر : قال ابنُ وضاح: وما رأيت أحدا قطّ أعلم بالحديث من محمد بن مسعود ، ولا بالرأى من سُحنون .

قال أبو عمر : قال ابن إسحاق : أول ذَكَرٍ آمن(١) بالله ورسوله علىّ بن أبى طالب عليه السلام؛ وهو يومئذ ابن عشر سنين .

قال أبو عمر : والروايات فى مَبْلغ سنّه عليه السلام مختلفة ، قيل : أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وقيل : ابن اثنتىْ عشرة سنة . وقيل : ابن خمس عشرة سنة . وقيل : ابن ست عشرة سنة . وقيل : ابن عشر . وقيل : ابن ثمان .

قال أبو عمر : وذكر عُمر بن شَبّة، عن المدائنىّ، عن ابن جَعْدة، عن نافع ، عن ابن عمر قال : أسلم علىّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة .

قال : وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحِزامىّ ، قال : حدثنا محمد بن طلحة ، قال : حدثنى جدى إسحاق بن يحيى ، عن طلحة ، قال : كان علىّ بن أبى طالب عليه السلام والزّبير ابن العوام وطَلْحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص أعمارا واحدة .

قال : وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدثنا إسماعيل بن على الخطبىّ ، قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنا حُجَيْن أبو عمر ، قال: حدثنا حِبّان عن معروف، عن أبى معشر ، قال : كان علىّ عليه السلام وطلحة والزبير فى سنٍّ واحدة.

---

(١) ج : « أسلم » .

قال : وروى عبد الرزاق ، عن الحسن وغيره : أنّ أوّلَ مَنْ أسلم بعـد خديجة علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة .

قال أبو عمر : وروى أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا شريح بن النعمان ، قال : حدثنا الفُرات بن السائب،عن ميمون بن مِهران ، عن ابن عمر ، قال : أسلم علىّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة .

قال أبو عمر : هذا أصحّ ما قيل فى ذلك ؛ والله أعلم .

انتهى حكاية كلام أبى عمر فى كتاب " الاستيعاب " .

* * *

واعلم أنّ شيوخنا المتكلِّمين لا يكادُون يختلفون فى أنّ أوّل الناس إسلاما علىّ ابن أبى طالب عليه السلام ؛ إلا مَنْ عساه خالف فى ذلك من أوائل البصريين ، فأما الذى تقررت المقالةُ عليـه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان ،لا تكاد تجداليوم فى تَصانيفهم ؛ وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافا فى ذلك .

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدّعى ذلك لنفسه ، ويفتخر به ، ويجعله فى أفضليته عَلَى غيره ، ويصرّح بذلك : وقد قال غير مره : أنا الصدّيق الأكبر ، والفاروق الأول ، أسلمت قبلا إسلام أبى بكر ، وصلّيت قبل صلاته .

وروى عنه هذا الـكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة فى كتاب " المعارف " وهو غير متّهم فى أمره .

ومن الشعر المروى عنه عليه السلام فى هذا المعنى الأبيات التى أولها :

محمد النبىّ أخى وصِهْرِى وحمزة سيدُ الشهداء عَمِّى

ومن جملتها :

سبقتكمُ إلى الإسلام طُرًّا غلاما ما بلغتُ أوَانَ حِلْمى

والأخبار الواردة فى هذا الباب كثيرة جدا لا يتسع هذا الكتاب لذكرها ، فلتُطلب من مظانها .

ومن تأمل كتب السِّيَر والتواريخ عَرَف مِنْ ذلك ما قلناه.

فأمّا الذاهبون إلى أنّ أبا بكر أقدَمهما إسلاما فنفرٌ قليلون ؛ ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البر أيضا فى كتاب " الاستيعاب " فى ترجمة أبى بكر[1] .

قال أبو عمر : حدثنى خالد بن القاسم ، قال : حدثنا أحمد بن محبوب ، قال : حدثنا محمد ابن عبدوس ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال : حدثنا شيخ لنا ، قال : أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، قال : سألت ابنَ عباس ـ أو سئل ـ : أىّ الناس كان أول إسلاما ؟ فقال : أما سمعتَ قول حسان بن ثابت :

إذا تذكَّرْتَ شَجْواً مِنْ أخِى ثقَةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا[2]

خَيرُ البريّة أتقاها وأعدلُها ... بعدَ النبىّ وأوفاها بما حَمَلا

والثانىَ التالىَ المحمودَ مَشْهَدُه ... وأوّلُ الناس منهم صَدَّقَ الرسلا

ويُرْوَى أنّ النبى صلى الله عليه وآله ، قال لحسان : « هل قلت فى أبى بكر شيئا ؟ » ، قال : نعم ؛ وأنشده هذه الأبيات ، وفيها بيت رابع :

وثانىَ اثنين فى الغار المنيفِ وَقَدْ ... طاف العدوُّ به إذ صَعَّدُوا الجبَلا

فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : « أحسنتَ يا حسان » ؛ وقد روى فيها بيت خامس :

وَكَانَ حِبَّ رسولِ الله قد علِمُوا ... من البريّةِ لم يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

---

(١) كتاب الاستيعاب ص ٣٣٠

(٢) ديوانه ٢٩٩ ، ٣٠٠ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات.

وقال أبو عمر : وروى شُعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النَّخْعِيّ ، قال : أول مَنْ أسلم أبو بكر .

قال : وَرَوى الجريرىّ ، عن أبى نصر، قال : قال أبو بكر لعلىّ عليه السلام : أنا أسلمت قبلك ؛ فى حديث ذكره فلم ينكِرْه عليه .

قال أبو عمر : وقال فيه أبو مِحْجَن الثقفىّ :

وَسُمِّيتَ صِـدِّيقاً وكلُّ مهاجر   سواك يسمّى باسمه غير منكَرِ
سبقتَ إلى الإسلامِ واللهُ شاهدٌ   وكنتَ جليساً بالعريشِ المُشَهَّرِ
وبالغار إذ سُمِّيت خِلَّا وصاحباً   وكنت رفيقاً للنبىّ المطهَّرِ

قال أبو عمر : وروينا من وجوه ، عن أبى أمامة الباهلىّ ، قال : حدثنى عمرو ابن عَبَسة ، قال : أتيت رسول الله صلى عليه وآله ؛ وهو نازل بعُكَاظ ، فقلت : يا رسولَ الله ، من اتَّبعَك عَلَى هـذا الأمر ؟ فقال : حرّ وعبد : أبو بكر وبلال . قال : فأسلمت عند ذلك، وذكر الحديث .

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البر فى هـذا الباب فى ترجمة أبى بكر ؛ ومعلوم أنّه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التى ذكرها فى ترجمة علىّ عليه السلام الدالّة عَلَى سَبْقه ؛ ولا ريب أنّ الصحيح ما ذكره أبو عمر ، أنّ عليا عليه السلام كان هو السابق، وأن أبا بكر هو أوّلُ من أظهر إسلامَه ، فظنّ أن السبق له .

وأما زيد بن حارثة ؛ فإنّ أبا عمر بن عبد البر رضى الله تعالى عنه ذكر فى كتاب " الاستيعاب " ؛ أيضاً فى ترجمة زيد بن حارثة ، قال : ذكر معمَر بن شبّة فى جامعه عن الزهرىّ أنه قال : ماعلمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة (١)

---

(١) الاستيعاب ١٨٧

قال عبد الرزّاق : وما أعلم أحداً ذكره غير الزهريّ .

ولم يذكر صاحب ''الاستيعاب'' مايدلّ على سبق زيد إلّا هذه الرواية ؛ واستغربها ؛ فدلّ مجموع ماذكرناه أنّ عليا عليه السلام أوّلُ الناس إسلاما ، وأن المخالف فى ذلك شاذّ ، والشاذّ لايعتدّ به .

***

[فصل فيما ذكر من سبق علىّ إلى الهجرة]

المسألة السابعة :

أن يقال: كيف قال :« إنه سبق إلى الهجرة »ومعلوم أنّ جماعةمن المسلمين هاجروا قبله ، منهم عثمان بن مظعون وغيره ؛ وقد هاجر أبو بكر قبله ، لأنه هاجر فى صحبة النبى صلى الله عليه وآله ؛ وتخلف علىّ عليه السلام عنهما[1]،فبات على فراش رسول الله صلى عليه وآله ؛ ومكث أياما يردّ الودائع التى كانتْ عنده ، ثم هاجر بعد ذلك ؟

والجواب، أنّه عليه السلام لم يقل :« وسبقتُ كلّ الناس إلى الهجرة » ؛ وإنما قال : « وسبقت » فقط ؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة ؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة ، ولم يهاجر قبلَه أحد إلا نفر يسير جدا .

وأيضا فقد قلنا إنه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور : منها ولادته على الفِطْرة ، ومنها سبقه إلى الإيمان ، ومنها سَبْقه إلى الهجرة ؛ وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره ؛ فكان بمجموعها متميّزا عن كل أحد من الناس .

وأيضاً فإنّ اللام فى « الهجرة » يجوز ألّا تكون للمعهود السابق ، بل تكون للجنس ، وأميرُ المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التى قبل هِجْرة المدينة ؛ فإنّ النبى صلى الله عليه وآله هاجرَ عن مكة مرارا ، يطوف على إحياء العرب ، وينتقل من

---

(١) ج : « عنه » .

أرض قوم إلى غيرها ؛ وكان على عليه السلام معه دون غيره .

أما هجرته إلى بنى شيبان ؛ فما اختلف أحد من أهل السيرة أنّ عليا عليه السلام كان معه هو وأبو بكر ، وأنّهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوما وعادوا إليها ، لمّا لم يجدوا عند بنى شيبان ما أرادوه من النُّصرة .

وروى المدائنىّ فى كتاب "الأمثال" عن المفضّل الضبىّ ؛ أنّ [1] رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج عن مكة يعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى ربيعة ، ومعه على عليه السلام وأبو بكر ، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدّم أبو بكر – وكان نسّابة – فسلّم فردُّوا عليه السلام ؛ فقال : ممّن القوم ؟ قالوا : من ربيعة ، قال : أمِنْ هامتها أم من لهازمها ؟[2] قالوا : من هامتها العظمى ، فقال : مِنْ أىّ هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : من ذُهْل الأكبر ، قال : أفمنكم عوف الذى يقال له : لاحُرّ بوادى عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم بِسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم جسّاس حامِى الذّمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم الحوْفزان ، قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا ، قال : أفمنكم المزدَلِف صاحب العمامة الفرْدة ؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم أخوالُ الملوك من كِنْدة ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن ذُهْلا الأكبر ؛ أنتم ذُهْل الأصغر . فقام إليه غلام قد بَقَل[3] وجهه ، اسمه دَغْفِل ، فقال :

إنّ على سائِلِنا أنْ نَسْأَلَهْ ۝ والعِبْءُ لاتعرفُهُ أو تحمِلَهْ

---

(١) الخبر فى مجمع الأمثال ١٧ ، ١٨

(٢) فسره صاحب اللسان فقال : « وفى حديث أبى بكر والنسابة : « أمن هامتها أو لهازمها » ؛ أى من أشرافها أنت أو من أوساطها ؛ واللهازم أصول الحنكين ؛ واحدتها لهزِمة بالكسر ؛ فاستعارها لوسط النسب والقبيلة »

(٣) بقل وجهه ؛ أى خرج شعره .

ياهذا، إنك قد سألتنا فأجبناك ، ولم نكتمك هيئا ، فممّن الرجل ؟ قال : من قريش ، قال : بخ بخ ، أهل الشرف والرِّياسة ؛ فمِن أيّ قريش أنت ؟ قال : من تَيْم بن مرة ، قال : أمكنتَ والله الرامى من الثُّغْرة [١] ؛ أمِنكم قصيّ بن كِلاب الذى جَمَع القبائل من فِهْر فكان يدعى مجمّعا ؟ قال : لا ، قال : أفمنكم هاشم الذى هَشم لقومه الثريدُ ؟[٢] قال : لا ، قال : أفمنكم شيبةُ الحمد ، مُطعِم طير السَّماء؟ [٣] قال : لا ، قال : أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِنْ أهل النَّدْوة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِنْ أهل الرِّفَادة [٤] أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِن أهل الحِجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمِن أهل السِّقاية ؟ قال : لا ، قال : فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هاربا من الغُلام ؛ فقال دَغْفل :

* صادَفَ دَرْءَ السيل دَرْءٌ يصدعه [٥] * .

أما والله لوثبتَّ لأخبرتُكَ أنك من زَمَعات قريش ؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله . وقال عليّ عليه السلام لأبى بكر : لقد وقعتَ ياأبا بكر من الأعرابيّ على باقعة ؛ قال : أجل ؛ إن لكل طامة طامة ، والبلاء موكل بالمنطق ؛ فذهبت مثلا .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى الطائف ؛ فكان معه عليّ عليه السلام وزيد بن

---

(١) فى مجمع الأمثال : « من صفاء الثغرة » .

(٢) بعده فى مجمع الأمثال : « ورجال مكة مسنتون عجاف » .

(٣) بعده فى مجمع الأمثال : « الذى كان فى وجهه قمر يضيء ليل الظلام الداجى » .

(٤) فى اللسان : « الرفادة شيء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية؛ فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته، فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام الموسم ، وكانت الرفادة والسقاية لبنى هاشم والسدانة واللواء لبنى عبد الدار ؛ وكان أول من قام بالرفادة هاشم بن عبد مناف » .

(٥) درأ الوادى بالسيل ، دفعه ؛ وأورد المثل صاحب اللسان وفسره بقوله : « يقال للسيل إذا أتاك من حيث لاتحتسبه : سيل درء ؛ أى يدفع هذا ذاك وذاك هذا » .

حارثة فى رواية أبى الحسن المدائنى ؛ ولم يكن معهم أبو بكر . وأما رواية محمد بن إسحاق ؛ فإنه قال : كان معه زيد بن حارثة وَحْدَه ، وغاب رسول الله صلى عليه وآله عن مكة فى هذه الهجرة أربعين يوما ؛ ودخل إليها فى جوار مُطْعِم بن عدىّ .

* * *

وأما هجرته صلى الله عليه وآله إلى بنى عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان؛ فإنه لم يكن معه إلا علىّ عليه السلام وَحْدَه ؛ وذلك عَقِيب وفاة أبى طالب ؛ أوحِى إليه صلى الله عليه وآله : اخرج منها ؛ فقد مات ناصرُك ، فخرج إلى بنى عامر بن صعصعة ؛ ومعه عَلِىّ عليه السلام وحدَه ، فعرض نفسَه عليهم وسألهم النصر ، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه ؛ فعادا عليهما السلام إلى مكة ؛ وكانت مدة غيبته فى هذه الهجرة عشرة أيام ؛ وهى أول هجرة هاجرها صلى الله عليه وآله بنفسه .

فأما أول هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه ؛ فهجرةُ الحبشة ؛ هاجر فيها كثيرٌ من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة فى البحر ؛ منهم جعفر بن أبى طالب عليه السلام ؛ فغابوا عنه سنين ؛ ثم قدم عليه منهم مَنْ سلم وطالت أيامه [(١)] ؛ وكان قدوم جعفر عليه عامَ فتح خَيْبر ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أدرى بأيّهما أنا أسرّ ؛ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر » !

---

(١) ج : « مدته » .

ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج :

الأصل :

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ . أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ .

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السلام : « وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ » ، يُرْوَى على ثلاثة أوجه :

أحدُها أن يكونَ كما ذكرناهُ : « آبِرٌ » بالرّاء ؛ من قولهم : رَجُلٌ آبِرٌ ؛ للذى يَأْبُرُ النَّخْل ، أى يُصْلِحُهُ .

وَيُرْوَى : « آثِرٌ » بالثاء ، بثلاثِ نقطٍ ، يُرَاد به الذى يَأْثِرُ الحديثَ ، أى يرويه ويحكيه ؛ وهو أصحّ الوُجُوه عندى ، كأنهُ عليهِ السلام قال : لا بَقِيَ منكم مُخْبِرٌ .

وَيُرْوَى : « آبِزٌ » بالزّاى المعجمةِ ، وهو الوَاثِب ، والهَالِكُ أيضاً يُقَالُ له آبِزٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

الحاصب : الريح الشديدة التى تُثير الحصباء ؛ وهو صغار الحصى ؛ ويقال لها أيضا حَصْبَة ، قال لَبيد :

جَرَّتْ عَلَيْهَا إذْ خَوَتْ من أهْلِهَا   أذيالَهَا كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَه [١]

فأما التفسيرات التى فسّر بها الرضىّ رحمه الله تعالى قوله عليه السلام : « آبر » فيمكن أن يزاد فيها ، فيقال : يجوز أن يريدَ بقوله : « ولا بقى منكم آبِر » أى نمّام يفسد ذات البين ؛ والمِئبرَة : النميمة ، وأبر فلان ، أى نَمّ ، والآبر أيضا : مَنْ يبغى القوم الغوائل خفْيةً ، مأخوذ من أَبَرْتُ الكلب إذا أطعمته الإبرة فى الخبز ؛ وفى الحديث : « المؤمن كالكلب المأبور » ؛ ويجوز أنْ يكون أصلُه « هابر » ؛ أى مَنْ يضرب بالسيف فيقطع ؛ وأبدلت الهاء همزة ، كما قالوا فى : « آل » أهل ؛ وإن صحت الرواية الأخرى « آثر » بالثاء بثلاث نقط ، فيمكن أن يريدَ به ساجى باطن خُفّ البعير ؛ وكانوا يُسَحُّون باطن الخفّ بحديدة ليقتصّ أثره ؛ رجل آثر وبعير مأثور .

وقوله عليه السلام : « فأوبوا شرّ مآب » ، أى ارجعوا شرّ مرجع . والأعقاب : جمع عَقِب بكسر القاف ؛ وهو مؤخر القدم ، وهذا كله دعاء عليهم ، قال لهم أولا : أصابكم حاصِب ؛ وهذا من دعاء العرب ، قال تميم بن مُقْبل :

فَإذَا خَلَتْ من أهْلِها وقطينِها   فأصابَها الحصْباء والسَّفَّانُ

ثم قال لهم ثانيا : « لا بقى منكم مخبر » . ثم قال لهم ثالثا : « ارجعوا شرّ مرجع » ، ثم قال لهم رابعاً : « عودوا على أثر الأعقاب » ؛ وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَنُرَدُّ [٢]

---

(١) البيت فى اللسان ١ : ٣١٠

(٢) سورة الأنعام ٧١

عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللهُ ﴾؛ والمراد انعكاس حالهم ؛ وعودهم من العِزّ إلى الذلّ ؛ ومن الهداية إلى الضلال .

وقوله عليه السلام : « وأثرة يتّخذها الظالمون فيكم سنة » ، فالأثرة هاهنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطّراح جانبهم ، وقال النبي صلى الله عليه وآله للأنصار : « ستلقون بعدى أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقونى » .

[أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم]

واعلم أن الخوارجَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابَه وأنصارَه فى الجمل وصِفّين قبل التحكيم ؛ وهذه المخاطبة لهم ، وهذا الدعاء عليهم ؛ وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم ، وقد وقع ذلك ، فإنّ الله تعالى سَلّط عَلَى الخوارج بعده الذلّ الشامل ، والسيف القاطع ، والأثرة من السلطان ، وما زالت حالُهم تضمحلّ ؛ حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جُمهورهم ؛ ولقد كان لهمْ من سيف المهلَّب بن أبى صفرة و بنِيه الحتْف القاضى ، والموت الزؤام ؛ ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم هاهنا طرفا .

***

[عروة بن حدير]

فنهم عُروة بن حُدَيْر أحـد بنى ربيعة بن حنظلة من بنى تميم ؛ ويعرف بعُرْوة ابن أدّيّة ، وأديّة جدة له جاهلية ؛ وكان له أصحاب وأتباع وشيعة ، فقتله زياد فى خلافة معاوية صبرا .

***

[نجدة بن عويمر الحنفىّ]

ومنهم نجدة بن عُويمر الحنفىّ ، كان من رؤسائهم ؛ وله مقالة [1] مفردة من مقالة الخوارج

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى ١ : ١١٠ ــ ١١٢

وله أتباع وأصحاب ؛ وإليهم أشار الصَّلَتَان العبدىّ بقوله [1] :

أرى أمَّةً شَهَرَتْ سيفَها   وقد زِيدَ فى سوطِها الأصبحِى [2]

بنجديّة أو حَرُورِيّةٍ   وأزرق يدعو إلى أزْرقِى

فملّتنا أنّنا مسلمونَ   على دِين صدِّيقنا والنّبى

أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبيرَ مَرُّ الغَدَاةِ وكَرُّ العَشِى

إذا ليلة أهْرَمَتْ يومَها   أتى بعد ذلك يوم فَتِى

نَرُوح ونغدو لحاجاتِنا   وحاجةُ مَنْ عَاشَ لا تنقضى

تموت مع المرء حاجاتُه   وتبقى له حاجة ما بَقِى

وكان نجدة يصلّى بمكة بحذاء عبد الله بن الزبير فى جمعه [فى كلّ جُمْعَةٍ] [3] ، وعبد الله يطلب الخلافة ، فيمسكان عن القتال من أجل الحرَم .

وقال الراعى يخاطب عبد الملك [4] :

إنّى حَلَفْتُ عَلَى يمينٍ بَرَّةٍ   لاأكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلاَ

ماإن أتيتُ أبا خُبَيْبٍ وافداً   يوماً أريدُ لبيعتى تبديلا [5]

لَمّا أتيت نُجيدة بن عُوَيْمِرٍ   أبغِى الهُدَى فيزيدُنى تضليلا

مِنْ نعمةِ الرحمن لامِنْ حيلتِى   أنّى أعدُّ لَهُ عَلَىّ فُضُولا !

واستولى نَجْدة على اليمامة ، وعظُم أمره ؛ حتى ملك اليمن والطائف وعُمان والبحرين ووادِى تميم وعامر ؛ ثم إن أصحابه نَقَموا عليه أحكاماً أحدثها فى مذهبهم ؛ منها قوله : إنّ

---

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ٣ : ١٩١ — بشرح التبريزى ومعاهد التنصيص ١ : ٧٣ ، ٧٤ ، والكامل ٦ : ١٠١ — بشرح المرصفى مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها .

(٢) السوط الأصبحى : منسوب إلى ذى أصبح الحميرى ؛ وكان أول من اتخذ هذه السياط التى يعاقب عليها السلطان . وانظر الكامل ٢ : ٢٤٦ — بشرح المرصفى

(٣) من كتاب الكامل ٦ : ١٠٢

(٤) من ملحمته فى جهرة أشعار العرب ١٧٤

(٥) أبو خبيب : كنية ابن الزبير

المخطئ بَعْد الاجتهاد معذور ، وإن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ؛ وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهله ؛ إلى أن تقوم عليهم الحُجّة ؛ فمن استحلّ محرّما من طريق الاجتهاد فهو معذور ؛ حتى إنّ مَنْ تزوج أخته أو أمه مستحلًّا لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن ؛ فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه ؛ فاختار لهم أبا فُدَيك أحد بنى قيس بن ثعلبة ؛ فجعله رئيسَهم ، ثم إن أبا فُدَيك أنفذ إلى نَجْدة بعدُ مَنْ قتله، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرّقوا عليه ؛ وقالوا قتل مظلوما .

[المستورد بن سعد التميمىّ]

ومنهم المستورد بن سعد أحد بنى تميم ؛ كان ممن شهد يوم النُّخَيْلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيفِ علىّ عليه السلام ؛ ثم خرج بعد ذلك بمدّة على المغيرة بن شعبة وهو والى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان فى جماعة من الخوارج ؛ فوجّه المغيرة إليه معقِل بن قيس الرِّياحىّ ، فلما تواقفا دعاه المستورد إلى المبارزة ، وقال له : علام تقتل الناس بينى و بينك ؟ فقال معقل : النَّصَفَ سألت ، فأقسم عليه أصحابُه ، فقال : ما كنت لآبىَ عليه ؛ فخرج إليه فاختلفا ضربتيْن ، خرّ كلّ واحد منهما من ضربة صاحِبه قتيلا .

وكان المستورد ناسكا كثير الصلاة ؛ وله آداب وحكم مأثورة (١) .

[حوثرة الأسدىّ]

ومنهم حَوْثرة الأسدىّ ، خرج على معاوية فى عام الجماعة فى عِصابة من الخوارج ؛ فبعث إليه معاوية جيشا من أهل الكوفة ، فلما نظر حَوْثرة إليهم ، قال لهم : يا أعداء الله ؛ أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه ؛ وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدُّوا سلطانه ! فلما

---

(١) الكامل ٥٧٧ (طبعة أوربا) ؛ وأورد من كلامه : إذا أفضيت بسرى إلى صديق فأفشاه لم ألمه؛ لأنى كنت أولى بحفظه ، لاتفش إلى أحد سرا وإن كان مخلصا إلا على وجه المشاورة ،كنأحرص الناس على حفظ سر صاحبك منك على حقن دمك .

التحمت الحربُ قتِل حوثرة ، قتَله رجل من طيئ ، وفضّت جموعه (١)

[قُريب بن مرة وزحّاف الطائىّ]

ومنهم قُريب بن مرة الأزدىّ ؛ وزَحّاف الطـائىّ ، كانا عابدين مجتهديْن من أهل البصرة ، فخرجا فى أيام معاوية فى إمارة زياد ؛ واختلف الناس: أيهما كان الرئيس ؟ فاعترضا الناس ، فلقيا شيخا ناسكا من بنى ضبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه ، وكان يقـال له رُؤْبة الضُّبَعى ؛ وتنادى الناس ، فخرج رجل من بنى قَطيعة ، من الأزد ، وفى يده السّيْف ، فناداه الناس من ظهور البيوت الحروريّة : انجُ بنفسك ؛ فنادوْه : لسنا حَرُورية ، نحن الشُّرَط [فوقف] (٢) فقتلوه ؛ فبلغ أبا بلال مرداس بن أُدَيّة خبرُها ، فقال: قريب ، لاقرّبه الله ! وزحّاف لاعفا الله عنه ! ركباها عَشْواء مظلِمة ـ يريد اعتراضهما الناس ـ ثم جعلا لا يمرّان بقبيلة إلا قَتَلا من وجدا ؛ حتى مرّا على بنى علىّ بن سُود ، من الأزد ؛ وكانوا رماة ، كان فيهم مائة يُجيدون الرمى ؛ فرموهم رَمْياً شديداً فصاحوا : يابنى علىّ ، البقيا ، لا رِماء بيننا . فقال رجل من بنى علىّ بن سود :

لَاشَىْء للقومِ سِوَى السِّهامِ   مشحوذةً فى غَلَسِ الظَّلامِ

فعرّد عنهم الخوارج (٣) ، وخافوا الطلب ، واشتقّوا مقبرة بنى يشكُر حتى نفذُوا إلى مُزَينَـة ينتظرون مَنْ يلحق بهم من مُضَر وغـيرها ، فجاءهم ثمانون ، وخرجت إليهم بنو طاحِيَة ، من بنى سُود ، وقبائلُ من مُزَيْنة وغيرها ، فاستقبلت الخوارج ، وحاربت حتى قُتِلت عن آخرها ، وقُتِل قُرَيب وزَحّاف (٤) .

* * *

(١) الـكامل ٥٧٩ (طبع أوربا) .
(٢) من كتاب الـكامل
(٣) عردوا ، من التعريد وهو الفرار .
(٤) الـكامل ٥٨١ ، ٥٨٢ (طبع أوربا) .

ومنهم أبو بلال مرداس بن أُدَيّة ، وهو أخو عروة بن حُدير الذى ذكرناه أولا ؛ خرج فى أيام عُبيد الله بن زياد ، وأنفذ إليه ابنُ زياد عباسَ بن أخضر المازنىّ ، فقتله وقتل أصحابه، وحُمل رأسه إلى ابن زياد ؛ وكان أبو بلال عابدا ناسكا شاعرا ؛ ومن قدماء أصحابنا مَنْ يدّعيه ، لِمَا كان يذهب إليه من العَدْل وإنكار المنكر ؛ ومن قدماء الشيعة من يدّعيه أيضاً .

[نافع بن الأزرق الحنفىّ]

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفىّ ، وكان شجاعا مقدما فى فقه الخوارج ، وإليه تنسب الأزارقة ، وكان يفتى بأنّ الدار دار كفر ، وأنهم جميعا فى النار ؛ وكلّ مَنْ فيها كافر ؛ إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحلّ للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة ؛ ولا أن يأكلوا مِنْ ذبائحهم ؛ ولا أن يناكحوهم ، ولا يتوارث الخارجىّ وغيره ؛ وهم مثل كفّار العرب وعَبَدة الأوثان ؛ لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والبعد بمنزلتهم ، والتقيّة لا تحلّ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (١) وقال فيمن كان على خلافهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢)، فتفرّق عنه جماعة من الخوارج .

[نجدة بن عامر]

ومنهم نجدة بن عامر ، واحتج نَجْدة بقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ (٣) فسار نَجْدَة وأصحابه إلى اليمامة ، وأضاف نافع إلى مقالةٍ قدّمناها ، استحلاله الغدر بأمانته لمن خالفه ، فكتب نَجْدة إليه :

---

(١) سورة النساء ٧٧
(٢) سورة المائدة ٥٤
(٣) سورة غافر ٢٨

أمّا بعدُ ؛ فإنّ عهدى بك وأنت لليتيم كالأبِ الرحيم ، وللضّعيف كالأخ البرّ ، تعاضد قُوَى المسلمين ، وتصنع للأخرق منهم ؛ لاتأخذُك فى الله لومة لائم ؛ ولا ترى معونةَ ظالم ؛ كذلك كنتَ أنت وأصحابك ؛ أولا تتذكر قولك: لولا أنى أعلمُ أنّ للإمام العادل مثل أجر رعيته ماتولّيت أمر رجلين من المسلمين ! فلما شَرَيتَ نفسَك فى طاعة رَبّك ابتغاء مرضاته ، وأصبت من الحقّ فَصّه[1] ، وصبَرْت على مُرّه ، تجردَ لك الشيطان ؛ ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وطأة منك ومن أصحابك ؛ فاستمالك واستهواك وأغواك ؛ فغويت ، وأكفرت الذين عَذَرهم الله تعالى فى كتابه ، من قَعَدةِ المسلمين وضَعَفتهم ؛ قال الله عزّ وجلّ ؛ وقوله الحقّ ، ووعده الصدق : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَى وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ ﴾[2] : ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[2] ثم استحللْت قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله « عن قَتْلهم ؛ وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[3] ، وقال سبحانه فى القَعدة خيرا ، فقال : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾[4] فتفضيله المجاهدين على القاعدين لايدفع منزلةَ مَنْ هو دون المجاهدين ، أَوَمَا سمعت قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُون مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ ﴾[5] فجعلهم من المؤمنين .[وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم][6] ثم إنك لاتؤدى أمانةً إلى مَنْ خالفك ؛ والله تعالى قد أمرَ أن تؤدّى الأمانات إلى أهلها ؛ فاتق الله فى نفسك ؛ واتّقِ يوماً لايجزى فيه والد عن ولده ،ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ فإن الله بالمرصاد ، وحكمُه العدل ؛ وقولُه الفصل[7] . والسلام .

---

(١) فصه : كنهه
(٢) سورة التوبة ٩١
(٣) سورة الإسراء ١٥
(٤) سورة النساء ٩٥
(٥) سورة النساء ٩٥
(٦) من كتاب الكامل
(٧) الكامل ٦١٢ (طبع أوربا) .

فكتب إليه نافع :

أما بعد ؛ أتانى كتابُك تعِظُنى فيه ، وتذكّرنى وتنصحُ لى وتزجرنى ، وتصفُ ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ؛ وأنا أسألُ الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه .

وعبتَ علىّ مادِنْتُ به ؛ من إكفار القَعَدةِ وقَتْل الأطفال ، واستحلالِ الأمانة من المخالفين ؛ وسأفسر لك إن شاء الله . . .

أما هؤلاء القَعَدةِ ؛ فليسوا كمن ذكرت ممّن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه ، لأنهم كانو بمكة مقهورين محصورين لايجدون إلى الهرب سبيلا ،ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ؛ وهؤلاءَ قد تفقّهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضح . وقد عرفت ماقال الله تعالى فيمن كان مثلَهم ؛ إذ قالوا : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (١) فقال : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ (٣) فخبّر بتعذيرهم ، وأنهم كَذَبُوا الله ورسوله ، ثم قال : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم .

وأما الأطفال ، فإن نوحا نبىّ الله ، كان أعلَمَ بالله منِّى ومنك ، وقد قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (٤) فسماهم بالكفر وهم أطفال ؛ وقبل أن يولدوا ؛ فكيف كان ذلك

(١) سورة النساء ٩٧

(٢) سورة التوبة ٨١

(٣) سورة التوبة ٩٠

(٤) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧

فى قوم نوح ، ولا تقوله فى قومنا ؛ والله تعالى يقول : ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [١] ، وهؤلاء كمشركى العرب ، لايقبل منهم جزية وليس بيننا و بينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإنّ الله تعالى أحلّ لنا أموالهم ، كما أحلّ دماءهم لنا ، فدماؤهم حَلال طِلْق [٢] ، وأموالهم فىء للمسلمين ؛ فاتقِ الله وراجع نفسكَ ، فإنه لاعذرَ لك إلا بالتو بة ؛ ولن يسعَك خِذلاننا والقعود عنّا وترك ما نهجناه لك من مقالتنا ؛ والسلام على من أقرّ بالحقّ وعمل به [٣] .

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكّمة ؛ أما بعد فإنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ؛ إنّكم لتعلمون أنّ الشر يعة واحدة ، والدين واحد ، ففيم المقام بين أظهر الكفّار ترون الظلم ليلا ونهارا ؛ وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد ؛ فقال : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [٤] ؛ولم يجعلْ لكم فى التخلّف عذرا فى حالٍ من الأحوال ؛ فقال : ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [٥] و إنما عذر الضعفاء والمرضى ، والذين لايجدون ماينفقون، ومَن كانت إقامتُه لِعلّة ، ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال : ﴿لا يستوى الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غَيْرُ أولى الضَّرَرِ والمجاهدُون فى سبيل الله﴾ [٥] ، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا ؛ فإنها غرّارة مكّارة ، لذتها نافدة، ونعيمها بائد ،حُفّتْ بالشهوات اغترارا؛وأظهرت حَبْرَة [٦] وأضمرت عَبْرة ؛ فليس آكلٌ منها أُكْلَةً تسرّه، ولا شاربٌ منها شربة تؤنقه [٧] إلا ودنا بها درجَة إلى أجله؛ وتباعد بها مسافة من أملِه ؛ و إنما جعلها الله دار المتزوّد منها ، إلى النعيم المُقيم ، والعيش السليم ، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قرارا ؛ فاتقوا الله وتزوّدوا ؛

---

(١) سورة القمر ٤٣

(٢) يقال : حل طلق ، أى حلال طيب .

(٣) الكامل للمبرد ٦١٣ (طبع أوربا)

(٤) سورة التوبة ٣٦

(٥) سورة التوبة ٤١

(٦) الحبرة : النعمة .

(٧) تؤنقه : تعجبه .

فإن خير الزاد التقوى ، والسلام على من اتبع الهـدى [١] .

فلما أظهر نافعٌ مقالتَه هذه،وانفرد عن الخوارج بها، أقام فى أصحابه بالأهواز يستعرِض الناس ، ويقتُل الأطفال ،ويأخذالأموال ، ويَجْبِى الخراج ؛وفشا عُمّاله بالسواد ؛ فارتاع لذلك أهلُ البصرة ،واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف،وسألوه أن يؤمِّر عليهم أميرا يحميهم من الخوارج ، ويجاهدَ بهم ؛ فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمىّ بِبّة ، فسأله أن يؤمِّر عليهم — وببّة يومئذ أميرُ البصرة من قِبَل ابن الزبير — فأمّر عليهم مسلم بن عبيس بن كُرَيْز ، وكان ديّنا شُجاعا ؛ فلما خرج بهم من جِسْر البصرة ، أقبل عليهم ، وقال : أيّها الناس،إنى ماخرجت لامتيار [٢] ذهب ولا فضة ، و إنى لأحارب قوماً إن ظفرتُ بهم ؛ فما وراءهم إلا السيوف والرماح ؛ فمن كان شأنه الجهاد ، فلينهضْ ، ومَنْ أحبّ الحياةَ فليرجع .

فرجع نفرٌ يسير ، ومضى الباقُون ؛ معه فلما صاروا بدُولَاب [٣] خرج إليهم نافع وأصحابُه ، فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسَّرت الرماح ؛ وعُقِرت الخيل ؛ وكثُر الجراح والقتل ، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد [٤] ، فقتِل ابنُ عُبَيس أمير أهل البصرة ، وقتِل نافع بن الأزرق أميرُ الخوارج؛ وادَّعى قَتلَه سلامة الباهلىّ ، وكان نافع قد استخلف عبيدالله ابن بشير بن الماحُوز السّليطى اليربوعىّ ، واستخلف ابن عُبَيْس الربيع بن عمرو الأجذم الغُدانىّ اليربوعىّ ؛ فكان الرئيسان من بنى يَرْبُوع ؛ فاقتتلوا بعد قتل ابن عُبَيس ونافع قتالا شديدا نَيّفا وعشرين يوما ؛ حتى قال الربيع لأصحابه : إنّى رأيت البارحة كأنّ يدى

---

(١) الكامل ٦١٥ (طبع أوربا)
(٢) امتيار ؛ مصدر امتار لأهله ؛ أى جلب لهم الميرة ، والميرة : الطعام .
(٣) دولاب : قرية بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ .
(٤) العمد ، بفتحين ، أو بضمتين جمان للعمود

التى أصيبت بِكابُل انحطت من السماء ، فاسْتَشْلَتنى [1] ، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل ؛ ثم عاودهم القِتال ؛ فقتِل ، فتدافع أهلُ البصرة الراية ؛ حتى خافوا العَطَب ؛ إذا لم يكن لهم رئيس ؛ ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحميرىّ ، فأباها ؛ فقيل له : ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم ؟ فقال : إنها مشئومة ، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل ؛ ثم أخذها فلم يزَلْ يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبىّ ؛ وذلك بعد أن اقتتلوا زُهاء شهر ؛ فاختلفا ضربتيْن ، فخرّا ميّتين [2] .

وقام حارثة بن بدر الغُدانىّ بأمر أهل البصرة بعده ؛ وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشةً خفيفة ؛ ويزجِى الأوقات انتظاراً لقدوم أمير من قبل بِبّة يلى حَرْب الخوارج ؛ وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب ؛ وهى من حُروب الخوارج المشهورة ، انتصف فيها الخوارج من المسلمين ، وانتصف المسلمون منهم ، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب .

* * *

[عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعىّ]

ومنهم عبيد الله بن بشير بن الماحُوز اليربوعىّ ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قَتْل نافع بن الأزرق ؛ وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيمىّ ؛ ولاه عبد الله بن الزُّبير ذلك ؛ ولقيه كتابُه بالإمارة وهو يريد الحج، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة ، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة ، فخرج إليهم فى اثنى عشر ألفا ، فلقيه أهلُ البصرة الذين كانوا فى وجه الأزارقة ، ومعهم حارثة بن بدر الغدانىّ ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية ، وكان ابن الماحوز حينئذ فى سوق الأهواز ، فلما عبر

---

(١) استشلتنى ؛ قال المبرد : استشلتنى ؛ أى أخذتنى إليها واستنقذتنى ؛ يقال : استشلاه واشتلاه .
(٢) الكامل ٦١٦ (طبع أوربا) .

عثمان إليهم دُجَيلا ، نهضت إليه الخوارج ، فقال عثمان لحارثة : ماالخوارج إلا ما أرى ، فقال حارثة : حسبك بهؤلاء ! قال : لاجَرَم ! لاأتغدّى ، حتى أناجزهم ، فقال حارثة : إنّ هؤلاء القوم لايقاتلون بالتعسّف ، فأبق على نفسك وجندِك ، فقال : أبيتم ياأهلَ العراق إلا جُبْنا ! وأنت ياحارثة ماعلمك بالحرب ! أنت والله بغيرِ هذا أعلم – يُعَرِّض له بالشراب ، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب – فغضب حارثة ، فاعتزل ،وحار بهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلا ،وانهزم الناس، وأخذ حارثة بن بدر الراية ، وصاح بالناس: أنا حارثة بن بدر ! فثاب إليه قوم فعبر بهم دجيلا، و بلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بنى تميم :

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ ... وأعقَبَنا هــذا الحجازىّ عثمانُ [(١)]

فأرعد من قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ ... وأبرق ، والبرقُ اليمـانىّ خَوّانُ [(٢)]

فَضَحْتَ قريشاً غَثَّها وسمينَها ... وقيل بنو تيم بن مرةَ غِيلان [(٣)]

فلولا ابنُ بدرٍ للعراقِين لم يَقُمْ ... بمـا قام فيـه للعِرَاقين إنسانُ

إذا قيل مَنْ حامى الحقيقة أومأت ... إليه مَعَـــدٌّ بالأكف وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بعزْله ، وولى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومىّ المعروف بالقُباع [(٤)] البصرة ، فقدمها، فكتبَ إليه حارثة بن بدْر يسأله الولاية والمدد ، فأراد توليتَه ، فقال له رجل من بَكْر بن

---

(١) الأبيات فى الكامل ٦٢٥ (طبعة أوربا)

(٢) قال المبرد : قوله : « فأرعد » زعم الأصمعى أنه خطأ . . . وأنه لايقال إلا رعد وبرق . . . وروى غير الأصمعى: أرعد وأبرق على ضعف . وقوله : والبرق اليمانى خوان ، يريد :والبرق اليمانى يخون

(٣) كذا فى ا ج ، وفى الكامل : « عزلان » ، وفى ب : « غرلان » .

(٤) قال المبرد : « وإنما سمى الحارث بن عبد الله القباع ؛ لأنه ولى البصرة ؛ فغير على الناس مكاييلهم ؛ فنظر إلى مكيال صغير فى مرآة العين ؛ وقد أحاط بدقيق استكثره ؛ فقال : إن مكيالكم هـذا لقباع ؛ والقباع : الذى يخفى أو يخفى مافيه . الكامل ٧ : ٤٣ – بشرح المرصفى .

وائل : إن حارثة ليس بذلك ؛ إنمـا هو صاحب شراب ، وكان حارثة مستهترا بالشراب ، معاقراً للخمر ؛ وفيه يقول رجل من قومه [1] :

أَلم ترَ أنّ حارثةَ بنَ بَدْرٍ يُصَلّى وهوَ أَكْفَرُ من حِمَارِ
أَلم ترَ أنّ للفتيانِ حَظًّا وحظُّكَ فى البغايا والعُقَارِ [2]

فكتب إليه القُباع : تُكْفى حربَهم إن شاء الله : فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرّق أصحابه عنه وبقى فى خِفٍّ منهم ؛ فأقام بنهر تِيرَى،فعبرت إليه الخوارج ، فهرب مَنْ تخلّف معه من أصحابه ؛ وخرج يركُض حتى أتى دُجَيلا ، فجلس فى سفينة ، وأتبعه جماعة من أصحابه ؛ فكانوا معه فيها ؛ ووافاه رجلٌ من بنى تميم ، عليه سلاحه والخوارج وراءه ؛ وقد توسّط حارثة دُجَيلا ، فصاح به : ياحارثة ، ليس مثلى يضيع ! فقال للملّاح : قرّب ؛ فقرّبَ إلى جُرُف [3]؛ولا فُرْضة هناك، فَطَفَر [4] بسلاحه فى السفينة ، فساخت بالقوم جميعا وهلك حارثة [5] .

***

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب " الأغانى الكبير " أن [6] حارثة لما عقدوا له الرئاسة ، وسلّموا إليه الراية ، أمرهم بالثّبات ، وقال لهم : إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين ، وللموالى زيادة فريضة ، ونَدَبَ الناس ، فالتقوْا وليس بأحدٍ منهم طِرْق [7] قد فشت فيهم الجراحات ، وما تطأ الخيلُ إلّا على القتلى ؛ فبيناهم كذلك ، إذْ أقبل جمعٌ

---

(١) نقل المرصفى فى رغبة الآمل أن البيتين نسبا إلى علقمة بن معبد المازنى .
(٢) العقار : الخمر .
(٣) الجرف : ما أكله السيل من أسفل شق الوادى والنهر .
(٤) طفر : وثب .
(٥) الكامل ٦٢٦ وما بعدها (طبعة أوربا)
(٦) الأغانى ٦ : ١٤٦ ومابعدها (طبعة الدار) . مع اختلاف فى الرواية
(٧) طرق ، أى قوة .

من الشُّراة من جهة اليمامة ، ـ يقول المكثِّر : إنهم مائتان ، والمُقَلل إنهم أربعون ـ فاجتمعوا وهم مُريحون مع أصحابهم ، فصاروا كَوْكَبَةً [١] ، واحدة، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزما ، وقال لأصحابه :

كَرْنِبُوا وَدَوْلِبُوا أَوْ حَيْثُ شِئْتُمْ فاذْهَبُوا [٢]

وقال :

أيْر الحمار فريضةٌ لعبيدِكُمْ والخصيتَان فريضة الأعراب

قال : كَرنبوا ، أى اطلبوا كرنبَى ، وهى قرية قريبة من الأهواز ، ودَوْلِبوا : اطلبوا دُولاب ؛ وهى ضيعة بينها و بين الأهواز أربعة فراسخ .

قال : فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين ، وتبعتهم الخوارج ، فألقى الناس أنفسهم فى الماء ، فغرق منهم بدُجَيل الأهواز خلق كثير .

***

[الزبير بن علىّ السّليطىّ وظهور أمر المهلّب]

ومنهم الزُّبير بن على السليطىّ التميمى ؛ كان على [٣] مقدمة ابن الماحوز ، وكان ابن الماحوز يخاطب بالخلافة ، ويخاطب الزبير بالإمارة ، ووصل الزبير بعد هلاك حارثة ابن بدر ، وهرب أصحابُه إلى البصرة ، فخافه الناس خوفاً شديدا ، وضجّ أهلُ البصرة إلى الأحنف ، فأتى القُباع ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا العدو قد غَلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصُرَنا فى بلدنا حتى نموت هُزالا . قال : فسمُّوا إلىّ رجلا يلى الحرب ، فقال الأحنف: لا [٣] أرى لها رجلا إلا المهلّب بن أبى صُفرة ؛ فقال : أو هذا رأى

---

(١) الكوكبة : الجماعة ، وفى الأغانى « كبكبة » ، وهما بمعنى

(٢) الكامل للمبرد ٨ : ١٠ وما بعدها ـ بشرح المرصفى .

(٣) فى الكامل قبل هذه الكلمة : « أن الرأى لايخيل » ، أى لايشكل ولايشتبه .

جميع أهل البصرة ؟ اجتمعوا إلىّ فى غد لأنظر ؛ وجاء الزبير حتى نزل على البصرة ، وعَقَد الجسْرَ ليعبُر إليها ؛ فخرج أكثرُ أهل البَصْرة إليه ، وانضم إلى الزبير جميع كُوَر الأهواز وأهلها رغبة ورهبة ، فوافاه البصريون فى السُّفُن وعلى الدّوابّ[1] ، فاسودّت بهم الأرض ، فقال الزبير لما رآهم : أبى قومُنا إلا كفراً ، وقطع الجسر ، وأقام الخوارج بإزائهم ، واجتمع الناس عند القُباع ، وخافوا الخوارج خوفا شديدا ، وكانوا ثلاث فرق : سمّى قومٌ المهلّب ، وسمّى قوم مالك بن مِسْمع ، وسمّى قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكىّ ، فاختبر القُباع ما عند مالك وزياد، فوجدهما مُتثاقلين عن الحرب ، وعاد إليه مَنْ أشار بهما ؛ وقالوا : قد رجعْنا عن رأينا ؛ ما نرى لها إلا المهلّب ، فوجّه إليه القُبَاع فأتاه ، فقال له : يا أبا سعيد ، قد ترى ما قد رَهِقَنا من هذا العدوّ ، وقد أجمع أهلُ مصرك عليك ؛ وقال له الأحنف : يا أبا سعيد ، إنّا والله ما آثرناك ، ولكنّا لم نرَ مَنْ يقوم مقامك .

ثم قال القُبَاع ـ وأومأ إلى الأحنف : إنّ هذا الشيخَ لم يسمِّك إلا إيثاراً للدّين والبقيا[2] وكلُّ مَنْ فى مصرك مادٌّ عينَه إليك ، راجٍ أن يكشف الله عنه هذه الغمّة بك ، فقال المهلّب : لا حول ولا قوة إلا بالله، إنّى عند نفسى لدون ما وصفتم، ولست آبَى ما دعوتم إليه؛ لكن لى شروطا أشترطها. قالوا : قل ، قال: على أن أنتخب مَنْ أحببت ، قال الأحنف: ذاك لك ، قال : ولى إمرةَ كلّ بلد أغلب عليه، قالوا :لك ذلك، قال : ولى فَىْء كلّ بلد أظفر به، قال الأحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ؛ إنما هو فَىْء للمسلمين ؛ فإنْ سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوّهم ، ولكن لك أن تعطىَ أصحابك من فىء كلّ بلد تغلب عليه ماأحببت ، وتُنفق منه على محاربة عدوّك ؛ فما فَضَل عنكم كان للمسلمين ؛ فقال المهلّب : لاحول ولا قوة إلا بالله ! فمنْ لى بذلك ؟ قال الأحنف : نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرك ، قال : قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتابا ، وَوُضِع على يدى الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الجعفىّ ، وانتخب المهلّب من جميع الأخماس ، فبلغت نُخْبَته اثنى عشر ألفا ، ونظروا فى بيت المال ،

---

(١) فى الكامل بعد هذه الكلمة : « ورجالة » .

(٢) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « التقى » ، وهى ساقطة من الكامل .

فلم يكن إلا مائتا ألف درهم ، فعجزت ، فبعث المهلّب إلى التجار ، فقال : إنّ تجاراتِكم منذ حول قد فَسَدت بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم ، فهلمّوا فبايعونى واخرُجوا معى أوفِّكم حقوقَكم . فبايعوه وتاجروه ، فأخذ منهم من المال ما أصلَح به عسكَره واتخذ لأصحابه الخفاتين[1] والرّانَات المحشوّة بالصوف ؛ ثم نهض ـ وكان أكثر أصحابه رَجّالة ـ حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفُن فأصلحت وأحضرت ، فما ارتفع النهار حتى فرَغ منها ، ثم أمر الناس بالعُبور ، وأمّر عليهم ابنه المغيرة ، فخرج الناس ، فلما قاربوا الشطّ خاضت إليهم الخوارج ، فحاربوهم وحاربهم المغيرة ، ونَضَحهم[2] بالسهام حتى تنحَّوْا ، وصار هو وأصحابه على الشطّ ، فحاربوا الخوارج، فكشفوهم وشَغلوهم حتى عقد المهلب الجسْر ، وعبر والخوارج منهزمون ، فنهى الناس عن اتباعهم ، ففى ذلك يقول شاعر من الأزد :

إنّ العراق وأهلَه لم يخبُرُوا … مثلَ المهلّب فى الحروب فسلّموا
أمضى وأيمَن فى اللقّاء نقيبةً … وأقلَّ تهليلًا إذا ما أحجمُوا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبرىّ ، من فرسان تميم وشجعانهم . ومن شعر عطية :

يُدْعى رجالٌ للعَطَاء وإنما … يُدْعَى عطيّة للطِّعان الأجردِ

وقال فيه شاعر من بنى تميم :

وما فارسٌ إلّا عطيةُ فوْقَهُ … إذا الحربُ أبْدَتْ عنْ نَواجِذِها الفَمَا
به هَزَمَ اللهُ الأزارقَ بعْدَ ما … أباحُوا مِنَ المِصْرَيْنِ حلًّا ومَحْرَمَا

فأقام المهلّب أربعين ليلة يَجْبِى الخراج بكُور دَجْلة ، والخوارج بنهر تِيرَى ، والزبير ابن علىّ منفرد بعسكره عن عسكر ابن الماحُوز ؛ فقضى المهلّب التجار ، وأعطى أصحابه ،

---

(١) الخفتان : ثوب من القطن يلبس فوق الدرع . الألفاظ الفارسية ٥٦

(٢) نضحهم : رشقهم ورماهم .

فأسرع الناس إليه رغبة فى مجاهدة العدوّ وطمعا فى الغنائم والتجارات ، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزدىّ وعبد الله بن رباح ، ومعاوية بن قُرّة المُزَنىّ ، وكان يقول : لو جاءت الديلم من هاهنا والحرورية من هاهنا لحاربتُ الحروريّة ؛ وجاءه أبو عمران الجَوْنى . وكان يروى عن كعب أنّ قتيل[1] الحرُورية يفضُل قتيل[1] غيرهم بعشرة أبواب .

ثم أتى المهلّب إلى نهر تيرى ، فتنحَّوْا عنه إلى الأهواز ، وأقام المهلّب يَجْبِى ما حواليه من الكُوَر ، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومَنْ فى عسكرهم ؛ وإذا حُشْوَة[2] ما بين قَصّاب وحَدّاد وداعر[3] . فخطب المهلب الناس ، وذكر لهم ذلك ؛ وقال : أمثلُ هؤلاء يغلبونكم على فيئكم ! ولم يزل مقيما حتى فَهِمهم ، وأحكم أمرهم وقَوّى أصحابه ، وكَثُرت الفرسان فى عسكره ، وتتامّ[4] أصحابُه عشرين ألفا .

ثم مضى يؤمّ كُوَر الأهواز ، فاستخلَفَ أخاه المعارك بن أبى صُفرة على نهر تِيرَى ، وجعل المغيرة على مقدّمته ، فسار حتى قاربهم ، فناوشهم وناوشوه ؛ فانكشف عن المغيرة بعضُ أصحابه ، وثبت المغيرة نفسُه بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران فى بقية متاعهم ، وارتحلوا عن سوق الأهواز ، فدخلها المغيرة ، وقد جاءت أوائل خيل المهلّب ، فأقام بسوق الأهواز ، وكتب بذلك إلى الحارث القُباع كتابا يقول فيه :

أما بعد ؛ فإنا مذ خَرَجْنا نؤمّ العدوّ ، فى نعم من فضل الله متّصلة علينا ، ونِقَمٍ متتابعة عليهم ، نُقْدِم ويحجمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ؛ إلى أن حَلَلْنا سوقَ الأهواز ؛ والحمد لله رب العالمين ؛ الذى من عنده النصر ؛ وهو العزيز الحكيم .

---

(١) ب « قتك » ، وما أثبته من ا ، ج والكامل .
(٢) الحشوة : رذال الناس .
(٣) الداعر : الخبيث المفسد .
(٤) ج : « والتأم » .

فكتب إليه الحارث :

هنيئا لك أخا الأزد الشّرف فى الدنيا والأجر فى الآخرة ، إن شاء الله .

فقال المهلّب لأصحابه : ما أجفَى أهل الحجاز ! أما ترونه عرف [١] اسمى وكنيتى واسم أبى !

قالوا : وكان المهلّب يبُثّ الأحراس فى الأمن ، كما يبثّهم فى الخوف ، ويُذْكِى [٢] العيون فى الأمصار كما يُذْكِيها فى الصحارى، ويأمر أصحابَه بالتحرّز ، ويخوّفهم البيَات [٣] ؛ وإن بَعُد منه العدوّ ، ويقول [٤] : احذروا أنْ تُكَادوا كما تكيدون ؛ ولا تقولوا : هَزمناهم وغَلَبناهم ؛ والقوم خائفون وجلون ، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة .

ثم قام فيهم خطيبا ، فقال : أيها النّاس ؛ قد عرفتُم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فَتَنُوكم فى دينكم ، وسفكوا دماءكم ، فقاتلوهم على ما قاتَلهم عليه أوّلكم علىّ بن أبى طالب ؛ لقد لقيهم [٥] الصابر المحتسب مسلم بن عُبَيس، والعَجِل المفرّط عثمان بن عبيد الله ،والمعصىّ المخالف حارثة بن بدر ؛ فقَتَلوا جميعا وقُتِلوا ؛ فالقوم بجدٍّ وَجِدّ فإنما هم مَهَنتكم وعبيدكم ؛ وعارٌ عليكم ، ونقص فى أحسابكم وأديانكم أنْ يغلبكم هؤلاء على فيئكم ؛ ويطئوا حريمكم .

ثم سار يريدهم وهم بمَنَاذر [٦] الصغرى ؛ فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحُوز رئيسُ الخوارج رجلا يقال له واقد ، مولًى لآل أبى صُفْرة مِنْ سَبْى الجاهلية ، فى خمسين رجلا ، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تِيرى ، وبها المعارك بن أبى صُفْرة ، فقتلوه وصلبوه ، فنُمِيَ

---

(١) الكامل : « يعرف » .

(٢) العيون : الجواسيس ؛ وإذكاؤها إرسالها .

(٣) البيات : اسم من « بيت القوم والعدو تبييتا » ؛ أوقع بهم ليلا وهم غارون .

(٤) ج : « فإن بعد منه العدو يقول » .

(٥) الكامل : « لقيهم قبلكم » ، وفى ب « لقيتم » ، وماأثبته من ج

(٦) مناذرالصغرى ،وكذلك مناذر الكبرى : كورتان من كور الأهواز

الخبر إلى المهلّب ، فوجّه ابنَه المغيرة ، فدخل نهر تِيرى ، وقد خرج واقد منها ، فاستنزل عمّه فدفنَه ، وسكن الناس ، واستخلف بهـا ورجع إلى أبيه ، وقد نزل بسُولاف [١] والخوارج بها ، فواقعهم ، وجعل على بنى تميم الحريش بن هلال ، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلّب ؛ يقال له عبد الرحمن الإسكاف ، فجعل يحضُّ الناس ويهوّن أمرَ الخوارج ، ويختالُ بين الصَّفّين ، فقال رجل من الخوارج لأصحابه : يا معشر المهاجرين ؛ هل لـكم فى قِتْلة فيها الجنة ! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحـده فارسا ، ثم كبَا به فرسُه ، فقاتلهم راجلا قائما وباركا ، ثم كَثُرت به الجراحات فذبّب بسيفه ، ثم جعل يحثُو فى وجوههم التراب ، والمهلّبُ غيرَ حاضر ؛ فقُتِلَ ثم حضر المهلب فأعلم ، فقال للحريش ولعطية العنبرىّ : أسلمتُمَا سيدَ أهل العراق [٢] ، لم تُعيناه ولم تستنقذاه حَسداً له ؛ لأنه رجل من الموالى ؛ ووبخهما .

وحمل رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب فقتله ، فحمل عليـه المهلّب فطعنه فقتله ، ومال الخوارجُ بأجمعهم على العسكر ؛ فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلا ؛ وثبت المهلّب وابنه المغيرة يومئذ ، وعرف مكانه .

ويقال : حاص [٣] المهلب يومئذ حَيْصة . ويقول الأزد : بل كان يردّ المنهزمة ويحمى أدبارهم ، وبنو تميم تزعم أنه فرّ ، وقال شاعرهم :

بِسُولَافٍ أضَعْتَ دماء قومى وَطِرْتَ عَلَى مُواشِكَةٍ دَرُورِ [٤]

وقال آخر من بنى تميم :

تبعنا الأعْوَرَ الـكَذّابَ طَوْعاً يُزَجِّى كلَّ أربعة حمـارا [٥]

---

(١) سولاف ، بضم السين : قرينة فى غرب دجيل ؛ قرب مناذر الـكبرى .

(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والـكامل : « سيد أهل العسكر » .

(٣) حاص حيصة : جال جولة .

(٤) قال المبرد : مواشكة ، يريد سريعة ، ودرور ، «فعول» ، من در الشىء إذا تتابع .

(٥) يزجى : يسوق .

فيـــاندمى عَلَى ترْكِى عَطَائى معايَنَــــةً وأطلبُه ضِمَارا (١)
إذا الرحمن يَسّر لى قُفُولًا فحرّقَ فى قُرَى سولافَ نارا

قوله : « الأعور الـكذاب » ، يعنى به المهلّب ، كانت عينه غارَتْ بسهم أصابها ؛ وسَمَّوْه الـكَذاب ؛ لأنه كان فقيها ، وكان يتأوّل ما ورد فى الأثر من أنّ كلّ كذب يكتَب كذبا إلا ثلاثة : الـكذب فى الصلح بين رجلين ، وكذب الرجل لامرأته بوعْد ، وكذب الرجل فى الحرب بتوعد وَتهدُّد . قالوا : وجاء عنه صلى الله عليه وآله: « إنما أنت رجل فخذِّل عَنّا ما استطعت » . وقال : « إنمـا الحرب خُدعة » ، فـكان المهلب ربمـا صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ما ضعف ، ويضعِّف به من أمر الخوارج ما اشتدّ ، وكان حَىّ من الأزد يقال لهم النَّدَب ؛ إذا رأوا المهلب رائحا إليهم قالوا : راح يكذب ؛ وفيه يقول رجل منهم :

أنت الفتَى كلّ الفَتى لو كنت تصدق ما تقول

فبات المهلب فى ألفين ، فلما أصبح رجع بعضُ المنهزمة ، فصاروا فى أربعة آلاف ، فخطب أصحابه ، فقال : والله ما بكم من قلّة ، وما ذهب عنكم إلا أهلُ الجُبْن والضعف والطّبَع (٢) والطمع ؛ فإن يمسسكم قَرْح فقدْ مَسّ القَومَ قَرْحٌ مثله ، فسيروا إلى عدوّكم على بركة الله .

فقام إليه الحريش بن هلال ، فقال : أنشدك الله أيها الأمير أنْ تقاتلهم ؛ إلا أن يقاتلوك ؛ فإن فى أصحابك جِراحا ، وقد أثخنتهم هذه الجولة .

فقبِل منه ؛ ومضى المهلب فى عشرة فأشرف على عسكر الخوارج ؛ فلم ير منهم أحـدا

---

(١) الضمار : الغائب الذى لا يرتجى.
(٢) الطبع فى الأصل : الصدأ يكثر على السيف وغيره ؛ ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام .

يتحرك ، فقال له الحريش : ارتحل عن هذا المنزل ؛ فارتحل، فعبر دُجَيلا وصار إلى عاقول[١] ، لا يؤتى إلا من جهة واحدة ؛ فأقام به وأقام الناس ثلاثا مستريحين .

وفى يوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات :

ألا طَرَقت من آل مَيَّةَ طَارِقَهْ ... عَلَى أنها معشوقة الدَّلِّ عاشِقَهْ [٢]

تراءت وأرض السُّوس بينى وبينها ... ورستاق سولافٍ حَمَتْه الأزارقهْ

إذا نحن شئنا صادفتنا عِصابة ... حَرُورية فيها من الموت بَارقَهْ

أجارت عيلنا العسكريْنِ كليْهما ... فباتت لنا دُون اللِّحَافِ معانقَهْ

فأقام المهلب فى ذلك العَاقُول ثلاثة أيام ، ثم ارتحلَ ، والخوارج بسِلَّى وسِلَّبْرى فنزل قريبا منهم؛ فقال ابن الماحُوز لأصحابه : ماتنتظرون بعدوكم وقد هزمتموهم بالأمس،وكسرتم حدهم ؟ فقال له وِاقد مولى أبى صفرة:ياأميرَ المؤمنين؛ إنما تفرّق عنهم أهل الضعف والجُبْن، وَبقِيَ أهل النَّجدة والقوة ؛ فإن أصبتهم لم يكن ظفراً[٣] هيناً ؛ لأنى أرامِ لايُصابون حتى يصيبوا ؛ وإن غَلَبوا ذهب الدين . فقال أصحابه : نافَقَ واقد ، فقال ابن الماحوز : لاتعجلوا على أخيكم ؛ فإنه إنما قال هذا نظرا لـكم .

ثم وجّه الزبير بن علىّ إلى عسكر المهلّب ؛ لينظرَ ماحالُهم ؛ فأتاهم فى مائتين فحزَرهم ورجع ، وأمر المهلب أصحابه بالتحارُس ؛ حتى إذا أصبح ركب إليهم فى تعبئة ، فالتقوْا بسلّى وسلّبْرى ، فتصافُّوا ، فخرج من الخوارج مائة فارس ؛ فرَكزوا رماحهم بين الصفين ؛ واتكئوا عليها ، وأخرج إليهم المهلّب أعدادهم ؛ ففعلوا مثل مافعلوا، لايرعوْن إلا الصلاة؛ حتى إذا أمسوْا رجع كلّ قوم إلى معسكرهم ؛ ففعلوا هكذا ثلاثة أيام .

---

(١) العاقول : منعطف الوادى .

(٢) الكامل : « من آل بيبة » .

(٣) « ظفرك » .

ثم إن الخوارج تطاردُوا لهم فى اليوم الثالث ، فحمَل عليهم هؤلاء الفرسان ، فجالوا ساعة ؛ ثم إنّ رجلًا من الخوارج حمل على رجل فطعنه ، فحمل عليه المهلّب فطعنه ، فحمل الخوارج بأجمعهم؛ كما صنعُوا يوم سُولاف فضعضعُوا الناس ، وفُقِد المهلّب ، وثبت المغيرة فى جمع أكثرهم أهل عُمَان .

ثم نَجم[1] المهلّب فى مائة ، وقد انغمسَ كُمَّاه[2] فى الدم ، وعلى رأسه قلنسوَة مربعة فوق المِغْفر محشوة قزًّا ، وقد تمزّقَتْ ؛ وإنّ حشوَها ليتطاير وهو يَلْهَث ، وذلك فى وقت الظهر ، فلم يزل يحاربُهم حتى أتى الليل ، وكَثُر القتلى فى الفريقين ؛ فلما كان الغد غاداهم ؛ وقد كان وجَّه بالأمس رجلا من طاحيةَ بن سود بن مالك بن فَهْم ، من الأزْد من ثقاته وأصحابه ، يردّ المنهزمين ، فمرّ به عامر بن مِسْمَع فردّه ، فقال : إنّ الأمير أذن لى فى الانصراف ؛ فبعث إلى المهلب ، فأعلمه ، فقال : دَعْه فلا حاجة لى فى مثله من أهل الجبن والضعف . ثم غاداهم المهلّب فى ثلاثة آلاف ، وقد تفرّق عنه أكثر الناس ، وقال لأصحابه : ما بكُم من قِلّة ! أيعجز أحدُكم أن يلقى رمحه ثم يتقدم فيأخذه ! ففعل ذلك رجل من كِنْدة ، واتبعه قوم ؛ ثم قال المهلّب لأصحابه : أعدّوا مخالىَ فيها حجارة ، وارْمُوا بها فى وقت الغفلة ؛ فإنها تصدّ الفارس ، وتصرَعُ الراجل ؛ ففعلوا . ثم أمر مناديًا ينادى فى أصحابه ، يأمرهم بالجدّ والصَّبْر ، ويطمعهم فى العدوّ ، ففعل ذلك حتى مرّ ببنى العدَوّية ؛ من بنى مالك بن حنظلة ؛ فنادى فيهم فضربوه ، فدعا المهلّب بسيِّدهم ــ وهو معاوية بن عمرو ــ فجعل يركله برجله ، فقال : أصلح الله الأمير ! أعفنى من أمّ كَيْسان ــ والأزْد تسمىّ الركبة أم كَيْسان ــ ثم حمل المهلّب وحملوا ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فجهَد الخوارج ، ونادى مناد منهم: ألا إنّ المهلّب قد قُتل !

(١) نجم : ظهر .
(٢) الـكامل : « كفاه » .

فركب المهلب بِرْذوناً وَرْداً (١) ، وأقبل يركُض بين الصَّفّين ؛ وإن إحدى يديه لفى القَباء ، وما يشعر لها ، وهو يصيح : أنا المهلب! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنُّوا أن أميرهم قد قتل ، وكَلّ الناس مع العصْر ، فصاح المهلّب بابنه المغيرة : تقدّم ؛ ففعل وصاح بذكْوان مولاه : قدِّم رايتك ؛ ففعل، فقال له رجل من ولده : إنّك تغرِّر بنفسك ، فزَبره وزجَره ، وصاح : يابنى سلمة ، آمركم فتعصوننى ! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جِلاد، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحُوز ، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله ، فقال لأصحابه : ابغوا لى رجلًا جَلْدا يطوف فى القتلى ، فأشاروا عليه برجل من جَرْم ، وقالوا : إنا لم نر قطّ رجلًا أشدّ منـه ؛ فجعل يطوف ومعه النيران ، فجعل إذا مرّ بجريح من الخوارج ، قال : كافر وربّ الـكعبة ! فأجهز عليه ، وإذا مرّ بجريح من المسلمين أمر بسقيِه وحمْله ، وأقام المهلّب يأمرهم بالاحتراس ؛ حتى إذا كان فى نِصْف الليل ، وجّه رجلا من اليَحْمَد (٢) فى عشرة : فصاروا إلى عسكر الخوارج ، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أرّجان ، فرجع إلى المهلّب فأعلمه ، فقال لهم : أنا الساعة أشد تخويفاً ، احذروا البَيات .

ويروى عن شعبة بن الحجاج أنّ المهلَّب قال لأصحابه يوما : إنّ هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيات ؛ فإن يكن ذلك فاجعلوا شِعاركم: « حَم لايُنصرون » فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بها .

ويروى أنه كان شعار أصحاب على بن أبى طالب عليه السلام .

فلما أصبح القوم غَدَوْا على القتلى ؛ فأصابوا ابن الماحُوز قتيلا ، ففى ذلك يقول رجل من الخوارج :

---

(١) الـكامل : « برذونا قصيرا أشهب » .
(٢) اليحمد : بطن من الأزد .

بِسِلّى وسِلّبْرى مَصارِع فتيــةٍ كِرامٍ وعَقْرَى من كُمَيْتٍ ومن وردِ[١]

وقال آخر :

بِسِلّى وسِلّبْرى جماجم فتيةٍ كرام وصَرْعى لم توسَّد خدودها[٢]

وقال رجل من موالى المهلب : لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة ، رميت به رجلا فصرعته ، ثم رميت به رجلا فأصبت به أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثا ؛ وفى ذلك يقول رجل من الخوارج :

أتانا بأحجَار ليَقتلنَا بها وهَل يُقْتَلُ الأبطالُ وَيْحَكَ بالحجر!

وقال رجل من أصحاب المهلب فى يوم سِلّى وسِلّبْرَى ، وقتل ابن الماحوز :

ويوم سلّى وسِلّبْرى أحاطَ بهم مِنّا صواعقُ لا تُبقِى ولا تَذَرُ[٣]

حتى تركنا عُبيد الله مُنْجَدِلا كما تجدّل جِذْعٌ مالَ مُنْقَعِرُ[٤]

ويروى أن رجلًا من الخوارج يوم سِلّى ، حمل على رجل من أصحاب المهلّب ؛ فطعنه ، فلما خالطه الرّمح صاح : ياأمّتاه ! فصاح به المهلّب : لا كَثّر الله منك[٥] فى المسلمين ، فضحك الخارجىّ ، وقال :

أُمُّكَ خَيْرٌ لكَ منّى صاحباً تَسقيك مَحْضاً وَتَعُلّ رائبا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تَشاجرتْ فى وجهه ، نَــكَس[٦] عَلَى

---

(١) نقل المرصفى عن ابن برى أنه لأبى المقدام بيهس بن صهيب الخنفى . وعقرى : جمع عقير ، بمعنى معقور ؛ من عقر الفرس والبعير ، إذا قطع قوائمه .

(٢) سلى وسلبرى ، ضبطهما المبرد بكسر السين ؛ وقال الأخفش بفتحهما ؛ وقال : موضعان بالأهواز .

(٣) قال المبرد : « تقول العرب : صاعقة وصواعق ؛ وهو مذهب أهل الحجاز ؛ وبه نزل القرآن ، وبنو تميم يقولون: صاقعة وصواقع »

(٤) المنقعر : المنقلع من أصله .

(٥) كذا فى ج ، وفى ب : « مثلك » ، وفى الـكامل : « بمثلك المسلمين »

(٦) نــكس : طأطأ .

قَرَبُوس [١] السَّرْج ، وحَمَل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وأثر فى أصحابها، فتُحُوميت الميمنة من أجله ؛ وكان أشدّ ما تكونُ الحربُ استعاراً أشَدّ ما يكون تبسما . وكان المهلّب يقول : ما شَهِد معى حَرْباً قط إلا رأيت البُشْرَى فى وجهه !

وقال رجل من الخوارج فى هذا اليوم :

فإنْ تكُ قَتْلَى يَوْمَ سِلَّى تتابعت ... فكَمْ غادرتْ أسيافُنا مِنْ قُماقِمِ [٢]
غَدَاةَ نَكُرُّ المشرَفيَّة فِيهمُ ... بِسُولافَ يومَ المأزِقِ المُتَلاحِمِ [٣]

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة القُباع [٤] :

أما بعد ، فإنا لقينا الأزارقة المارقة بحَدّ وجِدّ ، فكانت فى الناس جَوْلة ، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظ والصَّبر بِنيّات صادقة ، وأبدانٍ شداد ، وسيوف حِدَاد ؛ فأعقب الله خيرَ عاقبة ، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل ، فصاروا دريئةَ [٥] رماحنا ، وضرائبَ [٦] سيوفنا ، وقتل الله أميرهم ابن الماحوز ؛ وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها . والسلام .

فكتب إليه القُباع :

قد قرأت كتابَك يا أخا الأزد ، فرأيتك قد وُهِب [٧] لك شرفُ الدنيا وعِزُّها، وذُخِر لك إن شاء الله ثوابُ الآخرة وأجرُها ، ورأيتُك أوثقَ حصون المسلمين ، وهادّ

---

(١) قربوس السرج : مقدمه ؛ ولكل سرج قربوسان مقدم ومؤخر.
(٢) القماقم ، بضم أوله : السيد الكثير الواسع الفضل ؛ كالقمقام .
(٣) المأزق : الموضع الضيق يقتتلون فيه ، والمتلاحم ، من قولهم : شجة متلاحمة ؛ وهى التى تشق اللحم دون العظم ثم تتلاحم فلا يجوز فيها المسبار . والمشرفية : السيوف نسبت إلى المشارف من أرض الشام.
(٤) فى الكامل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ... » .
(٥) الدريئة : حلقة يتعلم عليها الطعن .
(٦) الضرائب : جمع ضريبة ؛ وهو كل ماضربت بسيفك
(٧) الكامل : « وهب الله لك ... وذخر لك ... » .

أركان المشركين ، وذا الرياسة ، وأخا السّياسة ؛ فاستدِمِ الله بشكره ، يتمّ عليك نعمَه . والسلام .

وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه، ولم يكتب إليه الأحنف ، ولكن قال: اقرءوا عليه السلام وقولوا : أنا لك على ما فارقتك عليه ؛ فلم يزل يقرأ الكتب وينظر فى تضاعيفها ، ويلتمس كِتاب الأحنف فلا يراه ، فلما لم يرَه ، قال لأصحابه : أما كَتَب أبو بحر ؟ فقال له الرسول : إنَّه حمَّلنى إليك رسالة ، فأبلغه ، فقال :هذا أحبُّ إلىّ من هذه الكتب .

واجتمعت الخوارج بأرّجان ،فبايعوا الزّبير بن علىّ ؛ وهو من بنى سَليط بن يربُوع ، من رهْط ابن الماحُوز ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفا بيّنا ، فقال لهم : اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله صلى الله عليه وآله ؛ ثم أقبل عليهم فقال : إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر ، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْى ؛ وإن يُصَب منكم أميرُ المؤمنين ؛ فما صار إليه خيرٌ مما خَلفَ ؛ وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعا الأجذم ، والحجاج بن رباب[1] ، وحارثة بن بدر ؛ وأشجَيْتُم المهلّب ، وقتلتم أخاه المعارك ، والله يقول لإخوانكم المؤمنين : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[2] ، فيوم سِلّى كان لكم بلاء وتمحيصا ، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونَكالا ، فلا تُغلبُنّ على الشُّكر فى حينه ، والصبر فى وقْته ؛ وثقوا بأنكم المستخلَفون فى الأرض، والعاقبة للمتقين .

ثم تحمّل للمحاربة نحو المهلّب ؛ فنفحهم المهلّب نفحة ، فرجعوا وأكْمَنُوا للمهلّب ـفى غَمْضٍ من غُموض[3] الأرض يقرُب من عسكرهـ مائة فارس، ليغتالُوه ، فسار المهلّب

---

(١) الكامل : « باب » .
(٢) سورة آل عمران ١٤٠
(٣) الغمض : المطمئن من الأرض

يوما يُطِيف بعسكره ، ويتفقّد سوادَه ، فوقف على جبل ، فقال : إنّ من التدبير لهذه المارِقةأنْ تكون قد أكْمَنَتْ فى سفح هذا الجبل كمينا،فبعث المهلّب عشرة فوارس،فاطّلعوا على المائة ، فلما علموا بهم قطَعُوا القنطرة ونجَوْا وانكسفت الشمس ، فصاحوا : ياأعداء الله ، لو قامت القيامة لجددنا ونحن فى جهادكم .

ثم يئس الزُّبَير من ناحية المهلّب ، فضرب إلى ناحية أصبهَان ، ثم كرّ راجعا إلى أرّجان،وقد جمع جموعا ؛ وكان المهلَّب يقول : كأنّى بالزبير ، وقد جمع لكم ؛ فلا تَرْهبوهم ؛ فتنخبَ [(١)] قلوبُكم ، ولا تغفلوا الاحتراسَ فيطمعوا فيكم . فجاءوه من أرّجان ، فلقوه مستعدًّا آخذاً بأفواه الطُّرق ، فحاربهم ، فظهر عليهم ظهوراً بينا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى يربوع :

سَقَى اللهُ المهلّبَ كُلَّ غَيثٍ ... مِنَ الوَسْمِىّ يَنْتَحِرُ انتِحَارَا [(٢)]
فمـــا وَهَنَ المهلَّب يوم جاءتْ ... عوابس خيلِهمْ تبغى الغِوارا [(٣)]

وقال المهلب يومئذ : ماوقفْتُ فى مضِيق من الحرب إلا رأيت أمامى رجالاً من بنى الهُجَيم بن عمرو بن تميم يجالِدُون ؛ وكأنّ لحاهم أذناب العقَاعق [(٤)] و[كانوا] [(٥)] صبروا معه فى غير موطن .

وقال رجل من أصحاب المهلّب من بنى تميم :

---

(١) تنخب : تضعف ، وفى الكامل : « تخبث » .
(٢) الوسمىّ : مطر الربيع الأول ، سمى به لأنه يسم الأرض بالنبات ؛ وانتحر الوسمى ، أى انبعق بماء كثير ؛ ومنه قول الراعى :

فَمَرّ عَلَى مَنازلها وَأَلْقَى ... بِهَا الأَثْقَالَ وانْتَحَر انتِحَارَا

(٣) الغوار : مصدر غاور العدو مغاورة وغوارا ؛ أغار عليه .
(٤) العقاعق : جمع عقعق ؛ وهو طائر ذو لونين : أبيض وأسود طويل الذنب .
(٥) من الكامل .

أَلَا يَامَنْ لِصَبٍّ مُسْتَهَامٍ (١) قَرِيحِ الْقَلْبِ قَدْ مَلَّ المَزُونَا (٢)
لهـــان على المهلَّب مالقِينـاَ إذا ماراح مسروراً بَطِينـــا (٣)
يَجُرُّ الســـابِرِىَّ وَنَحْنُ شُعْثٌ كأنّ جلودنا كُسِيَتْ طَحِينـــاَ

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف؛ وكان من أَنْجَدِ فُرْسان الخوارج، فطعنَه فدَقَّ صلبه؛ وقال:

قيس الإكاف غَدَاة الرَّوْعِ يَعْلَمُنِي ثَبْتَ المَقَــامِ إذا لاقيتُ أقْرَانِى

وقد كان بعض جيش المهلب يوم سِلَّى وسِلَّبْرى صاروا إلى البصرة ، فذكروا أنّ المهلب قد أصيبَ ، فهمّ أهل البصرة بالنُّقلة إلى البادية ، حتى ورد كتابُه بظَفَرِه ، فأقام الناس؛ وتراجع مَنْ كان ذهب منهم؛ فعند ذلك قال الأحنف : البَصْرة بَصْرة المهلّب؛ وقدم رجل من كِنْدة يعرف بابن أرْقم؛ فنعى ابنَ عمٍّ له ، وقال : إنى رأيت رجلاً من الخوارج؛ وقد مكن رمحه من صُلْبـه ، فلم ينشب أنْ قدم المنعىّ سالما ، فقيل له ذلك ، فقال : صدق ابن أرقم؛ لما أحسَسْتُ برمحه بين كتفىّ صِحْت به: البَقِيّة؛ فرفعه؛ وتلا: ﴿ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .ووجّه المهلّب بعقبِ هذه الوقعة رجلاً من الأزْد ، برأس عبيـد الله بن بشير بن الماحُوز إلى الحارث بن عبـد الله ، فلما صار بكُرْبُج (٥) دينار؛ لقيته إخوة عبيد الله : حَبيب ، وعبد الملك ، وعلىّ؛ بنو بشير بن الماحُوز؛

(١) الكامل : « مستحن » ، من استحنه الشوق إلى وطنه؛ أى استطار به .
(٢) قال المبرد : المزون : عمان؛ وهو اسم من أسمائها قال الكميت :

فأمَّا الأزْدُ أزْدُ بنى سَعِيدٍ فأكْرَهُ أن أُسَمِّيَهَا الْمَزُونَا

وقال جرير :

وأطْفأتَ نيرانَ المزونِ وَأَهْلَهَا وَقَدْ حاولوها فِتْنَةً أن تُسَعَّرَا

(٣) البطين : عظيم البطن
(٤) سورة هود ٨٦
(١) كربج : موضع قرب سوق الأهواز.

فقالوا : ما الخبر ؟ وهو لا يعرفهم ؛ فقال : قتل ابن الماحُوز المارق ، وهذا رأسُه معى ، فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه ، ودفنوا رأس أخيهم عُبيد الله ، فلما ولى الحجاج دخل عليه علىّ ابن بشير ، وكان وَسيما جسيما ، فقال : مَنْ هذا ؟ فخبّره ، فقتله ووهب ابنَه الأزهر وابنَته لأهل الأزدىّ المقتول ، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة ، فوهبوهما لها .

***

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتاب " الكامل "[١]: ولم يزل المهلّب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث القُباع ؛ حتى عُزل وولّى مصعب بن الزبير ، فكتب إلى المهلّب أن أقدِم علىّ ، واستخلف ابنَك المُغيرة ، ففعل بعد أن جمع الناس ، وقال لهم : إنّى قد استخلفتُ المغيرة عليكم ، وهو أبو صغيركم رقّةً ورحمةً ، وابنُ كبيركم طاعةً وبِرًّا وتبجيلا ، وأخو مثله مواساةً ومناصحة ، فلتحسُنْ له طاعتُكم ، وليلِنْ له جانبُكم ، فوالله ما أردتُ صوابًا قطُّ إلا سبقنى إليه .

ثم مضى إلى مصعب ، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته ، وكتب إليه : إنك إن لم تكن كأبيك ، فإنك كافٍ لما وليت[٢] ، فشمّر وائتزر[٣] ، وجدّ واجتهد .

ثم شَخَص المصعب إلى المَزار ، فقتل أحمر بن شُمَيط ؛ ثم أتى الكوفة فقتل المختار ، وقال للمهلب : أشِرْ علىّ برجل أجعله بينى وبين عبد الملك ؛ فقال له : اذكرُ واحداً من ثلاثة : محمد بن عمير بن عُطارد الدارمىّ ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكىّ ، أو داود ابن قَحْذَم ، قال : أو تكفينى أنت ؟ قال : أكفيك إن شاء الله ، فشخَص فولّاه الموصل فخرج إليها ، وصار مُصعب إلى البصرة لينفِر إلى أخيه بمكة ، فشاور الناس فيمن يستكفيه

---

(١) الكامل ٦٤٣ ومابعدها (طبع أوربا)

(٢) الكامل : « وليتك »

(٣) الكامل : « واتزر »

أمرَ الخوارج ، فقال قوم : وَلِّ عبد الله بن أبى بَكْرة ، وقال قوم : وَلِّ عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقال قوم : ليس لهم إلّا المهلب فاردده إليهم ؛ و بلغت المشورةُ الخوارج فأداروا الأمر بينهم ، فقال قطرىّ بن الفُجاءة المازنىّ ـ ولم يكن أمَّروه عليهم بَعْد : إن جاءكم عبدالله بن أبى بَكْرة ، أتاكم سَيِّدٌ سَمح كريم جواد مُضِيع لعسكره ، و إن جاءكم عُمر بن عبيد الله ، أتاكم فارس شُجاع ، بطل جادّ ، يقاتل لدينه ولملكه ، و بطبيعة لم أرَ مثلها لأحد ؛ فقد شهدته فى وقائع ؛ فما نُودِىَ فى القومِ لحربٍ إلا كان أولَ فارس ؛ حتى يَشُدّ على قِرنه ويضربه ؛ و إن رُدّ المهلّب فهو مَنْ قد عرفتموه ، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمدّه إذا أرسلتموه ، و يُرسله إذا مددتموه ، لايبدؤكم إلا أن تبدءوه؛ إلا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبرّ [(١)] ، والثعلب الرَّواغ ، والبلاء المقيم .

فولى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، ولّاه فارس ، والخوارجُ بأرَّجان يومئذ ، وعليهم الزُّبير بن علىّ السَّليطىّ ، فشخص إليهم فقاتلهم ، وألحّ عليهم حتى أخرجهم منها ، فألحقهم بأصبهانَ ، فلما بلغ المهلب أنّ مصعبا ولىّ حربَ الخوارج عمرَ بن عبيد الله ، قال : رماهُمْ بفارس العرب وفتَاها ، فجمع الخوارج له ، وأعدُّوا واستعدُّوا ، ثم أتَوْا سابور [(٢)] فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ ، فقال له مالك بن أبى حَسّان الأزدىّ : إنّ المهلب كان يذكى العيون ، و يخاف البَيات ، و يرتقب الغَفْلة ، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم .

فقال عمر : اسكُتْ ، خَلَع الله قلبَك ! أتراكَ تموتُ قبلَ أجلِك ! وأقام هناك ، فلما كان ذات ليلة بيّته الخوارج ، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح ، فلم يظفروا منه بشىء ! فأقبل على مالك بن أبى حسان ، فقال : كيف رأيت ؟ فقال : قد سلَّم اللهُ ، ولم يكونوا

---

(١) المبر : الغالب ؛ من أبر عليه ؛ إذا غلبه

(٢) سابور : كورة مشهورة بأرض فارس ، بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخاً

يطمعُون فى مثلِها من المهلّب ، فقال : أما إنّكم لو ناصحتُمونى مناصحتَكم المهلّب ، لرجوتُ أنْ أنفِىَ هذا العدوَّ ، ولكنّكم تقولون : قرشىّ حجازىّ ، بعيدُ الدار خيرُه لغيرنا ، فتقاتلون معى تعذيراً [١] . ثم زحف إلى الخوارج من غَد ذلك اليوم ، فقاتلهم قتالًا شديدا ، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ ، فتكاثف الناسُ عليها حتى سقطت ، فأقام حتى أصلحها [٢] ، ثم عبَر ، وتقدّم ابنه عبيدُ الله بن عمر – وأمّه من بنى سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب – فقاتلهم حتى قُتِل ، فقال قطرىّ للخوارج : لاتقاتلوا عُمَر اليوم ؛ فإنه موتور ، قد قتلتم ابنَه – ولم يعلم عمرُ بقتلِ ابنه حتى أفضَى إلى القوم ؛ وكان معه ابنه النّعمان بن عباد – فصاحَ به عمر : يا نعمان ، أين ابنى ؟ قال : احتسِبْه فقد استشهد صابراً مقبلاً غير مدبر ؛ فقال : إنا لله وإنّا إليْهِ رَاجِعون ! ثم حَمَل على الخوارج حملة لم يُرَ مثلُها ، وحمل أصحابُه بحمْلته ؛ فقتلوا فى وجههم ذلك تسعين رجلا من الخوارج ، وحملَ على قَطَرِىّ فضربَه على جبينه ففلَقه ، وانهزمت الخوارجُ وانتهبها ؛ فلما استقرّوا ورأى ما نزلَ بهم ، قال : ألم أشِرْ عليكم بالانصراف ! فجعلوه حينئذ من [٣] وجُوهِهم ؛ حتى خرجوا من فارس ، وتلقّاهم فى ذلك الوقت الفِزْر بن مِهزم العبدىّ ، فسألوه عن خبره ، وأرادوا قتله ، فأقبل على قطرىّ ، وقال : إنى مؤمن مهاجر ؛ فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها ؛ فخلّوْا عنه ، ففى ذلك يقول فى كلمة له :

فشدّوا وَثاقى ثم ألجوْا خُصُومَتى ... إلى قطرىٍّ ذِى الجبين المفلَّقِ

وحاججتُهم فى دينهم فحججْتُهُمْ ... وما دينهم غيرُ الهوَى والتخلّقِ

ثم رجعوا وتكانفوا [٤] ، وعادوا إلى ناحية أرّجان ، فسار إليهم عمر بن عبيد الله ، وكتب إلى مصعب :

---

(١) تعذيرا ؛ أى تقاتلون معى من غير تمام أو مبالغة .

(٢) ج : « فأصلحها » .

(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج والكامل : بحذف كلمة « من » .

(٤) فى زيادات الأخفش على الكامل : « تكانفوا ؛ أعان بعضهم بعضا واجتمعوا وصار بعضهم فى كنف بعض » .

أما بعد ، فإنى لقيت الأزارقة ؛ فرزق الله عزّ وجل عُبيد الله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادة ، ورزقنا بعدُ عليهم الظَّفَر ، فتفرقوا شَذَر مَذَر [١] . و بلغنى عنهم عودةٌ فيمَّمْتُهم ؛ و بالله أستعين ؛ وعليه أتوكل .

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو ، ومَجّاعة بن سُعْر فالتقوا، فألحّ عليهم عمر حتى أخرجهم ، وانفرد من أصحابه ، فعمِد إلى أر بعة عشر رجلا من مَذْ كوريهم وشجعانهم ؛ وفى يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضر بة إلا صرَعه ، فركض إليه قطرىّ على فرس طِمِرّ [٢] ، وعمر على مُهْر ، فاستعلاه قطرىّ بقوة فرسه ؛ حتى كاد يصرعُه ، فبَصُرَ به مَجّاعة ، فأسرع إليه ، فصاحت الخوارج : يا أبا نعامة ، إنّ عدوّ الله قد رَهِقك [٣] . فانحطّ قطرىّ على قَرَبُوسه وطعنه مَجّاعة ؛ وعلى قطرىّ دِرْعان فهتَكهما ، وأسرع السِّنان فى رأس قَطَرِىّ ، فكشط جلدَه ونجا ، وارتحل القوم إلى أصفهان ، فأقاموا بُرهة ، ثم رجعوا إلى الأهواز ؛ وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصْطَخْر [٤] ، فأمر مَجّاعة فجَبَى الخراج أسبوعا ؛ فقال له : كم جبيت ؟ قال : تسعمائة ألف ، فقال : هى لك .

وقال يزيد بن الحكم لمجّاعة :

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ فأَجَبْتَهُ ... عُمَرٌ وقد نَسِيَ الحياةَ وَضَاعَا [٥]

فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الكَتِيبةِ عَنْ فَتًى ... قد كادَ يُتْرَكُ لَحْمُهُ أوْزَاعا [٦]

قال : ثم عُزِل مُصْعبُ بن الزُّبير ؛ وولّى عبدُ الله بن الزبير العراقَ ابنه حمزة

---

(١) شذر ، مذر ؛ بالتحريك فيهما : ذهبوا فى كل وجه ؛ ومذر إتباع .
(٢) فرس طمر ؛ هو الطويل القوائم الخفيف ، أو هو المستفز للوثب والعدو ؛ والأنثى طمرة .
(٣) رهقك : غشاك .
(٤) إصطخر : بلد من أعيان بلاد فارس .
(٥) المرهق : هو الذى أدرك ليقتل ؛ من أرهق الرجل إذا قتله . و «عمر» فاعل : «دعاك» .
(٦) العادية : الخيل تعدو ، أو الرجال يعدون . وأوزاعا : قطعا .

ابن عبد الله بن الزبير ؛ فمكث قليلا ؛ ثم أعيد مُصعب إلى العراق ، والخوارج بأطراف أصبَهان ، والوالى عليها عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحىّ ؛ فأقام الخوارج هناك يجبون شيئا من القرى ، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس؛فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيد الله : ما أنصفتنا ! أقمتَ بفارس تَجْبى الخراج ؛ ومثل هذا العدوّ يجتاز بك لا تحارِ به ! والله لو قاتلتَ ثم هُزِمت لكان أعْذَرَ لك !

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم ؛ وأقبل عمرُ بن عبيد الله يريدهم ، فتنحّى الخوارج إلى السُّوس، ثم أتوا إلى المدائن ؛و بسطوا فى القتل ؛ فجعلوا يقتلون النساء والصبيان ؛ حتى أتوا المذار[1] ؛فقتلوا أحمر طيء ؛ وكان شجاعا ، وكان من فرسان عُبيد الله بن الحرّ ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

تَرَكْتُمْ فَتَى الْفِتْيَانِ أَحْمَرَ طَيِّءٍ ... بِسَابَاطَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ[2]

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة ، فلما خالطوا سوادَها — وواليها الحارث القُباع — تثاقل عن الخروج ، وكان جَبانا ؛ فذَمره[3] إبراهيم بن الأشتر ، ولامه الناس ؛ فخرج متحاملا حتى أتى النُّخيلة ، ففى ذلك يقول الشاعر :

إنّ القُباع سارَ سَيْراً نُكْرَا ... يَسِيرُ يوماً ويُقِيم عَشْرا

وجعل يعد الناس بالخروج ولا يخرج ؛ والخوارج يَعِيثون ؛ حتى أخذوا امرأة ، فقتلوا أباها بين يديها ، وكانت جميلة ، ثم أرادوا قتلَها ، فقالت : أتقتلون مَنْ يُنَشّأ فى الحِلْية وهو فى الخصام غير مبين ! فقال قائل منهم : دعوها ، فقالوا : قد فتنتْك ، ثم قدموها فقتلوها .

---

(١) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة .

(٢) ساباط : موضع بالمدائن ؛ يقال له : ساباط كسرى .

(٣) ذمره ، أى حضه معلوم ليجد .

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُباع ، والجسر معقود بينهم ؛ فقطعه القباع وهو فى ستة آلاف ، والمرأة تستغيث به وهى تُقْبل ؛ وتقول : علام تقتلوننى ! فوالله ما فَسَقْت ، ولا كَفرت ، ولا زَنَيْت (١) ، والناس يتقلّبون (٢) إلى القتال ، والقُباع يمنعهم .

فلما خاف أن يعصُوه أمر عنـد ذاك بقَطْع الجسر ، فأقام بين دَبيرى ودَباها (٣) خمسة أيام ، والخوارج بقُرْبه ، وهو يقول للناس فى كل يوم : إذا لقيتُم العدوّ غـدا ، فأثبتوا أقدامَكم واصبروا ؛ فإن أوّل الحرب الترامِى ، ثم إشراع الرِّماح ، ثم السلّة (٤) ؛ فثَكلت رجلا أمّه فرّ من الزحف !

فقال بعضهم لما أكثر عليه : أما الصِّفَة فقد سمعناها ، فمتى يقع الفعل ؟

وقال الراجز :

إن القُبَاعَ سارَ سَيْراً مَلْساَ ... بَيْنَ دَبَاها ودَبِيرَى خمسا

وأخذ الخوارج حاجتَهم ، وكان شأن القُباع التحصُّنَ منهم ؛ ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة ؛ وساروا من فورهم إلى أصبَهان ، فبعثَ عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ إلى الزُّبير بن على : أنا ابنُ عمّك ، ولست أراك تقصد فى انصرافك من كلّ حَرْب غيرى . فبعث إليه الزبير: إنّ أدنَى الفاسقين وأبعدَهم فى الحقّ سواء .

فأقام الخوارجُ يُغَادُونَ عتّاب بن وَرْقاء القتال ويُراوِحُونه ، حتى طال عليهم المقام ، ولم يظفروا بكبير شىء ؛ فلما كثُر عليهم ذلك انصرفوا ؛لا يمرّون بقرية بين أصبَهان والأهواز إلا استباحوها ، وقتلوا مَنْ فيها . وشاوَر المُصعَبُ النَّاس فيهم ؛ فأجمع رأيُهم على

---

(١) الكامل : « ارتددت » .
(٢) الكامل : « يتفلتون » .
(٣) دبيرى ودباها ، بفتح الدال فيهما : قريتان من نواحى بغداد .
(٤) السلة : استلال السيوف .

المهلّب ، فبلغ الخوارج مُشاوَرتُهم ؛ فقال لهم قَطَرِىّ : إنْ جاءكم عَتّاب بن وَرْقاء ؛ فهو فَاتِكٌ يطلع فى أول المِقْنَب[١] ولا يظفر بكثير[٢] ، وإن جاءكم عمر بن عُبيد الله ففارس يُقْدِم؛ إما عليه وإمّا لَهُ ؛ وإن جاءكم المهلَّب فرجلٌ لايُناجِزُكم حتى تُناجزوه ؛ ويأخذُ منكم ولا يُعطيكم ؛ فهو البَلاء المُلازِم ، والمكروه الدائم .

وعزم مُصعَب على توجيه المهلّب ، وأن يشخَص هو لحرب عبد الملك . فلما أحسّ به الزُّبير خرج إلى الرَّىّ - وبها يزيد بن الحارث بن رويم - فحارَبه ثم حصَره ؛ فلما طال عليه الحِصار خرج إليه ؛ فكان الظَّفرُ للخوارج ، فقتل منهم يزيدالحارث بن بن رُويم ؛ ونادى يزيد ابنه حَوْشبا ، ففرّ عنه وعن أمه لطيفة [وكان علىّ بن أبى طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد ، فقال : عندى جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك، فسمّاها يزيد لطيفة][٣] فقتلت مع بَعْلها[٤] يزيد يومئذ ، وقال الشاعر :

مواقِفُنا فى كلِّ يوم كَرِيهَةٍ ... أَسَرّ وأشْفَى مِنْ مواقِف حَوْشَبِ

دعاه أبوهُ والرِّماح شَوَارِعٌ[٥] ... فلم يستجِبْ بل رَاغ تَرْوَاغَ ثَعْلَبِ

وَلَوْ كانَ شَهْمَ النَّفْسِ أوْ ذَا حَفِيظَةٍ ... رَأَى مارأى فى الموت عِيسى بنُ مُصْعَبِ

وقال آخر :

نَجَّى حَلِيلتَه وأَسْلَمَ شَيْخَهُ ... نَصْبَ الأَسِنَّة حَوْشَبُ بْنُ يَزِيدِ[٦]

---

(١) المقنب : جماعة الخيل .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب والكامل : « بكبير » .
(٣) تكملة من كتاب الكامل
(٤) الكامل : « فقتلت معه » .
(٥) كذا فى ا ، ج والكامل ، وفى ب : « تنوشه » .
(٦) نصب الأسنة ؛ أى مخافتها .

قال : ثم [١] انحطّ الزُّبير على أصفهان ، فحَصر بها عَتّاب بن ورقاء سبعة أشهر ، وعتّاب يُحارِبه فى بعضهن ؛ فلما طال به الحِصار قال لأصحابه : ماتنتظرون ! والله ماتُؤْتَوْن من قِلّة ؛ وإنكم لَفُرْسان عشائركم ؛ ولقد حار بتموهم مرارا فانتصفتم منهم ؛ وما بَقِيَ مع هـذا الحصار إلا أن تَفْنَى ذخائركم ، فيموتَ أحدكم ، فيدفِنه أخوه ، ثم يموت أخوه فلا يجدُ مَنْ يدفنه ؛ فقاتلُوا القوم وبكم قُوّة من قِبْل أن يُضعفَ أحدُكم عن أن يمشىَ إلى قِرْنه .

فلما أصبَح صلّى بهم الصبح ؛ ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون [٢] ، وقد نصبَ لواءً لجارية له يقال لها ياسمين ، فقال : مَنْ أراد البقاء فليلْحق بلواء ياسمين ؛ ومن أرادَ الجهاد فليخرج معى ؛ فخرج فى ألفين وسبعمائة فارس ؛ فلم يشعر بهم الخوارج حتى غَشُوهم ، فقاتلوهم بجدٍّ لم تر الخوارجُ منهم مثله ؛ فعقروا منهم خَلْقا كثيرا وقُتل الزبير بن علىّ ، وانهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتّاب ، ففى ذلك يقول القائل :

وَيَوْمٌ بجَيٍّ تلافيتَه [٣] وَلَوْلَاكَ لَاصْطُلِمَ العَسْكرُ [٤]

وقال آخر :

خَرَجْتُ من المدينة مُسْتَميتاً ولم أكُ فى كَتيبَةِ يَاسَمِينَا

---

(١) فى الكامل قبل هـذا الكلام : « وقال ابن حوشب لبلال بن أبى بردة يعيره بأمه ؛ وبلال مشدود عند يوسف بن عمر : يابن حوراء ! فقال بلال — وكان جلدا : إن الأمة تسمى حوراء وجيداء ولطيفة . وزعم الكلبى أن بلالا كان جلدا حيث ابتلى . قال الكلبى : ويعجبنى أن أرى الأسير جلداً . قال: وقال خالد بن صفوان له بحضرة يوسف : الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهدّ ركنك ، وغير حالك ؛ فو الله لقد كنت شديد الحجاب ، مستخفاً بالشريف ، مظهرا للعصبية ؛ فقال له بلال : إنما طال لسانك ياخالد لثلاث معك هن علىّ : الأمر عليك مقبل وهو عنى مدبر ؛ وأنت مطلق وأنا مأسور . وأنت فى طينتك وأنا فى هذا البلد غريب — وإنما جرى إلى هـذا لأنه يقال : إن أصل آل الأهتم من الحيرة ، وإنهم أشابة دخلت فى بنى منقر من الروم » .

(٢) غارون : غافلون .

(٣) جىّ : اسم مدينة كانت ناحية أصبهان ، والبيت لأعشى همدان (ياقوت) .

(٤) اصطلم : أبيد .

أَلَيْسَ مِنَ الفضائل أنَّ قَوْمِي   غَدَوْا مستلئِمِين مجاهدينا [١]

قال : وتزعم الرواة أنّهم فى أيام حصارهم كانوا يتواقفون، ويحمل بعضُهم على بعض، وربما كانت مُواقَفَة [٢] بغير حَرْب ، وربما اشتدت الحرب بينهم؛ وكان رجلٌ من أصحاب عتّاب ـ يقال له : شريح ، ويكنى أبا هُريرة ـ إذا تحاجز [٣] القومُ مع المساء نادى بالخوارج ، والزبير :

يابنَ أبى الماحُوز والأشْرَارِ   كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلاَبَ النَّارِ

شَـدَّ أبى هُرَيْرَةَ الهرّارِ   يَهُرُّكُمْ باللّيل والنّهارِ

ألم تَرَوا جَيًّا على المِضْمار   تُمْسى من الرَّحْمن فى جِوَار

فغاظهم ذلك ، فكمَن له عبيدة بن هِلال ، فضربه بالسَّيف، واحتمله أصحابه ، وظنت الخوارج أنه قد قتل ؛ فكانوا إذا تواقفوا نادوْهم:مافعل الهرّار ؟ فيقولون : مابه من بأس؛ حتى أبلّ من عِلّته ، فخرج إليهم ، فقال : ياأعداء الله ، أتروْن بى بأسا ؟ فصاحوا به : قد كنا نرى أنّك قد لَحِقْت بأمّك الهاوية إلى النار الحامية .

***

[قطرىّ بن الفجاءة المازنىّ]

ومنهم قَطَرِىّ بن الفجاء المازنى ، قال أبو العباس [٤] :

لما قتِل [٣] الزّبير بن علىّ أدارت الخوارجُ أمرَها ، فأرادوا توليَةَ عبيدة بن هلال ؛ فقال : أدلّكم على مَنْ هو خيرٌ لكم منى ؟ مَنْ يطاعِن فى قُبُل ، ويحمى فى دُبُر ؛ عليكم

---

(١) مستلئمين : لابسين اللأمة ؛ وهى الدرع ، وفى ج : « مستسلمين » .

(٢) المواقفة فى الحرب والخصومة : أن يقف كل من الطرفين أمام الآخر .

(٣) ج : « تأخر » .

(٤) الكامل ٦٥٢ ومابعدها (طبعة أوربا) .

بقَطَرِىّ بن الفُجاءة المازنىّ . فبايعوه ، وقالوا : ياأمير المؤمنين ؛ امضِ بنا إلى فارس، فقال: إنّ بفارس عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ ولكن نَصِير إلى الأهواز ؛ فإن خرج مُصعب من البصرة دخلناها ،فأتوا الأهواز ثم ترفّعوا عنهـا على إيذَج [١] ـ وكان المُصعب قد عَزَم على الخروج إلى باجُميرا [٢] ـ وقال : لأصحابه : إنّ قَطَرِيًّا لمُطلٌّ علينـا ؛ وإن خرجنا عن البصرة دخَلها ، فبعث إلى المهلّب فقال : اكْفِنا هذا العدوّ ؛ فخرج إليهم المهلّب ؛ فلما أحسّ به قطرىّ يمّم نحو كِرْمان ، وأقام المهلّب بالأهواز ، ثم كرّ عليه قَطَرىّ ، وقد استعدّ ، وكانت الخوارج فى حالاتهم أحسَن عُدّة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب ، وحَصَانة الجُنَن [٣] . فحـارَبَهُم المهلّب ، فدفعهم فصاروا إلى رَامَهُرْمُز ؛ وكان الحارث بن عُميرة الهمدانىّ قد صار إلى المهلب مراغِماً لعتّاب بن ورقاء، ويقال : إنّه لم يُرضِه عن قتله الزبير بن علىّ ، وكان الحارث بن عَميرة ، هو الذى قتله وخاض إليه أصحابه ، ففى ذلك يقول أعشى هَمْدان :

إنّ المكارِمَ أُكمِلَتْ أسبابُها ... لابن اللّيوثِ الغُرّ مِنْ هَمْدَانِ [٤]

للفارسِ الحامِى الحقيقةَ مُعلِماً ... زادِ الرِّفاق وفارس الفُرْسان [٥]

(١) إيذج ، بكسر الهمزة وفتح الذال : بلد بين خوزستان وأصبهان .

(٢) باجميرا ، بضم الجيم وفتح الميم وياء ساكنة : موضع دون تكريت .

(٣) الجنن : جمع جنة ؛ وهى الدرع .

(٤) ديوان الأعشين ٣٤٣ ، وروايته : « من قحطان » ، وهى رواية الكامل أيضا :

(٥) ديوان الأعشين والكامل : « زاد الرفاق إلى قرى نجران » قال المبرد : وتأويله أن الرفقة إذا صحبها أغناها عن التزدد ؛ كما قال جرير : وأراد ابن له سفرا ،وفى ذلك السفر يحيى بن أبى حفصة ؛ فقال لأبيه : زودنى ؛ فقال جرير :

أزاداً سوى يحيى تريد وصاحباً ... ألا إن يحيى نعم زاد المسافرِ

فما تُنْكِرُ الكوماءُ ضربةَ سيفهِ ... إذا أرملوا أو خَفّ ما فى الغرائر

وزاد فى الديوان بعد هذا البيت :

حتّى تدارَكَهُمْ أغرُّ سَمَيْدَعٌ ... فحماهُمُ إن الكريمَ يمانِ

الحارث بن عَميرةَ اللَّيث الَّذِى يحمى العراق إلى قُرَى نَجْرَانِ [١]
وَدَّ الأزارقُ لو يصابُ بطعنــةٍ ويموتُ مِنْ فرسانهم مائتــان

قال أبو العباس : وخرج مُصعب إلى باجُمَيْرَا ، ثم أتى الخوارج خبرُ مقتله بمَسْكِن ، ولم يأتِ المهلّب وأصحابه ، فتواقفوا يوما برا مَهُرْمُز على الخندق ، فناداهم الخوارج : ماتقولون فى مُصعب ؟ قالوا : إمام هدًى ، قالوا : فما تقولون فى عَبْد الملك ؟ قالوا : ضالّ مضلّ ،فلما كان بعدَ يومين أتى المهلّبَ قتلُ المصعب ؛ وأنّ أهل العراق قد اجتمعوا على عبدالملك ،وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته ؛ فلما تواقفوا ناداهم الخوارج : ما تقولون فى المصعب ؟ قالوا: لانخبركم ؛ قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى ، قالوا: يا أعداء الله ، بالأمس ضالّ مضلّ ؛ واليوم إمام هدى ! ياعبيدَ الدنيا عليكم لعنة الله .

* * *

وروى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب '' الأغانى الكبير '' ، قال : [٢] كانت الشُّراة والمسلمون فى حرب المهلّب وقطرىّ يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك ، على أمانٍ وسكون ، لا يَهيج بعضُهم بعضا ، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، وأبوا حُزابة [٣] التميمىّ ، فقال عبيدة : ياأبا حُزابة ، إنى أسألك عن أشياء ، أفتصدُقنى عنها فى الجواب ؟ قال : نعم ؛ إن ضمنت لى مثلَ ذلك ، قال : قد فعلت ، قال : فسَلْ عمّا بدالك ، قال : ماتقولون فى أئمتكم ؟ قال : يبيحون الدم الحرام ، قال : ويحك! فكيف فعلُهم فى المال ؟ قال : يَجبُونه من غير حلّه ، ويُنفِقونه فى غير وجهه ، قال : فكيف فعلُهم فى اليتيم ؟ قال : يظلمونه ماله ، ويمنعونه حقّه ، ويَنِيكون أمّه ، قال: ويحك ياأبا حُزابة ! أمثل هؤلاء تتّبِع ! قال : قد أجبتك، فاسمع سؤالى ، ودع عتابى على رأيى ،

(١) الديوان : « إلى قرى كرمان » .
(٢) الأغانى ٦ : ١٤٩ ومابعدها (طبعة الدار) .
(٣) هو الوليد بن ؟ حنيفة أحد شعراء الدولة الأموية

قال : سل ، قال : أىّ الخمر أطيب ؟ خمر السّهْل أم خَمْر الجبل ؟ قال : ويحك! أمثلى يُسأَلُ عن هذا ! قال : قد أوجبتَ على نفسك أن تجيب ، قال : أمّا إذا أبيت : فإنّ خمر الجبل أقوى وأسكر ، وخمر السهل أحسن وأسلس ، قال : فأىّ الزّوانى أفره ؟ أزوانى رَامَهُرمز ، أم زوانى أرّجان ؟ قال : ويحك ! إنّ مثلى لا يسأل عن هذا . قال : لابدّ من الجواب أو تغدر .

قال : أمّا إذ أبيت فزوانى رَامهُرمز أرقّ أبشارا، وزوانى أرّجان أحسن أبدانا . قال: فأىّ الرجلين أشعر ، جرير أم الفرزدق ؟ قال : عليك وعليهما لعنة الله ، قال : لابدّ أن تجيب ، قال : أيهما الذى يقول :

وطوى الطِّرادُ مع القِياد بطونَها طَىّ التِّجار بحضْرَمَوْتَ بُرودا

قال : جرير ، قال : فهو أشعرُهما .

قال أبو الفرج : وقد كان الناسُ تجادلوا فى أمر جرير والفرزدق فى عسكر المهلَّب ؛ حتى تواثَبُوا ، وصاروا إليه محكِّمين له فى ذلك ، فقال : أتريدون أن أحكُمَ بين هذين الكلبين المتهارشين ، فيمضغانى ! ما كنت لأحكم بينهما ؛ ولكنى أدلكم على مَنْ يحكم بينهما ، ثم يَهونُ عليه سِبابهما ؛ عليكم بالشُّراة ، فاسألوهم إذا تواقفتم . فلما تواقَفُوا سأل أبو حُزابة عبيدة بن هلال عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب .

***

وروى أبو الفرج أنّ [1] امرأةً من الخوارج كانت مع قطرىّ بن الفُجاءة ، يقال لها أمّ حكيم ، وكانت مِنْ أشجع الناس وأجملهم وجها ، وأحسنهم بالدِّين تمسكا ، وخطبها

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ (طبعة الدار) .

جماعة منهم فردّتهم ولم تجبْهم ؛ فأخبر مَنْ شاهدها فى الحرب أنّها كانت تحمل على الناس وترتجز ، فتقول :

أَحمِلُ رأساً قَدْ سَئِمْتُ حَمْلَهْ   وَقَدْ مَلِلْتُ دَهْنَــهُ وَغَسْلَهْ

* ألا فتًى يَحْمِلُ عَنِّى ثِقْلَهْ *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمّهات ؛ فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها .

* * *

وروى أبو الفرج[1] ، قال : كان عبيدة بن هلال ، إذا تكافّ الناسُ ناداهم : ليخرجْ إلىّ بعضُكم ؛ فيخرج إليه فِتْيانٌ من عَسْكر المهلّب ؛ فيقول لهم : أيّما أحبّ إليكم ؟ أقرأ عليكم القرآنَ أم أنشِدكم الشِّعر ؟ فيقولون له : أمّا القرآن فقد عرفناه مثل معرفتِك ؛ ولكن تنشدنا ، فيقول : يا فَسَقة ؛ قد والله علمت أنّكم تختارون الشعر على القرآن ! ثم لا يزال يُنشِدُهم حتى يَملّوا و يفترقوا .

* * *

قال أبو العباس[2] : وولّى خالد بن عبد الله بن أَسِيد فقدم فدخلَ البصرة ، فأراد عزل المهلّب ، فأشير عليه بألّا يفعل ؛ وقيل له : إنّما أمِنَ [أهل][3] هذا المصْر ؛ لأن المهلّب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس ؛ فقد تنحَّى عمر ، وإن نَحَّيتَ المهلب لم تأمَنْ على البصرة . فأبى إلّا عَزْله ، فقدم المهلّب البصرة ، وخرج خالد إلى الأهواز ؛ فاستصحبه[4] ، فلما صار بكُرْبَج دينار لقيه قطرىّ ، فمنعه حطّ أثقاله ، وحار به ثلاثين يوما .

ثم أقام قطرىّ بإزائه ، وخندقَ على نفسه ، فقال المهلّب لخالد : إنّ قَطرِيًّا ليس

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥١ (طبعة الدار) .
(٢) الكامل ٦٥٤ (طبعة أوربا) .
(٣) من الكامل .
(٤) الكامل : فأشخصه » .

بأحقّ بالخندق منك ، فعبَر دُجَيلا إلى شقّ نهر تِيرَى ، واتبعه قطرىّ فصار إلى مدينة نهر تِيرَى ، فبنَى سورَها ، وخندق عليها ، فقال المهلّب لخالد : خَنْدق على نفسك ، فإنى لا آمنُ البيَات ، فقال : يا أبا سعيد ، الأمر أعجل من ذاك ، فقال المهلّب لبعض ولده : إنّى أرَى أمراً ضائعا ، ثم قال لزياد بن عمرو : خندق علينا ، فخندَق المهلّب على نفسه ، وأمر بسفنه ففرّغَتْ ، وأبى خالد أن يفرِّغ سفنَه ، فقال المهلّب لفيروز بن حصين : صِرْ معنا ؛ فقال : يا أبا سعيد ، إن الحزم ما تقول ، غير أنّى أكره أنْ أفارِق أصحابى ، قال : فكن بقُرْبنا ، قال : أمّا هذه فنعم .

وقد كان عبد الملك كتبَ إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيش كثيف ، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ ففعل ، فقدِم عليه عبد الرحمن ، فأقام قَطَرِىّ يُغادِيهم القتال ويُراوِحهم أربعين يوما ؛ فقال المهلّب لمولى أبى عيينة : سِرْ [1] إلى ذلك الناوس ، فبتْ عليه كلّ ليلة ، فمتى أحسست خبَراً للخوارج ، أو حركةً أو صهيلَ خيل ، فاعْجَل إلينا .

فجاءه ليلة ، فقال : قد تحرّك القومُ ، فجلس المهلب بباب الخندق ، وأعدّ قَطَرِىٌّ سفنا فيها حطب وأشعلها ناراً ، وأرسلها على سُفن خالد ، وخرج فى أدبارها ، حتى خالَطهم ، لا يمرّ برجلٍ إلا قتَله ، ولا بدابّة إلا عَقَرها ، ولا بفُسطاط إلا هَتَكه ؛ فأمر المهلّب يزيد ابنه ، فخرج فى مائة فارس . فقاتل ، وأبْلَى عبدُ الرحمن بن محمد ابن الأشعث يومئذ بلاء حسنا ، وخرج فيروز بن حصين فى مواليه ؛ فلم يزل يرميهم بالنُّشّاب هو ومن معه ، فأثّر أثراً جميلا ، وصُرِع يزيد بن المهلب يومئذ ، وصُرِع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث ؛ فحامى عنهما أصحابُهما ؛ حتى ركبا ، وسقط فيروز بن حُصين فى

---

(١) كذا فى ب ، وفى ج : « شد » ، وفى الكامل : « انتبذ » ، أى سره منفردا . والناوس فى الأصل : مقابر النصارى .

الخندق ، فأخذ بيده رجل من الأَزْد ؛ فاستنقذه ؛ فوهب له فيروز عشرة آلاف ، وأصبح عسكر خالد ، كأنه حرّة سوداء [١] ، فجعل لا يرى إلا قتيلا أو جَريحا ؛ فقال للمهلب : يا أبا سعيد ، كدنا نفتضح ! فقال : خَنْدِق على نفسك ؛ فإن لم تفعل عادوا إليك ، فقال : اكفنى أمرَ الخندق ، فجمع له الأحماس [٢] فلم يبق شريف إلا عمل فيه ، فصاح بهم الخوارج : والله لولا هذا الساحر المَزُونى ، لكان الله قد دمّر عليكم ـ وكانت الخوارجُ تسمِّى المهلّب الساحر ـ ، لأنهم كانوا يدبّرون الأمرَ فيجدون المهلّب قد سبق إلى نقض تدبيرهم .

وقال أعشى هَمْدان لابن الأشعث ، يذكّره بلاء القحطانية عنده ؛ فى كلمة طويلة [٣] :

وَيَوْمَ أهوازِكَ لَا تَنْسَهُ ليس الثَّنَا والذِّكْرُ بالبائد

ثم مضى قَطَرِىّ إلى كِرْمان ؛ وانصرف خالد إلى البصرة ؛ وأقام قطرىّ بِكَرْمان شهراً ، ثم عمِد لفارس ، فخرج خالد إلى الأهواز وندَب الناس للرحيل ؛ فجعلوا يطلُبون المهلب ، فقال خالد : ذهب المهلّب بحظّ هذا المِصْر ؛ إنى قد ولّيت أخى قتال الأزارقة . فولى أخاه عبد العزيز ، واستخلف المهلّب على الأهواز فى ثلاثمائة ؛ ومضى عبد العزيز والخوارج بدرا بجرِد وهو فى ثلاثين ألفا ، فجعل عبد العزيز يقول فى طريقه : يزعم أهلُ البصرة أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلا بالمهلّب ؛ سيعلمون !

قال صقعب [٤] بن يزيد : فلمّا خرج عبد العزيز عن الأهواز ، جاءنى كُرْدُوس ،

---

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سوداء نخرة ؛ كأنها أحرقت بالنار .

(٢) الأحماس : جمع حمس ، جمع الأحمس ؛ وهم الشجعان المتشددون فى القتال .

(٣) ديوان الأعشين ٣٤ ؛ ومطلعها :

هَلْ تَعرِفُ الدَّارُ عَفَا رَسْمُهَا بالحضْرِ فالروضة من آمدِ

دارٌ لخودٍ طفلةٍ رُؤْدَةٍ بانتْ فأمسَى حبها عامدِى

(٤) الكامل : « صعب بن زيد » .

حاجب المهلّب،فدعانى،فجئت إلى المهلب وهو فى سطح،وعليه ثياب هَرَوِيّة،فقال :ياصَقْعب ؛ أنا ضائع كأنّى أنظر إلى هزيمة عبد العزيز،وأخشَى أن توافيَنى الأزارقة،ولا جند معى،فابعث رجلا من قِبَلك يأتينى بخبرهم سابقـا إلىّ به ، فوجهت رجلاً من قِبَلى يقال له عمران بن فلان ؛ وقلت له : اصحب عسكر عبد العزيز ، وا كتب إلىّ بخبَر يوم فيوم ؛ فجعلت أورده على المهلّب ، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة ، فقال له النـاس : هـذا منزل ، فينبغى أن تنزِل فيه أيّها الأمير ؛ حتى نطمئنّ ثم نأخذ أهبَتنا ، فقال : كلاّ ،الأمر قريب ؛ فنزل الناس عن غير أمره ، فلم يستتم النزول ؛ حتى ورد عليه سعد الطلائع فى خمسمائة فارس ؛كأنهم خَيْط ممدود ، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، واتّبعهم فقال له الناس : لاتتبعهم ؛ فإنّا على غير تعبية ، فأبَى؛ فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا عَقَبـة ، فاقتحمها وراءهم والناس ينهوْنه ويأبى ، وكان قد جعل على بنى تميم عَبْس بن طَلْق الصَّريمىّ الملقّب عَبْس الطِّعان ، وعلى بكر بن وائل مقاتل بن مِسْمَع ، وعلى شُرْطته رجلا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نِزار . فنزلوا عن العَقَبة ، ونزل خلفَهم و[كان][1] لهم فى بطن العَقبة كمين ، فلما صاروا من ورائها ؛ خرج عليهم الـكَمِين ، وعطف سعد الطلائع ، فترجّل عبس بن طلْق ، فقتِل وقتِل مقاتل بن مسمع ، وقتل الضُّبيعىّ ، صاحب شُرْطة عبـد العزيز ، وانحاز عبدُ العزيز واتّبعهم الخوارج فرسخيْن يقتلونهم كيف شاءوا ، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أمّ حفص بنت المنذر بن الجارُود امرأته ، فسَبَوُا النساء يومئذ ، وأخذُوا أسارَى لاتحصى ، فقذفُوهم فى غارٍ بعد أنْ شدُّوهم وَثاقا ، ثم سدُّوا عليهم بابه ، حتى ماتوا فيه .

وقال بعض مَنْ حضر ذلك اليوم : رأيتُ عبد العزيز ، وإنّ ثلاثين رجلا ليضرِبُونه

---

(١) من الـكامل .

بسيوفهم ؛ فما تَحيكُ في جَنْبه (١) ، ونودى على السَّبْى يومئذ ، فغُولِىَ بأمّ حَفْص ، فبلغ بها رجل سبعين ألفا ، وكان ذلك الرجل من مجوسٍ كانوا أسلموا ، ولحِقوا بالخوارج ، ففرَضوا لكلّ رجل منهم خمسمائة ، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أمّ حفص ، فشقّ ذلك على قَطَرِىّ ، وقال : ما ينبغى لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفا ؛ إنّ هذه لفِتْنة ! فوثب عليها أبو الحديد العبدىّ فقتلها ؛ فأُتِىَ به قطرىّ ، فقال : مَهْيَم (٢) يا أبا الحديد ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ رأيت المؤمنين تزايدوا فى هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة ، فقال قطرىّ : أحسنت ، فقال رجل من الخوارج :

كَفَانا فِتْنَـــةً عَظُمَت وَجَلّتْ بحمـــدِ الله سيفُ أبى الحديدِ

أهابَ المسلمونَ بها وقالُوا على فَرْطِ الهوى هَلْ من مزيد ! (٣)

فزادَ أبو الحـــديد بنصلِ سَيْفٍ رقيقِ الحدِّ فعلَ فتًى رشـــيدِ

وكان العَلاء بن مطرّف السعدىّ ابنَ عم عمرو القنا ، وكان يحبّ أن يلقاه فى صدر مبارزة (٤) ، فلحقه عمرو القنا يومئذ ؛ وهو منهزم ، فضحك منه وقال متمثلا :

تمنّانِى لِيَلْقَانِى لَقِيطٌ أعامِ لك ابن صعصعة بن سعدِ (٥)

ثم صاح به : انج يا أبا المصدّى (٦) ، وكان العلاء بن مطرّف قد حمل معه امرأتين :

---

(١) قال المبرد : « يقال : ما أحاك فيه السيف ، وما يحيك فيه ؛ وما حك ذا الأمر فى صدرى ، وما حكى فى صدرى ، وما احتكى فى صدرى . ويقال : حاك الرجل فى مشيته يحيك إذا تبختر » .

(٢) مهيم : حرف استفهام ، معناه : ما الخبر ؟ وما الأمر ؟ فهو دال على ذلك محذوف الخبر .

(٣) أهاب به : أعلن .

(٤) الكامل : « فى تلك الحروب مبارزة » .

(٥) البيت من شرح سيبويه ١ : ٣٢٩ ، فى باب المنادى ، ونسبه لشريح بن الأحوص ، ونسبه المبرد فى الكامل إلى يزيد بن الصعق وفى شرح الشواهد للأعلم : « الشاهد فى قوله : « لك » ، والمعنى : ياعامر ، دعائى لك ، والمعنى معنى التعجب ؛ كما تقول : يالك فارسا ! ؛ أى يا هذا دعائى لك من فارس ؛ أى أعجب لك فى هذه الحال . . . وكان لقيط بن زرارة التميمى قد توعد الأحوص أبا شريح الكلابى ، وتمنى أن يلقاه فيقتله ؛ فقال هذا متعجبا لقومه من بنى عامر من تمنيه اقتله وتوعده له . . . وأراد عامر ابن صعصعة فرخم » .

(٦) هى كنية عمرو القنا .

إحداهما من بنى ضَبّة ، يقال لها أمّ جميل ، والأخرى بنت عمه؛ يقال لها فلانة بنت عَقِيل ، فطلّق الضبِّية ، وحملها أولا ، وتخلص بابنة عمه ، فقال فى ذلك :

ألستُ كريماً إذْ أقولُ لِفِتْيَتِى   قِفُوا فاحمِلُوها قبل بنتِ عَقِيلِ
ولو لم يكن عُودِى نُضَاراً لأصبَحَتْ   تُجَرّ على المَتْنَيْن أمّ جميل[1]

قال الصقعب بن يزيد : وبعثنى المهلب لآتيه بالخبر ، فصرت إلى قنطرة أُرْبك[2] عَلَى فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم ؛ فلم أحسّ خبرا ، فسرت مُهَجِّراً[3] إلى أن أمسيت؛ فلما أمسينا وأظلمْنا ، سمعتُ كلامَ رجل عرفتُه من الجهاضم ، فقلت : ماوراءك ؟ قال : الشرّ ، قلت : فأين عبدالعزيز ؟ قال : أمامك ؛ فلما كان آخر الليل ؛ إذا أنا بزُهاء خمسين فارسا معهم لواء ، فقلت : لواء مَنْ هـذا ؟ قالوا : لواء عبد العزيز ، فتقدّمت إليه ، فسلّمت عليه وقلت : أصلح الله الأمير ! لايكبُرَنّ عليك ما كان ، فإنّك كنت فى شرّ جندوأخبثه، قال لى : أو كنت معنا ؟ قلت : لا؛ ولـكن كأنىّ شاهد أمرك، ثم أقبلت إلى المهلّب وتركته، فقال لى : ماوراءك ؟ قلت : مايسرّك ؛ هُزم الرجلُ وفُلّ جيشه؛ فقال : وَيْحك ! ومايسرّنى من هزيمة رجل من قُريش ، وفَلّ جيشٍ من المسلمين ! قلت : قد كان ذلك ، ساءك أو سرك ؛ فوجّه رجلا إلى خالد يخبره بسلامة أخيه . قال الرجل : فلما خبّرت خالدا ، قال: كَذَبْتَ ولَؤُمت ، ودخل رجل من قريش فـكذّبنى ، فقال لى خالد : والله لقد هممتُ أنْ أضرب عنقك ، فقلت : أصلح الله الأمير ! إن كنت كاذبا فاقتلنى ، وإن كنت صادقا فأعطنى مُطْرَف هـذا المتكلم ، فقال خالد : لبئس ماأخطرت به دَمَك ! فما برحتُ حتى دخل عليه بعض القَفَل، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز ، فأكرمه المهلّب وكساه ، وقدم معه على خالد ، واستخلف المهلّب ابنَه حبيبا ، وقال له : تجسّس علىّ الأخبار ، فإن

---

(١) الـكامل : « تجرّ على المتنين » .
(٢) أربك : قرية بخوزستان .
(٣) مهجرا : وقت الهاجرة .

أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك؛ فانصرف إلى البصرة على نهر تيرَى. فلما أحسّ حبيب بهم، دخل البصرة وأعلم خالدا بدخوله، فغضب وخاف حبيب منه، فاستتر فى بنى عامر بن صعصعة، وتزوج هناك فى استتاره الهلالية، وهى أمّ ابنه عبّاد بن حبيب. وقال الشاعر لخالد يُفيِّل[1] رأيه:

بعثتَ غلاماً من قريشٍ فَروقَةً ... وتتركُ ذا الرأى الأصيلَ المهلَّبا[2]
أبَى الذّمّ واختَارَ الوفاءَ وأحكمَتْ ... قُواهُ، وَقَدْ سَاس الأمورَ وَجرّبا

وقال الحارث بن خالد المخزومىّ:

فَرّ عبدُ العزيز إذ رَاءَ عِيسَى ... وابنَ داودَ نازلاً قَطَرِيّا[3]
عَاهَـدَ الله إن نَجا من مِلْمَنايا ... لَيعودنّ بعـدَها حُرْميّا[4]
يسكُنُ الخلّ[5] والصِّفاح فغوريَا ... نَ مِرَاراً ومرّةً نَجْدِيّا
حَيْثُ لا يشهد القِتَال ولا يسـ ... مع يوماً لكَرِّ خَيْلٍ دَوِيّا

وكتب خالد إلى عَبْد الملك بعُذْر عبد العزيز، وقال للمهلّب: ماترى أميرَ المؤمنين صانعاً بى؟ قال: يعزِلُك، قال: أتَراه قاطعاً رَحِمِى! قال: نعم؛ قد أتَتْه هزيمةُ أميّةَ أخيك[6] فغعل ـ يعنى هربَ أميّة من سِجِسْتَان ـ فكتب عبد الملك إلى خالد:

---

(١) يفيل رأيه: يخطئه.

(٢) الفروقة: شديد الفزع.

(٣) فى الكامل:

فَرّ عبدُ العزيزِ لما رأى الأبـ ... ـطَالَ فى السَّفْح نَازلُوا قَطَرِيّا

(٤) قال المبرد: العرب تنسب الحرم فيقولون: حِرْمِىّ وحُرْمِىّ

(٥) الخل والصفاح وغوريان مواضع، ورواية البيت فى الكامل:

يَسْكُنُ الخلَّ والصِّفاحَ فمرا ... نَ وسَلْعاً وتارةً نجديا

(٦) عبارة الكامل: «أتته هزيمة أمية أخيك من البحرين وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس!».

أما بعد ؛ فإنى كنت حَدَدْتُ لك حَدًّا فى [أمر] [1] المهلّب ؛ فلمّا ملكتَ أمرك ، نبذتَ طاعتى وراءك ، واستبدَدْت برأيك ؛ فولّيْتَ المهلّبَ الجِبـاية ، وولّيت أخاك حَرْب الأزارقة ؛ فقبّح الله هذا رأيا ! أتبعثُ غلاماً غِرًّا لم يجرِّب الأمور والحروب للحرب ؛ وتترك سيِّدا شجاعاً مدبِّرا حازما قدمارَس الحروب فَفَلَج [3] ؛ فشغلته بالجباية ! أما لو كافأتك على قدْر ذنبك لأتاك من نـكيرى ما لا بقيّةَ لك معه ! ولـكن تذكّرتُ رحمك فـكفّتنى عنك ؛ وقد جعلت عقوبتك عَزْلك . والسلام .

قال : وولّى بشر بن مروان الإمارة وهو بالـكوفة ؛ وكتب إليه :

أما بعـد ؛ فإنّك أخو أمير المؤمنين ؛ يجمعُك و إياه مروان بن الحـكم ؛ و إنّ خالداً لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية ، فانظر المهلّب بن أبى صُفْرة ، فولِّه حرْب الأزارقة ؛ فإنه سيّد بطل مجرِّب ، وامددْه من أهل الـكوفة بثمانية آلاف رجل ؛ والسلام .

فشقّ على بِشْر ماأمَره به فى المهلّب ؛ وقال : والله لأقتلنّه ، فقال له موسى بن نصير : أيها الأمير ؛ إنّ للمهلّب حِفاظا ووفاء و بلاء .

وخرجَ بِشْر بن مَرْوان يريد البصرة ؛ فـكتبَ موسى بن نُصير وعِكْرمة بن ربعىّ إلى المهلّب أنْ يتلقاه لقاء لايعرفه به ؛ فتلقاه المهلّب على بَغْلٍ ، وسـلّم عليـه فى غُمار [4] الناس ؛ فلمّا جلس بِشْر مجلسه ، قال : مافعل أميركم المهلّب ؟ قالوا : قد تلقّاك أيّها الأمير ، وهو شاكٍ .

فهمّ بِشْر أنْ يولِّىَ حربَ الأزارِقة عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ؛ وشيّد عزْمه أسماء

(١) من الـكامل .

(٢) ج : « فاستبددت » .

(٣) فلج : ظفر وانتصر .

(٤) غمار ، بكسر الغين : جمع غمرة ؛ والغمرة المزدحم . وفى الـكامل : « خمار الناس » ، وخمار الناس كثرتهم وزحمتهم وجماعتهم .

ابن خارجة ، وقال له : إنما ولّاك أميرُ المؤمنين لترى رأيك ؛ فقال له عِكْرمة بن رِبْعِىّ : اكتُبْ إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلّب ، فكتب إليه بذلك ، وأنّ بالبَصْرة مَنْ يغنى غناءهُ ، ووجّه بالكتاب مع وفد أوفدهم إليه رئيسهُم عبد الله بن حكيم المُجاشعىّ .

فلما قرأ عبدُ الملك الكتاب خَلَا بعبدِ الله ، فقال له : إنّ لك ديناً ورأياً وحزماً ، فَمَنْ لقتال هؤلاء الأزارقة ؟ قال : المهلّب ؛ قال : إنه علِيل ، قال : ليست عِلّتُه بمانعة [(١)] ، فقال عبد الملك : لقد أراد بِشر أن يفعل مافعل خالد ؛ فكتب إليه يعزم عليه أن يولّىَ المهلّب الحربَ ، فوجّه إليه ، فقال : أنا علِيل ، ولا يمكننى الاختلاف ؛ فأمَر بِشر بحمل الدّواوين إليه ؛ فجعل ينتخب ، فعزم عليه بِشْرٌ بالخروج ؛ فقطع أكثر نخبته ، ثم عزم عليه ألّا يقيم بَعْدَ ثالثة ، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم ؛ وصاروا بالفرات ، فخرج المهلّب حتى صار إلى شَهار طاق ؛ فأتاه شيخ من بنى تميم ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ سنِّى ماترَى، فهبْنِى لعيالى ، فقال [(٢)]: على أن تقول للأمير إذا خَطَب فحثّكم على الجهاد : كيف تحثُّنا على الجهاد ؛ وأنت تحبِس عَنْه أشرافنا ، وأهلَ النّجْدة منا ! ففعل الشيخُ ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ! ثم أعطى المهلّبُ رجلًا ألفَ درهم ، على أن يأتىَ بِشراً فيقول له: أيها الأمير، أعِنِ [(٣)] المهلّب بالشُّرْطة والمقاتِلة ؛ ففعل الرجل ذلك ؛ فقال له بشر : وما أنت وذاك ؟ فقال : نصيحةٌ حضرتْنِى للأمير والمسلمين ؛ ولا أعود إلى مثلها ؛ فأمدّه بِشر بالشُّرطة والمقاتلة ، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقِد لعبد الرحمن بن مِخْنف على ثمانية آلاف ؛ من كلّ رُبْع ألفين ، ويوجّه بهم مدداً للمهلّب .

---

(١) الكامل : « بمانعته » .
(٢) ساقطة من ج .
(٣) ب : « أغن » .

فلما أتاه الكتاب ، بعث إلى عبد الرحمن بن مِخْنف الأزْدِىّ يعقد[١] له ، واختار من كلِّ رُبْع ألفين ، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشر بن جَرِير بن عبد الله البَجَلِىّ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهَمْدانىّ ، وعلى رُبْع كِنْدة محمد ابن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْدىّ ، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المَذْحِجىّ ؛ فقدموا على بِشْر بن مروان، فخلا بعبد الرحمن بن مِخْنف ، وقال له : قد عرفتَ رأيِي فيك ، وثقتى بك؛ فكن عند ظنّى بك ؛ وانظر إلى هـذا المزُونِىّ ، فخالفه فى أمره ، وأفسِدْ عليه رأيه .

فخرج عبدُ الرحمن ، وهو يقول : ماأعجبَ ماطلبَ[٢] مِنّى هـذا الغُلام ! يأمرُنى أنْ أصغِّر شأنَ[٣] شيخٍ من مشايخ أهلِي ، وسَيِّد من ساداتهم ! فلحِق بالمهلّب .

فلما أحسّ الأزارقة بدنوّ المهلّب منهم انكشفُوا عن الفُرات ، فاتبعهم المهلّب إلى سوق الأهواز ، فنفاهم عنها ؛ ثم اتبعهم إلى رَامَهُرْمُز فهزمهم عنها ، فدخلوا فارسَ ، وأبْلَى يزيد ابنه فى وقائعه هذه بلاء شديدا ، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة .

فلما صار القومُ إلى فارس ، وجَّه إليهم ابنَه المغيرة ، فقال له عبد الرحمن بن صالح : أيّها الأمير؛ إنه ليس لك برأيٍ قتلُ هذه الأكلُب ؛ ولئن والله قتلْتهم لتقعدنّ فى بيتك ؛ ولكنْ طاولْهم ، وكُلْ بهم . فقال : ليس هذا من الوفاء ؛ فلم يلبَثْ برَامَهُرمز إلا شهرا؛ حتى أتاه موت بِشر بن مروان .

فاضطرب الُجند على ابن مِخْنف ، فوجّه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر ، فاستحلفهما ألّا يبرحا، فحلفا له ولم يفِيا ، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلون حتى اجتمعوا

---

(١) الكامل : « فعقد » .
(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى الكامل ، و ب : « طمع » .
(٣) ج : « رأى » .

بسُوق الأهواز ؛ وأراد أهلُ البصْرة الانسلالَ من المهلّب ؛ فخطبهم فقال : إنّكم لستم كأهل الكُوفة ؛ إنما تذبّون عن مِصركم وأموالكم وحرمكم .

فأقام منهم قومٌ ، وتسلّل منهم قومٌ كثير .

وكان خالد بن عبد الله خليفةَ بشر بن مروان ، فوجّه مولًى له بكتاب منه إلى مَنْ بالأهواز ؛ يحلف بالله مجتهداً: لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم ، وانصرفوا عصاةً لا يظفرُ بأحدٍ إلا قتله . فجاءهم مولاه ، فجعل يقرأ عليهم الكتابَ ، ولا يرى فى وجوههم قَبولا ؛ فقال : إنى أرى وجوهاً ما القبولُ مِنْ شأنها، فقال له ابن زَحْر : أيها العبد ؛ اقرأ ما فى الكتاب ، وانصرفْ إلى صاحبك؛ فإنك لا تدرى ما فى أنفسنا ،وجعلوا يستحثُّونه بقراءته ؛ ثم قصدوا قَصْد الكوفة ؛ فنزلوا النُّخَيْلة ، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم فى دخول الكوفة ؛ فأبى، فدخلوها بغير إذن .

***

فلم يزل المهلّب ومَنْ معه من قواده وابن مِخنف ؛ فى عدد قليل ، فلم يلبثُوا أن ولِىَ الحجّاج العراق .

فدخَل الكوفة قبل البَصْرة؛ وذلك فى سنة خمس وسبعين ؛ فخطبهم الخطبة المشهورة[1] ، وتهدّدهم ؛ ثم نزل فقال لوجوه أهلها : ما كانت الولاةُ تَفعل بالعُصاة ؟ قالوا : كانت تضرب وتحبس ، فقال : ولكن ليس لهم عندى إلا السيف ؛ إنّ المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لأهلها ، ما قوتل عدوّ ، ولا جُبِىَ فَىْء ، ولا عَزّ دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، فقال : قد أجّلتكم ثلاثاً ، وأقسم بالله لا يتخلف أحدٌ من

---

(١) فى الكامل : « وقد ذكرنا الخطبة متقدما » ؛ وهى فى الكامل ٢١٧ (طبعة أوربا) .

أصحـاب ابن مِخْنَف بعدَها إلا قتلتُه . ثم قال لصاحب حَرَسه ولصاحب شُرْطَته(١) : إذا مضت ثلاثة أيام ، فاشحذا(٢) سيوفـكما . (٣فجاءه عُمير بن ضابئ [البرجُمِىّ](٤) بابنه فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هذا أنفعُ لـكم مِنّى ؛ وهو أشدّ بنى تميم أبدانا(٥) ، وأجمعهم سلاحا ، وأربطهم جأشا ؛ وأنا شيخٌ كبيرعليل؛ واستشهد [جُلَساءه](٤) ؛ فقال له الحجاج : إنّ عذرك لَواضح ، وإن ضَعفك لَبيِّن ؛ ولـكنى أكره أن يجترئ بك الناس علىّ ؛ وبعد ؛ فأنت ابن ضابئٍ صاحب عثمان ، وأمر به فقُتل(٣) ؛ فاحتمل النّاس ؛ وإنّ أحدَهم ليُتَّبع بزاده وسلاحه ، ففى ذلك يقول [عبد الله](٤) بن الزَّبير الأسدىّ(٦) :

أقولُ لعبـــدِ الله يَوْمَ لقيتهُ ... أرَى الأمر أمْسَى مُنْصِباً متشعّبا(٧)

---

(١) الـكامل : « شرطه » .

(٢) الـكامل : « فاتخذا » .

(٣-٣) وفى رواية أخرى للمبرد ٢١٧ : « فوضع للنـاس أعطياتهم ؛ فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخ يرعش كبرا ؛ فقـال : أيها الأمير ؛ إنى من الضعف على ماترى ، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى ؛ فتقبله بدلامنى ؛ فقال الحجاج : نفعل أيها الشيخ ؛ فلما ولى قال له قائل (هو عنبسة بن سعيد الأموى) : أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا . قال: هذا عمير بن ضابئ البرجمى الذى يقول أبوه :

هَمَمْتُ ولم أفعل وكِدْت وليتنى ... تركتُ على عثمان تبكى حلائلُهْ

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا ؛ فوطئ بطنه ، فكسر ضلعين من أضلاعه . فقال: ردوه ؛ فلما رد قال له الحجاج : أيها الشيخ ؛ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار ! إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحاً للمسلمين ؛ ياحرسى ، اضرب عنقه؛ فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل، ويأمر وليه أن يلحقه بزاده؛ ففى ذلك يقول عبد الله بن الزبير . . . . » الأبيات . وانظر الشعر والشعراء ٣١١ ، وطبقات الشعراء لابن سلام ١٤٥ ، وتاريخ الطبرى ٥ : ١٣٧

(٤) من الـكامل .

(٥) الـكامل : « أيدا » .

(٦) نقل المرصفى فى رغبة الأمل ؛ أنه فى هذه الأبيات يخاطب إبراهيم بن عامر الأسدى ؛ وروى البيت الأول :

أقولُ لإبراهيمَ لـمّا لقيتهُ ... أرى الأمر أضحى مُنصِبا مُتَشعِّبا

وذكر بعده :

تجهَّزْ وأسرِعِ فالحقِ الجيشَ لاأرَى ... سوى الجيش إلّا فى المهالكِ مَذْهَبَا

فَمَا إن أرىَ الحجَّاجَ يغْمِدُ سَيْفَهُ ... مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى يَتْرُكَ الطِّفل أشْيَبَا

(٧) منصبا : معييا مجهدا .

تجهز فإما أن تَزُور ابنَ ضَـــابِىء عُمَـــيراً ، و إمَّا أنْ تزُور المهلَّبا

هُمَا خُطّتَا خَسْفٍ نَجاؤُك منهما رُكُوبُكَ حَوْليًّا مِنَ الثَّلْجِ أشْهَبَا(١)

فما إنْ أرَى الحجّاجَ يغْمِدُ سَيْفَهُ مَدَى الدَّهرِ حتى يترُكَ الطفلَ أشْيَبَا

فَأضْحَى وَلَوْ كَانَتْ خُرَاسانُ دُونَهُ تُرَاهِى مَكَانَ السُّوقِ أوْ هِىَ أقْرَبَا(٢)

وَهَرَبَ سَوَّارُ بْنُ الْمُضَرَّبِ السَّعْدِىّ من الحجاج ، وقال :

أقاتِلِىَ الحجّاج إنْ لم أزُرْ لَهُ دَرَابَ وأترُكْ عِنْدَ هِنْد فُؤادِيَا(٣)

فى قصيدة مشهورة له .

فخرج الناس عن الكوفة ، وأتى الحجاج البصرة ، فكان أشدّ عليهم إلحاحا ؛ وقد كان أتاهم خبره بالكوفة ، فتحمّل الناس قبل قدومه . وأتاه رجل من بنى يَشْكُر ، وكان شَيْخاً أعور ؛ يجعل على عينه العوراء صُوفة ، فكان يلقَّب ذا الكُرْسُفَة ، فقال :

---

(١) نقل المرصفى بعده :

فكائنْ ترى من مكره الْغَزْوِ مُسْمِراً تحمَّمَ حِنْوَ السَّرْجِ حَتَّى تحنَّبَا

والمسمر : الذى لم ينم ، وتحمم حنو السرج : لزمه ؛ حتى صار كأنه حميم له . وحنو السرج : ما انعطف منه . وتحنب : تقوس .

(٢) الهاء فى « دونه » عائدة على المهلب ؛ أى لو كانت خراسان قريبة من موضع غزوه ، والسوق : هو سوق حكمة ؛ موضع بنواحى الكوفة . وأقرب مفعول ثان ؛ على أن « رأى » بمعنى « ظن » ، والضمير المرفوع وضع موضع الضمير المنصوب، و « أو » بمعنى « بل » ؛ وانظر الكامل بشرح المرصفى ٤ : ٧٩

(٣) دراب ؛ هى دار بجرد ؛ اقتصر على أحد الجزأين : كورة بفارس وروى المبرد فى الكامل ٢٨٩ (طبع أوربا) بعد هذا البيت :

فإن كانَ لايُرْضيكَ حَتَّى تَرُدَّنِى إلى قَطَرِىٍّ ما إخالُك راضياً

إذا جاوزتْ دَرْبَ الجيزينَ ناقتِى فباستِ أبى الحجاج لما ثنانيا

أيرجو بنو مَرْوان سمعى وطاعتى وقومى تميمٌ والفــلاة ورائيا !

أصلح الله الأمير ! إنّ بى فَتْقاً ، وقد غَدَر بى بِشْر بن مروان ؛ وقد رددت العطاء ، فقال : إنك عنـدى لصادق ؛ ثم أمر به فضربتْ عنقُه ؛ ففى ذلك يقول كعب الأشقرىّ ـ أو الفرزدق [(١)] :

لَقَدْ ضَرَبَ الحجّاجُ بالمِصرَ ضَرْبَةً   تقَرْقَرَ منها بَطنُ كلِّ عرِيفِ [(٢)]

***

ويُروى عن أبى البئر [(٣)] ، قال : إنّا لنتغدّى معه يوما ، إذ جاءه رجل من بنى سُلَيم [(٤)] برجل يقوده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنّ هـذا عاصٍ ، فقال له الرجل : أنشُدُك الله أيها الأمير فى دمى ! فوالله ما قَبَضْتُ ديوانا قطّ ، ولا شهدت عسكرا قطّ ، وإنى لَحائك ، أُخِذتُ من تحتِ الحفّ [(٥)] . فقال : اضربوا عُنقَه . فلما أحسّ بالسّيف سجَد ، فلحقه السّيف وهو ساجد ، فأمسكنا عن الأكل ، فأقبل علينا ، وقال : مالى أراكم قد صَفِرتْ أيديكم ، واصفرّت وجوهكم ، وحَدّ نظرُكم من قَتْل رجل واحد ! ألا إنّ العاصىَ يجمع خِلالًا ؛ يُخلُّ بمركزه ، ويَعْصِى أميرَه ، ويغرّ المسلمين ؛ وهو أجيرٌ لهم ؛ وإنما يأخذ الأجرة لِمَا يعمل ، والوالى مخيّر فيه ؛ إن شاء قتل ، وإن شاء عفا .

ثم كتب إلى المهلب :

أما بعد ؛ فإن بِشْراً استكره نفسَه [(٦)] عليك ، وأراكَ غِنَاه [(٧)] عنك ؛ وأنا أريك حاجتى إليك ، فأرِنى الجدّ فى قتال عدوك ، ومَنْ خِفْتَه على المعصية مِمّن قبلك فاقتـله ،

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ٢ : ٥٧٠ .

(٢) تقرقر : صوت ، والعريف : النقيب دون الرئيس .

(٣) كذا فى ب ، وفى ا ، ج : « عن أبى النسر » ، وفى الـكامل : « ابن أبى ميرة » .

(٤) كذا فى ب والـكامل ، وفى ا ، ج : « من بنى تميم » .

(٥) الحف : القصبة التى تجىء وتذهب .

(٦) استكره نفسه : أدارها على الـكره منها .

(٧) أى أراك أنه فى غنى عنك .

فإنى قاتل مَنْ قبلى ، ومَنْ كان عندى ممّن هرب عنك؛فأعلِمْنى مكانه ؛ فإنى أرى أن آخذ السَّمِىّ بالسَّمِىّ ، والولىّ بالولىّ .

فكتب إليه المهلّب :

ليس قِبلى إلا مطيعٌ ، وإنّ الناسَ إذا [خافوا العقوبة كبّروا الذّنب ، وإذا] [١] أمِنُوا العقوبة صغّروا الذنب ؛ وإذا يَئسوا من العفو أكفرهم [٢] ذلك ؛ فهب لى هؤلاء الذين سميتَهم عصاة ؛ فإنهم فُرسان أبطال ؛ أرجو أن يقتُلَ الله بهم العدوّ ،[ونادم على ذنبه] [٣].

فلما رأى المهلّب كثرةَ الناس عنده قال : اليوم قُوتل هذا العدوّ .

***

ولما رأى ذلك قَطَرِىّ ، قال لأصحابه : انهضوا بنا نريد السَّرْدَن [٤] ، فنتحصن فيها ، فقال عبيدة بن هلال : أوتأتى [٥] سابُور ، فتأخُذَ منها ما نُريد، وتصير إلى كَرْمان. فأتوْا سابور ، وخرج المهلب فى آثارهم فأتى أرّجان ، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَن ـ وليست بمدينة ، ولكنها جبال مُحدِقة منيعة ـ فلم يصبْ بها أحداً ، فخرج فعسكر بكازَرُون [٦] ، واستعدّوا لقتاله ، فخندقَ على نفسه ، ووجّه إلى عبد الرحمن

---

(١) من الكامل .

(٢) أكفرهم : حملهم على الكفر

(٣) من الكامل و: « نادم » معطوف على « مطيع » .

(٤) السردن : موضع ببلاد فارس إزاء كازرون .

(٥) سابور : كورة بينها وبين شيراز خمسة وعشرون فرسخا .

(٦) كازرون ، بتقديم الزاى : مدينة من أخصب مدن سابور ؛ وذكر ياقوت أن لها ذكرا فى أخبار الخوارج ؛ وروى للنعمان بن عقبة من أصحاب المهلب :

لَيْتَ الْحَوَاصِنَ فى الْخُدُورِ شَهِدْننَا ... فَيَرَيْنَ مَنْ وَغَلَ الكَتِيبَةَ أوّلَا

وَقَرُوا وكُنّا فى الوَقَارِ كَمِثْلِهِمْ ... إذْ لَيْسَ تَسْمَعُ غَيْرَ قَدِّمْ أوْ هَلَا

رعدوا فَأَبْرَقْنَا لَهُمْ بِسُيُوفنَا ... ضَرْبًا ترى منهُ السواعِدَ تُخْتَلَى

تركُوا الجماجِمَ والرِّماحُ تُجِيلُهَا ... فى كازرون كما تُجِيلُ الْحَنْظَلَا

ابن مخنف : خَنْدِق على نفسك ، فوجّه إليه : خنادقُنا سيوفُنا ، فوجه المهلّب إليه : إنى لا آمن عليك البيَات ، فقال ابنه جعفر : ذاكَ أهونُ علينا من ضَرْطة جمل ، فأقبل المهلّب على ابنه المغيرة ، فقال : لم يصيبوا الرأى ، ولم يأخذوا بالوثيقة .

فلما أصبح القومُ عاودوه الحرب ؛ فبعثَ إلى ابن مخنف يستمدّه ،فأمدّه بجماعة؛ جعل عليهم ابنه جعفرا ، فجاءو؛ وعليهم أقبِيةٌ بيض جُدُد ، فأبلوْا يومئذ حتى عُرِف مكانهم ؛ وحار بهم المهلّب ، وأبْلَى بنوه يومئذ كبلاء الكوفيين أو أشدّ .

ثم أتى رئيسٌ من الخوارج ؛ يقال له صالح بن مخراق ، وهو ينتخبُ قوماً من جلّة العَسْكر حتى بلغ أربعمائة ؛ فقال لابنه المغيرة : ما أراه يُعِدّ هؤلاء إلا للبيات[1] .

وانكشفت الخوارج، والأمر للمهلّب عليهم ، وقد كَثُر فيهم الجراح والقتل؛ وقد كان الحجّاج يتفقَّد العصاة ، و يوجّه الرجال ، وكان يحبسهم نهارا، و يفتح الحبس ليلًا ، فيتسَلّلُ الرجال إلى ناحية المهلّب ؛ وكان الحجاج لا يعلم ؛ فإذا رأى إسراعهم تمثل :

إنّ لهَاَ لَسَائِقاً عَشَنْزَرَا ... إذا وَنَيْنَ وَثْبَةً تغَشْمَرا[2]

* * *

ثم كتب الحجّاج إلى المهلّب يستحثّه :

أما بعد ؛ فإنه قد بلغنى أنّك قد أقبلت على جباية الخراج ، وتركتَ قتال العدو ؛ و إنى وليتُك[3] وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المجاشعىّ ، وعبّاد بن الحصين الحَبَطىّ، واخترتك وأنت من أهل عُمان ، ثم رجلٌ من الأزد ؛ فالقهم يوم كذا فى مكان كذا ؛ و إلا أشرعتُ إليك صدر الرمح .

---

(١) الكامل : « مايعد هؤلاء إلا للبيات » .

(٢) فى الكامل : « العشنزر: الصلب ، والتغشمر : ركوب الرأس، والمتغشمر : الجاد على ماخيلت» يريد : ماخيلت نفسه ؛ وهم يحذفون فاعل هذا الفعل .

(٣) يريد أبقيتك على ولايتك.

فشاور المهلّب بنيه ، فقالوا : أيها الأمير (١ ، لا تُغلِظ عليه فى الجواب ١) .

فكتب إليه :

وردَ إلىّ كتابك ، تزعُم أنّى أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومَنْ عَجَزَ عن جباية الخراج ، فهو عن قتال العدوّ أعْجَز . وزعمتَ أنّك وليّتنى ، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعَبّاد بن الحصين ، ولو ولّيتهما لكانا مستحِقّيْن لذلك ؛ لفضلهما وغَنائهما و بطشهما . وزعمتَ أنك اخترتنى وأنا رجلٌ من الأزدِ ؛ ولعمرِى إنّ شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتْها ثلاث قبائل ؛ لم تستقرّ فى واحدة منهنّ . وزعمتَ أنى إنْ لم ألقَهم يوم كذا فى مكان كذا أشرعتَ إلىّ صدرَ الرمح ؛ لو فعلتَ لقلبتُ لك ظهر المِجنّ (٢) . والسلام .

قال : ثم كانت الوقعة بينه و بين الخوارج عَقِيب هذا الكتاب .

***

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة ، قال لابنه المغيرة : إنى أخاف البَيات على بنى تميم ، فانهض إليهم ، فكن فيهم ، فأتاهم المغيرة ، فقال له الحريش بن هلال : يا أبا حاتم ؛ أيخاف الأميرُ أن يؤتَى من ناحيتنا ! قُلْ له : فليبت آمنا ؛ فإنا كافوه ما قِبَلَنا إن شاء الله . فلما انتصفَ الليل ، وقد رجع المغيرة إلى أبيه ، سرى صالح بن مخراق فى القوم الذين كان أعدّهم للبيات إلى ناحية بنى تميم ، ومعه عبيدة بن هلال ، وهو يقول :

إنّى لَمُذْكٍ للشُّراةِ نارَها ومانعٌ ممّنْ أتاها دارَها

* وغاسِلٌ بالسيف عنها عارَها *

(١ــ١) الكامل : « إنه أمير ، فلا تغلظ عليه فى الجواب » .

(٢) المجن من السلاح : مايتقى به .

فوجد بنى تميم أيقاظا متحارسين ، وخرج إليهم الحريش بن هلال ، وهو يقول :

وَجَدْتُمُونَا وُقُراً أنجادَا لا كُشُفاً مِيلاً ولاأوْغادَا(١)

ثم حمل على الخوارج ، فرجعوا عنه ؛ فاتبعهم ثم صاح بهم : إلى أين يا كلاب النار ! فقالوا : إنما أعِدّتْ لك ولأصحابك ؛ فقال الحريش : كلّ مملوك لى حرّ إن لم تدخلوا النّار؛ مادخلها مجوسىٌّ فيما بين سَفَوان (٢) وخُراسان .

ثم قال بعضهم لبعض : نأتى عسكرَ ابن مِخْنف ؛ فإنه لاخندق عليه ؛ وقد بعَث فرسانهم اليوم مع المهلّب ، وقد زعموا أنّا أهونُ عليهم من ضَرْطة جمل . فأتوهم فلم يشعر ابن مِخْنف وأصحابه ؛ إلا وقد خالطوهم فى عسكرهم .

وكان ابن مخنف شريفا ؛ وفيه يقول رجل من بنى عامر لرجل يعاتبه ، و يضرب بابن مخنف المثل :

تَرُوحُ وتَغْدُو كلّ يوم مُعَظَّماً كأنك فينا مِخْنَفٌ وابن مِخْنَفِ

فترجّل عبدالرحمن تلك الليلة يجالدهم ؛ حتى قتل وقتل معه سبعون رجلا من القرّاء ؛ فيهم نفرٌ من أصحاب علىّ بن أبى طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود . و بلغ الخبرُ المهلّبَ — وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخْنف عند المهلّب — فجاءهم مُغِيثا فقاتل حتى ارتُثّ (٣) ووجه المهلّب إليهم ابنه حبيبا ، فكشفهم ، ثم جاء المهلّب حتى صلّى على عبد الرحمن بن مِخْنف وأصحابه ، وصار جندُه فى جند المهلّب ، فضمهم إلى ابنه حبيب ، فعيّرهم البَصرِيّون ، وسمَّوْا جعفرا خَصْفَة الجمل .

---

(١) فى الكامل : « قوله » : وجدتم وقرا ، جمع وقور ، والنجد : ضدّ البليد ؛ وهو المتيقظ الذى لاكسل عنده ولافتور . والأميل : فيه قولان : قالوا : الذى لايستقر على الدابة ؛ وقالوا : الذى لاسيف معه . والأكشف: الذى لاترس معه . والأجمّ : الذى لارمح معه، والحاسر : الذى لادرع عليه.والأعزل: الذى لايتقوم على ظهر الدابة . والوغد : الضعيف» . وذكر بعده هذا البيت :

هَيْهاتَ لَا تُلْفُونَنَا رُقَّادَا لَا بلْ إذَا صِيحَ بِنَا آسَادَا

(٢) سفوان ، بفتحتين : ماء على قدر مرحلة من مربد البصرة .

(٣) المرتث : الذى يحمل من المعركة جريحا وبه رمق .

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف :

تركت أصحابَكم تَدْمَى نُحُورُهُمُ ... وجئتَ تَسْعى إلينا خَضْفَةَ الجملِ (١)

فلامَ المهلّب (٢) أهل البصرة ، وقال : بئسما قلتم ؛ والله مافرّوا ولا جَبُنوا ؛ ولكنهم خالفوا أميرهم ؛ أفلا تذكرون فِرارَكم بدُولابَ عَنِّى ، وفرارَكم بدَارس (٣) عن عثمان (٤) !

* * *

ووجه الحجاج البراء بن قبيصة إلى المهلّب يستحثّه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه : إنك تحبُّ بقاءهم لتأكُلَ بهم ، فقال المهلّب لأصحابه : حرّكوهم ؛ فخرج فُرسان من أصحابه ، فخرج إليهم من الخوارج جَمْعٌ كثير ؛ فاقتتلوا إلى الليل ؛ فقال لهم الخوارج : وَيْلكم ! أما تَمَلّون ! فقالوا : لا ، حتّى تملّوا ، فقالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، فقالت الخوارج : ونحن تميم أيضاً ، فلما أمسَوْا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلّب ، وخرج إليهم من الخوارج عشرة ، واحتفر كلٌّ واحدٍ منهم حَفِيرة ، وأثبت قدميه فيها ، كلّما قُتِل رجل جاء رجل من أصحابه فاجترّه وقام (٥) مكانه حتى أعتموا (٦) ، فقال لهم الخوارج : ارجعوا ، فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، قالوا لهم : وَيْلكم مَنْ أنتم ! قالوا : تميم ، قالوا : ونحن

---

(١) فى الكامل : « تركت أصحابنا » ، وفيه : قوله : « خضفة الجمل ؛ يريد ضرطة الجمل ؛ يقال : خضف البعير ؛ وأنشدنى الرياشى لأعرابى يذم رجلا اتخذ وليمة :

إنّا وَجَدْنَا خَلَفاً بِئْسَ الْخَلَفْ ... أغْلَقَ عنَّا بَابَهُ ثمَّ حَلَفْ

لا يُدْخِلُ البوابُ إلاّ من عرَفْ ... عبدا إذَا ما ناء بالْحِمْلِ خَضَفْ

(٢) فى الكامل : « فلامهم » .

(٣) فى الأصول : « بفارس » ، وماأثبته عن الكامل . ودارس : موضع ذكره البكرى وقال : إنه فى ناحية مسرقان . ومسرقان : قرية من أعمال البصرة .

(٤) هو عثمان بن قطن بن عبيدالله ؛ أحد بنى الحارث بن كعب ؛ وكان الحجاج بعثه إلى شبيب ؛ فانهزم أصحابه عنه ، وقاتل حتى قتل .

(٥) الكامل : « ووقف » .

(٦) أعتموا : صاروا فى العتمة ، وهى ثلث الليل الأول بعد مغيب الشفق .

تميم أيضاً ؛ فرجع البرَاء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له : مَهْيم ؟[١] قال : رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله .

وكتب المهلّب جواب الحجاج : إنّى منتظر بهم إحدى ثلاث : موتا ذريعا ،[٢] أو جُوعاً مُضِرًّا ، أو اختلافا من أهوائهم .

وكان المهلّب لا يتّكل فى الحراسة على أحد ، كان يتولّى ذلك بنفسه ، ويستعين عليه بولده ، وبمن يحلّ محلهم فى الثقة عنده .

قال أبو حَرْملة العبدىّ يهجو المهلّب ، وكان فى عسكره :

عَدِمْتُك يامُهَلّبُ من أميرٍ أما تَنْدَى يمينُك للفقير !

بِدُولَابٍ أضعتَ دماء قومِى وَطِرْتَ عَلَى مُوَاشِكَةٍ دَرُورِ[٣]

فقال له المهلّب : ويحك ! ووالله إنّى لأَقِيكم بنفسى وولدى ، قال : جعلنى الله فداء الأمير ! فذاك الذى نَكْرَه منك ، ما كلُّنا يحبّ الموت . قال : ويحك ! وهل عنه مِنْ محيص ! قال : لا ، ولكنا نكره التعجيل ؛ وأنت تُقدِم عليه إقداما ، قال المهلّب : وَيلك ! أما سمعت قول الكلحبة اليربوعىّ :

فقلتُ لكأسٍ ألجميهـــا فإنّما نزَلْنَا الكَثِيبَ مَن زَرُودَ لنفزَعا[٤]

---

(١) مهيم : كلمة استفهام معناها : ما الخبر وما الأمر ؟ وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبد الرحمن بن عوف ، وعليه درع خلق ، فقال : مهيم ؟ فقال : تزوجت يارسول الله . وفى الكامل : « مه » وهى بمعنى الاستفهام أيضا .

(٢) ذريع : سريع .

(٣) قال المبرد : قوله : « مواشكة » ، يريد سريعة ، ويقال : نحن على وشك رحيل . ويقال : ذميل مواشك ، إذا كان سريعا ، قال ذو الرمة :

إِذَا مَا رَمَيْنَا رَمْيَةً فى مَفَازَةٍ عرَاقِيبَهَا بالشيظمىّ المواشكِ

و « درور » فعول ، من درّ الشىء ، إذا تتابع .

(٤) كأس : اسم بنته ، والعرب لا تثق بأحد فى خيلها إلا بأولادها ونسائها . والكثيب : القطعة =

فقال : بلى ، قد سمعت ؛ ولـكنّ قولى أحبّ إلىّ منه :

وَلَمَّــا وقفتمْ غُدوةً وعدوّكُمْ إلى مهجتى وَلَّيتُ أعداءكُمْ ظَهْرِى

وطرتُ ولم أحفل ملامَةَ جَاهِلٍ يُسَاقِى المنايا بالردينيّة السُّمْرِ [١]

فقال المهلب: بئس حشو الـكتيبة أنت والله ياأبا حرملة ! إنْ شئت أذِنْتُ لك فانصرفت إلى أهلك . قال : بل أقيم معك أيها الأمير ، فوهب له المهلب وأعطاه ، فقال يمدحه :

يَرَى حَتْماً عَلَيْـه أبُو سَعِيدٍ جِلَادَ الْقَوْمِ فِى أُولىَ النَّفِيرِ

إذا نادَى الشُّرَاةُ أبا سعيـــدٍ مَشَى فى رِفْلِ محـكَمة الْقَتِيرِ [٢]

قال : وكان المهلّب يقول : مايسرّنى أنّ فى عسكرى ألف شجاع مكان بيهس بن صُهيب ، فيقال له : أيها الأمير، بَيْهس ليس بشجاع، فيقول : أجل ؛ ولـكنّه سديد الرأى ، محـكم العقل ، وذو الرأى حذر سَئول ، فأنا آمن أن يُغْتَفَل ؛ ولو كان مكانه ألف شجاع خِلْت أنهم يَنْشَامون [٣] حيث يحتاج إليهم .

قال : ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور ، و بين المهلب و بين الشُّراة عقبة ، فقال المهلّب : مَنْ يكفينــا أمرَ هذه العقبة الليلة ؟ فلم يقم أحد ، فلبس المهلّب سلاحه ، وقام إلى العقبة واتّبعه ابنهُ المغيرة ، فقال رجل من أصحابه : دعانا الأمير إلى ضَبْطالعقبة ، والحظّ

= المستطيلة من الرمل ، محدوبة . وزرود : موضع . والفزع : هنا الإغاثة ، وهو من الأضداد . وقبل هذا البيت :

ونادَى منادى الحىّ أن قد أُتيتمُ وقد شرِبتْ ماء المزادةِ أجمعا

وهما من قصيدة مفضلية وفيها :

أمرتكمُ أمرى بمنعرج اللِّوَى وَلَا أَمْرَ للمعصىّ إلا مُضيّعَا

إذا المرء لم يغشَ الكريهةَ أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطّعا

(١) الـكامل : «ملامة عاجز» ، الردينية : الرماح ؛ منسوبة إلى ردينة ، امرأة كانت تقوم الرماح .

(٢) الرفل بكسر الراء : الذيل ؛ وقد أرفل رفله ؛ أرسل ذيله، وأما الرّفل بفتحها ، فمصدر رفل كنصر : جرّ ذيله وركضه برجله ، والقتير : رءوس مسامير حلق الدروع .

(٣) ينشامون ، من انشام الشىء دخل فيهواختبأ ، كتشيم ؛ يريد أنهم يكونون بمعزل مخافة أن يقتفلوا.

فى ذلك لنا؛ فلم نطِعْه، ولبس سلاحه واتّبعه جماعة من العسكر، فصاروا إليه؛ فإذا المهلّب والمغيرة ولا ثالثَ لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير؛ فنحنُ نكفيك إن شاء الله؛ فلما أصبحُوا إذا هم بالشُّراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحملُ وفرسه تزْلق، ويَلقَاه مُدرك فى جماعة معه؛ حتى ردوهم عن العقبة؛ فلما كان يوم النّحْر والمهلّب على المنبر يخطب الناس، إذ الشُّراة قد أكبّوا[2]، فقال المهلب: سبحان الله! أفى مثل هذا اليوم! يامغيرة اكفنيهم؛ فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القُرْدوسىّ[3] [ماعدا][4] وكان سعد مقدّما فى شجاعته وكان الحجاج[5] إذا ظن برجل أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القُرْدُوسىّ! فخرج أمام المغيرة، ومع المغيرة جماعة من فُرسان المهلب، فالتقوا، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح، مديد القامة، كريه الوجه، شديد الحَمْلة، صحيح الفروسية؛ فأقبل يحمل على الناس، ويرتجز فيقول:

نَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غَـــداةَ النَّحْرِ ... بالخيلِ أمثالِ الوشيجِ تَجْرِى[6]

فخرج إليه سعد بن نجد القُرْدُوسىّ، من الأزد، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس فصُرِع المغيرة يومئذ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستانىّ[7] وجماعة من الفرسان؛ حتى ركب وانكشف الناس عند سَقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب؛ فقالوا: قُتِل المغيرة، فأتاه دينار السجستانىّ، فأخبره بسلامته، فأعتق كلّ مملوك كان بحضرته.

* * *

---

(١) الشراة: الخوارج؛ قال الجوهرى: سموا بذلك لقولهم: إنا شرينا أنفسنا فى طاعة الله؛ أى بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة.

(٢) الكامل: «تألبوا».

(٣) فى الأصول: «الفردوسى»، تصحيف صوابه من الكامل، وقردوس: قبيلة من الأزد.

(٤) من الكامل؛ أى ماتجاوز إعجابك إعجابه.

(٥) الكامل: «المهلب».

(٦) الوشيج: مانبت من شجر الرماح ملتفاً دخل بعضه فى بعض؛ أوماصلب فيه.

(٧) الكامل: «السختيانى».

قال : ووجّه الحجاج الجرّاح بن عبد الله إلى المهلّب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

أما بعد ؛ فإنك جَبَيْت الخراج بالعِلل (١)، وتحصّنت بالخنادق ، وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثر عددا ؛ وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبْناً ؛ ولكنك اتخذتهم أُكْلاً (٢)، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ؛ فناجزْهم؛ وإلا أنكرتنى، والسلام .

فقال المهلّب للجرّاح : يا أبا عُقْبة ، والله ما تركتُ حيلة إلا احتلتُها ، ولا مكيدةً إلا أعملتُها ؛ وما العجبُ من إبطاء النُّصْرَة (٣) وتراخى الظَّفَر ؛ ولكنّ العجب أن يكون الرأىُ لمن يملِكهُ دون مَنْ يُبْصره .

ثم ناهضهم ثلاثةَ أيام ، يغاديهم القتال ، فلا يزالون كذلكَ إلى العصر ، وينصرف أصحابُه وبهم قَرْح ، وبالخوارج قَرْح وَقَتْل . فقال له الجراح : قد أعْذَرْت .

فكتب المهلّب إلى الحجاج :

أتانى كتابك تستبطئُنى فى لقاء القوم ؛ على أنك لا تظنُّ بى معصية ولا جُبْنا ؛ وقد عاتبتَنى معاتبة الجبان (٤)، وأوعدْتَنِى وعيدَ (٥) العاصى ؛ فسلِ الجرّاح. والسلام .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيتَ أخاك ؟ قال : والله أيّها الأمير ، ما رأيت مثلَه قطّ ، ولا ظننت أنّ أحدا يبقى على مثلِ ما هو عليه ، ولقد شهدتُ أصحابه أياما ثلاثة يَغْدُون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ؛

---

(١) بالعلل ، أى سترته بالعلل .
(٢) الأكل بالضم : اسم للمأكول .
(٣) الكامل : « النصر » .
(٤) أى معاتبتك للجبان .
(٥) فى الأصول : « وعد » ، وماأثبته من الكامل .

ويتخابَطون بالعَمَد ؛ ثم يروحون كأنْ لم يصنَعُوا شيئا ، رَوَاحَ قوم تلك عادتهم وتجارتهم .

فقال الحجّاج : لَشَدّ ما مدحته[1] أبا عُقْبة ! فقال: الحقّ أَوْلَى .

وكانت رُكُبُ الناس[2] قديما من الخشب ، فكان الرّجل يضرب ركابه ، فينقطع ، فإذا أراد الضّربَ أو الطعن لم يكن له معتمَد ؛ فأمر المهلّب بضَرْب[3] الرُّكُب من الحديد ؛ فهو أول من أمَر بطبعها ؛ وفى ذلك يقول عمران بن عصام العنزىّ :

ضَرَبُوا الدّرَاهِمَ فى إمارَتِهِمْ ... وَضَرَبْتَ لِلْحَدَثَانِ وَالْحَرْبِ
حَلَقًا ترَى مِنهــا مَرَافِقَهُمْ ... كَمنَاكِبِ الجِمَالَةِ الْجُرْبِ[4]

* * *

قال : وكتبَ الحجّاج إلى عتّاب بن وَرْقاء الرياحىّ ، من بنى رياح بن يَرْبوع ؛ وهو والى أصفهان يأمره بالمسير إلى المهلّب، وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مخنف ؛ فكلُّ بلدٍ يدخلانه من فُتوح أهل البصرة ؛ فالمهلّب أميرُ الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتُم بلدا فتَحهُ أهلُ الكوفة[5] فأنتَ أميرُ الجماعة ، والمهلّب على أهل البصرة .

فقدِم عتّاب فى إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلّب ، وهو بسابور — وهى من فتوح أهل البصرة — فكان المهلّب أميرَ الناس وعتّاب على أصحاب ابن مخنف ؛ والخوارج بأيديهم كِرْمان ؛ وهم بإزاء المهلّب بفارس ، يحاربونه من جميع النواحى .

---

(١) كذا فى ب والكامل ، وفى ا ، ج : « وصفته » .
(٢) ركب الناس ، الركب ، بضمتين : جمع ركاب ؛ وهو ما يعتمد عليه راكب السرج بقدميه ؛ فأما مايعتمد عليه راكب البعير ؛ فهو الغرز .
(٣) ج : « فضربت » .
(٤) المرافق هنا : معتمدات الأرجل من الحلق ؛ ويريد بمناكب الجمالة الجرب أنها رقيقة الوسط عريضة الطرفين . والجمالة ، مثلثة الجيم مخففة الميم : الطائفة من الجمال .
(٥) الكامل : « فتحه لأهل الكوفة » .

قال : ووجّه الحجاج إلى المهلّب رَجُلَيْن يستحثّانه لمناجزة القوم : أحدُهما يقال له زياد ابن عبد الرحمن ، من بنى عامر بن صعصعة ، والآخر من آل أبى عَقِيل من رهط الحجاج ، فضمّ المهلّب زيادا إلى ابنهِ حَبيب ، وضمّ الثَّقَفِىّ إلى ابنه يزيد ، وقال لهما : خذا يزيد وحبيبا بالمناجزة ، وغادوا الخوارج . فاقتتلوا أشدّ قتال ؛ فقتل زياد بن عبد الرحمن العامرىّ ، وفقد الثقفىّ . ثم باكروهم فى اليوم الثانى ؛ وقد وُجِد الثقفىّ ، فدعا به المهلّب ودعا بالغداء ، فجعل النَّبْل يقع قريبا منهم ويتجاوزهم ، والثقفىّ يَعْجَب من أمر المهلّب ؛ فقال الصَّلتان العبدىّ :

أَلَا يا اصْبَحانِى قَبْل عَوْقِ الْعَوَائقِ[1] ... وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مثل الْعَقَائِقِ[2]

غــداةَ حبيبٍ فى الحديد يقودُنا ... يخوض المنــايا فى ظلال الخوافقِ

حَرُونٌ إذا ما الحربُ طَار شَرَارُها[3] ... وَهَاجَ عَجَاجُ النَّقْعِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ[4]

فمَنْ مبلــغُ الحجّاج أنّ أمينَه ... زياداً أطاحتــه رماحُ الأزارقِ

فلم يزل عتّاب بن وَرْقاء مع المهلّب ثمانية أشهر حتى ظهر شَبيب بن يزيد ؛ فكتب الحجّاج إلى عتاب يأمُره بالمصير إليه ليوجهه إلى شَبيب ، وكتب إلى المهلّب يأمره أن يرزُق الجندَ ، فرزَق أهلَ البصرة ، وأبى أن يرزُقَ أهل الكوفة ، فقال له عتّاب : ما أنا ببارحٍ حتى ترْزُق أهلَ الكوفة ، فأبى ، فجرتْ بينهما غِلْظة ، فقال له عتاب : قد كان يبلُغنى أنّك شجاع ، فرأيتُك جبَانًا ، وكان يبلغنى أنّك جوادٌ ، فرأيتك بخيلا . فقال له المهلّب : يابن اللَّخْناء ؛ فقال له عتّاب : لكنك مُعَمّ مُخْول !

(١) اصبحانى ؛ من صبحه إذ اسقاه صبوحا من خمر أو ... . والعوائق : جمع عائقة ؛ وهى كل ماصرفك عما تريد .

(٢) فى الكامل : « قوله : وقبل اختراط القوم مثل العقائق ، يعنى السيوف ، والعقائق : جمع عقيقة ، يقال : سيف كأنه عقيقة برق ، أى كأنه لمعة برق ، ويقال : انعقّ البرق إذ انبسم » .

(٣) حرون ، لقب حبيب ، لأنه كان يحرن فى الحرب فلايبرح ، وذلك مستعار من قولهم : فرس حرون لاينقاد ، وانظر رغبة الآمل ٤ : ٨٨ .

(٤) الكامل : « البوارق » ، والبوارق : السيوف .

فغضبت بكر بن وائل للمهلّب للحلف ، ووثب نُعَيم بن هُبيرة ، ابن أخى مَصْقلة ابن هُبيرة على عتّاب فشتَمه ، وقد كان المهلّب كارهاً للحلْف ، فلما رأى نُصرة بكر ابن وائل له سرّه ، واغتبط به ، فلم يزل يؤكّده ، وغضبت تميم البَصْرة لعتّاب ، وغضبت أزْدُ الكوفة للمهلّب ؛ فلما رأى ذلك المغيرةُ مشى بين أبيه و بين عتّاب ؛ وقال لعتاب : يا أبا ورقاء ؛ إنّ الأميرَ يصيرُ إلى كلِّ ما تحبّ ،وسأل أباه أن يرزُقَ أهل الكوفة ففعل فصلَح الأمر ؛ فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يَحْمَدون المغيرة بن المهلّب ، وكان عتاب يقول : إنّى لأعرف فضله على أبيه .

وقال رجلٌ من الأزد ، من بنى إياد بن سُود :

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا وَرْقَاءَ عَنَّا   فَلَوْلَا أَنَّنَا كُنَّا غِضَابا
على الشّيْخ المهلّب إذْ جَفانَا   لَلَاقَتْ خيلُكم مِنَّا ضِرَابا

***

قال : وكان المهلّب يقول لبنيه : لا تبدءوا الخوارج بقتال حتى يبدءوكم ، و يَبغُوا عليكم ، فإنهم إذا بَغَوْا عليكم نُصِرْتُم عليهم .

فشخص عَتاب إلى الحجاج فى سنة سبع وسبعين، فوجهه إلى شبيب فقتله شبيب .

وأقام المهلّب على حربهم ، فلما انقَضَي من مقامه ثمانية عشر شهرا اختلفوا وافترقت كلمتهم . وكان سبب اختلافهم أنّ رجلًا حداداً من الأزارقة ، كان يعمل نِصالًا مسمومة ، فيُرمَى بها أصحابُ المهلب ؛ فرُفِع ذلك إلى المهلّب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله ، فوجّه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرىّ ، فقال له : ألقِ هذا الكتابَ فى العسكر والدّراهم ، واحذر على نفسك ـ وكان الحدّاد يقال له أبْزَى ـ فمضى الرجل ، وكان فى الكتاب : أما بعد ، فإنّ نصالَك قد وصلت إلىّ ، وقد وجهتُ إليك بألف درهم فاقبِضْها وزدنا من هذه النِّصال .

فوقع الكتاب إلى قَطَرِىّ ، فدعا بأبْزَى ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم ، فأمر به فَقُتِل . فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة ، فقال له : أقتلت رجلًا على غير ثِقةٍ[1] ولا تبين ؟ قال قطرىّ : فما حال هذه الألف ؟ قال : يجوز أن يكون أمرُها كذبًا ، ويجوز أن يكون حقًّا ، فقال قَطَرِىّ : إنّ قتلَ رجُلٍ فى صلاح الناس غير منكَر ، وللإمام أن يحكُم بما رآه صلاحا ؛ وليس للرعيّة أن تعترض عليه ؛ فتنكّر له عبدُ ربّه فى جماعة معه ، ولم يفارقوه .

وبلغ ذلك المهلّب فدسّ إليهم رجُلًا نصرانيا ؛ جعل له جُعْلًا يُرْغَب فى مثله ؛ وقال له : إذا رأيتَ قَطَرِيًّا فاسجُدْ له ؛ فإذا نهاك فقل : إنّما سجدتُ لك ؛ ففعل ذلك النّصرانىّ ، فقال قطرىّ : إنما السجود لله تعالى ؛ فقال : ماسجدتُ إلا لَكَ ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عَبَدَك من دون الله ، وتلا : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[2]؛ فقال قطرىّ : إنّ النصارَى قد عبدُوا عيسى بن مريم ؛ فما ضرّ عيسى ذلك شيئا . فقام رجل من الخوارج إلى النّصرانىّ فقتله ، فأنكر قطرىّ ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكارَه .

وبلغ المهلّب ذلك ، فوجّه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : أرأيتم رجليْن خرجَا مهاجريْن إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يَجُزِ المحنة ، ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أمّا الميت فمؤمن من أهل الجَنّة ، وأما الذى لم يَجُزِ المِحنة فكافر ؛ حتى يُجيز المحنة .

وقال قوم آخرون : بل هما كافران ؛ حتى يجيز المحنة ، فكثر الاختلاف .

وخرج قطرىٌّ إلى حدود إصطَخْر ؛ فأقام شهراً ، والقومُ فى اختلافهم . ثم أقبل فقال

---

(١) ج « وثيقة » .

(٢) سورة الأنبياء ٩٨

لهم[1] صالح بن مخراق : ياقوم ، إنكم أقررتم عينَ عدوكم ، وأطمعتموه فيكم بما يظهر من خلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة .

وخرج عمرو القنا — وهو من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم — فنادى : يأيها المحلّون[2] ؛ هل لكم فى الطِّراد فقد طال عهدى به ! ثم قال :

ألمْ ترَ أنّا مذْ ثلاثين ليلةً جَدِيبٌ وأعداءُ الكتاب على خَفْضِ[3]

فتهايج القوم ، وأسرع بعضُهم إلى بعض ؛ وكانت الوقعة ، وأبلى يومئذ المغيرة بن المهلّب ، وصار فى وسط الأزارقة ، فجعلت الرماح تحطّه وترفعُه ، واعتورتْ رأسَه السيوف ، وعليه ساعدُ حديد ، فوضع يده على رأسه ؛ فلم يعمل السيف فيه شيئا ، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرِع ، وكان الذى صَرَعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل ، وكان يقول يومئذ :

أنا ابن خيرِ قومِه هلالِ شيخٌ على دينِ أبى بلالِ

* وذاكَ دينِي آخرَ الليالى *

فقال رجلٌ للمغيرة : كنّا نعجب كيف تُصْرَع ، والآن نعجب كيف تنجو ! وقال المهلّب لبنيه : إنّ سَرْحَكم[4] لغارّ ، ولست آمنهم ، عليه أفوكّلتم به أحدا ؟ قالوا : لا ، فلم يستتمّ الكلام حتى أتاه آتٍ ، فقال : إن صالح بن مخراق قد أغارَ على السَّرْح ، فشقّ على المهلّب ، وقال : كلّ أمرٍ لا أليه بنفسى فهو ضائع ؛ وتذمّر عليهم ؛ فقال له بشر بن المغيرة : أرِحْ نفسك ؛ فإنْ كنتَ إنما تريد مثلك فوالله مايعدِل خيرُنا شِسْعَ[5] نعلك ،

---

(١) ج : « اختلافكم » .

(٢) المحلون : الذين لا يحفظون عهدا ولا يرعون حرمة ؛ فكأنما أحلوا أعراضهم وأموالهم أن تستباح

(٣) الخفض . الدعة ولين العيش .

(٤) السرح : المال السائم فى المرعى من الأنعام ؛ وأراد بالغار الذى يطمع الناس فى أخذه حيث لاراعى له يحفظه .

(٥) الشسع : قبال النعل .

فقال : خذوا عليهم الطريق ، فبادر بشر بن المغيرة ، ومدرك والمفضّل ابنا المهلّب ؛ فسبق بشر إلى الطريق ، فإذا رجل أسود من الأزارقة يَشُلّ السَّرْح (١) ، وهو يقول :

نحن قَمَعناكم بشلٍّ السَّرْحِ وقد نَكَأْنا القَرْحَ بعدَ القَرْحِ (٢)

ولحقه المفضّل ومدرك ، فصاحا برجل من طيئ : اكفِنا الأسود؛ فاعتوره الطائىّ و بشر ابن المغيرة فقتلاه ، وأسَرا رجلًا من الأزارقة من هَمْدان ، واستردّا السَّرْح (٣) .

قال : وكان عياش الكندىّ شجاعا بئيساً (٤) فأبلى يومئذ ؛ فلما مات على فراشه بعد ذلك ، قال المهلّب : لا ذَلَّتْ نفسُ الجبان بعد عَيّاش ! وقال المهلّب : مارأيت تالله كهؤلاء القومِ ، كلما انتقص (٥) منهم يزيد فيهم !

***

ووجّه الحجاج رجلين إلى المهلّب يستحثانه بالقتال : أحدهما من كَلْب ، والآخر من سُلَيم ، فقال المهلّب متمثلا بشعر لأوس بن حَجَر :

ومستعجِبٍ مما يرى من أناتِنا ولَوْ زَبنَتْهُ الحربُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ (٦)

فقال المهلّب ليزيد ابنه : حَرّك القوم ، فحركهم فتهايجُوا ؛ وذلك فى قرية من قرى إصطخْر ؛ فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب وطعنه ، فشكّ فخذه بالسَّرْج ، فقال المهلّب للسلمىّ والكلبىّ : كيف يُقَاتل (٧) قوم هذا طعنهم ! وحمل

(١) فى الكامل : « يشل السرح ، أى يطرده » .

(٢) فى الكامل : « الشل : الطرد . ويقال : نكأت القرحة ، مهموز ، ونكيث العدو غير مهموز؛ من النكاية ، ونكأت القرحة نكأً ؛ قال ابن هرمة :

ولا أَرَاها تزَالُ ظالمةً تحدِثُ لى قَرْحَةً وتَنْكَؤُها

(٣) فى الكامل : « وخلى سبيله » .

(٤) البئيس ، من بؤس الرجل يبؤس ؛ إذا اشتدت شجاعته .

(٥) الكامل : « ينقص » .

(٦) قال المبرد: قوله زبنته ؛ يقول: دفعته . ولم يترمرم: لم يتحرك ؛ يقال : قيل له كذا وكذا فما ترمرم.

(٧) الكامل : « نقاتل » .

يزيد عليهم ؛ وقد جاء الرُّقاد ـ وهو من فرسان المهلّب ـ وهو أحد بنى مالك بن ربيعة ، على فرسٍ له أدْهم ؛ وبه نَيِّف وعشرون جِراحة ، وقد وضع عليها القُطْن ، فلما حمل يزيد ولّى الجمع ، وحَامَ فارسان منهم ؛ فقال يزيد لقيس الْخشنىّ ، مولى العتيك : من لهذين ؟ قال : أنا، فحمل عليهما ، فعطف عليه أحدهما فطعنَه قيس فصرعه ، وحمل عليه الآخر فتعانقا ، فسقطا جميعا إلى الأرض ، فصاح قيس الخشنىّ : اقتلونا جميعا ، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء ، فحجزُوا بينهما ، فإذا مُعانِق قيس امرأة ، فقام قيس مستحيا ، فقال له يزيد : ياأبا بشر ، أمّا أنتَ فبارزتها على أنّها رجل ، فقال : أرأيت لو قُتِلْتَ ، أما كان يقال: قتلته امرأة ! وأبلى يومئذ ابن المنجِب السّدُوسىّ ، فقال غلام له يقال له خِلاج : والله لوددنا أنّا فَضَضْنا عسكرهم ؛ حتى نصيرَ إلى مستقرّهم ،فأستلِب مما هناك جاريتين . فقال له مولاه ابن المنجب : وكيف تمنّيت ويحك اثنتين ! فقال : لأعطيَك إحداهما وآخذ الأخرى ، فقال ابن المنجب :

أخلاجُ إنكَ لَنْ تعانِقَ طَفْلَةً ... شَرِقًا بها الجادىّ كالتّمْثالِ (١)

حَتّى تلاقىَ فى الكَتيبة مُعْلِماً ... عَمْرو القَنا وعبيدة بن هلالِ (٢)

وترى المقعْطَر فى الفوارِس مقدماً ... فى عُصْبَةٍ نَشِطُوا عَلَى الضَّلالِ (٣)

---

(١) قال المبرد : « قوله : طفلة ، يقول : ناعمة ؛ وإذا كسرت الطاء فقلت : طِفلة ؛ فهى الصغيرة . والجادى : الزعفران .

(٢) قال المبرد : « الكتيبة : الجيش ؛ وإنما سمى الجيش كتيبة لانضمام أهله بعضهم إلى بعض ؛ وبهذا سمى الكتاب ؛ومنه قولهم : كتبت البغلة والناقة وكتبت القربة ؛ إذا خرزت ذلك الموضع .والمعلِم: الذى قد شهر نفسه بعلامة ؛ إما بعمامة صبيغ ؛ أو بشهرة ، وإما بغير ذلك . . وعمرو القنا من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم، وعبيدة بن هلال من بنى يشكر بن بكر بن وائل . والذى طعن صاحب المهلب فى فخذه فشكها مع السرج من بنى تميم ، قال : ولا أدرى : أعمرو هو أم غيره ؟ » .

(٣) فى الكامل : « قسطوا مع الضلال » . قال : والمقعطر : من عبد القيس ، وقوله : « قسطوا » ، أى جاروا ؛ يقال : قسط يقسط فهو قاسط؛ إذا جار ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ .

أو إنْ يُعَلِّمكَ المهلّب غَزْوَهُ ... وَتَرَى جبالاً قـد دَنَتْ لِجبالِ

قال : وكان بدر بن الهُذيل من أصحاب المهلّب شجاعا ، وكان لَحَّانة ؛ كان إذا أحسّ بالخوارج ينادى : ياخيلَ الله ارْكَبى ؛ وإليه يشير القائل :

وَإذَا طَلَبْتَ إلَى المهلّب حَاجَةً ... عَرَضَتْ توابعُ دُونَهُ وعَبِيدُ [(١)]

العبـــد كُرْدُوسٌ و بَدرٌ مثلُه ... وعلاجُ باب الأحمر بن شَدِيدُ [(٢)]

قال : وكان بشر بن المغـيرة بن أبى صُفرة أبلى يومئذ بلاء حسنا عُرِف مكانه فيه ؛ وكانت بينه و بين المهلّب جَفْوة ، فقال لبنيه : يابنى عمّ ، إنى قد قصرت عن شَـكاةِ العاتب [(٣)] ؛ وجاوزتُ شَـكَاةَ المستعتِب [(٤)] ؛ حتى كأنى لاموصول ولا محروم ؛ فاجعلوا لى فُرْجَةً أعيش بها ، وهبونى أمرأً رجوتم نصره ؛ أو خفتم لسانه . فرجعوا له ووصلوه ، وكلّموا فيه المهلّب ، فوصلهُ .

وولّى الحجاج كَرْدماً فارس ، ووجّهه إليها والحرب قائمة،فقال رجل من أصحاب المهلّب :

وَلَوْ رَآها كَرْدَمٌ لـكَرْدَمَا ... كَرْدَمَةَ العَيْرِ أحسّ الضَّيْغَمَا [(٥)]

فـكتب المهلّب إلى الحجّاج يسأله أن يتجافَى له عن إصطخر ودَارا بجرد لأرزاق الجند ، ففعل ؛ وقدكان قطرىّ هدم مدينة إصطخر ، لأن أهلها كانوا يكاتِبون المهلّب بأخباره ؛ وأراد مثـل ذلك بمدينة فَسا ، فاشتراها منه آزاذْ مَرْد بن الهِربذ بمائة ألف

---

(١) قال المبرد : توابع ، أراد به الرجال ؛ فجاز فى الشعر ؛ وإنما رده إلى أصله للضرورة ؛ وما كان من النعوت على « فاعل » ، فجمعه « فاعلون » ؛ لئلا يلتبس بجمع فاعلة ؛ التى هى نعت » .

(٢) قال المبرد : كردوس : رجل من الأزد ؛ وكان حاجب المهلب . وقوله : « وعلاج باب الأحمربن شديد » ؛ العرب تسمى العجم الحمراء .

(٣) العاتب : الساخط .

(٤) المستعتب : الطالب الرضا .

(٥) فى الـكامل : « الضيغم الأسد ، والـكردمة : النفور .

درهم ، فلم يهدمها . فواقعه وجهُ المهلّب فهزمه ، فنفاه إلى كِرْمان ، وأتبعه المغيرة ابنه ؛ وقد كان دفع إليه سيفا وجّه به الحجاج إلى المهلّب ، وأقسم عليـه أن يتقلده ، فدفعه إلى المغيرة بعد ماتقلده ، فرجع به المغيرة إليه وقد دَمّاه ، فسرّ المهلّب ، وقال : مايسرُّنى أن يكونَ كنت دفعته إلى غـيرك من ولدى ؛ وقال له : اكفِنِى جباية خراج هاتين الـكورَتَيْن ، وضمّ إليه الرّقاد ، فجعلا يَجْبيان ، ولا يعطيان الجند شيئا ، ففى ذلك يقول رجل من بنى تميم فى كلمة له :

وَلَوْ عَلِم ابنُ يُوسُفَ مانُلاقِى ... من الآفاتِ والـكُرَبِ الشِّدَادِ
لفاضتْ عينُـه جزَعًا علينـــا ... وأصلح ما استطاع مِن الفسَادِ
ألا قلْ لِلأمير جُزِيتَ خَيْرًا ... أرِحْنـــا مِنْ مُغِيرَةَ والرُّقادِ
فمـــا رزق الجنودَ بهم قفيزًا ... وقد سَاسَتْ مطاميرُ الحصَادِ [١]

أى وقع فيها السوس [٢] .

قال : ثم حاربهم المهلّب بالسِّيرَجان [٣] حتى نفـاهم عنها إلى جِيرَفْت [٤] واتبعهم ونزل قريبا منهم .

***

ثم اختلفت كلمة الخوارج ، وكان سبب ذلك أنّ عبيدة بن هلال اتُّهم بامرأة رجل نجّار ، رأوه يدخل مرارا إليها بغير إذن ،فأتوْا قَطَرِيًّا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدِّين بحيثُ علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ؛ فقالوا : إنّا لانقارّ على الفاحشة ، فقال:

---

(١) المطامير : جمع مطمورة ؛ وهى حفرة تحت الأرض يوسم أسفلها ؛ تخبأ فيها الحبوب .
(٢) يقال : ساس الطعام وأساس ؛ إذا وقع فيه السوس .
(٣) السيرجان ، بكسر السين وسكون الياء وفتح الراء : مدينة بين كرمان وفارس .
(٤) جيرفت ، بكسر فسكون ففتح راء وسكون فاء : مدينة بكرمان .

انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيدة ، فأخبره، وقال له : أنا لا أقارّ على الفاحشة ، فقال : بَهَتُونى[1] يا أمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك و بينهم ، فلا تخضعْ خضوع المذنب ، ولا تتطاولْ تطاوُل البرىء ؛ فجمع بينهم ، فتكلموا فقام عبيدة ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ... حتى تلا الآيات [2]، فبكَوا وقاموا إليه فاعتنقوه ؛ وقالوا : استغفِر لنا . ففعل ؛ فقال عبدُ ربِّه الصغير مولَى بنى قيس بن ثعلبة : والله لقد خدعَكم ، فتابعَ عبدَ ربّه منهم ناس كثير ؛ ولم يظهروا ، ولم يجدوا على عبَيدة فى إقامة الحدّ ثَبَتاً[3].

* * *

وكان قَطَرِىّ قد استعملَ رجلا من الدَّهاقين ، فظهرت له أموال كثيرة ، فأتَوْا قَطَرِيًّا ؛ فقالوا : إنّ عمر بن الخطاب لم يكن يُقارّ عماله على مثل هذا ؛ فقال قَطَرِىّ : إنى استعملتُه، وله ضياع وتجارات فأوغَرَ ذلك صدورَهم ؛ و بلغ المهلّبَ ذلك، فقال : اختلافهم أشدُّ عليهم مِنّى، ثم قالوا لقَطَرِىّ : ألا تخرج بنا إلى عَدُوِّنا ؟ فقال : لا ،ثم خرج فقالوا : قد كَذَبَ وارتدّ ، فاتبعوه يوما ، فأحسّ بالشرّ ، ودخل دارا مع جماعة من أصحابه ، فاجتمعوا عليه وصاحوا :اخرج إلينايا دابّة ، فخرج إليهم ، فقال:أرجعتم بَعْدِى كفارا ! قالوا :أو لستَ دابة ! قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [4]؛ولكنك قد كَفَرْت بقولك:« إنا قد رَجَعْنا كفارا » ، فتب إلى الله . فشاور عبيدة فى ذلك، فقال له:إن تبت لم يقبلوا منك ،فقل: إنّى استفهمت فقلت : « أرجعتم بعدى كفارا؟ » ، فقال لهم ذلك ، فقبلوا منه، فرجع إلى منزله.

---

(١) بهتونى : قالوا على مالم أفعل .

(٢) سورة النور ١١ ــ ٢٠

(٣) ثبتا ؛ بالتحريك ؛ أى حجة .

(٤) سورة هود ٦.

[عبد ربّه الصغير]

ومنهم عبد ربِّه الصغير، أحد موالى قيس بن ثعلبة .

لما اختلفت الخوارج على قطرىّ بايعه منهم جمع كثير، وكان قَطَرِىٌّ قد عزم على أن يبايع للمقعطر العبدىّ، ويخلع نفسَه، فجعله أميرالجيش فى الحرب قبل أن يعهدَ إليه بالخلافة، فكرهه القوم وأبوْه، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه: ابغ لنا غير المقعطرَ، فقال لهم قطرىّ: إنى أرى طولَ العهد قد غيّركم، وأنتم بصدد عدوّ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم، واستعدّوا للقاء القوم؛ فقال صالح: إنّ الناس قَبْلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزِل سعيد بن العاصى عنهم ففعل. ويجب على الإمام أن يُعفِىَ الرعية مما كرِهَتْ، فأبى قَطَرِىّ أن يعزل المقعطر، فقال له القوم: فإنا قد خلعناك وبايعنا عبد ربه الصّغير — وكان عبد ربّه هذا مُعلِّمَ كُتّاب، وكان عبد ربِّه الكبير بائع رمان؛ وكلاهما من موالى قيس ابن ثعلبة — فانفصل إلى عبد ربِّه الصغير أكثر من شَطْرِهم؛ وجلُّهم الموالى والعجم؛ وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القرّاء، ثم ندم صالح بن مخراق، وقال لقَطَرِىّ: هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفِنا من المقعطر، وسِرْ بنا إلى عدونا وعدوِّك، فأبى قطرىّ إلا المقعطر، وحمل فتًى من الشُّراة على صالح بن مخراق، فطعنه فأنفذه، وأوجرَه الرمح [1] .

فنشبت الحرب بينهم، فتهايجوا. ثم انحاز كلٌّ قوم إلى صاحبهم؛ فلما كان الغد اجتمعوا، فاقتتلوا، فأجلَتِ الحرب عن ألفَىْ قتيل، فلما كان الغد عاودوا الحرب، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العربَ عن المدينة، فأقام عبد ربه بها، وصار قَطَرِىٌّ خارجاً من

---

(١) قال المبرد: « ومعنى أجره الرمح طعنه وترك الرمح فيه »؛ قال عنترة:

وآخَرَ منهمُ أجررت رُمحى وفى البَجلىِّ معبلةٌ وقيعُ

مدينة جِيرفْت بإزائهم ، فقال له عبيدة بن هلال : يا أمير المؤمنين ، إن أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك ؛ إلّا أن تخندق على نفسك ؛ فخندَق على باب المدينة وجعل يُناوشهم ، وارتحل المهلّب ، وكان منهم على ليلة ، ورسول الحجاج معه يستحثّه ، فقال له : أصلح الله الأمير ! عاجِلْهم قبل أن يصطلحوا ، فقال المهلّب : إنّهم لن يصطلحوا ؛ ولكن دَعْهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلِحون معها ، ثم دسّ رجلا من أصحابه ، فقال : ائت عسكر قَطَرِىّ ، فقل : إنى لم أزل أرى قَطَرِيًّا يصيب الرأى ؛ حتى نزل منزله هذا ، فظهر خطؤه : أيقيم بين المهلّب ، وعبد ربّه يغاديه القتال هذا ، ويرواحه هذا ! فنُمِىَ الكلام إلى قَطرىّ ، فقال : صدق ، تنحّوْا بنا عن هذا الموضع ؛ فإن اتّبعنا المهلّبُ قاتلناه ، وإن أقام على عبد ربّه رأيتم فيه ما تحبون .

فقال له الصلت بن مرة : يا أميرَ المؤمنين ، إن كنت إنما تريد الله فأقْدِم على القوم ؛ وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا ؛ ثم قال :

قُلْ للمحلّين قد قَرّتْ عيونُكُمُ ... بفرقةِ القوم والبغضاء والهرَبِ
كنّا أُناساً على دينٍ ففيّرَنا ... طولُ الجِدالِ وخَلْطُ الجِدِّ باللعبِ
ما كان أغنى رجالاً قلّ جيشُهمُ ... عن الجِدالِ وأغناهم عن الخُطَبِ (١)
إنّى لأهونُكُم فى الأرض مضطرَباً ... مالى سوى فرسى والرُّمح من نَشَبِ

ثم قال : أصبح المهلّب يرجو منّا ما كنا نطمع منه فيه .

وارتحل قَطَرىّ ، وبلغ ذلك المهلّبَ ، فقال لهُرَيم بن أبى طَحْمَة المجاشعىّ : إنى لا آمن أن يكونَ كاذباً بترك موضعه ؛ اذهب فتعرّف الخبَر ؛ فمضى الهُرَيم فى اثنى عشر فارسا ؛ فلم يرَ فى المعسكر إلا عبدا وعِلْجاً مريضين ، فسألهما عن قَطَرِىّ وأصحابه ، فقالا:

---

(١) الكامل : « ضل سعيهم » .

مضوا يرتادون غير هذا المنزل ، فرجع هُزيم إلى المهلّب ، فأخبره ، فارتحل حتى نزلَ خندق قطريّ ، فجعل يقاتل عبدَ ربّه أحيانا بالغداة ، وأحيانا بالعَشيّ ، فقال رجل من سَدُوس، يقال له المعتق ، وكان فارساً :

ليت الحرائرَ بالعراق شَهِدْننَا ورأيننَا بالسّفْح ذى الأجبالِ

فنكحن أهل الجِدّ من فرساننا(١) والضاربين جماجم الأبطالِ

ووجّه المهلّب يزيدَ ابنَه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قَطَرِيّ ، وأنه مقيم على عبد ربّه ، ويسأله أن يوجّه فى أثر قطَرِيّ رجلا جَلْدا . فسرّ بذلك الحجاج سروراً أظهره، ثم كتب إلى المهلّب يستحثّه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب :

أما بعد ؛ فإنّك تتراخَى عن الحرب حتى تأتيَك رُسُلِي فيرجعون بعذْرِك ؛ وذلك أنك تُمسِك حتى تَبرأ الجراح، وتُنْسى القتلى، وتحملَ الكالّ(٢) ثم تلقّاهم ، فتحمل منهم ثقَل ما يحتملون منك من وَحْشة القتل ، وألم الجراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدّ لكان الداء قد حُسِم ، والقَرْن(٣) قد قُصِم ؛ ولعمرى ما أنت والقوم سواء ، لأنّ مِنْ ورائك رجالا ، وأمامك أموالًا ؛ وليس للقوم إلا ما نعهد ، ولا يُدْرَك الوجيفُ(٤) بالدبيب ، ولا الظفر بالتعذير .

فلما ورد عليه الكتاب ، قال لأصحابه : يا قوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة : قطريّ بن الفجاءة ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبد ربّه الصغير فى خُشار من خُشار(٥) الشيطان ، تقتلونهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) الكامل : « أهل الجزء » ؛ والجزء : الغناء والكفاية فى الحرب .
(٢) الكامل : « ويجم الناس » .
(٣) قصم القرن ؛ أى كسر ؛ يكنى بذلك عن هلاك القوم .
(٤) الوجيف : ضرب من السير السريع .
(٥) الخشار : الردىء ، ومالا خير فيه .

فكانوا يتغادَوْن القتال و يتراوحون ، فتصيبهم الجِراح ، ثم يتحاجزون ؛ فكأنما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدثون فيه ؛ يضحك بعضهم إلى بعض ؛ فقال عبيد بن موهب للمهلّب : قد بان عذرُك ، فاكتب فإنى مخبرٌ الأمير .

فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى لم أعط رُسُلَك على قول الحقّ أجرا ، ولم أحتجْ منهم عن المشاهدة إلى تلقِينٍ . ذكَرتَ أنى أجِمّ القومَ ، ولا بُدّ من وقتٍ راحة يستريح فيه الغالب ، ويحتال فيه المغلوب . وذكرتَ أنّ فى الجمام ما ينسى القتلى ، وتبرأ [منه] [1] الجراح ؛ وهيهات أن يُنْسَى ما بيننا و بينهم! تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ [2] ، وقُروح لم تتقرّف [3] ، ونحن والقوم على حالة ، وهم يرقبون مِنّا حالاتٍ ؛ إن طمعوا حاربوا ؛ و إن مَلّوا وقفوا ، و إن يئسوا انصرفوا ؛ وعلينا أن نقاتلَهم إذا قاتلوا ، ونتحرّز إذا وقفوا ، ونطلب إذا هربوا ؛ فإن تركتَنى والرأى ، كان القَرْنُ مقصوما ، والداء بإذن الله محسوما ، و إن أعجلتَنى لم أطِعْك ولم أعصِك ، وجعلتُ وجْهى إلى بابك ، وأعوذ بالله من سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس .

قال : ولما اشتدّ الحصار على عَبْد ربّه ، قال لأصحابه : لا تفتقِروا إلى مَنْ ذهب عنكم من الرجال ؛ فإنّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره ، والمسلم إذا صحّ توحيدُه عَزّ بربّه ؛ وقد أراحكم الله من غِلْظة قطَرِىّ ، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته ، واختلاط عبيدة بن هلال، ووكلَكم إلى بصائركم ؛ فالقَوْا عدوّكم بصبر ونية ؛ وانتقِلوا عن منزلكم هذا ، فمن قُتل منكم قتل شهيدا ، ومن سَلِم من القتل فهو المحروم .

---

(١) من الكامل .
(٢) لم تجن : لم تدفن فى الجنن ؛ وهو القبر
(٣) لم تتقرف : لم تتقشر .

قال : وورد فى ذلك الوقت على المهلّب عبيد بن أبى رَبيعة بن أبى الصَّلْت الثّقَفِيّ من عند الحجاج ، يستحثُّه بالقتال ، ومعه أمينان، فقال للمهلّب : خالفتَ وصية الأمير ، وآثرت المدَافعة والمطاولة. فقال له المهلّب : والله ما تركتُ جهدا .

فلما كان العشِيّ خرجت الأزارقة ، وقد حملوا حريمهم وأموالهم ، وخِفَّ [1] متاعِهم لينتقلوا ؛ فقال المهلّب لأصحابه : الزموا مَصافّكم ، وأشرِعوا [2] رماحكم ، ودعوهم والذّهاب ؛ فقال له عُبَيْدة بن أبى ربيعة : هذا لعمرى أيسر عليك . فغضب وقال للناس: ردُّوهم عن وجههم ، وقال لبنيه : تفرقوا فى الناس ؛ وقال لعُبيدة بن أبى ربيعة : كُنْ مع [يزيد، فخذه بالمحاربةِ أشدّ الأخذ؛ وقال لأحد الأمينَيْن : كن مع] [3] المغيرة، ولا تُرَخّصْ له فى الفُتور .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، حتى عُقرت الخيل [4] ، وصُرِع الفرسان ، وقُتِلت الرّجّالة [5] ؛ وجعلت الخوارج تقاتل عن القَدَح [6] يؤخذ منها ، والسَّوْط والعَلَف والحشيش [7] أشدّ قتال .

وسقط رمحٌ لرجل من مُراد من الخوارج ، فقاتلوا عليه ، حتى كَثُر الجراح والقتل ؛ وذلك مع المغرِبِ ، والمرادىّ يرتجز ، ويقول :

اللّيلُ ليلٌ فيه وَيْلٌ وَيْلُ ... قَدْ سَالَ بالقوم الشّراةِ السَّيْلُ

* إن جاز للأعداء فيناَ قَوْلُ *

---

(١) الخف ، بالكسر الخفيف ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* يزلّ الغلام الخِفّ عن صهواتها *

(٢) أشرع الرمح : رفعه .

(٣) من الكامل .

(٤) الكامل : « الدواب » .

(٥) الكامل : « الرجال » .

(٦) الكامل « على القدح » .

(٧) الكامل : « والعلق الخسيس » .

فلما عظُم الخطب فى ذلك [1] الرمح بعث المهلّب إلى المغيرة : خَلِّ لهم عن الرمح ؛ عليهم لعنة الله ! فخلّوا لهم عنه ، ومضت الخوارج ، فنزلت على أربعة فراسخ من جِيرَفْت ، فدخلها المهلّب ، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع ، وما خلّفوه من دقيق ، وجَمّ عليه هو والثقفىّ والأمينان ، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلوا على ماء وعين [2] لا يشرب منها أحد إلا قوىّ ، يأتى الرجل بالدلو قد شدّها فى طرف رمحه فيستقى بها ، وهناك قرية فيها أهلُها ، فغاداهم القتال ، وضمّ الثقفىّ إلى ابنه يزيد ، وأحدَ الأمينين إلى المغيرة ، فاقتتل القوم إلى نصف النهار .

وقال المهلّب لأبى علقمة العبدىّ ـ وكان شجاعاً ، وكان عابثاً هازلا : امددنا ياأبا علقمة بخيل اليَحْمَد ، وقل لهم : فليعيرُونا جماجمهم ساعة ؛ فقال : أيها الأمير ، إن جماجمهم ليست بفخار فتعار، ولا أعناقُهم كَرَادِىَ [3] فتنبت .

وقال : لحبيب بن أوس : كُرّ على القوم ، فلم يفعل ، وقال :

يقول لىَ الأميرُ بغـــير علمٍ تقَدَّمْ حين جَدَّ به المِرَاسُ
فمالى إن أطعتُك منْ حيـــاةٍ ومالِىَ غيرَ هذا الرأس رَاسُ [4]

وقال لمعْن بن المغيرة بن أبى صُفْرة : احمِلْ ، فقال : لا، إلّا أنْ تزوِّجَنِى ابنتك أمّ مالك، فقال : قد زوّجتُك ، فحمل على الخوارج فكشفهم ، وطعن فيهم ، وقال :

لَيْتَ مَنْ يَشْترى الحياة بمـــالٍ مَلَكَةً كان عنـدنا فَيَرانا [5]

---

(١) الـكامل : « فيه ».

(٢) الـكامل : « على عين لايشرب منها إلا قوى » .

(٣) فى الأصول : « كراث » ، وصوابه من الـكامل ؛ قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعذاق النخل كراد ؛ وهو فارسى عرب » .

(٤) فى الـكامل : نصب « غير » ، لأنه استثناء مقدم .

(٥) رواية الـكامل :

لَيْتَ مَنْ يَشْتَرِى الغداةَ بمال هلـكه اليوم عنـدنا فَيَرَانَا

نصِل الكَرَّ عند ذاكَ بطعْنٍ ... إنّ للموتِ عنـدنا ألوانا

قوله : « مَلْكَةً » ، أى تزويجا ونكاحا .

قال : ثم جال الناس جولةً عند حَمْلةٍ حَمَلَها عليهم الخوارج ، فالتفت المهلّب ، فقال للمغيرة ابنه : مافعل الأمينُ الذى كان معك ؟ قال : قُتل وهرب الثقفىّ ، فقال ليزيد : مافعل عُبيد بن أبى ربيعة؟ قال : لم أره منذ كانت الجوْلة ، فقال الأمينُ الآخر للمغيرة: أنت قتلتَ صاحبى ، فلما كان العشىّ رجع الثقفىّ ، فقال رجل من بنى عامر بن صعصعة :

مازلتَ ياثقَفِىّ تخطُبُ بيننا ... وتُغُمُّنا بوَصيّةِ الحجّاجِ

حتى إذا ماالموتُ أقبل زَاخِراً ... وَسَقَى لَنَا صِرْفاً بغيرِ مِزاجِ

وَلَّيْتَ ياثقفىُّ غَيْر مناظِرٍ ... تنساب بين أَحِزَّةٍ وفجاجِ (١)

ليست مقارعةُ الكُماة لدَى الوغى ... شُرْبَ المُدامة فى إناء زُجاجِ

فقال المهلب للأمين الآخر : ينبغى أن تتوجّه مع ابنى حبيب فى ألف رجل ؛ حتى تبيِّتُوا عسكرهم ، فقال : ماتريد أيها الأمير إلّا أن تقتلَنى كما فعلت بصاحبى ! فضحك المهلّب ، وقال : ذاكَ إليك . ولم يكن للقوم خنادق ، فكان كلٌّ حذِراً من صاحبه ؛ غير أنّ الطعام والعُدّة مع المهلّب ؛ وهو فى زُهاء ثلاثين ألفا ؛ فلما أصبح أشرف على وادٍ ؛ فإذا هو برجلٍ ، معه رمح مكسور مخضوب بالدم ؛ وهو ينشد :

وإنى لَأُغْنِى ذَا الخِمارِ بِلُهنتِى ... إذا راحَ أطواءُ بنىّ الأصاغرُ (٢)

---

(١) قال المبرد . « قوله : « بين أحزة » ، هو جمع حزيز؛ وهو متن ينقاد من الأرض ويغلظ ، والفجاج: الطرق ، واحدها فج .

(٢) قال المبرد : « قوله : « ذو الخمار » ، يعنى فرساً ، وكان ذو الخمار فرس مالك بن نويرة ؛ قال جرير يهجو الفرزدق :

بيربوعٍ فخرتُ وآلِ سَعْدٍ ... فَلاَ مجدِى بَلَغْتَ ولا افتخارى

بيربوعٍ فوارسُ كلَّ يومٍ ... يوارِى شمسَه رَهَجُ الغُبَارِ

عتيْبةُ والأحيمِرُ وابنُ عمرٍو ... وَعَتّابٌ وفارسُ ذى الخِمَارِ

=

أُخَادِعُهُمْ عنه لِيغبُقَ دُونَهُمْ ... وأعْلَمُ غير الظَّنِّ إنى مغاوِرُ
كأنى وأبدانَ السِّلَاح عشيـــة ... يمرّ بنا فى بَطْنِ فَيْحَانَ طائرُ (١)

فقال له : أتميمىٌّ أنت ؟ قال : نعم ، قال : أحنظلىّ ؟ قال : نعم ، قال: أير بوعىّ ؟قال: نعم ، قال : أمِنْ آل نُويرة ؟ قال : نعم ، أنا ولد مالك بن نويرة ؛ قال . قد عرَفتك بالشعر.

قال أبو العباس . وذُو الخمار فرس مالك بن نويرة .

قال : فمـكثوا أياما يتحار بون (٢) ودوابُّهم مسرَجة ، ولا خنادقَ لهم ؛ حتى ضَعُف الفريقان ؛ فلما كان الليلةُ التى قُتِل فى صبيحتها عَبْد رَبِّه ، جمع أصحابه ، فقال : يامعشرَ المهاجرين؛ إن قَطَرِيًّا وعُبيدةَ هربا طلبا للبقاء ، ولا سبيلَ إلى البقاء ، فالقَوْا عَدُوَّكم غداً؛ فإن غلبوكم على الحيـاة ، فلا يغلِبُنّـكم على الموت ؛فتَلَقَّوْا الرِّماح بنحوركم ، والسيوف بوجوهكم ، وهَبُوا أنفسكم لله فى الدنيا ، يهبْها لـكم فى الآخرة .

فلما أصبحوا ، غَادَوا المهلَّب ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، أنسى ما كان قَبْلَه ، وقال رجل من الأزد ، من أصحاب المهلّب : مَنْ يُبايِعُنِى على الموت ؟ فبايعه أر بعون رجلا من الأزْد، فصُرِع بعضهم ، وقتِل بعضهم ، وجرح بعضهم .

= وقوله : « أطواء » يقال : رجل طوى البطن ؛ أى منطو ؛ يخبر أنه كان يؤثر فرسه على ولده فيشبعه وهم جياع ؛ وذلك قوله :

* أخادِعُهمْ عنـــه ليغبُق دُونَهُمْ *

والغبوق : شرب آخر النهـار ؛ وهو شىء تفتخر به العرب ، واللهنه : الطعام الذى يتعلل به قبـل الغداء . وفى الـكامل :

جزانِى دِوائِى ذو الخمار وصَنْعَتِى ... إذا باتَ أطواءً بَنِىَّ الأصاغِرُ

قال المرصفى : دوائى ، بالـكسر : مصدر دوى الفرس مداواة : سقاه اللبن ، وصنعته الفرس : حسن القيام عليه .

(١) أبدان السلاح : جمع بدن ؛ وهو الدرع القصيرة ، وفيحان : موضع أو واد فى بنى أسد .

(٢) الـكامل : « يتحارسون » .

وقال عبدالله بن رزام الحارثى للمهلب: احمِلوا ، فقال المهلّب : أعرابىّ مجنون ـ وكان من أهلِ نجْران ـ فحمل وحْده؛ فاخترق القوم حتى خرج من ناحية [أخرى] (١) ؛ ثم كرّ ثانية ففعل فَعْلَته الأولى ، وتهايج الناس ، فترجَّلت الخوارج ، وعَقَروا دوابَّهم ، فناداهم عمرو القَنَا ـ ولم يترجّل هو ولا أصحابه (٢) ، وهم زهاء أربعمائة ـ فقال : موتوا على ظهور دوابّكم كراماً ، ولا تعقِرُوها ، فقالوا : إنّا إذا كُنّا على الدواب ذكرنا الفِرار ، [فاقتتلوا] (٣) ونادى المهلّب بأصحابه : الأرضَ الأرضَ ! وقال لبنيه : تفرّقوا فى الناس ليروْا وجوهكم ، ونادت الخوارج : ألا إنّ العيال لمنْ غَلَب ؛ فصبرَ بنو المهلّب؛ (٤)وقاتل يزيد بين يدى أبيه قتالا شديدا (٤)، أبْلَى فيه ، فقال له أبوه : يابنىّ ، إنى أرى موطناً لاينجُو فيه إلا مَنْ صَبَرَ ؛ وما مرّ بى يوم مثلُ هذا منذ مارستُ الحروب .

وكسرت الخوارجُ أجفان سيوفها ، وتجاوَلُوا ، فأجلت جَوْلتهُم عن عبد ربّه مقتولا . فهرب عمرو القنا وأصحابُه ، واستأمن قوم ، وأجْلَت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور ، وأمرَ المهلّب أن يُدفَع كلُّ جريح إلى عشيرته ، وظفِرَ بعسكرهم ؛ فحوى مافيه ، ثم انصرف إلى جِيرَفْت ، فقال : الحمد لله الذى رَدّنا إلى الخفضِ والدّعة ، فما كان عيشنا ذلك العيش (٥) .

ثم نظر المهلّب إلى قوم فى عسكرِه ولم يعرفْهم ، فقال : ماأشد عادة السلاح ! ناولْنى درْعى ، فلبِسها، ثم قال : خذوا هؤلاء ؛ فلما صيَّرهم إليه ، قال : ما أنتم ! قالوا : جئنا لنطلب غِرّتك للفتك (٦) بك ، فأمر بهم فقتلوا .

---

(١) من الكامل .
(٢) الكامل : « هو وأصحابه » .
(٣) من الكامل .
(٤ـ٤) الكامل : « وصبر يزيد بين يدى أبيه ، وقاتل قتالا شديدا » .
(٥) الكامل : « فما كان عيشنا بعيش » .
(٦) الكامل : « لنفتك بك » .

[طُرَف من أخبار المهلب]

ووجه كعب بن مَعدان الأشقرىّ [١] ومرة بن بليد الأزدىّ، فوردا على الحجاج؛ فلما طلعا عليه، تقدم كعب فأنشده [٢] :

* ياحَفْصُ إنّى عَدانِى عنكُم السّفر [٣] *

فقال الحجاج : أشاعر أم خطيب؟قال : شاعر ؛ فأنشده القصيدة؛ فأقبل عليه الحجاج، وقال : خبِّرنى عن بنى المهلّب ، قال : المغيرة سيدُهم وفارسهم ؛ وكفى بيزيد فارسا شجاعا !

---

(١) الأشقرى : منسوب إلى الأشقر ؛ بطن فى الأزد

(٢) قصيدة طويلة ؛ يذكر فيها يوم رامهرمز وأيام سابور وجيرفت ، أوردها الطبرى فى تاريخه ٧ : ٢٧٠ — ٢٧٣

(٣) وبقيته :

* وقد أرقت فآذى عينىَ السّهرُ *

وبعده :

عُلِّقتَ يا كعبُ بعدَ الشَّيْبِ غانيةً ... والشيبُ فيه عن الأهواز مُزْدَجرُ

أمُمْسِكٌ أنت عَنْهَا بالّذِى عَهِدَتْ ... أم حَبْلُهَا إذْ نأتْكَ اليوم منبترُ

عُلِّقْتَ خَوْداً بأعْلَى الطَّفِ مَنْزِلُها ... فى غرفةٍ دونها الأبواب والحجَرُ

دُرْماً مَنَا كِبُهَا رَيَّا مآ كِمُها ... تكاد إذ نَهَضَتْ للمشى تَنْبَتِرُ

وَقَدْ تَرَكْتُ بِشَطِّ الزابِيَيْنِ لَهَا ... داراً بها يَسْعَدُ البادون والحَضَرُ

واخترْتُ داراً بِهَا حَىٌّ أُسَرُّ بِهِمْ ... ما زال فيهمْ لمن تَخْتارُهُمْ خِيَرُ

لمانبتْ بى بلادى سِرْتُ مُنْتَجِعاً ... وطالب الخيْرِ مرتادٌ وَمُنتَظِرُ

أبا سعيدٍ فإنى جئت مُنْتَجِعاً ... أرجو نوالكَ لمّا مَسّنِى الضّرَرُ

لولا المهلّبُ ما زرْنا بلادَهُمُ ... ما دامَتِ الأرض فيها الماء والشّجَرُ

فما من النّاسِ من حَىّ عَلِمتهُمُ ... إلّا يرى فيهمُ من سَيْبِكُمْ أثَرُ

وجوادُهم وسَخيُّهم قَبيصة ، ولا يستحِي الشجاعُ أنْ يفرّ من مُدْرِك ، وعبدُ الملك سمّ ناقع ، وحَبيب مُوت ذُعاف ، ومحمد ليث غاب ؛ وكفاك بالفضل نَجْدة ! فقال له : فكيف خلّفت جماعة الناس ؟ قال : خلفتهم بخير ؛ قد أدركوا ماأمّلوا ، وأمِنوا ماخافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال : كانوا حُماة السَّرْح فإذا أليلوا ففُرسان البيات ، قال : فأيّهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحَلْقة المفرَغة ، لا يُدرَى [أين][1] طرفاها، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنا إذا أخذْنا عفوْنا وإذا أخذوا يئسنا منهم ؛ وإذا اجتهدنا واجتهدوا طمِعنا فيهم . قال الحجاج : إنّ العاقبة للمتقين ، فكيف أفلتَكم قَطَرِىّ ؟ قال : [2] كدناه وظنّ أن قد كادنا ، بأن صِرْنا منه إلى التى نحب [2] . قال : فهلا اتبعتموه ؟ قال: كان حربُ الحاضر آثر عندنا من اتباع الفَلّ [3] قال : فكيف كان المهلّب لكم وكنتم له؟ قال : كانَ لنا منه شفقةُ الوالد ، وله منّا برّ الولد ، قال : فكيف كان اغتباطُ الناس به ؟ قال : نشأ [4] فيهم الأمن ، وشَمِلهم النَّفَل [5] ، قال : أ كنت أعددت [لى][6] هذا الجواب ؟ قال : لايعلم الغيب إلا الله ، قال : هكذا والله تكون الرجال ! المهلّب كان أعلمَ بذلك حيث بعثَك .

هذه رواية أبى العباس .

***

وروى أبو الفرج فى الأغانىّ [7] ؛ أنّ كعبا لما أوفده المهلب إلى الحجاج أنشده قصيدته التى أولها :

---

(١) من الكامل .

(٢–٢) الكامل : « كدناه ببعض ما كادنا به ، فصرنا منه إلى الذى نحب » .

(٣) الكامل : « كان الحد عندنا آثر من الفل »

(٤) الكامل : « فشا »

(٥) النفل : المغنية .

(٦) من الكامل

(٧) الأغانى الجزء الرابع عشر ٢٨٤ – ٢٨٥ (طبعة الدار) .

يا حَفْصُ إنى عَدَانى عَنْكُمُ السَفَرُ ... وقد سهرتُ وآذَى عينىَ السَّهَرُ [١]

يذكر فيها حروبَ المهلّب مع الخوارج ، ويصف وقائعه فيهم فى بلد ؛ وهى طويلة، ومن جملتها [٢] :

كنا نهوّن قبل اليوم شأنَهمُ ... حتى تفاقم أمر كان يُحتقَرُ [٣]

لمّا وَهَنّا وَقَدْ حَلُّوا بساحَتِنا ... واستنفَر الناسُ تاراتٍ فما نفَرُوا [٤]

نَادَى امرؤٌ لا خلافٌ فى عشيرتِه ... عَنْه ، وَلَيْسَ بِهِ عن مثله قِصَرُ

خبَّوا كمينَهُمُ بالسَّفْح إذْ نزلوا ... بكازَرُون فما عَزُّوا ولا نَصَرُوا [٥]

باتَتْ كتائِبنا تَرْدِى مُسوَّمَةً ... حَوْلَ المهلّب حتى نوّر القمرُ [٦]

هُنَاكَ وَلَّوْا خَزَايا بَعْدَ ماهُزِمُوا ... وحال دونهمُ الأنهار والُجدُرُ

تأبى علينا حزازاتُ النُّفوس فما ... نُبقى عَلَيْهِمْ ولا يُبْقُونَ إن قَدَرُوا

فضحك الحجاج ، وقال : إنكَ لمنصِف يا كعب ، ثم قال له : كيف كانتْ حالكم مع عدوّكم ؟ قال : كنّا إذا لقِيناهم بعفوِنا وعَفْوهم يئسنا [٧] منهم ، وإذا لقيناهم بجِدّنا وجِدّهم [٨] طمِعْنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلّب ؟ قال : حماةَ الحريم نهارا ، وفُرسان الليل تيقظا [٩] ؛ قال : فأين السّماع من العيان ؟ قال : السماع دون العيان، قال :

---

(١) عداه عن الأمر : صرفه عنه

(٢) قال أبو الفرج بعد أن أورد أبياتا منها : « وهى قصيدة طويلة ؛ قد ذكرها الرواة فى الخبر ؛ فتركت ذكرها لطولها ؛ يقول فيها . . . » وأورد الأبيات .

(٣) فى الأغانى قبل هذا البيت :

فما يجاوز باب الجسر من أحدٍ ... قد عَضّتِ الحربُ أهل المِصر فانجحروا

(٤) استنفر الناس : استنجدهم .

(٥) فى الطبرى : « عبوا جنودهم » .

(٦) الكتيبة : جماعة الخيل ، وتردى : تضرب الأرض بحوافرها .

(٧) الأغانى : « فعفوهم تأنيس لهم » .

(٨) الأغانى : « بجهدنا وجهدهم » .

(٩) الأغانى : « أيقاظا » .

صفهم لى رجلا رجلا. قال: المغيرة فارسهم وسيّدهم، نار ذاكية، وصَعْدَة[1] عالية. وكفى بيزيدَ فارسا شجاعا! ليثُ غاب، وبحرٌ جَمّ العُباب. وجوادهم قَبيصة، ليث المَغار، وحامى الذِّمار. ولا يستحى الشجاع أن يفِرّ من مُدرِك؛ وكيف لا يفرّ من مدرك، وكيف لا يفرّ من الموت الحاضر، والأسد الخادِر[2]! وعبد الملك سَمّ ناقع، وسيف قاطع. وحبيب الموت الذّعاف[3]، طود شامخ، وبحر باذخ[4]. وأبو عيينة البطل الهمام، والسيفُ الحسام، وكفاك بالفضل نَجْدة، ليثٌ هَدّار وبحر مَوّار[5]! ومحمد ليث غاب، وحُسام ضِراب. قال: فأيّهم أفضل؟ قال: هم كالحلْقة المفرَغة لا يعرف طرفاها[6] قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسنِ حال، أرضاهم العدلُ، وأغناهم النَّفَل قال: فكيف رضاهم بالمهلّب؟ قال: أحسن رضا، لا يعدمون[7] منه إشفاق الوالد، ولا يعدم منهم برّ الوالد[7]. وذكر تمام الحديث.

وقال: إن الحجاج أمر له بعشرين ألف درهم، وحمله على فَرَس، وأوفده على عبدالملك؛ فأمر له بعشرين ألفا أخرى.

قال أبو الفرج: وكعب[8] الأشقرىّ من شعراء المهلّب ومادحيه؛ وهو شاعر مجيد. قال عبد الملك بن مروان للشعراء[9]: تُشبّهونني مرةً بالأسد، ومرة بالبازى، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى للمهلّب وولده:

بَرَاكَ اللهُ حِينَ بَرَاكَ بَحْراً ... وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَاراً غِزَارا

---

(١) ذكت النار: اشتد لهبها، والصعدة: القناة المستوية تنبت كذلك.

(٢) أسد خادر: مقيم فى عرينه داخل فى الخدر.

(٣) الذعاف: السريع

(٤) الباذخ: العالى.

(٥) موار: مضطرب.

(٦) فى الأصول: «طرفها»، وما أثبته من الأغانى.

(٧-٧) الأغانى: «وكيف لا يكونون كذلك؛ وهم لا يعدمون رضا الوالد، ولا يعدم منهم بر الولد»

(٨) الأغانى ١٤: ٢٨٦ - ٢٨٧

(٩) الأغانى: «كان يقول للشعراء».

بَنُوكَ السابِقونَ إلى المعالى ... إذا ماأعظمَ النَّاسُ الخِطَارا (١)

كأنهمُ نجومٌ حَوْلَ بَدْرٍ ... تكَمَّل إذ تكَمَّل فاستدارا (٢)

مُلوكٌ ينزِلُون بكُلِّ ثَغرٍ ... إذا ما الهامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طارا (٣)

رِزَانٌ فى الخطوب ترَى عليهم ... من الشَّيْخ الشمائل والنِّجَارا (٤)

نجومٌ يُهتدَى بهمُ إذا ما ... أخُو الغَمَرات فى الظلماء حارا (٥)

قال أبو الفرج : وهذا الشعر من قصيدة لكعب ، يمدح بها المهلّب ؛ ويذكر الخوارج (٦) ، ومنها :

سَلُوا أهلَ الأباطحِ مِنْ قُرَيْشٍ ... عن المجدِ المؤثَّلِ أيْنَ صَارَا (٧)

---

(١) الخطار : المراهنة .

(٢) الأغانى :

* درارىٌّ تكَمَّل فاستدارا *

(٣) الهام : الرؤس .

(٤) فى الأغانى : « رزان فى الأمور » ، والنجار : الحسب والأصل

(٥) فى الأغانى : « أخو الظلماء » .

(٦) ذكر صاحب الأغانى ثلاثة أبيات من أولها ؛ مما فيه غناء :

طَرِبْتُ وَهَاجَ لى ذَاكَ ادِّكَارَا ... بكَشٍّ وقد أطَلْتُ به الحِصَارَا

وكنتُ ألَذُّ بعضَ العَيْشِ حتَّى ... كبرتُ وصار لى هَمِّى شعارَا

رأيتُ الغانياتِ كَرِهْن وَصْلِى ... وأبْدَيْنَ الصَّريمة لى جهارَا

(٧) الأغانى ١٤ : ٢٩٥ ؛ وذكر قبلها :

غرِضْنَ بمجْلِسِى وكرِهْنَ وَصْلى ... أوانَ كُسِيتُ من شَمَطٍ عِذارَا

زَرَيْنَ عَلَىَّ حِينَ بَدَا مَشيبى ... وَصَارَتْ ساحَتِى للهمِّ دارَا

أتانى والحديث له نَماءٌ ... مقالة جائرٍ أحْفَى وجارَا

وذكر بعده :

وَمَنْ يحمى الثُّغور إذا استحرَّتْ ... حروبٌ لا يَنون لها غرارَا

لَقَوْمُ الأَزْدِ فى الغمرات أمضَى ... وأوفى ذمَّةً وأعـــزّ جارا [(١)]

هُمُ قادُوا الجيـــاد عَلَى وجاها ... من الأمصار يقذفن المِهارا [(٢)]

إلَى كِرْمَانَ يَحْمِلْنَ الْمَنَايَا ... بكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُوقِدْنَ نَارَا [(٣)]

شَوازبَ ما أصبنا الثـــار حتى ... رددناها مكلّمةً مرارا [(٤)]

غَدَاةَ تركْنَ مَصْرَعَ عَبْدِ رَبٍّ ... نَثَرْنَ عليه مِنْ رَهجٍ غُبارا [(٥)]

ويوم الزَّحْفِ بالأهوازِ ظلْنَا ... نُرَوِّى منهمُ الأَسَلَ الحِرَارا [(٦)]

فقرّت أعينٌ كانت حَزِيناً ... قليلًا نومُهـــا إلا غِرَارا [(٧)]

ولولا الشيخُ بالمِصْرَيْنِ يَنْفِي ... عدوهمُ لقـــد نزلُوا الدِّيارا

ولـكنْ قارعَ الأبطال حتّى ... أصابوا الأمْنَ واحْتَلّوا القرَارا [(٨)]

---

(١) الأغانى : « لقومى الأزد » .

(٢) الوجى : الحفى ، وذكر بعده :

بكلِّ مَفازةٍ وبكلِّ سَهْبٍ ... بَسَابِسَ لا يَرَوْنَ لَهَا مَنَارَا

(٣) الثنية : الطريق فى الجبل .

(٤) مكلمة : مجروحة ، وفى الأغانى : « لم يصبن » ، وبعده :

وَيَشْجُرْنَ الْعَوالى السُّمرَ حَتّى ... تَرَى فيهـا عن الأَسَلِ ازورارا

(٥) هو عبد ربه الصغير أمير الأزارقه المذكور قبلا ؛ بعد قطرى . وفى الأغانى : «يثرن عليهمن رهج عصاراً » ، والعصار هو الغبار .

(٦) الحرار : جمع حران ؛ وهو العطشان .

(٧) حزين ؛ فعيل،مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، وفى الأغانى : « حديثا » ، وبعده فى الأغانى :

صنائعنـــا السّوابغُ والمذاكِى ... ومَنْ بالمِصْرِ يحتلبُ العِشارا

فهنّ يُبِحْنَ كلّ حمًى عزيزٍ ... ويحمينَ الحقائق والذّمارا

طُوالاتُ المتُونِ يُصَنّ إلّا ... إذا سارَ المهلّبُ حيث سارا

(٨) الأغانى :

* أصابُوا الأمْنَ واجْتنبُوا الفِرَارَا *

إذا وَهَنُوا وحَلّ بهمْ عَظِيمٌ ... يَدُقّ العظمَ كانَ لهم جُبَارا
وَمُبْهَمةٍ يحِيدُ الناسُ عنها ... تشبّ الموت شدّ لها إزارا
شهابٌ تنجلى الظلماء عنه ... يَرَى فى كلّ مُظْلِمَةٍ منارا [1]
براكَ الله حينَ بَرَاكَ بَحْراً ... وفجّر منك أنهاراً غِزارا

الأبيات المتقدمة .

***

قال أبو الفرج : وحدّثنى [2] محمد بن خلف وكيع ، بإسناد ذكره ؛ أنّ الحجاجَ لما كتب إلى المهلّب يأمره بمناجزة الخوارج حينئذ، ويستبطئه ، ويضعّفه ويعجّزه من تأخيره أمرَهم، ومطاولتِه لهم ، قال المهلّب لرسوله: قل له : إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه ، لا لمن يعرفه ؛ فإن كنتَ نصبتَنى لحرب هؤلاء القوم ـ على أن أدبّرها كما أرى ، فإذا أمكنتْنِى فرصة انتهزتُها ، وإن لم تمكّنّى توقفت ـ فأنا أدبّر ذلك بما يصلحه ؛ وإن أردت أن أعملَ برأيك وأنا حاضر وأنت غائب ـ فإن كانَ صوابا فلك ، وإن كان خطأ فعلىّ ـ فابعثْ مَنْ رأيتَ مكانى . وكتب من فَوْرِه بذلك إلى عبد الملك ؛ فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج : لا تعارض المهلّب فيما يراه ، ولا تُعجله ودَعْه يدبّر أمره .

قال : وقام كعب الأشقرىّ إلى المهلّب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج :

إنّ ابنَ يوسفَ غرّه من أمرِكُمْ ... خَفْضُ المُقام بجانب الأمصارِ [3]
لو شاهدَ الصّفّين حيث تلاقيَا ... ضاقتْ عليه رَحِيبَةُ الأقطار
من أرض سابورِ الجنود وخيلُنا ... مثلُ القداح بَرَيْتَهَا بشفارِ

---

(١) الأغانى : « فى كل مظلمة » .
(٢) الأغانى ١٤ : ٢٩٠ ، ٢٩٢
(٣) الأغانى : « غره من غزوكم » .

من كلّ صنديدٍ يُرى بلَبانهِ وَقْعُ الظُّباة مع القَنا الخطَّار (١)
لَرَأى مُعاوَدَة الرِّبَاعِ غَنِيمةً أزمانَ كان محالفَ الإقتـار
فدع الحروب لشِيبها وشبأبهـا وعليك كلّ غريرةٍ مِعْطار (٢)

فبلغت أبياتُه الحجاج ، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كعبٍ الأشقريّ إليه ، فأعلم [المهلب] (٣) كعبا بذلك وأوفده إلى عبد الملك من ليلته، وكتب إليه يستوهبُه منه ؛ فقدم كعب على عبد الملك برسالة المهلّب ، فاستنطقه فأعجبه ، وأوفدَه إلى الحجاج ؛ وكتب إليه يُقسم عليه أن يصفحَ ، و يعفو عمّا بلغه من شعره ؛ فلما دخلَ قال : إيه يا كعب !

* لَرأى مُعاوَدَة الرِّبَاع غنيمة *

فقال : أيها الأمير ، والله لودِدْتُ فى بعض ما شاهدتُه من تلك الحروب ، وما أوردَناه المهلّب (٤) من خطرها أنْ أنجُوَ منها ، وأ كون حجاما أو حائـكا ، قال : أولى لك ! لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما تقول؛ الحقْ بصاحبك ؛ وردّه إلى المهلب (٥) .

* * *

قال أبو العباس : وكان (٦) كتاب المهلّب إلى الحجاج ، الذى بشره فيـه بالظّفر والنصر :

[بسم الله الرحمن الرحيم] (٧) ؛ الحمد لله الـكافى بالإسلام فَقْدَ ماسواه ، الحاكم بألّا ينقطع المزيد من فضله ؛ حتى ينقطعَ الشكر من عباده ؛ أما بعد:

---

(١) اللبان هنا : الصدر ، والظباة : جمع ظبة ؛ وهى حد السيف . ورمح خطار : ذوا هتزاز شديد .
(٢) امرأة معطار : اعتادت أن تتعهد نفسها بالطيب وتـكثر منه .
(٣) من الأغانى .
(٤) الأغانى : « يوردناه » .
(٥) الأغانى : «من وقته» .
(٦) الـكامل ٦٩٥ (طبع أوربا) .
(٧) من الـكامل .

فقد كان من أمرنا ما قد بلَغك ، وكُنّا نحنُ وعدوُّنا على حالَيْن مختلفَيْن ، يسرّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا ، ويسوءهم مِنّا أكثرُ مما يسرّنا ، على اشتداد شوكتهم ؛ فقد كان عَلا أمرُهم حتى ارتاعت له الفتاة ، ونُوِّم به الرّضيع ، فانتهزتُ الفرصة منهم فى وقت إمكانها ؛ وأدنَيتُ السّواد من (١) السواد ، حتى تعارفت الوجوه ؛ فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجلَه ، فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

فكتب إليه الحجاج :

أمّا بعد ؛ فقد فعل الله بالمسلمين خَيْراً ، وأراحهم من بأسِ الجلاد ، وثِقَلِ الجهاد ؛ ولقد كنت أعلم بما قِبَلك ؛ فالحمدُ لله رب العالمين ؛ فإذا وَرَد عليك كتابى فاقْسِم فى المجاهدين فيئهم ، وَنَفِّل (٢) الناس على قدر بلائهم ؛ وفَضّل مَنْ رأيت تفضيلَه ؛ وإن كانت بقيَت من القوم بقية فخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمِلْ على كِرمان مَنْ رأيت ، وَولّ الخيل شَهْماً من ولدك ، ولا ترخّص لأحدٍ فى اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم علىّ ، وعجل القدوم إن شاء الله .

فولّى المهلّب يزيدَ ابنه كِرْمان ، وقال له : يا بنىّ ، إنّك اليومَ لست كما كنت ؛ إنما لك من كِرْمان ما فَضَل عن الحجّاج ؛ ولن تحتمل إلا عَلَى ما احتمل عليه أبوك ، فأحْسِنْ إلى مَنْ تبعك ؛ وإن أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجِّه إلىّ ، وتَفضّل على قومك .

---

(١) أى قربت مابين الفريقين .

(٢) قال المبرد : قوله : « نفل » أى أقسم بينهم ؛ والنفل : العطية التى تفضل ؛ كذا كان الأصل ؛ وإنما تفضل الله عز وجل بالغنائم على عباده ؛ قال لبيد :

إنّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللّهِ رَيْثى وَعَجَلْ

وقال جل جلاله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عنِ الأَنْفَالِ ﴾ ، ويقال: نَفَّلْتُكَ كذا وكذا ؛ أى أعطيتك، ثم صار النفل لازما واجبا .

ثم قدم المهلّب على الحجاج ، فأجلَسه إلى جانبه ، وأظهر برّه وإكرامه ؛ وقال : يا أهل العراق ، أنتم عَبيدُ قِنٍّ للمهلّب؛ ثم قال : أنت والله كما قال لقيط [(١)] :

فَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لله دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بأمرِ الحربِ مُضْطَلِعا [(٢)]

لا يطعَم النومَ إلا ريث يبعثُـــه ... هَمٌّ يكاد حشاه يَقْصِمُ الضِّلَعا [(٣)]

لا مترَفاً إنْ رخاء العيش ساعَدَهُ ... ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعَا [(٤)]

ما زال يحلُب هـــذا الدّهرَ أشْطُرَه ... يكون متّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا [(٥)]

حتّى استمرّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُه ... مستحكِمَ الرَّأْيِ لا قَحْماً وَلَا ضَرَعاً [(٦)]

وروى أنه قام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير ! والله لـكأنى أسمعُه وهو يقول لأصحابه: المهلّب ؛ والله كما قال لقيط الإيادىّ ، ثم أنشد هــذا الشعر ، فسُرّ الحجاج حتى امتلأ سروراً ؛ فقال المهلّب : أما والله ما كُنّا أشدّ من عدوّنا ولا أحَدّ ، ولـكن دَمَغَ الحقّ الباطل ، وقهرتِ الجماعة الفتنة ، والعاقبة للمتقين [(٧)] ؛ وكان ما كرِهْنَاه من المطاولة خَيْراً لنا مما أحببناه من المعاجلة .

---

(١) هو لقيط بن يعمر الإيادى ؛ من قصيدة طويلة ؛ ذكرها ابن الشجرى فى مختاراته ١ ـ ٦ ؛ أنذر فيها قومه من إياد بغزو كسرى ؛ وكان كاتبا فى ديوانه ؛ وأولها :

يادار عَمْرةَ من محتلِّها الجرَعا ... هاجتْ لى الهمّ والأحزانَ والوجَعَا

تامَتْ فؤادِى بذات الجزع خرعبةٌ ... مَرّتْ تريدُ بذات العذبةِ البَيَعا

(٢) رحب الذراع: يريد واسع الصدر متباعد ما بين المنـكبين، كناية عن قوته وشدة مراسه، ومضطلعا: أى يحمل الأمر ويقوم عليه .

(٣) ريث يبعثه ، أى مقدار ما يبعثه .

(٤) المترف : المتنعم السادر فى ملاذه .

(٥) يحلب أشطره ؛ أى أنه اختبر ضروب الدهر من خير شر وحلو ومر .

(٦) المريرة من الحبال : ما طال واشتد فتله ؛ واستمرت استحكمت والشزر : الفتل إلى فوق؛ خلاف اليسر ؛ وهو الفتل إلى أيسر ؛ والأول أحكم الفتلين ؛ ضرب ذلك مثلا لاستجماع قوته . والضرع: الصغير الضعيف ، والقحم : آخرسن الشيخ .

(٧) الـكامل : « للتقوى » .

فقال الحجاج : صدقت ، اذْكر لى القوم الّذين أبْلَوْا ، وصف لى بلاءهم ؛ [فأمر الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج ، فقال لهم المهلب : ما ذَخَر الله لكم خيرٌ لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله] [(١)] ؛ فذكرهم [(٢)] المهلّب على مراتبهم فى البلاء ، وتفاضلهم فى الغَنَاء ، وقدّم بنيه : المغيرة ، ويزيد ، ومدركا ، وحبيبا ، وقَبيصة ، والمفضّل ، وعبد الملك ، ومحمدا ، وقال : والله لو واحد يقدُمهم فى البلاء لقدَّمتهُ عليهم ؛ ولولا أنْ أظلِمهم لأخرّتُهم . فقال الحجاج : صدقت ؛ وما أنت أعلم بهم منى ؛ وإن حضرتَ وغبتُ ؛ إنهم لسيوفٌ من سيوف الله . ثم ذكر مَعن بن المغيرة والرّقاد وأشباههما .

فقال الحجاج : مَن الرُّقاد [(٣)] ؟ فدخل رجل طويل أجْنأ [(٤)] . فقال المهلب : هذا فارس العرب ، فقال الرُّقاد للحجاج : أيها الأمير ؛ إنى كنت أقاتِل مَعَ غير المهلب ؛ فكنت كبعض الناس ، فلما صرتُ مع مَنْ يُلزِمنى الصبر ، ويجعلنى أسوةَ نفسه وولدِه ؛ ويجازينى على البلاء ؛ صرت أنا وأصحابى فُرسانا .

فأمر الحجّاج بتفضيل قوم على قوم ؛ على قدر بلائهم ؛ وزاد ولد المهلب ألفيْن ألفيْن ، وفعل بالرُّقاد وبجماعة شبيها بذلك .

وقال يزيد بن حَنباء من الأزارقة :

دَعِى اللَّوْمَ إنَّ العيشَ ليس بدائِم ... ولا تعجلِى باللّوْم ياأمَّ عاصِم

فإنْ عَجِلتْ منكِ الملامةُ فاسمعِى ... مقالةَ مَعْنِىّ بحقِّكِ عالِمِ

ولا تعذُلينا فى الهَدِيّة إنما ... تكونُ الهدايا من فُضُولِ المغانم

---

(١) من الكامل .

(٢) الكامل : « ثم ذكرهم » .

(٣) الكامل : « أين الرقاد » .

(٤) أجنأ ، من الجنأ ، بالتحريك ؛ وهو ميل فى الظهر .

وليس بمُهْدٍ مَنْ يكون نهارُه ... جِلاداً ، ويُمسى ليلَه غيرَ نائمِ (١)
يُرِيد ثوابَ الله يوما بطعْنَةٍ ... غَمُوسٍ كشِدْقِ العنبرىّ بن سالِمِ (٢)
أبيتُ وَسِرْ بالِى دِلَاصٌ حَصِينَةٌ ... وَمِغْفَرُها ، والسَّيْفُ فوقَ الحيازِمِ (٣)
حلفتُ بربِّ الواقفين عَشِيَّةً ... لدى عَرَفَاتٍ حَلْفَةً غيرَ آثِمِ
لقد كانَ فى القوم الذين لقيتُهُمْ ... بِسابُورَ شغلٌ عن بُزُوزِ اللَّطَائِمِ (٤)
تَوَقَّدُ فى أيديهُمُ زاعِبيَّةٌ ... وَمُرْهَفَةٌ تَفْرِى شُؤون الجماجِمِ (٥)

وقال المغيرة الحنظلىّ من أصحاب المهلّب :

إنى امرؤٌ كَفَّنى رَبِّى وأكرَمِنى ... عن الأمور التى فى غِبِّها وَخَمُ (٦)
وإنمـا أنا إنسانٌ أعيشُ كما ... عاشتْ رجالٌ وعاشت قَبلها أُمَمُ
ما عاقَنِى عَنْ قُفُولِ الجُنْدِ إذ قَفَلُوا ... عِىٌّ بمـا صَنَعُوا حولِى وَلَا صَمَمُ (٧)
وَلَوْ أردتُ قُفُولًا ما تجهَّمَنِى ... إذنُ الأميرِ ولا الكُتّابُ إذ رَقَمُوا
إنّ المهلّب إن أشْتَقْ لرؤيتِهِ ... أو أمتدحْهُ فإنّ الناس قد عَلِمُوا :
أنّهُ الأريب الذى تُرْجَى نوافلُه ... والمستنيرُ الّذِى تُجْلَى به الظُّلَمُ
والقائل الفاعلُ الميمونُ طائرِه ... أبو سعيدٍ إذا ماعُدَّتِ النِّعَمُ
أزمان كَرْمان إذ غصّ الحديدُ بهم ... وإذ تَمَنَّى رجالٌ أنّهُمْ هُزِموا

---

(١) قال المبرد : « يريد يمسى هو فى ليله ، ويكون هو فى نهاره ؛ ولكنه جعل الفعل لليل والنهار على السعة ؛ وفى القرآن : ﴿ بل مَكْرُ اللَّيلِ والنهار ﴾ والمعنى : بل مكركم فى الليل والنهار » .

(٢) قال المبرد : قوله غموس ؛ يريد واسعة ، والعنبرى بن سالم رجل منهم ؛ كان يقال له الأشدق .

(٣) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

(٤) اللطائم ، واحدتها لطيمة ؛ وهى الإبل التى تحمل البز والعطر .

(٥) زاعبية ؛ يعنى الرماح . والزاعبية : منسوبة إلى زاعب ؛ وهو رجل من الخزرج كان يعمل الرماح وتفرى : تقد .

(٦) الكامل : « فى رعيها وخم » .

(٧) الكامل : « عِىٌّ بما صنعوا عجز ولابكم » .

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلّب :

أبا سعيدٍ جزَاكَ اللهُ صَالِحَةً   فقدْ كُفِيتَ وَلَمْ تَعْنُفْ على أحَدِ (١)

داويتَ بالحلمِ أهل الجهْل فَانْقَمَعُوا   وكنتَ كالوالدِ الحانى على الوَلَدِ

وقال عبيدة بن هلال الخارجىّ يذكر رجلا من أصحابه :

يَهْوِى فترفعهُ الرِّمَاحُ كأنَّه   شِلْوٌ تَنَشَّبَ فى مخالِبِ ضَارِ (٢)

يَهْوِى صريعاً والرِّماح تَنُوشه   إن الشُّراة قصيرة الأعمار (٣)

***

[شبيب بن يزيد الشيبانىّ]

ومنهم (٤) شبيب بن يزيد الشيبانىّ ؛ وكان فى ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرّح ، أحد الخوارج الصُّفْرِيّة ؛ وكان ناسكا مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وله أصحاب يقرئهم القرآن ، ويفقّههم ويقصّ (٥) عليهم ؛ ويقدَم الكوفة ، فيقيم بها الشهرَ والشهرين . وكان بأرض الموصل والجزيرة ؛ وكان إذا فرَغ من التّحميد والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وآله ، ذكر أبا بكر فأثنى عليه ، وثنّى بعُمَر ، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه ؛ ثم عليا عليه السلام وتحكيمَه الرجالَ فى دين الله ؛ ويتبرأ من عثمان وعلىّ ، ثم

---

(١) لم تعنف ، من العنف ، وهو الشدة .

(٢) الشلو : العضو :

(٣) الكامل « فتهوى صريعاً » .

(٤) نقل المؤلف أخبار شبيب من تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وما بعدها أحيانا بنصه ، وأحيانا مع تصرف واختصار

(٥) فى الطبرى : « فكان قبيصة بن عبدالرحمن حدث أصحابنا أن قصص صالح بن مسرح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ؛ فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ؛ ففعل ؛ وكان قصصه : الحمد لله رب العالمين ، الذى خلق السموات والأرض . . . . » ؛ ثم أورد نص الكتاب ؛ وآخره : « جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » ؛ وقد أورده المؤلف ملخصا .

يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال ، وقال : تيسَّرُوا يا إخوانى للخروج من دَار الفناء إلى دار البقاء ؛ واللّحاق بإخواننا المؤمنين ؛ الذين باعُوا الدنيا بالآخرة ؛ ولا تجزَعُوا من القتل فى الله ، فإنّ القتلَ أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم ؛ مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم ، وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ؛ وإن اشتدّ لذلك جزعُكم ؛ ألا فبيعوا أنفسكم طائعين ؛ وأموالكم تدخلوا الجنة ... وأشباه هذا من الكلام .

وكان فيمن يحضرُه من أهل الكوفة سُوَيد والبَطِين ؛ فقال يوما لأصحابه : ماذا تنتظرون ؟ ما تزيد أئمةُ الجوْر إلا عتوّا وعلوّا ، وتباعدا من الحق ، وجراءةً على الرّبّ ؛ فراسِلوا إخوانكم حتى يأتوكم ؛ وننظر فى أمورنا ما نحن صانعون .وأىّ وقت إن خرجنا نحن خارجون .

فبينا هو كذلك إذ أتاه المحلِّل بن وائل [1] بكتاب من شبيب بن يزيد ؛ وقد كتب إلى صالح :

أما بعد ؛ فقد [أردت الشخوص، وقد] [2] كنتَ دعوتَنى إلى أمرٍ أستجيب [3] لك؛ فإن كان ذلك [4] من شأنك ، فإنّك شيخ المسلمين ، ولم يعدِلْ بك منّا أحد [5] ؛ وإن أردت تأخّر ذلك أعلمنى [6] ؛ فإن الآجال غادية ورائحة ؛ ولا آمنُ أن تخترِمَنى المنية ؛ ولمّا أجاهد الظالمين ؛ [فياله غبنا ! ويا له فضلا !] [2] ؛ جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه [ورضوانه والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين فى دار السلام] [2] . والسلام عليك .

---

(١) ب : « قائد » ؛ وما أثبته عن ا ، ج والطبرى .
(٢) تكملة من تاريخ الطبرى .
(٣) الطبرى : « فاستجبت لك » .
(٤) الطبرى : « فإن كان ذلك اليوم » .
(٥) الطبرى : « ولن نعدل بك منا أحدا » .
(٦) الطبرى : « وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتنى » .

فأجابه صالح بجواب جميل ؛ يقول فيه [١] : إنه لم يمنعنى من الخروج مَعَ ما أنا فيه من الاستعداد إلا انتظارك ؛ فاقْدَم علينا ، ثم اخرج بنا ، فإنك ممّن لا تقضى الأمور دونَه؛ والسلام عليك [١] .

فلما ورد كتابُه على شَبِيب ؛ دعا القرّاء من أصحابه ؛ فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد ابن يزيد ، والمحَلّل بن وائل ، والصقر بن حاتم ، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم [٢] ؛ ثم خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح ؛ وهو بداراتِ [٣] أرض الموصل ؛ فبثّ صالح رسله ، وأوعدهم بالخروج ؛ فى هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين .

فاجتمع بعضُهم إلى بعض ، واجتمعوا عنده تلك الليلة ؛ فحدّث فَرْوَة [٤] بن لَقِيط ؛ قال : إنى لمعهم تلك الليلة عنـد صالح [٥] ؛ وكان رأيى استعراض الناس ؛ لِمَا رأيتُ من المنكر والفساد فى الأرض ، فقمت إليه ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، كيف ترى السِّيرَة فى هؤلاء الظلمة ؛ أنقتلهم قبل الدعاء ، أم ندعوهم قبل القتال ؟ فإنى أخبرُك برأيى فيهم قبل أن تخبرنى بذلك ؛ إنا نخرج على قوم طاغِين ؛ قد تركوا أمر الله ، أو راضين بذلك ، فأرى أن نضعَ السيف ؛ فقال : لا ، بل ندعوهم ؛ ولعمرى لا يجيبُك إلا مَنْ يرى رأيَك ؛ وليقاتلنّك مَنْ يُزْرِى عليك؛ والدعاء أقْطَعُ لحجتهم ، وأبلغ فى الحجّة عليهم لك . فقلت:

(١-١) الكتاب كما فى الطبرى : « أما بعد ؛ فقد كان كتابك وخبرك أبطأ عنى ؛ حتى أهمنى ذلك ؛ ثم إن أمير؛ من أمراء المسلمين نبأنى بنبـأ مخرجك ومقدمك ؛ فنحمد الله على قضاء ربنـا ؛ وقد قدم علىّ رسولك بكتابك ؛ فكل مافيه قد فهمته ، ونحن فى جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارك ، فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى أحببت ، فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ، ولا تقضى دونه الأمور ، والسـلام » .

(٢) فى الطبرى : « وإبراهيم بن حجر أبو الصقير من بنى محلم والفضـل بن عامر من بنى ذهل ابن شيبان » .

(٣) فى حواشى ج : « الدارة : كل أرض واسعة بين جبال ، ومن الرمل مااستدار منه وجمعه دارات ودور » ، وفى الطبرى : « قدم على صالح بدارا » .

(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى فروة بن لقيط » .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى الطبرى : « قال — أى فروة — والله إنى لمع شبيب بالمدائن ، إذ حدثنا عن مخرجهم ، قال : لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج ، فكان رأيى استعراض الناس . . . . » إلى آخر الخبر مع اختلاف فى الرواية .

وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به ؟ وما تقول فى دمائهم وأموالهم ؟ فقال : إن قتلنا وغنمنا فلَنا ، وإن تجاوزْنا وعفونا فوسّع علينا .

ثم قال صالح [1] لأصحابه ليلتَه [2] تلك : اتقوا اللهَ عبادَ الله ، ولا تعجَلوا إلى قِتالِ أحدٍ من الناس ؛ إلّا أن يكونوا [قوما] [3] يريدونكم [وينصبون لكم] [3] ؛ فإنكم إنما خرَجْتُمْ غَضَباً لله حيث انتُهِكَتْ محارمُه ؛ وعُصِى فى الأرْض ، [4] وسُفِكَت الدماء بغيرَ حقّها ، وأخذت الأموال غَصْباً [4] فلا تَعيبُوا على قوم أعمالا ثم تعملونها [5] ؛ [فإن كلّ ما أنتم عاملون أنتم عنه مسئولون ، وإن عظمكم رجالة] [3] ، وهذه دوابّ لمحمد بن مروان فى هذا الرُّستاق [6] ؛ [7] وابدءوا بها فاحملوا عليها راجلَكم ، وتقوّوْا بها على عدوكم [7] .

ففعلوا ذلك ، وتحصّن منهم أهلُ دارا [8] .

وبلغ خبرُهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة ، فاستخفّ بأمرهم ؛ وبعث إليهم عدىّ بن عميرة فى خمسمائة ، وكان صالح فى مائة وعشرة ؛ فقال عدىّ : أصلحِ الله

---

(١) الخبر فى الطبرى عن أبى مخنف أيضا عن رجل من بنى محلم .

(٢) الطبرى : « ليلة خرج » .

(٣) من الطبرى .

(٤ـ٤) الطبرى : « فسفكت الدماء بغير حلها ، وأخذت الأموال بغير حقها » .

(٥) الطبرى : « تعملون بها » .

(٦) الرستاق ـ فيما ذكره حمزة بن الحسن ـ مشتق من « روذه فستا » ، ورُوذه : اسم للسطر والصف والسماط . وفستا : اسم الحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام . قال ياقوت : والذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد » معجم البلدان ١ : ٣٧ .

(٧ـ٧) الطبرى : « فابدءوا بها ، فشدوا عليها ، فاحملوا أرجلكم ، وتقووا بها على عدوكم » .

(٨) الطبرى : « أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار ، وخرج صالح ليلة خرج فى مائة وعشرين ، وقيل : فى مائة وعشرة » .

الأمير ! تبعثُنى إلى رأس الخوارج [منذ عشرين سنة] [١]، ومعه رجالٌ سُمُّوا لِى [كانوا يعازّوننا] [١] ؛ وإنّ الرجل منهم خير من مائة فارس فى خمسمائة ! فقال له : إنى أزيدُك خمسمائة ، فسرْ إليهم فى ألف فارس .

فسار مِنْ حَرّان فى ألف رجل ؛ وكأنّمـا يُساقون إلى الموت ـ وكان عدىّ رجلاً ناسكا [٢] ـ فلما نزل دَوغان [٣] نزل بالناس ، وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّه إليه فقال : إنّ عديًّا بعثنى إليك يسألك أن تخرُج عن هـذا البلد ، وتأوى بلدا آخر فتقاتل أهله ؛ فإنى للقتال كاره ، فقال له صالح : ارجع إليه ، فقل له : إن كنت ترى رأينا ، فأرنا من ذلك مانَعرف ، ثم نحن مُدْلِجون [٤] عنك ، وإن كنت على رأى الجبابرة وأئمة السوء، رَأَيْنا رأينا ، فإمّا بدأنا بك ، وإلا رَحَلْنا إلى غيرك .

فانصرف إليه الرسول ، فأبلغه ، فقال له عدىّ : ارجعْ إليه فقل له : إنّى والله لاأرى رأيَك ، ولـكنّى أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين [٥] .

فقال صالح لأصحابه : اركبوا ، فركبوا ، واحتبس الرجلَ عنـده ، ومضى بأصحابه حتى أتى عديًّا فى سوق دَوْغَان ؛ وهو قائم يصلِّى الضّحى ، فلم يشعر إلا بالخيل طالعة عليهم ؛ فلما دنا صالح منهم ، رآهم على غـير تعبية [٦] ، وقد تنادَوْا ، وبعضُهم يجولُ فى بعض ، فأمرَ شبيبا فحمل عليهم فى كتيبة ، ثم أمرَ سُوَيْداً فحمل فى كتيبة ، فـكانت هزيمتُهم ،

---

(١) من الطبرى

(٢) الطبرى : « يتنسك » .

(٣) دوغان : قرية بين رأس عين ونصيبين ، كانت سوقا لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها مرة فى كل شهر . (مراصد الاطلاع).

(٤) الدلج والدلجة : السير آخر الليل .

(٥) فى الطبرى بعدها : « فقاتل غيرى » .

(٦) عبأ الجيش للحرب تعبئة : هيأه وجهزه ، يقال بالهمز وبغير الهمز .

وأتى عدىٌّ بدابَّته فركبها ، ومضَى على وجهه ، واحتوَى صالح على عسكره وما فيه ، وذهب فَلُّ عدىّ حتى لِحَقُوا بمحمّد بن مروان ، فغضِب ، ثم دعا بخالد بن جَزْء السُّلمِىّ ، فبعثه فى ألف وخمسمائة ، ودعا الحارث بن جَعْوَنَة فى ألف وخمسمائة ، وقال لهما : اخرجا إلىّ هذه الخارجةَ القليلة الخبيثة ، وعَجِّلا [الخروج ، وأغذا السّير] [١] فأيّكما سَبَق ، فهو الأمير على صاحبه ، فخرجا وأغذّا [٢] فى السير ، وجعلا يسألان عن صالح ، فقيل لهما : توجه نحو آمِد [٣] ، فاتّبعاه حتى انتهيا إليه بآمِد ، فنزلا ليلا ، وخندقا وهما متساندان ؛ كلُّ واحدٍ منهما على حِدَتِه ، فوجّه صالح شبيبا إلى الحارث بن جَعْوَنة فى شطْر أصحابه ، وتوجّه هو نحو خالدِ السُّلَمِىّ ، فاقتتلوا أشدّ قتال اقتتله قوم ، حتى حَجَز بينهم الليل ؛ وقد انتصف بعضُهم من بعض .

فتحدث بعضُ أصحابِ [٤] صالح ، قال : كنا إذا حَمَلْنا عليهم استقبلْنا رجالَهم بالرماح ، ونَضَحنا [٥] رُماتَهم بالنبل ، وخيلُهم تطاردنا فى خلال ذلك ، فانصرفنا عند الليل ، وقد كَرِهْناهم وكَرِهونا ، فلما رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكِسَر [٦] ، دعانا صالح وقال : ياأخِلّائى ، ماذَا تَرَوْن ؟ فقال شبيب : إنّا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون بخندقهم ، لم نَنَلْ منهم طائلا ، والرأى أن نَرْحَل عنهم ، فقال صالح : وأنا أرى ذلك ؛ فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة ، وأرض الموصل ، ومَضَوْا حتى قطعوا أرض الدَّسْكرة . فلما بلغ ذلك الحجَّاج سَرّح عليهم الحارث بن عميرة فى ثلاثة آلاف ،

---

(١) من الطبرى .

(٢) أغذ فى السير : أسرع فيه .

(٣) آمد ، بكسر الميم : بلد قديم حصين ، تحيط دجلة بأكثره . مراصد الاطلاع .

(٤) فى الطبرى : « قال أبو مخنف : فحدثنى المحلمى قال . . . » وأورد الخبر باختلاف فى الرواية

(٥) النضح : الرمى بالنبل

(٦) الكسرة : القطعة من الخبز ، وجمعه كسر .

فسار وخرج صالح نحو جلُولاء وخَانِقين [١] واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج [٢] ، وصالح يومئذ فى تسعين رجلا ، فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة ، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كَرادِيس وهو فى كُردوس [٣] ، وشبيب فى مَيْمَنة فى كُرْدُوس ، وسُوَيْد بن سُلَيم فى كُرْدُوس فى ميسرته ؛ فى كلّ كُرْدُوس منهم ثلاثون رجلا ؛ فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة ، انكشف سويد بن سليم ، وثبت صالح فقُتِل ، وضارب شبيب حتى صُرِع عن فرسه ، فوقع بين رجاله ، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح ، فوجَدَه قتيلا فنادى : إلىّ يامعشر المسلمين ! فلاذوا به ، فقال لأصحابه : ليجعلْ كلُّ رجلٍ منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه ، وليطاعِنْ عدوّه إذا قدم عليه ؛ حتى ندخل هذا الحِصْن ، ونرى رأينا .

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحِصْن ؛ وهم سبعون رجلا مع شبيب ، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً ، وقال لأصحابه : احرقوا الباب ، فإذا صار جَمْراً فدَعوه ، فإنهم لا يقدرون على الخروج حتى نصبح [٤] فنقتلهم ، ففعلوا ذلك بالباب ؛ ثم انصرفوا إلى معسكرهم .

فقال شبيب لأصحابه : ياهؤلاء ، ماتنتظرون ! فوالله إن صَبّحوكم غُدْوَة [٥] إنه لهلاككم ، فقالوا له : مُرْنا بأمرك ، فقال لهم : [إن الليل أخفى للويل] [٦]؛ بايعونى إن شئتم ، أو بايعوا مَنْ شئتم منكم ، ثم اخرجوا بنا حتى نشُدّ عليهم فى عسكرهم ، فإنهم آمنون منكم ، وإنى أرجو أنْ ينصرَكم الله عليهم . قالوا : ابسط يدك فبايعوه ، فلما جاءوا

---

(١) جلولاء : موضع فى طريق خراسان ، بينه وبين خانقين سبعة فراسخ ، وخانقين فى نواحى السواد فى طريق همذان .

(٢) فى الطبرى : «المدبج : من أرض الموصل ، على تخوم ما بينها وبين أرض جوخى» .

(٣) الكردوس : القطعة من الخيل ، وجمعه كراديس .

(٤) الطبرى : « نصبحهم » .

(٥) صبحوكم : أغاروا عليكم صباحاً .

(٦) من الطبرى .

إلى الباب ، وجدُوه جَمْراً ، فأتَوْه باللُّبود (١) فبلُّوها بالماء ، ثم ألقَوْها عليه وخرجوا ، فلم يشعُر الحارث بن عميرة إلا وشبيب وأصحابه يضربُونهم بالسيوف فى جوف عسكرهم ، فضارب الحارث حتى صُرِع ، واحتمله أصحابه ، وانهزموا وخلَّوا لهم المعسكر وما فيه ، ومضَوْا حتى نزلوا المدائن ، وكان ذلك الجيش أولَ جيش هزمه شبيب (٢) .

***

[دخول شبيب الكوفة وأمره مع الحجاج]

ثم ارتفع فى أدانى أرض الموصل (٣) ، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يَجْبِى الخراج ، وكان سفيان بن أبى العالية قد أُمِر أن يحارب صاحب طبَرِسْتَان، فأمر بالقفول نحو شبيب ، وأن يصالح صاحب طَبَرِسْتان ، فصالحه ، فأقبل فى ألف فارس ، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج :

(٤) أما بعد ، فأقِمْ بالدَّسْكرة فيمن معك ؛ حتى يأتيَك جيش الحارث بن عميرة. قاتل صالح بن مسرّح ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزه (٤) .

ففعل سفيان ذلك ، ونزل إلى الدّسْكرة حتى أتوْه ، وخرج مرتحلا فى طلب شبيب ، فارتفع شبيب عنهم ، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم ؛ وقد أكْمَنَ لهم أخاه مَصَاداً فى خمسين رجلا ، فى هَضْم (٥) من الأرض ، فلما رأوْا شبيبا جمع أصحابه ، ومضى فى سَفْح من الجبل

---

(١) اللبد : كل شعر أوصوف متلبد ، سمى به للصوق بعضه ببعض ، وجمعه لبود .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وأصيب صالح بن مسرح يوم الثلاث لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته » .

(٣) فى الطبرى بعدها : « وتخوم أرض جوخى »

(٤ ـ ٤) الكتاب كما فى الطبرى : « أما بعد فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك ، ثم أقم حتى يأتيك جيش الحارث بن عميرة الهمدانى بن ذى المشعار ، وهو الذى قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر ، ثم سر إلى شبيب حتى تناجزه » .

(٥) الهضم : المكان المطمئن من الأرض ، وفى الطبرى : « هزمه » .

مشرقا ، قالوا : هرب عدو الله ، واتبعوه . فقال لهم عَدِىّ بن عميرة الشيبانىّ : أيّها الناس؛ لا تعجَلوا عليهم حتى نَضْرِب فى الأرض ونستبرِئها [١] ؛ فإن يكونوا أكمنوا كمينا حَذَرْناه؛ وإلا كان طلبُهم بين أيدينا ، لن يفوتَنا .فلم يسمعوا منه ، فأسرعوا فى آثارهم .

***

فلما رأى شبيب أنّهم قد جازوا الكمين ، عَطَف عليهم ، فحَمَلَ من أمامهم ، وخرج الكَمِين من ورائهم ؛ فلم يقاتل [٢] أحد ؛ وإنما كانت الهزيمةُ ،وثبت سُفيان بن أبى العالية فى مائتى رجل ؛ فقاتل [٣] قتالا شديدا حتى انتصفَ من شبيب [٣] ؛ فقال سويد بن سليم لأصحابه : أمِنْكم أحد يعرف أميرَ القوم ابن أبى العالية [٤] ؟ فقال له شبيب : أنا مِنْ أعرف النّاس به،أما ترى صاحبَ الفرسِ الأغرّ الذى دونه المرامية!فإنه هو،[٥]فإن كنتَ تريده فأمهِلْه قليلا.

ثم قال : يا قَعْنَب ، اخرُج فى عشرين ، فأتِهم من ورائهم .فخرج قَعْنَب فى عشرين فارتفع عليهم ، فلما رأوْه يريد أنْ يأتيَهم من ورائهم ، جعلوا ينتقصون ويتسلَّلُون ، وحَمَل سويد بن سُلَيم على سُفْيان بن أبى العالية [٦] يطاعِنُه ، فلم تصنع رماحُهما شيئا ، ثم اضطرَبا بسيفيهما ، ثم اعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه ، فوقعا إلى الأرضِ يعترِكان ، ثم تحاجزا ، وحَمَل عليهم شبيب ؛ فانكشف مَنْ كان مع سفيان ؛ ونزل غلام له يقال له غَزْوان عن بِرْذَوْنِه ، وقال لسفيان : اركب يا مولاى ، فركب سُفيان ، وأحاط به أصحابُ شبيب ، فقاتل دونه غزوان حتى قُتِل ، وكان معه رايته ، وأقبل سفيان منهزما ؛ حتى انتهى

---

(١) يقال : استبرأ أرض بنى فلان ، إذا سار فيها وانتهى إلى آخرها . وفى الطبرى : « نسير بها » .

(٢) الطبرى : « فلم يقاتلهم أحد » .

(٣ـ٣) الطبرى : « فقاتلهم قتالا شديدا حسنا حتى ظن أنه انتصف من شبيب وأصحابه » .

(٤) فى الطبرى بعدها : « فوالله لئن عرفته لأجهدن نفسى فى قتله » .

(٥) الطبرى : « فإنه ذلك » .

(٦) الطبرى : « فطاعنه » .

إلى بابل مَهْرُوذ ، فنزل بهـا ؛ وكتب إلى الحجاج [1] ، وكان الحجاجُ أمَرَ سَوْرة ابن أبجر أن يلْحَق بسفيان ، فـكاتَبَ سورةُ سفيانَ ، وقال له : انْتظِرنى ؛ فلم يفعل وعجِل نحو الخوارج ، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان ، وقرأ كتابه ، قال للناس : مَنْ صنع كما صنع هـذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن . ثم كتب إليه يعذره [2] ، ويقول : إذا خَفَّ عليكَ الوَجَع فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك . وكتب إلى سورة بن أبجر :

[3] أما بعد يابن أمّ سورة ، فما كنتَ خليقا [3] أن تجترئَ على تركِ عهدى ، وخذلان جُندى ، فإذا أتاكَ كتابى فابعث رجلا مِمّن معك صَليبا إلى [4] المدائن ، فلينتخبْ من جندها خمسمائة رجل ، ثم ليقدم بهم عليك ، [ثم سِرْ بهم] [5] حتى تَلْقَى هذه المارقة ، واحزم [فى] [5] أمرك ، وكِدْ عَدُوّك ؛ فإنّ أفضَل أمر الحروب حُسْنُ المكيدة . والسلام .

فلمـا أتى سَوْرةَ كتابُ الحجاج بعث عدىّ بن عمير إلى المدائن ، وكان بهـا ألف فارس ، فانتخب منهم خمسمائة ، ثم رحل بهم [7] حتى قدِم على سَوْرة ببابل مَهْرُوذ ،

---

(١) كتابه إلى الحجاج كما فى الطبرى : « أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير أصلحه الله ! أنى اتبعت هـذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم ، فضرب الله وجوههم ونصرنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غيبا عنهم ، فحملوا على الناس فهزموهم ، فنزلت فى رجال من أهل الدين والصبر ، فقاتلتهم حتى خررت بين القتلى ، فحملت مرتثا ، فأتى بى بابل مهروذ ، فها أنابها والجند الذين وجههم الأمير وافوا إلا سورة بن أبجر ، فإنه لم يأتنى ، ولم يشهد معى ، حتى إذا مانزلت بابل مهروذ أتانى يقول ما لا أعرف ، ويعتذر بغير العذر والسلام » .

(٢) كتاب الحجاج إلى سفيان كما فى الطبرى : « أما بعد ، فقد أحسنت البلاء ، وقضيت الذى عليك ، فإذا خف عنك الوجع فأقبل مأجورا إلى أهلك . والسلام » .

(٣-٣) الطبرى : « أما بعد فيابن أم سورة ، ما كنت خليقاً أن تجترئ على » .

(٤) الطبرى : « إلى الخيل التى بالمدائن » .

(٥) من الطبرى .

(٦) عبارة الطبرى : « ثم دخل على عبد الله بن أبى عصيفير ، وهو أمير المدائن إمارته الأولى ، فسلم عليه ، فأجازه بألف درهم ، وحمله على فرس وكساه أثوابا ، ثم إنه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه ، حتى قدم بهم على سورة . . . »

فخرج بهم فى طلب شبيب،وخرج شبيب يَجُول فى جُوخى[1]،وسَوْرة فى طلبه ، فجاء شَبيب إلى المدائن فتحصّنَ منه أهلُها فانتهب المدائن الأولى ، وأصاب دوابَّ من دوابّ الجند ، وقتل مَنْ ظَهر له ، ولم يدخل البيوت ، ثم أتى فقيل له : هذا سَوْرة قد أقبل إليك ، فخرج فى أصحابه حتى [انتهى إلى النهروان ، فنزلوا به وتوضّئوا وصلوا ، ثم][2] أتوْا مصارع إخوانهم الذين قتلهم على بن أبى طالب ، فاستغفروا لهم ، وتبرءوا من علىّ وأصحابه ، و بكوْا فأطالوا البكاء ، ثم عَبَرُوا جسر النهروان ، فنزلوا جانبه الشرقىّ ، وجاء سَوْرة حتى نزل بنفطرانا[3] وجاءته عيونه ، فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان ، فدعا سورة رءوس أصحابه ، فقال لهم : إنّ الخوارج قَلّما يُلقَوْن فى صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا ، وقد حُـدّثت أنّهم لا يزيدون على مائة رجل ؛ وقد رأيتُ أنْ أنتخِبكم ، وأسير فى ثلثمائة رجل منكم ، من أقويائـكم وشجعانـكم فأبيّتهم[4] فإنهم آيسون من بيَاتـكم[4] ، و إنى والله أرجو أن يصرَعهم الله مَصارع إخوانهم فى النهروان مِن قَبْل ، فقالوا : اصْنَعْ ما أحببت .

فاستعمَل على عسكره حازم بن قُدامة ، وانتخب ثلثمائة من شجعان أصحابه ، ثم أقبل بِهِمْ حتى قَرُب من النهروان ، و بات وقد أذْكَى الحرس ، ثم بيتهم ؛ فلمـا دنا أصحاب سورة منهم نَذِروا[5] بهم ؛فاستوَوْا على خيولهم ، وتعبَّوْا تَعْبِيتَهم ؛ فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه ، أصابوهم ، وقد نذِرُوا ، فحمل عليهم سورة،فصاح شبيب بأصحابه ،فحمل عليهم

---

(١) جوخى ، بالقصر وقد يفتح : نهر عليه كورة واسعة فى سواد بغداد، بالجانب الشرقى منه نزذان، وهو بين خانقين وخوزستان ، قالوا : ولم يكن ببغداد مثل كورة جوخى ، كان خراجها ثمانين ألف ألف درهم ، حتى صرفت دجلة عنها فخربت ، وأصابهم بعـد ذلك طاعون شيرون فأتى عليهم ، ولم يزل السواد فى إدبار من ذلك الطاعون . مراصد الإطلاع ١ : ٣٥٥

(٢) من الطبرى .

(٣) كذا فى الأصول وفى الطبرى : « قطراثا » .

(٤ــ٤) الطبرى : « فآتيهم الآن فإنهم آمنون لبياتـكم » .

(٥) نذروا بهم : علموا بهم وفى ج : « حذروا » .

حتى تركوا له العَرْصة ، وحمل شبيب ، وجعل يضرب ويقول :

* مَنْ يَنِكِ الْعَيْرَ يَنِكْ نَيَّاكا [١] *

فرجع [٢] سورة مفلولا ، قد هزم فرسانه وأهل القوّة من أصحابه، وأقبل نحوَ المدائن، وتَبِعه شبيب ؛ حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن ؛ وانتهى شَبيب إليهم ، وقد دخل الناس البيوتَ ، وخرج ابن أبى عصيفير ؛ وهو أمير المدائن يومئذ فى جماعة ، فلقيَهم فى شوارع المدائن ، ورماهم النَّاسُ بالنبل والحجارة من فوق البيوت .

ثم سار شبيب إلى تَكْرِيت [٢] ، فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أرْجَف [٣] النـاس فقالوا : هـذا شبيب قد أقبلَ يريد أن يبيِّت أهل المدائن ، فارتحل عامّةُ الجند ، فلحِقوا بالـكوفة ، [٤] وإنّ شبيبا بتـكْرِيت ، فلما أتى الحجاج [٥] الخبرُ ، قال : قبح الله سَوْرة ! ضيّع العسكرَ وخرج يُبَيِّت الخوارج ؛ والله لأسوءَنّه [٦] .

---

(١) بقيته فى الطبرى :

* جَنْدَلَتَانِ اصْطَكَّتَا اصْطِـكَاكا *

(٢ـ٢) الطبرى : « فرجع سورة إلى عسكره ، وقد هزم الفرسان وأهل القوة ، فتحمل بهم حتى أقبل بهم نحو المدائن ، فدفع إليهم وقد تحمل وتعدى الطريق الذى فيه شبيب ، واتبعه شبيب ، وهو يرجو أن يلحقه فيصيب عسكره، ويصيب بهزيمته أهل العسكر؛ فأغذ السير فى طلبهم، فانتهوا إلى المدائن فدخلوها، وجاء شبيب حتى انتهى إلى بيوت المدائن فدفع إليهم وقد دخل النـاس ، وخرج ابن أبى عصيفير فى أهل المدائن ، فرماهم بالنبل ورموا من فوق البيوت بالحجارة ،فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن، فمر على كلوذا فأصاب بها دواب كثيرة للحجاج ، فأخذها ، ثم أخذ يسير فى أرض جوخى ثم مضى نحو تـكريت ... » .

(٣) أرجف القوم ، أى خاضوا فى الأخبار السيئة ، وذكر الفتن ، على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء ، وفى القرآن الـكريم : ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ ﴾ .

(٤) فى الطبرى عن عبد الله بن علقمة الخثعمى : « والله لقد هربوا من المدائن ، وقالوا : نبيت الليـلة، وإن شبيبا لبتـكريت ، ولما أتى الفل على الحجاج، سرح الجزل بن سعيد بن شرحبيل بن عمرو الـكندى »

(٥) فى الطبرى : «عن فضيل بن خديج الـكندى : أن الحجاج لما أتاه الفل قال . . . . »

(٦) فى الطبرى : « وكان قد حبسه ثم عفا عنه » .

ثم دعا الحجاج بالجَزْل ؛ وهو عثمان بن سعيد ، فقال له : تيسّر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتَهم فلا تعجل عَجَلةَ الخرِق النَّزِق [١] ، ولا تحجم إحجام الوانى الفَرِق [٢] ، أفهمت [٣]؟ قال : نعم أصلح الله الأمير قد فهمت ؛ قال : فاخرج عَسْكِرْ بدَيْرِ عبد الرحمن حتى يخرج الناس إليك ، فقال : أصلَحَ الله الأمير ! لا تبعثْ معى أحداً من الُجند المهزوم المفلول ، فإنّ الرعبَ قد دخل قلوبَهم ، وقد خشيت ألّا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ ، قال : ذلك لك ؛ ولا أراك إلا قد أحسنْتَ الرأى ، ووُفِّقت ؛ ثم دعا أصحابَ الدواوين ، فقال : اضربوا عَلَى النَّاسِ البعث ، وأخرجوا أربعةَ آلاف من الناس ، وعَجّلوا ، فجمعت العُرَفاء ، وجلس أصحابُ الدواوين ، وضَرَبوا البعث ، فأخرجوا أربعة آلاف ، فأمرهم باللّحاق بالعسكر ؛ ثم نُودى فيهم بالرحيل ؛ فارتحلوا ، ونادى منادى الحجاج : أنْ بَرِئت الذِّمّة مِنْ رجل أصبْنَاه من بعث الجَزْل متخلِّفًا .

فمضى بهم الجَزْل ، [وقد قدّم بين يديه عياض بن أبى لينة الكندىّ على مقدمته فخرج] [٤] ؛ حتى أتى المدائن ، فأقام بها ثلاثاً ؛ ثم خرج وبعث إليه ابن أبى عصيفير بفَرَس وبِرْذَوْن وألفى درهم ، ووضع للناس من الحطب [٥] والعلَف ما كفاهم ثلاثة أيام ، وأضَافَ الناس ما شاءوا من ذلك .

* * *

ثم إنّ الجزل خرج بالناس إثْرَ شبيب ، فطلبه فى أرض جُوخَى ، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة ، فيخرج من رُسْتَاق إلى رُسْتاق ، ومن طَسُّوج إلى طَسُّوج [ولا يقيم له] [٤] ،

---

(١) الخرق : الرجل الأحمق ، والنزق : الطائش الخفيف عند الغضب .

(٢) الفرق : الشديد الفزع .

(٣) فى الطبرى بعدها : « لله أنت ياأخا بنى عمرو بن معاوية » .

(٤) من الطبرى .

(٥) الطبرى : « الجزر » .

يريد بذلك أن يفرِّق الجزْل أصحابَه ، ويتعجّل إليه فيلْقاه فى عَدَدٍ يسير على غيرِ تعبية ؛ فجعل الجزْل لا يسير إلّا على تَعْبِيَة ؛ ولا ينزل إلا خَنْدَق على نفسه وأصحابه ؛ فلما طال ذلك على شبيب ، دعا يوما أصحابه ؛ وهم مائة وستون رجلا ، وهو فى أربعين ، ومصاد أخوه فى أربعين ، وسويد بن سليم فى أرْبعين ، والمحلّل بن وائل فى أربعين ؛ وقد أتته عيونه [فأخبرته] [١] ، أنّ الجزْل بن سعيد قد نزل ببئر سعيد [٢] . فقال لأخيه وللأمراء الذين ذكرناهم : إنى أريد أن أبيِّت الليلة هذا العسكر ، فأْتِهم أنت يا مصاد من قِبَل حُلْوان [٣] ، وسآتيهم أنا من أمامهم من قِبَل الكوفة ، وأْتِهمْ أنت يا سُوَيْد من قِبَلِ المشرق ، وأْتِهمْ أنت يامحلّل، من قِبل المغرب ، ولْيَلِجْ كلُّ امرئٍ منكم على الجانب الذى يحمل عليه ، ولا تقلعوا عنهم حتى يأتيَكم أمرى .

قال فروة بن لقيط [٤] : وكنتُ أنا فى الأربعين الذين كانوا معه [٥] ، فقال لجماعتنا : تيسَّرُوا ؛ وليسِرْ كلُّ امرئٍ منكم مع أميره ، ولْيَنْظُر ما يأمره به أميره فليتبعْهُ ؛ فلما فصمت دوابّنا ــ وذلك أول ما هدأت العيون ــ خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذا القوم عليهم مَسْلحة ابن أبى لينة ، فما هو إلا أن رآهم مصاد أخو شَبيب حتى حمل عليهم فى أربعين رجلا ، وكان شبيب أراد أن يرتفع عليهم حتى يأتيَهم من ورائهم ، كما أمره [٥]

---

(١) من الطبرى .

(٢) الطبرى : « بدير يزدجرد » .

(٣) تطلق حلوان على عدة مواضع ، وهى هنا حلوان العراق ، آخر حدود السواد مما يلى العراق ، كانت مدينة عامرة لم يكن بالعراق بعد البصرة والكوفة، وواسط بغداد أكبر منها . (مراصد الاطلاع).

(٤) هو راوى الخبر فى الطبرى ، حدثه به عنه أبو مخنف .

(٥ ــ ٥) النص كما فى الطبرى : « حتى إذا قضمت دوابنا ، وذلك أول الليل ، أول ماهدأت العيون، خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة ، فإذ اللقوم مسلحة ، عليهم عياض بن لينة ،فما هو إلا أن انتهينا إليهم، فحمل عليهم مصاد أخو شبيب فى أربعين رجلا ــ وكان أمام شبيب ــ وقد كان أراد أن يسبق شبيبا حتى يرتفع عليهم ويأتيهم من ورائه كما أمره » .

فلما لَقِيَ هؤلاء قاتلهم ، فصبروا له ساعة ، وقاتلوهم . ثم إنّا دفعنا إليهم جميعا ، فهزمناهم ، وأخذوا الطريق الأعظم ، وليس بينهم و بين عسكرهم بدير يزدَجِرد إلا نحو ميل [١] ، فقال لنا شبيب : اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم ؛ حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم ، فأتبعناهم ملظّين [٢] بهم ، ملحّين عليهم ، ما نُرَفِّهُ عنهم وهم منهزمون ، ما لهم همّة إلا عسكرهم .

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم ، وَرَشَقُوهم [٣] بالنَّبْل ، وكانت لهم عيون قد أتتهم ، فأخبرتهم بمكاننا ، وكان الجزل قد خَنْدَق عليهم وتحرّز ، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم [بدير الخرارة] [٤] ، ووضع مسلحة أخرى مما تَلِي حُلوان .

فلما اجتمعت المسالح ، ورشقوهم أصحابهم بالنبل ، ومنعونا من خَنْدَقهم ، نظر شبيب أنّه لا يصلُ إليهم ، فقال لأصحابه : سيروا ودعوهم ،فلما سار عنهم أَخَذَ على طريق حُلوان ؛ حتى كان منهم على سبعة أميال ، قال لأصحابه : انزلوا فاقضِموا دوابّكم ،وقيلوا وتروّحوا ، فصلوا ركعتين ، ثم اركبوا . ففعلوا ذلك.ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة ، وقال : سيروا على تعبيتكم التى عبأتكم عليها أوّل الليل ، وأطيفُوا [٥] بعسكركم كماأمرتكم ، فأقبلنا معه ، وقد أدخلَ أهلُ العسكر مسالحهم إليهم ، وأمِنُوا ، فما شعروا حتى سَمِعُوا وقع حوافر الخيل ، فانتهينا إليهم قبيل الصبح ، وأحطْنا بعسكرهم ، وصحنا بهم من كل ناحية ، فقاتلونا ، ورمونا بالنَّبْل ، فقال شبيب لأخيه مصاد ، وكان يقاتلهم من الجانب

---

(١) الطبرى : « قريب من ميل » .
(٢) ملظين : ملحين .
(٣) الطبرى : « ورشقونا » .
(٤) من الطبرى .
(٥) الطبرى : « ثم أطيفوا بعسكركم » .

الذى يلى الـكوفة : خَلِّ لهم سبيل [طريق] (١) الـكوفة ، فخلّى لهم ، وقاتلناهم من [تلك] (١) الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح (٢) ، ثم سرنا وتركناهم ، لأنا لم نظفرْ بهم ، فلما سار شبيب سار الجزل فى أثره يطلبه ، وجعل لا يسيرُ إلا على تعبية وترتيب ، ولا ينزل إلا على خندق ؛ وأما شبيب فضرب فى أرض جُوخَى ، وترك الجزل ، فطال أمرُه على الحجاج ، فـكتب إلى الجزل كتاباً قرِئ على الناس ، وهو :

أما بعد ، فإنى بعثتُك فى فرسان [أهل] (١) المِصْر ووجوه الناس ، وأمرتُك باتّباع هذه (٣) المارقة ، وألّا تقلع عنها حتى تقتلَها وتفنيها (٣) ؛ فجعلتَ (٤) التَّعْرِيس فى القُرى ، والتخييم فى الخنادق . أهونَ عليك من المضِىّ لمناهضتهم ومناجزتهم . [والسلام] (٥) .

قال : فشقّ كتابُ الحجاج على الجزْل ، وأرجف الناس بأمره ؛ وقالوا : سيعزله ، فما لَبِث الناس أنْ بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميرا بدله ، وعَهِد إليه : إذا لقى المارقة أن يزحف إليهم ، ولا يناظرهم ، ولا يطاولهم ، ولا يصنع صُنْع الجزل (٦) ، وكان الجزل يومئذ قد انتهى فى طلب شَبيب إلى النهروان ، وقد لزم عسكره ، وخندق عليهم ؛ فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الـكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيبا ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهلَ الـكوفة ، إنـكم قد عجزتم وَوَهَنْتم ، وأغضبْتم عليكم أميرَكم ، أنتم فى طلب هـذه الأعاريب العُجف منذ شهرين ، قد أخربوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ؛ وأنتم

---

(١) من الطبرى .
(٢) الطبرى : « حتى أصبحنا » .
(٣-٣) الطبرى : « المارقة الضالة المضلة ؛ حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها » .
(٤) الطبرى : « فوجدت » .
(٥) فى الطبرى ، بعدها : « فقرئ الـكتاب علينا ، ونحن بقطرثا ودير أبى مريم » .
(٦) بعدها فى الطبرى : « واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم حيدان الضبع » .

حَذِرون فى جوف هذه الخنادق لا تُزايلونها ؛ إلّا أن يبلغكم أنّهم قد ارتحلوا عنكم ، ونزلوا بلداً سوى بلدكم؛ اخرجوا على اسم الله إليهم .

ثم خرج وخرج الناس معه [١] ، فقال له الجزْل : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أقدمُ على شبيب وأصحابه فى هذه الخيل ، فقال له الجزل : أقِمْ أنت فى جماعة الناس [٢] ، فارسهم وراجلهم [٣] ؛ ولا تفرّق أصحابك ، ودعنى أصْحَرُ له [٤] ؛ فإن ذلك خيرٌ لك وَشَرٌّ لهم [٣] فقال سعيد : بل تَقِفُ أنت فى الصفّ ، وأنا أصحَرُ له ، فقال الجزل : إنّى برىء من رأيك هذا ؛ سمع الله ومَنْ حضر من المسلمين ! فقال سعيد : هو رأيى ؛ إن أصبتُ فيه ، فالله وَفّقنى ، وإن أخطأتُ [٥] فيه فأنتم برآء .

فوقف الجزل فى صَفّ [أهل] [٦] الكوفة ، وقد [أخرجهم من الخندق و] [٦] جعل على ميمنتهم عياض بن أبى لينةَ الكِنديّ ، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الراسبى [٧] ؛ ووقف الجزْل فى جماعتهم ، واستقدم سعيد بن مجالد [فخرج] [٦] و[أخرج] [٦] الناس معه ؛ وقد أخذ شبيب إلى بَرَاز الروز [٨] ، فنزل قَطُفْتَا ، وأمر دِهقانها أن يشوِىَ لهم غنما ، ويعدّ لهم غداء ، ففعل ، وأغلق مدينة قَطُفْتا ، ولم يفرغ

---

(١) فى الطبرى بعدها : « وجمع إليه خيول أهل العسكر » .

(٢) الطبرى : « الجيش » .

(٣-٣) عبارة الطبرى : « واصحرله ، فوالله ليتقدمن عليك ؛ فلا تفرق أصحابك ؛ فإن ذلك شر لهم وخير لك » .

(٤) أصحر القوم ؛ إذا برزوا فى الصحراء ؛ لايواريهم شىء .

(٥) الطبرى : « وإن يكن غير صواب » .

(٦) من الطبرى .

(٧) فى الأصول : « وأبا حيد » ، والصواب ما أثبته من الطبرى .

(٨) براز الروز ، بالزاى ، وألف ولام وراء مضمومة : من طساسيج السواد ببغداد ؛ من الجانب الشرقى من استان البهقباذ ، كان للمعتضد به أبنية جليلة . (مراصد الاطلاع) .

الدِّهقان من طَعامه حتى أحاط بها ابن مجالد ، فصعِد الدِّهقان ، ثم نزل ، وقد تغيَّر لونه ، فقال شبيب : ما بالك ؟ قال : قد جاءك جمع عظيم ، قال : أبَلَغ [1] شواؤك ؟ قال : لا ، قال : دَعْهُ يبلغ ، ثم أشرف الدِّهقان إشرافة أخرى، ثم نزل فقال : قد أحاطوا بالجَوْسق ، قال : هات شواءك ؛ فجعل يأكل غير مكترِث بهم، ولا فَزِع ، فلما فَرَغ قال لأصحابه : قوموا إلى الصلاة ، وقام فتوضأ ، فصلّى بأصحابه صلاة الأولى ، ولبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وأخذ عموده الحديد ، ثم قال : أسرِجُوا لي بغلتي ، فقال أخوه : أفي مثل هـذا اليوم تركب [2] بغلة ؟ قال : نعم ، أسْرِجوها ، فركبها ، ثم قال : يا فلان ، أنت على الميمنة ، وأنت يا فلان على الميسرة ، وأنت يا مَصَاد ـ يعني أخاه ـ على القلب ، وأمر الدِّهقان ففتح الباب في وجوههم .

فخرج إليهم وهو يحكِّم [3] ، وحمل حملة عظيمة، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقرى، حتى صار بينهم و بين الدَّيْرميل ، وشبيب يصيح : أتاكم الموت الزؤام ! فاثبتوا ، وسعيد يَصيح : يا معشرِ هَمْدان ، إليّ إليّ ، أنا ابن ذي مران ! فقال شبيب لمصاد : وَيْحَك ! استعرضهم استعراضا ؛ فإنهم قد تقطّعوا ، و إني حامل على أميرهم ، وأثـكلَنيكَ الله ، إن لم أُثـكِله ولده ، ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود ؛ ثم سقط ميتا وانهزم أصحابه ، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد .

وانتهى قتلُ سعيد إلى الجزْل ، فناداهم : أيهـا الناس ، إليّ إليّ ؛ وصاح عياض ابن أبي لينة : أيها الناس ، إن يكنِ أميركم هذا القادم هَلَكَ ، فهذا أميركم الميمون النقيبة ، أقبلوا إليه ؛ فمنهم مَنْ أقبل إليه ، ومنهم مَنْ ركب فرسه منهزما ، وقاتل الجزْل يومئذ قتالا شديدا ، حتى صُرِع ، وحامى عنه خالد بن نَهِيك ، وعياض بن أبي لينة ؛ حتى استنقذاه

---

(١) الطبري : « أبلغ الشواء » وبلوغ الشواء : نضجه.

(٢) الطبري : « تسرج » .

(٣) التحكيم : قول الخوارج : « لا حكم إلا لله » .

مرتثًا ، وأقبل الناس منهزمين ؛ حتى دخلوا الكوفة ، وأتى بالجزْل جريحا ، حتى دخل المدائن ، فكتب إلى الحجاج:

أما بعد ؛ فإنى أخبر الأمير أصلحه الله ، أنى خرَجتُ فيمن قِبَلى من الجند الذى وَجّهنى فيه إلى عدوّه ، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إلىّ فيهم ورأيه ؛ فكنت أخرجُ إلى المارقين [١] إذا رأيت الفرصة ، وأحبس [الناس] [٢] عنهم إذا خشيت الورْطة ، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر ، وأرفقُ فى التدبير ؛ وقد أرادنى العدوّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ منى غِرّة ، حتى قدم علىّ سعيد بن مجالد ، فأمرتُه بالتؤدة ، ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألّا يقاتلهم إلا فى جماعة الناس عامّة ، فعصانى وتعجّل إليهم فى الخيل ، فأشهدْتُ الله عليه وأهلَ المِصْرَيْن أنّى برِىء من رأيه الذى رأى ، وأنّى لا أهوَى الذى صنع ، فمضى فقُتِل ، تجاوز الله عنه ، ودَفَع [٣] الناس [إلىّ] [٢] فنزلت ودعوتُهم إلى نفسى [٤] ورفعتُ رايتى ، وقاتلت حتى صُرِعت ، فحملنى أصحابى من بين القتلى ، فما أفقت إلّا وأنا عَلَى أيديهم ، عَلَى رأس ميلٍ من المعركة ، وأنا اليوم بالمدائن ، وفىّ جِراحات قد يموتُ الإنسان من دونها ؛ وقد يعافَى من مثلها ؛ فليسأل الأميرُ أصلحَه الله عَنْ نصيحتى له ولجنده ، وعن مكايدتى عدوّه ، وعن موقفى يوم البأس ؛ فإنه سيبين له عند ذلك أنّى صدقتهُ ونصحت له . والسلام .

فكتب إليه الحجّاج :

---

(١) الطبرى : « إليهم » .

(٢) من الطبرى

(٣) دفع الناس ، أى جاءوا مرة مجتمعين .

(٤) الطبرى : « ودعوتهم إلى » .

أما بعد ، فقد أتانى كتابُك وقرأته ، (١ وفهمت كلّ ما ذكرتَه فيه من أمر سَعِيد وأمر نفسِك، وقد صدّقتُك فى نصيحتك لأميرك وحَيْطتك على أهل مِصْرك ، وشدّتك على عدُوّك ، وقد رضيتُ عَجلةَ سعيد وتؤدَتك ١) .فأمّا عجلته ؛ فإنها أفضَتْ به إلى الجنة ، وأما تؤدتك ؛ (٢ فإنها ما لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم ٢) ؛ وقد أحسنت وأصبت وأجرت ، وأنتَ عندِى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ؛ وقد أشخصتُ إليك جبار بن الأعزّ (٣) الطبيب ليداويَك ، و يعالج جراحاتك ؛ وقد بعثتُ إليك بألفَىْ درهم نفقةً تصرفهـا فى حاجتك وما ينوبُك (٤) . والسلام .

و بعث عبد الله بن أبى عصيفر والى المدائن إلى الجزْل بألف درهم ؛ وكان يتعوّده و يتعاهَدُه بالألطاف والهدايا .

وأما شبيب ، فأقبل حتى قَطَع دِجْلة عند الكَرْخ ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة ؛ و بلغ الحجّاج مكانُه بحمّام أعين ؛ فبعث إليه سويد بن عبـد الرحمن السعدى ، فجهزه بألفَىْ فارس منتخَبين ، وقال له : اخرُج إلى شبيب فالْقَه ولا تَتْبعه ؛ فخرج بالناس بالسَّبَخة (٥) ، و بلغه أنّ شبيبا قد أقبل ، فسار نحوه كأنما يُساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجّاج عثمان بن قطن ، فعسكر بالناس فى السَّبَخة ، ونادى : ألا برِئت الذِّمّةُ من رجل من هذا الجند ، بات الليلة بالكوفة ؛ ولم يخرج إلى عثمان بن قطن بالسَّبَخة ، فبينا سويد بن عبـد الرحمن يسيرُ فى الألفين الذين معه ؛ وهو يعبّيهم و يحرضهم ؛ إذْ قيل له :

(١ ـ ١) الطبرى : « وفهمت كل ماذكرت فيه ، وقد صدقتك فى كل ماوصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك وحيطتك على أهل مصرك وشدتك على عدوك ، وقد فهمت ماذكرت من أمر سعيـد وعجلته إلى عدوه وتؤدتك » .

(٢ ـ ٢) الطبرى : « فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وترك الفرصة إذا لم تمكن حزم » .

(٣) الطبرى : « حيان بن أبجر » .

(٤) فى الطبرى بعـدها : « فقدم عليـه حيان بن أبجر الكنانى ، من بنى فراس ؛ وهم يعالجون الكى وغيره ، فكان يداويه » .

(٥) السبخة : موضع بالبصرة .

قد غشيَك شبيب ؛ فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه ، وقدّم رايته فأخبر أنّ شبيبا لما علم بمكانه تركه ، ووجد مخاضةً (١) فعبر الفرات ؛ يريد الكوفة من غير الوجه الذى سويد ابن عبد الرحمن به ، ثم قيل : أما تراهم ! فنادى فى أصحابه ، فركبوا فى آثارهم ، فأتى شبيب دار الرزق فنزلها ، وقيل له : إنّ أهلَ الكوفة بأجمعهم معسكرون ، فلما بلغهم مكانُ شبيب ، ماجَ الناس بعضُهم إلى بعض ، وجالوا وهمّوا بدخول الكوفة ، حتى قيل : هذا سويد بن عبد الرحمن فى آثارهم قد لحقهم ؛ وهو يقاتلهم فى الخيل ؛ ومضى شبيب حتى أخذَ عَلَى شاطئ الفرات ، ثم أخذ عَلَى الأنبار ، ثم دخل دَقُوقَاء ، ثم ارتفع إلى أدانى أذرَبيجان .

وخرج الحجاجُ من الكوفة إلى البصرة ، حيث بَعُد شبيب ، واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المغيرة بن شعبة ؛ فما شعر الناس إلا بكتاب [من] (٣) ما دارست (٤) ، دِهْقان بابل مهروذ إلى عروة بن المغيرة بن شعبة ، أنّ تاجراً من تجار [الأنبار من] (٣) أهل بلادى

---

(١) المخاضة : موضع الخوض فى الماء .

(٢) دقوقاء ، بفتح اوله وضم تانيه وبعد الواو قاف وألف أخرى وألف ممدودة ومقصورة : مدينة بين إربل وبغداد معرفة ؛ قال ياقوت : لها ذكر فى الأخبار والفتوح ، كان بها وقعة للخوارج فقال الجعدى بن أبى حمام الذهلى يرثيهم :

شَبَابٌ أَطَاعَ اللّهَ حَتّى أَحَبَّهُمْ	وَكُلُّهُمْ شَارٍ يَخَافُ وَيَطْمَعُ
فَلَمَّا تبوَّءوا من دَقُوقا بِمَنْزِلٍ	لميعَادِ إخْوَانٍ تَدَاعَوْا فَأَجْمَعُوا
دَعَوْا خَصْمَهُمْ بالمحكماتِ وبيَّنُوا	ضلالتَهُمْ ، واللّهُ ذُو العَرْشِ يَسْمَعُ
بِنَفْسِيَ قَتْلَى فى دَقُوقَاءَ غُودِرَتْ	وَقَدْ قُطِعَتْ مِنهَا رُءوسٌ وَأَذْرُعُ
لِتبكِ نِسَاءُ المسلمينَ عليهِمُ	وَفِى دُونِ مالاقَيْنَ مَبْكًى وَمَجْزَعُ

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « ماذ رواسب » .

أتانى يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة فى أول هـذا الشهر المستقبل ، وأحببت إعلامك [ذلك] [١] لترى رأيك ؛ [٢] وإنى لم ألبث بعد ذلك إذ جاءنى اثنان من جيرانى [٢] فحدثانى أنّ شبيبا قد نزل خانيجار [٣] .

فأخذ عروة كتابه ، فأدرجه وسرّح به إلى الحجاج إلى البصرة . فلما قرأ الحجاج أقبل جادًّا [٤] إلى الكوفة ، وأقبل شبيب [يسير] [١] حتى انتهى إلى قرية حَرْبَى [٥] على شاطئ دجلة ، فعبرها وقال [٦] لأصحابه : ياهؤلاء ، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة ، وليس دون أخذها شىء ، إن شاء الله . فسيروا بنا فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة ، وكتب عروة إلى الحجاج أن شبيبا قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فالعجلَ العجلَ .

فطوَى الحجاج المنازلَ مسابقا [٧] لشبيب إلى الكوفة ، فسبقه ونزلها صلاة العصر ، ونزل شبيب السَّبَخة صلاة العشاء الآخرة ، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئا يسيرا ، ثم ركبوا خيولهم ، فدخل شبيب الكوفة فى أصحابه ؛ حتى انتهى إلى السّوق ، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده ، فحدث جماعة [٨] أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر ، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة ، وأنشد :

---

(١) من الطبرى

(٢ـ٢) الطبرى : « ثم لم ألبث إلا ساعة حتى جاءنى جابيان من جبانى » .

(٣) خانيجار : بليدة قريبة من دقوقاء .

(٤) الطبرى : « جوادا » .

(٥) قال ياقوت : « حربى مقصور ، والعامة تتلفظ به ممالا : بليدة فى أقصى دجيل ، بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة » . . .

(٦) فى الطبرى بعدها : « فقال : ما اسم هذه القرية ؟ فقالوا : حربى ، فقال : حرب يصلى بها عدوكم ، وحرب (بالفتح) تدخلونه بيوتهم ؛ إنما يتطير من يقوف ويعيف . ثم ضرب رايته ، وقال لأصحابه : سيروا ، فأقبل حتى نزل عقر قوفا ، فقال له سويد بن سليم : يا أمير المؤمنين ؛ لو تحولت بنا من هذه القرية المشئومة الاسم ؟ قال : وقد تطيرت أيضاً ! والله لا أتحول عنها حتى أسير إلى عدوى منها ؛ إنما شؤمها إن شاء الله على عدوكم ، تحملون عليهم فيها ، فالعقر لهم » .

(٧) « واستبقا إلى الكوفة » .

(٨) الطبرى : « قال أبو المنذر ؛ رأيت ضربة شبيب . . . »

وَكَأَنَّ حَافِرَها بكلّ ثَنِيَّةٍ   فَرَقٌ يكيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُعْدِمُ (١)

(٢ ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع ، ولا يفارقه قومٌ يصلّون ٢) فيه ، فقتل منهم جماعة ومرّ هو بدار حَوْشب ـ وكان هو على شُرْطة الحجاج ـ فوقف على بابه فى جماعة ، فقالوا : إنّ الأمير ـ يعنون الحجاج ـ يدعو حوشبا ، وقد أخرج ميمون غلامه بِرْذَونه ليركب [فكأنه أنكرهم ، فظنوا أنه قد اتهمهم] (٣) فأراد أن يدخَل إلى صاحبه ، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبُك إليك ، فسمع حوشب الكلام ، فأنكر القوم ، وذهب لينصرف فعجِلوا نحوه ، فأغلق الباب دونه ، فقتلوا غلامه ميمونا ، وأخذوا بِرْذَونه ، ومضوا حتى مرُّوا بالجحّاف بن نبيْط الشيبانى ، من رهط حَوْشب . فقال له سوَيد : انزل إلينا ، فقال: ماتصنع بنزولى ؟ فقال : انزل ، إنى لم أقضِك ثمن البَكْرة التى ابتعتها منك بالبادية ، فقال الجحّاف : بئس ساعة القضاء هذه ! و بئس المكان لقضاء الدَّيْن هذا ! و يحك ! أما ذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم ، وأنت على مَتْن فرسك ، قبح الله ياسُوَيد دَينا لا يصلُح ولا يتمّ إلا بقتل الأنفس (٤) وسَفْك الدماء ، ثمّ مرُّوا بمسجد بنى ذُهْل ، فلقُوا ذُهل بن الحارث ، وكان يصلّى فى مسجد قومه ، فيطيل الصلاة إلى الليل ، فصادفوه منصرفا إلى منزله فقتلوه (٥) ثم خرجوا متوجّهين نحو الردمة (٦) ؛ وأمر الحجاج فنودى : ياخيل الله اركبى وأبشرى ، وهو فوق القصر ينادى ، وهناك مصباح مع غلام له قائم .

---

(١) الفرق : مكيال يسع ثلاثة آصع ، أو ستة عشر رطلا . وفى الطبرى : « كيل يكيل به » ؛ وبعده :

عَبْدٌ دَعِيٌّ مِنْ ثَمُودٍ أَصْلُهُ   لَا بَلْ يُقَالُ أبو أبيهِمْ يَقْدُمُ

(٢ـ٢) الطبرى : « ثم اقتحموا المسجد الأعظم ؛ وكان كثيرا لايفارقه قوم يصلون فيه » .

(٣) من الطبرى .

(٤) الطبرى : « بقتل ذوى القرابة وسفك دماء هذه الأمة » .

(٥) فى الطبرى : « فشدوا عليه ليقتلوه ؛ فقال : اللهم إنى أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم ؛ اللهم إنى عنهم ضعيف فانتصر لى منهم ؛ فضربوه حتى قتلوه » .

(٦) الطبرى : « المردمة » .

وكان أوّل مَنْ جاء من النّاس عثمان بن قَطن ، ومعه مواليه ، وناس من أهله ، وقال : أعلموا الأميرَ مكانى ، أنا عثمان بن قطن ، فيأمرنى بأمره ، فناداه الغلام صاحب المصباح : قِفْ مكانك حتى يأتيَك أمرُ الأمير ، وجاء الناس من كلّ جانب ، و بات عثمان مكانَه فيمن اجتمع إليه من النّاس ، حتى أصبح .

وقد كان عبدُ الملك بن مرْوان بعثَ محمد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتان ، وكتب له عهدَه إليها ، وكتب إلى الحجاج : إذا قدِم عليك محمد بن موسى الكوفة ، فجهِّز معه ألفَىْ رجل ، وعَجِّل سَرَاحَه إلى سِجِسْتَان .

فلما قدم الكوفة ، جعل يتجهز [1] فقال له أصحابه ونصحاؤه : تعجَّل أيها الرجل إلى عَمَلك ، فإنك لاتدرِى مايحدث ، وعرض أمرُ شبيب حينئذ ودخولُه الكوفة ، فقيل للحجاج : إنّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصِهْره لأمير المؤمنين عبدالملك ، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه منعك منه ، قال : فما الحيلة ؟ قالوا : أنْ تذكُر له أنّ شبيبا فى طريقه ، وقد أعياك ، وأنك ترجو أن يريح اللهُ منه على يده ، فيكون له ذكر ذلك وشهرته .

فكتب إليه الحجاج : إنّك عامل على كل بلد مررت به ، وهذا شبيب فى طريقك تجاهده ومن معه ، ولك أجره وذكره وصيته ، ثم تمضى إلى عملك فاستجاب له .

و بعث الحجاج بشر بن غالب الأسدىّ فى ألفَىْ رجل ، وزياد بن قدامة فى ألفين ، وأبا الضريس مولى تميم فى ألفٍ من الموالى ، وأعين صاحب حمام أعين مولًى لبشر بن مروان فى ألف ، وجماعة غيرهم ؛ فاجتمعتْ تلك الأمراء فى أسفل الفرات ، وترك شبيب الوجهَ الذى فيه جماعة هؤلاء القُواد ، وأخذ نحو القادسيّة ، فوجه الحجاج زَحْر بن قيس

---

(١) الطبرى : « جعل يتحبس فى الجهاز » ، والتحبس : التوقف والتباطؤ .

فى جَريدة خيل ، تقناوم ، عدتها ألف وثمانمائة فارس ، وقال له : اتبع شبيبا حتى تواقعه حيثما أدركته ؛ فخرج زحْر بن قيس حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[1] ، و بلغ شبيبا مسيره إليه فأقبل نحوه ، فالتقيا ، وقد جعل زحْر على ميمنته عبيد الله بن كنّار ، وكان شجاعا ، وعلى ميسرته عدىّ بن عدىّ بن عُميرة الكندىّ ، وجمع شبيب خيله كلها كبكبة[2] واحدة ، ثم اعترض بها الصّفّ يُوجف[3] وجيفا ، حتى انتهى إلى زحْر بن قيس ، فنزل زَحْر ، فقاتل حتى صُرِع وانهزم أصحابه ، وظن أنه قد قتل .

فلما كان الليل وأصابه البرد ؛ قام يمشى حتى دخل قرية ، فبات بها وحُمِل منها إلى الكوفة ، و بوجهه أربع[4] عشرة ضربة ، فمكث أياما ، ثم أتى الحجّاج ، وعلى وجهه [وجراحه][5] القُطْن ، فأجلسه معه على السرير[6]. وقال أصحابُ شَبيب لشَبيب ؛

---

(١) قال ياقوت : « ذكر سيلحين فى الفتوح وغيرها من الشعر يدل على أنها قرب الحيرة ضاربة فى البر قرب القادسية ؛ ولذلك ذكر الشعراء أيام القادسية مع الحيرة والقادسية ؛ فقال سليمان بن ثمامة حين سير امرأته من اليمامة إلى الكوفة :

فمرّتْ بِبَابِ الْقَادِسِيَّةِ غَدْوَةً	وراحتْها بالسَّيْلَحِين العبـائرُ
فلما انتهتْ دون الخورنقِ عَادَهَا	وَقَصْرُ بنِي النُّعْمَانِ حيثُ الأواخرُ
إلَى أَهْلِ مِصْرٍ أَصْلَحَ اللهُ حَالَهُ	بِهِ الْمُسْلِمُونَ والْجُهُودُ الأكابرُ
فَصَارَتْ إلى أرْضِ الجِهَادِ وَبَلْدَةٍ	مُبَارَكَةٍ والأرضُ فيها مَصَائِرُ
فَأَلْقَتْ عَصَاهَا واسْتَقَرَّ بها النّوَى	كَمَا قَرَّ عَيناً بالإيَابِ الْمُسَافِرُ

(٢) الكبكبة : الجماعة من الناس

(٣) أوجفت الخيل فى السير : سارت سيرا فسيحا واسعا .

(٤) الطبرى : « وبوجهه بضعة عشر جراحة ؛ من بين ضربة وطعنة .

(٥) من الطبرى .

(٦) فى الطبرى بعدها : « وقال لمن حوله : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين الناس وهو شهيد ؛ فلينظر إلى هذا » .

وهم يظنون أنهم قد قتلوا زَحراً : قد هزمنا جندهم ؛ وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيما ؛ فانصرِفْ بنا الآن موفورين[1] . فقال لهم : [2]إنّ قتلَكم هذا الرجل [3] وهزيمتَكم هذا الجند ؛ قد أرعب هؤلاء الأمراء [2] فاقصِدوا بنا قَصْدهم ؛ فوالله لئن نحن قتلناهم مادون قَتْلِ الحجاج ؛ وأخْذ الكوفة شىء . فقالوا له : نحن طوعٌ لأمرك ورأيك ؛ فانفضّ بهم جادًّا[4] ؛ حتى أتى ناحية عين[5] التمر ؛ واستخبَر عن القوم ، فعرف اجتماعهم فى رُوذْبَار[6] فى أسفل الفرات ، على رأس أربعة وعشرين فرْسخا من الكوفة .

وبلغ الحجاجَ مسير شبيب إليهم ؛ فبعث إليهم[7] : إنْ جَمَعَكم قِتال ؛ فأميرُ الناس زائدة بن قدامة .

فانتهى[8] إليهم شبيب ، وفيهم سبعة أمراء ؛ على جماعتهم زائدة بن قدامة ، وقد عَبّى كلّ أميرٍ أصحابه على حِدَة ، وهو واقف فى أصحابه ، فأشرَف شبيبٌ على الناس ؛ وهو على فرس أغرّ كُميت[9] فنظر إلى تعبيتهم ؛ ثم رجع إلى أصحابه ، وأقبل فى ثلاث كتائب يزحف[10] بها ، حتى إذا دنا من الناس ، مضتْ كُتيبة فيها سويد بن سليم ؛

---

(١) الطبرى : وافرين »

(٢-٢) الطبرى : « فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ؛ وهزيمتنا هذا الجند قد أرعبت هذه الأمراء والجنود التى بعثت فى طلبهم » .

(٣) الطبرى : « مادون الحجاج من شىء وأخذ الكوفة إن شاء الله » .

(٤) الطبرى : « جواداً » .

(٥) فى الطبرى : « نجران الكوفة ناحية عين التمر » . ونجران الكوفة ، على يومين منها ؛ فيما بينها وبين واسط ، على الطريق ؛ سكنه أهل نجران لما أجلاهم عمر ؛ فسموا الموضع باسمهم. وعين التمر : بلدة فى طرف البادية على غربى الفرات ؛ أكثر نخلها القسب ، ويحمل إلى سائر الأماكن . (مراصد الاطلاع) .

(٦) روذبار ؛ ضبطه صاحب مراصد الاطلاع ، بضم أوله وسكون ثانية وذال معجمة ، وباء موحدة ، وآخره راء ؛ قال: ويطلق على عدة مواضع .

(٧) فى الطبرى : « فبعث إليهم عبد الرحمن بن الفرق ، مولى ابن أبى عقيل، وكان على الحجاج كريما » .

(٨) الكلام فى الطبرى ، عن أبى مخنف عن عبد الرحمن بن جندب .

(٩) الكميت من الخيل : مابين الأسود والأحمر . والأغر : ما كان بجبهته غرة .

(١٠) فى الطبرى : « يوجفون بها » .

فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة ؛ وفيها زياد بن عمرو العَتَكِىّ ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفتْ بإزاء الميسرة ، وفيها بشر بن غالب الأسدىّ ، وجاء شبيب فى كَتِيبة ؛ حتى وقف مُقابل القوم فى القَلْب ، فخرج زائدة بن قدامة يسير فى الناس بين الميمنة والميسرة ، يحرِّض الناس ، ويقول : عبادَ الله ؛ إنكم الطَّيِّبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ؛ فاصبِروا جعلت لكم الفداء ! إنّما حَمْلتان أو ثلاث ؛ ثم هو النصر ليس دونه شيء ؛ألا ترَوْنهم والله لايكونون مائتى رجل ، إنما هم أَكَلَة رأس[1] وهم السُّرّاق المرّاق ؛ إنما جاءوكم ليُهرِيقوا دماءكم ، ويأخذوا فيئكم ؛ فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ؛ وهم قليل وأنتم كثير ؛ وهم أهل فُرْقة وأنتم أهلُ جماعة ، غُضُّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنّة ؛ ولا تحملوا عليهم حتى آمركم .

ثم انصرف إلى موقفه ، فحمل سُويد بن سليم على زياد بن عمرو العَتِكىّ ، فكشف صَفّه ، وثبت زياد قليلا ثم ارتفع سويد عنهم يسيرا ثم كرّ عليهم ثانية[2] .

فقال فروة بن لَقِيط الخارجىّ[3] . اطَّعَنّا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالا شديدا[4] ، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذ ، وإنه لأشدّ العرب قتالا وأشجعهم ؛ وهو واقف لايعرِض لهم ؛ ثم ارتفعنا عنهم ؛ فإذا هم يتقوّضون ؛ فقال بعض أصحابنا لبعض : ألا ترَوْنهم يتقوّضون ! احمِلوا عليهم ؛ فأرسل إلينا شَبيب : خَلّوهم لاتحمِلُوا عليهم حتى يخفّوا ، فتركناهم قليلا ، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو ؛ وإنه ليضرَبُ بالسيوف ؛ وما من سيف يُضْرَبُ به

---

(١) يقولون : هم أكلة رأس ؛ أى هم قليل يشبعهم رأس واحد .

(٢) فى الطبرى بعدها : « فاطعنوا ساعة »

(٣) فى الطبرى : « قال أبو مخنف فحدثنى فروة »

(٤) فى الطبرى بعدها : « وجعل ينادى : ياخيلى ، ويشد بالسيف ، فيقاتل قتالا شديدا » .

إلّا نَبَا عنه ؛ ولقد اعتوره أكثرُ من عشرين سيفا ، وهو مجفّف ، فما ضرّه شيء منها ثم انهزم[1] .

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجِسْتَان عند المغرب ؛ وهو قائم فى أصحابه ؛ فقاتلناه قتالا شديدا ، وصَبَر لنا .

ثم إن مصاداً حَمَل[2] على بِشْر بن غالب فى الميسرة فَصبَر وكَرُم وأبْلَى ، ونزل معه رجال من أهل البَصْرة نحو خمسين، فضاربوا بأسيافهم[3] حتى قتلوا ثم انهزم أصحابُه فشدَدْنا على أبى الضريس ؛ فهزمناه ، ثم انتهينا إلى موقف أعين ، ثم شددنا على أعْيَن ؛ فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدامة ، فلما انتهوْا إليه ؛ نزل ونادى : ياأهلَ الإسلام ، الأرضَ الأرض ؛ ألا لايكونُون على كفرهم أصبرَ منكم على إيمانكم . فقاتلوا عامّة الليل إلى السحر .

ثم إن شبيباً شدّ على زائدة بن قدامة فى جماعة من أصحابه ، فقتله وقتل رِبْضَةً[4] حوله من أهل الحفّاظ ؛ ونادى شبيب فى أصحابه : ارفعوا السيف ؛ وادعُوهم إلى البيعة ؛ فدعَوْهم عند الفجر إلى البيعة .

قال عبد الرحمن[5] بن جندب : فكنتُ فيمَنْ تقدّم فبايعه بالخلافة ؛ وهو واقف على

---

(١) فى الطبرى بعدها : « وقد جرح جراحة يسيرة ؛ وذلك عند المساء ، قال: ثم شددنا على عبد الأعلى ابن عبد الله بن عامر ؛ فهزمناه وما قاتلنا كثير قتال ؛ وقد ضارب ساعة ؛ وقد بلغنى أنه كان جرح ثم لحق بزياد بن عمرو فمضيا منهزمين ؛ حتى انتهينا إلى محمد بن موسى . . . » .

(٢) الكلام هنا فى الطبرى عن هشام عن أبى مخنف ، عن عبد الرحمن بن جندب وفروة بن لقيط .

(٣) فى الطبرى بعدها : « حتى قتلوا عن آخرهم ؛ وكان فيهم عروة بن زهير بن ناجذ الأزدى ، وأمه زرارة ؛ امرأة ولدت فى الأزد ، فيقال لهم بنو زرارة ، فلما قتلوه وانهزم أصحابه ، مالوا فشدوا على أبى الضريس » .

(٤) فى الطبرى : « وتركهم ربضة حوله » ، والربضة : كل قوم قتلوا فى موقعة واحدة ؛ وفى الحديث : « الذين قتلوا يوم الجماجم كانوا ربضة واحدة » .

(٥) فى الطبرى بعدها عن أبى مخنف : « وحدثنى عبد الرحمن بن جندب قال : سمعت زائدة بن قدامة ليلتئذ رافعا صوته ، يقول : يأيها الناس ، اصبروا وصابروا ؛ يأيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . ثم مابرح يقاتلهم مقبلا غير مدبر حتى قتل » .

فرسٍ أغرّ كُمَيت ؛ وخيله واقفة دونه وكلُّ مَنْ جاء ليبايِعَه يُنزع سيفه عن عاتقه ؛ ويؤخذ سلاحُه ؛ ثم يدنو من شبيب فيسلِّم عليه بإمْرة المؤمنين ؛ [١] ثم يبايع ؛ فإنّا كذلك إذ أضاء الفجر [٢] ومحمد بن موسى بن طلحة فى أقصى العسكر مع أصحابه ؛ وكان الحجّاج قد جَعَل موقفه آخر الناس ، وزائدة بن قدامة بين يديه ، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلِّها، فأمر محمد مؤذِّنه فأذّن ؛ فلما سمع شبيب الأذان ، قال : ماهذا ؟ قيل : هـذا ابنُ طلحـة لم يبرحْ ، قال : ظننتُ أنّ حمقه وخُيَلاءه سيحملانه على هذا ، نحُّوا هؤلاء عنّا، وانزلوا بنا فلنصلِّ ، فنزلَ وأذّن هو ؛ ثم استقدم فصلّى بأصحابه ، وقرأ : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ ، و ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّين ﴾ ثم سلّم وركب [٣] ؛ وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة : إنك امرؤٌ مخدوع قد اتّقَى بك الحجاج المنية ، وأنت لى جارٌ بالكوفة ، ولك حقّ ؛ فانطلِقْ لما أمِرتَ به ؛ ولك الله ألّا أسوءك [٤] ؛ فأبى محاربته [٥] فأعاد عليه الرسول فأبى إلّا قتاله ؛ فقال له شبيب : كأنّى بأصحابك لو التقتْ حَلْقتا [٦] البِطان لأسلموك ، وصُرِعتَ مصرَع أمثالِك ؛ فأطِعْنى وانصرفْ

(١) فى الطبرى : « ثم يخلى سبيله » .

(٢) فى الطبرى : « إذ انفجر الفجر » .

(٣) فى الطبرى : « ثم ركبوا فحمل عليهم ، فانكشفت طائفة من أصحابه ، وثبتت طائفة ؛ قال فروة : فما أنسى قوله ؛ وقد غشيناه وهو يقاتل بسيفه ؛ وهو يقول : ﴿ ألم ، أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ . قال : وضارب حتى قتل ، فسمعت أصحابى يقولون : إن شبيبا هو الذى قتله . ثم إنا نزلنا فأخذنا ماكان فى العسكر من شىء ، وهرب الذين كانوا بايعوا شبيبا ، فلم يبق منهم أحد . . . » :

(٤) الطبرى : « ولك الله لا آذيتك » .

(٥ ـ ٥) الكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ؛ بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٦) البطان : حزام الرحل أو القتب الذى يلى البطن ، له حلقتان فى كل طرف حلقه؛ يصعب التقاؤهما؛ فإذا التقتا ، بلغ الشد غايته ؛ يريدون أن الشدة بلغت منتهاها ؛ وهو مثل ، ومنه قول أوس :

وإذَا الْتَقَتْ حَلْقَتَا البِطَانِ بِأَقْــوَامٍ وطَارَتْ نفُوسُهُمْ جزَعَا

لشأنِك ؛ فإنى أنفسُ بك عن القَتْل ؛ فأبى وخرج بنفسه؛ ودعا إلى البِراز ، فبرز له البَطين، ثم قَعنَب بن سويد ؛ وهو يأبى إلا شبيباً ، فقالوا لشبيب : إنّه قد رَغِبِ عَنّا إليك؛ قال:فما ظنُّـكم بمَنْ يرغب عن الأشراف ! ثم برز له ، وقال له : أنشدك الله يامحمد فى دمك ! فإنّ لك جواراً . فأبى إلّا قتاله ، فحمل عليه بعموده الحديد ؛ وكان فيه اثنا عشر رِطْلاً ، فهشم رأسَه و بيضةً كانت عليـه فقتله ؛ ونزل إليه فـكفّنه ، ودفنه ، وتَتَبّع ماغنم الخوارجُ من عسكره ؛ فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه ، وقال : هو جارِى بالـكوفة ؛ ولى أنْ أهبَ ماغنمت، فقال له أصحابه: مادون الـكوفة الآن أحد يمنعك ؛ فنظر فإذا أصحابه قد فَشَا فيهم الجِراح ؛ فقال : ليس عليكم أكثر مّما قد فعلتم [١] .

وخرج بهم على نِفَّرَ [٢] ، ثم خرج بهم نحو بغـداد [٣] ؛ يطلب خَانِيجار [٤] .

و بلَغ الحجّاج أنّ شَبيباً قد أخذ نحو نِفَّر ؛ فظنّ أنّه يرِيدُ المدائن ؛ وهى باب الـكوفة ؛ ومَنْ أخذَ المدائن كان مافى يديه من أرض الـكوفةِ أكثر ؛ فهالَ ذلك الحجّاج ، و بعثَ إلى عثمان بن قطن ، فسرّحه إلى المدائن ، وولّاه مِنْبَرَها والصلاة ، ومعونة جُوخَى كلّها ؛ وخراج الإسْتان ، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحجاجُ ابنَ أبى عصيفيرعن المدائن ، وكان الجزْل مقيماً بِهَا يُدَاوِى جِراحاته ؛ وكان ابن أبى عصيفير يعوده و يكرمه ، ويُلْطِفه [٥] ، فلما قدِم عثمان بن قطن لم يكن يتعاهده ولا يُلْطِفُه بشىء ؛ فـكان الجزل يقول : اللّهم زد ابن أبىعصيفير فَضْلًا وكرما ؛ وزد عثمان بن قطن ضيقاً و بخلا .

* * *

(١ـ١) الـكلام هنا يختلف عما فى الطبرى ، بالتقديم والتأخير واختلاف العبارات .

(٢) نفر ، بكسر أوله وتشديد ثانيه وفتحه وراء : بلدة أو قرية على نهر النرس ، من بلاد الفرس ، عن الخطيب ، فإن كان عنى أنه من بلاد الفرس قديما جاز ، فأما الآنفهو من نواحى بابل بأرض الـكوفة (ياقوت) .

(٣) فى الطبرى : « ثم على الصراة ، ثم على بغداد » .

(٤) خانيجار : بليدة قرب دقوقاء ، وبعدها فىالطبرى : « فأقام بها » .

(٥) ألطف فلان فلانا: أكرمه وبره وأتحفه .

ثم إنّ الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقال له : انتخب الناس ؛ فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَة ؛ وأخرج من سائر الناس ستّة آلاف، واستحثّه الحجاج على الشخوص ؛ فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن ؛ فلما استتمّوا هناك، كتب إليهم الحجاج كتاباً قرئ عليهم :

أما بعدُ ؛ فقد اعتدتم عادة الأذِلّاء ، ووليتم الدُّبُر يوم الزَّحْف ؛ دأبَ الكافرين [(١)] وقد صفحتُ عنكم مَرّةً بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ؛ وإنى أقسم بالله قسماً صادقا ، لئن عُدْتم لذلك لأوقِعَنّ بكم إيقاعاً يكون أشدّ عليكم من هذا العدوّ الذى تنهزمون [(٢)] منه فى بطون الأودية والشعاب ، وتستترون منه بأثناء [(٣)] الأنهار وألواذ [(٤)] الجبال ؛ فليخَفْ مَنْ كان له معقولٌ [(٥)] على نفسه ، ولا يجعل عليها سبيلا ، فقد أعْذَر مَنْ أنذر ، والسلام .

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس ؛ حتى مَرّ بالمدائن ، فنزل بها يوماً ليشتريَ أصحابُه منها حوائجهم ؛ ثم نادى فى الناس بالرحيل ؛ وأقبل حتى دخل على عثمان بن قطن مودّعا ؛ ثم أتى الجزْل عائداً ، فسأله عن جِراحته ، وحادثه ، فقال الجزل : يابن عمّ ؛ إنك تسير إلى فرسان العرب ، وأبناء الحرب ، وأحْلاس [(٦)] الخيل ؛ والله لكأنّما خُلِقوا من ضُلوعها ؛ ثم رُبُّوا [(٧)] على ظهورها ؛ ثم هم أُسْدُ الأجَم ؛ الفارسُ منهم أشدّ من مائة ؛ إن لم يُبْدَأْ به

---

(١) الطبرى : « وذلك دأب الكافرين » .
(٢) الطبرى : « تهربون »
(٣) الأثناء : جمع ثنى ، وهو المنعطف .
(٤) الألواذ : جمع لوذ ، وهو جانب الجبل .
(٥) المعقول هنا : العقل ، وهو مصدر من المصادر التى وردت على اسم المفعول ، كالمجهود والميسور ؛ وفى المثل : « ماله حول ولا معقول » .
(٦) الحلس فى الأصل : كل شىء ولى ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج، كالمرشحة تكون تحت اللبد ويقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها، على التشبيه بالحلس .
(٧) فى الطبرى : « بنوا » .

بدأ هو ، وإن هُجْهِج [1] أقْدَم ؛ وإنى قد قاتلتُهم وبلوتُهم ؛ فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا مِنّى ؛ وكان لهم الفضل علىّ ، وإذا خندقتُ أو قاتلت فى مَضِيق نلت منهم ماأحبّ ؛ وكانت لى عليهم ؛ فلا تَلْقَهُم وأنت تستطيع إلا وأنت فى تعبية أو خندق؛ ثم ودعه، وقال له : هذه فرسى الفسيفساء ؛ خذها ؛ فإنها لاتجارَى ؛ فأخذها ؛ ثم خرج بالناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع شَبِيب عنه إلى دَقُوقاء وشهر زور ؛ فخرج عبدُ الرحمن فى طلبه ؛ حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرضِ أقام ، وقال : إنّما هو فى أرض الموصل ؛ فليقاتِلْ أميرُ الموصل وأهلُها عن بلادهم ؛ أو فليدعوا .

وبلغ ذلك الحجّاج ؛ فكتب إليه .

أما بعدُ فاطلب شبيبا ؛ واسلُكْ فى أثره [2] أيْنَ سلك حتى تدرِكه فتقتله ، أو تنفيَه عن الأرض ، فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين ، والجند جندُه . والسلام .

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرجَ فى طلب شبيب ؛ فكان شبيب يَدَعُه ؛ حتى إذا دنا منه ليبيته فيجده قد خندق وحَذِر ، فيمضى ويتركه ؛ فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغ شبيبا أنّه قد تحمّل وسار يطلبه كرّ فى الخيل نحوه ؛ فإذا انتهى إليه وجده قد صَفّ خيلَه ورجّالته المرامية ، فلا يصيبُ له غِرّة ولا غفلة [3] ؛ فيمضى ويدَعه .

ولمارأى شبيبٌ أنّه لا يصيب غِرّته ، ولا يصل إليه؛ صار يخرج كلّما دنامنه عبد الرحمن؛ حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخا؛ ثم يقيم فى أرض غَلِيظة وَعْرَة ؛ فيجىء عبدُ الرحمن فى ثَقَلِه وخيله؛ حتى إذا دنا من شبيب ارتحل ؛ فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخا ؛ فنزل منزلا غَلِيظاً خشنا ؛ ثم يقيم حتى يبلُغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل ؛ ثم يرتحل ؛ فعذّب العسكر ، وَشَقّ عليهم ، وأحْفَى دوابّهم ؛ ولَقُوا منه كلّ بلاء .

---

(١) هجهج : صبح به .

(٢) ج : « واسلك أينماسلك » .

(٣) الطبرى : « ولا له علة » .

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه ؛ حتى صار إلى خانقين وجلولاء ، ثم أقبل على تَامَرّا [1] ؛ فصارا إلى البَتّ ، ونزل على تُخوم الموصل ليس بينه و بين الكوفة إلا نهر حَوْلَايا [2] ، وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بشرقيّ حَوْلَايا ، وهم فى راذان [3] الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل فى عواقيل [4] من النهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها ، وهى تعجبه ، يرى أنها مثل الخندق الحصين .

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أنّ هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ؛ فإن رأيتُم أن توادعونا حتى تمضِيَ هذه الأيام فعلتم ؛ فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك ؛ ولم يكن شىء أحبّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج :

أما بعد ؛ فإنى أخبرُ الأمير أصلحه الله ! أنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جُوخَى كلّها عليه خندقا واحدا ، وخلّى شبيبا ، وكسر خراجها ، فهو يأكل أهلها ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

قد فهمتُ ما ذكرت ؛ وقد لَعمرِى فَعل عبد الرحمن ، فسِرْ إلى الناس ، فأنت أميرُهم ؛ وعاجل المارِقة حتى تلقاهم ؛ [فإن الله إن شاء ناصرك عليهم] [5] ، والسلام .

و بعث الحجاج على المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدِم على

---

(١) تامرا ، بفتح الميم وتشديد الراء ، والقصر : نهر كبير تحت بغداد ، شرقيها ، مخرجه من جبال شهرزور . (مراصد الاطلاع) .

(٢) حولايا ، بفتح الحاء وسكون الواو وآخره ياء وألف : قرية كانت بالنهروان خربت بخرابه . (مراصد الاطلاع)

(٣) فى الأصول : « ذاذان » تصحيف ، وصوابه من الطبرى ، قال فى مراصد الاطلاع : راذان بعد الألف ذال معجمة وآخره نون : رذان الأعلى ورذان الأسفل : كورتان ببغداد تشتمل على قرى كثيرة » .

(٤) العواقيل : جمع عاقول ، وهو منعطف النهر .

(٥) من الطبرى .

عبد الرحمن ومَنْ معه ؛ وهم معسكرون على نهر حوْلايا ، قريبا من البتّ ؛ وذلك يوم التروية [١] عشاء ؛ فنادى فى الناس ، وهو على تَلْعة [٢] : أيها الناس ،اخرجوا إلى عَدُوّكم. فوثبوا إليه ، وقالوا : ننشدُك الله ! هذا المساء قد غُشِينا والناس لم يوطّنوا أنفسَهم على القتال، فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبية ، فجعل يقول : لأناجِزَنّهم الليلة ، ولتكونَنّ الفرصة لى أولهم ، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فأخذ بِعنان بَغْلته ، وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شَدّاد السلولىّ : إنّ الذى تريدُه من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غدا ، وهو خير لك وللناس ، إنّ هذه ساعة ريح قد اشتدت مساء ، فانزل ، ثم أبكِرْ بنا غدوة .

فنزل وسَفَت عليه الريح ، وشقّ عليه الغبار ، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجا ، فبنوْا له قُبّة ، فبات فيها ؛ ثم أصبح فخرج بالناس ؛ فاستقبلتْهم ريح شديدة وغَبَرة ، فصاح الناسُ إليه ، وقالوا : ننشدك الله ألّا تخرج بنا فى هذا اليوم ! فإنّ الريح علينا ، فأقام ذلك اليوم .

وكان شبيب يخرج إليهم ، فلما رآهم لا يخرجون إليه أقام ، فلما كان الغد خرج عثمان يعبّى الناس على أرباعهم ، وسألهم : مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم ؟ فقالوا: خالد بن نَهيك بن قيس الكِنْدىّ على ميسرتنا ، وعَقيل بن شَدّاد السلولىّ على ميمنتنا ، فدعاهما فقال لهما : قفا فى مواقفكما التى كنتما بها ، فقد ولّيتُكما الجنبين ، فاثبتا ولا تفرّا ، فوالله لا أزولُ حتى تزُولَ نخيل راذان عن أصولها ، فقالا : نحن والله الذى لا إله إلا هو لا نفرّ حتى نظفر أو نقتل ؛ فقال لهما : جزاكما الله خيرا ! ثم أقام حتى صلّى بالناس الغداة، ثم خرج بالخيل ، فنزل يمشى فى الرّجال ، وخرج شبيب ، ومعه يومئذ مائة وأحد وثمانون رجلا ، فقطع إليهم النهر ؛ وكان هو فى ميمنة أصحابه ، وجعل على الميسرة سويد بن سليم ، وجعل فى القلب مُصَادا أخاه ؛ وزحفوا ، وكان عثمان بن قطن يقول لأصحابه فيكثر : ﴿ قُلْ لَنْ

---

(١) يوم التروية : الثامن من ذى الحجة .

(٢) التلعة هنا : ماعلا من الجبل ، وفى الطبرى : « على بغلة » .

يَنفَعَكُمُ الفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْل وَ إِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ .

ثم قال شبيب لأصحابه : إنى حاملٌ على ميسرتهم ؛ مما يَلِى النهر ؛ فإذا هزمتُها فليحمِلْ صاحبُ ميسرتى على ميمنتهم، ولا يبرحْ صاحبُ القلب حتى يأتيَه أمرى، ثم حمل فى ميمنة أصحابه مما يلى النهر على ميسرة عثمان بن قطن ؛ فانهزموا ، ونزل عقيل بن شدّاد مع طائفة من أهل الحفاظ ؛ فقاتل حتى قُتِل ، وقتلوا معه [1] .

ودخل شبيب عسكرَهم ، وحمل سويد بن سليم فى ميسرَة شبيب على عثمان بن قطن ، فهزمها ، وعليها خالد بن نَهيك الكِنْدى ، فنزل خالد ، وقاتل قتالا شديدا ، فحمل عليه شبيب مِنْ ورائه ؛ فلم يَنْثَنِ حتى علاه بالسيف فقتَله ، ومشى عُثمان بن قطن ؛ وقد نزلت معه العُرَفاء والفُرْسان وأشرافُ الناس نحو القلب ؛ وفيه أخو شَبيب فى نحو من ستين رجلا ؛ فلمّا دَنَا منهم عثمان ؛ شَدَّ عليهم فى الأشراف ، وأهل الصبر ؛ فضربهم مَصَاد وأصحابه ، حتى فرّقوا بينهم ، وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل ، فما شعَرُوا إلّا والرِّماح فى أكتافهم تَكُبّهم لوجوههم ، وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً فى خيله ؛ وقاتل عثمانُ فأحسنَ القتال .

ثم إن الخوارجَ شدُّوا عليهم ؛ فأحاطوا بعُثمان ، وحَمَل عليه مَصاد أخو شبيب ؛ فضربه ضربةً بالسيف فاستدار لها ، وسقط ، وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾ ، فقتل وقُتِل معه العُرَفاء ووجوه الناس ، وقُتِل مِنْ كِنْدة يومئذ مائة وعشرون رجلا ، وقتل مِنْ سائر الناس نحو ألف ، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض ، فعرَفه

---

(١) فى الطبرى : وقتل يومئذ مالك بن عبد الله الهمدانى ، ثم المرهبى ، عم عياش بن عبدالله بن عياش المنتوف ، وجعل يومئذ عقيل بن شداد يقول وهو يجالدهم :

لأضرِبنّ بالحُسَامِ الباترِ ضَرْبَ غلامٍ من سلولَ صابرِ

ابن أبي سَبْرة ، فنزل وأركبه ؛ وصار رديفاً له [1] . وقال له عبدُ الرحمن : نادِ في الناس ، الحقوا بدَيْر ابن أبي مريم ؛ فنادى بذلك ؛ وانطلقا ذاهبين ، وأمر شبيب أصحابَه ، فرفعوا عن الناس السيف ؛ ودعاهم إلى البيعة ، فأتاه مَنْ بَقِيَ من الرجال ، فبايعوه ، وبات عبدُ الرحمن بدير اليعار ، فأتاه فارسان ليلًا ، فخلا به أحدُهما يناجيه طويلا ، وقام الآخر قريبا منهما ، ثم مَضَيا ولم يعرفا ؛ فتحدّث الناس أن المناجِيَ له كان شبيبا ؛ وأنّ الذى كان يرقُبُهما كان مصَادا أخاه ؛ واتّهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل .

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل ، فسار حتى أتى دير ابن أبي مريم ؛ فإذا هو بالناس قَبْله قد سَبَقوه ، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبَرَ الشعير والقَتّ [2] كأنها القصور ؛ ونحر لهم من الجزور ماشاءوا ، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن ، فقالوا له : إن علم شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة ؛ قد تفرّق الناس عنك ، وقُتِل خيارهم ، فالحق أيّها الرجل بالكوفة .

فخرج وخرج معه الناس ؛ حتى دخل الكوفةَ مستترا من الحجاج ، إلى أن أخِذ له الأمان بعد ذلك .

* * *

ثم إن شبيبا اشتدّ عليه الحرّ وعلى أصحابِه ، فأتى ماه بهراذان فصيَّف [3] بها ثلاثة أشهر ، وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير ، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم

---

(١) فى الطبرى : « فقال عبد الرحمن بن محمد : أينا الرديف ؟ قال ابن أبى سبرة : سبحان الله ! أنت الأمير تكون المقدم فركب » .

(٢) فى الأصول : « القيت » ، وما أثبته من الطبرى ، وفيه : « بعضه على بعض » .

(٣) صيف بالمكان : أقام به صيفا ، وفى الطبرى : « تصيف » ، وهما بمعنى .

الحجاج بمال وتبعة[١] ، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبد الله بن عوف ؛ كان قتل دِهْقانين من أهل دير قيط ؛ كانا أساءا إليه ، ولحق بشبيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك ؛ وله مقام عند الحجاج ، وكلام سَلِم به من القتل ؛ وهو أنّ الحجاج بعد هلاك شبيب ، أمَّن كلّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ ، أو تبعة ، فخرج إليه الحرّ فيمن خرج ، فجاء أهل الدهقانين يستعدُون عليه الحجّاج ، فأحضره ، وقال : ياعدوّ الله ؛ قتلت رجلَيْن من أهل الخراج فقال : قد كان أصلحك الله ! مِنى ماهو أعظم من هذا ، قال : وما هو ؟ قال : خروجى عن الطاعة ، وفراقى الجماعة ؛ ثم إنك أمَّنت كلّ من خرج عليك ؛ وهذا أمانِى وكتابك لى .

فقال الحجاج : قد لَعَمْرِى فعلتُ ذلك أوْلى‌لك! وخَلّى سبيله .

ثم لما باخ الحرّ[٢] ، وسكن عن شبيب ؛ خرج من ماه نهروان فى نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن ؛ وعليها المطرف بن المغيرة بن شعبة ؛ فجاء حتى نزل قناطر حذيفة[٣] بن اليمان فكتب ماذراسب[٤] وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدومه إلى قناطر حذيفة ، فقام الحجاج فى الناس وخطبهم ، وقال :

أيها الناس ؛ لتقاتِلُنّ عن بلادكم وفيئكم ، أو لأبعثنّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع ؛ وأصبرَ على البلاء[٥] منكم ، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم - يعنى جند الشام .

فقام إليه الناس من كلّ جانب ؛ يقولون : بل نحن نقاتلهم ، ونُغيث[٦] الأمير ؛ فليندبْنا إليهم ؛ فإنّا حيث يسره .

---

(١) فى الطبرى : « التباعات » .
(٢) باخ الحر : سكن وفتر . وفى الطبرى : « انفسح » .
(٣) قناطر حذيفة : بسواد بغداد .
(٤) فى الطبرى : « ما ذرواسب » .
(٥) الطبرى : « اللأواء » .
(٦) الطبرى : « ونعتب » .

وقام إليه زهرة بن حَوِّية ؛ وهو يومئذ شيخ كبير لايَسْتَتِمّ قائما ؛ حتى يؤخذ بيده ، فقال : أصلح الله الأمير ! إنك إنما تبعث الناس متقطعين ؛ فاستنفر إليهم الناس كافة ، وابعث عليهم رجلا متيناً شجاعا مجر با ، يرى الفِرار هَضْما وعارا ، والصبر مجدا وكرما .

فقال الحجّاج : فأنت ذاك ؛ فاخرج .

فقال : أصلح الله الأمير ! إنّما يصلح لهذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدِّرْع ويَهُزّ السيف ، ويثبُت على مَتْن الفرس ، وأنا لاأطيق ذلك ؛ قد ضعفت وضَعُف بصرى (١ ولكن امشى مع أميرٍ تعتمده ؛ فأكون فى عسكره ، وأشير عليه ١) برأيى .

فقال : (٢ جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيرا ٢) ؛ لقد نصحت وصدَقت ، وأنا مخرج الناس كافة ؛ ألا فسيرُوا أيها الناس .

فانصرف الناس يتجهزون وينتشرون ، ولا يدرون مَنْ أميرهم .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك :

أما بعد ؛ فإنى أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله ؛ أنّ شبيبا قد شارفَ المدائن ؛ وإنما يريدُ الكوفة ؛ وقد عَجَز أهل العراق عن قِتاله فى مواطنَ كثيرة ، فى كلّها تُقتَل أمراؤهم ويُفَلّ خيولهم (٣) وأجنادهم ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلىّ جنداً من جند الشام، ليقاتلوا عدوّهم ، ويأكلوا بلادهم ؛ فعل إن شاء الله .

فلما أتى عبدَ الملك كتابُه ، بعث إليه سفيان بن الأبرد فى أربعة آلاف، وبعث إليه حبيب ابن عبد الرحمن [الحكمىّ] (٤) من (٥) مذحِج فى ألفين ؛ وسَرّحهم نحوه حين أتاه الكتاب.

(١ـ١) الطبرى : « ولكن أخرجنى فى الناس مع الأمير، فإنى إنما أثبت على الراحلة ،فأكون مع الأمير فى عسكره ، وأشير عليه برأيى » .

(٢ـ٢) الطبرى : « جزاك الله عن الإسلام وأهله فى أول الإسلام خيرا ، وجزاك الله عن الإسلام فى آخر الإسلام خيرا »

(٣) الطبرى : « جنودهم » .

(٤) من الطبرى .

(٥) فى الأصول . « ابن » ، وماأثبته من الطبرى .

وقد كان الحجّاج يبعث إلى عَتّاب بن ورقاء الرِّياحىّ ليأتيَه ، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب ،ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة،منهم زهرة بن حَويّة ، وقبيصة بن والق ، فقال : مَنْ ترون أنْ أبعثَ على هذا الجيش ؟ قالوا : رأيك أيها الأمير أفضلُ ؛ قال : إنّى قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة ، فيكون هو الذى يسير بالناس ، فقال زهرة بن حَويّة : أصلَحَ الله الأمير ! رميتَهم بحَجَرهم ، لا والله لا يرجعُ إليك حتى يظفَر أو يقتل .

فقال قبيصة بن والق : وإنّى مشيرٌ عليك أيها الأمير برأىٍ اجتهدتُه ، نصيحةً لك ولأمير المؤمنين ولعامّة المسلمين ، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّ جيشاً قد وَصَل إليك من الشام ؛ لأنّ أهل الكوفة قد هُزِموا ، وهان عليهم الفِرار والعار من المزيمة ، فكأنّما قلوبهم فى صدور قوم آخرين ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تبعثَ إلىّ الجيش الذى قد أُمددتَ به من أهل الشام ، فليأخذوا حذرهم ، ولا يبيتوا بمنزلٍ إلا وهم يرَوْن أنهم يبيتون ، فإن فعلت فإنك إنما تحارب حُوّلًا قُلّباً مِحْلَالًا مظعانا [١] ، إنّ شبيبا بينا هو فى أرض إذا هو فى أخرى ، ولا آمن أن يأتيَهم وهم غارّون ، فإن يهلكوا يهلك العراق كلّه .

فقال الحجاج : لله أبوك ! ما أحسنَ ما رأيت ! وما أصحّ ما أشرت به . فبعث إلى الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرءوه وقد نزلوا هِيت ؛ وهو : أما بعد ؛

فإذا حاذيتم هِيت، فدَعُوا طريق الفرات والأنبار ،وخذوا عَلَى عين التمْر ،حتى تقدموا الكوفة ، إن شاء الله [٢].

فأقبل القوم سِراعا ، وقدم عَتّاب بن ورقاء فى اللية التى قال الحجاج إنه فيها قادم ؛ فأمره الحجّاج ، فخرج بالنّاس ، وعسكر بحمّام [٣] أعين ، وأقبل شبيب حتى انتهى

---

(١) الطبرى : « ظعانا رحالا » .

(٢) فى الطبرى بعدها : « وخذوا حذركم وعجلوا السير ، والسلام » :

(٣) حمام أعين : موضع بالكوفة ، منسوب إلى أعين، مولى سعد بن أبى وقاص .

إلى كَلْوَاذى [١] ، فقطع منها دِجْلة ، وأقبل حتى نزل بَهُرَسِير [٢]،وصار بينه و بين مطرف وابن المغيرة بن شعبة جسر دجلة ، فقطع مطرف الجسر ، ورأى رأيا صالحا كادَ به شبيباً ؛ حتى حبسه عن وجهه ، وذلك أنّه بعث إليه : أن ابعثْ إليّ رجالًا من فقهاء أصحابك وقرّائهم ؛ وأظهر له أنّه يريد أن يدارِسَهم القرآن ، وينظر فيما يدعون إليه ، فإن وجد حقا اتّبعه ، فبعث إليه شبيب رجالا ؛ فيهم قَعْنب وسويد والمجلّل، ووصّاهم ألّا يدخلوا السفينة حتى يرجع رسولُه من عند مطرّف ، وأرسل إلى مطرّف : أن ابعثْ إلىّ من أصحابك ووجوه فُرسانك بعدة أصحابى ؛ ليكونوا رَهْناً فى يدى ، حتى تردّ علىّ أصحابى ، فقال مطرّف لرسوله : القه ، وقل له : كيف آمنك الآن على أصحابى ، إذ أبعثهم إليك ، وأنت لا تأمنُنى على أصحابك ! فأبلغه الرسول ، فقال : قل له : قد عَلِمت أنّا لا نستحلّ الغَدْر فى ديننا ، وأنتم قوم غُدُر تستحلون الغَدْر وتفعلونه ، فبعث إليه مطرّف جماعةً من وجوه أصحابه ، فلما صارُوا فى يد شبيب ، سرّح إليه أصحابه ، فعبَرُوا إليه فى السفينة ، فأتَوْه ، فمكثوا أربعة أيام يتناظرون ، ولم يتّفِقوا على شىء ، فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفا كاده ، وأنه غير متابع له ، تعبّى للسير ، وجَمع إليه أصحابه ، وقال لهم : إنّ هذا الثقفىّ قطعنى عن رأيى منذ أربعة أيام ، وذلك أنّى هممت أن أخرُج فى جريدة من الخيل ، حتى أَلْقَى هذا الجيش المقبل من الشام ، وأرجُو أن أصادِفَ غِرّتَهم قبل أن يحذَرُوا ، وكنت أَلْقاهم منقطعين عن المِصر ، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ، ولا لهم مِصْرٌ كالكوفة يعتصمون به ، وقد جاءنى عيون [٣] أنّ أوائلَهم قد دخلوا عَيْنَ التمر ، فهم الآن قد شارفوا الكوفة،وجاءنى أيضا عُيون من نحو عَتّاب[٣] أنه نزل بحمام أَعْيَن بجماعة أهل الكوفة[٤] وأهل البصرة ، فما أقربَ ما بيننا و بينهم ! فتيسَّرُوا بنا للسير إلى عتاب .

---

(١) كلواذى : موضع قرب بغداد.

(٢) بهر سير : من نواحى بغداد قرب المدائن .

(٣) الطبرى : « عيونى » .

(٤) الطبرى : « بجماعة أهل الكوفة الصراة » .

وكان عتاب حينئذ قد أخرَج معه خمسين ألفا من المقاتلة ، وهدّدهم الحجاج إن هربوا كعادة أهل الكوفة ، وتوعّدهم ، وعَرَض شبيب أصحابه بالمدائن ، فكانوا ألفَ رجل لخطبهم وقال : يا معشرَ المسلمين ، إنّ الله عز وجلّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان ، واليوم فأنتم مئون [ومئون] (١) ، ألا وإنّى مصلٍّ الظهر ، ثم سائر بكم إن شاء الله .

فصلى الظهر ، ثم نادى فى النّاس ، فتخلّف عنه بعضُهم .

قال فروة بن (٢) لقيط : فلما جازَ ساباط ، ونزلْنا معه ، قَصّ علينا، وذكّرنا بأيام الله ، وزهّدَنا فى الدنيا ، ورغّبنا فى الآخرة . ثم أذن مؤذنه فصلّى بنا العصر ، ثم أقبل حتى أشرف على عَتّاب بن ورقاء ، فلما رأى جيشَ عتاب نزل من ساعته ، وأمر مؤذّنه ، فأذّن ثم تقدّم ، فصلّى بأصحابه صلاةَ المغرب (٣) ، وخرج عتّاب بالناس كلّهم فعبأهم ، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل .

وجعل على ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانىّ ؛ قال له : يابن أخى، إنّك شريف، فاصبر وصابر ، فقال : أما أنا فوالله لأقاتلنّ ما ثبَت معى إنسان .

وقال لقبيصة بن والق التغلبى (٤) : اكفنى الميسرة ، فقال : (٥ أنا شيخ كبير ، غايتى أنْ أثبتَ تحت رايتى، أما ترانى لا أستطيع القيام إلّا أن أقام ، وأخى نعيم بن عليم ذُو غناء ، فابعثه على الميسره . فبعثه عليها ٥) . وبعث حنظلة بن الحارث الرياحىّ ابن عمه ، وشيخ

---

(١) من الطبرى

(٢) راوى الخبر فى الطبرى

(٣) فى الطبرى : « وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيبانى » .

(٤) فى الطبرى : « وكان على ثلث بنى تغلب »

(٥-٥) الطبرى : « أنا شيخ كبير ، كثير منى أن أثبت تحت رايتى ، قد ابنت منى القيام ، ماأستطيع القيام إلا أن أقام ، ولكن هذا عبيد الله بن الحليس ، ونعيم بن عليم التغلبيان ، وكان كل واحد منهما على ثلث من أثلاث تغلب ، ابعث أيهما أحببت ، فأيهما بعثت فلتبعثن ذا حزم وعزم وغناء ، فبعث نعيم بن عليم على ميسرته » .

أهل بيته على الرجَّالة، و بعث معه ثلاثة صفوف:صف فيه الرجَّالة ومعهم السيوف،وصفٌ هم أصحاب الرماح ؛ وصفٌ فيه المرامية .

ثم سار عَتّاب بين الميمنة والميسرة يمرّ برايته ؛ فيحرّض مَنْ تحتها على الصّبر ؛ ومن كلامه يومئذ : إنّ أعظمَ الناس نصيباً من الجنة الشهداء ؛ وليس الله لأحَدٍ أمقتَ منه لأهل البغى ؛ ألا ترون عدوَّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؛ لا يرى ذلك إلا قربةً لهم ؛ فهم شرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار . فلم يجبه أحد ، فقال : أين القُصّاص يقصون على الناس ، و يحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يَرْوِى شعر عنترة ، فيحرّك الناس ؛ فلم يجبه أحد ولا رد عليه كلمة ؛ فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ والله لـكأنى بكم وقد تفرقتم عن عتاب وتركتموه يسفِى فى اسْتِهِ الريح ؛ ثم أقبل حتى جلس فى القلب ، ومعه زهرة بن حَوِيّة ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وأقبل شبيب فى ستمائة ، وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة ، فقال : إنّه لم يتخلفْ عَنِّى إلا مَنْ لا أحب أنْ أراه معى ؛ فبعث سويد بن سليم فى مائتين إلى الميسرة ، و بعث المحلّل بن وائل فى مائتين إلى القلب ، ومضى هو فى مائتين إلى الميمنة ؛ وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة ؛ حين أضاء القمر ؛ فناداهم : لمن هـذه الرايات ؟ قالوا : رايات هَمْدان . فقال:رايات طالمَا نَصرَت الحقّ،وطالما نصرت الباطل؛لها فى كل(١) نصيبٌ؛ أنا أبو المدله اثبتوا إن شئتم . ثم حمل عليهم ؛ وهم على مسنّاة أمام الخندق ؛ ففضّهم ، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق .

فجاء شبيب فوقف عليه ، وقال لأصحابه : مَثَل هـذا قوله تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) بعدها فى الطبرى : « والله لأجاهدنـكم محتسباً للخير فى جهادكم ، أنتم ربيعة وأنا شبيب ، أنا أبو المدله لا حكم إلا لله »

نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ، ثم حمل على الميسرة ففضّها ، وصمد نحو القلب ، وعتاب جالس على طِنفِسةٍ ،هو وزهرة ابن حَوِيّة ، فغشِيَهم شبيب ، فانفضّ الناسُ عن عتاب وتركوه ؛ فقال عتاب : يا زهرة ، هَذَا يومٌ كَثُر فيه العدد ؛ وقلّ فيـه الغَنَاء ، لهفى على خمسمائة فارسٍ من وُجُوه الناس ؛ ألا صابرٌ لعدوه ! ألا مواسٍ بنفسه ! فمضى الناس عَلَى وجوههم ، فلما دنا منه شبيب وَثَبَ إليه فى عصابة قليلة صبرت مَعَه ، فقال له بعضهم : إنّ عبـد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب ؛ وانصفق معه ناس كثير ، فقال : أما إنه قد فرّ قبل اليوم ، وما رأيت مثل ذلك الفتى ؛ ما يبالى ما صنع ، ثم قاتلهم ساعة ؛ وهو يقول : ما رأيتُ كاليوم قَطّ موطنا لم أبل بمثله ؛ أقلّ ناصرا ، ولا أكثر هاربًا خاذلا ؛ فرآه رجلٌ من بنى تَغْلب من أصحاب شبيب ، وكان أصاب دما فى قومه ، والتحق بشبيب ؛ فقال : إنى لأظُنّ هذا المتكلّم عتاب ابن ورقاء ، فحمَل عليه فطعنه ؛ فوقع وقُتِل ، ووطئت الخيل زهرة بن حَوِيّة ، فأخذ يذبّب بسيفه ؛ وهو شيخ كبير لا يستطيع أن ينهض ؛ فجاءه الفضل بن عامر الشيبانىّ فقتله ، وانتهى إليه شبيب ؛ فوجده صَرِيعا فعرفه ، فقال : مَنْ قتل هذا ؟ قال الفضل : أنا قتلته ؛ فقال شبيب : هذا زهرة بن حَوِيّة ؛ أما والله لئن كنتَ قُتِلتَ عَلَى ضلالةٍ ؛ لربّ يوم من أيام المسلمين قد حَسُن فيه بلاؤك ، وعظم فيه غناؤك ، ولربّ خيلٍ للمشركين هزمتَها ، وسَرِيّةٍ لهم ذعرتَها ، ومدينةً لهم فتحتَها ! ثم كان فى علم الله أن تُقتل ناصراً للظالمين .

وقتل يومئذ وجوهُ العرب من عسكر العراق فى المعركة ؛ واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر ، فقال : ارفعُوا عنهم السيف ، ودعاهم إلى البَيْعة ، فبايعه الناس عامّة من ساعتهم ؛ واحتوى على جميع ما فى العسكر ، و بعث إلى أخيه وهو بالمدائن ؛ فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين ؛ ودخل سفيان بن الأبرد الكلبىّ ، وحبيب بن عبـد الرحمن فيمن معهما

إلى الـكوفة ، فشدُّوا ظهرَ الحجاج ، واستغنى بِهِمْ عن أهل العراق ؛ ووصلته أخبار عَتّاب وعسكره ، فَصَعِد المنبر ، فقال : يا أهلَ الـكوفة ؛ لا أعزّ الله مَنْ أراد بكم العزّ ، ولا نَصَر مَنْ أراد منكم النصر ؛ اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا ، والحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، [١] ولا يقاتلنّ معنا إلّا مَنْ لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء [١] .

وخرج شبيب يريد الـكوفة ، فانتهى إلى سورا [٢] ، فقال لأصحابه : أيُّـكم يأتيني برأس عاملها ، فانتدب إليه قَطِين ، وقَعْنب ، وسويد ، ورجلان من أصحاب شَبِيب ، فـكانوا خمسة ، وساروا حتى انتهوْا إلى دار الخراج ، والعمال فيها ، فقالوا : أجيبوا الأمير ؛ فقال الناس : أيّ أميرٍ ؟ قالوا : أمير قد خرج من قِبَل الحجاج ، نريد هذا الفاسق شبيبا، فاغترّ بذلك عامل سُورَا ، فخرج إليهم ، فلما خالطهم شَهَرُوا السيوف ، وحكّموا وخَبَطُوه بها ، حتى قتلوه ، وقبضوا ماوجدوا في دار الخراج من مالٍ ، ولحقوا بشبيب .

فلما رأى شبيب البِدر ، قال : أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلمّ ياغلام الحربة ، فخرّق بها البِدر ، وأمر أن تنخَسَ الدواب التي كانت البِدَر عليها ، فمرّت رائحة ، والمال يتناثر من البِدَر ، حتى وردت الصّراة ، فقال : إن كان بقيَ شيء فاقذفوه في الماء .

***

وقال سفيان بن الأبرد للحجّاج : ابعثْنِي إلى شَبِيب أستقبله قبل أنْ يَرِد الـكوفة ، فقال : لا ؛ ماأحبّ أن نفترق حتى ألقاه في جماعتـكم ، والـكوفة في ظهرنا ، وأقبل شبيب حتى نزلَ حَمّام أعين ، ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفيّ ، فوجهه في ناس لم يكونوا شهدُوا يوم عتاب ، فخرج في ألف رجل ، حتى انتهى شبيب ليدفعه عن الـكوفة ، فلما رآه شبيب حَمَل عليه فقتَله ، وفَلّ أصحابه ، فجاءوا حتى دخلوا

(١ـ١) الطبري : « ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء » .
(٢) سورا : كورة قريبة من الفرات .

الـكوفة ، و بعث شبيب البَطِين فى عَشَرة فوارس يرتادون له منزلا على شاطىء الفرات ، فى دار الرزق ، فوجّه الحجاج حوشب بن يزيد ، فى جمع من أهل الـكوفة ، فأخذُوا بأفواه السكك ، فقاتلهم البطين فلم يَقْوَ عليهم ، فبعث إلى شبيب ، فأمدّه بفوارس من أصحابه، فعقروا فرس حَوْشب وهزموه ، فنجا بنفسه ، ومضى البَطِين إلى دار الرزق فى أصحابه ، ونزل شبيب بها ، ولم يوجّه إليه الحجاج أحـداً ، فابتنى مسجدا فى أقصى السَّبَخة ، وأقام ثلاثا لم يوجِّه إليه الحجاج أحـداً ، ولا يخرج إليه من أهل الـكوفة ، ولا من أهل الشام أحَدٌ ، وكانت امرأته غزالة ، نَذَرت أن تصلىَ فى مسجد الـكوفة ركعتين ، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران [١] .

***

فجاء شبيبٌ مع امرأته حتى أوفَتْ بنذرها فى المسجد ؛ وأشير على الحجاج أن يخرُج بنفسه إليه ، فقال لقتيبة بن مسلم : إنّى خارج ، فاخرج أنت ، فارتدْ لى معسكرا ، فخرج وعاد ؛ فقال : وجدت المَدَى سهلا ، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون ؛ فخرج الحجّاج بنفسه ، ومرّ على مكان فيه كناسة وأقذار ؛ فقال ألقُوا لى هنا بساطا ، فقيل له : إنّ الموضع قَذِر ، فقال : ماتدعونى إليه أقذر ، الأرضُ تحته طيبة ، والسماء فوقه طيبة .

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبى الورد ، وعليه تِجْفَاف [٢] ، وأحاط به غِلْمان كثير ؛ وقيل : هذا الحجاج ؛ لحمل عليه شبيب فقتله؛وقال : إن يكن الحجاج ،فقد أرَحْتَ الناس [٣] منه ؛ ودلف الحجاج نحوه حينئذ ، وعلى ميمنته مطرّف بن ناجية ، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء ؛ وهو فى زهاء أربعة آلاف ؛ فقيل له : أيّها الأمير ؛ لانعرف

---

(١) فى الطبرى . « فعلت » .
(٢) التجفاف : آلة للحرب يلبسها الفارس فى الحرب للوقاية ؛ كأنها درع .
(٣) الطبرى : « أرحتنى » .

شبيبا بمكانك ، فتنكّر ، وأخفى مكانه ؛ وتشبه به مولى آخر للحجاج فى هيئته وزيه ، فحمل عليه شبيب ، فضربه بالعمود فقتله ، ويقال إنه قال لما سقط: « أخ » بالخاء المعجمة ؛ فقال شبيب : قاتل الله ابن أمّ الحجاج ! اتقى الموت بالعبيد ؛ وذلك أن العرب تقول عند التأوه « أح » بالحاء المهملة .

ثم تشبّه بالحجاج أعْيَن صاحب حَمّام أعين ، ولبس لبسته ، فحمل عليه شبيب فقتله ، فقال الحجاج : علىّ بالبغل لأركبه ، فأتى ببغل محجّل ؛ وقيل : أيها الأمير أصلحك الله! إنّ الأعاجم كانت تتطيّر أن تركب مثل هذا البغل فى مثل هذا اليوم ؛ فقال : أدنوه منى ، فإنه أغر محجّل ؛ وهذا يومٌ أغرّ محجّل فركبه ، ثم سار فى الناس يمينا وشمالا ثم قال : اطرحوا لى عَباءة ، فطرِحَتْ له ، فنزل فجلس عليها ، ثم قال : ائتونى بكرسىّ ، فأُتِيَ به ، فقام فجلس عليه ، ثم نادى أهلَ الشام ، فقال : أهل الشام ؛ ياأهلَ السمع والطاعة ، لا يغلِبَنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقَّكم ، غُضُّوا الأبصار ، واجثوا على الرُّكَب ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسِنّة ، فجثوا على الرُّكَب ، وكأنهم حَرّة سوداء .

ومنذ هذا الوقت ركدت ريحُ شبيب ، وأذِن الله تعالى فى إدبار أمره ، وانقضاء أيامه؛ فأقبل ، حتى إذا دنا من أهل الشام عَبّى أصحابَه ثلاثة كراديس ، كَتِيبة معه ، وكَتِيبة مع سُويد بن سُليم وكتيبة مع المحلّل بن وائل ، وقال لسُوَيد : احمل عليهم فى خيلك فحَمَل عليهم فثبتوا له حتى إذا غَشِى أطراف أسنتهم ، وثبوا فى وجهه ، فقاتلهم طويلا ، فصبروا له ، ثم طاعنوه ؛ قُدُما قُدُما ؛ حتى ألحقوه بأصحابه .

فلما رأى شبيب صبرَهم ، نادى : ياسُوَيد، احمل فى خيلك فى هذه الرايات الأخرى، لعلّك تزيل أهلها ؛ فتأتِى الحجاجَ من ورائه ، ونحمِل نحن عليه من أمامه . فحمل سويد على تلك الرايات ، وهى بين جدران السكوفة فرمى بالحجارة من سطوح البيوت ، ومن أفواه السّكك . فانصرف ولم يظفروا .

ورماه عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهام ، وقد كان الحجاج جعله فى ثمانمائة رامٍ من أهل الشام ، رِدْءاً له كى لا يؤتى من ورائه، فصاح شبيب فى أصحابه :

ياأهلَ الإسلام ! إنمـا شَرَيْتمُ لله ، ومن يكن شراؤه [(١)] لله لم يضرّه ما أصابه من ألم وأذى،للهأبوكم، الصبرَ الصبر ؛ شَدّة كشدّاتِـكم الـكريمة فى مواطنـكم المشهورة .

فشدّوا شَدّة عظيمة ، فلم يزُل أهل الشام عن مراكزهم ؛ فقال شبيب : الأرضَ ! دبوّا دبيبا تحت تِرَاسكم ؛ حتى إذا صارت أسِنّة أصحاب الحجاج فوقها ، فأذْلِقوها صُعُداً ، وادخلوا تحتها ، واضرِبُوا سوقهم وأقدامهم ؛ وهى الهزيمةُ بإذن الله ، فأقبلوا يدبُّون دبيبا تحت الحَجَف : صمْدا صمْدا ، نحو أصحاب الحجاج .

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء : أيّها الأمير ؛ أنا موتور ؛ ولا أتّهم فى نصيحتى [(٢)] ؛ فأذَنْ لى حتى آتِيَهم من ورائهم ؛ فأغيرَ على معسكرهم وثَقلهم ؛ فقال : افعل ذلك [(٣)] ، فخرج فى جَمْع من مَواليه وشاكِريّته [(٤)] وبنى عمّه ؛ حتى صار من ورائهم؛ فالتقى بمصاد أخى شبيب فقتله ؛ وقَتَل غزالةَ امرأة شبيب ، وألقى النـار فى معسكرهم ، والتفت شبيب والحجّاج ؛ فشاهدا النـار ، فأمّا الحجّاج فـكبّر وكبر أصحابُه ، وأما شبيب ، فوثب هو وكلُّ راجل من أصحابه على خيولهم ، مرعوبين ؛ فقال الحجّاج لأصحابه : شُدّوا عليهم ؛ فقد أتاهم ماأرعبهم ؛ فشدُّوا عليهم ؛ فهزموهم ، وتخلّف شبيب فى خاصّة الناس ، حتى خرج من الجسر ؛ وتبعه خيل الحجّاج ، وغَشِيه النُّعاس ؛ فجعل يخفق برأسه ؛ والخيل تطلبه .

قال أصغر الخارجىّ [(٥)] : كنت معه ذلك اليوم ؛ فقلت : ياأميرَ المؤمنين ؛ التفت

(١ـ١) الطبرى : « ومن شرى الله لم يكبر عليه ماأصابه من الأذى » .

(٢) الطبرى : « فى نصيحة »

(٣) الطبرى : « ما بدالك » .

(٤) الشاكرية : جمع شاكرى ، وهو الأجير .

(٥) فى الطبرى : «قال هشام : فحدثنى أصغر الخارجى ، قال : حدثنى من كان مع شبيب .. »

فانظر مَنْ خلفك ، فالتفتَ غير مكترِث ؛ وجعل[1] يخفق برأسه ، قال : ودنَوْا منا،فقلت: ياأميرَ المؤمنين ؛ قد دنا القوم منك ، فالتفت والله ثانيــة غــيرَ مكترث بهم ، وجعل يخفِق برأسه ؛ وبعث الحجاج خيلا تركُض تقول : دعوه يذهب فى حرق الله ؛ فتركوه وانصرفوا عنه[2] .

ومضى شبيب بأصحابه ؛ حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا دَيْراً هناك ، وخالد بن عتاب يَقْفُوهم ، فحصرهم فى الدير ؛ فخرج شبيب إليه فهزمه وأصحابه ، نحوا من فرسخين، حتى ألْقَى خالد نفسه فى دجلة هو وأصحابه بخيولهم ؛ فمر به شبيب ؛ فرآه فى دجلة ، ولواؤه فى يده ، فقال : قاتله الله فارسا ! وقاتل فرَسه فرسا هذا أشدُّ الناس قوة ، وفرسه أقوى فرس فى الأرض ؛ وانصرف ، فقيل له بعد انصرافه : إنّ الفارس الذى رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء، فقال : معرق فى الشجاعة! لو علمت لأقحمت خَلْفه ؛ ولو دخل النار.

ثم دخل الحجاج الـكوفة بعد هزيمة شبيب ، فصعد المنبر ، وقال : والله ماقُوتل شبيب قطّ قبل اليوم ؛ ولّى هاربا ، وترك امرأته يُـكْسر فى استها القصب .

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه فى أثره فى ثلاثة آلاف من أهل الشام ، وقال : احذر بيَاته ، وحيثما لقيته فنازله ؛ فإنّ الله تعالى قد فَلّ حَدّه ، وقصم نابه ، فخرج حبيب فى أثرِه ، حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال : أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب؛ مَنْ جاءنا منكم فهو آمن ، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة فى دين الخوارج ، ممن هزَّه[3] القتال ، وكرهه ذلك اليوم فيؤمن . وقبل ذلك كان الحجّاج نادى يوم هُزِم شبيب : من جاءنا فهو آمن ، فتفرق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه .

---

(١) الطبرى : « ثم أكب يخفق برأسه » .

(٢) الطبرى : « ورجعوا » .

(٣) الطبرى : « هزه القتال » .

و بلغ شبيباً منزلُ حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه ؛ فقال يزيد السَّكسكى[1] ، كنت مع أهل الشام بالأنبار ، ليلةَ جاءنا شبيب ، فبيتنا ، فلما أمسينا جمعَنا حبيب بن عبد الرحمن ، فجعلَنا أرباعا ، وجعل على كلِّ رُبْعٍ أميرا ، وقال : لنا[2] : لِيحْمِ كلَّ رُبْعٍ منكم جانبَه ، فإن قُتِلِ هذا الربع ، فلا يُعِنْهم الرُّبْع الآخر ، فإنه بَلَغنى أنّ الخوارج منكم قريب فوطّنُوا أنفسَكم على أنكم مبيتون فمقاتلون ، قال : فما زِلنا على تعبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيَّتنا ، فشدّ على[3] رُبْعٍ مِنّا فصابرهم طويلا ، فما زالت قدمُ إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر فقاتلهم طويلا فلم يظفر بشىء ، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبْعاً رُبْعاً ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل[3] ، ولصِق بنا[4] حتى قلنا : لا يفارقنا ، ثم ترجّل فنازَلَنا راجلا نزَالا طويلا هو وأصحابه ، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدى والأرجل ، وفُقِئت الأعين ، وكَثُرت القتلى ، فقتلنا منهم نحو ثلاثين ، وقَتلوا منا نحو مائة ، وايمُ الله لو كانوا أكثر من مائتى رجل لأهلكونا ، ثم فارقونا وقد مَلِلْناهم وملّونا ، وكرهناهم وَكرهونا ، ولقد رأيتُ الرجل مِنّا يضرب الرجل منهم بالسيف ، فما يضرّه من الإعياء والضعف ، ولقد رأيتُ الرجل منّا يقاتل جالساً ينفح بسيفه ، مايستطيع أن يقومَ من الإعياء والبُهْر . حتى ركب شبيب ، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه : اركَبُوا ؛ وتوجه بهم مُنْصرِفاً عنا .

فقال فروة بن لقيط الخارجى ـ وكان شهد معه مواطنه كلّها ـ قال لنا ليلتئذ ، وقد رأى

---

(١) فى الطبرى : « قال أبو مخنف ، فحدثنى أبو يزيد السكسكى قالَ » .

(٢) الطبرى : « ليجز كل ربع » .

(٣ـ٣) الطبرى : « فشد على ربع منا ، عليهم عثمان بن سعيد العذرى ، فضاربهم طويلا ، فما زالت قدم الإنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وقد جعل عليهم سعد بن بجل العامرى ، فقاتلهم فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الربع الآخر ، وعليهم النعمان بن سعد الحميرى ، فما قدر منهم على شىء ، ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقيصر الخثعمى ، فقاتلهم طويلا ، فلم يظفر بشىء ، ثم أطاف بنا يحمل علينا ، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل » .

(٤) الطبرى : « وألز بنا » .

بنا كآبة ظاهرة ، وجراحاتٍ شديدة: ماأشدّ هذا الذى بنا لو كنا نطلب الدنيا ! وما أيسرَ هذا فى طاعة الله وثوابه ! فقال أصحابُه: صدقت ياأمير المؤمنين .

قال فَرْوة بن لقيط : وسمعتُـه تلك الليلة يحدِّث سوَيد بن سُلَيم ، ويقول له : لقد قتلت منهم أمسِ رَجُلَين من أشجع [1] الناس ، خرجت عشيَّة أمس طليعة لـكم ، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلُوا قرية يشترون منها حوائجهم ، فاشترى أحدُهم حاجته ، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه ، فقال لى : أراك لم تشترِ عَلَفاً [2] . فقلت : إنّ لى رُفقاء قد كَفَوْنى ذلك ، ثم قلت له : أين تَرَى عَدُوَّنا [هذا نزل] [3] ؟ فقال : بلغنى أنه قد نَزَل قريبا منّا ، وايمُ الله لوَدِدْتُ أنى لقيتُ شبيبهم هـذا ، قلت : أفتحِبّ ذلك؟ قال : إى والله، قلت : فخذ حِذْرَك ، فأنا والله شبيب ، وانتضيتُ السيف ، فخرّ والله ميتا [فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قدمات] [3] فانصرفت راجعا ، فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهبُ هذه الساعة التى يرجع فيها الناس إلى معسكرهم ؟ فلم أكلِّمه ، ومضيت ، فنفرتْ بى فرسى ، وذهبت تتمطَّر [4] ، فإذا به فى أثَرِى حتى لحقنى ، فعطفت عليه ، وقلت : مابالك ؟ قال : أظنك والله من عَدُوِّنا . قلت : أجل والله ، قال : إذاً لاتبرح حتى أقتلك أو تقتلنى ؛ فحملت عليه وحَمَل علىّ ، فاضطر بنا بسَيْفيْناَ ساعة،فوالله مافَضلتُه فى شدّة نفَس ولا إقدام ، إلّا أنّ سيفى كان أقطع من سيفه فقتلته .

* * *

وبلغ شبيبا أنّ جند الشام الذى مع حبيب حملوا معهم حَجَراً ، وحلفوا لايفرّون حتّى يفر هذا الحجرُ ، فأراد أن يُكذِّبهم ، فعمَد إلى أربعة أفراس ، وربط فى أذنابها تِرَسَة ،

---

(١) الطبرى : « قتلت منهم أمس رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس » .

(٢) الطبرى : « كأنك لم تشتر علفا » .

(٣) من الطبرى

(٤) تتمطر : تسرع فى جريها .

فى ذنب كل فرس تُرْسين ثم نَدَب ثمانية نفر من أصحابه ، وغلاما له يقال له حيان ـ كان شجاعا فاتكا ـ وأمره أن يحمل معه إدَاوةً من ماء ،ثم سار ليلا حتى أتى ناحية منعَسْكرِ أهل الشام ، فأمر أصحابه أن يكونوا فى نواحى العسكر الأربع ، وأن يكون مع كلٍّ رجليْن فرس ؛ ثم يلبسوها الحديد حتى تَجِدَ حَرّه ، ثم يخلُّوها فى العسكر ، وواعدهم تَلْعَةً قريبة من العسكر ، وقال : مَنْ نجا منكم ؛ فإن موعدَه التَّلعة ؛ فكره أصحابُه الإقدام على ماأمرهم ؛ فنزل بنفسه حتى صَنَع بالخيل ماأمرهم به ؛ حتى دخلتْ فى العسكر ، ودخل هو يتلوها ، ويشدّ خلفها شَدًّا محكما ؛ فتفرقت فى نواحى العسكر ، واضطرب الناس ، فضرب بعضُهم بعضا ، وماجوا ، ونادى حبيبُ بن عبد الرحمن : ويحكم إنها مكيدة ! فالزموا الأرض ؛ حتى يتبين لكم الأمر ؛ ففعلوا ، وحصل شبيب بينهم ، فلزم الأرضَ معهم ، حتى رآهم قد سكنوا ، وقد أصابَتْه ضربة عمود أوْهَنَتْه .

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم خرج فى غُمارهم ، حتى أتَى التَّلْعة ، فإذا مولاه حيان ؛ فقال : أفرغ وَيْحَك على رأسى مِنْ هـذه الإداوة ! فلمّا مدّ رأسه ليَصُبّ عليه من الماء ، هَمّ حيان بضرب عنقه ؛ وقال لنفسه : لا أجِدُ مكرمة لى ، ولا ذِكْراً أرْفَعَ من هذا فى هذه الخلْوة ، وهو أمانى من الحجاج ؛ فأخذته الرِّعْدة حين هَمّ بما هم به ؛ فلما أبطأ عليه ، قال له : وَيحك ! ما انتظارُك ! بحلِّها ناولْنِيها وتناول السِّكين من مَوْزِجه[1] فخرقها به، ثم ناوله إيّاها ، فأفرغ عليه من الماء، فكان حيّان بعد ذلك يقول : لقد هممت فأخذَتْنِي الرِّعدة فجبُنت عنه ؛ وما كنتُ أعهد نفسى جبَانًا .

* * *

ثم إنّ الحجاج أخرج الناس إلى شبيب ، وقَسّم فيهم أموالًا عظيمة ، وأعطى الجرْحَى وكلّ ذى بلاء ، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسيرَ بهم ، فشقّ ذلك على حبيب

---

(١) الموزج : الخف .

ابن عبد الرحمن ، وقال : تبعث سفيان إلى رجل قد فللتهُ ، وقتلتُ فرسانَه ! وكان شبيب قد أقام بِكَرْمَان حتى جبر واستراش هو وأصحابه ؛ فمضى سفيان بالرِّجال واستقبله شبيب بدُجيل الأهواز ؛ وعليه جسر معقود ، فعبر إلى سفيان ، فوجده قد نزل بالرجال ، وجعل مضاض[1] بن صيفيّ على خيله ، و بشر بن حيان[1] الفِهْرِيّ عَلَى ميمنته ، وعمر بن هبيرة الفزارى على ميسرته ، وأقبل شبيب فى ثلاثة كراديس ! هو فى كَتِيبة ، وسويد بن سليم فى كَتيبة ، وقَعْنب فى كَتِيبة ، وخلف المحلّل فى عسكره ؛ فلما حَمَلَ سُوَيد وهو فى ميمنته على ميسرة سُفيان وقَعنب وهو فى ميسرته على ميمنة سفيان ، وحَمَل هو على سفيان ، ثم اضطر بوا مليا ، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذى كانوا فيه .

فقال يزيد السكسكى ـ وكان من أصحاب سفيان يومئذ : كَرّ علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرّة ، ولا يزول من صفنا أحدٌ ، فقال لنا سفيان : لا تحملوا عليهم متفرقين ؛ ولكن لتزحفْ عليهم الرجال زحفا ، ففعلنا ، وما زلنا نطاعِنُهم حتى اضطررناهم إلى الجسر ، فقاتلونا عليه أشدّ قتال يكون لقوم قَطّ . ثم نزل شبيبٌ ، ونزل معه نحو مائة رجل ؛ فما هو إلا أن نَزَلُوا حتى أوْقَعُوا بنا من الضَّرْب والطعن شيئا ما رأينا مثله قط ؛ ولا ظنناه يكون ؛ فلما رأى سفيان أنّه لا يقدر عليهم ، ولا يأمَنُ ظفرهم ، دعا الرماة فقال : ارشُقُوهم بالنَّبْل ؛ وذلك عند المساء ، وكان الالتقاء ذلك اليوم نصفَ النهار ، فرشَقهم أصحابُه ؛ وقد كان سفيان صَفّهم على حِدَة ، وعليهم أمير ، فلما رَشَقُوهم شَدُّوا عليهم ، فشدَدْنا نحن ، وشغلناهم عنهم ؛ فلما رأوا ذلك ركب شبيبٌ وأصحابه ، وكَرّوا على أصحاب النَّبْل كَرّة شديدة ، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين راميا ، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح ، حتى اختلط الظلام ، ثم انصرف عنا ، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه :

---

(١) انظر الطبرى ٧ : ٢٥٦ .

يا قوم ، دعوهم لا تَتّبعوهم ؛ يا قوم دَعُوهم لا تَتّبعوهم حتى نُصبِّحَهم . قال : فكففنا عنهم وليس شيء أحبّ إلينا من أن ينصرفوا عنا .

قال فروة بن لقيط الخارجى : فلما انتهينا إلى الجسر . قال شبيب: اعبرُوا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى ، قال : فعبرنا أمامه ، وتخلّف فى آخرنا ، وأقبل يعبُر الجسر ، وتحته حصان جَمُوح ، و بين يديه فرس أُنثى ما ذيانة ، فنزا حصانُه عليها وهو على الجسر ؛ فاضطربت الماذيانة ، وزَلّ حافر فرس شبيب عن حَرْف السفينة ، فسقط فى الماء ، فسمعناه يقول لما سقط : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [١] واغتمس [٢] فى الماء ثم ارتفع فقال : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [٣] ثم اغتمس فى الماء ، فلم يرتفع .

هكذا روى أكثرُ الناس . وقال قوم : إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه فى الوقائع التى كان يهزم الجيش فيها ، وكانت بيعتُهم إياه على غير بصيرة ، وقد كان أصاب عشائرهم وساداتهم ؛ فهم منه موتورون، فلما تخلّف فى أُخْرَيات الناس يومئذ ، قال بعضهم لبعض : هل لكم أنْ نقطع به الجسر ، فندرك ثأرنا الساعة ! فقالوا : هذا هو الرأى ، فقطعوا الجسر ، فمالت به السفينة ، ففزِع حصانُه ونَفَر ، فسقط فى الماء وغَرِق .

والرواية الأولى أشهر ؛ فحدث قومٌ من أصحاب سُفْيان ، قالوا : سمعنا صوتَ الخوارج يقولون : غَرِق أمير المؤمنين ، فعبَرْنا إلى عسكرهم ، فإذا هو ليس فيه صافر [٤] ولا أثر ؛ فنزلْنا فيه ، وطلبنا شَبيبا حتى استخرجناه من الماء ، وعليه الدِّرْع ؛ فيزعم الناس أنهم

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٢

(٢) الطبرى : « ارتمس » .

(٣) سورة يس آية ٣٨

(٤) هو مثل ، يقال : « ما بالدار من صافر » أى أحد .

شقوا بطنه وأخرجوا قَلْبَه فكان مجتمعا صُلْبا كالصخرة ؛ وأنه كان يضرب به الأرض فينبُو ، ويثب قامة الإنسان .

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدّق أحداً نعاه إليها ، وقد كان قيل لها مرارا إنه قد قتل فلا تقبل ، فلما قيل لها : إنه قد غرق بكتْ ؛ فقيل لها في ذلك ، فقالت : رأيت في المنام حين ولدْتُه أنه خرج من فَرْجى نارٌ ملأت الآفاق ، ثم سقطت في ماء فخمدت . فعلمت أنه لا يهلِك إلا بالغرق[1] .

* * *

وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله[2]

---

(١) وفى رواية أخرى ذكرها الطبرى ٧ : ٢٥٧ : « كان شبيب ينعى لأمه ، فيقال قتل ، فلا تقبل ، فقيل لها : إنه غرق ، فقبلت وقالت : إنى رأيت حين ولدته أنه خرج منى شهاب نار ، فعلمت أنه لا يطفئه إلا الماء » .

(٢) هذا آخر ماورد فى نسخة (ج) ، وجاء فى آخر نسخة (ب) : « وهذا آخر الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة ، ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الأنبياء وسند الأصفياء محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

فهرس الموضوعات

صفحة

* كتب الرقم خطأ : « ٥٧ » .

* كتب الرقم خطأ : « ٥٨ » .

استدراك وتعليق (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	
١٦	١٦	المقدمة صواب كتابة الشطر الثانى من البيت :
		* سيكرَمُ مثواه وَيَعْذُبُ شِربُهُ *
١١٩	١٧	صواب كتابة البيت :
		من فوقِ عرشٍ جالسٍ قد حَطَّ رِجْـــلَيْهِ إلى كُرْسِيِّهِ المَنْصُوبِ
٢٥٤	١١	رواية البيت فى كتاب صفين :
		* لَمَّا حَكَى حُكْمَ الطَّوَاغيتِ الأُوَلْ *
٢٨٠	١٩	الأجود فى كتابة البيت :
		* ويعشبُ جنبَاهُ تَموتُ الضَّفادِعُ *
٢٩٩	٢٢	صواب كتابة البيت :
		أقولُ للنَّارِ وهِى توقَدُ لِلعَرْ ضِ ذريهِ لا تَقْرَ بِى الرَّجُلَا
٣٢٧	١١	رواية البيت كما فى حماسة التبريزى :
		* لترجِعَهُ يوماً إلَىَّ الرَّواجِعُ *
٣٣٦	١٢	البيت من البحر الـكامل. والأجود أن يكتب هكذا :
		* لِمَنِ الصبىُّ بجانبِ البَطْحَا *

* * *

(*) انظر ماسبق فى آخر الجزء الثانى والثالث .

الجزء الثانى

الصفحة	السطر	
٧٧	٦	الصواب « كالدِّرع والَحجفة » ، والحجَفة : ضرب من التّرسة ؛ وقيل : هى من الجلود خاصة .
٩٢	١٢	المشهور « صلَح » ، بفتح اللام ؛ وحكى الفراءعن أصحابه : « صَلُح » أيضا بضم اللام . راجع الصحاح .
٩٣	٧	صواب العبارة : « أخذه ابن نباتة مصالتةً » ؛ والمصالتة عند الشعراء أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى ؛ وهى من أقبح السرقات الشعرية ؛من الصِّلْت،بمعنى اللص ،وانظر الأغانى٧:١٥٥ (طبعة الدار).
١١٩،١١٨		كتاب عقيل بن أبى طالب إلى أخيه على وردّ علىّ عليـه ؛ انظرهما فى الأغانى ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ؛ نشرة دار الثقافة ببيروت .
١٥٣	١١	صواب العبارة : « ولم تقِدْ من نفسك مَنْ ظلمته » ؛ وانظر تاريخ الطبرى ١ : ٢٩٥٥ (طبع أوربا) .
١٥٥	٥	صواب العبارة : « هـذا ماأمر به طلحة » ؛ وانظر تاريخ الطبرى ١ : ٣٠٠٠ (طبع أوربا) .

* * *

الجزء الثالث

الصفحة	السطر	
١١٨	٩	الصواب : واسمه مالك بن عبقر بن إراش، بالكسر ؛ وانظر تاج العروس.
١٥٨	١٤	الصواب : «لقد علمت وما الإشراف» ، والإشراف هنا الحرص ؛ كذا فسره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .
١٦٠	٧	البيتان وقبلهما بيتان غيرهما فى الحيوان ٥ : ٤٨٠ ؛ ورواية البيت الأول فيه : يارَوْحَ مَنْ حَسَمَتْ قناعَتُهُ سببَ المطامِعِ من غدٍ وغدِ والبيت الثانى ينسب لأبى نواس ؛ من قصيدة له فى ديوانه ١٩٣ .

* * *

الجزء الرابع

٤٨	١٦	صواب كتابة البيت: * وَخاتَمُ الأُنبياءِ بَعْدَ الرُّسْلِ * والبيتان الأولان فى الإصابة ٣ : ٨٧ ؛ منسوبان إلى عبد الله بن يزيد ابن أصرم الهلالى ؛ وهى أيضا فى مجمع الزوائد ٩ : ٢٧١ ؛ من غير نسبة؛ ورواية البيت الثالث فيه : * وَخاتَمُ الرُّسْلِ وَخيرُ الرُّسْلِ *
٢٠١	٣	تكتب العبارة هكذا : « ياخيلِ الله اركبى » ؛ بكسر اللام من كلمة « خيل » على اللحن .

تصويبات مطبعية (*)

الجزء الأول

الصفحة	السطر	الصواب
١١	٤	تمثّل
١٤	١٤	الرُّبَدُ
٢٠	١٣	من العاشر إلى الخامس عشر
٢٠	١٧	والمجموعة
		***
٣٧	٢١	نخبة الأخبار
٥٤	١٠	وندّوها
١٤٣	١٠	الحارث بنِ عبدالمطلب

الصفحة	السطر	الصواب
١٤٩	١٤	شرحبيل
١٩٢	١٦	لا والّذى
٢٠٦	٢	كتاب أبى جعفر بنِ قبّة
٢٥٦	٩	الضَّبِّىُّ
٢٧٨	١٤	من لم تَسَعْهُ
٢٨٢	٤	عبد الله بن قتيبة
٢٩٢	٢٢	قريعٍ
٣٣٥	٥	صاحبِ الْعِيْر
٣٤٢	٢	الظُّعُن

***

الجزء الثانى

الصفحة	السطر	الصواب
١٤	١٧	فأنّى
١٦	١٧	قدِم
١٧	١٩	الأغانى ١٧ : ٦٩ (ساسى)
٤١	٥	أَيقنتُ
٤٥	٨	على أبى فَصِيل
٤٧	٢٢	فأمر أبو بكر
٥٦	٢٢	شَدّه
٧٩	١٤	يَنْصَرِمْ
٨٥	٩	يطهّر
٩٢	٧	عليه السَّلامُ

(*) انظر ماسبق فى آخر الجزء الثانى والثالث

الصفحة	السطر	الصواب
١١٣	٣	لهمْ شَعَرٌ
١٢٠	١٧	شراف
١٥٠	٩	من عَمَلِ مروان
١٥٠	١٥	أَلْبَسْنِيه
١٥٥	٢	فأخَذَ
١٥٥	٤	ثم رَجَع
١٥٧	٤	إلا أنّى
١٥٧	١٥	كنانة بن بشر
١٥٧	٢١	ابن الأنبارى
١٦٠	١٤	البرجمىّ
١٦٧	٥	ولِيتُماه
٢٠٠	٩	جعفر بن أبى طالب

***

الجزء الثالث

الصفحة	السطر	الصواب
٧	٧	دينارٍ
٧	٨	فلم أرجِعْ
٩	١٠	على الهدى
١٥	٢	تحذف كلمة «أن» المكررة
١٥	١٨	فكيفَ
١٧	١٣	النَّخعِىّ
١٨	١٣	نفِدَتْ
١٨	٢٢	لقرنْتَ
٢٠	٧	أحْيِ نَفْسَك
٢٠	٨	وأنَّ الوليد
٢٠	١١	فى أنّه
٢١	٣	الحكَمَ
٢٢	١٧	إنى أتّهِمك
٢٥	٦	ليحرَج ويحوَج
٢٨	١٧	أحدَ
٣١	١٧	لأَن أشق
٣٢	٤	والوقيعة
٣٥	٣	المِسْوَر
٣٧	١١	المِسْوَر
٤٤	١	فكسرَ ضِلَعا
٤٦	١٢	القراءة

الصفحة	السطر	الصواب
٤٨	٦	ولَوجبَ أن يكون
٤٨	١٤	لما نُقِم عليه ضَرْبُه
٧٨	١٢	أكابده
٨٠	١٥	خَلّة
٨١	١	ابن أبي طالبٍ
١٠٨	١١	مِنْ عذاب الله
٢١١	١	وَضَرْبِ الرقابِ

* * *

الجزء الرابع

الصفحة	السطر	الصواب
٥٤	١	صواب كتابة رقم الخطبة هو (٥٦)
١٢٩	١	صواب كتابة رقم الخطبة هو (٥٧)